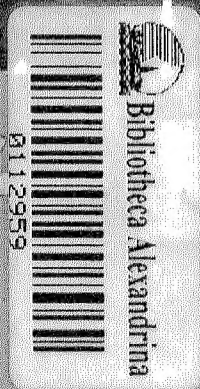


ورقة التصحيح

عبد النعم صبي



❶ تصميم الغلاف : الفنان مكرم شحاتة

❷ الأعداد الفنية : امين بشسبير

محمد ناجح صديق

عبد السلام أبو العلا

الأهداء

الى الذين ناضلوا من اجل مصر ...
الى الذين دفعوا دماءهم تمنا لهذه الأرض ...
الى الشباب الدائم ...
الى الاجيال القادمة ...
الى صناع المسيرة التي اعادت الى مصر روحها العظيمة ...
الى صناع ١٥ مايو ٧١ ، وصناع ملحمة أكتوبر ١٩٧٣ ...
الى الأبطال الذين يحملون اقدارهم ومصائرهم على اكفهم من اجل مصر ..
الى الذين اعادوا البسمة رائقة على شفתי مصر ...
والى الذين اعادوا الامل الى قلب هذا الوطن ...
الى مصر أكتوبر : الى مصر الغد ..
الى مصر ، بلا احقاد ، وزجاج أزرق ، ونفوس مريضة ...
الى كل الشرفاء على أرض بلادنا ...
الى كل الذين حولوا حنظل ومرارة الهزيمة الى انتصار وامل وتقدم ...
الى روح مصر العظيمة ، التي قاست ، وعانت ، وتآلمت ، وبكت الجرح والدم ، لكنها ، ابدا لم تستسلم .. بل عادت من جديد ، بانفاسها المعطاءة ، بقلبها العظيم ، لتلهم ابناءها اجمل اللحظات والأيام التي لم نعيشها بعد ...
الى فارس الامل ، الذي انجبته مصر المعطاءة السخية ، وافرزته هذه البلاد العظيمة : الى محمد أنور السادات ، البطل ، المناضل ، المعلم ، الإنسان ...
الى مصر .. كل مصر : الام ، الامل ، الحلم ، الحب ...

عبد المنعم صبي

مقدمة

السادات .. فارس الأمل

« اذا خيمت العتمة ، واستشرى الظلام ، واصبح الفهر
والآلم معيارا وقانونا ، وضاعت معالم الطريق من عين البشر
في متاهة الزمن ، فلا بد من مخلص للعذاب ، لينفخ بانفاسه
الملتهبه في خيمة الظلام ، ويبدد العتمة ، فيبدو الطريق
شمسا ، واضحا ، تشرق على اعتابه آمال الجماهير ، وحلم
الناس ... فارس الامل »

الكاتب البرازيلي : جورج امادو

يدهش القارئ ، الذى لم يتعود أن يقرأ لى الا القصص
والمقالات والدراسات والكتب الأدبية والنقدية ، أن يقرأ لى
كتابا فى السياسة ، بل قد يتساءل وعلى وجهه امارات
الدهشة : لماذا يقحم أديب وناقد نفسه فى مجال الفكر

قد

السياسى ؟ أليس هذا المجال مقصورا على المنظرين والمفكرين والسياسين
والأيديولوجيين ؟ !

وأنا أغفر ، لهذا القارئ هذا السؤال ، بل وهذه الدهشة ، فهو لم يتعود
أن يرى كتابا لنجيب محفوظ عن قائد أو مفكر سياسى ، لأنه عوده على
قصصه ورواياته من « زقاق المدق » الى « الكرنك » ، وكذلك لم ير توفيق
الحكيم أو يوسف السباعى أو يحيى حقى أو يوسف ادريس ، يكتبون
مؤلفا عن نهرو أو تيتو أو عبد الناصر أو ماوتسى تونج .. بل ، وحتى هذا
القارئ ، أيضا ، لم ير كتابا روائيا أو قصيصا أو ناقدنا ينبرى فى الكتابة
عن قائد أو زعيم سياسى ، فلم ير ، مثلا ، جون شتيايك ، الروائى الأمريكى
الذى كتب : « فى معركة غامضة » ، و « الى اله مجهول » ، و « عناقيد
الغضب » ، و « فيران ورجال » ، و « اللؤلؤة » ، و « تورتيلا فلات »
و « شرق عدن » ، لم ير كتابا مثل هذا يؤلف كتابا عن ابراهام لنكولن أو
تاليران أو بوناپرت أو هتلر ..

وكذلك لم ير كتابا تشغله السياسة مثل الروائى ارنست همنجواى ،
يتجه الى كتابة مؤلف عن تشرشل أو روزفلت أو لنكولن .. وحتى الكتاب
السوفيت ، وعلى رأسهم روائى مثل ميخائيل شولوخوف ، الذى كتب :
« نهر الدون الهادى » ، و « الأرض العذراء » ، و « مصير انسان » ، لم

ير القارئ مثل هذا الكاتب القصصى - وهو عضو الحزب الشيوعى
السوفيتى - يؤلف كتابا عن لينين أو الماركسية - اللينينية !

لكن هذا لا يلغى أن الكثيرين من الأدباء والفنانين كتبوا عشرات
المؤلفات عن الساسة والزعماء ، بل قد جاءت مؤلفات هؤلاء الأدباء عمن
كتبوا عنهم من ساسة ، أكثر صدقا من الكتاب السياسيين ، عتاة التنظير
السياسى أنفسهم ، ولاقت رواجاً ونجاحاً بصدقها إلى غير حدود ، ونذكر
هنا على سبيل المثال لا الحصر : كتاب اميل لودفيج عن « نابليون بونابرت » ،
وكتاب ستيفان زفايج عن « بونابرت » ، وكتاب جان بول سارتر عن فيديل
كاسترو « عاصفة على السكر » ، وكتاب سيمون دى بوفوار عن الأوضاع
فى الصبن « الزحف المقدس » ، وكتاب البير كامى عن الحركة الثورية فى
أمريكا اللاتينية « حالة حصار » .

هذه مجرد أمثلة ، فقط ، أذكرها ..

أذكرها ، لا لأؤكد حتمية الأديب فى أن يكتب فى السياسة أو عن
السياسة . بل أذكرها ، لأؤكد أن الفن عموماً لا ينفصل عن السياسة ،
وكذلك السياسة لا تنفصل عن الفن ، وكل منهما مكمل للآخر ، ويدوان معاً
كالجسد والروح فى الوجود ، الذى يعطى الدفعة والحركة والحياة .. وحتى
لو لم تكن الروايات والقصص تحمل داخلها وبشكل مباشر موضوعاً سياسياً
فهى فى المدى القريب أو البعيد تعطى مضموناً فكرياً وسياسياً ، وتحدد
موقف الأديب من الجماهير .. وحتى لو كان الأديب ، ينكر صلاته بالسياسة ،
ويعان بصوت عال وبكل ما ملك من عقيرته : « بأنه لا يهتم بالسياسة ، وأنه
يكتب فناً فحسب » ، فهذا فى حد ذاته يعلن عن موقف سياسى بالنسبة له ..

وفى الحقيقة ، أننى لم أقدم على كتابة هذا المؤلف ، حباً فى الكتابة
السياسية ، بالقدر الذى دفعنى الى كتابة هذا الكتاب حرصى على أن أسجل
انطباعاتى وأفكارى ورؤاى لمصر فى فترة من أعظم فترات حياتها ، ومن خلال

القائد والمعلم والبنطل والانسان : محمد أنور السادات الذى لم يعبر بمصر ، فقط ، من سنوات هزيمتها ومرارتها الى الانتصار والأمل ، بل عبر بمصر الى روحها التى كانت تهيم وتثبى فى ظلال رمادية آسياه وخزافى زرقاء من آثار جرح يونيو ١٩٦٧ ، وما تراكم عليه وحوله من آلام وصديد وبلاء .. عاد بمصر الى روحها ، لتنفس ، وتتحرك ، وتهض ، وتعلو هامتها فى طريق الشمس ، فكان فارس الأمل المرتقب ، بعد سنوات من الضبابية وعدم وضوح الرؤية والعتامات . انه على حد تعبير الكاتب الروائى البرازيلى « جورج أمادو » وهو يتحدث عن « فارس أمله » فى روايته الشهيرة : « المخلص من الأحزان لوطنى المحزون ، المكلم ، أرمى . التى طالما قاست القهر والآلام .. البرازيل ، التى داسها المستعمر ، والمتسلق ، والانتهازي ، والمتآمر .. هذا البلد العزيز فى حاجة الى فارس أمل ، ليخلص الحبيبة من سجنها .. فاذا خيمت العتامات ، واستشرى الظلم ، وأصبح القهر والألم معيارا وقانونا ، وضاعت معالم الطريق من أعين البشر فى متاهة الزمن ، فلا بد من مخلص للعذاب ، لينفخ بأنفاسه الملتهبة فى خيمة الظلام ، ويبدد العتامات ، ويبعد الطريق مشمسا ، واضحا ، تقف على أعتابه آمال الجماهير ، وحلم الناس .. فارس الأمل » .

احساسى بمصر ، وهى تنفض عن كاهلها ركام الماضى الحزين ، ومرارة الهزيمة ، وتسقط عن صدرها جدار الخوف والرعب والفرع ، الذى ساد وجهم على العرب والأفئدة والوجدان طوال الفترة الماكارثية التى ميزت مناخ ما قبل مايو ١٩٧١ ، وتفجر ثورة التصحيح بمبادئها وقيمتها وأفكارها العظيمة فى ١٥ مايو ٧١ ، وما أعقب هذا التفجر العظيم والتجديد لثورة يوليو ١٩٥٢ — بعد أن كانت قد مزقت أوصالها واهترأت مبادئها وتعاليمها وتمرغت فى الوحل الى الدرجة التى أوصلتها الى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ثم ما حدث كنتيجة طبيعية للتصحيح من انتصارات فى أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ ، وما أعقب هذه الانتصارات الملحمية من مكاسب ومنجزات ثورية

على المستوى الداخلى (فى الجبهة الداخلية ، وبين صفوف الجماهير) ، وعلى المستوى القومى (فى الجبهة العربية ، وتلاحم ووحدة صفوفها وتماسكها) ؛ وعلى المستوى العالمى (فى مجالات التحرك الخارجى فى كل مكان من العالم بين الشرق والغرب والدول الصديقة ، واكتساب ارضيات عظيمة من الأصدقاء ، داخليا ، وعربيا ، وعالميا) كل ذلك دفعنى الى كتابة هذا المؤلف ، فلم أقو على الاحتفاظ بهذه الخواطر والانطباعات والرؤى داخلى ، دون أن أسجلها للقارىء ، وأنا مثله قد عانيت ، الأمرين ، فى ظروف الهزيمة ، بل وما قبل الهزيمة ، من قهر ومعاناة وعذاب وجراح ...

ومنهجى الذى حاولت اتباعه فى هذا الكتاب ، ينطلق من أرضيتين أساسيتين : أولا .. أن مصر منذ ١٩٧١ حتى الآن ، عاشت وتعيش أعظم اللحظات فى تاريخها المعاصر ، وإن الوجه المشرق لهذه العظمة هو وجه فارس الأمل : أنور السادات ، الذى يعتبر ، بحق ، افراز طبيعى لأخلص وأعظم وأتقى وأبل ما فى الشعب المصرى من ثورية ونضال وأصالة ، وبساطة وعمق ، ورغبة فى الخير من أجل السير بالبلاد الى آفاق رحبة تعطى الأمان والحياة لكل الناس .. فالسادات امتداد حى لنضال الشعب المصرى فى تحركه الثورى ، لا منذ ظروف الحرب العالمية الثانية ، عندما كان يناضل ضد قوى الاحتلال والرجعية فحسب ، بل هو امتداد لشورات وانتفاضات وافكار ثورية تحركت على أرض مصر منذ تفتح الوعى القومى ، منذ ثورة عمر مكرم وتحركات جماهير مصر ضد الحملة الفرنسية على مصر بين عامى ١٧٩٨ و ١٧٩٩ ، ومنذ تحركات مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد ، ومنذ ثورات وتحركات ١٩١٩ و ١٩٣٥ و ١٩٤٦ و ١٩٥١ ..

ولا أبالغ اذا قلت ، وفى ثقة ، أنه افراز ونتاج حضارى وفكرى عمره سبعة آلاف سنة ، يمثل خير القيم ونبل الانسان ، الذى يبغى الخير لمواطنيه ولأهل مصر ، محاولا تخليصهم من ظروف القهر والضغط ، الى ظروف يتاح فيها للمواطن أن يعمل فى أمان ، وبلا خوف ، فى مناخ تسود فيه

الحريات والديمقراطية ، من أجل أن يتيسر لهذا المواطن فرصة التحرك للبناء والتقدم ، وحتى يشارك في تغيير واقعه الى الأكمل والأسمى والأفضل وبما يتمشى مع منطق متغيرات العصر .

وقد يعتقد القارئ ، لأول وهلة ، ومن مجرد قراءة عنوان الكتاب : « السادات .. وثورة التصحيح » ، أنني أؤرخ أو أتحدث أو أكتب ، فقط ، عن الفترة التي مرت بمصر منذ ١٩٧١ حتى الآن ، أى منذ قيام ثورة التصحيح الى عبور أكتوبر العظيم ، الى ما حدث من تغيرات في واقع مصر خلال هذه السنوات ، لكن هذا لا يبدو منطقيا ، فالكتابة عن هذه السنوات الأربع تستلزم بالضرورة أن يعود الانسان بمصر الى الورا سسنوات وسنوات - لأن هذه السنوات ، هي التي كونت السادات كمفكر ، ومنظر ، ونورى ، وقائد ، وزعيم ، على المستويات الفكرية والاجتماعية والمادية والبيئية ، بل والى سنوات مصر المختلفة التي كانت هذه الأعوام الأربعة العظيمة من عمر مصر (مايو ١٩٧١ الى الآن) استمرارا عظيما لها ، وفتحا كبيرا لكل ما في مصر من حب وأمل ورغبة في التقدم .

والسادات .. ليس مفكرا سياسيا فحسب ..

وليس ، أيضا ، مناضلا ، ومعلما ، من الطراز الأول فحسب ..

وليس اقرازا لخير ما في المرحلة من ثورية وعطاء فكرى ونضالى وسياسى فحسب ..

بل انه المعبر عن أحلام « الانسان العادى » ، المصرى ، الذى ينبغي التخلص من غمات الحياة اليومية ، ليتاح له أن يعمل فى حرية وديمقراطية تكفل له المشاركة فى البناء والتقدم بمصر كأحدث المجتمعات المعاصرة ..

انه المعبر عن روح مصر العصرية ، التي تريد اللحاق بمستحدثات العصر والتي تخلقت عنه نتيجة للمناخ الضبابى الذى مرت به ، لكنها بعد أن استعادت روحها ، وعبرت الى نفسها ، وتجاوزت « الكبوة » التي عطلتها

عن السير ، قررت أن تلحق بالركب العصري في عالم اليوم .. لتحل مشاكلها اليومية والخارجية ، من منطلق متغيرات العصر .. تحل مشاكلها مع القوى الخارجية لتتخلص من تهديدات الحرب ، حتى يتاح لها المزيد من البناء والتقدم لتحقيق دولة العلم والايمان المنشودة .

انه فارس الأمل : المخلص من قوى القهر والضغط ..

انه فارس الأمل : المحرر مصر من الخوف والعذاب ..

انه فارس الأمل : الساعى الى العدالة من خلال مزيد من سيادة القانون وتوسيع رقعة الديمقراطية والحريات لكل الناس ..

انه فارس الأمل : الساعى الى بناء مصر العصرية ، بلا خوف ، بلا عراقيل بلا قيود ..

مصر المتفتحة نحو العصر ، فكريا ، وديمقراطيا ، وحضاريا .. لتشارك كقوة فعالة في المجتمع الدولي ، في الانتصارات العلية والفكرية والحضارية ..

في جريدة « العروة الوثقى » .. يحكى جمال الدين الأفغانى ، أسطورة صغيرة ، لكنها ذات مغزى عميق . حكى جمال الدين ، انه كان هناك هيكل عظيم في طريق المدينة ، عندما يقبل الليل على السائرين في الطريق ، كانوا يأوون اليه . وفي الصباح كانوا يعثرون على هؤلاء الملتجئين ، قتلى بلا جراح ولا أثر لاصابة .. وأصبح الهيكل مركزا مرجعا للمدينة والذاهبين اليها ! وكان لابد من وجود (أوديب) ، يتحدى (أبا الهول) ، هذا ، كما يحكى سوفوكليس في مسرحيته الشهيرة . وذهب (أوديب) الآخر الى الهيكل ، وبات ليلة فيه .. سمع صوتا هائلا ، فلم يكثرث ! ما فائدة الحياة اذا كنا نخاف ما فيها ؟ وما جدوى الحياة اذا كنا نعيشها في رعب ؟ وما قيمة الوجود ان كان يهددك الخطر والقهر في كل لحظة ؟ وانكشفت طلاسهم السر الكبير

أمام الارادة القوية ... ولم يمت (أوديبي) الآخر ، بل حصل على الخير الكثير .. وظل جمال الدين عشرات الأعوام ، يحاول أن يخلق في الشرق (أوديبي جديدا) ، يحطم (أبا الهول) .. كذلك فعل السادات ، عندما قام بحركة التصحيح في مايو ١٩٧١ ، حاول أن يخلق في مصر (أوديبي جديدا) ، يحطم (أبا الهول) ، يحطم مراكز القوى ، الخوف ، الرعب ، التلاعب بأقوات وحرقات البشر .. انهاء ظروف الهزيمة التي كانت تناجا طبيعيا لما كانت تحياه مصر من فكر غير علمي ، وانهاء لكل الظروف الاستثنائية التي كانت تحياها مصر قبل التصحيح ، والتي أوصلتها الى حالة من اليأس والخنوع ، بلغ بها مرحلة التمزق والسقوط . (داخليا ، وخارجيا) .. ومن ميت أبو الكوم ، الى الجمالية ، الى الأزهر ، الى منقباد ... ثم الى الرئاسة ثم الى « التصحيح » .. ثم الى « العبور » .. ثم الى كل التحركات الصغيرة والكبيرة .. طوف المناضل والثائر والمعلم والزعيم الملهم : محمد أنور السادات ، يبحث عن مصر ، يبحث عن قلبها العظيم الذي أصابه المرض فترة ليست بالقصيرة ، حاول أن « يدلّكه » أن يشفيه ، أن يخلصه من كل الأمراض .. ولا يكتفى بهذا البحث فقط ، ولا بهذه المحاولات لاعادة القلب الى الخفقان من جديد فحسب .. بل ويحاول ، أيضا ، أن يخلق كافة الظروف ، ليكبر هذا القلب ، ويعلو خفقاته ، يعطى مزيدا من الحب ، مزيدا من البناء ، مزيدا من الأمل ، مزيدا من السبر الى آفاق رجة عظيمة تعوض مصر عما فاتها من مستحادثات العصر الكبرى .



شاب أسمر اللون ، قمحي الملامح ، كقمح مايو في غيطان دنشواى ومبت أبو الكوم وطوخ ذلك ، يبدو لون ملامحه .. واسع العينين .. فارعا ، سامقا ، فرعونى العود .. تستطيع من النظرة الأولى أن تدرك الى أى حد هو مهموم بقضايا بلاده ، تلمح عليه كل المشاكل اليومية وغير اليومية ، التي تدور وتجرى في مصر . فعندما دخل المدرسة الحربية في ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦

(وقد عبر بمصر الى روحها في ٦ أكتوبر ١٩٧٣) ، تساءل :

— الى أين يا أنور ؟

وصمت ، قليلا ، ثم عاد بعد فترة ، يهمس الى نفسه :

— وماذا بعد أن أخرج ؟ هل الوظيفة وسيلة أم غاية ؟

وأجاب :

— مجرد وسيلة لأن الهدف ، أن يكون للانسان قيمة ما ترتبط برسالة

عظيمة ..

وضغط الشاب الأسمر ، الهادئ ، الرزين ، المتزن ، منذ شبابه ، ضغط

على شفثيه ، وقال :

— انه مأرب .. أن أكون شيئا ما ، على هذه الأرض العظيمة : مصر ..



كان الشاب الأسمر : أنور السادات ، في العشرين من عمره في عام

١٩٣٨ (فقد ولد في ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨) ، عندما سأل نفسه :

— اذا ما خرت أن أحيا .. أن أبقى في القاهرة أم أعود للقرية ، لفضلت

القرية ، فهي مثال للعطاء والنقاء ، بينما المدينة واسعة ، تغلى بالانتهازية

والتآفق .. لو عادت مصر الى نفسها ، الى القرية البسيطة ، لتخلصت من

كثير من الشرور ، ولسادت أواصر الحب والأمان والصدق أكثر ..

وفي المدرسة الحربية ، كان الطالب محمد أنور السادات ، يناقش

ويحاور أصدقائه في كل الأمور التي تمر بها مصر ، وبالذات الأحداث

السياسية ، فقد كانت الثلاثينات من السنوات العصيبة التي مرت بمصر ..

وكان السادات الطالب ، يتطلع الى يوم تتخلص فيه مصر من هذه المذلة ..

كان يحيا الثلاثينات في مرارة ، عاصر الأحزاب الرجعية الممالة للسرأي

والرجعية المحلية والاستعمار ، وعلى رأسها حزب اسماعيل صدقي الذي

حكم مصر بالحديد والنار ، وكان سببا في انحسار الحركة الثورية وخراب مصر الى أسفل درك !

في هذه الفترة كان أنور السادات ، يخرج الى الشوارع والطرقان ، يشترك في المظاهرات ، ويردد الشعارات التي تنادى بالاستقلال وتدين الرجعية والاستعمار ، وتطالب بالحريات والاستقلال .. يركب الترام ضمن المتظاهرين ، ويسير في مظاهرات عابدين والقصر العيني وقصر النيل ، ويردد الشعارات التي نشد الخلاص بمصر .. لكنه وهو في القاهرة ، لم ينس ، أنه ابن القرية .. ابن قرية «أبو الكوم» الصغيرة ، وكان يحن بين كل فترة وأخرى ليجيا لحظات من الحب والمودة والأسرية والنقاء والعطاء في قرية الصغيرة وهو يقول في هذا : « ان السنين التي عشتها في القرية قبل أن انتقل الى المدينة ، ستظل بخاوطرها وذكرياتها ، زادا يملأ نفسي ووجداني بالصفاء والايمان ، فهناك ، تلقيت أول دروسى في هذه الحياة ، تعلمتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التي لا تبخل على الناس بالزرع والثمر ، وتعلمتها من سماء قرينتنا الصافية المشرقة ، تعلمتها في ظل الجبيزة الخضراء الصامدة ، وعلى أغصان الصفصافة الخجول الوديع ، تعلمتها على الجدول الصغير ، الذي ينقل الى الحقول ترياق الحياة في رضا وقناعة ، تعلمتها في ظلال الأمسيات البريئة مع زملائي من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر في شوارع القرية الساكنة الهاجعة » .

وربما هذا ما جعله يتساءل في المدينة :

— الى أين ياسادات ؟ أخلاق المدينة تختلف عن القرية تماما . هناك قمة العذرية في القرية ، وهنا قمة الضياع والخروج عن الخلق الطيبة التي تعودنا عليها . لكن علينا أن نحفظ بهذه القبة البسيطة حتى لا تفقدنا معالم الطريق وما نريد أن نحققه في حياتنا من أهداف وآمال وأحلام ومطامح ..

وبعد نخرجه من المدرسة الحربية .. ذهب الى (منقباد) ، ضمن مجموعة من زملائه ليعمل هناك ، وكان ذلك في عام ١٩٣٨ ، أى قبل قيام

الحرب العالمية الثانية بعام واحد، قال : « ١٩٣٨ . في منقبا .. في هذه
البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصري ، بعناصره العريقة تماثلاً لحياته
وتسيطر عليه . وفي الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف ، فتزداد
الروابط بين الأصدقاء يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء
الرياح . هناك حول نار في معسكر المناورات بباب الشريف ، كنا نقضي طرفاً
من كل ليلة ... أصدقاء كلهم ، صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال
والغروا الشباب ، ضباط لم تزد رتبة أحداً عن الملازم ثان ، نحترق طسوال
اليهار في مناورات طويلة ، ونعود الى الخيام آخر اليوم .. نضى الليل في
الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب ا وكانت في القلوب نار ...
نار لا تنطفئ ، وقودها يتجدد في كل لحظة من احساستنا الشابة المرفهة .
ولما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح الى المساء . كانت آمالنا كبيرة ، وعزة
شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث . فقد كنا ضباطاً صغاراً ،
وكان لنا قواد ، وكان هناك ، أيضاً ، انجليز ا وكان قوادنا المصريون لا عمل
لهم الا اذلالنا ، والا الانحاء أمام الانجليز ا وكنا نرى هذا الوضع الكريه
فنحترق ، ونسخط ، ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم ، وماذا يستطيع ملازم
ثان ، مثلى ، أن يفعل في داخل النظام العسكري ، وفي تلك الأوضاع الرهيبة
الا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدخن النار في حشاه ا هكذا كانت أيامنا .
ولكن ليالينا ، كانت تختلف اختلافاً كبيراً ، ففي جو من الصداقة والألفة ،
كنا نجلس ، فنمرح ، ويذهب هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل ، شقاء الجسد
وشقاء النفس ، وشقاء الغربة في جبل بعيد .. » .

❖

الى نفس الأرض التي كتب عنها برناردشو « المنوفية » وأشاد ببطولة
أحدى القرى الصغيرة فيها - هي دنشواى - ينتمى محمد أنور السادات...
ينتمى الى قرية صغيرة مثل دنشواى ، هي قرية « ميت أبو الكوم » ، تتبع
مركز تلا ، ولا تبعد كثيراً عن عاصمة المنوفية : شبين الكوم .. لقد كتب

برناردشو عن قرية دنشواى ، وما حدث فيها من مأساة عام ١٩٠٦ ، يقول :
« ان بطولية أهل هذه القرية الصغيرة ، تفوق بكثير مفاخر ومساخر
الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ! فكيف يتأتى لامرؤ ما أن يطلق
النار على أناس عزل بسطاء ، هذا ما حدث فى هذه القرية الآمنة التى لا يملك
أهلها الا الطيبة وأبراج الحمام ، بينما الغزاة من جنود الامبراطورية يملكون
البارود والعدوان » .

وحول بطولات قرية دنشواى ، وغربها من قرى المنوفية المجاورة ، سمع
السادات فى طفولته وصباه العديد من البطولات - هذه البطولات والقصص
الوطنية التى أثرت فيه ، وشاركت فى نسج فكره وبلورت شخصيته
تماما كهؤلاء المفكرين والساسة والأدباء الذين أثرت « حكايات القرية »
فى بلورة شخصياتهم وأفكارهم ، وبينهم : ليوتولستوى ، الذى أثرت فى
أفكاره وفلسفته وأعماله ذكريات قرينته « ياسنايا بوليانا » فى مقاطعة اكتوبر -
النسلافا فى ريف روسيا . . ومحرر العبيد ابراهام لنكولن الذى نصب
رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٦١ ، ولم تفارق مخيلته ، أبدا
ذكريات قرينته الصغيرة فى « كنتكى » - والتى تعرف الآن باسم « بلارو
كاواتى » . . ومكسيم جوركى - كاتب وأديب الثورة الروسية ، الذى لعب
دورا هاما فى الحركة الثورية الروسية بين عامى ١٨٨١ و ١٩١٧ ، وكتب
أعمالا هامة مثل : « الأم » ، « الأعماق » ، « العاصفة » ، « أسرة أرتامانوف »
« الحضيض » ، « جامعاتى » ، « ماكار تشودرا » - أبدا ، لم ينس قرينته
الصغيرة نجينى نوفجورد (والتى تعرف اليوم باسم قرية جوركى) ، وقال ،
أن قرينته الصغيرة كانت داخله تنمو وتتحرك أينما حل وذهب ، فهى دائما
وراء أعماله الروائية والأدبية والفكرية . . وكذلك جيفارا - بطل الثورة
العظيمة فى كوبا وأمريكا اللاتينية ، اعترف بأن قرينته الصغيرة فى جبال
« سييرا مايسترا » ، كانت دائما هى صورة العالم المصغرة ، والتى مثلت
فى ذهنه صورة البؤس والعذاب ، والتى أصر ان يخلص العالم من شرورها

حتى انه قال : ان قريتي الصغيرة ، دفعت في نفسى الشعور بالثورة منذ الصغر .. وكذلك مفكر وأديب مثل ميخائيل شولوخوف ، الكاتب السوفيتي الذى كتب (النهر الهادى) ، و (مصير انسان) ، و (الأرض العذراء) ، وساهم بدور بارز في الحركة الثورية السوفيتية أثناء الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها ، كان لقرية هذا الكاتب « فيسنسشكايا » القوقازية ، أثرها في كل أعماله وأفكاره ، ومن فرط حبه للقرية ، أنه رفض الحياة في موسكو ، وفضل أن يحيا في قريته الصغيرة التى تطل على (نهر الدون) الذى يمتد في كل أعماله وأفكاره .. كذلك أنور السادات ، أثرت فيه قريته الصغيرة « ميت أبو الكوم » الى أبعد الحدود ، وشاركت في نموه وبلورة شخصيته وقد تحدث كثيرا في أحاديثه وفي خطبه عن آثار هذه القرية في حياته ، وهو لا يستطيع أن يغيب عنها طويلا ، بل انه لا يقوى على مفارقتها كثيرا ، حتى انه كتب يقول : « ان أول كتاب زرع الثورة في نفسى ، لم يكن كتابا بالمعنى المفهوم الذى نعرفه عن الكتاب ، وانما كانت أحاديث تلقىها جدتى في أذنى ونحن نستلقى في ليل الشتاء الطويل على الفرن في قاعة دارنا بالريف . كنت يوما طفلا ، لا أنام قبل أن أسمع حكاية أو حكايتين عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال .. الا أن جدتى شاءت أن تمزج هذه الحكايات بحكاية خالدة عن قرية لا تبعد الا قليلا عن قريتنا ، هى دنشواى ، وكانت رواية جدتى رحمها الله عن قصة دنشواى ، عبارة عن زجل جميل ينجون فيه (زهران) - ذلك البطل الذى ضربوه بالسياط ، ثم شنقوه أمام القرية بأكملها .. ولا بد أن جدتى قد حضرت هذا الذى جرى ، فقد كانت في حديثها تنفعل أشد الانفعال ، وتحكى عن بطولات (زهران) ، وكأنما هو الفارس الأول ورمز كل شجاعة وكل اقدام ، ثم تنتهى القصة بذلك الغدر اللئيم الذى ارتكبته بريطانيا أمام أعين أهل القرية الوادعين »

وقد تحدث السادات ، طويلا ، عن قريته : « ميت أبو الكوم » ، في مقالاته ، وفي حوارياته ، واعتبرها الصورة المصغرة لمصر ، في نقائنها في

عذريتها ، في بكارتها ، في حياتها البسيطة ، واعتبر مشاكلها وتناقضاتها هي الصورة المصغرة لمصر ككل ، وهو يعتز كل الاعتزاز (بالقرية) ، حتى أنه يقول :

((اننى اعتقد اننى انا تخليت عن الروح الربفية التى تسرى فى دمي ، سوف افشل تماما فى حياتى))



عندما تخرج من المدرسة الحربية عام ١٩٣٨ ، سأل نفسه ، وهو يسير في شوارع القاهرة :

— ما بال مصر ، حالها يزداد سوء على سوء . ان ما يحدث في القرية صورة مصغرة مما يجرى هنا في المدينة . البؤس هناك صغير ، لكنه هنا عظيم وكبير ، ويزداد بشكل واضح .. !
ثم تساءل :

— ما الحل ؟

ونظر الى وجوه الناس ، وهمس الى نفسه :

— نفس الوجوه الطيبة ، التى في قريتي . الكل يتطلع الى مصر بلا قيود ..

وكان القهر في ذلك الوقت ، يجثم على كل الصدور ، والغلاء ينتشى في كل مكان ، والفئات الشعبية على اختلاف أنواعها مطحونة الى اقصى الدرجات .. وكانت الأحزاب السياسية العوبة في أيدي السراى والاحتلال . وكان الشعب يقاوم معاهدة ١٩٣٦ ، وكان الحكم في أيدي كبار ملاك الأرض وكبار رجال المال تحت اشراف وتوجيه الحكم الملكى ، واستمر التنكر للحياة البرلمانية ، واستمرت الحرب على الديمقراطية وحرية الشعب . في هذه الفترة تخرج أنور السادات من مدرسة الحرية ، وكان ساخطا على كل ما يجرى في الجيش منذ لحظات انتظامه الاولى :

«انتظمت في الجيش على يد البعثة البريطانية ، تلك البعثة
التي أرسلوها ، لا لكي تعلمنا ، أو تدربنا ، وإنما لكي نخضعنا
ولكي نذلنا ، ونحمد الله ، ان هذه المعركة انتهت بتشكيل
تنظيم الضباط الأحرار ، الذي كان كتاب البعثة البريطانية ،
من أول ما دعا اليه »



طائر بلا عش ..
لا يخشى على نفسه من الجوع ..
لا يخشى على نفسه من القتل أو العذاب ..
شيء واحد يخافه هو القيد .. أن يرى مصر في السلاسل ولا يفعل من
أجلها شيئاً :

أنور السادات ...
ابن القرية ، الذي جاء الى المدينة ، حاملاً داخله أنبل ما في القرية من
قيم وأخلاقيات .. والتحق بالجيش ، ورأى بعينه ما يدور داخل الجيش ،
وداخل كل مصر .. في دروبها ، وحاراتها ، وشوارعها الطويلة والقصيرة ..
انه يحس بدوار الآن ، لا من أثر الجوع أو العطش ، بل من فرط أحزانه ..
انه في القيد ، مسجوناً في سجن الأجانب ، مبعداً عن القاهرة ، متهماً في
قضية مقتل « أمين عثمان » ..

القاهرة : ١٩٤٦ . الشوارع تغلي وتنفور بالثورة والبركان ..
الطلبة والعمال يهتفون في الشوارع والطرق .. في كل مكان ..
الطلبة يتحدون مع العمال ، ويقومون بأكبر مظاهرة وطنية في ٢١ فبراير
١٩٤٦ ، مظاهرة تضم أكثر من أربعين ألفاً ، تهتف بالاستقلال والحرية ،
وتطالب بالغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وتطالب بالحرية العامة وتشكيل وفد فوري
للمفاوضة بوضوح على الجلاء التام عن مصر .. وسقط من الشهداء في هذه
المظاهرة الكثير .. من الطلبة والعمال ..

وكانت أول مرة يتم فيها تشكيل لجنة وطنية تضم الطلبة والعمال ...

طائر بلا عشي ..

أنور السادات ..

تمنى لو كان خارج سجنه ، ليشترك في كل هذه الأحداث ، لكنه في الحبس يعاني مرارة البعد عن الأحداث الوطنية ، فقد تعود أن يقوم بعمل وطني دائم ، حتى غدت الثورية حرفته وقدره .. فقد اشتغل في الأربعينات كمحترف ثوري من الطراز الأول ، وقام بالعديد من الأعمال الوطنية ضد الانجليز وضد الرجعية التي كانت تتحالف مع بريطانيا والسراي .. فلم يكن (وفد) سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٦ هو وفد سنة ١٩١٩ ، فقد تهادن مع الاستعمار بعقده معاهدة ١٩٣٦ ، كما تسربت الى قيادته بعض العناصر الاقطاعية وخضع لنفوذ كبار رجال المال .. وكان (حزب السعديين) ، ممن سموا أنفسهم بالمستقلين ، ألعبوا كبرة في يد كبار المال المصريين المتصلين بشركات الأجانب الاحتكارية ، وقد كان هذا الحزب برئاسة أحمد ماهر والنقراشي ، وكان حزب (الدستوريين) نفس الاتجاه ، ألعبوا في يد السراي .. وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، كانت الحكومة القابضة على زمام الأمور هي حكومة السعديين والدستوريين : حكومة الاحتكار والاقطاع ، وعلى رأسها السراي ، وقد زادت هذه الوزارة سخط الشعب عندما تولت الحكم بشكل بالغ ، فقد كانت رجعيته وممانتها لبريطانيا واضحة كل الوضوح ، لدرجة أن « د. محمد حسين هيكل » رئيس الأحرار الدستوريين نشر في تصريح له بالاهرام ، يقول : « ان النقراشي باشا ، رأى أن يسلك في سبيل تحقيق هذه السياسة ، خطة من المجاملة لوزارة الخارجية البريطانية ، تقديرا لموقف انجلترا الدقيق الحاضر ، حتى لقد آخذ بعض ما يرون في المجاملة السياسية ضررا ، ولم تغير هذه المؤاخذة

خطة رئيس الوزراء في سياسة الأخذ والرد وحسن المجاملة « (١) .

أحسن السادات ، وقتها بسجنه مرتين : فهو سجين بأيدي السلطة الرجعية في وطن سجين وراء قضبان الاحتلال والسراي ، وسجين أيضا لأنه لم يتح له فرصة الاشتراك في هذه المسيرات الوطنية التي تجرى وتدور في شوارع مصر ، معلنة سخطها على القهر والظلم والرجعية والاستعمار .. أخذ نفسا عميقا من سيجارته ، ونظر من شباك سجنه ، وكاد يبكي :

— مصر ١٠٠

وتذكر مع أخبار شهداء مذبحه كوبري عباس في ٢١ فبراير ٤٦ ، شهداء حركة سنة ١٩٣٥ ، المظاهرات والانتفاضات الكبرى التي كانت تطالب بالدستور ، دستور ١٩٢٣ ، فقد فرض الرجعية على البلاد دستورا مزيفا هو دستور « اسماعيل صدقي » ، الذي باركته بريطانيا ، بقولها : « عندما استشيرت الحكومة البريطانية في شأن الدستور المصري ، نصحت ألا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور سنة ١٩٣١ ، إذ أن الأول غير صالح للعمل ، والثاني لا ينطبق على رغبات الأمة ، بينما الدستور الجارى العمل به مفيد ومقنع » (٢) ! وقد أثار هذا التصريح ثائرة الشعب الذي أعلن سخطه ، فقامت المظاهرات في المدن والقرى ، احتجاجا على السراي ، وعلى تصريح هور ، وكان أنور السادات واحدا ممن اشتركوا في هذه المظاهرات وكان وقتها لا يزيد عمره على أربعة عشر عاما ، وكان من أصدقائه ، في هذه الفترة ، بل من أعز أصدقائه « محمد عبد الحكيم الجراحي » ، وهو طالب ثوري في الجامعة ، كان السادات معجبا به وبشوريته وبأفكاره ، وقد نشأ معا ، كصبيين في كوبري القبة ، وكافا لا يفترقان ، وعندما استشهد الجراحي في

(١) وقد نشر هذا التصريح في جريدة (الأهرام) في يناير ١٩٤٦ ، وكان وقتها أنور السادات سجيناً على ذمة التحقيق في قضية « أمين عثمان » وزير المالية .

(٢) وقد جاء هذا التصريح على لسان « صمويل هور » وزير خارجية بريطانيا ، بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٣٥ .

هذه المظاهرات مع زملائه « محمد عبد المجيد مرسى » ، و « على طه عفيفى »
و « عبد الحليم عبد المقصود » ، و « اسماعيل الخالع » .. بكى السادات
طويلا .. فقد كان « عبد الحكيم الجراحى » أكثر من صديق وثأثر :

((كنا كذلك أنا وعبد الحكيم الجراحى ، حتى سافر هو
الى الخارج ، والتحق بكلية الآداب ، ثم فى احدى المظاهرات
صرعته رصاصة كونستابل انجليزى ٠٠٠))

طائر بلا عش . .

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ، ولا القتل ، ولا التعذيب ...
تورقه قضية مصر ، دائما ، تشغله ، ولا يملأ على وجدانه أى فكر آخر عليها :
مصر وقضيتها فوق أى شىء ..



كان نابليون بونابرت ، ينظر الى خريطة العالم ، ويشير الى الصين ، ويقول .
« هنا عملاق .. الويل لنا اذا استيقظ » ، وبعد ما يزيد عن قرن ونصف ،
استيقظت مجموعة من العمالقة .. وأحست القوى الاستعمارية فى أوربا
وأمریکا بأن « الويل لها بالفعل » ، وكان أن تحققت نبوءة بونابرت ، لكن
ليس فى الصين فقط ، بل فى أكثر من منطقة ، حتى ان جيغارا عندما سألته
صحفى فرلى عن تلك « النبوءة » التى قال بها بونابرت ، ضحك جيغارا
فى سخرية وقال : « انهم ليسوا عملاقا واحدا .. انهم عشرات العمالقة .. فى
الهند ، وفى الصين ، وفى مصر ، وهنا فى أمريكا اللاتينية نفسها أكثر من
عملاق يطل اليوم .. » . ونفس « النبوءة » ، أو نفس الكلمات ، مرت على
ذهن بطلنا : السادات ، فى بداية الخمسينات ، مع انتصار ثورة يوليو ١٩٥٢
ومع الانتصارات المختلفة التى مرت بمصر .. وعادت الكلمات قوية فى ذهنه
تردد : « ليست نبوءة بونابرت » ، وقال ، أيضا : « بل ليست معجزة ،
كذلك » ، وأضاف لرؤيته : « لسنا فى عصر المعجزات التى تهبط من السماء
فذلك العصر قد انقضى . ولكننا يبدو ، أننا فى عصر معجزات .. معجزات

تنبع من الأرض ، وتفوم بها الشعوب . الشعوب اذا قررت شيئا فلا بد ان تحققه ، لأن مشيئتها من مشيئة الله ، وادا قررت أن تحققه حققته ، ولو اقتضاها الأمر القيام بمعجزة .. وشعبنا ، أيضا ، كانت مشيئته من مشيئة الله . فقد حقق المعجزة ، والثورة التي كانت مستحيلة الوقوع حدثت ، والشعب تحرر . وهكذا تحققت « نبوءة » بونايرت ، لا بظهور عملاق واحد ، بل بميلاد أكثر من عملاق ، يهدد الاستعمار بالسقوط ، ويقوى من طاقة وقدرات الشعوب المتحررة على القيام بأكثر من معجزة ، وهذا ما جعل السادات يردد : نحن في عصر معجزات الشعوب .. لا معجزات زمان .

وقد انعكست هذه « المعجزات » لا على الخرائط المحلية والقومية ، بل فرضت نفسها على خريطة العالم البوليغرافية والاقتصادية والحضارية . ففي المؤتمرات القديمة ، وحتى عصبة الأمم ، كان يعتبر نصرا للدول الواقعة تحت النطاق الاستعماري لو أرسلت مندوبا عنها يراقب الأحداث من بعيد . ولكن الأمر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات في الخمسينات والستينات والسبعينات ، اختلف تماما .. فلقد أصبح المجتمعون هم أبناء الشعوب الحرة ، وأصبح المراقبون — من بعيد — هم الاستعماريون وهذه الكلمات ردها السادات ، في رحلاته الى أفريقيا وآسيا ودول الشعوب الحرة التي خرجت عن نطاق الدول الامبريالية وأخذت تسعى لتبث دعائم الاستقلال القومي في مجتمعاتها المتنوعة ..

ان الأسطورة القديمة تتحقق من جديد :

أسطورة الرجل الذي كان له أولاد عديدون ، وعندما أراد أن يوصيهم استدعاهم ، وأعطى أحدهم عودا من الخيزران ، فكسره بسهولة ، ثم أعطاه مجموعة منها فلم يستطع أن يكسرها .. وهذا ما جعل السادات يتحدث كثيرا عن قوة الشعوب الحرة واهمية تلاحمها في المنطقة العربية وفي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية : « لقد أحست الشعوب ، ان الطريق الوحيد لانهايار الاستعمار وبناء عالم جديد هو وحدتها في الصراع والعمل البناء .. »

في عام ١٩٥٦ ، نظر بطلنا : السادات ، الى شوارع القاهرة وطرقاتها ،
واخذ يتأمل وجوه الناس ،طويلا ،ثم عاد الى داره يقرأ ويتابع كل ما يحدث
في نهم ، خاصة بعد العدوان الثلاثي على مصر ، وهمس الى نفسه : هذا
الشعب نادر .. حقا ! فكم تحمل الشعب المصري من ويلات ومآسى ، ولكنه
أبدا لم يستسلم ، انه يقاوم ، ويقاوم ، من أجل أن يستعيد نفسه .. ومقاومة
بور سعيد الباسلة في نوفمبر ١٩٥٦ نموذج واضح على هذه البسالة النادرة
فقد سجلت هذه المدينة بطولات نادرة في مواجهة الاستعمار ، لقد شهدت
بور سعيد بداية دخول الاستعمار في بلادنا عام ١٨٥٨ ممثلا في شركة قناة
السويس ، وشاهدت نهايته عام ١٩٥٦ ، من بور سعيد دخل الاستعمار ومنها
يخرج مرة أخرى .. وقد كانت نية الاستعمار مبيتة للعدوان على مصر في
١٩٥٦ ، فقد بدأت الاستعدادات العسكرية فور تأميم القناة (في يوليو
١٩٥٦) ، من جانب بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، وقد أشارت الصحف
الأوربية الى ذلك بوضوح ، فقد كتبت صحيفة « الديلي ميل » (١) ، نقول :
« ان الخطط العسكرية لمواجهة الموقف الذي حدث في السويس تجري الآن
فما حدث ، يهدد مصالح الغرب ولا يضمن سير الأمور بالشكل الطيب » .
بل وبدا منذ ذلك التاريخ ، ومبكرا ، في استخدام اسرائيل ، واكدت
التقارير في صحف أغسطس ، ان الدول الغربية كانت تبعث بأسلحة جديدة
لاسرائيل ، وقد كتبت صحيفة (الديلي سكيتش) ، في عددها الصادر بتاريخ
١٢ سبتمبر ١٩٥٦ ، تقول . « لو ضمنا سلامة اسرائيل ، ووفرنا لها وسائل
الدفاع عن نفسها ، فان هذه الخطوة كافية لوضع (ناصر) ومن يتبعونه في
مكائهم ولفترة طويلة جدا » . بل حددت هذه الصحيفة ، وكذلك نشرة
وزارة الخارجية البريطانية في ١٣ سبتمبر عام ١٩٥٦ نقطة بدء العدوان في
شبه جزيرة سيناء ، أي نفس النقطة التي بدأ فيها الهجوم الاسرائيلي بالفعل
في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ..

(١) صحيفة الديلي ميل ... عدد ٣٠ يوليو عام ١٩٥٦ ، في بعد تأميم قناة
السويس بأربعة أيام .

لقد تابع السادات معارك ١٩٥٦ ، بنهم ، لا من أجل المتابعة والاستمرار
فحسب ، بل لتحليل ما جرى ويجرى علميا ، والخروج منه بدروس ناجعة
تنير الطريق في المسيرة الوطنية . وقد علق على سلسله ما جرى في عام ١٩٥٦
في أكثر من مقال ، وكتب على صفحات جريدة الجمهوريه بتاريخ ١٠ ديسمبر
عام ١٩٥٦ ، يقول : « ان اخطر ما يفتك بالدول الصغيره ويوقعها فريسه
للدول الاستعماريه ، هو ذلك الشعور بالنقص الذي تغرسه تلك الدول
الاستعماريه في نفوس الشعوب الصغيره . ان هذه العقده هي افثات اسلحه
الاستعمار اليوم ، والانسان يتلفت حواليه الآن ويأسف لان دولة تسديفه
من الدول الصغيره تترك شعوبها فريسه لهذه العقده . واطخر من كل هذا
ان تكون هذه العقده لدى حكام هذه الشعوب . وسبيل الاستعمار ، دائما
هو غرس هذه العقده في نفوس الحكام أولا ، ثم توصيلها للشعوب عن
طريق هؤلاء وعن طريق العملاء الآخرين الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار .. »
وانه ليسر ح الطرف ، فيتذكر معارك القناة عام ١٩٥١ ، وكيف شارك
فيها بنصيب وافر . كمحترف ثوري ، وكسياسي ، وكمناضل .. وقد بدأت
معارك القناة هذه في وقت مبكر ، أثر الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وبدأت بشكل
يكاد يكون عفويا ، لكن سرعان ما قامت معسكرات عديدة للفدائيين وتبلور
لها خطة واضحة ، وقد كانت خطة الفدائيين ، في جوهرها ، موجهة الى ضرب
قوات الاحتلال في أربع نواحي أساسية : تدمير ولسف ما يمكن أن يصل
اليه الفدائيون من مخازن ومستودعات وعتاد للعدو في معسكراته ، ثم
تمزيق خطوط المواصلات التي يفيد منها العدو ، ثم الحيلولة دون وصول
التموين ، ثم جعل الحياة اليومية مستحيلة على جنود الاحتلال في المنطقة
ووضعهم باستمرار في حالة فزع وخوف .. وكانت خطة الفدائيين هذه تقوم
على الضربات السريعة المفاجئة في الظلام ثم الانسحاب في سرعة قبل أن يتنبه
العدو بما حل به من خسائر ودمار ، وقد اشترك السادات في هذه المعارك ،
كمناضل ثوري ، وأبلى بلاء عظيما ضد جنود الاحتلال ، وكاد أن يفسد
حياته أكثر من مرة .. وكانت هذه المعارك تشتد عنفا ، يوما بعد يوم ،

الأمر الذى وصل الى حد أن دخلت مجاميع كاملة من هؤلاء الفدائيين فى مصادمات مسلحة مع قوات الاحتلال مباشرة ، وكانت أبرز هذه المعارك ، تلك المعارك التى استشهد فيها مجموعة من العمال والطلبة ، وبينهم « مصطفى أحمد محمود » - الشهير بالمردنلى (١) ، والذى كان عاملا فى معسكرات العدو وخبيرا فى بث الألغام . وقد علق العدو البريطانى على هذه المعارك وعنفها بقوله : « ان خطر هذه الأحداث ، ليس فى أنها تلحق بنا الخسائر فى المعدات والعتاد ، بل ان وراء هذه التحركات مجموعة من الضباط والمتقنين والعمال ، يدبرونها من خلال تنظيمات دقيقة ، وقد وصلت هذه المعارك الى درجة الصدام المسلح المكشوف » .. وقد كان انسحاب ثمانين ألف من العمال المصريين فى القناة ، لم يترددوا فى التضحية بأجورهم ، ضربة كبرى للعدو لم يكن يتوقعها ، وقد جعل هذا الانسحاب المعسكرات البريطانية فى حالة سيئة ، وقد لعب الكونستبلات الوطنيون ، وضباط سلاح الإشارة ، وجنود البلوكات - ومعظمهم من أبناء الريف ، دورا بارزا فى هذه المعارك ، وكان دور الضباط الأحرار ، وعلى رأسهم السادات ، واضحا فى سلسلة هذه المعارك الوطنية . وقد تضامنت الكثير من القوى الديمقراطية فى العالم مع هذه الأحداث ، حتى ان صحيفة « الديلى ووركر » الانجليزية كتبت فى تلك الفترة ، تطالب بريطانيا بالجلاء عن القناة . وأحس الانجليز بالخطر الذى يهدد ، بضياح لا المنطقة من أيديهم فحسب ، بل يهدد بضياح مصر كلها ، اذا ما قامت ثورة فى البلاد .

وقد عبرت وزارة الخارجية البريطانية عن مخاوفها هذه فى نشرتها الرسمية بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٥١ ، عندما كتبت تقول : « لقد كان من

(١) الشهيد مصطفى أحمد محمود - الشهير بالمردنلى ، شهد معركة القرين ، وهو من اهالى الشرقية . وقد استشهد فى سلسلة هذه المعارك المئات من الوطنيين من طلبة وعمال وجنود ، وبينهم : محمد رشاد جريش ، سلامة ابراهيم ، سميد أبو شعيشع ، محمد عبد العال همد ، عباس الأسمر ، أحمد المنيسى ، والطيار أحمد عصمت ، والطفل الشهيد نبيل منصور ، الذى اشترك فى هذه المعارك ..

انواجب ان نهوى بقبضة من حديد على رؤوس مترععى هذه الحركة
الاجرامية ، وكانت بالطبع الصحيفة البريطانية ، أو نشرة الخارجية
الانجليزية ، تقصد حركة الكتائب والكفاح المسلح والضباط الأحرار الذين
كانوا وراء حركة الكفاح المسلح في القناة . وقد تحدى ضباط الجيش الأحرار
قرار السراى ورجال السراى بالغاء اجتماع الجمعية العمومية لنادى الضباط
في ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، واجتمعوا ، ليقرروا عقد انتخاب في ٣ يناير ١٩٥٢ ،
وعقد الضباط جمعيتهم العمومية ، فتحدوا السراى مرة أخرى برفضهم
تشيل سلاح الحدود المسيطر عليه رجال السراى ، واعتباره سلاحا منفصلا
ثم انتخاب مجلس ادارة النادى من أعضاء ليس فيهم العناصر التى ترشيها
السراى وكبار رجال المال .

٢٦ يناير ١٩٥٢ ..

القاهرة تحترق ..

تبدو كروما - نيرون قبل الميلاد ..

القاهرة تحترق ، وعشرات ، بل المئات ، يعتقلهم البوليس السياسى ..
انه لا زال يذكر هذا اليوم ، تماما ، وكأنه حدث بالأمس .. والذي جعله
يعود الى تذكره ، بعض من فقد من أصدقاء ومعارف في تلك الفترة ..
بعضهم سقط كشهداء في معارك القناة ، والبعض سقط في قبضة البوليس
السياسى والسراى ..

كانت القاهرة ، تبدو ككتلة ملتهبة من نار .. ولم ينم ليلتها أهل مصر من
الخوف والرعب والفرع ، فمدينتهم تحترق ، والرعب يسيطر على النفوس ،
والشهداء كثيرون .. وقد بدا ذلك اليوم : ٢٦ يناير ٥٢ ، بعصيان خطير ،
اذ تعبى كافة عمال المطار وجنوده وموظفوه في القاهرة حول أربع طائرات
بريطانية ، وحالوا دون نزول الركاب ، كما منعوا تموين الطائرات بالوقود .
ومع هذا العصيان ، تمرد جنود البلوكات في الاقاليم ، وخرجوا يحملون

أسلحتهم في مظاهرة عامة ، معبرين عن سخطهم على ما أصاب زملائهم في معارك القناة ، والكثيرون منهم ، خرجوا في القاهرة في مسيرة كبرى ، ينادون بطلب السلاح ، وساروا مخترقين الأزهر وميدان الاسماعيلية ، حتى وصلوا الى جامعة القاهرة ، وخرجت مظاهرة ضخمة من الجامعة في الساعة الحادية عشر صباحا ، قاصدة مجلس الوزراء ، والتحمت بهذه المظاهرة الضخمة مظاهرات عمال العناير والسكك الحديدية وطلبة الأزهر والمدارس الثانوية ، وأمام ذلك لم تملك حكومة الوفد التي كانت في الوزارة في ذلك الوقت الا أن تعلن عن قطع علاقاتها نهائيا مع بريطانيا وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي ، وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه ذلك في مجلس الوزراء ، بدأت تشتعل الحرائق في القاهرة ، وكانت بداياتها في كازينو الأوبرا وسينما ريفولى ، ثم لم يأت الليل الا وكانت القاهرة ، مباني وسط العاصمة وفنادقها ومحلاتها العامة ودور السينما تحترق .. وكان واضحا من وراء حريق القاهرة ، فقد ارادت السراى أن تقول ان المظاهرات كانت وراء ذلك ، لتلعب لعبتها ، وتفرض الأحكام العرفية وحظر التجول في البلاد ولكن هذا القهر لم يزد مصر الا التهابا ، ولم يزد حركة الضباط الأحرار الا تماسكا . وفي الحقيقة ، أنه لو كان هناك تنظيم سياسى قوى في ذلك الوقت ، لقامت ثورة في تلك الليلة ، لأن الظروف كانت مواتية ، وكانت القاهرة في حالة فوضى كاملة ، وقد كتبت صحيفة « الديلى ووركر » الانجليزية تعلق على أحداث حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، بقولها : « كانت القاهرة في حالة فوضى كاملة ، حتى أن ابراهيم امسام رئيس البوليس السرى ، والحكمدار ، وغيرهما من المسؤولين عن الأمن ، كانوا يقفون يتفرجون ، دون أن يتدخلوا ، لأنه كان من المفروض الا يتدخلوا ، وكانت البلاد في حالة فوضى كاملة .. فلو كانت هناك قوة منظمة ، لاستولت على السلطة بسهولة بدبايتين أو ثلاثة ومنشور يذاع في اذاعة القاهرة واغلاق للمطارات والموانئ حتى تسيطر تماما على الأمور » .



كان يقرأ في كتاب لفولتير (١) ، وهو يسحب نفسا عميقا من غليونه :
 « اذا رأيت ظلما ، وسكت عنه ، فأنت تشارك في هذا الظلم ، أى انك اذا
 رأيت رجلا أو امرأة تجلد بالسياط ويسيل الدم من جسدها دون أن تحرك
 ساكنا ، فأنت يد الجلاذ ما لم تعترض أو توقف المأساة كذلك اذا شاهدت
 أهل الدين في الكنيسة يسرقون أو يدجلون ، فأنت ضد الدين ، اذا لم تفعل
 شيئا . ان الحرية ، ليست في انك تتنفس في الهواء الطلق ، بقدر ما هي كمية
 الهواء الذى يسمح بالحركة لكل الناس في أن يتحركوا معا من أجل عمل
 عظيم . أناشدكم يا من تنادون بالحرية أن تسحقوا أهل الخزي والعار ،
 بمختلف ألوانهم ان أردتم أن تكونوا أحرارا » . أعجبته الكلمات ، وأخذ
 يرددها ، مرة ، ثم مرة ، وأحس بمعنى الكلمة ، عندما ترتبط بعمل أو قيمة
 عظيمة ، وهو كاتب وفنان وأديب ، الى جانب كونه مناضل وثورى وزعيم :
 أنور السادات ..

طائر بلا عش ..

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ..

لا يخشى الا القيود ، لأنه الى الحرية يسعى ..

كان احساسه وهو يقرأ كلمات فولتير ، مثل احساس الفيلسوف جون
 لوك ، عندما قرأ كتاب هوبز عن (الملوك) ، ورأى كيف أن الطهرين (٢)
 قد قتلوا الملك شارل الأول عام ١٦٩٤ ، فتساءل هو : اذا كان للناس الحق
 في أن يخلعوا ملوكهم المستبدين ويقتلونها ، ويمحوا استبدادهم ، فلم

(١) فولتير الكاتب والفيلسوف الفرنسى (ولد سنة ١٦٩٤ وتوفى سنة ١٧٧٨) ، بشر بالثورة
 في مقالاته ، وأرهب لأول مرة بورجوازية و العالم ، ومات قبل ان تقوم بعام واحد . فقد
 قامت الثورة في عام ١٧٨٩ ، وقد كتب فولتير سبعين كتابا ، كلها في الدفاع عن الشعب ،
 وكلها تحت الناس على الثورة ضد الظلم والظلمين بمختلف أشكاله ..

(٢) « الطهريون » ، هم ما عرفوا في تاريخ الإصلاح الدينى بالبيروتات - وكانوا يسعون
 لتطهير الكنيسة والمجتمع من الأدران التى أصابها ..

يرضون باستبداد الكهنة ولم لا يختار الناس الأديان التي تقرهم ضمائرهم
عليها ؟

وعند كلمات وعبارات أخرى لفولتير ، وقف السادات يتأمل معانيها
أو مغزاها .



وبين هذه الكلمات نذكر :

((الثورة ، ان تغير ، حالة الناس من فخر الى حرية ،
حتى يستقيم حال البشر))

وأبضا :

((ما قيمة الحياة دون هدف نبيل ؟ ما قيمة الانسان اذا
لم يكن مفيدا للوجود ؟ بمعنى ان يتحرك في اطار ما يعطى
للحياة كما لها ان امكن .. ولكن ، ابدا ، لا بصمت . فالصمت
جمود . والجمود موت . والموت سجن ما بعده سجن !))

وأبضا :

((الطفيان لا يقاوم الا بطفيان مثله . والظلم لا يحارب
الا بظلم مثله . وبكلمات أخرى اقول ، ان الظلم الواقع على
الناس ، لا يمكن رفعه بالكلمات الطيبة او بالتبرك او بالرجوء
الى الكنيسة ، وانما بمقاومة هذا الظلم ، وبعنف))

ومثلما وقف عند كلمات فولتير ، وقف كثيرا عند رؤى وفلسفات
وقراءات وأفكار العديد من المفكرين والفلاسفة . وقد قرأ السادات مختلف
ألوان الفكر والثقافة ، فهو قد آمن منذ البداية ، أنه لا يمكن صياغة ثورة
بدون نظرية علمية ، وكذلك لا يمكن خلق ثورى أو مناضل بدون فكر علمى
ثورى .. وهو لم يلجأ الى فكر بذاته ، فضل أن يقرأ كل ما يصل الى يديه
ليعرف كل الأفكار والنظريات والآراء ، قرأ الفلسفة المثالية والمادية ، قرأ
الفكر التجريبي والفكر الجدلى ، اضطلع على انظمة الشرق والغرب والدول

التي تتخذ من الاقتصاد الموجه نظاما لها ، لكنه أبدا لم ينحاز الى فكر بذاته بل اتخذ من كل ما قرأ زادا فكريا وثقافيا يعينه على استشراف فكر مصرى تابع من الأرض المصرية ، فكر لا يتحيز ولا ينقاد الى عقائد ونظريات متفرجة أو متغربة عن الواقع المصرى . لقد أحس السادات ، من خلال تجاربه العديدة ، كمناضل ثورى ، وكمثقف متقدم ، أن « الانحياز » لنظرية ما أو عقيدة ما (مستوردة) ، هو ضرب من « الدوجمائية » وإن مصر التي ترعرت على أرضها حضارة عمرها سبعة آلاف سنة ، قادرة على أن تجد فكرها المتميز الواضح ، من خلال التفتيش عن كنوزها الكامنة في أرضها وداخل الانسان المصرى نفسه . . وما الثقافة العالمية ، أو الفكر الانسانى ، الا معبر وقتطرة للاحتكاك بمتغيرات العصر ، للاستفادة منها ، بما يخدم أفكار مصر الأصيلة نفسها . . لقد قرأ مختلف الأفكار والمناهج ، ابتداء من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ابتداء من رديارد كبلنج وتشرشل وكليمنصو الى ماركس ولينين وجيفارا ، ابتداء من عتاة الفكر التجريبي والفلسفة العملية والنفعية الى الماركسيين والجدليين والماديين ، كما قرأ تاريخ حضارات الشعوب من مصرية قديمة الى هندية وصينية الى اغريقية ولاينية ، وقرأ الفكر الاسلامى والتراث العربى على اختلاف عصوره وعهوده من الجاهلية الى صدر الاسلام الى الأمويين الى العباسيين وما أعقبهم من تطورات فى مدارس وتيارات الفكر العربى ، ومن خلال ذلك كله أحس ان الفكر المصرى المعاصر ، لا بد أن يتمثل كل متغيرات العصر ، لكنه لا بد أن ينبع من الأرض المصرية نفسها : « حضارة اليوم ، وحضارة الغد ، امتداد أصيل للحضارة المصرية ، وتمثلها لكل متغيرات العصر » .



كان نابليون بونابرت معجبا بالشاعر الألماني جوته ، وقال لأصحابه ذات مرة : « هل تريدون أن تروا رجلا ؟ هذا هو » ، وكان ابراهيم لنكولن معجبا

بالسيدة الصغيرة التي أثارت الحرب الكبيرة ولعبت دورا كبيرا من أجل القضاء على الرق والدفاع عن الديمقراطية ، وهى الكاتبة هانرييت ستاو ، مؤلفة (كوخ العم توم) ، وكان ارنستو جيغارا ، معجبا أشد الاعجاب بالكاتب الأمريكى أرنست همنجواى ، وقال عنه « انه مخلص فى الكتابة الى حد الموت ! » ، وأيضا ، الشاعر الشيلى الذى قتلته الفاشية منذ فترة ليست بالقصيرة ، بابلو نيرودا ، كان شديد الاعجاب بالكاتب التشيكي جوليس فوتشيك ، وقال عنه : « اننا نعيش فى عصر سوف يطلق عليه يوما ما فى الأدب والسياسة عصر فوتشيك » .. وأيضا ، أنور السادات ، القائد ، والمعلم ، والبطل ، والزعيم ، الانسان والفنان ، له كتابه الذين يعجب بهم وقرأ ويقرأ لهم ، فهو شديد الاهتمام بالأدب والفن ، واشتغل فترة ليست بالقصيرة كصحفى وأديب ، ومارس فنون الكتابة على اختلاف ألوانها ، من مقال سياسى الى قصة الى كتابة الشعر ، لذلك تراه قد انغرس فى قراءة أعمال الكثيرين من الأدباء والفنانين ، بين من أحب الكاتب الانجليزى تشارلز ديكنز ، الذى كتب (قصة مدينتين) ، و (الآمال الكبار) ، و (مستر بيكويك) ، و (الصغيرة دوريت) ، و (أوليفر تويست) وقد أحبه ، لبساطته وعمقه واصالته فى التعبير وارتباط كتاباته بالاصلاح الاجتماعى فى المجتمع الانجليزى ، فهو الكاتب الذى تنبه الى حقيقة هامة عندما تحدث عن لندن الارستقراطية ولندن الفقيرة - قاع المدينة ، فقال : « يبدو ان ، كآمتين ، داخل مدينة واحدة » . ونفس التعبير استخدمه من بعده الماركسية ، وحاول أن يحلله ماركس ثم لينين فى كتابيهما : « الثورة الماركسية » ، و « الدولة والثورة » .. وأعجب ، أيضا بكتابات : برناردشو ، و ه.ج . ويلز ، وسومرست موم ، و بيرل باك ، وليو تولستوى ، ولويد دوجلاس ، ومارك توين ، وبرتراند رسل ، وغيرهم .. كما أحب كتابات طه حسين ، ومحمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ويوسف السباعى ،

ولعجب محفوظ ، ومصطفى محمود ، وأحسان عبد القدوس ... والفن ، في نظر السادات ، ليس وسيلة لتزجية وقت الفراغ ، فهو لا يؤمن بنظريه (الفن للفن) ، وإنما الفن وسيلة لتطوير المجتمعات والسير بالواقع الى الأمام ، والأفضل حضاريا وفكريا وماديا .. ومن الكتب الأثرية الى طب السادات : الأرض الطيبة (تأليف بيرل باك) ، الرداء (تأليف : لويد دوجلاس) ، كوخ العم توم (تأليف : هانرييت ستاد) ، البحث (تأليف : ليو تولستوى) ، على هامش السيرة - الأيام (للدكتور طه حسين) ..

والسياسي في نظر السادات فنان بطبعه ، والعكس صحيح ، والسياسة والفن ، لا يمكن أن يفصلا عن بعضهما ، فكلاهما يشارك في بناء الإنسان ، ويعملان على تقدمه فكريا واجتماعيا الى الأمام ..



في كتاب جان بول سارتر عن فيديل كاسترو (عاصفة على السكر) ، يقول سارتر : « ان السياسة المعاصرة ، لا تعنى نصائح ميكيا فيللي لأميره لورنزو دي مديسبس ، وأن تحاول أن تقتل خصمك قبل أن يقتلك ، وأن تضع السم الزعاف في كأس صديقك ان اختلف معك على السلطة ، وليست أيضا السياسة : الغاية تبرر الوسيلة .. إنما السياسي لا بد ان يكون بسيطا قويا ، متزنا ، حكيما ، مدركا لكل متطلبات الجماهير من ناحية وللمرحلة ، ومدركا أيضا لمعطيات الظروف الخارجية » . ومن نفس المنطلق ، نجد السادات يتحرك ، في بساطة ، وفي وعي ، وفي ذكاء ، وفي حكمة ، معبرا عن متطلبات المرحلة في اصالة ، متفهما لكل متغيرات العصر ، محاولا كسب أكبر عدد من الأصدقاء وربطهم بالقضية المصرية والعربية على حد سواء ، فهو يرى ان كلمة الصدق والحكمة ، أقوى ألف مرة من الفاتوم والميراج ، بل والقنبلة الهيدروجينية .

وهو لا يؤمن بسياسة العنف ، ولا القهر ، بل يدمع كل ما من شأنه أن يعوق حريات وديمقراطية الجماهير ، وطوال فترة الخمسينات والستينات ،

وقبل أن يشغل منصبه كرئيس جمهورية في أكتوبر ١٩٧٠ ، كان هو الوجه المشرق للحريات والديمقراطية ، وكان هذا يتضح من خلال مقالاته التي كان ينشرها على صفحات مجلة (التحرير) وعلى صفحات جريدة (الجمهورية) فلطالما تكلم عن الحريات والديمقراطية ، وأثرهما في خلق المواطن الحر الصالح ، الذي يمكنه أن يشارك في المد الثوري ويدفع بالثورة الى الامام فـ « ثورة بلا حريات ولا ديمقراطية ، لا يمكن ان نسميها ثورة ، وثورة تحمل هذه الشعارات كمجرد لافتات ، في النهاية حركة جوفاء سرعان ما تنهار ، وطالما أن الثورة لم تصل الى قلب الجماهير وتحرك نبضها للعمل ، فهي قاصرة ومبتورة » .

وكان السادات ، يتحدث في قضايا الحريات والديمقراطية ، بشكل دائم لا داخل مصر وفي المنطقة العربية فحسب ، بل ومع الزعماء الذين التقى بهم، ففي الخمسينات التقى بنهرو وتيتو ، ودار الحوار بينه وبينهما حول « مفهوم الديمقراطية » وأهميته في الدفع الثوري ، وفي نجاح الحركة الثورية ... ومن خلال لقاءه « بنهرو » عرف ان « المعارضة » ، داخل صفوف الشعب هي نوع من الظروف الصحية التي تضمن الحريات للمواطن ، وتجعله يتبين الخطأ من الصواب ، ومن « تيتو » ، عرف كيف ساهمت الديمقراطية في انجاح نظامه ، رغم ما تعرضت له يوغوسلافيا من هجمات داخلية وخارجية ، ففي الداخل كان اعداء ليسوا بالهينين ، وفي الخارج وصفت يوغوسلافيا بأنها تنسلخ عن الأممية وتخلق نظاما لعبادة الفرد ، وهو « التيتوية » ، لكن حريات الشعب والديمقراطية ، أكدت نجاح التجربة اليوغوسلافية وسلامتها ، وأصلاتها ..

وبنفس روح البانديت نهرو ، ومن نفس منطلق حرية الفكر والاعتزان حتى مع « الخصوم » ، قال السادات عندما قدم بيانه الى مجلس الأمة في ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ عقب الاستفتاء الشعبي على رئاسة الجمهورية .. قال انه سعيد بأن جزءا قال : (نعم) ، وآخر قال : (لا) ، فهذا يمثل ظاهرة صحية لها

احترامها . وكان وهو يؤكد ذلك ، يذكر تلك المقابلة التي تمت بينه وبين
نهر و منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، عندما رآه يصفح خصومه بمودة وحب
معلنا عن روح المفكر الموضوعى الحقيقى ، الذى يستمع الى كل الآراء ،
ويلغور الموقف تجاه الشعب فى صدق أصيل .
قال السادات تعليقاً على ذلك الاستفتاء :

« لا بد ان اصارحكم اننى اعتزل بالنتيجة التى اسفر
عنها الاستفتاء الشعبى . ان أكثر من ستة ملايين قالوا : (نعم)
وأكثر من سبعمائة الف قالوا : (لا) . واعتبر بأمانة ، ان هذه
ظاهرة صحية ، وان كنت اود ان اضيف اعتقادى الشخصى ،
بان الذين قالوا : (لا) ، لم يقولوها اعتراضا على الثورة .
وانما كان هولهم لها تحفظا على المرشح لرئاسة الجمهورية
نفسه . ان ذلك - واصارحكم القول - لم يسبب لى اى ضيق
ولا اعتبره مدعاة للأسف . انما اعتبرته ظاهرة صحية ، فان
هذا الشعب لا يجب ان يمنح ثقته المطلقة لفرد بعد جمال
عبد الناصر ، بل لقد كان جمال عبد الناصر نفسه أعلى الأصوات
تحذيرا من اعتماد الأمة على الفرد . واننى اعدكم اننى ساكون
للجميع للذين قالوا : (نعم) ، وللذين قالوا : (لا) . ان الوطن
للجميع ، والمستول فيه مؤتمن على الكل بغير استثناء . لقد
شرفنى ان يقول أكثر من ستة ملايين رأيهم بنعم ، واعتبرت
ذلك حسن ظن مسبق أعتر به ، وأرجو الله ان يمنحنى القدرة
على ان لاكون أهلاً له ، وجديراً به . . . ولقد شرفنى ، فى الوقت
نفسه ، ان يقول أكثر من سبعمائة الف رأيهم بلا ، ولم اعتبر
ذلك رفضاً ، وانما اعتبره حكماً مؤجلاً ، وأرجو الله ان
يمنحنى القدرة على ان اصل بالأمانة الى حيث يجب ان تصل
الأمانة ، وان يجيء الحكم المؤجل قبولا حسنا ، ورضاً من
الناس والله فى نهاية المطاف » .

أحسن السادات بالرضا الكامل ، لدى ما حدث فى ذلك اليوم ، لأنه
أحسن بأن (المصرى) يقول : (لا) ، ويقول ، أيضا : (نعم) .. وهذه
أوليات المناخ الصحى الذى يبنى ان يوسع رفعة ، كهدف ديمقراطى يرمى
اليه .

كانت ليلة عاصفة ، حقا ، تلك الليلة :

ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ ..

فقد أعلنت مبلاد مصر من جديد ..

مصر التي تأملت كثيرا ، ونكست ، وهزمت ، وسجنت ، لا لشيء ،
الا لعدم وجود ظروف صحية تحمى (المواطن) ، ولتنشئ مراكز القوى ،
ولتسبب وتسلب القيادات الانتهازية والتسلقية ..

وكان السادات ، يحس ، فى أعماقه ، ومنذ وقت طويل ، أن كل هذه
المفاسد والمبائات والأمراض ، هى الأسباب الأساسية التى أوصلت مصر الى
هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وكان يعلم علم اليقين ، بأن مصر لن تنهض ، ولن
تتخلص من (كبوتها) هذه ، وتستعيد روحها من تحت ركام العتبات
والياس والظلام ، الا اذا ضربت هذه المفاسد مقضى عليها ..

وكانت حركة التصحيح بين يومى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والتي تحولت
فيما بعد بما يمكن أن نسميه « ثورة » ، لأنها غبرت من العلاقات الاجتماعية
والقيم والأفكار والأهداف ، الى كل ما من شأنه أن يعيد للشورة شبابها ،
حتى تستعيد مصر روحها من جديد - هذه الروح التي افتقدتها تحت رماد
اليأس والجراح لاكثر من خمس سنوات .. وكان ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣
نتيجة طبيعية لتصحيح مصر ، فقد انقشع الضباب ، وبانت الرؤية واتضحت ،
وعر (الانسان المصرى) لا الى الشاطئ الآخر من القناة ، واستعاد
(أرضه) ، بل وأيضا ، وهو الأهم ، استعاد روحه ونفسه التي افتقدتها
اسنوات وسنوات ..



لقد سحر السادات العالم ، بأفكاره وأعماله ، فى فترة وجيزة ، فخلال
سنوات أربع منذ « ثورة التصحيح » حتى الآن ، استطاع أن يستعيد
مصر ، من خلال (العبور العظيم) ، وسيادة القانون ، واطلاق الحريات

الوطنية والديمقراطية ، وتحركه العظيم الذي اكتسب على المستوى العربى
قوة عظيمة من العرب جمعهم وأعادت لهم من خلال الارتباط النفسى
والمعنوى والمادى والحضارى ووحدته الصف العربى ، وعلى المستوى العالمى
جعل كل العالم يرتبط بمصر ويؤمن بفكرها وعدالة قضيتها ، حتى ان الكاتب
الأمريكى نيقولاس بروفيه قال عن السادات :

« وفق السادات ، توفيقا يكاد يكون معجزا وخارقا ،
فالى جانب الاستحواذ على انتباه العالم ، ثبت للعالم كله ،
ان ما حدث فى عام ٦٧ كان ظرفا طارئا ، زيفا مضللا ،
وهكذا اعاد الشرف والكرامة الى المنطقة بعد ان افتقدتهما
لفترة ٥٥ »

بينما قال الكاتب الفرنسى جاك كوبرار :

« ان حرب اكتوبر ، جسدت شخصية انور السادات .
رمز مصر نحو التقدم والتطور ، وغبرت من خريطة الوطن
العربى فكريا ونفسيا ، الى جانب التغير العسكرى الذى حدث
وهذا غير من عواطف العالم تجاه مصر ، فمنطق السادات
نس منطق حرب بالقدر الذى يبدو كمنطق سلام يستهدف
حل القضية فى جوهرها لانهاء حالة الالتهاب والتوتر فى المنطقة »

وكتبت مجلة « التايم » الأمريكية ، تعلق على رحلته الى سالزبورج
ولقائه بالرئيس الأمريكى جيرالد فورد فى الفترة الأخيرة ، تقول :

« ان شخصية السادات ، هى لسان حال العرب . انه
يمثل مائة مليون عربى ، ينزعون الى حل قضيتهم وانهاء حالة
التوتر فى المنطقة . ومنذ عام ١٩٤٨ ، منذ الصدام والحرب بين
العرب واسرائيل ، لم تات الى المنطقة شخصية جادة ، وحكيمة
تنزع الى حل القضية وتقنع الراى العام العالمى كشخصية
السادات ، وهذه المحادثات واللقاءات التى تمت فى سالزبورج
من الممكن ان تكون صفحة هامة فى تاريخ انهاء الحرب التى
استمرت فى المنطقة والهبثها طوال ٢٧ عاما »

بينما قال مراسل صحيفة «الاكسبريس» :

« ان شخصية السادات ، تؤكد في كل يوم ، انه شخصية غير عادية ، فهو ليس بطلا قوميا للعرب ، وليس سياسيا بارعا وحكيما ومتزنا فحسب ، بل هو أكثر من ذلك .. انه يؤثر في مسار دفة السياسة الدولية وفقا لمتطلبات المنطقة وأهدافها التي يسيّر بها في اخلاص نحو انتهاء حالات التوتر والحرب التي ادهقتها طويلا » .



أن أنور السادات ليس بطلا قوميا فحسب ..

بل ولا شخصية سياسية عالمية محكمة فحسب ..

بل ولا لسان العرب المتحدث باسم متطلباتهم السياسية والحضارية والفكرية الملحة فحسب ..

انه قائد ، ومعلم ، وافراز للمرحلة الحضارية الانسانية ككل — تلك المرحلة التي يحيها عصرنا ، ولا تعيشها المنطقة فحسب ، فهو لم يعد يؤثر في المنطقة فكريا وحضاريا وسياسيا فقط ، بل انه أصبح يؤثر في العالم ككل ، بفكره ، بفلسفته ، بحكمته ، بشخصيته القريدة الفذة ..

انه فارس الأمل .. لكل الظالمين للحريات ..

انه فارس الأمل .. لكل المتعطشين للديمقراطية ..

انه فارس الأمل .. لكل الأحداث التي ستشهدا المنطقة العربية ، لتواصل ركبتها الحضارى ، وفقا لمتغيرات العصر ، لتعوض ما فاتها من تقدم علمي وحضارى ، قائم على الثورة الثالثة في العلم والصناعة : ثورة التكنولوجيا ، القائمة على الالكترونيات والكمبيوتر ..

وان ما يحدث ، اليوم ، على الأرض العربية ، ستفخر به الأجيال القادمة فهو يمهّد ويرهّص لكل ما من شأنه أن يكون مجدا ومفخرة للقادمين في

انغد .. سيقولون ذات يوم : ان السادات مر من هنا ، وفارس الأمل صنع كذا ، وفعل هذا ، وحول المنطقة من مجتمعات قبلية ومن حالة يأس قاتلة الى دولة عصرية تقوم علاقاتها على التقدم الحضارى والتطور العلمى والروح العربية الأصيلة ..

ربما كل هذا ، ما جعلنى ، أقدم على هذه المحاولة ، فى أن أكتب مؤلفا كهذا « السادات .. وثورة التصحيح » ، فكيف أحيأ أياها عظيمة كهذه ، أشبه بالمعجزات ، ولا أكتب عنها ، وكيف أرى روح مصر يتفجر دفنها من جديد لتصنع المعجزات ، ولا أسجل عنها خواطرى ورؤاى .. وكيف أرى ممة بسرها : مائة مليون عربى يتطلعون الى مزيد من الأعمال التى تنقل المنطقة الى ركب العصر الحديث ، ولا أعبر عن خلجاتى وانطباعاتى عن « فارس الأمل » - المخلص الذى جاء كافرارز للمرحلة ، ولأبل ما فى أرضنا وأرواحنا وتاريخنا وحضارتنا من قيم وفكر ونبل ؟

ان كل هذه الأحاسيس ، كانت وراء هذه المحاولة ، التى أتمنى أن أكون قد وفقت فيها ، ومهما كتبت ، ومهما قلت ، ومهما حاولت أن أحلل وأفسر وأحقق وأقرأ هذه الأيام ، فلا أخالنى أصل الى كبد الحقيقة ، فما يمر بمصر أشبه بالحلم .. الحلم العظيم الذى يصل الى حد المعجزات ..

القاهرة : أكتوبر ١٩٧٥ .

عبد المنعم صبحى

الفصل الأول

من القرية.. إلى الرئاسة

((أن السنين التي عشتها في القرية قبل أن أنتقل إلى المدينة ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسي ووجداني بالصفاء والايمان .. . فهناك ، تلقيت أول دروسى في هذه الحياة .. . تعلمتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التي لا تبخل على الناس بالزرع والثمر ، وتعلمتها من سماء قرينتنا الصافية المشرقة .. . تعلمتها في ظل الجميزة الخضراء ، الصامدة ، وعلى لسان الصفصافة الخجول الوديع .. . تعلمتها على حافة الجدول الصغيرة ، الذى ينقل إلى الحقول ترياق الحياة فى رضا وقناعة .. . تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهادئة .. .))

أنور السادات

صغيرة وادعة آمنة ، لا تختلف ملامحها عن أية قرية مصرية ،
لا في نبتها ولا في بيوتها ولا في طرقاتها المتعرجة .
الارض الطيبة تمتزج بعطر النبت والأزهار أينما سرت وأينما
وقعت قدميك . لا تبعد عن القاهرة بأكثر من ساعة ، تقطعها
في المواصلات العادية .. القطار أو الأوتوبيس .

أ
ق
ر
ي
ة

قرية « ميت أبو الكوم » ، التي شهدت ميلاد القائد المناضل والمعلم :
محمد أنور السادات .. هذه القرية الصغيرة - الكبيرة ، التي لا يسكنها
أكثر من ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحتها عن ألف فدان ، تحتل مكانة عالية
في حياة السادات ، وتمتد داخله مورقة زاهية ، تلقى الكثير من الظلال
والأبعاد على فلسفته ومعتقداته وأفكاره ، فهي القرية التي نما بين دروبها ،
وتنفس عطرها ، وشهدت صباه وشبابه ، وتلقى فيها أول تعليمه ، وطبعت
على وجدانه الصور الأولى التي شكلت علاقته بالوجود . والإنسان
- عموما - ابن البيئة ، نبت لها ، افراز لها ، ازدهار لها . وخير الرجال من
قادة الى ساسة ومفكرين ، كانوا انعكاسا للبيئة ، وما نسج على وجدانهم منذ
أيام الطفولة والصبا ، أثر في تكوينهم الى حد كبير ..

غاندى .. الزعيم الهندي الكبير ، حمل في أعماقه طوال رحلة العسر
صورة القرية الصغيرة البائسة التي ولد على أرضها ، صورة الهند المصغرة ،
حتى أنه قال : « دائما ، كنت أحمل داخلى صورة العذاب والبؤس والشقاء
التي رأيته منذ كنت صغيرا في قريتي . ان صورة الشقاء هذه ، نموذج مصغر
لصورة الشقاء الكبرى التي تحياها الهند ، والتي لا بد أن تسقط عن قلوب
أبنائها حتى يتمكنوا من العيش بلا مرارة أو تعاسة أو مهانة » ..

ابراهيم لنگولن .. محرر العبيد ، وحامل لواء الديمقراطية الأمريكية في
منتصف القرن الماضي ، كان لطفولته وللظروف الصعبة التي نشأ فيها فع

الغابات والأنهار مع الفلاحين والصيادين ، أثرها في جعله واحدا من أبطال التاريخ . فقد ولد ابراهام لنكولن في كوخ خشبي صغير داخل مزرعة صغيرة في غابات كنتكي المعروفة الآن بلارو كاوتى ، وقد كانت أيام طفولته وصباه معذبة شقية ، أتاحت له أن يرى بلاده عن قرب ، حتى انه قال عندما نصب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية في مارس عام ١٨٦١ : « لن أنسى طول ما حبت ، تلك الأيام العصيبة التى عشتها فى صباى ، هائما شريدا ، فقيرا تعسا ، انتقل من فقر الى فقر ومن عذاب الى عذاب ، هذه الأيام العصيبة هى التى صاغت ابراهام لنكولن ، فالأفراد كالأهم ، حالات الشقاء والأزمة تشترك فى صنعها وصياغتها .. لو لم أكن تعسا لما أحسست بتعاسة وطنى ، ولو لم أكن شقبا لما أحسست بعبودية وطنى » ..

جيفارا .. كذلك ، كان للظروف الصعبة التى نشأ فيها فى الغابات والأنهار ، مع الفلاحين والصيادين ، أثرها فى جعله واحدا من أبطال عصرنا .. نهرو .. كذلك ، كان للظروف القاسية التى عاشها فى قرى الهند ، أثرها فى صياغة شخصيته وفى اقترابه من قلب بلاده ، حتى انه قال : « القائد لا يصنع من هباء . كل خلجة من خلجاته ، كل تصرف من تصرفاته ، انعكاس لتربيته الأولى ، ولا أنكر أن نشأتى الأولى قد أثرت فى حياتى عميق الأثر » ..

كذلك قرية « ميت أبو الكوم » ، كان لها تأثيرها العميق والمتعظم ، فى تكوين الملامح الأولى لبطلنا . فقد كانت هذه القرية الصغيرة - الكبيرة ، بمثابة الجامعة الأولى فى حياة السادات ..

أكثر من يوم عشته داخل قرية « ميت أبو الكوم » - قرية السادات ، وأنا أنتفس عطر البيئة الأولى لقائدنا الكبير . هذه القرية التى لا يزيد عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحة أرضها عن ألف فدان ، تتبع مركز تلا - أحد مراكز المنوفية الثمانية ، وتبعد عن شبين الكوم عاصمة محافظة المنوفية بـ ٢٤ كيلو مترا ، بينما تبعد عن تلا بـ ١٥ كيلو مترا ، وتحوطها قرى

زرقان وطوخ دلثة - والأخيرة تتبعها من ميت أبو الكوم من الناحية
الإدارية والمدينة ، ففيها نقطة الشرطة ومجلس القرية ..

وقرية ميت أبو الكوم ، التي لم تدخلها الكهرباء الا منذ خمس سنوات
من الناحية المادية والاقتصادية ، قرية بسيطة ، فقيرة ، الملكيات فيها لا تزيد
في المتوسط عن عشرة فدادين ، وبرز الأسر في القرية : السادات ، الصباغ ،
بدر ، ماضي - والأسرة الأخيرة منها عمدة القرية « محمد محمد ماضي » ،
الذى التقى به ، وتحدث معى فى فخر واعتزاز .. كيف أن هذه القرية
الوادعة الآمنة قد شهدت ميلاد السادات ، فقد ولد على أرضها ،
فى بيت ريفى صغير ، تحوطه أشجار الجازورينا والسيبان والتمر حنه ..
ولد ابن القرية العظيم منذ ٥٧ عاما ، فى بيت قريب من مسجد سيدى
أبو الكوم « سيدى أبو القوم » ، الذى يتوسط القرية ، والذى
ينسج الفلاحون حول بركاته وكراماته الكثير من الحكايات . فهم يقولون ،
أن « أبو القوم » كان واحدا من رجال « سيدى شبل » ، الذى يعرف بأمر
الجيش ، جاء الى القرية منذ ١٤ قرنا ، واستقر به المقام ، ولما مات أقام أهل
أهل القرية له مقاما اعترافا منهم بأفضاله ومآثره على القرية فى البر والجهد
والتقوى ، وسيت القرية التى كانت بمثابة ربوة ، التى كانت تعرف باسم
« عزبة الربوة » ، سميت باسم « أبو القوم » ، وتحورت مع الزمن الى
ميت أبو الكوم ومقام سيدى أبو القوم - أو سيدى حسن الكومى ،
يلتفت حوله أهل القرية والقرى المجاورة للاحتفال بمولده فى ١٥ أكتوبر من
كل عام .. وكثيرا ما كان يذهب بطلنا ، وهو صغير لم يتجاوز سن العاشرة
بعد الى المولد مع رفاقه وأصدقائه ، يستمع الى القرآن والابتهالات . فقد
كان فى طفولته وصباه محبا للقرآن ، حتى انه حفظ القرآن كله وسنه لم
تصل بعد الى الثانية عشر ويؤكد شيخ الكتاب ذلك بنفسه ، وهو الشيخ
« عبد الحميد عيسى » شيخ طاعن فى السن ، جاوز الثمانين من عمره . يقول
الشيخ عبد الحميد عيسى : « أذكر أن السادات ، عندما جاء الى الكتاب ،

وكان ذلك في حوالى عام ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، كان تلميذا جادا ، محبا للفرآن ، واذكر ان أباه قد أوصانى بأن أحفظه الفرآن بأسرع وقت ممكن ، ولم يكن الأب يعتقد أن ابنه سيحفظ القرآن كله في فترة وجيزة كالتى حدثت .

كان السادات ، الصبى الصغير ، في ذلك الوقت ، لا يتجاوز من العمر العاشرة ، عندما كان يتردد على مقام سيدى أبوالكوم ، في الظهيرة والعصاري يخلع حذاءه ، ويستلقى طلبا للراحة على الحصير - أو « القياس » يردد القرآن ويحفظه .. وفي الأمسيات كان يخرج مع رفاقه وأصدقائه الى الزراعة أو ترعة الباجورية ، يتمشون ، ويتنفسون هواء القرية ، وكانوا يعودون قبل غروب الشمس الى بيوتهم ، لأن قسرى مصر كانت تحيا في العتمات والظلمات من آثار الحرب التى جثت على صدر مصر طويلا ..

قريبا من مسجد « أبو الكوم » ، يقع كتاب القرية ، أو بعض أطلاله ، التى أعيد ترميمها ، لكن « الشيخ عيسى » ، الذى علم السادات في طفولته لا زال يذكر ، رغم أن الأحداث مر عليها أكثر من نصف قرن . والشيخ عيسى ، يقابلك بابتسامته الودودة ، وقامته النحيلة ، وجسده المعروق ، يبسمل ويحوفل ، ومن خلال ثمانين عاما ينظر في وجهك مليا بعينيه الضيقتين الشبيهتين بحبات الخرز ، ويردد : « زارنى هنا . وجلس معى . ولا يمر عام الا ويزورنى ، ويزور أهل القرية . رأيت منذ مدة ليست بالبعيدة . دعا لى بطول العمر ، ودعيت له أنا بالبقاء واخضرار أيامه . ربنا يحفظه لمصر وللدنيا كلها ، ويخلى أيامه كلها نور زى ما خلى أيامنا كلها نور في نور » .

والشيخ عيسى - أو سيدنا ، كما يناديه السادات ، يذكرك بـ « سيدنا » في كتاب قرية طه حسين بعزبة الكيلو في الصعيد ، والذى تحدث عنه في روايته (الأيام) طويلا .

وبيت السادات ، في القرية ، بيت صغير ، متواضع ، من دور واحد ، ليس له أسوار . في الخارج المصطبة والمضيقة التى يجلس فيها مع أهله

وأقربائه إذا ما زار القرية ، وحول البيت ، تنتشر بعض أشجار الجميز
والسيسبان والتمر حنة ، وتمتد الدروب لتتشابك بدروب وحوارى أخرى
تشكل القرية الصغيرة - الكبيرة ..

في هذه الدروب ، نبتت الأيام الأولى للسادات . كان طفلاً فقيراً ، نشأ في
السرة متوسطة الحال ، جاهدت وبدلت الكثير حتى تلحقه بالمدرسة الحريه ...
ان انطباعات الطفولة الفؤارة القوية ، التي ظل السادات زمناً طويلاً يحسب
أنه قد نسيها تماماً ، والتي عادت بعد أن مر عهد الأحلام في حياته - هذه
الانطباعات ، هي التي تحدث عنها في أكثر من مناسبة ، وهي التي شاركت
في صياغته الأولى . فمن خلال علاقته بفلاحى القرية ، تعرف على حياة
الفلاحين التمساء ، وبالتالي ، تعرف على بؤس مصر ، فالفلاحون يمثلون
السواد الأعظم من شعبنا ، وهم يمثلون ٢٠ مليوناً من الأنفس ..

نظر السادات حوله بعينه .. الى القرية الصغيرة .. الى البيوت المصنوعة
معظمها من اللبن والآجر ، وإلى الأشجار ، وعيدان القمح اللينة ، ولم يكن
بعد صبياً ثم نظر الى الفلاحين ، الذين يفتشون الأرض تحت شجرة الجميز
أو الى جوار الساقية أو على الأرض المجاورة للمصرف ، يأكلون الجبن
والبصل أو السريس والجعضيض ، ثم تنهد طويلاً في ألم كيف يعطى هؤلاء
هذه الخضرة العظيمة ، نبت الأرض ، كل نبت الأرض ، ولا يأخذون
الا الشحيح والشحيح جداً من الطعام .. !

ونظر الى بيوت الفلاحين . معتمة معظمها . بأسنة معظمها .. ليست
الا حجرة في الغالب الأعم ، تعلوها كوة صغيرة ، يتسلل منها الضوء الكلابى
للشمس في النهار ، ولا يزورها ضوء القمر في الليالى الطويلة .. وأحس
بالحزن ! كيف يحيا هؤلاء داخل هذه البيوت الوضيعة ، وهم الذين يمنحون
الحياة لكل الناس بقوة كدحهم اليومي وبصبرهم الذى لا يفل .. !

أن السادات الصبى يحلم ..

عيناه تتفتحان عن أمل عظيم .

أمل أن يرى بلاده حرة تنبسم . أمل أن يرى الضحكة في عيني أهل
فريه الصغيرة . هؤلاء الذين يمنحون النبت والطحين والثمار والبسات ،
لا يكون القدرة على الابتسام من فرط شقائهم .. !
في أجازات المدرسة الصيفية ، لم يكن يذهب الى القاهرة أو الاسكندرية
كأبناء البورجوازية الموسرين ، بل كان يذهب الى قريته « ميت أبو الكوم »
يتنفس مع أبناء الفلاحين الصيف والعذاب والقلق والشقاء . لقد كانت
طفولته قلقة ، شريفة يملؤها الحلم بأمل عظيم ، أن يرى عيون بلاده بلاد موع
وبلا تعاسة !

علاقة القائد أو المفكر أو السياسي بقريته التي ولد ونشأ وتربى فيها ،
لا تنفصل أبدا عنه .. ودائما ، تظل سنوات الطفولة والصبا والشباب حية
ملسمة في وجدانه ، وبوعى أو بغير وعى ، تنسل الى أفكاره ومواقفه هذه
الثقافات والأفكار الأولى التي انطبعت في مخيلته في القرية . فقرية
« اكراتينسلاف » التي شهدت طفولة وصبا الكاتب والمفكر الروسي
ليو تولستوى ، الذي كتب « أنا كارينا » و « البعث » و « الحرب
والسلام » و « الأب سرجيوس » ، لم تنفصل ، أبدا ، عن حياته ولا أفكاره ،
ولم يكن ليطلق البعد عنها كثيرا ، حتى انه تحدث عن ذلك في كتابه (عهد
الطفولة) ، فقال : « ما أمتع هذه الأيام ، أيام الطفولة التي لا تمنحني ذكراها ،
وكيف ينسى المرء اللسعات الأولى في حياته ، فهذه الذكريات عن قريتي ،
وعن مزرعة ياسنينا بوليانا الريفية ، لتنعش روحي وتسمو بها ، فهي النبع
العظيم لأعظم فيض من السرور يغمرنى ، وأى وقت هو خير من ذلك
الذي لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما في الفضائل أجمل
فضيلتين : اللهو البريء ، ورغبة النفس في الحب رغبة لا تحد .. في إطار
هذه البراءة ، وفي ظلال ذلك الحب الطفولي تفتتح عيناى على روسيا ،
من التربة ، من المزرعة الصغيرة صور الفلاحين المتنوعة في بحثهم عن الحياة
بقدر الامكان وبشق الأنفس ، صور بلادنا التعيسة التي تتمزق في عيون

وصدور هؤلاء البؤساء ، ألف وألف مرة في اللحظة .. الفلاحون في بلادى ، كانوا الوجه الجريح في طفولتى الذى حرك مشاعرى وأحاسيسى نحو الحياة .. فكيف أنسى صور الطفولة ، هذه الصور العظيمة التى كانت ميلادى الأول ١٩ » .

كذلك الشاعر الأمريكى « روبرت فروست » ، لم يفصل ، أبدا عن قريته التى تلفها التلال وتغمرها المسيلات المائية ، ودائما كانت أشجارها وأطفالها ورجالها ونسائها تطل عبر القصائد والأشعار التى يكتبها . . . وفروست ، واحد من ثلاثة مفكرين ، انزلوا في قراهم ، وعاشوا حياة الفلاحين وآثرت في تكوينهم الى أبعد الحدود ، وهؤلاء الثلاثة هم: روبرت فروست ، ووليم فوكنر ، وميخائيل شولوخوف . وإذا كان شولوخوف قد بدا من قريته القوقازية التى تطل على نهر الدون ، محاولا الوصول الى قلب العالم فكرا وفلسفة ورؤية ، فان فروست قد اهتم بالطبيعة ، وآثرت فيه قريته في تعميق هذا الاحساس الحى بالطبيعة ، وانعكس ذلك في شعره بوضوح ، أما وليم فوكنر ، فكان لجوءه الى قريته ، محاولا الاقتراب من داخل الانسان .. ويحضرنا في هذا المجال الدكتور طه حسين ، الذى كان لقريته « عزبة الكيلو » أثرها الواضح في كتاباته ، فهى دائما تعبسها وراء أعماله : « الأيام » ، و « المعذبون في الأرض » ، و « دعاء الكروان » ، وغير ذلك من أعماله ..

وكذلك كاتب ومفكر مثل عبد الرحمن الشرقاوى ، الذى تحس بقريته « الدالتون » تتسلل وراء أعماله المتنوعة « الأرض » و « الفلاح » و « قلوب خالية » .. وربما هذا ما جعل مناضل ومفكر وقائد مثل أرنستو جيفارا الى أن يقول : « تعلمت كثيرا من الكتب والنظريات السياسية والايدولوجية ، تعلمت كثيرا من كتابات ماركس وانجلز ولينين وماو وغيرهم من مفكرين ومتظرين فرنسيين وإيطاليين وألمان وإنجليز ، لكننى تعلمت أكثر من فلاحى وصيادى بلادى في قرى ومرتفعات سييرا ماىسترا . تعلمت البساطة منهم

مثلما تعلمت الشجاعة والأقدام والجرأة ، مثلما تعلمت الا أفكر في تهور أو
مغامرة خارقة ، كذلك فتحوا عيني على حقيقة شعبنا وأصالته . فكيف ألسى
هذه الدروس الأصيلة ، التى ولدت ونمت داخلى فى الصبا والشباب من
قرى بلادى التى ترتقب نتيجة هذا التعلم وهذه الدروس « ..
وربما هذا أيضا ، ما جعل السادات يقول :

« زرت بلادا كثيرة . لكن اجمل منظر ترتاح له نفسى
بيوت اهلى فى هذه القرية : ميت أبو الكوم »

فال السادات هذه الكلمات ، بعد أن غاب عدة أسابيع فى عام ١٩٦٦ بين
اوربا وأمريكا . لقد أحس بالغربة فى الخارج . لقد أحس بالوحشة وهو
بعيد عن أرض بلاده . فمهما طليت مدن العالم وزخرفت بمسح الحضارة
والتقدم والسدين ، فلا شئ يفوق روعة الاحساس بالارض الأولى ،
بالوطن ، بالقرية الصغيرة ، التى تحمل البراءة والبساطة والحب فى قلوب
أهلها ..

لقد قال لى واحد من أهل قرية ميت أبو الكوم .. ان أجمل لحظات حياة
السادات ، هى تلك التى يقضيها وسط الفلاحين ، بين أهله وعشيرته ، فى
بساطة وعفوية وتلقائية ، يجلس على الحصير - أو « القياس » ، ويستمتع
الى مشاكلهم فى حب ، وينصت الى كل الشكاوى ، وينادى بين الفينة
والأخرى على أحد الصبية ليناوله القلة ، ليرتوى وينصت الى بقية حوار
الأهل والأقارب والأصدقاء وأبناء القرية ..

فالقرية .. فى نظر السادات ، هى الصورة المصغرة ، والأولى للمجتمع ،
ولا يسكن فهم مشاكل المجتمع ، ككل ، فى تنوعها ، دون فهم هذه « الصورة
المصغرة » : القرية .. وعن طريق قرية « ميت أبو الكوم » ، وملاصقة
مشاكلها ، والاقتراب من قلوب أبنائها ، كانت « الانفتاحة » الأولى
للسادات ، نحو محاولة فهم مشاكل المجتمع المصرى العريضة . لقد أثارت
القرية ، فى نفسه ، سؤالاً ملحا ، منذ أن كان طالبا بالمدرسة الحربية ، فى

بداية الثلاثينات : « لماذا يحيا الناس هنا في آلم وتعاسة ، بينما يمرح غيرهم في المدينة ويطربون ، رغم أن هؤلاء يزرعون كل شيء للمدينة ؟ » . فانبسمه التي تتألق على شفاة أهل المرح والسعادة والانطلاق في المدينة ، أساسها ونبعها من القرية ، بينما صناع البسمة أنفسهم لا يملكون القدرة على الابتسام ، فحياتهم تمتلئ تعاسة وعذابا وشفاء ! وعلى حد تعبير القائد والمفكر الكوبي « فيديل كاسترو » : « ان القرية تضع البذرة الاولى لميلاد الأطفال ، بينما تحتطفهم المدينة ، تنوهم ، وتستولي عليهم ، باسم شرعية السلطة ، ويكسب صناع الميلاد الأول أرحامهم ، ويمضون الالمهم في حزن بينما أهل المدينة يتسمون ويضحكون ويرقصون لأن الهدايا قد جاءت اليهم من القرية ، بل يصرون على احتقار جهد هؤلاء الكرماء ، ويصرون على استغلالهم ، فهم يؤمنون ان الاعتراف بالجميل أو بالجهد الانساني قد يجعل هؤلاء الفلاحين يحسون بالالمهم الحقيقية .. وفي الحقيقة لن يصلح هذا التصديق ، الا اذا امتلك أصحاب البذرة الحقيقية مستقبل أبنائهم ، و ذلك الوقت تنحطم شوكة المتعجبين المستغلين ، ويعود الحق الى نصابه ، الى الفلاحين .. » .

لقد أحس السادات ، منذ البداية ، بذلك القهر الواقع على كاهل الفلاحين فهم يعطون ولا يأخذون ، يمنحون الثمار بينما تداس أعناقهم ومصائرهم بالأحذية ، يحيون في الظلام وفي ظلال النسيان ، لا طمأنينة في غدهم ، ولا مستقبل لهم ، ولا يملكون الا الحسرة والأحزان .. !

وتعمق هذا الاحساس لدى السادات ، عندما بدأ يقرأ كتب التاريخ والثورات .. قرأ عن مصر ، وعن فرنسا ، وعن بريطانيا ، وتابع بنهم تطور المجتمع في مصر .. وقد أحس ، منذ البداية ، أنه لا يمكن التحرك ، أو فهم الأسباب التي تجسد المأساة دون دراسة تاريخ هذا الشعب ، ومنذ بداية الحياة على ضفتي النهر ، منذ بداية الحضارات الأولى ..

ومن دراساته لحضارة وتاريخ مصر ، خرج بنتيجتين جوهريتين : أولا ..
 أن مأساة الشعب في مصر تكمن طوال سبعة آلاف سنة في ذلك التناقض
 الواقع بين السواد الأعظم المستغل المقهور والأقلية المستغلة والقاهرة ،
 ثانيا .. انه لا يمكن حل هذا التناقض ، الا باعادة الحق الى نصابه ، وقرار
 العدل وضمان مستقبل الشعب مصيريا وديمقراطيا ، وهذا لا يتأتى
 الا بدراسة مشاكل الشعب عن قرب وبالاقتراب من الناس ..



ذات يوم زار السادات قرية « ميت أبو الكوم » ، وجلس بين أهله
 وأقاربه وأصدقائه ومعارفه في القرية .. جلسوا في الغيط ، يحتسون الشاي
 الأسود ، ويتحدثون في مختلف الأمور ، وكان السادات ، لم يزر القرية منذ
 سنوات لانشغاله بالثورة مع زملائه . وكان ذلك بعد أن قامت ثورة ٢٣
 يوليو ١٩٥٢ ، بسنوات . كان الوقت يقارب الرابعة أو الخامسة بعد الظهر
 وكان ذلك الوقت يعنى للسادات شيئا ما ، وفي هذا المكان بالذات . ولما مر
 الوق ، واقترب الشمس من المغيب ، تلفت السادات حوله يمينا ويسرة
 وكأنه يترب زائر ما ، ثم لما أعياه الأمر ، سأل في دهشة :

— أين عم شحاتة بائع العرقسوس ؟

فقال أحد الجالسين :

— لم يعد يمر !

فسأل السادات ، في دهشة :

— ولم ؟

فقالوا له أنه أصبح لا يبيع العرقسوس . فطلب منهم ان يأتوا به ، وكان
 المساء قد تسلل الى المكان ، لكن السادات أصر أن يرى عم شحاتة بائع
 العرقسوس .

ولما جاء عم شحاتة ، سأل السادات :

— يا عم شحاته .. لم تعد تبيع العرقسوس !؟

فقال فى خجل .. ان القدرة قد تحطمت ، ولم يعد يملك المال ليشترى قدرة جديدة . فحزن السادات ، وقال له فى ألم :

— أنت أحد معالم قرية أبو الكوم .. كام سنة وأنت تبيع العرقسوس .

عشرات السنين . لا . لا . لا يمكن ان تتوقف . ستشترى قدرة

جديدة ..

ولم يمر يوما واحدا ، حتى عاد « عم شحاتة » الى تجارته الصغيرة ، وفى عصر اليوم التالى ، عاد الأطفال يتجمعون حوله ويجرون وينادون عليه ، وهو يصيح فى دروب القرية مرددا : « الخمير المتلج » !

وبين أهله وعشيرته .. ظل السادات يتحدث ، طويلا .. انه لا يريد للقرية أن تتغير ، ولا يجب ان يتوقف فيها أى شىء ، فهذه القرية جزء منه ، من دمه من فكره ، من تكوينه ، وهو يحس بالغربة كثيرا اذا ما غاب عنها ، فكل شىء فيها يذكره بأشياء عزيزة على القلب والوجدان ...

ويحكى الناس فى القرية ، وبالذات ، المعمرون منهم .. كيف كانت القرية تحيا منذ نصف قرن ، وبالذات عام ١٩١٨ ، وهو العام الذى ولد فيه السادات .. كانت قرية ميت أبو الكوم ، تحيا فى فاقة شديدة ، مثلها مثل أية قرية مصرية تعاني من آلام الاحتلال والقهر الذى تفرضه السلطة الرجعية كان الناس فى ذلك الوقت لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، فقد حطم الاستعمار الاكتفاء الذاتى فى الريف ، مثلما حطم الحرف الصغيرة ومعظم الصناعات القائمة ، وتحولت القرى المصرية الى مزرعة قطنية كبيرة تمتد انجلترا بالقطن المصرى وبأرخص الأسعار ، لذلك ليس غريبا أن تشهد سنة ميلاد السادات (عام ١٩١٨) توسعا مثيرا فى المساحة المنزرعة قطنا ، فقد زادت المساحة المنزرعة قطنا فى الريف من نصف مليون فدان عام ١٨٧١ الى مليون و٧٩ ألف فدان فى عام ١٩١٨ ، وارتفعت نسبة صادرات القطن من ٧٥ فى

المائة من جملة الصادرات عام ١٨٧١ أيام اسماعيل الى ٩٥ في المائة عام ١٩١٨ وبينما كانت مصر تصدر الى الخارج من المواد الغذائية بما يقدر بمليونين من الجنيهات عام ١٨٧١ ، أصبحت تستورد من المواد الغذائية بما قيمته سبعة مليون من الجنيهات عام ١٩١٨ .

وقد أراد الاستعمار أن تكون مصر مصدر ربح لرؤوس أمواله ، وأعلى ربح ممكن ، فقد بلغ ما وظفه من أموال أجنبية في بلادنا ٢٥٥ مليون جنيه وفق تقرير صادر عام ١٩١٨ ، وكان أكثر من مائة مليون من هذه الأموال موظفة أساسا في شركات الرهن العقاري وما شابهها ، ومهمتها أساسا منصبة على سرقة الفلاح الصغير ، في قرية « ميت أبو الكوم » أو « دنشواي » أو « بهوت » أو « سينتماي » ، أو غيرها من قرانا التي تمثل الريف المصرى بأكمله . وكان سند الاستعمار الأساسى هم فئة كبار الملاك ، طبقة الاقطاعيين الذين يستغلون الفلاحين عن طريق ايجار الأرض ، وقد ارتفع عدد الملاك الذين يملكون أكثر من ٥٠ فداناً من ١١٢٢٠ مالكا سنة ١٨٩٤ الى ١٣٤٨٠ عام ١٩١٨ ، وزادت أملاكهم من ١٩٩٧٠٠٠ فداناً في سنة ١٨٩٤ الى ٢٥٩٧٠٠٠ فداناً عام ١٩١٨ ، وهؤلاء هم الذين وصفهم الزعيم محمد فريد بقوله : « لو كان ذواتنا وكبراًؤنا من ذوى الشرف وأصحاب النخوة ، لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، ولكن الكل يغار على ماهيته أكثر مما يغار على اسمه واستقلال وطنه ، وكيف يكونون غير ذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على احتلال بلادهم ، ويساعدونهم الآن على اكمال ضمها لأملاكهم » .

وكما شهدت سنة ١٩١٨ تحطيما لاقتصاد مصر وحرقتها ، في الذروة ، شهد نفس العام ، أيضا ، تحطيم لثقافتها وفكرها ، في الذروة . فقد تحول التعليم الى كتاتيب ، وأصبح التدريس حتى في المدارس الابتدائية في بعض المواد الانجليزية فحسب ، وكان هناك نوع من الاهمال الشديد لتاريخ مصر وحضارتها . فقد أغلقت الجرائد الوطنية ، وصودرت صحف مثل « مزاة

الشرق» و «جريدة الزمان» و «السفير» ، وحرّم على مجلة مثل «العروة الوثقى» أن تدخل مصر ، ولم يبق الا الصحف التي تبجد الاحتلال وتمتدح السلطة . كان عام ١٩١٨ ، يمثل تجسيدا للازمة التي أعقبت سنوات الحرب العالمية الأولى ، وهو نفس العام الذي شهد ميلاد بطلنا : أنور السادات ..

كتب جواهر لال نهرو ، يقول :

« ان أى قائد ، أو أى زعيم ، أو أى مفكر أو أى منظر ، لا تصيغه فحسب ، الثقافات والأفكار والنظريات التي يتعلمها في الكتب والأبحاث ، أيضا ، تمرّكه التجارب والحياة ، وربما تبدو البيئة الأولى ذات أهمية خاصة داخل الرجل ، ملامح الشخصية الأولى ، وكل ما يجيء بعد ذلك يعمق هذه الشخصية » .

وهذا يؤكد أثر البيئة على بطلنا « محمد أنور السادات » . فقد ولد في بيئة التسمت بملامح خاصة ، كانت هي الصورة المصغرة لمصر الأم ، في تعاستها ، في عذابها ، في آلامها ، وهذه الأشياء حركت في داخل السادات شتى النوازع والدوافع . فابن القرية ، الذي تعلم في كتاب « الشيخ عيسى » وأحس بالكلمة وقوتها ، كسلاح منذ الصغر ، وأحس بما في القرآن من تنوير للأوضاع والواقع ، تشكلت فلسفته للواقع من خلال هذه الرحلة الطويلة ، التي بدأت مسيرتها من على شط قرعة الباجورية ، في قرية ميت أبو الكوم ، يوم ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ ، عندما ولد السادات في بيت صغير لا يختلف عن أى بيت من بيوت الفلاحين الذين كانوا يجاهدون من أجل الحياة والحفاظ على الكرامة ويحاولون بشق الأنفس التنفس في ظلال مناخ معتم نخنقه القهر وشتى ألوان الضغوط والتعاسة ..

ومنذ أن رأى السادات الفلاحين سمر الوجوه ، واختلط بهم وهو في رحلة ذهابه وعودته من كتاب « الشيخ عيسى » ، وهو يحس بالمأساة ، صور

متنوعة من العذاب والقهر ، عشرات بل مئات من الفلاحين بأقدامهم المشققة ، يسقون الأرض العطشى ، ولا يأكلون الا الفتات ، ويمرضون ، ويتساقطون في ألم مرضا أو جوعا أو حزنا أو بؤسا . منذ أن رأى السادات البؤس ، في العيون والشفاه ، منذ أن رأى الفلاحين سمر الوجوه ، يعودون مع الشمس في الغروب ، يهدم التعب بعد عذاب وكد النهار ، أحس بمدى الحياة الشقية التي تحياها مصر .. فكم من الفلاحين ، يتنفسون التراب والجنفل والجرح في بلادنا .. وكم من أناس يموتون ، لأنهم لا يجدون الخبز أو الدواء .. وكم من أناس يساقون الى السجن والحبس ظلما ، لأنهم يحيون القهر والمعاناة ؟ !

عندما كان السادات في السادسة من عمره ، يذكر أهل القرية من المعمرين ، وبالنزات ، الأقارب والأهل ، كيف كان الصبي أنور السادات يذهب الى « مدرسة الاقباط » في (طوخ دلقة) ، مشيا على الأقدام ، وأحيانا على حمار اذا ما كانت الشمس ملتهبة ، وكيف كان الصبي الصغير يلعب ويجرى مع الأطفال حول مقام سيدى حسن الكومى في العصارى والأمسيات . كما يذكرون ، أن الصبي الصغير ، كان عندما ذهب الى المدينة والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم بالثانوية ثم بالمدرسة الحربية ، كفى كان لا ينقطع في الاجازات عن القرية ؟ كان يأتى في اجازات نصف السنة ، كما كان يقضى أشهر الصيف كلها في القرية ..

وعندما زار السادات قريته عام ١٩٥٣ ، بعد عام واحد من قيام ثورة يوليو ، رفض أن يدخل القرية في موكب رسمى . فضل أن يزور القرية ، بشكل عادى ، ومثلما كان يزورها في شبابه حتى لا يحس بأى تغيير .. وفي هذا العام ، زار كل الأماكن التي يحبها ، والتي تعود أن يزورها .. زار « الدير » الذي كان يزوره في صغره ، وزار مقام « سيدى الكومى » وقرأ الفاتحة وصلى داخله . . كما زار « كنيسة العذراء » ، والمدرسة التي تعلم بها ، ودخل نفس الفصل الذي كان يتعلم به ، الى جوار المصلية . وفي

« مدرسة الأقباط » ، التقى السادات ، بمدرسه « مينا ميخائيل » ، الذى كان قريبا من قلبه فى صغره ..

وأ نور السادات ، لم ينل الابتدائية من هذه المدرسة ، انما نالها من مدرسة « النحاسين الابتدائية » ، التى كانت بداية رؤيته للمدينة . لكن السنوات الأولى فى حياته كانت هنا تنسج الطفولة والصبا ، من خلال بدايات الرؤية الأولى للواقع والوجود . كانت بمثابة الومضة الأولى فى حياة القائد ، والمناضل ، والبطل ، التى حملها معه فى رحلة العمر الطويلة .. وعبر السنوات الطويلة ، كانت تلح عليه ، وقد أثرت فى فلسفته وفى معتقداته وأفكاره ، حتى أننا نحس بها عبر كلماته وخطبه .. الرغبة فى جعل مصر كلها أسرة واحدة ، تحل مشاكلها بروح الوثام والحب والتفاهم .. فمصر ، كلها قرية كبيرة .. لا بد أن تعود الى نفسها ، وتحل تناقضاتها ، حتى يعود الحب الى قلبها ووجدانها .. لا بد أن نعود الى « القرية » ، اذا أردنا ان نصنع مصر - عصرية .. مصر دولة الايمان والعلم .. مصر بلا أحقاد .. لا بد أن يتعلم الفلاحون ، وتحل مشكلة الأمية من الجذور ، من القرية ، اذا أردنا ان نحطم الهوة السحيقة بين « القرية » و « العاصمة » .. لا بد من السير بمشروع الجامعات الاقليمية ، لتصل الثورة الى الأرض الحقيقية ، لمصر ، القرى والكفور والدروب والبنادر ... لا بد من أن يصل الكتاب والفيلم والمسرح الى كل نجع وكفر وقرية .. ان المستقبل لن يزدهر ، ولن يتفتح ، اذا لم نرجع الى الأصل ، الى النبع الأساسى : « القرية » فى بساطتها ، وتلقائيتها وعفويتها ، وعمقتها واصالتها ، ونخوتها .. فهى مصر الحقيقة .. ومن خلالها تمتد « المسيرة » بشكل أعمق ، وأكثر أصالة ، وأكثر تدققا ..

فى كتاب « عاصفة على السكر » ، الذى كتبه جان بول سارتر عن الزعيم الكوبى فيديل كاسترو ، يقول الفيلسوف الفرنسى : « ان الذى يصنع الرغاماة أو القيادة ، لا النظرية ، لا الفكر ، فقط ، انما ترجمة هذا الفكر أو

هذه النظرية الى سلسلة مواقف تتسم بالابداع والخلق ، من هنا يبرز دور الزعامة بالنسبة للقائد . فما فائدة النظريات والجذليات والأفكار ، فليست هناك ثورة أو تغيير بدون نظرية ثورية ، بمعنى أن تترجم الأفكار والايديولوجيات الى مواقف واضحة تتسم بالاقدام والخلق والجرأة ، وكاسترو ، استطاع أن يفضح خطط الامبريالية في خنق الاقتصاد الوطنى ويضع النقط على الحروف بالنسبة لتحركات الثورة سياسيا واجتماعيا .. فالبطل موقف ، وترجمة لنظرية وفكر ، في محك الخلق والابداع والتجديد، وليست هناك بطولة أو قيادة أو زعامة جوفاء . وهذا التفسير عن الزعامة أو القيادة ، يقول عنه سارتر ، أنه لا يمكن أن يولد بين بوم أو ليلة ، ولا يمكن أن يكون هناك معاهد عليا لتخريج زعماء أو أبطال ، « اذ ينبغي ، أن تكون هناك الاستعدادات الأولى ، والمكونات الأساسية لشخصية الزعيم أو القائد أو البطل ، وهذا البطل أو القائد تفرضه متطلبات مرحلة مجتمع بذاته ، كذلك يكون افرازا لبيئة بذاتها وجماعا لتجارب وثقافات معينة » . لذلك ليس غريبا أن يقول الكاتب الفرنسى (جاك كوبار) عن السادات : « أنور السادات ، افراز حقيقى لمصر ، في كل خصالها ، فقد جاء من القرية ، يحمل الصفات والمطامح الطيبة ، وقد ترجمت هذه الخصال الطيبة نفسها ، وعكست نفسها ، على مبادئه وأخلاقياته وأفكاره الثورية . انه نموذج للانسان المصرى المجاهد ، الطيب ، الكريم ، الذى يسعى الى كل الآمال الطيبة التى تتيح لشعبه الخير والرخاء والأمن والحرية . انه ابن القرية البكر الذى انتقل الى المدينة ، وحمل معه كل ما فى القرية البسيطة من حب وأمل وعطاء » .

وفي أكثر من حديث وحوار له ، أعلن السادات ، انه لا يمكن خلق ثورة ناجحة في مصر دون الاعتماد على الجماهير الفلاحية - العماد الأساسى للمجتمع المصرى وركيزته الأساسية . ومن قبل ، قال جواهر لال نهرو : « ان المجتمعات الحديثة التى تعلن ثوراتها التحررية في الدول المستقلة حديثا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات ، تلك التى تعتمد في تركيب بنائها

المادى على الزراعة ، لا بد وأن تعتمد على الفلاحين كقوى أساسية لها
فعاليتها فى الثورة القومية ، فالفلاحون على اختلاف أبعادهم الطبقية من
معدمين الى عمال زراعيين الى بورجوازية ريفية لهم دورهم الطبيعي والفعال
والمؤثر فى انجاح هذه الثورات واستمرارها ، ويوم أن تصل فعالية هذه
الثورة الى هؤلاء ، فانه لا يمكن اخمادها أو اضعافها ، لأن هؤلاء يمثلون
السياج الأساسية التى تحمى مكاسب الثورة الوطنية فى مواجهة الثورات
المضادة وفى مواجهة أية محاولات رجعية أو استعمارية . لذلك ، نرى
السادات ، دائما ، يركز على قوى الفلاحين وأهميتهم فى الثورة الاجتماعية
والديمقراطية والسياسية ، كما ينادى المثقفين ويحفزهم على الاهتمام بالريف
وينادى ، دائما ، بالعمل على التثام أية فجوة أو ثغرة بين (القرية) و (المدينة)
بل ويعلن فى قوة .. ان القرية الصغيرة ، هى مصر ، فى صورتها المصغرة ،
والاهتمام بها وبمشاكلها ، هو اهتمام بمصر أساسا ، فبمدى الاخلاص لهذه
الصورة الأولى ، يكون الاخلاص والنجاح بالنسبة للصورة الكبرى .



السنوات الأولى من حياة السادات ، الصبى ، كانت تجلها العتات
والشقاء . فقد كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، مليئة بالتعاسة ..
رماد الحرب حول كل آمال الناس الوردية الى أوراق يابسة جافة . انتهى
تقسيم العالم كله بين حفنة من الدول الاستعمارية : أمريكا ، فرنسا ، بريطانيا
هولندا ، بلجيكا ، ألمانيا ، إيطاليا ! وكانت تركيا فى ذلك الوقت خليفة
لألمانيا ، فراحت الصحف المصرية تنشر بعناوين ضخمة ألباء عن رغبة تركيا فى
صلح منفرد . وكان المجتمع المصرى فى ظل هذه الأوضاع ، يزداد تمزقا :
ازداد الأثرياء ثراء ، وازداد الفقراء فقرا . وكانت القرية المصرية ، صورة
واضحة لهذا الخراب والدمار والشقاء . احتكرت الحكومة البريطانية
محصول القطن كله ، وبلغت خسارة مصر من جراء ذلك ٣٣ مليوناً من
الجنيهات ، وارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعا مطردا ، لا سيما أسعار

الحبوب والأقمشة والوقود . وما أن جاء يوم ١٣ نوفمبر ، حتى أعلنت الهدنة ،
 وذهب ثلاث من أبناء مصر هم : سعد زغلول ، على شعراوي ، عبد العزيز
 فهمي ، الى دار الحماية ، وطلبوا من عميدها الاذن بالسفر الى مؤتمر الصلح
 ايدافعوا أمامه عن القضية المصرية ، حتى بدأت القرى والمدن في مصر تشعل
 الأرضاء ، بعد فترة من العتمة خلال غارات الحرب ، ولكن بدأت هذه
 القرى وهذه المدن تمضغ آثار الحرب ورمادها في ألم وتعاسة !

في هذه السنوات ، كانت طفولة السادات تثبت ، بين دروب ومروج
 ووزقة وحواري ميت أبو الكوم وطوخ دلعة .. يتنقل بين كتاب القرية ،
 ويتلقى تعليمه الأول على يد سيدنا « الشيخ عيسى » ، ثم « عريف القرية » ،
 ثم « مدرسة الأقباط » ، حتى نما عوده ، وأرسله أهله الى القاهرة ليكمل
 تعليمه ...

يقول واحد من أهل قرية « ميت أبو الكوم » ، من المعمرين الذين جاوز
 عمرهم الثمانين ، وهو شيخ ضرير ، متحدثا عن القرية في هذه الفترة :
 « كانت البلد وقتها عتمة ، كانت أيام الحرب ، والناس ماكانوش ييلاقوا
 اللضة . كان الانجليز ييلموا الفلاحين من الغيطان واجران القمح نلشان
 الجهادية ، وكانوا يبيعتوهم الحرب ، ياولداه ، من غير سبب .. كانت
 البلد صغيرة عن كده ، وكانت أسرة السادات من الأسر المعروف عنها الكرم
 والنخوة حتى في ظروف عتمة مصر ، وكنت أنا وقتها باشتغل في الارض ،
 فلاح فقير .. كان يادوب عمرى خمسة وعشرين سنة ، وماخدونيش الجهادية
 لأن كان نظرى على قدى ، كنت لسه باشوف لكن في صعوبة ، وفقدت
 نظرى وأنا في سن الخمسين عندما فقدت ابني في مظاهرات سنة ٤٦ في قصر
 النيل . كانت أسرة السادات أسرة جود ونخوة ، ومعروف عنهم في البلد
 وفي كل الكفور اللي جوالينا انهم ييطعموا الغريب ويكرموا أهل السبيل
 رغم أنهم لم يكوّنوا من أهل الغنى والمال ، والجود دايما مايديش الا الجود
 والكرم دايما مايديش الا الكرم .. والبلد هنا فقدت كثير من أولادها

وأبنائها ، لكن أنور السادات عوض كل ده ، لما أعاد للبلد ولكل مصر كرامتها ... »

امرأة في الخامسة والثمانين من عمرها ، اسمها « عطيات » ، قالت لى في شبه الحزن : « كانت أختى اللى أصغر منى بتشتغل وبتخدم فى بيت السادات ، وماتت بس من خمس سنين . كانت متنهية وكانت دايمًا بتقول لى : أنا مش باخدم ، دانا بنت البيت ، يياخدونى على كفوف الراحة .. أختى الصغيرة دية ، شافت السادات وهو صبى صغير ، فى الكتاب ، وفى مدرسة الأقباط اللى فى طوخ دلكة ، وكانت ساعات بنوصله للكتاب هى أو عم غريب اللى مات من كام سنة » .

سنوات الطفولة والصبا ، أجمل سنوات العمر ، لوحة البراءة التى تمتص كل صور الواقع فى خصوبة غريبة — هذه السنوات التى قلب عنها مناضل ومفكر وشاعر مثل فيدريكو جارسيا لوركا : « انها بمثابة العطر الأول فى فجر الصباح ، لها ملمس الندى ، وسحر الزمن ، وبنفسجية اللحظة ، ولا يمكن أبدا أن تفارق العمر مهما امتد ، لأن لمساتها خصبة قوية ، وما يحسه المرء فى طفولته ويراه يتأثر به الى أبعد الحدود ، بل ويشاركه فى تكوين رجولته وتصرفاته وسلوكه فى المستقبل » .

وكان للسادات ، الصبى ، فى هذه السنوات الصغيرة انشغاله بالدين ، فقد كان يفكر كثيرا فيما يقرأه فى الكتاب والمدرسة ، فقد حفظ القرآن ثم قرأ العهدين القديم والجديد بحكم دراسته بمدرسة الأقباط فى طوخ دلكة .. وكثيرا ما فكر فيما قرأ وما حفظ عن ظهر قلب ، واتصلت أيام الصبى السادات بين البيت والكتاب ومسجد سيدى حسن الكومى وبيت الأعمام والأهل وحلقات الذكر التى كانت تقام فى القرية بين وقت وآخر ، وفى العصارى والأمسيات وقبل صلاة العشاء كان يمرح ويلعب مع رفاقه وأصدقائه بالقرب من التربة أو حول مسجد سيدى حسن الكومى ، وكانت من أحب الألعاب الى قلبه « السيجة » ، لكنه شغف الى حد كبير

بتلك اللعبة النى ابتكرها صديق له كان يلزمه في الكتاب ، ثم في المدرسة الابتدائية ، فقد همس اليه ذلك الصديق أنه اهتدى الى نوع من السحر ، يستطيع به أن يجعل الناس جميعا على ظهر الأرض احبابا بعضهم الى بعض ، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه في مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعا الصبي السادات وبقية أصدقائه الى الجلوس معا جنبا الى جنب في بقعة صغيرة ، يظللهم سقف واحد ، كما يفعل النمل لتكون لهم مثل «أخوة النمل» ومجبة جساماته ، فأقبلوا حيث تلاصقوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسي وتضحكوا في عطف ومودة ، وأخذ يحدثهم السادات الصبي ، عندما رأى ذلك ، أنه الحب المشترك المتبادل ، يستطيع الناس أن يكونوا أخوة ، وهكذا صارت هذه « اللعبة » من أحب الألعاب الى الأخوة ، وبالذات بالنسبة للصبي الصغير السادات ، فلكنم تجمع الصبية الصغار ، وبينهم السادات ، تحت شجرة جميز أو في ركن من الأركان ومثلوا « أخوة النمل » ، وأحدثت « اللعبة » أثرها العميق في خيال الصبي الصغير ووجدانه ، فقبل أن يبلغ التاسعة من عمره ، استقر في نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك أخوانا بلا عداة ، وبعد سنوات من تركه القرية ، تذكر السادات الفتى الحادث - أو « اللعبة » ، عندما شاهد شجارا عنيفا في حي تحت الربيع في عصر يوم من أيام رمضان ، رددت نفسه كلمات الحلم اللذيذ : « متى يهجر الناس الحقد والشجار ، ويصبحوا أحياء ، يتعارفون في بناء حياتهم ، ويصبحوا أخوة النمل » . ونفس الحلم اللذيذ كان يتردد صده وهو يعيد على نفسه كلمات « سورة النمل » ، التي حفظها عن ظهر قلب : « ... وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر

نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وادخلنى
برحمتك فى عبادك الصالحين ... » .

وهذا (المثال) — الا وهو « أخوة النمل » ، تعلق الصبى به ، وظل
لا يفارق مخيلته ، ونما معه وداخله ، وبقي قائما فى نفسه لا يتغير ، وتلمسه
واضحا حتى فى مقالاته وكتاباتة التى كتبها بعد ذلك . ففى كل مقالة ، وفى
كل موضوع كان السادات يعلن عن الحب الأخوى والانسانى ، ويدمغ بقوة
كل كراهية وكل بغضاء من شأنها أن تعوق تقدم البشر ومسيرتهم من أجل
الخير والأمل ، لذلك ، نجده ، دائما ، يعلن عن العودة الى مبادئ الحب
الانسانى النابع من القرية ، ويقول .. ان مصر الكبيرة ، لابد أن تعود الى
القرية ، الى صورة الأسرة البسيطة حتى تقضى على متناقضاتها ، فلا يمكن
أن يكون هناك تقدم وتحضر ، دون أخلاقيات طيبة ، ودون ايمان عميق
نابع من داخل الانسان ..

عندما ترك السادات الصبى القرية ، وذهب الى المدينة ، ليكمل تعليمه ،
كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت حقيقة ، لكن ظروف مصر المادية
والاجتماعية كانت فى منتهى السوء . وكانت ثورة ١٩١٩ ، قد أحبطت ،
واعتقل سعد زغلول ، وكانت حرب الشوارع ، و « ثورة الأفندية » ،
واضرابات الموظفين والعمال .. وكانت قواد الانجليز وعيونهم فى كل مكان ،
تفتش عن الأفندية والثوار ، وكان يحسهم « الصبى » الصغير ، الذى جاء
حديثا من القرية ، ليتلقى تعليمه فى مدرسة النحاسين الابتدائية ... ورغم
صغر سنه ، كان يحس ، ويحس ، فقد كان يؤس القرية ، والمناخ الذى
عاشه فى « ميت أبو الكوم » و « طوخ دلكة » ، حافظا أساسيا من حوافز
نضج تفكيره ووعيه واحساسه المرفه بالأشياء . كان فى رحلة ذهابه وعودته
من المدرسة الابتدائية فى حى النحاسين ، يرقب القاهرة المعزية بحواربها
وأزقتها ومنعطفاتها ، من مرجوش الى الداودية ، ومن الداودية الى الخيامية

والسكرية ، ومن تحت الربيع الى باب القاضى ، القباب السامقة والمآذن العالية والمشرييات العتيقة والبوابات الضخمة ، ورجال وصناع وحرفيون ينشرون هنا وهناك بين خان الخليلى والأزهر والصناديق والصتاغة والنحاسين ...

ونظر ، السادات ، الغلام ، الى الرجال ، سمر الوجوه ، ينحرون وراء السيون المملوكية والفاطمية ، وأحس بالحزن فى عيونهم انهم لا يختلفون عن رجال قريته بالمنوفية ، عيونهم حبلى بالحزن والدموع ، وقلوبهم تمتلىء أسى وتعاسة ... انهم يبحثون عن الخبز ، فى رحلة كفاحهم وكدهم اليومي المضنية ... !

وتنفس فى حزن ، وهو يتحسس كتبه تحت ابطه ، وبينها القرآن الذى حفظه عن ظهر قلب ، ونظر الى المآذن السامقة والجدران العتيقة والأسطح العالية والواطئة التى تجعل الشمس تتسلل الى الدروب والحوارى والأزقة كالظلال ، فتبدو المنطقة كلون من السحر يتحرك على أرضها البشر فى جو عامض يعبق برائحة التاريخ والحضارات المتنوعة التى تعاقبت على المدينة العتيقة ..

وبين هذا الجو الغامض المثير ، نما عود الغلام والفتى : أنور السادات ، بعدما خرج من قريته صغيرا ، قاصدا القاهرة ليتلقى تعليمه . لكنه ، رغم انتفانه للمدينة ، كمعظم أهالى الفلاحين لم ينقطع عنها . كان يذهب الى « ميت أبو الكوم » ، فى كل الأجازات ، ويتحين أية فرصة ليحج الى مسقط رأسه ، يقضى أياما من المتعة والمرح ، بين أهله وعشيرته وأصدقاء طفولته ، وليزور الأرض التى أنجبته ومنحته للوجود ، وأعطته كل الدفقة والحياة ...

فى عام ١٩٤١ ، كتب الأديب والمفكر السوفيتى ألكسى تولستوى ، يقول : « بلادى الأرض الطيبة التى ولدت فيها ، والوطن الأول لى . الحياة كلها لا تضطرب بعاطفة أذكى ولا أعرق غورا ، ولا أكثر قدسية من عاطفة الحب لهذه الأرض . اننى أتحين كل فرصة لأعود لهذه الأرض وأركع

على قدمي حتى أشم عطرها ، فهي التي منحتني النظرة الأولى للوجود ، وأعطتني التصور الأول للحياة » ...

ونفس الكلام ، أو قريبا منه ، كان برده الفتى محمد أنور السادات ، في العشرينات ، عندما كان يعود من دراساته الى قريته ، مشتاقا ، روحه تهفو الى كل شبر فيها . . . كان في حوالى السادسة عشر أو السابعة عشر ، عندما زار قريته في صيف احدى السنوات من نهاية العشرينات ... لم يجد قريته قد تغيرت ، نفس الأشياء ، نفس التعاسة ، نفس البؤس ، اللهم الا بعض الجراح أضيفت الى القرية من جراء انعكاسات قوى القهر الواقعة على المجتمع المصرى ، نتيجة للاحتلال وظروف انحسار الحركة الوطنية وصراعها مع القوى الرجعية في البلاد . واحس بذلك البؤس ، وبهذه التعاسة ، من واقع أفراد أسرته ، التي كانت تشقى من أجل أن يكمل الفتى تعليمه ، ولا تجعله يحس بمدى ما تتكبد من أجل ذلك . فقد وقعت الأزمة الاقتصادية على عبء كاهل الفلاحين من أبناء المزارعين والبورجوازية الفلاحية ، مثلما وقعت على عبء الجماهير الشعبية من كادحين وبورجوازيين صغار في المدينة . وقد كانت الجماهير تمضن هزيمة الثورة ومرارتها ، مع نكوص المد الثورى ، وأزمة الغلاء في المعيشة ومات سعد زغلول ، وعقب موته في نهاية العشرينات بدأت الخلافات بين الأحزاب ، كل حزب يريد الفوز ، والانجليز ينتهزون هذا الانشقاق والتصديع في صفوف الشعب ، ويشجعونه تحت شعار (فرق تمد) !

وفي عام ١٩٣٠ ، كان أول احتكاك للسادات بالسياسة . خرج في احدى المظاهرات من المدرسة ، وتلقى عدة هراوات ، وكلفه ذلك الحرمان من الامتحانات النهائية ، فعاد الى قريته حزينا كاسف البال ، يفكر في وطنه وماذا حل به ، وبشكل ضارى لأول مرة .. فقد شهدت بداية الثلاثينات العديد من الانفجارات الشعبية والصدمات بين الشعب والحكومة ... الشعب ينتصر على الملك ، وتعود الحياة النيابية ، ثم تبدأ المفاوضات ، والملك يقبل الوزارة الجديدة ، ثم سرعان ما يحل البرلمان .. ومئات الجرحى

والقتلى على الطريق ، وعشرات السياسيين في السجون .. والأزمة المالية في
تفانم مستمر ... والشعب المقهور يقاوم وزارة « اسماعيل صدقي » ، يقاوم
حكم الحديد والنار .. وفي القرى تلتئم مظاهرات واحتجاجات الفلاحين ،
ويصل عدد القتلى من الفلاحين أثناء الانتخابات المزيفة في عام ١٩٣١ وحده
الى ١٥٠ قتيلا .. ومثلما حدث في قرية عبد الرحمن الشراوى (الدلائون)
التابعة للمنوفية ، والتي عكس مأساة صراعها مع السلطة والاستعمار في
روايتها : (الأرض) ، حدث مثله في عشرات القرى ، وبينها كانت قرية ميت
أبو الكوم ... الانتخابات تزيف ، الفلاحون يساقون الى « كراكون »
القرية ويجلسون ثم يغيبون عن القرية في البندر أو المدينة ، بينما يشرد
أهلهم وذويهم . وكان السادات ، الشاب ، يرقب بأمر عينه ما يدور من
أحداث وقهر ، سواء في قريته أو في المدينة ، كان يرى الفلاحين يساقون الى
(الكراكون) أو سجن المركز دون جريمة اقترفوها ، ولا سبب الا لوطنيتهم ،
وكذلك كان يرى الطلبة من زملائه يساقون الى الأقسام والسجون ،
ويحرمون من دخول المدارس ، وعانى هو نفسه مرارة هذا الحرمان ، لأنه
اشترك في المظاهرات ، وخرج بين جموع الطلبة يهتف : تحيا مصر مستقلة ،
ويسقط الاستعمار ، وتسقط الحزبية .. الجلاء الجلاء ، الجلاء بالدماء ..

كانت تلك الأحداث شغل السادات الشاغل . لذلك لم يحضر من أيام
دراسته عام ١٩٣٥ ، الا ٤٥ يوما فقط .. كما بدأت قراءاته تتسع في مختلف
صنوف الفكر والمعرفة ... وفي هذه الفترة قرأ (طبائع الاستبداد)
لعبد الرحمن الكواكبي ، كما قرأ مؤلفات اميل لودفيج ، ورسائل الحرية
لفولتير ، وكتابات جان جاك روسو ومونتسكيو ورولان ، وأشعار وكتابات
فيكتور هيجو ، وليونولستوى ، وبرتراند رسل ...



خلال سنوات دراساته بالمدرسة الحربية ، كان محمد أنور السادات طالبا
متفوقا ، محبوبا من أصدقائه ، مجدا في تدريباته ، ولم يكن يعنيه في تلك

الفترة سوى وطنيته الشديدة وتحمسه الواضح للحركة الوطنية ، وكثيرا ما أحس المسئولون في المدرسة الحربية ذلك ولفتوا نظره ، ان هذا يمثل خطورة على مستقبله ويهدد بفصله من المدرسة الحربية . الا أن السادات ، الشاب ، لم يخف ، ولم ينصاع الى أى تهديد ، ظل وفيا لتيار الحركة الوطنية ، وكان يخرج في المظاهرات يشارك فيها ويعبر عن مشاعره الوطنية كأى شاب متحمس يريد لبلاده التحرر من ربطة الاستعمار والرجعية ...

✱ في عام ١٩٣٦ ، مات الملك فؤاد . لم ينتهز الزعماء الفرصة لتحديد سلطة الملك الجديد . اتفقوا ، فقط ، على توقيع معاهدة ١٩٣٦ . الشبان الوطنيون ، وبينهم محمد أنور السادات ، عارضوا المعاهدة .. والحكومة أعلنت ، في قسوة ، أن كل من يعارض ، خائن !

✱ في عام ١٩٣٧ ، صراع كبير بين الملك ورئيس الوزراء على السلطة . السفير البريطانى أصبح الحاكم الحقيقى لمصر . محمد أنور السادات يوقع على بيان مع الطلبة الشرفاء ، يدمغ سياسة الاستعمار والمعتمد البريطانى في مصر !

✱ في عام ١٩٣٨ .. أخذت الأزمة الاقتصادية تجتاح العالم ، وتنعكس أضرارها بشكل واضح على المجتمع المصرى ، فازدادت مصر تمزقا ، وأخذ الناس يأكلون الخبز الأسود ، ويمضفون الآم الحسرة على الأيام التى كانوا يأكلون فيها الخبز المصنوع من القمح . ولم يمض عام واحد على ذلك ، حتى أعلنت الحرب ، وانعكس ذلك على الدول الساعية لنيل استقلالها (شعوب المستعمرات) بشكل حاد ، وانهارت الأحلام الصغيرة أمام شبح الحرب الأسود . وكان السادات في العشرينات من عمره ، قد تخرج من المدرسة الحربية ، واشتغل في « سلاح الإشارة » وفي اجازته القصيرة ، كان يذهب الى بلدته الصغيرة ، ويحتضن الحزن والحسرة في عيون أهل قريته ، ويستمتع الى آخر أخبارهم وهو كاسف البال ، محزونا ، تعيسا ، شقيا . وفي ذلك الوقت ، كان يتابع الصحف بنهم ، ويقرأ أخبار بلاده في قلق ..

✳ وحملت الأربعينات الى مصر ، مزيدا من الشقاء والتعاسة ...
الحرب في كل مكان ، والأحداث تجري بسرعة ، ومصر في قمة البارود ..
الناس تهاجر من الشمال الى الجنوب ، كالطيور ، خوفا من البارود ، هربا من
الغارات التي لا ترحم .. والسادات يرقب سير الأحداث في حزن قاتل ،
وقد أحس أنه لا بد من عمل ايجابي للخلاص ، فالسكوت مشاركة في الجريمة
وخطيئة الفعل خير من اللافعل ألف مرة ، والصمت عذاب كالسجن نفسه ،
وماذا يخشى ؟ السجن ... ان مصر كلها تحيا داخل القيود ، وتدمع عيناها
وراء القضبان القاسية ، التي فرضها الاستعمار وتحالف الرجعية ، وزاده
وبالا الحرب التي تأكل كل شيء ...



في كتاب فولتير « رسائل الحرية » ، قرأ السادات الشاب هذه الكلمات ،
وهو لم يصل بعد الى سن الثلاثين :

« ليس هناك قيمة للحياة بدون حرية ، فالاغلال نفسها
هي الموت بذاته . ما معنى ان يتنفس انسان ما وجوده والافلال
يربط لسانه ، وتعقل قلبه ، وتشل كل اعضائه ؟ ان السمعة ،
لا يمكن ان تشتعل الا اذا حصلت على حرية كافية في الانتقاد .
ان النبات نفسه يسقط اذا ما اعترضه نوع من الخنق . فما
بالك بالانسان . ان حياة بلا حرية ، الموت افضل منها الف
مرة » .

شدته هذه الكلمات ، وأخذ يقرأ كثيرا عن فولتير — ذلك المفكر
والفيلسوف الفرنسي الذي ألهى للثورة الفرنسية مع جان جاك روسو
ومونتيسكيو وجورنای وكسنای — الذي عاش في الفترة من ١٦٩٤ حتى
١٧٧٨ ، ومات قبل قيام الثورة الفرنسية بعام واحد ، وكانت رسائله الفلسفية
عن الحرية والحياة والمجتمع « ارهاصة » عظيمة للثورة ، وقد سجن مرتان
في سجن « الباستيل » بسبب طعنه في حكومة الوصاية على لويس الرابع
عشر ، ولعراك نشب بينه وبين أحد الأشراف الأرستقراطيين ، وكتابات كانت

بمثابة انجيل الثورة على الظلم والظغيان ، ومما جاء في كتاباته ، واستوقف
بطلنا هذه العبارات :

((كلما زادت قوى الظغيان ، كلما تجمع الشعب اكثر .
فالظلم يولد الانفجار ، ومزيد من الصفوط يجعل الثورة على
اهبة الانفجار)) .

وأيضا :

((ان الطفاة يحسبون انهم بقتلهم للثوار ، او بابعادهم في
غياهب السجون ، يحسبون بذلك انهم اطفأوا الثورة ، او
الشغب كما يسمونه ، لكنهم لا يعلمون ان هذه الأفعال بمثابة
وهود جديد لالتهاب الثورة ؟))

وأيضا :

((ان مواطننا حرا ، يرى الظلم ، ويسكت عليه ، فهو
ينصوي في صفوف الجلادين ، لانه رأى مواطنيه يقاسون
العذاب ، يقتلون ، ولم يدافع عنهم . انه يصبح واحدا منهم ،
اذا لم يقل شيئا ، وحتى لو كان في هذا القول بمن حياته ،
فيكفيه انه قال شيئا عظيما من أجل وطنه)) .

وقرأ جان جاك روسو ، الذي اشتهر بكتابه (العقد الاجتماعي) ، والذي
قال فيه .. ان الناس ، ولدوا ، جميعا أحرارا متساويين في الحقوق والواجبات
وضمنان لهذه الحرية والمساواة ، انضم الأفراد بعضهم الى بعض وأقاموا
الحكومات لتعمل بأرادتهم مستمدة السلطة منهم ، فان أحسنت بقيت وان
سأت عزلت .. وتأثر السادات ، كثيرا ، بكتابات روسو عن « العودة الى
الطبيعة » ، والعودة الى اخلاقيات القرية في بساطتها وثقافتها ، فلا ضمان
للحريات والمساواة والعدالة والديمقراطية ، دون سيادة الاخلاقيات الطبيعية
القائمة على العدالة والتي يحركها الضمير الذاتي للانسان ... ومثلما قرأ
فولتير ، وروسو ، ومولتسيكيو ، وغيرهم من المفكرين الثوريين ، قرأ
أفكار ونظريات غيرهم من الكتاب والمفكرين الانجليز والأمريكيين
والروس والألمان . وكان في كل قراءاته ، يربط بين ما يقرأ وما يجري على

أرض وطنه ، وكانت ، دائما ، تعود صورة القرية الصغيرة : « ميت أبو الكوم » ، صورة الأم - الوطن الصغيرة ، في عذابها ، في جرحها ، في تعاستها ، في حسرتها ، في معاناتها لقوى القهر الجاثمة على البلاد ان هذه القرية الصغيرة ، لا يمكن أن تشعر بالحب والوئام والأمان ، ما دام الوطن الأم محتلا ، وعلى أرضه يسعى جنود الاحتلال والرجعيون ممن يتحالفون مع الاستعمار ضد مصلحة الوطن . ان البسمة لن تعود الى الصغار والكبار في قريته ، مادامت هناك مأساة كبرى يعاني منها الوطن الكبير . ان هذه القرية الصغيرة ، التي منحتنا لبن الحرية والوجود الأول لابد أن نعطيها حريتها المفتقدة ، وهذه الحرية لن تعود اليها الا بالثورة على الأوضاع ، ورفض كل ما من شأنه يمرغ كرامتها أو كرامة أبنائها في التراب ... لابد من إيقاف الوطن كله ، حتى يعود الأمان الى كل شبر في مصر ، وحتى يضمن أبناء القرية الصغيرة غدهم ومستقبلهم ، وحتى يعود الحب الى كل مكان في أرض الوطن ...

مثلا كانت « القرية » ، طريقا للحرية والثورة في حياة ابراهيم لنكولن ، وغاندى ، ونهرو ، وجيفارا ، وغيرهم من قادة ومفكرى هذا العصر .. كانت « ميت أبو الكوم » بداية على طريق الثورة في حياة البطل والقائد والمعلم : محمد أنور السادات . كانت الشمعة الأولى في حياته ، كانت النافذة الأولى التي اطل منها على شمس الحرية ، ومنها خرج الى الطريق الطويل ، الصعب ، الذي أوصله للرئاسة في عام ١٩٧٠ ...

الفصل الثاني

محاكمة السادات.. ومصر على الصليب

((تعودت ، دائما ، أن اختزن الألم في نفسي حين أعانيه ..
ولقد مرت بي صنوف كثيرة من الألم .. تألمت في السجن ،
لأن من حبسوني ، اتهموني بانني اتأمر على عميل من عملاء
بريطانيا ، عدو بلادى اللبوء ، فعانيت ، وتحملت .. واتهمتنى
رئاسة الجيش أيام فاروق ، اننى خنت عهد ملك بريطانيا -
حليف فاروق ، وقتذاك ، فطردت من الجيش ، واعتقلت ،
ومرة اخرى ، عانيت ، واحتملت ..))

أنور السادات

حكم اسماعيل صدقي ، اثناء الازمة الاقتصادية الطاحنة
(١٩٢٩ - ١٩٣٠) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)
عاشت مصر أسوأ فترات تاريخها الحديث ، وتعرضت لشتى
ألوان القهر والمعاناة . فلقد كانت الصورة مظلمة تماما ،

بين

ليس فقط بسبب النظام الرجعي الذي كان يسود مصر ، ولكن لان الحركة
الوطنية لم تجد لها طريقا الا في انفاضة خاتمه في عام ١٩٣٥ . والبورجوازية
المصرية التي قادت ثورة ١٩١٩ ، وتحطمت امالها مع تصفية الثورة ، بدأت
تواجه مرحلة الانحدار في الأربعينات بخطط جديدة ، ولان من بين هذه
الخطط اشكال المقاومة والاضطرابات ومتنفسات الاحزاب والحلقات
السرية ، وكان الكثير من هذه التنظيمات ينزع الى مقاومة الاحتلال
والرجعية بالعنف والاغتيال كجزء من سياسة « المقاومة من الداخل » ،
ومجابهة القهر بالعنف ، وكانت سلسلة الاغتيالات وأعمال العنف والمقاومة
التي شهدتها الأربعينات نتاج واضح لذلك ، وقد قدم السادات للمحاكمة ،
وسجن في احدى هذه القضايا البارزة ، وكان على رأس قائمة المتهمين
في قضية « الاعتداءات السياسية » الشهيرة .. فلم يعد الاستعمار البريطاني
يحكم مصر حكما مباشرا لما كان الحال قبل عام ١٩١٤ ، لقد أصبح يحكم
المبلاد من خلال الملك والأحزاب ، ولهذا لم يكن غريبا ، أن يتحول مركز
الثقل في الحركة الوطنية الى الكفاح الديمقراطي الموجه ضد السراى
والإقطاع والاحتكار ...

ولم يكن الاستعمار يكتفى بمجرد اللعب من وراء الستار ، وانما كثيرا
ما كان يتدخل تدخلا سافرا في شئون الحياة النيابية . واحتج الشعب ،
وازداد سخطه على وزارات السراى ، وقامت المظاهرات في المدن والقرى ،
وكان ضحية هذه المظاهرات العديد من الشهداء من صفوف العمال والطلبة

والفلاحين ، وكان من بين هؤلاء : العامل « اسماعيل الخالع » ، وطلبة الجامعة : « محمد عبد الحكم الجراحي » ، « على طه » ، « محمد عبد المجيد مرسى » ، ثم « عبد الحليم عبد المقصود » من المعهد الدينى بطنطا ... وقد أعلن الطلبة والعمال الحداد نتيجة لذلك فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وأقاموا نصبا تذكاريا فى ديسمبر من نفس العام ، واستمروا يقودون المظاهرات التى ترفع شعارات الاستقلال والحربة وعودة الدستور، وتدمغ مؤامرات الاستعمار والسراى والأحزاب الرجعية .. وتوحدت جبهة الطلبة والعمال ، لا تطالب بالحريات والاستقلال فحسب ، بل ومن ثمة تطالب بالديمقراطية ، وتعزى كل مؤامرات الرجعية فى ذلك الوقت ..

وخلال الفترة من ١٩٢٥ حتى بداية الأربعينات ، تعاقبت على مصر العديد من الوزارات ، التى شاركت فى تحطيم الحياة النيابية فى مصر وفى تعطيل حرية البلاد ، وفى تكييل مصر بمزيد من السلاسل والقيود . وكان فى مقدمة هذه الوزارات : « اسماعيل صدقى » - جلال الشعب ، الذى اشترك فى معظم وزارات الانقلاب ، والغريب أنه كان عضوا فى مجلس ادارة الشركة الانجليزية البلجيكية ، وشركة الغزل الأهلية التى كان يرأسها سلفاجو - وهى شركة انجليزية أساسا ، وعضوا فى أكثر من ست شركات اخرى تدين بالولاء لبريطانيا ... « أحمد زيور » أول رئيس وزارة فامت بنحطيم دستور سنة ١٩٢٣ ، وكان عضوا لمجلس ادارة فى أكثر من شركة انجليزية هو الآخر ... « حسين سرى » ، عضو مجلس ادارة البنك الاهلى ، وعضو شركة القناة ... « حافظ عفيفى » عضو مجلس ادارة البنك العقارى وشركة المكابس ... « على ماهر » عضو البنك الاهلى منذ سنة ١٩٢٩ .. « محمد حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطنى ، والذى تخلى عن مبادئ الاشتراكية واشترك فى وزارات الانقلاب ... « عبد الحميد بدوى » عضو مجلس ادارة شركة سكك حديد مصر الكهربائية التى كان البارون امبان الذى أنشأ ضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس) نائبا

رئيسها ... « سابا حبشى » الوزير السعدى ، ورئيس البنك الايطالى .
« حلسى عيسى » عضو شركة الطحن التى كان يرأسها موريىس كوهين ...
والى جانب هذه الأسماء تجد أسماء اخرى مثل : محمد توفيق رفعت ،
راغب حنا ، عطا عفيفى ، أحمد مدحت يكن ، حسن مظلوم ، صادق وهبه ،
وغيرهم من الباشوات ، وكانت تسيطر عليهم النزعات البريطانية ، ويرتبطون
بشكل أو باخر بالتحالف بين الملكية والاستعمار ، ومعظمهم من كبار
الملاك ... !!

وكان لهذه السيطرة ، أثرها ، فى انحصار المد الثورى ، وخنق البلاد ،
على مختلف الأبعاد ، مما أدى الى ضعف الصناعة المصرية ، وتكدس
المخزون من صناعة البلاد وتجاريتها ، وكانت معاهدة ١٩٣٦ ، التى أعطت
الاحتلال الصبغة الشرعية التى كان يروجها منذ زمن بعيد ، والتى ربطت
مصر فى تحالف رسمى مع انجلترا ، تنويعا ، لسلسلة هذه المؤامرات . وكان
نتيجة لذلك ، أن قامت سلسلة من الانتفاضات والهبات الثورية للشباب
من الطلبة والعمال والمثقفين ، فنشأت سلسلة من التنظيمات والحلقات
والتجمعات ، كانت لهم صفة الشعبية ، واجتذبت لها العديد من الشباب
من مثقفين وعمال وطلبة ، وقد ساعد على نمو وتطور هذه الحركات ظروف
القهر التى عاشتها البلاد فى ظروف الحرب . ففى عام ١٩٤٢ ، تجسدت
أزمة مصر بشكل ضارى ، حتى أن الأرقام نفسها لا تكفى للدلالة على
مقدار البؤس الذى كانت تحياه البلاد ، فقد قدرت مصلحة الاحصاء فى
عام ١٩٤٢ ، أن ما يلزم العامل وزوجته وأربعة أولاد لا يقل عن ٣٩ قرشا
فى الشهر طعاما وكساءا ، وذلك وفق الأسعار الرسمية ، لا أسعار السوق
السوداء التى كانت هى قانون المعاملات فى ذلك الوقت ، ومع هذا فقد
كان متوسط الأجر الشهري للعامل لا يزيد فى ذلك الوقت عن ٢٩٠ قرشا
فى الشهر ، وفى عام ١٩٤٢ ، أيضا ، ارتفعت الأرباح الموزعة فى الشركات
المساهمة فى مصر من سبعة ملايين ونصف مليون جنيه الى قرابة عشرين

مليون جنيه ، ذهب اغليبتها الى جيوب الاحتكاريين من اجانب ومصريين ، ممن ينتمون الى دائرة كبار الملاك ، لما ارتفعت ايجارات الاراضى الزراعيه من ٣٥ مليون جنيه عام ١٩٣٨ الى ٨٠ مليون جنيه عام ١٩٤٣ ، ذهب معظمها الى جيوب الاقطاعيين ..

وامام هذه الازعام ، التى تمثل بؤس مصر ، وقف السادات طويلا ، محزونا ، شقيا ، لما آل اليه امر بلاده ، وكان لابد من عمل ايجابى ، اى عمل يبذل العتبات فى خيمة الظلام الهائلة التى كانت تعظم على صدر مصر . لذلك اتهمى السادات الى التنظيمات السياسية ، التى كانت تندد بالاستعمار وتدمغ سياسة كبار ملاك الأرض والاقطاعيين ، وتدين الأحزاب الرجعية ، واشتعل كمحترف سياسى سنوات ليست بالقليلة خلال الاربعينات ، وكله ايمان وقوه ، فى أن ييزغ فجر يوم جديد يخلص مصر من عذاباتها الشقية .. وقد شارك السادات فى كل الهبات والفورات الثوريه فى الأربعينات ، وهتف ضد الاستعمار ، وخاض المعارك الضارية ضد الرجعية ، فكرا وممارسة فى التطبيق ، وقرر ألا يتراجع عن طريقه الثورى ، فالسكوت عن الجريمة جريمة كبرى ، والصمت هو الموت نفسه ..

وقد قال صديق ، لاصق السادات فى كفاحه خلال الأربعينات ، وشاهد تضحياته عن قرب فى ذلك الوقت : « كان عملاقا ، لا يخشى شيئا ، لا يهاب الموت ، ولا يفزعه أى شئ » ، فقد وهب حياته لمصر ، لأنه آمن أن الصمت خيالة ، والسلبية مشاركة فى الجريمة ، لذلك لم يتوقف لحظة واحدة عن الكفاح ، وكان سلوكه ، وتحركه ، فى ذلك الوقت ، يسيران نحو غاية واحدة ، البذل والتضحية من أجل مصر ، فكل حركة وطنية تشارك فى وضع طوبة فى صرح الخلاص الأكبر ، وأن يموت الانسان أو يفقد روحه فى غمار هذا التحرك لا يمثل أهمية ، ما دام يأتى بشارطية لمصر ، وكان مخلصا فى قضيته ، معطاء فى بذله ، قويا فى تحركه وفى تفكيره وفى نضاله العظيم . »

في مساء يوم من أيام الشتاء الباردة في منتصف الأربعينات ... وعلى وجه التحديد في مساء ٥ يناير عام ١٩٤٦ ، وفي تمام الساعة السادسة مساء ، توقفت سيارة داكنة أمام المنزل رقم « ١٤ » بشارع عدلى ، وسط البلد ، وهبط منها وزير المالية « أمين عثمان باشا » ، وكان في طريقه الى نادى رابطة النهضة التى كان يرأسها . وما كاد يصعد الدرج ، حتى أطلق الرصاص عليه ، فسقط على وجهه على درجات السلم وهو يصرخ صرخات مكتومة ، مما لفت الانظار ، فاجتمع الناس ، ونقل أمين عثمان الى مستشفى الدكتور مورو ، وبهذه القضية التى أثارت ثائرة المجتمع ، بدأ التحقيق فى قضية « الاعتداءات السياسية » التى اتهم فيها ستة وعشرون شابا من خيرة شباب مصر ، وكان على رأس هذه القائمة محمد أنور السادات ، الذى تلقى قرار اتهامه ، وكان المتهم السابع فى القضية . وفد وجهت النيابة له الاشتراك فى مقتل أمين عثمان ، وقد قرأ « أنور حبيب » وكيل النائب العام فى ذلك الوقت قرار اتهام محمد أنور السادات ، الذى يقضى بالتحفظ عليه ومحاكسته . وقد جاء فى هذا القرار :

« محمد أنور السادات .. تخرج من المدرسة الحرة ، والتحقيق ضابطا بالجيش المصرى فى سلاح الاشساره ، واخذ ينترقى ، حتى بلغ رتبة البويزباشى . وقد حقق معه فى عهد وزارة النحاس باشا فى عام ١٩٤٢ ، وانتهى التحقيق بفصله هو وزميله الطيار حسن عزت من الجيش .. وفى نفس العام ، اعتقلا بامر الحاكم العسكري ، وتمكن محمد أنور السادات وزميله حسن عزت ، من الهرب واطاق محمد أنور السادات لحيته ، واطلق على نفسه لقب (الحاج) ، وكرهن مع حسن عزت ، شركة للنقل ، وضما اليهما عبد الفتاح عنايت ، وهم احد المحكوم عليهم فى قضية مقتل السردار . ولكن الشركة ، كانت مجرد ستار لعديد من الاعتداءات السياسية ، ولم تكن شركة بالمعنى المفهوم تنقل البضائع او السلع ، كانت لها مراء سياسية واضحة كالاعتقال والخطف والقتل ، والاشترالك . العديد من الاعتداءات السياسية » .

وقال وكيل النائب العام « أنور حبيب » .. أن محمد أنور السادات ، شارك في العديد من التهم ، كان آخرها الاشتراك في مقتل أمين عثمان وزير المالية ، وأن له سجل يمتلىء بالاتهامات منذ عام ١٩٣٨ حتى ١٩٤٦ ، يؤكد احترامه السياسى ، وانتمائه الى سلسلة من التنظيمات السياسية التى شاركت في قضية الاعتداءات السياسية وفي كثير من المؤامرات التى ترمى الى قلب نظام الحكم . وأشار وكيل النائب العام ، أيضا ، الى ورقة هامة ، ضبطت في جيب بيجامة السادات أثناء القبض عليه ، وقد كتبت فيها عبارات مختلفة باللغة الانجليزية ترجمتها على النحو التالى : « التقرير رقم ١ فى ١٣/٢ لتشكيل رقم ٢ بلا عمل . التشكيل رقم ٢ ينتظر الأوامر . أتعشهم أن أصل الى الضربة الكبرى قريبا . يعتبروننى خطيرا . ولكن الدليل ضعيف وواهم . فى انتظار الأوامر . الحمد لله ، وايحىى رجلا » ...

وقد قبض على الفريق عزيز على المصرى ، فى تلك القضية ، وحقق معه ، وجاء فى محضر التحقيق الخاص به والذى تم فى ٢١ يناير عام ١٩٤٦ أمام المحامى العمومى « يحيى مسعود » ، اشتراكه فى سلسلة من الاعتداءات السياسية ، كما أثير فى هذه القضية حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ودعى للشهادة فى القضية عدد كبير من السياسيين ، كان بينهم : مصطفى النحاس ، وزكى على ، وعلى ماهر ، وحافظ رمضان ، وبهى الدين بركات ، وحسين سرى ، ومحمد حسين هيكل ، وتحولت القضية الى الجنايات العليا . وكان الدكتور « محمد زهير جرائة » ، هو محامى السادات فى هذه القضية ، التى كانت مثار حديث الصحافة فى ذلك الوقت ...

وفى ٢٤ يوليو ١٩٤٨ ، صدر الحكم فى القضية ، وكانت البراءة من نصيب السادات ، بعد أن قضى فى السجن ٣٠ شهرا ، وقد بلغ عدد الجلسات فى هذه القضية ٨٤ جلسة ، كما بلغ عدد صفحات التحقيق فيها ١٥٨٠ صفحة . وبلغ عدد المحامين الذين ترافعوا فيها ٣٥ من مختلف الأحزاب السياسية . وقد كان موقف السادات فى هذه القضية ، وخلال الجلسات المختلفة ،

يتسم بالشجاعة المثيرة ، حتى أن محاميه (محمد زهير جرانة) قال عنه : « في الحقيقة أننى لم أشهد شجاعة أو بسالة كتلك التى اتصف بها محمد أنور السادات ، فقد كان ثابتاً شجاعاً جريئاً فى مواقفه وفى دفاعه وفى كل تصرفاته ، ولم يضعف لحظة واحدة ، لأن رسالة عظيمة كانت وراء كل تصرفاته وسلوكه ، وأذكر أنه قال : وماذا يهم . اننا ننتظر المحاكمة وبصدور رغبة ، فنحن لا نخاف السجن ، ولا نهاب الاغلال ، فمصر كلها سجين ، وسيأتى يوم تسقط عنها الاغلال .. وأذكر ، أيضاً ، أنه قال : من الذى يتهم من ، ومن الذى يحاكم من ؟ لقد اقلبت الآية ، وعاد المتهم هو الذى يحاكم البريء ، وعاد السفاح ليحاكم المعتدى عليه ؟ كان محمد أنور السادات ، رمزاً لكفاح الشباب واستبساله وجهاده من أجل الحرية والديمقراطية فى سلسلة جلسات هذه المحاكمة الشهيرة » .

وقد ظل السادات ، مطارداً ، ينتقل من حى الى حى ، طوال فترة هربه من الحكم الذى صدر عليه فى عام ١٩٤٢ فى قضية الاعتداءات السياسية ، فاشتغل كسائق قفل ، وتنقل فى عدة اشغال أخرى ، كستار لاختفاء العمل الأساسى الذى يقوم به ، الا وهو « الاحتراف السياسى » ، فسكن حى « السيدة زينب » ، فى شارع « السد البرانى » ، كما سكن « حى الازهر » وتنقل فى عدة أحياء ، هرباً من عيون البوليس السياسى ! وخلال تلك السنوات ، كان يعاني مرارة العيش ، وضراوة الحياة ، وقسوة الأيام ، يعيش ليومه السياسى ، ولا يضمن غده ، لأنه يحمل قدره على كفه من أجل مصر ، ومن أجل حرية أبنائها ..

وعندما نطق النائب العام بالحكم عليه فى عام ١٩٤٢ ، بعد أن قدم مذكرة طويلة عن اتهامات السادات والظروف التى تحياها مصر ، ابتسم السادات فى سخرية ، وقال : « من الذى يتهم من ؟ » .. ثم عاد وقال : « أفضل أن أشنق على أن يسحب النائب العام كلامه الخاص بالانجليز ، فهو يدافع عنهم وعن كرامتهم أكثر من محامى انجليزى قبح ! » .

وقد كتب السادات مذكراته عن فترة سجنه ، وما جاء في سلسلة هذه الجلسات المثيرة ، ومما نقله هنا على لسانه بالحرف الواحد هذه العبارات :

((. . . واخير ، وبعد أن انقضى عامان وستة أشهر وتسعة عشر يوما على حادث اغتيال أمين عثمان باشا ، صدر الحكم بادانة ١٤ متهما من الستة والعشرين الذين قدموا من أجله الى القضاء ، وبترثة أحد عشر ، ووقف الإجراءات بالنسبة للمتهم الثامن والثلاثين !

وكانت جلسة الحكم احفل الجلسات بالنظارة ، ومعظمهم من اقارب المتهمين واصدقائهم الذين استقباهم عند مقدمهم من السجن استقبالا مؤثرا ، ولعله كان يدور في خلدكم أن هذا اللقاء ربما كان اللقاء الاخير ، الى حين ! وكانت الهدايا التي اعتادوا حملها معهم في كل جلسة ممتازة ومضاعفة لهذا السبب أيضا . وكان يخيم على قاعة الجلسة ، جو رهيب مقبض . وكنت تلمح القلق في العيون ، عيون المتهمين واقارب واصحاب المتهمين على حد سواء وضاعف من توتر أعصابهم أن الجلسة تأخر عقابها حتى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر . وما أن بدأ رئيس المحكمة عبد اللطيف محمد بك بنطق بالحكم ، حتى انطلق المتهمون مع الحاضرين في الهاتف بالعدالة التي انتظروها عامين ونصف عام . وتدرجت الأحكام من عشر سنوات سجن للمتهم الأول حسين توفيق ، الى خمس سنوات لأربعة من المتهمين ، الى ثلاث سنوات لثلاثة آخرين ، الى سنتين لواحد ، وسنة واحدة لاثنين ، وشهر واحد للمتهم واحد)) .

ويقول السادات ، أيضا ، في مذكراته ، عن فترة سجنه :

((لقد وقع حادث اغتيال أمين عثمان في مساء ٥ يناير ١٩٤٦ ، وانتهى تحقيق النيابة في نوفمبر من نفس العام . وبدأ تحقيق النائب العمومي وقتئذ عبد الرحمن الطوير باشا ، ثم خلفه فيه أربعة من وكلاء نيابة مصر هم : كامل القاويش ، ومحمد عبد الله ، وعبد الرحمن يوسف ، وأنور حبيب ، وهي الذي ترافع في جلسات المحاكمة . . . وقد بلغ شهود الإثبات في القضية ١٢ شاهدا ، بينهم مصطفى النحاس باشا ، والنائب

«الملك عبد الرحمن الظور باشا» وأربعة من ضباط البوليس ،
ووزير المالية ، وسينطان . أما شهود اللقي ، فبلغ عددهم
عشرة من بينهم رئيسان . سناطان من رؤساء الوزارات هما
الملك علي ماهر باشا ودولة حسين سرى باشا ورئيس مجلس
النسوخ محمد حسين هيكل باشا . ووزيران سابقان ، ووكيل
وزارة ، ومستشار سابق محكمة النقض والإبرام ، وصحفي
وضابط بوليس . وقد استغرقت المحكمة في نظر القضية
سنة وسبعة أشهر وخمسة أيام . وعقدت ٨٤ جلسة ، وبلغت
صفحات التحقيق في القضية ١٥٨٠ . صحيفة من مقاس
الفولسكاب . وكان يتناول الكتابة في القضية أربعة من كتاب
المحكمة في كل جلسة ، وترافع عن المتهمين ٣٥ محاميا من
مختلف الأحزاب السياسية ، بينهم « ٥ ضابطا من ضباط
البوليس ومائتا جندي بين عسكريين وملكيين »

ويستمر للساعات في روى مذكراته عن هذه القضية ، فيقول :

« . . . كان بين الأحد عشر متهما الذين يراهم محكمة الجنايات
في قضية الاغتيالات السياسية : نجيب حسين فخري ، ولم
تس السيدة والدته بقية زملائه ، فاجتهدت اليهم تهنيء من
حكم ببراءته منهم ، وتوابعي من قدر له النقاء في السجن »

وفي بعده عن الفلاطين شهرًا التي قضاهما في السجن ، قال السادات في

مذكراته :

« يوم الجمعة ١٨ يناير ١٩٤٦ . . . »

دخلت ، أمس ، سجن الأجانب بعد منتصف الليل بعد
أن عدت من برزاي النيابة . ها هو سجن الأجانب يصمني
لأية ، بعد أن كنت قد نسيتهم تماما ، إذ أن آخر ذكريات لي
فيه انتقلت إلى ركن بعيد من ذاكرتي ، ولكنني أداني ، الآن
استعيدتها . كما لو كانت بالأمس ، فما هي ذى العرفة رقم
٢٨ التي كان يستغلها ابن بنتنا : محسن فاضل ، الدمرداش
الشندي ، حسن جعفر ، وأنا . وقد نقلنا إلى السجن في شهر
سبتمبر ١٩٤٤ في أواخر عهد الحكومة الوفدية ، على اثر
مشاهدة بيتنا وبين إدارة المعتقل بالزيتون ، تمهيدا لترحيلنا
إلى الطور ككل أداني الضالكم العسكري وقتذاك . . . اننى أذكر

جيدا ، الآن ، كيف جاهلنا لنجعل اقامتنا هنا محتملة ، بل
 وشيقة ، فقد رأينا من المستر هكمان مأمور السجن في ذلك
 الوقت استعدادا طيبا ، لذلك ، وكنا نمضي اليوم في لعب
 الطاولة والدمينو أو القيرامة على كرسي البحر التي
 استحضرتها ، وأذكر ، أيضا ، ذلك اليوم ، الذي أعلننا فيه
 بالسفر الى الطور ، وكيف نقل الشندي الى سجن التخشيبية
 وبقينا نحن الثلاثة هنا انتظارا لميعاد قدوم الطوافة التي
 ستقلنا الى الطور ، اذ ان رحلتها كانت شهرية ، واحضروا لنا
 طعام الرحلة من المعهد لكي نحمله في سفرنا ، وهو عبارة عن
 بقسماط ناشف ، وجبن ، وحلاوة . كما اني مازال اذكر انه
 قدر لهذه الرحلة ان لا تتم ، فقد تدخل الانجليز في عدم اتمامها
 ولهذا التدخل قصة طريفة ، فقد كان رجال المخابرات
 البريطانية دائمي التردد على سجن الاجانب بشأن قضايهم ،
 وذات يوم حضر الى السجن المدعو الميجور سمسون من قسم
 الجاسوسية البريطانية في الشرق الاوسط ، فقابل مصادفة
 محسن فاضل وهو في الزيارة في غرفة المأمور ، وسأله عن
 سبب وجوده في السجن ، فاخبره محسن بوجودنا جميعا ،
 تمهيدا لترحيلنا الى الطور ، فثار سمسون ثورة هائلة ، لان
 ثلاثتنا كنا معتقلين على ذمة السلطة البريطانية ، فكيف لم
 نستشر تلك السلطة في امرنا ؟ ثم اعطى محسن وعدا قاطعا
 بالغاء هذا الترحيل وعودتنا للمعتقل ، ويظهر ان السفارة
 البريطانية كانت مصدر السلطات حقيقة وقتذاك ، فانه لم
 يمض يوم واحد على زيارة سمسون المذكور حتى اتى الحاكم
 العسكري امره بترحيلنا للطور ، وعدنا الى المعتقل في عهد
 خلفه المرحوم ماهر باشا . . ومازلت اذكر كيف دفعني الفضول
 لاستقصى سر « سمسون » هذا ، فعلمت انه كان موظفا في
 شركة تامين انجليزية كبرى في القاهرة قبل قيام الحرب بزمان
 طويل ، وكان يعمل في قسم المخابرات البريطانية في نفس الوقت
 فلما أعلنت الحرب جند رئيسا لقسم الجاسوسية في القاهرة
 برتبة كابتن ، وكانت مدة خدمته السابقة كفيلة بان تجعله
 يجيد العربية بجميع لهجاتها (بحكم الصنعة) ، ويتغافل في
 جميع الاوساط ، ويقف على جميع الاتجاهات ، ولم تستطع

الامبراطورية العجوز ان تستغنى عن خدماته بعد الحرب ، فهو
يشغل الآن وظيفة دبلوماسيه في السفارة البريطانية . . .))

ويكمل السادات مذكراته عن هذه الفترة ، فيقول :

((ان الذكريات تتدافع الى راسى ، فى كل اتجاه وكأنها
فيلم تتوالى حوادثه فى تشويش واضطراب ! لقد سببت اننى
الآن متهم فى قضية مقتل امين عمتان - اننى ارى جو السجن
رهيبا ، بخلاف ما عهدته ، الا اننى اعتقد ان الوضع سيكون
على اى حال احسن . فلست ، الآن ، تحت الاحكام العرفية
كما كان الحال فى المرة السابقة ، ولعل وجودى على دمه انسيابة
يكون خيرا من وجودى على ذمة الحاكم المصري المفصل))

ويوم الاحد ٢٠ يناير عام ١٩٤٦ ، يكتب السادات فى مذكراته عن هذه
القضية ، فيقول :

((مضى على ، الآن ، ثلاثة ايام ، وانا انام ببدلتى ، فقد
نقلونى الى هنا مساء الخميس السابق بدون ان يحضروا
ملابسى وحاجاتى من سجن مصر حيث كنت . هذا ، برغم
اننى شكوت شعويا ثلاث مرات فى الايام السابقة لمامور السجن .
اننى لاحظت تغييرا شديدا فى معاملة المامور لى بالنسبة للمعاملة
التي لقيتها منه فى المرة السابقة ، وهو يحيلنى دائما على
البكباشى (امام) الذى اخفقت فى محاولة الاتصال به . لذلك
كتبت خطابا شديدا للبهجة الى النائب العام فى شأن هذا الاهمال
وتركى بدون ملابسى او حتى صابونة لاغتسل ، وقد سبب لى
النوم بالبدلة التهايا شديدا فى فخذى جعلنى اهرش ، كما لو
كنت اجرب !))

وفى يوم الاثنين ٢١ يناير ١٩٤٦ ، كتب السادات ، فصلا آخر فى
مذكرات سجنه ، قال فيه :

((يظهر ان خطابى للنائب العام اجبت اثره ، فقد احضر
لى مامور السجن ملابسى ، وكذا احضر الصابون . وقد
طلبت حماما ساخنا فاذن لى المامور بذلك ، واستمتعت
باستلقاء بدية داخل البيجامة والبطاطين . . لا اريد ان افكر
فانى اشعر باسئلة عديدة تؤرقنى ، ولا اجد لها جوابا ، فان

هيكلين يتغير في كل لحظة كما يبدو لي ، بشكل جاف لا أدري
له تمليلا ! الفسحة مبهمة ، واكاد اقضي الأربع والعشرين
ساعة في الغرفة ، وهي مظلمة وشديدة الرطوبة ، لانها في الدور
الأول على سطح الأرض ، ولما طلبت تفسير ذلك من هيكلين
هز رأسه ، ولم يجب !» .

وفي يوم ٢٢ يناير ١٩٤٦ ، كتب السادات عن سجنه ، يقول :

« أصبحت الحالة لا تطاق ، فلم يسمح لي الصباغ
النوبيجي ، اليوم بالتوجه لموقع المياه في الصباح كالمعتاد ،
وعبثا ، حاولت التفاهم معه ، ولم ينفذ الأمر الا نزول هيكلين
من منزله فسمح لي بأن اقضي حاجتي والتوضا . . . وقد كتبت
للنائب العام ، مرة ثانية ، أعلمه ، بهذه المعاملة الشديدة فطلبني
وكيل النيابة عند الظهر ، وأتيت شكواي ، وخاصة فيما يختص
بالسماح لي بالقراءة ، ولكنه سامحه الله ، لم يسمح لي بشيء
حتى ولا بالمصحف الشريف » .



في رواية الكاتب المغربي ستندال (ديربارم) ، يعرض لنا الكاتب
رؤية واضحة ، وعميقة لبطله الثوري ، الذي سجن نتيجة لتحسسه وثورته .
هذه الرواية ، في الحقيقة عندما قرأتها أخيرا ، وكنت قد قرأتها من قبل
وهذا أكثر من عشر سنوات ، ذكرتني بالسجلات لهذا البطل الذي عانى ،
وشقى ، وتعذب من أجل مصر وفي وقت كان فيه العديد من الشباب يعطون
جل لياهم على موائل الروليت والقمار والنساء ، وفي وقت كان المجنون
والصعب يجتذب ويمتنع الكثيرين . انني لازلت أذكر كلمة (ستندال) ،
التي يقول فيها على لسان بطله « جوليان سوريل » : « ان الحرية حقيقة ،
بينما السجن فلال . اننا لا يجب أن نخاف السجن كثيرا ، لأنه يسقط في
الحظة لنا ، نحن سنسقطه بحرازة مؤلفنا » . هكذا كان يفكر بطلنا :
السادات ، عندما كان في سجنه ، فكريا من هذه العبارات قال لهر في
سجواره مع ابنته في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » ، وفي حواريات أخرى
تكشف عن المعاناة التي تقابلها من أجل للوطن ، « الوطن ، يستحق

كثيراً من البذل . اتى عندما كنت في الفيد ، لم أحسن بالتحزون بقدر ما أحسست بالرغبة في العطاء أكثر . صدقيني يا ابنتي ، ليس هناك أروع من البذل والعطاء للأرض ، فهي أعطتنا وتعطينا ، بسخطها ، وحتى نحفظ بها ، علينا أن نعطيها من ماء أنفسنا . بمعنى أن نعطي ثمننا الحرية وديمقراطية المستقبل ، علينا أن نغددي ، ونبدل ، ونعطي ، حتى تسير الأرض ملكاً حقيقياً لنا ، ولكل الأبناء ، في هذه اللحظات يا ابنتي العزيزة ، تسقط كل الشرور ، والأغلال ، عن كاهلنا ، وعن كاهل كل الأبناء ، وعن كاهل أمة بأكملها ، نفس الأخاسيين كل من يشعر بها السادات ، في سجنه ، في منتصف الأرضينات ، وهو يعاني عذابات الألم اليومي ، والغربة القائمة . انه يكتب في مذكراته عن سجنه ، فيقول في يوم ١٧ فبراير عام ١٩٤٦ :

((طلعت علينا جريدة (المقطم) وفيها خبر نقل كيلون من مصر ، ولما كانت أبغض هذا المخلوق الذي أدمى كرامة مصر كلها ، فقد صممت على أن احتفل بهذه المناسبة بقدر ما أتمكن فأرسلت في شراء دسنة جاتوه باسم المنسجونة ليلى الهندية ووزعتها على ليلى والمنسجونات والمنسجونات والفراشة واستيقيت لنفسى ثلاث قطع احتفل بأكلها على فنجان شاي المساء - وقد استمتعت بأكلها ايما استمتاع ، خاصة وأن المعازيم تركوها لي من النوع النسم المملوء بالكرامة ! وفي نحو الثانية صباحاً ، استيقظت على مفص وأسهال ، واتضح لي أن الجاتوه كان تالفاً ، وقد جنى به من دكان في شارع محمد علي . اتنى القز لوجه الحقيقة ، اني بغض كيلون قد التحولت الى حقد دفين منذ هذه الليلة !))

وفي موضع آخر من مذكراته ، يقول السادات :

((استمتعنا على أكمل النية ، وكان بيده القلعة الحصينة معن . بشأنه ، فرقصت الأدلة بسبب أسأله إلى التوليذ أمام المحقق ، ولما أعلمني باهمية ذلك ، لم أبل بأي شيء في يوم آخر شاع في السجن كله ، أن (ليلى الهندية) تحب السجنين رقم (١٩) ، هذه العبارة طرقت السجن كله ، وقالتها بسنية الفراشة والعسكري ، بل أكثر من هذا فقد جئت ليلى

للمأمور بطلب اعطاء المسجون رقم (١٩) فسحة أطول لكي تتمتع بالتحدث اليه ومناجاته . وقد دفعني الفصول الى رؤية هذا ، وبكل عناء تمكنت من ذلك ، ولادة نصف دقيقة على الأكثر ، فوجدته يستحق إعجاب (ليلي) فعلا ، فهو ذا أنف روماني ، وشعر أصفر ، وتقاطيع متناسقة في رجولة واضحة ، وقد علمت فيما بعد أنه يدعى محمد إبراهيم كامل .

آه ... ليس في الامكان أبدع مما كان فقد استيقظت ذات يوم على صوت حنون ، يغنى كليوباترة وإهاتها ، انها (ليلي) في الغرفة المجاورة . لقد امتزجت البسرة مع رقعة الأنوثة في اخراج هذا النغم الساحر ، حتى خيل الى ، انه ليس صوت بشر . اننى أعشق الموسيقى بكل جوارحي ، وأكثر من ذلك فهي تضيء على هذا الجو الرهيب لونا خفيفا طليا من الجمال الذى يرتفع بالنفس الانسانية الى آفاق الروح ، فينسى الانسان الزمان والمكان والأشياء . استغفرله اللهم وأحمدك حتى ترضى .. » .

واسمى السادات في رواية مذكراته ، ويومياته ، عن الثلاثين شهرا التي سجن فيها ، والتي قاسى فيها ويلات الحبس والشقاء من أجل وطنيته العظيمة ...

وقد علق واحد من المحامين الأفاضل الذين عاصروا هذه المحاكمات وشهدوها عن كتب بقوله : « ان هذه المحاكمات ، ان اسفرت فهي تسفر عن روح وطنية مخلصة لهؤلاء الشباب الذين كانوا يتمتعون بروح وثابة وجراءة نادرة لا تبارى ، فقد كانوا يعرفون أن السجن أو الاعتقال نهايتهم ، ورغم ذلك لم يتوانوا لحظة واحدة عن الدفاع عن الوطن في قوة خارقة ، وكان محمد أنور السادات ، أحد هؤلاء المحترفين السياسيين ، الذين قدر لهم أن يشاركوا في العطاء الثورى . حقيقة أن العمل الثورى في ذلك الوقت كان يتسم بالعنف والبطش ، وكان يسير كيفما اتفق ، لكن على أية حال ، كان صورة واضحة للبذل والوطنية والثورية . وكان السادات ، في مواقفه ، وفي سلوكه ، يمثل نوعا من القوة التى يحتذى بها الشباب

الثورى فى ذلك الوقت ، كان يعمل ليل نهار .. ييذل من أجل مصر كل
 عمره ، ولا ينتظر ثوابا ، وكان يعلم أنه يخاطر بحياته ، لكن كأي مواطن
 شريف حر ، كان يعطى ويعطى ، وعندما قبض عليه ، ذاق العذاب والتشريد
 والحبس ، لكنه لم ييأس ولم تقل عزيمته ، وكان العذاب يزيده تماسكا
 وقوة ، وكان دائما وراء القضبان يتسم فى سخرية ويردد الغد لمصر الحرة ،
 الغد لنا .. . وكان يردد ذلك فى السجن ، ويردده ، أيضا ، فى جلسات
 المخاكنة الطويلة ، التى استغرقت الأسابيع والأسابيع من عمر مصر ، ومن
 عمر خيرة الشباب المناضل .. . ويُعلق السادات ، بنفسه على هذه الفترة
 القاسية من عمره ، فيقول : « تعودت ، دائما ، أن اخزن الألم فى نفسى حين
 أعانية ، ولقد مرت بى صنف كثيرة من هذا الألم .. تألمت فى السجن
 لأن من حبسونى ، اتهمونى بأننى أأمر على عميل من عملاء بريطانيا ، عدو
 بلادى اللدود ، قعايت ، وتحملت واتهمتنى رئاسة الجيش أيام فاروق
 أننى خنت عهد ملك بريطانيا - حليف فاروق ، وقتذاك ، فطردت من
 الجيش ، واعتقلت ، ومرة أخرى ، عانيت ، واحتملت ... » .



كانت فترة السجن بالنسبة للسادات ، فترة صعبة ، خاصة فى ظروف ،
 كهذه التى تحياها مصر : منتصف الاربعينات ، وتيار الحركة الثورية فى
 حالة مد والتهاوب وفوران ، ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بدأ النظام
 الامبريالى يتقوض ، وبدأ العديد من الدول يطالب بالاستقلال والخروج
 عن إطار الاحتلال والحماية . وكانت مصر فى مقدمة هذه الدول ، التى بدأ
 داخلها ، ولأول مرة ينتظم تيار الحركة الوطنية بعد فترات من القهر والمعاناة
 والبطش خلال الثلاثينات وخلال سنوات الحرب القاسية . ولم يحل
 السجن ، دون متابعة السادات لكل ما يدور فى مصر من أحداث كبرى ،
 كان يقرأ الكتب ، فى السياسة والاقتصاد ، والأدب ، وكان يحس أن هذه
 القراءات والثقافات هى زاده وسلاحه الذى يجعله يتقدم أكثر وأكثر ،
 فالمعرفة يزيده الانسان خطوات ، وبالمعرفة يتقدم الثورى خطوات وخطوات

في طريق النضال . انه يقول عن قراءته في تلك الفترة : « تذكرت حكمة قرأتها وأنا في السجن ، فحفظتها عن ظهر قلب ، ثم دونتها في كراسة لأزليته أحفظ بها حتى اليوم ، والحكمة تقول : خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما .. فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين » . وقزاً ، أيضاً ، هذه الحكمة التي قالها « كوتشيوس » ، « حكيم الصين : « اذا أنت وقعت في الشرك ، فلا تبسّس » بل ولا تفصل بل بأحزانك ، لأن ملاقة أحزانك وانفعالاتك ستعوقك عن الحركة ... تفكر ، وتأمل ، كيف تتسلل من هذا الشرك ، وبلا انفعال » وكان السلاطنة طوال فترة سجنه ، ثابت الباش ، لم يهتز ، ولم يدرك اليأس ، فقد كان (السجن) أحد الاحتمالات القريية التي وضعها في اعتباره ، وهو يعمل كمناضل ثوري في الأربعينات ، وقد قال في شجاعة عن أيام مسجنه : « لم يداخني أي إحساس من اليأس في هذه المحاكمة . انما أمانة حسنتها ، ويعلم ربي وحده ، أنني مفرطت فيها ، بل أديتها بكل ذمة وإخلاص » .



مثلاً تغلب السادات في المحاكمات والحداث مصر الثورية ، واختلط بالعديد من المثقفين والسياسيين في الأربعينات ، تغلب على مختلف صنوفه البشر ، وتعرف على أكبر قدر من الناس ، من مختلف النوعيات ، كان يستمع إليهم ، ويحاول أن يدرك أفكارهم مهما كان مستوى هذا الفكر ، وتعرف أيضاً على كثير من الأنماط والشخصيات وهو في « سوق » الحياة وبهذا جعله يقترب من الواقع أكثر . انه في هذه الفترة من الأربعينات ، خاصة عندما كان مطاودا من البوليس السياسي ، اشتغل فيه العديد من الأشخاص فكان أشبه بجوركي الذي اشتغل في الحديد من الحرف ، فزادته اقترابا من النفوس البشرية ، الجيد والرخيص ، الطيب والشرير ، وعرفه أنه ليس هنالك شيء طيب تماما وليس هنالك شيء شر تماما ، وانما الطيبة تنمو وتستند الى جور الشر ، تماما كالارض التي تنبت الأزهار الطيبة والتي جوارها تمتد

الأعشاب السامة وتسرح الهوام والحيات ! وقال السادات عن تلك الفترة التي زاده قربا من الناس ، وبالتالي ، من مفهوم السياسة : « كان من سوء طالعى ، أننى اشتغلت فى فترة من فترات حياتى فى (السوق) ، وكنت وقتذاك أجرى وراء لقمة العيش لى وللعيال .. وحين أعود بذاكرتى ، اليوم ، الى تلك الأيام ، والى من تعاملت معهم ، أذهل ، وأعجب بهذا الموكب العظيم الذى عشت فيه سنوات ، تعلمت فيها أن اكراه (السوق) ومعاملات السوق ، وتقليده. هذا السوق ! اننى لا أنكر أننى صادفت أناسا أطهارا وشرفاء ، لا زلت تربطنى بهم صداقات ومودات ، ولكننى الى جانب هؤلاء بلوت كثيرا من ذلك الطراز الذى لا يعرف فى معاملاته الا المساومة والا للى والدوران .. يكون حقك مشبوتا وظاهرا ، ومكتوبا ، ولكنتك تصدم حين يجابهك ذلك الطراز المقنوت من رجال السوق بالتجاهل والالكار ، ولا عجب من ذلك ، ان هذا الطراز يؤمن فى قرارة نفسه بحقيقته ، ويعلم تصاميمه ما يجب أن يؤتديه . ولكن عوامل الشر والأنانية ، تصور له ، أنه يستطيع أن يكسب منك بطول المحاوره وبكثرة المداورة ما يرضى جشعه ويروى أنانيته ! وكنت أفكر وأنا أتعامل مع هذا الطراز ، لا لأقنعه بوجهة حقى وسلامة موقفى وشرفى مقصدى ، وإنما كنت أفكر كيف أستطيع أن ألبه مثل هذا المخلوق الى أن مسلكه فى الحياة يجرده من الانسانية ، ويجرده من الشرف ، فقد يستطيع أن يكسب بالمحاوره والمداورة درهيمات ، ولكنه سينخر فى النهاية شرفه وضميره ، وستكون أنانيته وجشعه خير دليل لكئى ينه الناس ، فلم يقبل أحد أن يتعامل معه ، ولن يقبل أحد أن يصادقه لأنه انحط بفرائزه الى أسفل سافلين .. ولم أجدا الا حلا واحدا للتعامل مع مثل هؤلاء المخادعين ، هو الصمود والصمود ، فى قوة وراء الحق مهما كان الثمن ... وتركت (السوق) الى (السياسة) ... وفى السياسة ، صادفت هذين النوعين ، لا فى الأشخاص ، ولكن فى الدول .. ألا قتال الله أنانية السوق وأنانية الدول التى لا تعرف من الشرف الا مناورات السوق .. »

الأربعينات ...

سنوات الحرب ، والمرارة ، والجراح ...

الأربعينات ...

سنوات الألم ، والصديد ، والدموع ..

الأربعينات ...

مصر تنام وتستيقظ على صوت صفارات الانذار والقنابل والمدافع ،
وتمضغ الخبز الأسود ..

الأربعينات ...

وأبناء مصر وزهرة الشباب الوطنى فى الحرب ، أو فى السجون ، أو
فى المعتقلات .. والسادات واحد من هؤلاء ، من زهرة شباب الحركة
الوطنية ، الذى دفع جزءا عظيما من عمره وحياته وراء القضبان ، ثمنا لنضاله
وثورته وبطولته ..

من وراء القضبان يتأمل مصر ، وطنه الحبيب : مصر على الصليب ..
تحيا الأحزان ، وتتنفس الآلام والجراح ، والمئات من أبنائها يداسون تحت
عجلات (النظام) الذى يمثل تحالف السراى مع الاحتلال البريطانى وكبار
ملاك الأرض ورجال المال ممثلين فى الأحزاب الرجعية المتآمرة ..

وحتى عندما خرج من السجن ، لم يحس بطعم الحرية كثيرا ، فهما
الفرق بين أن يسجن المرء داخل زنزانة أو وراء شباك ضيق وبين أن يحيا
فى وطن على الصليب ، القيود تكبله ، والسجن يؤرقه ويمنعه عن أن
يحيا حرياته ... !

* ١٩٤٤ ... الانجليز يطلبون تأليف الجامعة العربية ، من أجل أن
تكون خاضعة لنفوذهم وسيطرتهم . والحركات الوطنية ، والانتفاضات
مستمرة فى الوطن العربى ضد قوى الاحتلال على اختلاف ألوانها ...

.. * ١٩٤٥ ... الانجليز يرفضون تعديل معاهدة ١٩٣٦ ، ويرفضون لـجلاء ، ويرفضون حتى مناقشة هذا الموضوع ، فهم يعتبرون أن مصر متردتهم في وقت الحرب والسلم ، فقد أعانتهم وقت الحرب كقاعدة هامة ، وهي ، في نفس الوقت مزرعة هامة في وقت السلم تؤمن اقتصادياتهم ومواردهم . محاولات متنوعة لتأليف الجماعات والتنظيمات والحلقات الوطنية ، وذلك للضغط على قوى الاحتلال والرجعية في البلاد ، وكانت إحدى هذه التنظيمات انتماء للسادات ، اذ رأى فيها منطلقا نحو العمل الثوري ضد قوى القمع والقهر والعدوان على العدوان ..

* ١٩٤٦ .. مصر على الصليب . مصر تجملت كلها عن بكرة أبيها في مظاهرات حامية ضد الاستعمار والرجعية . ففي نفس الوقت الذي نزلت فيه الى شوارع بمبائ في الهند مظاهرات ضخمة يقودها الطلبة والمثقفون والعمال ، اشعلت النيران في عربات ومصنحات الانجليز .. في نفس الوقت ايضا ، كان السودان يخوض معركة مشابهة في معالمها أشد التشابه لمعركة الهند .. في نفس الوقت ، أيضا ، نزلت مظاهرات الطلبة والعمال الى شوارع مصر ..

في ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، كانت مصر كلها على الصليب ، تقود المظاهرات في الشوارع ، وكان السادات من وراء القضبان يرقب كل ما يحدث ، وهو يردد : الشعب في الخارج . انه قوى قوى ، تماما كالعاصفة ، كالاعصار ، قد يسجن منه عشرات وعشرات ، لكنه أبدا لا يستكين ، ان العذاب والشقاء ، دائما يزيده ثورية ومقاومة ونضالا ..

وكان أكثر الذين يحسون ما تعانيه مصر من شقاء ، هم الطلبة المثقفة من أبناء الجامعات والمدارس ، كما أنهم كانوا أكثر الفئات الشعبية قدرة على الحركة وجمع الصفوف . اجتمعوا ، في سرعة ، ورسوموا خطة الكفاح من أجل الاستقلال ، وكان موعدا للقاء التاريخي الأول في « استاد كلية الطب » ، وتقابلت الأيدي الشريفة لطلبة الجامعات والأزهر والمعاهد العليا

والمعاهد الفنية والمتوسطة ، واتفق المجتمعون على ضرورة تكثيف النضال
في تنظيم واحد يقودها خلال مرحلة الكفاح ضد الاستعمار . وقد استلهم
المجتمعون شكل التنظيم الجديد من الأشكال التي ظهرت عام ١٩١٩م ،
وسميت في ذلك الوقت بلجان الثورة . واتفق الحاضرون على شعارات
وأهداف الانتفاضة الجديدة ، وكانت كل كلمة تم الاتفاق عليها تنبض
بحرارة الثورية . وفي وعي كبير ، قرروا أن الكفاح الوطني ليس موجها
ضد الاستعمار العسكري فحسب ، بل وأيضا ، ضد الاستعمار الاقتصادي
والسياسي والفكري . وفي وعي كبير ، قالوا ، أيضا ، إن القضاء على
الاستعمار وحده مستحيل ، وإن الواجب هو القضاء ، أيضا ، على صلاحياته ،
وهم : الأقطاعيون الذين كانوا يتحكمون في مصائر الملايين . وفي تفاؤل
كبير ، وضعوا الطريق السليم لمقاومة الاستعمار ، بأن كتلوا كافة القوى
الوطنية ضد كل الرجعيين المحليين والخارجيين ..

وكان السادات ، يتابع الأحداث في سجنه ، في قلق ، وانتصار ، لأن
هذه التحركات كانت تسقط القضبان عنه : في ٩ فبراير ١٩٤٦ ، دعت اللجنة
التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة الى مؤتمر عام ، بعقد بحرم الجامعة وذلك
للنظر في موقف الحكومة بعد المفاوضات التي كانت تجري في ذلك الوقت
بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، وعقد المؤتمر ، وتوافدت جموع الطلبة من الجامعات
 والمدارس من كل حي ، واجتمعوا صفا واحدا تحت قبة الجامعة ، وانظفوا
على المطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ الخاصة بالسودان ، والمطالبة
بالجلاء فورا ، ثم خرجوا في مظاهرة سلمية الى شوارع القاهرة ، ليقدّموا
مطالبهم .. وظلت المظاهرة سائرة في شارع الجامعة ، حتى وصلت الى كوبري
عباس ، لكن لما أن توسطت المظاهرة الكوبري ، حتى فوجئت بالكوبري
وقد فتح وبقوات البوليس وقد حاصرتها تغلغل عليها بعموة وعنف
شديدين وتساقطت أجساد الشباب ، وابتلعها المياه . في ذلك الوقت ،
سقط من الشباب الكثير ، وكان بين من سقطوا شاب سوداني يدعى «محمد

عليه جسد » ، كما سقط آخرون وآخرون ، وبينهم : محمد أبو النصر ، محمد فهمي ، محسن حامد حسن ، وآخرون .. « ١٢١ » ضحية بين شهيد وجريح أسفرت عنها مذابح ٢١ فبراير ١٩٤٦ .

ومن سجنه ، ومن وراء القضبان ، أرسل المناضل محمد أنور السادات كلماته ، يؤيد هذا النضال من أجل مصر وهذه المسيرة الكبرى التي اعتبرها إحدى الحلقات الثورية الهامة في تاريخ مصر الوطني في أعقاب الحرب . وفي سجنه ، أيضا ، قرأ المناضل أنور السادات ميثاق اللجنة الوطنية الذي أصدرته لجنة الطلبة والعمال (١) .

وقد تأمل ، طويلا ، السادات ، ما حدث في مصر في فبراير ١٩٤٦ ، واعتبره نقطة هامة في عمر مصر الحديث : لقد كان ٢١ فبراير بداية مرحلة جديدة في الكفاح الوطني ، وميزت هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الوطنية والتي تحققت أهدافها بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالمميزات الواضحة ، وبينها .. ان العمال أصبحوا قوة أساسية في قوى الثورة الوطنية المصرية .. كما أدين نهائيا أسلوب مساومة المستعمرين والذي كانت تنتهجه الحكومات الرجعية المحلية تحت شعارات تحقيق الاستقلال وأصبح واضحا أن التخلص من الاستعمار يعني الاطاحة بسيطرته العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية .. هذا الى جانب أن الكفاح الوطني ضد الاحتلال البريطاني قد ارتبط بالكفاح ضد الحرب التي أخذ يحضر لها الاستعماريون بعد الحرب العالمية الثانية .. كما أصبح الكفاح ضد السراي والاقطاع مرتبطا . أوثق الارتباط بالكفاح ضد المستعمر .. كذلك اتجهت الحركة الوطنية الى الجيش

(١) وقد جاء في هذا الميثاق الوطني : « لما كان الجلاء مطلباً أساسياً ، إذ بدونهُ لا تتحقق سيادة الأمم ، ولا تتصور أن توجد أمة حرة ، وهي تروج باحلال الجنود الأجانب ، ولما كان الجلاء مطلباً لا يتناول المساومة ولا التجزلة ، بل لابد أن يكون جلاء تاماً ، لذا فاللجنة الوطنية تطلب من المسئولين أن يعلنوا أنهم لن يقبلوا الحكم أو المفاوضة ، الا على أساس تصريح من بريطانيا بالوافقة على الجلاء من ولدي الإنيل ، فاذا رفضت هذا المطلب البادل ، فيجب عرض القضية المصرية على مجلس الأمن الدولي فوراً ، كما تطلب من الحكومة إعلان هذا المطلب رسمياً لدى الإنجليز من الآن .. » .

لأول مرة منذ ثورة أحمد عرابي ، وأصبح شعار وحدة الشعب والجيش شعاراً أساسياً من أجل بناء جبهة وطنية قوية قادرة على استمرار النضال ..

والى جانب ذلك ، أيضاً ، لم تعد الحركة الوطنية في معزل عن كفاح الشعوب الأخرى المناضلة ضد الاستعمار ، وارتبط نضالها وكفاحها بالقوة الديمقراطية على الصعيد العالمي .. كما كشفت القيادات التقليدية القديمة للحركة الوطنية ، كقيادات متهادنة ومرتمية في أحضان الاستعمار ، وأصبحت مسألة خلق جبهة وطنية عريضة بين فئات الشعب ، هي المسألة العاجلة لتحقيق الاستقلال الوطني ، وأدين الأسلوب الكلاسيكي الذي كان يقضى بتشكيل الجبهة من كافة الأحزاب التي كانت تنتهي بالتآمر على الحركة الوطنية وعلى الشعب ..



جلس في سجنه ، يتأمل القضبان ، طويلاً ، ثم نظر من خلال الفتحات الضيقة التي تتسلل من خلالها الشمس ، وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة :
 مهما ضاقت الفتحات ، فإن الشمس لا بد أن تنفذ ! وتذكر قول فولتير :

« ان شمعة واحدة لا تضيء الميدان ، لكن ثلاث شموعات
 ثم خمس ، ثم تسع ، تجعل الرؤية أكثر وضوحاً حتى تنبسط
 الظلمة . كذلك الحال ، فصوت واحد لا يملأ الميدان ، وقبضة
 واحدة لا تحطم سجن الباستيل . وقد تبدوا الأشياء في ميلادها
 الأولى عادية ، لكنها تقوى إذا ما تجمعت ، حتى تتحول الى
 صوت العاصفة الهادر ، الا يشبه هذا الصوت صوت الشعب
 اذا ما غضب ، ورفض ، وثار ؟ »

وكانت الأربعينات ، بما فيها فترة السجن ، فترة قراءات وثقافات طويلة
 للسادات ، قرأ فيها كثيراً ، في السياسة ، في الاقتصاد ، في الفلسفة ، في
 الفكر ، كما قرأ في فنون الحرب . لقد أحس بوعيه الخلاق .. انه ليس هناك
 ثورة بدون نظرية ثورية ، ولا يمكن الوصول الى فلسفة عامة أو نظرية

ثورية دون قراءة واستيعاب لكل أفكار المحدثين والتقدمي . فأخذ يقرأ للمفكرين الانجليز والفرنسيين والألمان ، كما قرأ للمفكرين الأمريكيين والروس .. وأحس بأهمية اللغات ، فدرس الانجليزية دراسة مستفيضة ، كما تعلم اللغة الألمانية ، واهتم باللغات أشد الاهتمام . ولم يكن ليقرأ الا ليمتص ، وما يمتصه يتأمله طويلا .. وكانت أيام السجن ، لحظات تأمل وفلسفة لوجهات النظر ، مثلما كانت فترة هامة للتثقيف والرؤية ..

ولقد تأثر السادات بالفكر الانجليزي الى حد كبير . فقد قرأ فيه كثيرا ، قرأ في الاقتضاد الانجليزي مثلما قرأ في الفكر والأدب ، وقد اجتذبه تشارلز ديكنز الى حد كبير ، وكان هو الباب الذي دخل منه الى الفكر الانجليزي ، ومن خلاله عرف كتابات وأفكار غيره من المفكرين والكتاب والفلاسفة الانجليز : شيلي ، وتوماس مور ، وسيدني ويب وبياتريس ويب ، و ه.ج. ويلز ، وبرنارد شو ، وماكدونالد ، والدوس هكسلي ، وريدارد كبلنج ، وبالم دات ، وغيرهم . وقد اجتذبه في ديكنز بساطته وعفويته وصدقته وكتاباته الاصلاحية ، مثلما أعجب بكتابات الفايين الاصلاحية (١) .

ومما يذكره ، أيضا ، واستوقفه كثيرا ، من كتابات المفكرين الانجليز كلمات شيلي التي يقول فيها :

« البذرة التي تبذرونها ، يحصدها آخرون .. والثروة التي تجدونها ، يخزنها آخرون .. والثياب التي تنسجونها ، يلبسها آخرون .. والسلاح الذي تصنعونه ، يحملة آخرون (٢) » .

(١) وممن قرأ لهم من الفايين (الاشتراكيين الاصلاحيين) بياتريس ويب ، صاحب نظرية الإصلاح الاجتماعي ، والتي صاغها على قرار ستيوارت ميل في الإصلاح الزراعي . ويعول ويب في نظريته هذه : ان التاريخ في اشكال المجتمع المختلفة يثبت انه عندما يلبس الإنتاج عن حاجة العيش، ينشأ النضال حول هذا الفائض ، فنجد الطبقات او الافراد التي تسهر على القوة الاجتماعية تستغل هذه القوة لتستحوذ على الفائض ، ولا تترك للأغلبية سوى الكفاف : والفائض هو ما يسميه ويب ب (الربح) ، وهو في حالة الزراعة عبارة عن الخصوبة والعناصر المعدنية وموقع الارض والمميزات البشرية .

(٢) - وقد جاءت كلمات شيلي هذه في كتابه (برومبيوس طليقا) ، الذي اصدره عام ١٨٢٠ .

وقد أعجبه في ديكنز انسانيته المفرطة ، حتى أنه قرأ جبل أعيناله ،
وكتابات الاصلاحية عن المجتمع الانجليزى ، ومما قرأ واستوقفة كثيرا : حياة
أوليفر تويست ، ومستر بيكونيك ، وقصة مدينتين ، والآمال الكبار ،
والصغيرة دوريت ..

كما قرأ شو ، وأعجب بسخريته اللاذعة ، وتوقف كثيرا عند عباراته
التي لا تنسى :

((ان الفقر لا يقتل الحب ، فقط ، انه يقتل الانسان))

وأياضا :

((ان الفكرة عن الثورة لا تصنع الثورة ، انها فقط تجعلك
تحيا صورة الماضي ، لكن الذى يصنع الثورة هو الإنسان
بالظلم))

وأياضا :

((ان اعداد الانسانية الحقيقية ، ثلاثة رجال : رجل يصبر
على الخطأ ، ورجل يصبر على الجهل ، ورجل لا يحس بحرارة
الحب))

وأياضا :

((ان المجتمع يحيا في حالة مقلوبة . تماما كالمثلث ، علينا
ان نقلبه ، حتى يصبح في حالة اعتدال . وهذا ينطبق على كافة
ابعاده ، لكن المشكلة تكمن ، أساسا ، في طريقة قلبه ، وربما
كانت طريقة قلبه تجعله لا يعتدل أبدا . . . !))

وقد اهتم السادات اهتماما بالغا باللغات الأجنبية ، لأنه أحسن بضرورة
النفاذ الى فكر وثقافة العالم ، حتى يتعرف على تجارب الشعوب في كفاحها
من أجل إقامة مجتمعات جديدة ، وفي نضالها من أجل إقامة حياة متكاملة
لمواطنيها . وكان أول كتاب اشتراه في حياته من مصروفه الخاص ، هينو
قاموس انجليزى-عربى ، اشتراه من احدى مكتبات النجالة ، عثما أحسن

بضرورته وهو يقرأ الكتب المختلفة لينمى ثقافته ، ثم اهتم باللغة الألمانية بعد اجادته للانجليزية ، واخذ يقرأ القصص والروايات الألمانية في البداية حتى اقترب من اجادتها . وتعلم بعد ذلك اللغة الفارسية . وأحس ان دراسته آداب اللغات من المهم بمكان للتعرف على تجارب الشعوب وحياتها المختلفة .



بعد أن خرج السادات من السجن ، لم ينصرف عن السياسة ، بل اتصل بمجموعه الضباط الأحرار ، وعاش سنوات مصر القاسية ابتداء من ١٩٤٨ حتى ١٩٥١ في قلق مرير ، كان يشغل في هذه الفترة محترفا سياسيا ، ثم انتمى الى تنظيم « الضباط الأحرار » وأصبح ركيزة أساسية من هذا التنظيم الثورى الذى قام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وخلال هذه السنوات قرأ السادات كثيرا ، فى السياسة والفلسفة والاقتصاد والتاريخ ، وأخذ يسلح نفسه فكريا ونظريا ، بعدما تمرس طويلا فى العمل الميدانى السياسى ، كمحترف من الطراز الأول ..

قرأ فى الاقتصاد الحر ، وقرأ فى الاشتراكية الخيالية والعلمية ، كما قرأ فى التاريخ ودرس ثورات الشعوب دراسة مستفيضة .. وكان دائما يدرس ما يقرأ ، لا يقرأ على سبيل المتعة أو الثقافة فحسب . كان يحرص أن الثقافة سلاح أساسى له كثرورى ، ودرع هام له كمفكر سياسى .. وكثيرا ما توقف عند قراءاته ..

✽ توقف عند تقسيم فورييه (١) للتاريخ الاجتماعى وتقسيمه اياه الى أربع مراحل : التوحش ، الهمجية ، القبلية ، المدنية ، وبها يصل الى المجتمع البورجوازى ويبين كيف أن السيئات البربرية الساذجة فى الهمجية قد أصبحت بشكل راقى فى البورجوازية وهى ذات قناعين اما التباس أو خداع .

(١) شارل فورييه ، واحد من الاشتراكيين الطوباويين - الخياليين ، عاش فى فرنسا فى مطلع القرن التاسع عشر . وعظمة فورييه أنه قسم التاريخ الى أربع مراحل : التوحشية ، الهمجية ، القبلية ، المدنية .

✽ وتوقف ، أيضا ، عند رسائل جنيف التي نشرها فوريه عام ١٨٠٨ ،
وضمنها أفكاره السياسية ، وبين فيها ملاحظاته عن الثورة الفرنسية ، وكيف ،
كان الصراع بين النبلاء والبورجوازية والطبقات المحرومة .

✽ وتوقف ، أيضا ، عند كتاب اميل لودفيج عن نابليون بونابرت ،
وتحليله لنبوه وتطور الفكر البونابرتي .

✽ كما توقف من قبل عند اشتراكية كامبانيلا (١) ، التي روى فيها
أحلامه من خلال زيارة قام بها الى جزيرة « تايرو بانو » في المحيط الهندي .
✽ كما توقف عند مراحل تطور ثورة كرمويل ضد أسرة ستيوارت
الاقطاعية في بريطانيا ، وكيف قامت هذه الثورة وأهدافها .

✽ وتوقف ، أيضا ، عند تجربة «أوين» (٢) الشهيرة ، وهي من التجارب
التعاونية الرائدة في الاشتراكية ، ونادى بها عام ١٨٢٤ .

✽ وتوقف عند أفكار تورجو وكوندورسيه ، عن التقدم والاصلاح
الاجتماعي في فرنسا ، كما درس انجلز وهيغل وماركس .. واثقل بعد ذلك
الى دراسة ثورات الشعوب ، ابتداء من الثورة الفرنسية الى الايطالية
والألمانية الى ثورات الهند والروسيا والصين .

(١) بوماس كامبانيلا ، هو الفيلسوف والفكر الايطالي ، الذي كتب يوتوبيته الشهيرة :
سيفثياس سنوليس - أو مدينة الشمس ، وهي أشبه بجمهورية افلاطون أو مدينة الغارابي
الفاضلة ونشرها عام ١٦٢٣ ، وخلالها صور أحلامه عن المدينة الاشتراكية الخالية من الرقبة ..

(٢) روبرت أوين ، هو الفكر والفيلسوف الذي بنى نظريات القرن الثامن عشر المادية ،
وقال بأن قوام اخلاق الناس هو نتاج تركيبهم الطبيعي من جهة والظروف التي تحيط بحياتهم
من ناحية أخرى . وقد قام بتجربة شهيرة في مجال الصناعة ، في مصنع يضم خمسمائة عامل
في مانشستر في بريطانيا ، حيث كان هو مديرا للعمل ، وقد سار على هذا النظام مصنع الغزل
في نيولابارك في سنة ١٨٠٠ حتى سنة ١٨٢٩ ، وذلك في أيفوسيا ، وصنع بعد ذلك فرى
عملية يضم كل قرية ٢٥٠ عامل ، بينهم عدد من منحلى الاخلاق ، لكنه عندما وفر لهم المناخ
الملائم ماديا واجتماعيا ، لم يخطئوا بل زادوا من انتاجهم ..

فى نهاية الأربعينات ، كان عائدا الى قريته فى اجازة قصيرة . كان سارحا فى عشرات الأفكار ، وهو يظن من نافذة القطار ، حزينا كاسف البال . ينظر الى الغيطان والمزارع ، وتتمر على مخيلته عشرات الأحداث والأحداث ... منذ أكثر من عام لم يأت الى قريته ولم ير الناس والدروب والأزفة ، ولم ير قريته الصغيرة التى تحصل عشرات الصور من طفولته وصباه وشبابه ..

ربما كان ذلك أول صيف يزور فيه قريته بعد خروجه من السجن .. ربما كان ذلك أول صيف يعود فيه الى الأهل والأقارب والأصحاب .. واختلطت فى مخيلته الصور ، وامتزج فى داخله شعور بالحزن والقلق واللوعة : ما أمر أن يبعد المرء كثيرا عن أرضه ؟ !

واعترضته الأحزان ، وتاهت فطراته بين عيدان القمح الخضراء ، ثم عادت لتتربط طائر يحلق فى الفضاء وحيدا ، سرعان ما التفت بمجموعة أخرى من الطيور : الحرية .. ما أروع الاحساس بالحرية والانطلاق !

وعادت الى مخيلته صورة السجن ، والقضبان ، ودهاليز المحاكم والمرافعات والجلسات المختلفة ، وعشرات الوجوه فى الأقسام والداخلية وقاعات المحاكم : المحاكمة .. شىء غامض مثير لكن المثير أكثر ، أن مصر كلها تحيا داخل القضبان ، فى سجن كبير ، لن تتحرر منه الا بسقوط من يحملون الأغلال والسلاسل .. الاستعمار ، الاقطاع ، الرجعية ..

انه يتذكر العديد من المحاكمات والمظالم ، وهو يفكر ويتأمل هكذا الأشياء ، فى طريق عودته الى « ميت أبو الكوم » .. المحاكمات التى ضحى فيها المصريون بأبل ما يملكون ، بعمرهم ، بحياتهم .. من أجل مصر .. من أجل هذه الأرض المعطاة . انه لا يزال يتذكر تلك الكلمات التى كتبها برنارد شو عن محاكمات قرية دنشواى عام ١٩٠٦ .

بعد ثتب شو يقول :

« ان الرصاصه الطائشة التى استقرت فى صدر زوجته حسن محفوظ. (١) ستظل الى سنوات طويلة يتردد صداها لا فى قلب القرية الامنة الوديعه ؛ دنتمواى ، فحسب ، بل سيظل يتردد صوتها فى كل الآذان والقلوب الشريفة ، والتى تدمغ الأفعال الشنيعة والتى لا تتمشى مع منطق التحضر والانسانية والتى ارتكبت ضد الفلاحين الطيبين فى قرية المنوفية . ان هذه الأشياء لاتدمغ بريطانيا فحسب ، بل تدمغ آية قوة قاهرة ضد الأمنين العزل والذين لا يملكون غير وجيف قلوبهم وآمالهم الصغيرة ا » ..

وانه ليتذكر ، أيضا ، ما قرأه من مرافعات فى هذه المحاكمات ، وكيف علق المشاق فى القرية ، وكيف أعدم أبناء القرية البؤساء على أيدي كرومر ، ولا جريمة اقترفوها غير الدفاع عن أهليهم وذويهم فى القرية التى داسن كرامتها الانجليز ..

نفس الشئ حاول أن يفعله هو ، فكان جزاؤه السجن والتشكيل ! لكن ترى ، كل عذاب يهون ، كل الآلام تسقط ، طالما طريق الحرية مفتوحا لبذل النفس والروح ، وأن كل عمل شريف لمصر يهون أمامه كل شئ ، العمر ، الحياة ، كل غال وعظيم .. وماذا تجدى حياة الانسان اذا لم ترتبط بالأرض بالوطن ، بالوجود الذى أعطى هذه الحياة وكان سببا فى نموها وترعرعها ؟

وانه ليذكر الجموع يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ - هؤلاء الذين قرأ عنهم الكثير من البطولات والتضحيات .. هؤلاء الذين سقطوا فى النيل وفتح عليهم كوبرى عباس ، وأطلق الرصاص عليهم فى الشوارع ، لأنهم يرددون : تحيا مصر .. الجلاء بالدماء .. عاشت مصر مستقلة .. تسقط المعاهدة .. بين هؤلاء ربما شحاته أو سيد أو جمال أو محمد .. أى واحد من قريته ، من

(١) زوجة حسن محفوظ ، هى إحدى النساء اللالى استشهدن فى حادث دنشواى ، الذى أطلق فيه الجنود الانجليز الرصاص على الفلاحين العزل وهم بصطادون الحمام فى صيف ١٩٠٦ ، وقد ادان الكاتب الانجليزى الساخر برنارد شو سياسة بريطانيا وادمغ عدوانها على القرية الامنة .

أبناء الفلاحين البسطاء .. ومصر ليست الا قرية كبيرة تدافع عن أرضها من
الدخلاء والظالمين والذين جاءوا في محاولة لقهر هذا الشعب ، لكن هيهات
أن يقهر هذا الشعب . انه يحمل على ظهره عذاب وقهر سبعة آلاف سنة
تنضح بالجراح والدموع والآلام ، ويوم يثور هذا الشعب فالويل للطغاة !



لم يدر أن القطار قد توقف ، من فرط فكره وأحزانه ، وشوقه للأهل
والأحباب .

لم يحس الا بدفء العناق وحرارة الاحضان .. لقد أصبح واحدا بين
صدورهم وأذرعهم ودموع شوقهم اليه ، وفرحتهم بلاقائه . أحس انه قطرة
من هذا البحر الخضم . بكى ، ودمعت عيناه ، ولم يحس هل هذه دموعه أم
دموع أهل القرية .. وكيف يحس النهر الواحد بقطراته العديدة ، وكيف
تفرق قطرة أختها في النهر العظيم .. لقد تلاحم الدمع بالدمع ، مثلما التحم
القلب بالقلب ..

ان الجزء لا يمكن أن ينفصل عن الكل ، والفطرة الى جوار القطرة ،
تكون عدة قطرات ، ومنها يمتد النهر العظيم المعطاء .. وهذه القرية ، ليست
الا صورة « مصر المصغرة » التي تحمل في داخلها الرغبة في الخلاص ، وسعى
أهلها ليكونوا نهرا واحدا عظيما ، لديه كل القدرة على العطاء ، والنماء ،
والانتشار .. وحتى يتم ذلك ، لا بد أن تسقط القيود ، لا بد أن تقح عن
كاهل مصر الاغلال : « فالتحرك لا يتم والقيدينفل الأقدام ، والثورة لا تتم
الا بالرفض والشجاعة والتجمع » .

الفصل الثالث

الفكر الذى قاد إلى الهزيمة.. والفكر الذى انتصر

« كل مجتمع يشهد الثورة ، لابد له من نظرية يورية ،
تحدد استراتيجياته المرحلية ، وهذه النظرية لابد ان تقوم
على اساس علمى ، والا تعرضت للهزات . فالفكر المثالى ،
لا بقود الى ثورة منتصرة ، وكذلك الفكر التجريى لا يقود
الجماهير الا الى منزلق ضيق منحدر ... وبمعنى تقدم الفكر
وانحساره وبمعنى صعود الثورة او تراجعها ، نفول ، ان هذا
الفكر قاد الى ثورة ناضجة ، وآخر قد قاد الى هزيمة نكراء ..
وثورات الشعوب اليوم ، لابد ، ان تتمثل منهجية علمية أصيلة ،
والا تعرضت الى (هزات) تودى بها ، وبالذات ، هذه الثورات
فى الدول النامية وفى الدول المستقلة حديثا ... »

الكاتب الانجليزى : موريس كورنفورث

المجتمع

أى مجتمع ..

له شكلان ، يتكون منهما : الأول هو البناء التحتى .. والآخر البناء
الفوقى . البناء التحتى يحوى كل ما يمكن ان نسميه بالماديات أو
المحسوسات ..

الشكل الاقتصادى ، طبيعة العلاقات ، التركيبات الطبقة ، نوعية
الانتاج اما البناء الفوقى ، فهو يشمل كل التكوينات الفكرية ..
الاخلاق ، القيم ، الفلسفة ، الأدب ، الابداع ، الفن ..

وكل مجتمع يتميز بهذين الشكلين ، ويتناسق كل منهما مع الآخر . من
طبيعة البناء التحتى ، نستطيع أن نفهم البناء الفوقى ، وبالعكس ..

وفى نص شهير ، سابق على كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ، يقدم
ماركس بعض التوضيحات حول « القاعدة والبنیان » ، فيقول : « يدخل
البشر ، أثناء الانتاج الاجتماعى ، وفقا لشروط معيشتهم فى علاقات محددة
وحتمية ، مستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه ، تتطابق مع درجة
النمو التطورى الذى يحدث فى القوى المادية المنتجة .. ومجموع علاقات
الانتاج ، هذه تكون البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى القاعدة الحقيقية العينية
التي يشاد عايمها ببناء المجتمع الفوقى ، حقوقى ، سياسى ، وابداعى ، والتي
تطابقها أشكال متنوعة من الوعى الاجتماعى بذاتها » (١) . ونحن لو قارنا

(١) كتب ماركس هذا التغيير ، فيل ان يكتب كتابه الشهير (رأس المال) ، وكانت
سلسلة هذه الافكار الفلسفية والاقتصادية التمهيد لما فى رأس المال من افكار متنوعة .

هذه السطور بالنصوص التي وردت ، والتي قرأناها في كتاب ماركس :
(رأس المال) ، بعد كتاباته لهذه السطور ، بسنوات قلائل ، لخرجنا مقتنعين
بأن مفهوم التكوين الاقتصادي الاجتماعي ، يشمل مفهومي القاعدة والبنیان
الفوقى ، وهو يغنيهما ، وهنا تثار مسألة صعبة ، فالماركسيون قد بدأوا
يتساءلون ، انطلاقاً من صيغتي القاعدة (البنیان التحتی) والبنیان العلوی
أو الفوقى ، عن الروابط بينهما والعلاقات .. فاعتبروا (البناء الفوقى) ،
أحياناً كوهم وتصور نظري ، بالنسبة للقاعدة الاقتصادية (١) .

وهنا يثير « هنري لوفافر » ، الفيلسوف والمنظر الفرنسي ، سؤالاً له
أهميته : « هل البنى الفوقية أشكالاً من الأيديولوجية ، أو أنماطاً من
الوعي الاجتماعي ؟ وما هي طبيعة العلاقات والتطابق بينهما » (٢) .

مثلاً ...

المجتمع العثماني أو المملوكي في مصر ، كان له تكوين تحتی خاص ،
سمته الأساسية « الاقطاعية » ، ذات الطابع الخاص ، بعض أشكال العبودية
التابعة للخلافة الإسلامية ، والبناء الفوقى كان فكراً متخلفاً ، معادياً للعلم ،
والأدب ، والفن ، مهتماً بالمحسنات ، لا يحاول الدخول الى جوهر الانسان ،
ولا يهتم بالنالی ، بأي شكل فني راق ، وغير قادر على الوصول الى هذا
الشكل .. هذا ، بالإضافة ، الى المعاداة التقليدية لكل ما هو تقدمي ..

مثلاً ..

المجتمع المصري قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت تحكمه علاقات
اقطاعية وشبه اقطاعية ، وكان واقعا تحت ظل ووطاة نظام استعماري ،

(١) وقد اعتدى فردريك انجلز ، في حياته الى هذا الخطا الواضح ، ودلل عليه اقتصادياً
وفلسفياً ..

(٢) وقد كتب كارل ماركس ، يقول ، انه ينبغي التمييز بين الانقلاب المادي للظروف
الانتاج الاقتصادية والأشكال الحقوقية التشريعية والسياسية ، والفنية والفلسفية . فهل
يصح ماركس الحقوق والفن والفلسفة ، في صعيد واحد مع العمل السياسي والفروقي البالغة
الى حد الجهل والوهم ؟ |

وبناءؤه الفوقى ، كان يحوى أفكارا رجعية بالية متمسكة بكل ما هو قديم ،
ومحاربة لكل ما هو جديد وتقدمى ..

ولكن ، هل يمكن أن يكون هذا اطارا أبديا ؟

لا . طبعا . لأن طبيعة الأشياء ، أن الانسان يتطور الى ما يخدم مصالحه
محطما فى الطريق كل الأنظمة المعوقة والمعركة ..

البناء التحتى ، يشكل الفكر الذى يعبر عنه ، ولكن الفكر الجديد ،
أحيانا ، يشكل خطرا على البناء القديم .

مثلا ..

فى فرنسا ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، كان شكل المجتمع اقطاعيا
قاسيا : الملك لويس الرابع عشر يقول « أنا الدولة » ، والنبلاء يملكون كل
شئ ، من الأرض الى حرية من يعيشون عليها ! وجماهير الشعب من الفلاحين
والعمال الى أبناء البورجوازية ، يعيشون فى أقصى ظروف من الممكن أن
يعيش فيها شعب واقع تحت تأثير نظام اقطاعى ..

الفكر الموجود طبعا ، فكر اقطاعى . الأدب للترفيه عن الارستقراطية ،
الموسيقى والتصوير لازجاء وقت فراغ الصفاة وتسليتهم ، الفلسفة تدافع
فى جوهرها عن النظام القائم . ولكن البورجوازية ، بدأت تتغلغل داخل
هذا المجتمع ، كما يصنع « الكتكوت » داخل البيضة قرب أوان خروجه الى
النور . وتبدأ بذور الفكر البورجوازى تغزو هذا المجتمع ، وتتألف كتابات
جان جاك روسو ، وفولتير ، وديدرو ، ورولان ، ومولتسكيو - هذه
الكتابات التى مهدت لمجتمع جديد ، هو مجتمع الثورة الفرنسية .

مثلا ..

فى مصر ، كان النظام الموجود قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، نظاما رجعيا .
لكن كانت داخله طلائع الثورة فى كتابات : أحمد لطفى السيد ، وطه حسين

وسلامة موسى ، وغيرهم من الرواد . وكانت في الفكر السياسي الذي اعتنقه مجموعة من الشبان - بالذات - آمنوا بالثورة المقبلة ، والتفت مشاعرهم بالحركات التلقائية للفلاحين والعمال . وبثورة ١٩٥٢ ، تغير المجتمع تغيرا كبيرا ، تم القضاء على (النظام الاقطاعي والشبه اقطاعي) ووضعت المبادئ الستة التي ارتبطت بقيام ثورة ٢٣ يوليو ، وتم القضاء على الملكية الزراعية القائمة على العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وبدأ مشروع الاصلاح الزراعي ، وبدأت حركة التصنيع ، وروعت حقوق العمال والفلاحين قبل أصحاب المصانع وأصحاب الأرض ، وبدأ سلوك وتحرك استقلالي حيال السياسة الخارجية . .

حقيقة ، تم القضاء على (النظام الرجعي) ، لكن هل تم - في نفس الدرجة - القضاء على (الفكر الرجعي) ؟

ان (النظام) مؤسسات موجودة في الواقع وملموسة . أما (الفكر) ، فهو شيء لا يمكن لمسه ، ولا يمكن وضع اليد عليه ، ولا يمكن انتزاعه . صاحب الفكر المرتبط ، سياسيا واقتصاديا بالحزب الرجعي أو بمجموعة التيارات الرجعية ، من الممكن كشفه . ان أمره سهل ، وهو نفسه قد يحاول التحرك ، فكريا وسياسيا ، في اتجاه معاكس ومفوض . لكن ألا يمكن أن يوجد صاحب فكر مرتبط بالتيار الرجعي ، فكريا ، دون أن يبدو الارتباط السياسي أو الاقتصادي واضحا ، لأسباب قد تكون فردية تماما ؟ ألا يمكن أن يوجد اثنان ، يحملان نفس الفكر ونفس الروح الرجعية ، ونفس الحماس للدفاع عن المجتمع القوي ، ويكون أحدهما عضوا في تنظيم أو جماعة سياسية ، يتقاضى منها أجرا أو يكتسب منها مميزات اقتصادية ، ويكون الآخر على عدااء شخصي - نتيجة دوافع الكرامة الشخصية واستقلال الفكر - بالتنظيمات الرجعية ، أو على أحسن الفروض ، تكون العلاقة التنظيمية غير موجودة ؟

سؤال آخر: ألا يمكن أن يتسرب « شيء » ما من الأفكار الرجعية الى كاتب ممن نسميهم بالكتاب « المعتدلين » ؟ بل هناك سؤال أكثر خطورة : ألا يمكن أن تسيطر « بعض » الأفكار الرجعية على كاتب تقدمى لأسباب تربوية أو شخصية ؟

انذا اذا استعرضنا أكثر الكتاب تقدمية ، لوجدنا اعتراضات تقدمية عليهم : برنارد شو ، كاتب اشتراكي من « جماعة الفايين » ، ومع ذلك كانت له مواقف ضد العلم في كثير من القضايا .. هنريك ايسن ، الكاتب الذي حرر المرأة على المسرح ، كان يخشى الجماهير وتحركاتها ا

ان الفكر عملية معقدة أكثر عشرات المرات من البناء التحتى ، الذي ترتكز عليه ، وبالتالي ، من الصعب ، تحديد كيفية القضاء على هذا الفكر ، وهذا القضاء لا يتم الا من خلال الوقت الطويل ، وفيه توعى الجماهير توعية كاملة بالأفكار الجديدة ، وتدحر على المستوى النظرى والعملى ، الأفكار الرجعية دحرا جذريا ، ومن خلال تربية كادر سياسى أصيل قادر على المبادرة والحركة والدعاية الذكية وقيادة الجماهير ..

لقد ألح السؤال عن كيفية القضاء على (النظام) الرجعى الحاحا شديدا لسنوات طويلة . ولكن ، تقريبا ، أهمل السؤال عن كيفية القضاء على الفكر الرجعى . ولا بد أن يثور هذا السؤال ، الآن ، وبعد مرور أربع سنوات على « ثورة التصحيح » ، التى قادها البطل والقائد والمعلم : أنور السادات ، وكذلك بعد مرور قرابة ربع قرن على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . يجب أن نفكر بعمق ، فى كيفية الاجابة على هذا السؤال ونحن نسير فى طريق بناء دولة العلم والايمان المنشودة ..

ان الفكر الرجعى ، لن يستطيع ، أبدا ، ان يوقف « ثورة التصحيح » ، ولكنه ربما استطاع أن يميع بعض المواقف ، ويحدث نوعا من « الخلخلة » والبلبله والتشويش فى صفوف الجماهير . لكن الوعي الذى تتسلح به

« ثورة ١٥ مايو ١٩٧١ » ، يحميها من خطر التيار الرجعى . ولكن ، يجب ألا تقلل من خطره ، بل يجب أن نستفيد من تأمل خطر هذا التيار على كثير من الثورات ، بل وكيف استطاع هذا التيار أن يحبط أو يجهض الكثير من الانتفاضات والفورات الوطنية التى كانت تقوم فى مصر كجزء من المد الثورى لتيار الحركة القومية . فهذا التيار الرجعى - أو الحزب الرجعى ، هو الذى استطاع أن يصفى ثورة ١٩١٩ ، نتيجة لسيطرة بعض أبناء الاقطاع على القيادة ، ونتيجة لسيادة الفكر الرجعى على البناء الفوقى للمجتمع (١) وهو الذى استطاع تصفية الثورة الفرنسية ، وإيقاف كل ما تستطيع أن تعطى من خير ، وفرض نابليون بونابرت على رأس هذه الدولة ، امبراطورا كلاسيكيا ، وليس قائدا ثوريا ..

وهذا الحزب الرجعى ، أيضا ، هو الذى استطاع أن يقود مصطفى كامل بواسطة الخديو ، متصنع الثورة ، الى الطريق الخطأ ، ولم يستطع محمد

(١) لم تنجح ثورة ١٩١٩ فى القضاء على اعدائها الثلاثة : الاستعمار ، والافطاع ، وكبار رجال المال المملفين بالسلطة والاحنكار الاجنبى ، ولم تنجح فى تحقيق اهدافها بسبب (الحزب الرجعى) ، فقد كان هناك كبار رجال المال وكبار الملاك ، ولهم حزبهم المنظم ، وهذا الحزب هو الذى طعن الثورة من الخلف ، ومن هذا الحزب الرجعى جند الاستعمار والملاك ووزارات الانقلاب المهادية للحركة الوطنية . وقد كان من الصعب على بعض افراد قيادات حزب الوفد ، وهم من اصحاب الحزب والاطيان ، ان ينزلوا ببرنامج ثورى للفلاحين ، والثورة اساسا ثوره فلاحية ، وكان يعبر عنها الافندية من البورجوازية الوطنية والكادحين فى المدينة . ولهذا ، وجدنا ان الوفد يركل من الحكم المرة بلو المرة ، فلا يتحرك الشعب لتجديده . ولهذا لم يكن غريبا ان تشارك قيادات هذا الحزب متحالفة مع كبار الملاك فى تصفيه ثورة ١٩١٩ ، بل يصل بهم الامر فى عام ١٩٢٥ الى تكوين جبهة من اجل اعادة الحياة النيابية . ويؤكد على ذلك ، ويدلله الكاتب الراحل شهدى عطية الشافعى فى كتابه (تطور الحركة الوطنية) : « ان تردد قيادات الثورة ، الوفد ، لم يتح للثورة أن تنتصر ، فلم تكن هذه القيادات تملك النهج الكافى ولم تكن تملك الوعى كما لم تكن ثورية بالمعنى الثورى الى النهاية ، لهذا لم تكتشف فى اشكال وتحركات الجماهير الشعبية اشكالا ثورية حقا للتنظيم والا لشجعتها ، ودفعت بها الى الامام ، فاذا فعلت ذلك او اتبع لها ذلك ، لاستطاعت ان تمضى الثورة خطوات اكبر الى الامام . والانقسام داخل حزب الوفد ، فى ذلك الوقت كان واضحا أو جناح كبار الملاك الذين يرضون بتنظيم الحماية ، وبين ممثلى الرأسمالية الوطنية الذين ينادون بالاستقلال التام » ، والذى حدث ان تحالف الجناح اليمينى لحزب الوفد مع كبار الملاك فى تصفية الثورة واجهاضها !

فريد (١) ، أن يتحرر منه الا بعد أن عاش في الخارج بعيدا عن الأفكار المحيطة به .

وحتى نفهم ملامح وأفكار هذا الحزب الرجعى — أو النيار الرجعى ، وتطوره ، وخطره على المرحلة الراهنة ، لا بد أن نعود الى جذوره ، وهذا يجعلنا نبدأ من أول الطريق مع نمو الحركة القومية في بلادنا. حقيقة ، وكما قلت وأؤكد ، ان « ثورة التصحيح » التى قام بها الزعيم السادات ، تتسلح بوعى متطور ، هذا الى جانب ما حققته وتحققه فى كل يوم على المستوى المحلى والعربى والعالمى من انتصارات ومكاسب عظيمة ، لكن هذا لا يجعلنا نقلل من خطر العدو ، فمثلا لا نقلل من خطر عدونا الخارجى الذى يتمثل فى الامبريالية والصهيونية ، لا بد والا نقلل من خطر التيار الرجعى فى بلادنا داخليا ..

تقسيم التكوين الاجتماعى الى مستويين : أحدهما البناء الفوقى ، والآخر البناء التحتى ، تقسيم تقليدى ، يؤكد العلاقة المتبادلة بين البنائين .. البناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى من ناحية ، والبناء الفكرى من ناحية أخرى . فمجتمع خاص لا بد أن تكون له قيم خاصة ، والفكر المنتدم يغير من المجتمع القديم . ولكن التغير الفكرى ليس فى سهولة التغير الاجتماعى . فمن البديهى ، ان التغير المادى ، من الممكن أن يحدث مرة واحدة أو على مراحل متقاربة ، ولكن التطور الفكرى يحتاج الى وقت طويل ، وجهد عميق .

(١) كان من رواد الحركة الوطنية العلّال ، الذين لم يلغوا فى احضان الرجعية . ولقد أدرك منذ البداية ان الاثمايين وكبار ملاك الأرض ، وعلى رأسهم الخديو ، يمثلون ركيزة أساسية فى تحالف الرجعية : الذى يفترض تقدم البجاهير فى مصر ، واهتم باللقابات ، كما خلق زوايا من الانتصار فى كسبها محاولة الاستعمار فى مد امتياز قناة السويس ، وى محاولة بريطانيا التفرقة بين عنصرى الأمة ، ولقد عاش مطاردا ، ومات بعيدا عن وطنه فى أوروبا ، وشعاره الذى حرص ، دائما ، على الدفاع عنه هو : « مصر للمصريين » وقد عاش فى الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٩١٩ .

وبذلك ، وكما تؤكد ، أن أماننا الكثير من الجهد والبذل والنضال لكي
تخلص من كل ما من شأنه أن يعوق تطور مبادئ وأفكار وفيهم « ثورة
التصحيح » على أرض بلادنا ، وهي مشكلة ليست خاصة ببلادنا فحسب ،
بل هي ظاهرة عامة تواجه كل البلدان المستقلة حديثا ، والتي تريد أن تعمق
ثورتها داخل مجتمعاتها الجديدة . وهذه الظاهرة ، تمثل أهميتها الكبرى ،
فعلى أساس اندحار الفكر الرجعى ، تمتد « الثورة » وتحقق مكاسبها
ومحطتها المادى والفكرى . ومن يتأمل تاريخنا حتى الآن ، يحس أن هذا
التاريخ كان سلسلة من الصراعات بين فكر ثورى يريد أن يحقق مطامح
الشعب ، وفكر رجعى كان دائما يتسلط على أى فكر متقدم ليعرقل مساره .
ففى بدايات القرن الماضى ، وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، اشتعلت
الشراره التى بذرها فى أرض ملتبة جيش الثورة الفرنسية وعلماء الثورة
وعلى رأسهم مفكر الحملة (منج) ، وفى عام ١٨٠٥ ، كان الحماس الذى
يسود فى كل مكان فى مصر يشبه تماما ما كانت عليه فرنسا خلال الثورة فى
سنوات ١٧٨٩ و ١٧٩٠ و ١٧٩٢ ، وكانت القاهرة تشبه باريس فى ذلك الوقت
وقد التقى « محمد على » ، بنفسه ، مع الشعب الذى كان مصدر قوته — على
حد تعبير القنصل الفرنسى (دروفنى) فى رسالته الى حكومته فى ذلك الوقت .
وفى الواقع انه لو كان « عمر مكرم » قد سار فى ذلك الوقت بالثورة الى
نهايتها ، ولو كان المصريون قد وضعوا « فلاحا » مكان محمد على ، كما
قال أحد الفرنسيين فى ذلك الوقت « لأخذ تاريخ مصر ، مسارا آخر ،
ولانطلقت فى وضع اقتصادى وفكرى مغاير » .

ولكن المشكلة الحقيقية فى هذه « الانتفاضات » ، وفى « الفورات »
التى أعقبتها ، أن الوعى الثورى ، لم يكن موجودا ، بالشكل الذى يحمى
هذه الانتفاضات ، مما جعل التيار الممالىء للسلطة يعمل على احتواء ما يحدث
أو يضرب بشدة على أيدي الثوار بالحديد والنار — وهذا التيار طبعا ،
واضح انه بمثابة الحزب الرجعى فى بدايته — والتيار الرجعى الذى كان

يتحرك في اتجاه ضرب أية حركة ثورية . وكان الوعي الثورى في ذلك الوقت ، لا زال في طور الميلاد والنمو ، ولم يكتمل بعد ، ولا شك أن عدم الوعي الكافى هذا كان أحد الأسباب الرئيسية في فشل الثورة العراقية نفسها — تلك الثورة التى عرفت بـ « هوجة عرابى » ، نظرا لانه لم يكن هناك نضج أو تكامل ثورى بالمعنى المفهوم . لكن لا يفهم من موقف محمد في بدايات القرن الماضى ، انه كان ضد (الثورة) ، الا بالمعنى الذى يمكن أن يفهم منه ان نابليون بونابرت كان ضد الثورة الفرنسية . لقد أخذ كلاهما وجه الثورة ، ووظفها في مصالحه الشخصية ، وأفقدوا شعبيتها وحماية الجماهير لها ، ولكن جوهر التغيير ظل مستمرا . وقد كانت الدولة في عصر محمد على مزدوجة الطابع ، كان محمد على يريد اقامة امبراطورية علوية من القاهرة الى اسطنبول ، بينما كان ابنه ابراهيم يريد اقامة دولة عصرية (بورجوازية) يملئ شروطها على القسطنطينية . وقد اعتمد الاثنان ، كل من وجهة نظر على (المثقفين) — وهم في ذلك الوقت من رجال الأزهر وغيرهم ممن ذهبوا الى أوروبا وتعلموا . وخلال الاتفاقيات الوطنية ، كان الفكر الثورى يعتمد على جذرين رئيسيين : الأول هو الثقافة الكلاسيكية — وهى مجموع ما ورثناه من ثقافات عربية واسلامية .. والثانى هو يقظة هذه الثقافة والفكر في حالة الصدام مع الفكر الغربى ومحاولة الاستنارة من هذا الفكر . وقد حدثت هذه (اليقظة) منذ سنوات عديدة ، لا يمكن تحديدها بالضبط ، فانه من أصعب الأشياء أن تبحث للفكر وللثقافات عن بدايات أو نهايات . ولكن ربما كان قريبا من الصحة أن نفترض ان هذه (اليقظة) قد حدثت في مصر عند اصطدام الواقع الموجود مع الفكر الفرنسى .

لقد كان للعنصر العسكرى — في بداية الأمر أثره على العقل المصرى كله ، عندما أحس بضعف الدولة العثمانية — مهما التمس لها المعاذير — وضعف المماليك . وكان التأثير الفكرى لذلك عليه ، عودة المصريين الى

ذاتهم من ناحية ، ومحاولة اكتشاف امكانياتهم كقوة كانت ضائعة ، ومن ناحية أخرى ، التطلع - أو ربما كان من الأصح أن نستعمل كلمة أكثر دقة من كلمة « التطلع » هي « الفضول » - ناحية الفكر الغربى . فاذا ما عرفنا ان الحملة الفرنسية (١٧٩٨) كانت حملة فكرية الى جانب انها كانت حركة استعمارية ، أدركنا الى أى حد من الممكن أن يكون ذلك عاملا هاما فى خلق الحس الوطنى ..

واذا كنا قد قلنا عن (ثورة القاهرة) ، بقيادة عمر مكرم ، وما تلاها ، كانت ثورات تلقائية ليست لها استراتيجية محددة ، فهذا ينطبق ، أيضا ، على الثورة العرابية ، ولكن بدرجة أقل من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان الوعى السياسى ضعيفا جدا ، فى حين أن الفكر القومى كان فى مرحلة من أشد مراحل نموها . ولم يكن هناك التناسب بين الوعى السياسى والوعى الفكرى بشكل عام . وربما كان هذا سببا فى الاحساس الشديد بالمرارة الذى خلفه عن هزيمة الثورة . وحينما فشلت الثورة العرابية ، وانتهت بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، كان هم الاستعمار الأول هو تصفية وابداء المثقفين الثوريين أو « تدجينهم » ، بمعنى تحويلهم الى عناصر غير ثورية ، لأن القوى الاستعمارية كانت تخشى من الفكر القومى ، وتحس بالقلق اذا ان يلعب دوره فى دفع البلاد الى حركة تحررية . وقد اعتمد مصطفى كاهل فى محو صدمة الهزيمة ، وفى محاولة بعث روح الأمة ، على المثقفين بشكل رئيسى . وقد ألقى الاستعمار على المثقفين تبعات ثقيلة ، فقد عزل الجيش عن السياسة والحركة الاجتماعية ، ونشأت طبقة من مثقفى الفئات الكبيرة والمتعاونة مع الاستعمار ضمهم « حزب الأمة » . وكان على المثقفين الشعبيين والثوريين ، فى تلك المرحلة من مراحل الفكر القومى ، أن يحملوا التبعة وحدهم ، بدون الجيش ، وضد مثقفى الرجعية الجديدة والذين ساروا فى ركاب كرومر ودنلوب . وتاريخ ثورة ١٩١٩ ، قريبا ، بحيث يذكر الناس بدور المثقفين فيها ، من طلبة وأزهريين وأفندية . كانوا ، جميعا ، روح مصر ، وطليعتها .

كان المثقفون ، هم المحركون الأساسيون للثورة ، وقد انعكس ذلك في
النتائج الفكرية لهذه المرحلة ..

وقد كانت معركة غير متكافئة من ١٩١٩ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ ،
بالنسبة للمثقفين ، فهم الذين حملوا السلاح وخرجوا في المظاهرات ولاقوا
حتفهم في مذابح كوبرى عباس ومظاهرات ٢١ فبراير ١٩٤٦ وذاقوا مرارة
السجون والتشريد ، وكان السادات واحد من هؤلاء ، أفرزته الحركة الوطنية
في عتقوانها ، كإنسان عادى جاء من الريف وتعلم كأي طالب في مدارس
الأحياء الشعبية ، ثم دخل المدرسة الحربية ، وتشرب مبادئ الثورة
واحتضن الفكر التقدمي ، وذاق مرارة القهر والضغط في الأربعينات -
تلك التي بلورت فكره ، وجعلته يتسم بالثورية التي لا تنضب ..

كان هناك جيل من المفكرين البورجوازيين ، يمكن أن نعتبره - بغض
النظر عن علاقة المعاصرة - النتائج الطبيعية لثورة ١٩١٩ ، ولا يمكن أن
نفهم ، على غير سوى هذا الفرض ، حركة الفكر التقدمية التي قام بها
مفكرون من أمثال : أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس محمود
العقاد ، في السنوات الأولى من هذا القرن .. لقد كانوا ، جميعا ، وغيرهم
طليعة المثقفين البورجوازيين ، الذين قادوا الثورة حتى بعد انتهاء الثورة
السياسية . ولكن هبط على مصر ، بعد ذلك ، ظل الطغيان الاستعماري
والمملكي .. وأحس المفكرون بخيبة أمل ، ورأوا الطريق أمامهم مسدودا .
فكانت المرحلة التالية مرحلة النكسة في الفكر ، ليس من حيث مستواه
فحسب ، بل من حيث مضمونه أيضا ، والسحب هذا الموقف على البعض
من الطليعة البورجوازية التي غرقت في تهاويهم الفكر الرومانسي والمثالي
وبعدت عن مشاكل الجماهير الملحة . ورغم أن هذه الفترة تعتبر من الفترات
المظلمة في تاريخ مصر ، إلا أننا يمكن أن نرجع إليها البدايات الأولى للوعى
السياسي ، الذي وازن الوعي الفكري في الثلاثينات واتضحت نقطة التوازن
هذه في هبة عام ١٩٣٥ ، ثم تطورت الأمور بعد ذلك الى أن تعمق الوعي

الفكرى بشكل فائق ، في انفاضة ١٩٤٦ ، وما بعدها ... ولا شك أن الحرب العالمية الثانية كان لها أثرها في ذلك ، مثلما كانت معارك الكفاح المسلح في القناة ومعارك فلسطين ، من العوامل التي ساعدت على بلورة الفكر الثوري ، الذي أدى الى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .



رغم كل ما في السياسة من مناورات ، ومن عمق ، ومن حركة ، إلا أننا نستطيع أن نلخص قاعدة أساسية قد تكون خافية ، أحيانا ، ولكنها كثيرا ما تبدو واضحة . هذه القاعدة ، نستطيع أن نستعيرها من العلم الضيعی ، ألا وهي « قاعدة الفعل ورد الفعل » . فعندما تشك فردا بدبوس فانه يتصرف ، بسرعة ، ودون تفكير ، بعدوانية ضد من شكه بهذا الدبوس وتقريبا هذا ما حدث . ففي عام ١٩٥٢ ، اصطدمت الرجعية بمجموعة من « الأفعال » ، وكانت لها مجموعة من ردود الفعل ، ولكن هذه الردود كانت ضعيفة ، وواهنة ، الى حد غير متوقع . لماذا ؟

* أولا : لأن النظام الرجعى ، كان قد استنفذ أغراضه تماما ، ولم يعد قادرا لا على الدفاع عن نفسه ، ولا عن تقديم شيء جديد ..

* ثانيا : لأن الاستجابة الشعبية للثورة ، كانت الى حد ما كبيرة ، المسألة التي شلت الرجعية عن الحركة .

* ثالثا : لأن الرجعية ، كانت ، بنفوذها الفكرى الكبير ، تحس بالأمل فى التسرب أو التغيير أو الاستمرار .

ولكن حركة يوليو ١٩٥٢ ، لم تكن « حركة اصلاح » فتستطيع أن تبتلعها الرجعية ، رغم أن الحركة عندما قامت تمت بشكل عشوائى ودون ترتيب يتفق مع طبيعة المرحلة الثورية والفكرية ، ورغم أن عناصر الذين قاموا بها - ولهم عذرهم ، ربما ، فى هذا - لم يكن يبدون أى نوع من التعاون أو الترحيب بالمتقنين الثوريين . بل مضوا فى طريقهم ، منفذين كل

شيء ، من خلال الاعتماد على العناصر العسكرية . لكن رغم ذلك كله ، قد استمرت ، ونجحت في العديد من الخطوات ، لأنها خرجت بمصر من مرحلة الاقطاعية والشبه اقطاعية الى مرحلة المجتمع البورجوازي ، فأعادت توزيع الملكية ، وضربت الرجعية ، مثلما قضت على الاستعمار ، وأعادت لمصر كيانها الطبيعي . وكان من المفروض ، أن تستعين « الثورة » ، أو تلجأ الى « توظيف » و « استخدام » العناصر المثقفة من مفكرين وثورين ، لكنها لفقتهم ، وحتى لم تحاول احتوائهم ، بقدر ما سعت الى تفتيتهم وتصفيتهم ، ولم تكن تدري « الثورة » وهي تفعل ذلك ، انها تلغى ديمقراطية الثورة أو الحريات فحسب ، بقدر ما كانت تستبيح لنفسها « اخفاء » و « تدجين » الحركة الثورية التي هي امداد طبيعي لتطور الحركة الوطنية في بلادنا ، ولا تقصد بتيار الحركة الوطنية ، كما قد ربما يخطئ البعض تغيير تحليلي ولا تقصد بتيار الحركة الوطنية ، كما قد ربما يخطئ البعض ، بأنني أقصد الأحزاب أو بعض التطلعات ، بقدر ما أفصد تلك العناصر المصرية الأصلية الشريفة التي بذلت وأعطت الكثير لمصر من أجل تقدمها وتطورها .

ولقد مر على ثورة يوليو ١٩٥٢ ، الآن ، ٢٣ عاما ، واستطاعت في تلك الفترة أن تحقق بعض المكاسب ، ولكن هذه المكاسب التي تحققت على أكثر من صعيد ، ضاعت ، أو تاهت ، في ضبابية الرؤية التي خلفتها هزيمة ١٩٦٧ ، والتي كانت نتيجة متوقعة لأزمة الحريات في مصر ولأزمة الديمقراطية مثلما كانت تتاجا طبيعيا ، لأن « الثورة » لم تصل الى قلب مصر كلها ، بل كان العسكريون وحدهم ، يتحركون ، دون اعطاء الثقة للعناصر الأخرى من فئات الشعب من مثقفين وكادحين ، ليشاركوا ، لا في بناء ما يحدث فحسب ، بل ، وأيضا ، في حماية ما يتحقق من منجزات فكرية ومادية . وقد نبئت العديد من المشاكل في أعقاب ثورة يوليو ٥٢ ، وكانت تبدو في غالب الأحيان مشاكل بلا حل ، رغم أن « التبريرين » كانوا يحللونها ، ويبحثون لها عن حلول وهمية ، لم تكن تزيد الأزمة الا أزمة أدت الى الانفجار ! وقد

كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ مفاجأة بالنسبة للمثقفين المصريين ، وأيضا ، كانت منطلقا لا متناصا واستقطاب ثورتهم لا من أجل « تشغيلها » والاستفادة منها ، بقدر ما كان الهدف يسير الى تصنيفتها و « تدجينها » .

وقد عانى الفكر القومى فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ ، من أزمتين مختلفتين ، فقبل الثورة ، كان الفكر الثورى يختنق فى المجالات الضيقة ، والى حد ما فى عدم فهم طبيعة المجتمع المصرى وطريقة تحويله . وبعد الثورة ، كان الفكر الثورى يتخبط فى المجال الواسع الذى فوجئ به ، والى حد كبير فى عدم فهم طبيعة المجتمع المصرى وتحوله ، وفى اختلاط القيم بين عناصر اشتراكية وعناصر تلتف بعباءة « الاشتراكية » وعناصر تحولت الى الاشتراكية نتيجة لمحاولتها « السباحة » مع تيار النهر !

والحقيقية التى لا يمكن انكارها ، أن المثقفين فى ذلك الوقت ، وأقصد فى الخمسينات ، ومع قيام الثورة ، لم يكن لهم دورهم الطليعى . وباستثناء ظواهر فردية ، كانوا ، بعيدين ، تماما ، عما يحدث ويجرى على أرض المجتمع المصرى ! البعض كان يحكم بوازع « العافية » ، وكان يقنع نفسه بالانزواء والتفوق ، ويباشر رعاية مصالحه الذاتية ، والبعض بحكم ارتباطاته الطبقية ومصالحه القنوية كان يقف فى الصف المعادى لحركة الجماهير . ورغم أن ما حدث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لم يكن انقلابا عسكريا ، أو « ثورة ميلشيا » ، وإنما كان استجابة طبيعية لمتطلبات المرحلة التى كانت تبحث عن مخرج للضرورة المادية والفكرية التى أوصلها الاستعمار والرجعية للمجتمع المصرى ، وقد قام بهذه الحركة مجموعة من الشباب من الضباط الأحرار ، وهم من أبناء هذا الشعب وينتمون بشكل أو بآخر الى الفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وقد قاموا ليخلصوا مصر من أزمتها التى وصلت الى قمة التناقض .. وقد نجحوا فى هذا ، فى كل الخطوات الأولى ، لكن نحن نعلم « أن رحلة الألف ميل » تبدأ بخطوة واحدة ، وإذا تعثرت الخطوات فى الطريق ، أو اذا لم تجد المكان ، تهاوت الخطوات

في صحراء من الوهم ! وهذا ما حدث تقريبا ، فالثورة التي قامت على مبادئ
 وقيم عظيمة ، لم تجد « الظروف » الشعبية والديمقراطية الحققة والحريات
 الحقيقية ، التي تضمن لها الانطلاق والاستمرار ، بل أدت أزمة الحريات
 والديمقراطية الى خنق الفكر ، والسير في متاهات أدت بمصر الى الانغلاق
 والوهم ، وبعد ١٥ عاما من الثورة ، التي كان من الممكن أن تنقل مصر
 الى مرحلة المجتمع الصناعي المتطور الذي يساير اوروبا والغرب ، حدثت
 هزيمة ١٩٦٧ ، وليس هذا افتراء أو هجوم ، فالصين مثلا ، وأنا لا أؤمن
 بنموذجها الشيوعي ، قد استطاعت في فترة وجيزة أن تحل مشاكلها المادية
 والاجتماعية والعسكرية والعلمية ، ويكفى أن تعرف أنها من أكبر القوى
 الضاربة في عالم اليوم ، حتى أن أمريكا والاتحاد السوفيتي ، يحسنان
 بالكثير من الريبة والتوجس والخوف تجاه كل حركة تحدث في « بحر
 الصين » ، فهي تمتلك القنبلة الذرية ، وتحضر للصعود للقمر بقوة أثقل
 من الكتلتين المتصارعتين ، ورغم تعدادها الذي يزيد عن ٨٠٠ مليون نسمة ،
 لا تعاني مجاعات أو أزمات ، ولا يحدث فيها ما يحدث في مصر من طواير
 الجمعيات الاستهلاكية وأزمات المواصلات ونقص الموارد التموينية ،
 ما الفارق ؟ ! لقد قامت ثورة الصين قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، بثلاثة أعوام
 فقط ، وكانت عند قيامها تعاني ظروفا أصعب داخليا وخارجيا من مصر ، بل
 كان جزء من شمالها يحتله اليابانيون ! لكنها قامت على أساس استراتيجي
 علمي ، وعرفت كيف تسير بوضوح ، لتحقيق كل منجزات الثورة الصناعية
 الثالثة القائمة على « الكمبيوتر » و « الالكترونيات » و « التكنولوجيا »
 بينما كان فكرنا منذ ١٩٥٢ يقوم على قدرات وأوهام ، ونوع من الفلسفة
 التجريبية ومواقف فردية ومراكز قوى متنافسة ، تتصارع على « الكراسي »
 والنفوذ !

في عام ١٩٥٤ ، وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، حاول المثقفون التحرك ،
 وطالبوا بعودة الحياة النيابية ، وطالب البعض بعودة الأحزاب ، والمشاركة

في كل ما يدور في مصر من أجل حماية الثورة وتوسيع قاعدتها وبنيتها .
لكن ماذا حدث ؟ حدثت الأزمة الكبرى بين قوى الدفع الثوري وبين
المتقنين ، ووصل التناقض الى حد المحاكمات ، التي أوصلت عددا كبيرا من
المتقنين ورجال الأحزاب الى السجون والمعتقلات ١

وقد كان من الممكن في ذلك الوقت أن يحدث نوع من التلاقى ،
والامتزاج ، بين (قوى الدفع الثوري) ، وبين (طلائع المتقنين) ، ويتم
الانصهار في بوتقة ثورية ، تسير الى حركة واسعة من النضال الشعبي ،
في ظل مزيد من الحريات والديمقراطية ...

وكانت المطالبة بالعودة للحياة النيابية ، تعنى على وجه التحديد ،
السماح بالأحزاب ، ورفع الأحكام العرفية والعسكرية ، ورفع القيود عن
الصحافة واطاحة الحريات والديمقراطية للمواطن . وكانت الأحزاب
تتمثل في :

* أولا : الوفد .. وهو أقرب الأحزاب وقتها للجماهير ، بحكم قيادته
لثورة ١٩١٩ ، وبحكم بقاءه مع قوة الدفع الذاتي لها والتي استمرت
سنوات ليست بالقليلة . حقيقة ان هذا الحزب قد تعرض لحملات متنوعة
من التشهير بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٥٢ ، لكن ليس معنى هذا رفضه تماما .

* ثانيا : حزب الأحرار الدستوريين .

* ثالثا : السعديون ..

* رابعا : الإخوان المسلمون — وكان من أكبر التنظيمات السياسية
حتى عام ١٩٥٤ .

* خامسا : التنظيمات الشيوعية ، وكانت تلى من حيث القوة والعدد
تنظيم الإخوان ، وكان هؤلاء يمثلون اتجاهات مختلفة رغم انتمائهم جميعا
للماركسية — اللينينية ، وانضوائهم في ظل الأممية الشيوعية ، وكان من

أبرز التنظيمات وأكثرها حركة في ذلك الوقت (الحزب الشيوعي المصرى)
- وما عرف باسم تنظيم « الراية » .

✽ سادسا : الحزب الوطنى .. وكان أصغر هذه التنظيمات .. الى جانب هذه التنظيمات ، كانت هناك حلقات المثقفين التى تمثل اتجاهات متنوعة ، بعضها اسلامى النزعة والآخر ليبرالى النزعة ، وآخر ماركسى النزعة لكنه يرفض فكرة التنظيم السياسى ...

وكانت وجهة نظر المطالبين بعودة الحياة النيابية والحريات والديمقراطية فى ذلك الوقت ، تتمثل فى « أنه ما تم الآن عظيم ، ورائع ، وما دامت الثورة قد تمت ، فيجب أن تنتهى مهمة الجيش ، ولا بد أن يعود الحكم النيابى الى أربابه ، واذن ، ينبغى أن تعود الأحزاب السياسية ، وينبغى أن تعود الحياة النيابية لكى تستأنف الأمور سيرتها الأولى » . وفى الحقيقة أن هذه المطالب ، كانت تعبيرا طبيعيا عن النضال الشعبى فى مصر ، لكن (الثورة) لم تكن قد بدأت بعد ، وكانت ترى فى الأحزاب القديمة ، وفى كل التنظيمات ، بل وفى المثقفين عموما ، خطرا يهددها ، لذلك حاولت تصفية كل هذه التيارات ، ايمانا منها ، بأنه لا سبيل الى استمرار « الثورة » غير ذلك ، وفى الحقيقة ، كانت وهى تفعل ذلك ، تمارس ، « قتل » الفكر الذى نما وتطور فى أكثر من قرن ونصف من الزمان ، منذ ثورة عمر مكرم حتى طلائع مثقفى ومناضلى بدايات الخمسينات ! وقد تمت تصفية المثقفين على أكثر من مرحلة (مرحلة ١٩٥٢) ، ومرحلة أخرى (خلال عام ١٩٥٤) ، وكانت المرحلة القاصمة (فى عام ١٩٥٨) - حيث تم تصفية كل عناصر التنظيمات والحلقات المتنوعة للمثقفين ..



فى دراسة مطولة للاقتصادى والمفكر الكبير فايتكيوتيس عن ثورات الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات : مصر ،

والهند ، والجزائر ، والتي كتبها في الستينات ، ونشرت في فرنسا (١) ..
قال :

« ان مشكلة هذه البلدان، انها كانت تبغى التخلص من
فيودها واغلالها ، المتمثلة في الاستعمار وفي الرجعية والانظمة
المحلية والداخلية التي ارتبطت بالامبريالية وما حدث ،
كنموذج واضح في مصر ، وفي أعقاب ثورة ١٩٥٢ ، يعطى
نموذجا واضحا ، فقد قام بالحركة الثورية مجموعة من الشباب
تمثل طلائع الجيش ، لكن هذه العناصر لم تحاول الاستفادة من
القوى الثورية داخل البلد ، وبلد كمصر يمتلئ بالمفكرين
والمتفنين ، الذين يمثلون طبيعة الفكر في منطقة الشرق الاوسط
لذلك بدا التيار الثورى الذى صاحب الثورة ينسلخ عنها
شيئا فشيئا ، حتى باتت الثورة لونا من (المبرى) او (التكليف
الرسمى) ، وهذا ما أفقدها اهدافها وثورتها ، وجعل
الجماهير لا تحس تجاهها بالتفاعل » .

ويضيف « فايكيوتنيس » ، في دراسته المطولة هذه رؤيته عن مصر ،
فيقول :

« ان مصر التي استمرت حوالى قرن ونصف من الزمان ،
في تطور مطرد للحاق بقافلة العصر الحديث ، كانت تطمح الى
ان تقود العالم العربى في دخوله هذا العصر ، وطموحها هذا
يعترف بضعف واضمحلال قيم ونزعات الافكار (المستوردة)
ونعتقد ان نوع هذا التطور الاجتماعى والفكرى ثورى لا
تدريجى ، وان عداو المصريين والقومية العربية كان يتمثل
اساسا في الرجعية ، وابن اهم اطار كان من الممكن ان يحمى
اهداف هذه الثورة مزيدا من الحريات والديمقراطية » .

وقد عبر السادات عن هذه المبادئ التي كان في رأيه أنها من المبادئ
والقيم العامة التي تحمى الثورة بسياج متينة فقال في مقال له كتبه في

(١) نشرت هذه الدراسة تحت عنوان « الدول المستقلة حديثا .. والثورة الاجتماعية
والفكرية » ، وقد تعرضت لمصر ، والهند ، والجزائر ، كاشكال للثورات البورجوازية في
الخمسينات ، وقد نشر جزء من هذه الدراسة في مجلة (حوان) الفرنسية ...

مارس ١٩٥٤ ، أى أبان أزمة المثقفين وقوى الدفع الثورى ، وأبان المطالبة بعودة الحياة النيابية .. كتب السادات ، يقول فى جرأة نادرة معبرا عن أبسط قيم الحريات والديمقراطية :

« من حق كل مواطن أن يقول كل ما يشاء . أن يقوله فى خطبه ، أو مقالاته ، أو فى رسالة ، أو فى كتاب ، فليقله بالطريقة التى يختارها بحق إرادته » .

وقد عبر ، أيضا ، السادات ، عن فهمه الموضوعى الواضح للديمقراطية ، فى كتابه (القاعدة الشعبية) فى ذلك الوقت ، فقال :

« الديمقراطية الحقيقية ، أن يكون لكل فرد رأيه فى هذا الوطن . الفلاح ، العامل ، الموظف ، الطالب ، وكل إنسان متعلم أو غير متعلم ، الحق الكامل ، فى أن يبدى رأيه فى حرية وصراحة ، ولا يخشى من إبداء رأيه فى أية سلطة فى هذا البلد » .

فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ، كتب أنور السادات فى أعقاب زيارة طويلة قام بها فى الهند ، التقى فيها بالزعيم الهندى جواهر لال نهرو ، كتب وكله رغبة فى أن يعبر عما شاهده وأحس به فى صدق فى الهند ، فقال :

« قمت بزيارة للهند ، والتقيت بالبانديت نهرو ، وكان لهذه الزيارة أثرها الكبير على . فقد جمعت تناقضات ومفارقات غريبة ، أن كانت تكشف عن شيء ، فتكشف عن تجريرة رائدة »

ثم راح يتحدث عن كيف التقى مع نهرو فى حفل عام ، وقدم له واحدا من أشد معارضيه . ولقت نظر السادات وجود هذا النائب الهندى (المعارض) لسياسة نهرو وتراقفه زوجته ، وكان السادات قد التقى بهما فى القاهرة من قبل ، وفوجئ السادات بأنهما يتقدمان من نهرو بمنتهى المؤدّة والاحترام ، ويقبلانه فى حب ووفاء ، كما يقبل الابن أياه ، وأحس نهرو بدهشة مضيفة ، فيما كان منه إلا أن يبدد تلك الدهشة بقوله :

— ولم الدهشة . هل التقيتما من قبل ؟

— حدث !

— وهل تعرف أنهما من أشد المعارضين لى

— أعرف ذلك ، أيضا !

— اذن . لم الدهشة ؟

وضحكوا جميعا : نهرو ، والسادات ، والنائب المعارض وزوجته .. وظلوا طويلا يتحدثون عن مفهوم « الديمقراطية الحقيقية » .. « فليس معنى أنك خصمى سياسيا أنك عدوى . لا . انك تحمل رأيا ما ، وأنا أخالفه ، لكننا فلتقى فى أننا بنى لصالح الوطن .. وطالما لسنا عملاء ، أو نتعاون مع أية قوة أجنبية ، فنحن مواطنون شرفاء ، نمارس حقنا الطبيعى والعادى فى الديمقراطية » .

وقد ظل السادات ، متأثرا ، الى حد كبير بهذا اللقاء الذى تم فى الهند وذكر هذه القصة :

« الطريقة التى سلموا بها على نهرو . كنت أراهم كاسرة واحدة . كالابن أو البنت عندما تسلم على أبيها . . وكان نهرو يبدو كالاب الذى يحنو على كل الأبناء . عظيما ، قويا ، شامخا والهند فيها أكثر من ١٠٠ لغة وربما ما يقترب من ذلك من القوميات ، لكنهم استطاعوا ان يحسموا كل هذه الخلافات وتحولوا الى أبناء بررة ، واستطاع نهرو ان يكون أبا عظيما لكل الأبناء » .

وبين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، حاول السادات أن يعبر عن رأيه فى العديد من القضايا التى تواجه المواطن المصرى ، والتى تلح على وجدانه ، وكان فى مقدمتها : قضايا الحريات ، والديمقراطية ، وأزمة المثقفين .. وفى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ قرأت على صفحات « الجمهورية » هذه الكلمات التى تعبر عن ايمانه بالشباب وقوته فى المد الثورى :

« منذ وقت طويل ، وأنا أريد أن أتوجه الى اخواني وأبنائي من الطلبة بالحديث فأريد أن أحديهم أننا اليوم غير الأمل ، فان الثورة قد غيرت ضمن ما غيرت واجب كل واحد منكم نحو بلاده . كنا فيما مضى ونحن طلبة نستقبل العام الدراسي ، وكلنا أمل أننا بتجمعنا في المدرسة ، نستطيع أن نعلن سخطنا بالأحزاب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ لنا أن نعرب في هذه المظاهرات كل ما يقع على أيدينا . واذكر ذلك اليوم من سنة ١٩٣١ ، حينما خرجنا في مظاهرة ضد صدقي ، وأخذنا نحطم الفوانيس وعربات الترام لا لشيء الا لأن حكم صدقي كان ضد ارادة الشعب . ولقد كان الهدف صحيحا ، ولكنني اعتُرف ، اليوم ، أننا كنا نحظى في تطبيق الوسيلة للتخريب . أما اليوم ولقد أصبح حكم مصر في يد أبناء من صعيد مصر وريفها ، وقضى الى الأبد على أولئك الذين احترقوا السياسة قرايه نصف قرن فائروا واثرت محاسبيهم والاصهار ! قضى على كل هذا الى الأبد . وأكثر من ذلك فان العقدة الكبرى في حياتنا ، قد حلت بحمد الله وتوفيقه باتفاق الجلاء . فما هو واجبكم اليوم ؟ ان كفاحكم يجب أن يستمر ، ولكن على صورة أخرى ، يجب ان يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ ، وتحصيل . . وانتم تقرأون كل يوم عما يحدث في البلاد الأجنبية من كشف واختراع وابتكار اساسه كل الجهود الشخصية ، ولا اظنكم تجهلون ان مصر في هذه الحقبة من تاريخها في حاجة قصوى الى عقولكم ومبتكراتها والى جهودكم ومخترعاتها . لقد تخلفنا طويلا عن ركب الحضارة . لا لعب في تكويننا ، او لنقص في عقولنا ، وانما لاننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب ان نؤديه نحو وطننا . . ان معركة الحرية التي بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب الى مكانه اللائق الا بالجهود المتضافرة من كل فرد يعيش على ارض هذا الوطن . وان مسئوليتكم في اتقان الدرس والتحصيل تساوى تماما مسئولية الحاكم في رعاية العدل والمساواة » .

وهكذا نرى ، أن السادات ، الذي كان أول صوت يواجه الوجدان المصري عند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ، عندما اذاع بيان الثورة في صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ، في السابعة والنصف صباحا ، كان من الأصوات التي

طالبت في ضراوة والحاح بالحريات والديمقراطية وعودة الحياة النيابية ،
واباحة الجدل من أجل الوصول بالثورة الوطنية الى آفاق أرحب . وكان
ذلك في سلسلة مقالاته الفريدة المتنوعة التي نشرت في « الجمهورية »
ومجلة « التحرير » ، والتي أتيح لي أن أستعيد قراءتها مرة ومرتين أو
ثلاث ، لا لأكشف فقط عن صدق السادات الثوري والفكري ، بل
لأحس بما في داخله من قوى متفجرة تريد أن تنطلق وتتفجر لتعبر عن آمال
المرحلة ومتطلباتها الفكرية ، والسياسية ، حتى أن سياسيا من كتاب مجلة
(النيوزويك) الأمريكية قد قال بين آرائه وأفكاره وتعليقاته عندما آلت
السلطة الى السادات ، وبدأت استراتيجيته تتضح وتعطى انعكاساتها ،
فكريا وعمليا ، قال هذا الكاتب السياسي :

« لو كان هذا الفكر قد ظهر من قبل ذلك بسنوات ، لما
خسرت مصر الكثير ، ولما منيت مصر بالمرارة والمهالك . وليس
هذا الرأي ضد أحد ولا محاباة للسادات ، بقدر ما هو تقدير
وحفاظ على مصر التي قاست وعانت وذوقت الوبلات ! »

وفي الخمسينات .. تلقى السادات ، وكان في مكتبه بجريدة الجمهورية
خطابا غريبا ، يقول كيف تجمع بين وظيفتين : كضابط ، وصحفي في نفس
الوقت ؟ ...

لكن السادات لم يفاجأ ، أراد أن يفسر حقيقة الوضع ، وأذكر أنني
قرأت مقاله ، بل أعلت قراءتها مرة أخرى وأنا أعد هذا الكتاب . قال
السادات وقتها ردا على هذا الخطاب :

« أنا أبشر الصحافة كجزء من رسالة الثورة . وبحكم
الوضع ، الآن ، فانا أؤدى ما يطلب مني من خدمة ولكنني
أطمئنك يا صديقي ، أنني لا أتناول إلا مرتب البكباشي فقط ،
ولا أحصل على مرتب من دار التحرير ، وتستطيع أن تطلع
على حسابات دار التحرير لدى المراجعين القانونيين ، نور
وراغب الجميل وشركائهم ، لتتأكد بنفسك ، ولتطمئن على
الكسب غير المشروع »

وكان السادات ، لا يجب أن يوضع في موقع الشبهات . فهو لم يكن يكتب في الصحافة من أجل النقود . كان يرى في الصحافة منبرا فكريا ينقل رأيه الى الجماهير ، وهو له فكره المتميز ، وأسلوبه الموضوعي الواضح ، وأيديولوجيته المتميزة التي كانت تعكس نفسها في الكثير من المقالات والتصاريح والحواريات والمواقف .. فقد كان السادات « أملا » ، و « رمزا » للديمقراطية والحريات في الخمسينات ، حتى أنني أذكر ، رغم مرور أكثر من خمسة عشر عاما على هذه الحادثة كلماته الجريئة ، العظيمة ، وكان في حفل « كوكتيل » في الزمالك ، وفي شارع المعهد السويسري ، وفي سفارة الاتحاد السوفيتي ، عندما بدأ السادات ، وأخذ يتحدث في رزانة وثقب نظر عن الفكر الحر والديمقراطية والحريات وموقف الامبريالية العالمية وسياسة مصر الحيادية التي ترمى الى بناء مصر الحرة ، مصر المناضلة ، التي تعبر في وضوح عن الشخصية المصرية . كانت أول مرة أرى فيها أنور السادات عن قرب ، كمواطن ، وكصحفي في بدء حياتي الفكرية في مجلة « روزاليوسف » .. أخذت أتأمله ، وأستمع الى حواراه في شوق عارم وهو يتحدث الى عدد من الدبلوماسيين من رجالات السوفيت والهند ويوغسلافيا ... وكان هو نجم الحفل ، وعليه تركز الانظار ، فهو يتحدث في بؤدة ، وحكمة ، ورزانة ، وحيدة كاملة ، حتى أن سفير الاتحاد السوفيتي « ديمتري كسيليف » وصفه لاحد محرري صحيفة « الازيفستيا » بقوله ، عندما كان يتحدث عن مسارات الثورة المصرية ، بقوله :

« ان أنور السادات ، يبدو شخصية غريبة ، مخالفة ، لمعظم الشخصيات التي قامت بحركة يوليو ١٩٥٢ ، وقد بدأت آراؤه تتضح في الكثير من حوارياته ومقالاته ، فهو شاب متحمس ، لكن في حكمة ورزانة ، يستلهم افكاره من مصر اساسا ، دون الارتكاز على افكارها ، وما أعجبنى فيه اتزانه وهندوه ، وقدرته على توصيل فكره الى محدثه ببساطة ، ناهيك عن خفة دمه وسخريته ، التي دائما يغلف بها حواراه ،

وهو قراء عظيم ، ومثقف متميز ، ومتابع واضح لكل ماجريات
الأمور في عالمنا الحديث ، ولا يأخذ موقفا متزمتا ، ولا يتسم
تفكيره بالجمود والعقائدية كما تحس تجاه الكثيرين » .

وقد أتيج لى أن استمع الى حديث كسيليف هذا دون أن يعلم أنني
صحفى أو كاتب ، وكان ذلك بحضرة المستشار الصحفى فى ذلك الوقت
المستر (الكسندروف) وكان محرر صحيفة « الازيفيستيا » ، يكتب
بنهم كل ما يملئ عليه وفى نفس الوقت يسجله على شريط كامل لاذاعة
موسكو بالانجليزية ، وقد تظاهرت بأنى لا أجيد الانجليزية ، بل حتى
لا أعرف الا القليل منها .

وكنت فى ذلك الوقت على موعد مع « الكسندروف » أنا والمرحوم
الأديب الكبير « سلامه موسى » ، حيث كنت أعد أول كتاب مصرى عن
الأدب الروسى والسوفيتى الحديث ، تحت عنوان « قصص روسية .. من
أجل السلام » ، الذى تفضل سلامة موسى ، بكتابة مقدمته لى بحكم
احتضانه لى فكرا وروحيا وكنت فى حاجة الى بعض الكتب الأدبية
الأمينة التى تتحدث عن الأدب الروسى والسوفيتى ، وتعرض للقصص
الكلاسيكى والحديث ، شريطة أن تكون طبعتها داخل موسكو ، وبالفعل
أعطانى الكسندروف ، كما أعطى لسلامة موسى ، مجموعة كبيرة من الكتب
تتضمن تطور الأدب الروسى والسوفيتى قبل ثورة ١٩١٧ الاشتراكية وما
بعدها لليوتولستوى ، وأنطون تشيكوف ، وفسيغولد جارشين ، وايفان
تورجنيف ، والكسى تولستوى ، ومكسيم جوركى ، وكازاكافيتش ،
وأوليس جونشار ، وايليا أهرنبورج ، وسيمونوف ، وميخائيل شولوخوف
وبوريس بوليفوى ، وفيرا بانوفا ، وباستوفيسكى ، وأركادى جايدار ،
وايليا ايلف ، والكسندر تشايكوفسكى ... وأذكر أننا عندما خرجنا أنا
وسلامة موسى الى الطريق ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا على كوبرى أبو العلا ،
كان الوقت يقارب الظهيرة ، والشتاء لا يجعل الشمس لا تبدو على
سجيتها ، همس سلامة موسى فى أذنى :

((تعرف ، أنا سعيد بالثورة ، لكننى أكون سعيد أكثر لو
توفرت المزيد من الحريات . الكلام الذى دار حول هذا الشاب
صحيح .. الأمل)) ..

وأذكر أنه أضاف إلى كلماته هذه .. هذه العبارات ، أيضا :

((رأيته أكثر من مرة . لكننى لم أكن أعلم أنه بهذه القدرة
من الذكاء والثورية .. لم لا يجد مكانه الطبيعى . ان الثورة
فى حاجة إلى مهندسين فكريين أكثر عمقا ، ليحددوا خريطة
مصر فى المستقبل . لكن للأسف . الضباب يسود . ولا تعطى
الفرصة لكل الراغبين ، وغيره كثيرون .. أنا فرح حقيقة
لما يحدث وحدث بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لكننى أخشى
عليها ، تماما ، يا صديقى كالذى رزق طفلة وبخشى عليها من
عوادى الزمن والظروف والأمراض ... !))

و « سلامة موسى » ، الذى أحب أنور السادات ، دون أن يقترب
منه كصديق ، كان يمثل التيار التحتى فى ثقافتنا . ربما كان للبعض موقفا
خسده فى الخمسينات ، كما كان الحال بالنسبة للسادات . لكنه على أى
حال استطاع أن ينه مصر إلى الحقيقة . وأذكر أننى ، عندما كنت أحتلى
بسلامة موسى فى بيته فى الفجالة ، المواجه لمدرسة الفنون الطرزية بالقرب
من « شرم الفجالة » ، كان يأخذنى إلى حجرة مكتبه ، وهو يرتدى جلبابه
الأبيض ، بينما أصابع ابنته فى الخارج تعزف على البيانو لحنا لباخ أو
موتسارت أو شوبان أو رخمانينوف ، ويقول لى : « هل قرأت آخر مقال
للسادات ؟ » أقول له : « طبعا ! » . ومرة أخرى ، يقول لى : « هل قرأت
ماذا كتب عن الديمقراطية ؟ » ، فأقول له : « لم أقرأ بعد ! » ، فيهم من
فوره ، ليقرأ لى ، وهو يؤلمنى : « معظم ما أقرأه يا صديقى ترهات ، أحس
فى هذا الرجل ، صدقنى ، بنوع من الاستنارة . صدقنى ان هذا الرجل
سيلعب دورا خطيرا فى حياة مصر ، وستقول .. أن سلامة قالها فى أواخر
أيامه ! » .

ومرت الأيام ، والشهور ، والسنوات

وبالفعل ، صدقت « نبوءة » المعلم الثورى : « سلامة موسى » ، الذى كتب ، ذات يوم ، يقول : « ان أفكارنا كلمات ، والكاتب أو المفكر العظيم هو الذى يعطينا الكلمات التى ترسخ فى أذهاننا وتتوالد ، وتبعث على الأعمال العظيمة » وسلامه موسى ، هو « كاتب الثورة » ، بكل ما تعنى هذه الكلمة من مغالى . لم يكن كاتب (الثورة) ، بمعنى أنه أخذ بعض المواقف الوطنية أو خرج فى مظاهرة . ولكنه كان يكتب للثورة المصرية ، لأنه منذ أن ارتبط فكريا بمصطفى كامل ومحمد فريد ، ظل يترجم عن أحاسيسه الثورية .

اتخذ الثورة ، ليس غاية فحسب ، ولكنه كان يتخذ منها منهجا .. ولم تهدأ كتاباته ، الا عندما تحقق « الحلم » ، الذى طمح اليه . بل انه رنا الى حلم أعظم ، قبل أن يموت بأيام ، وكنت الى جواره ، أعوده فى مرضه الذى أقعده لأيام الفراش ، بعد اجراء عملية « البروستاتا » .. قال لى سلامه موسى ، بالحرف الواحد ، فى صوت واهن من جراء مرضه : « أتذكر ما قلته لك ، ونحن نعد كتاب الأدب الروسى ؟ ان مصر ، يا صديقى ، تبنى ، اليوم ، وتشارك فى الثورة ، لكن ما ينقصها الشباب ، الطاقات الثورية ، وهناك الكثير من الطلائع التى لا بد أن تأخذ مكانها فى هذا المجال ، فبدون الشباب والمثقفين الثوريين ، لا يمكن حماية الثورة » . واليوم ، وبعد مرور السنوات الطوال على وفاة (سلامة موسى) ، أعود بالذاكرة الى تلك الطلائع التى كانت تتصل بسلامة موسى وبهؤلاء الشباب الذين كانوا يترددون على بيته فى الفجالة ، وأعود ، كذلك ، الى بعض المقالات الهامة التى كتبها السادات عن الحريات والديمقراطية ، فى تلك الفترة — تلك المقالات الهامة ، التى كانت تعبر عن وجه مضى للثورة ، وقد كانت هناك اختلافات داخل قيادات « مجلس الثورة » حول قضايا الحرية والديمقراطية ، وحول العمل الوطنى ، اضطرت السادات الى أن يبدى اعتراضاته ويطلب بمزيد من الحرية ، وقد كان يمثل الوجه المضى للديمقراطية والحريات .. وقد ذكر

السادات كيف نبنت « فكرة الثورة » في كتابه (صفحات مجهولة من كتاب الثورة) .. حيث قال :

» ١٩٣٨ ٠٠٠

في منقباد ٠٠٠

في هذه البيئة المصرية ، حيث يشعر المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه .. وفي الشتاء ، حين يقسو الجو وتتمرد العواصف ، فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يفانمون بها قسوة الطبيعة ويتنصرون بها على عواء الرياح . هناك حول نار في معسكر المناورات بتباب الريف ، كنا نقضى طرفا من كل ليلة .. اصدقاء ، كلهم ، صفار السن ، صفار المناصب ، كبار الآمال ، وافرو الشباب .. ضباط لم تزد رتبة احدها عن الملازم ثان .. نحترق طول النهار في مناورات طويلة ، ونعود الى الخيام آخر اليوم ، نضئ النار في الجبل فكانما الجبل امرأة تعكس نار القلوب ! وكانت احساساتنا الشابة المزهقة ، ومما يقع امام اعيننا كل يوم من الصباح الى المساء . كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الاحداث . فقد كنا ضباطا صفارا . وكان هناك ، ايضا ، انجليز ! وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم الا اذلالنا ، والا الانحناء امام الانجليز .. وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق ، ونسخط ، ولكننا لم نكن نستطيع ان نتكلم .. وماذا يستطيع ملازم ثان ان يفعل في داخل النظام العسكري ، وفي تلك الاوضاع الرهيبة ، الا ان يسكت ، ويكظم الفيظ ، ويدفن النار في حشاه . هكذا ، كانت ايامنا .. ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافا كبيرا ، في جو من الصداقة والالفة .. كنا نجلس ، فنمرح ، ونذيب في هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل .. شقاء الجسد ، وشقاء النفس ، وشقاء الغربة في جبل بعيد » .

وعن الحريات السياسية والديمقراطية ، تحدث السادات طويلا في تلك المرحلة - الخمسينات ، وفي كتابه (القاعدة الشعبية) ، يربط بين مفهوم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، فيقول : « العدالة الاجتماعية ، تعنى أن

يأخذ كل مواطن فرصة متكافئة مع أخيه ، بصرف النظر عن الغنى أو الفقر وبصرف النظر عن أى اعتبارات .. ونحن نعلم أنه كان لا يمكن ، أبدا ، أن تكون فى بلدنا حرية ، وبعضنا أسياد والبعض الآخر عبيد . فقد كان الملك تركى الأصل ، وكنا ، نحن ، جميعا نشكل طبقة الفلاحين - أى العبيد ! كان لا يسكن ، أبدا ، أن تقسوم ديمقراطية أو حرية حقيقية ، إلا بالقضاء على هذه الفوارق المصطنعة ، وقد كان أن طرد الملك ، وبطرده عادت الأرض الى الفلاحين ، وعادت السيادة الى أصحابها الفلاحين . من أجل ذلك ، لابد من تطبيق العدالة الاجتماعية ، لكى يستطيع كل فرد أن يحس بالحرية المطلقة ، وأن يحس بأنه فى هذا الوطن له من الحقوق ما لكل مواطن يعيش على هذه الأرض .. لا فوارق ، ولا سادة ، ولا عبيد .. ولما نحن ، جميعا ، مواطنون شرفاء ، نعمل من أجل بلادنا ، وندافع عنها ضد العدوان وضد المؤامرات .. » . فقد رأى السادات ببعد نظره ، ورجاحة فكره ، أنه لا يسكن تحقيق العدالة الاجتماعية فى غيبة عن الحريات أو الديمقراطية ، فلا ضمان لمصير الفرد اجتماعيا أو ماديا ، إلا فى ظل توافر جقه فى الحرية والديمقراطية ..



فى صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت ثورة مصر .. وكان صوت السادات ، أول صوت وصل الى آذن مصر والعالم ، معبرا عن « الثورة » ، وعن قيامها ، وعن اضطلاع مجموعة من الشبان الأحرار بها ، فهو الذى قرأ بيان الثورة ، وثقلت الاذاعات الصورة الصوتية ، الكلمات الثورية ، التى قرأها السادات فى بيان الثورة ، ومن بين ما جاء فى كلمات السادات عن قيام الثورة :

« .. اضطلع بقيادة هذه الثورة ، لفيف من أبناء مصر ، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة وبعدها ، مجتمعين تحت راية المبادئ السامية التى أعلنوها منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وقد يحدث ، بل لابد أن يحدث ، بين أفراد أمة جماعة من الناس ، تباين فى زوايا النظر الى مسألة معينة أو أكثر »

.. وهذا الخلاف ، لم يجعل السادات يأخذ موقفاً معارضاً أو يخرج عن فكر الثورة ، كما صادفنا الكثير من القيادات والمنظرين والمفكرين الثوريين في بلدان أخرى في مسارات الشعوب ، ولكنه أكثر أن يعبر عن وجهات نظره ، وفلسفته ، وفكره ، من خلال « الجماعة » التي انتمى إليها قلباً وقالبا من أجل أهداف عظيمة ، وكان خلال سنوات الثورة في الخمسينات والستينات يعبر عن فكره الحر في الحريات والديمقراطية ، وكل ما من شأنه ينشد الخروج بالإنسان المصري والعربي إلى آفاق رحبة تضمن له الأمان في حياته اليومية ومصيره العام . . وكان السادات أبرز الوجوه ، فالكمل كان يستمع إليه في ود وتشوق ، لأن حديثه كان يتسم بالموضوعية والأصالة . كان الوجه المشرق للحريات والديمقراطية ، ووسط ذلك الجو في الخمسينات الذي كان يتسم بالمناخ الذي لم يستقر بعد وبالجو العام الذي لا يجعل الأمور مطمئن « المواطن العادي » على غده .. كان السادات ، تجسيدا حيا ، وتعبيرا واضحا ، في ذلك الوقت ، عن متطلبات « الإنسان المصري العادي » ، الذي كان يتطلع لمزيد من الحريات ومزيد من الديمقراطية والطمأنينة ، في ظل الثورة الجديزة التي قضت على الملكية واطاحت بالاقطاع ، وبدأت تنجز العديد من المشروعات الهامة التي غيرت من طبيعة العلاقات المادية والاجتماعية والفكرية في مصر ، ولكن هذه التغييرات كان ما ينقصها سياج الحماية الشعبية - وهذه السياج لم تكن تتوفر إلا في ظل مزيد من الحريات والديمقراطية ..



في حديث هام ، أجراه خالد محي الدين مع الكاتب الانجليزى برتراند رسل ، قال المفكر الانجليزى الكبير : « ان ما يحدث في مصر يشدني

حقا فالثورة بمفهومها الحديث في الدول النامية ، ليست هي قلب نظام الحكم أو تغيير موازين الأمور ، على طريقة الكراسى الكلاسيكية ، بقدر ما تعنى ، قبل كل شيء محاولة نقل الناس من حالة الى حالة ، من حياة الى حياة ، من تحلف الى تقدم ، من موت الى حركة هادرة ، من ظروف قهر الى ظروف متحررة ، من فقر واستغلال الى رخاء ورفاهية .. وفي مصر ، وفي كوبا ، وفي الهند ، وفي الجزائر ، وفي أندونيسيا ، تمتد خطوات جريئة للسبر بمنجزات الثورة لنقل الانسان الذى طالما عانى ليمسك عصا المستقبل وأنا ، لا أخفى ، بل أقولها صراحة ، أن الثورة التى قامت فى مصر نذير خير ، ليكن هذا النذير ، بادرة نحو تقدم أعمق بالثورة ، والثورة فى تقديرى لا تتعمق ولا تتطور الا من خلال عنصرين هامين : أولا .. الاعتماد على العلم الحديث ، بمعنى استلهم خط استراتيجى علمى يكون بمثابة النظرية الثورية للحركة الاجتماعية والمادية خلال التغيرات التى تتم وتنتج . ثانيا .. لا بد من ربط ما يحدث بالجمهير ، والا بدا كل ما يحدث هراء ، وما لاحظته على الثورات فى هذه البلدان النامية ، انها لم تستطع الفكك من التخلف والافتقار الى النظرة العلمية الخلاقة ، هذا الى جانب الخوف الواضح من حركة الجماهير . وهذه العناصر التى عرضها المفكر والفيلسوف الانجليزى برتراند رسل ، ان عبرت فهي لا تعبر عن الثورة المصرية فحسب ، بل تعبر بشكل عام عن ثورات الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبينها الثورة المصرية . ومن يتعمق هذه العناصر ، يحس لماذا وصلت الثورة المصرية ، رغم نجاحها العنيليم فى تحقيق عشرات المنجزات (فكريا ، واجتماعيا ، وماديا) ، الى المنغلق الذى وصلت اليه فى يونيو عام ١٩٦٧ ..

كان أهل الغرب ، يفخرون ، دائما ، أنهم يعرفون الشرق أكثر من أهله .. وكان لورنس ، وفيلبي ، وغيرهما من رجال الامبراطورية البريطانية هم أنبياء جهاد يعلمون عن العرب أكثر مما يعلمه العرب أنفسهم . ولكن مع ذلك ، عندما نقلت وكالات الأنباء خبر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أصابت الدهشة أهل الغرب ، وبعضهم بدأ يدرك أنه لا يعرف عن العرب أكثر مما يعرف عن أنفسهم . وعندما أصابت مصر هزيمة ١٩٦٧ ، قالوا « ان كل شيء قد انتهى . ولن يصحو الشرق الا بعد فترة طويلة » ، بل وبعض صحفهم قالت « اذا كانت معارك ١٩٥٦ ، قد أصابت الكلى والمفاصل في الأمة العربية ، فان هزيمة ١٩٦٧ قد أصابت القلب في الصميم ، ولن يقوم الانسان العربى من جديد الا بعد ما يعاد الى قلبه الحياة وهذا يحتاج الى وقت طويل ، بل وميثوس فيه ، أيضا . » . حقا ، كانوا يعتقدون أن كل شيء قد انتهى ، وأن الانسان المصرى قد خرب من الداخل ، ولم تعد لديه القدرة على القيام من جديد ، لكن ما حدث فى ١٥ مايو ١٩٧١ وما أفضجه من انتصارات ومكاسب عسكرية « مايو » ، كان على رأسها انتصار اكتوبر ١٩٧٣ العظيم ، وما أعقبه من تحركات أكدت وحدة الصف العربى وقوته ، وعودة الروح من جديد بشكل أكثر قوة وخطورة من الماضى ، جعل الغرب يهتز ويذهل حقا !

حقا ، ان مبررات « الثورة » و « التغيير » ، كانت موجودة ، لكنهم لم يكونوا يعتقدون ، أن القوى الوطنية قد استطاعت أن تنظم نفسها ، وبسرعة مذهلة ، حتى عادت واكتسبت «الأرض» من جديد ، على المستوى العسكرى والسياسى والفكرى والنفسى ..

فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قامت الثورة . ولأول مرة فى تاريخ مصر التف حول الجيش وحركة الضباط الأحرار قوى شعبية كبيرة ، من خلالها ، تحققت العديد من المنجزات الاقتصادية والمادية والاجتماعية والفكرية .. وقد ساعدت أحداث ١٩٤٦ ، التى كان السادات واحدا من رجالها يناضل

من وراء السجن والقضبان، كمحترف سياسى شارك فى الانتفاضات والفوريات الوطنية، كما ساعدت معارك فلسطين أيضا ، على تفاقم تناقضات المجتمع المصرى وزيادة قوى الدفع الثورى ، وأيضا ، معارك قناة السويس والكفاح المسلخ التى خاضها السادات كبطل وفدائى من الطراز الأول ، كل هذا ساعد على تحقيق الالتقاء بين حركة الضباط الأحرار والآمال الشعبية ، التى كانت تنطلق الى مخلص من عتبات القهر والظغوط التى كانت تطاهاها الجماهير الشعبية ، هذا طبعا ، الى جانب التفاقم وحدة العلاقات المادية والاقتصادية فى المجتمع المصرى ..

يقول « عبد الرحمن الرافعى » مؤرخ الحركة الوطنية :

« لقد قامت الثورة ، وفوجئ بها الشعب ، لكن سرعان ما تحقق الالتقاء بين من قاموا بها من ضباط احرار وبين مختلف الفئات الشعبية ، وكان أهم نتائج ثورة ٥٢ السريعة انضمام الشعب فى معركة الجلاء والتحرير عام ١٩٥٤ ، فاشتد ساعد مصر بانضمام قواتها المسلحة الى قوى الشعب المكافحة بعد ان فرقت بينها الاوضاع الاستعمارية والاهواء السياسية فى العهود الماضية ، رأى الانجليز ، ان انضمام هاتين القوتين العظيمين ، واتحادهما ، يجعل بقاء الاحتلال فى اية بقعة من الوطن أمرا مستحيلا ، عندئذ أدركوا الامناص لهم من الجلاء عن منطقة القناة ، فوقعوا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ اتفاقية الجلاء ، وكان لايمان الثورة بالجلاء وتمسكهم به واستعدادهم للبلل والتضحية فى سبيله ، الفضل فى هذه النتيجة الحاسمة » .

وهكذا ، حدث ، ما لم يكن فى حسابان الغرب . استطاعت القوى الوطنية أن تنظم أنفسها وتلتقى مع حركة الضباط الأحرار ، حتى صارت أقوى من الملك ، وأقوى من السفير البريطانى والاستعمار ، وحققت الجلاء ، بعد مرور عامين فقط من قيامها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لم يكن يثير الغرب فى ذلك الوقت ، وأقصص فى البدايات الاولى

لثورة... لم يكن اهتمامهم : (لماذا ؟) ، فهم يعرفون المبررات جيدا .. ولكنهم ، تساءلوا : (كيف ؟) ، ومعلومات المخابرات ومراسلي الصحف ، في ذلك الوقت ، تقول .. « أن الأوضاع في مصر آسنة تدور حول فلك النظام الكلاسيكي القديم » .

وظل أهل الغرب ، يعتقدون أن ما حدث لم يكن إلا مجرد تغيير (للواجهة) ، حتى عام ١٩٥٤ كان سفير أمريكا في مصر يرسل تقاريره الى واشنطن على أساس أن ما حدث في مصر لا تغيير فيه « .. وحتى ، الآن لا زال الأمر بيد أمريكا ، ولم يفلت منا ، فالقوى الموجودة في القاهرة ، لا تتعارض مصالحها مع مصالحنا ، بل لكي نضمن استمرارها كسلطة جديدة في منطقة صعبة عليها أن تلجأ إلينا دائما (١) » .. لكن سرعان ما اكتشف الغرب بعد فترة ، أن ما حدث في مصر ليس في صالحه ، أو على الأقل لا يسير وفقا لما يريد ، وبالذات ، بعد الجلاء ، وبعد تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ . وعندما أحس الغرب ، أن ما حدث في مصر ليس في صالحه تماما ، قام بحملته الضارية التي وصلت الى العدوان المسلح في أكتوبر ١٩٥٦ . لكن قوى الارادة العربية ، وتجمع القوى الوطنية في مصر في صف واحد ، ونضال القوى الشريفة في العالم ، دحر قوى العدوان وأوقفها عند حدها في ١٩٥٦ ..

وقد هز السادات ما حدث في مصر في عام ١٩٥٦ ، وكان يتوقعه ، بل وكان يحذر منه ، وكان يعلنها بكل صراحة مدوية .. أنه لابد من حماية المكاسب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تنجزها « الثورة » في مصر بسياج شعبية ، حتى لا تتعرض للخطر ، وحتى اذا ما تعرضت ، بالفعل للخطر ، وهي معرضة له بالفعل ، تكون القوى الوطنية في حالة تأهب واستعداد لدرء أى خطر ، لأن التفكك أو عدم وحدة الصف من شأنه

(١) وقد نشر هذا التقرير في مجلة « التايم » الأمريكية في يوليو عام ١٩٥٤ ، أي بعد قيام ثورة يوليو بعامين فقط ، ومما جاء ، أيضا ، من تعليقات صحف الغرب عن هذه الفترة ما كتبه صحيفة الايكولوجيست البريطانية فقالت : « ان الامر ، لم يفلت بعد من يدنا ، فالاقتصاد المصري لا زال يرتبط ببريطانيا ، بشكل أو بآخر » ...

أن يجعل للاستعمار أو للقوى الرجعية « فبحة » سائحة للتحرك ...
ويعلق السادات على أحداث ١٩٥٦ ، بقوله في مقال نشره على صحيفة
الجمهورية في (١) : « ان أخطر ما يفتك بالدول الصغيرة ويقومها فريسة
للدول الاستعمارية ، هو ذلك الشعور بالنقص الذي تغرسه تلك الدول
الاستعمارية في نفوس الشعوب الصغيرة . ان هذه العقدة . هي أفتك
أسلحة للاستعمار اليوم ، والانسان يتلفت حواله الآن ويأسف لأن دولاً
صديقة من الدول الصغيرة تترك شعوبها فريسة لهذه العقدة . وأخطر من
كل هذا أن تكون هذه العقدة لدى حكام هذه الشعوب . وسبيل
الاستعمار ، دائماً هو غرس هذه العقدة في نفوس الحكام أولاً ، ثم
توصيلها للشعوب عن طريق هؤلاء الحكام . وعن طريق العملاء الآخرين
الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار » .

ويقول ، أيضاً ، في نفس المقال : « يجب أن تتحرر الشعوب الصغيرة
من خرافات الاستعمار وأساطيره ، كأنها السوس تنخر في مقاومة هذه
الشعوب بالنقص ... فالى متى ، سيظل بعض الحكام يحطمون مقاومة
شعوبهم ، لأنهم مرضى بهذه العقد ١٩ » . والى جوار ، هذه السلسلة الهامة
عن معارك ١٩٥٦ ومواجهة مصر لها ، وتحليله للعداوان الثلاثى على مصر ،
كانت دراسة هامة أخرى عن القناة (٢) ، دعمها بالأرقام وبالأبعاد الاقتصادية
التي كمنت وراء ذلك الحدث الذى كان ينفى هزيمة مصر ودحرها وربطها
بربقة الامبرياليين . قال السادات في مقاله هذا : « ان جميع الاتفاقات
والمعاهدات منذ انشاء القناة الى يومنا هذا تنص بما فيها معاهدة لوزان
ومعاهدة ١٩٣٦ واتفاق ١٩٥٤ ، هذه الاتفاقات والمعاهدات جميعا تنص

(١) المال نشر بتاريخ ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٦ .

(٢) هذا المال نشر بتاريخ ٩ افسس ١٩٥٦ ، تحت عنوان (ارقام) ، بجرمة الجمهورية ،
وقد وثقه ودعمه بمراجع اقتصادية وسياسية هامة ، من خلالها يصل بلفه الأرقام الى نتائج
هامة في مجته الاقتصادى والسياسى عن العدوان وفئاة السويس ... وكان هذا المقال الهام
بمشاركة رد مفهم على المستر انطونى ايدن رئيس الوزراء البريطانى في ذلك الوقت الذى حاول
اللب بلفه الأرقام لصالح الاستعمار !

صراحة على أن القناة جزء لا يتجزأ من مصر ، والأرقام توضح ذلك ، وهامى تفاصيل التكاليف التى تكبدتها مصر ، ان كل رقم من هذه الأرقام يحكى مأساة وتاريخاً : ٣٤٢٦٠٠٠ جنية (قيمة اسهم مصر فى القناة ، ٣٣٦٠٠٠٠ قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة ، ٤٠٠٠٠٠٠ ر. ثمن أراضى تفتيش الوادى ، ١٢٠٠٠٠٠٠ تعويض للشركة طبقاً لاتفاق ٢٣ ابريل ١٨٦٩ ، ١٢٠٠٠٠٠ نفقات انشاء الترعة الحلوة ، ١٤٠٠٠٠٠ نفقات حفلات افتتاح القناة ، ٨١٤٠٠٠٠ فوائد وسمسرة وتحكيم . فيكون المجموع هو : ١٦٨٠٠٠٠٠ ستة عشر مليوناً وثمانمائة جنية . وتكلفت القناة كلها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات ، ثم توالى بعد ذلك الكوارث» وهكذا يبين السادات فداحة ما تحملته مصر ، ومن خلال الأرقام يدل على ما تم من مأساة تحملتها مصر بالعرق والدم ..

ان المسيرة التى بدأت مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والتى عبرت عن تطلعات الشعب المصرى فى تحقيق حياة حرة كريمة بعيدة عن شتى ألوان القهر والاضغوط ، كان من الممكن أن تكون أكثر فعالية ، وأكثر ارتباطاً بالقوى الشعبية لو توافرت ظروف حريات الفرد والديمقراطية التى تعطى الجماهير فرص المشاركة فى اقامة هذه الحياة الحرة ، وكيفية المحافظة عليها أمام أية قوى معادية وفى مواجهة أى عدوان داخلى أو خارجى ..

لقد قال أرنولد توينبى (١) :

((أن المسيرة التى بدأها الشعب المصرى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، سارت الى آفاق طيبة فى أكثر من مجال من أجل اصلاح الحياة للمواطن المصرى . وهذه الانتصارات التى تحققت وتنحقق كان من الممكن أن تكون أكثر وأكثر ، وهذه

(١) وتوينبى ، من المفكرين الذين اهتموا بالخصائص الشرقية ، وتعاطف مع حركات الدول المستقلة حديثاً ، وفى طليعتها مصر ، ولقد قال رايه فى الثورة المصرية وتطوراتها فى أكثر من مناسبة ، ولقد جاء مصر وحاضر عن مصر والثورة ، أكثر من مرة ...

الانتصارات لا يفسرها ، فقط ، البعد السياسى والمادى ،
 بل ، وايضا ، نضج الحركة الوطنية فى مصر ، وهذه القوى
 الوطنية ، فى الحقيقة لو اتيح لها مجال اوسع لكنت اكثر
 تفجرا ، واكثر فعالية فى تطور مصر حضاريا وفكريا » .
 وقد أكد أكثر من مفكر ومنظر وكاتب ، على الجوانب الايجابية فى
 ثورة ١٩٥٢ ، وفى نفس الوقت ، أشار الكثيرون الى سلبيات تلك المرحلة ،
 أيضا ، لكننا كنا - وهذا عيب فينا - تنباهى بالايجابيات ، ونخشى أو
 نهاب السلبيات ، وهذا ما سلمنا من وهم الى وهم ، وجعلنا لا نرى الأشياء
 على حقيقتها ، بل وقادنا الى مرحلة ضبابية وصلت الى حد انعدام الرؤية
 بعد هزيمة ١٩٦٧ .

قال المفكر الهندى « جوش » :

« ان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لم تكن حركة اصلاحية أو
 انقلاب عسكرى ، بقدر ما كانت تريد تغيير العلاقات المادية
 والاجتماعية والفكرية للمجتمع ، وقد نجحت فى الكثير من
 الأعمال كتحويل مصر الى نظام جمهورى ، واعادة توزيع
 الاراضى ، وتغيير حياة العمال ، ورفع مستوى الفئات
 الشعبية ، وتحقيق الجلاء ، وتدعيم خط الحياد وارتباط
 ثورتها بالعالم الثالث وحركاتها التحررية واضح كل الوضوح
 لكن رفضها للحياة النيابية والبرلمانية ، واصرارها على
 لفظ مفهوم الديمقراطية واشراك المدنيين - من مستنيرين
 ومتقنين - فى أعمالها ، جعل الهوة تتسع بين منجزات الثورة
 والشعب ، فلم يشعر الشعب - أبدا - ان ما يحدث على
 أرضه جزء منه ، بقدر ما أحس انه غريب عما يجرى ويدور -
 الأمر الذى عرض هذه الثورة للعديد من (الهزات) داخليا
 وخارجيا ، على المستوى الشعبى وعلى المستوى العالمى ، ففى
 الداخل قامت العديد من الحركات المعارضة ، بل ومحاولات
 للانقلاب وثورات مضادة متعددة ، لكن كان يكبح جماح أى
 حركة أو فتوة من هذه الفتورات بالاعتقالات الواسعة والتنكيل
 بلا حدود خلال السنوات الاولى للثورة حتى بدايات الستينات
 الأمر الذى جعل كل شئ يحدث ويجرى فى غيبة عن (طليعة)
 الجماهير وخيرة رجالها ، وعلى اختلاف تياراتهم واتجاهاتهم ،

كانوا من الممكن أن يمثلوا جبهة ويشاركوا لا في حماية مكاسب الثورة ، بل وايضا في المشاركة في البناء . لكن حركة الضباط الاحرار لم تعط أية فرصة لحرية المواطن أو ديمقراطية الحركة ، الأمر الذي أدى الى انهيار المواطن نهاما ، وجعله يخشى ويهاب كل شيء ، وبالنسبة للهوفف العالمى والقومى عندما تعرضت البلاد للحرب ، لم يحس الشعب بأنه طرف في هذه الحرب ، وحرب ١٩٥٦ فضها ، اساسا ، انذار سوفيتى ، وحرب ١٩٦٧ التى أجهزت على كل شيء داخليا وخارجيا ، تمثل قمة البركان ، فقد كان الشعب يعاني الأمرين ، ولم يكن يشارك المشاركة الفعالة في قيادة اموره ، هذا الى جانب أن المواقف الانتهازية والتسلقية كانت تسيطر على كثير من القيادات » .

لقد كان من الممكن أن تسيّر حركة الضباط الاحرار ، في اتجاه دستورى ديمقراطى منذ البداية . فقد كانت التشكيلات السرية بين ضباط الجيش ، ترمى في بداية الامر الى هذا ، بل والى اعادة الحياة النيابية .. وقد علق انور السادات ، على ذلك بقوله : « اتصلنا ، فعلا ، بفؤاد سراج الدين ، وأوفدنا اليه البكباشى أحمد أنور ، أحد الضباط الأحرار ، وذهب يسأل سراج الدين عن موقف حزب الوفد في حالة ما اذا فرضه الجيش على الملك ، وبعد شهر جاءنا الرد .. وهو الرفض » . وبعد انتصار حركة ٢٣ يوليو ٥٢ ونجاحها في التخلص من الملك ، وبدأت تحقق مساراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، قام داخل قيادات الثورة رأيان مختلفان . ويقول أنور السادات في ذلك : « الرأى الأول يقول ماذا يمنع لو استدعينا برلمان الوفد لتسيير الأمور ، ونجلس نحن نراقب الأحوال والخطوات وتنفيذ أهداف الثورة . والرأى الثانى يقول : لا يصح هذا ، فالوفد وكل الأحزاب والهيئات بما فيهم الاخوان قد تخلفوا عن التعاون معنا قبل الثورة وان الثورة تحتّم الغاء كل تلك الأحزاب والهيئات .. واستمرت هذه المناقشة واحتدت تلك الاجتماعات للهيئة التأسيسية للضباط الاحرار ، وكان الرأيان المتصارعان هما محور كل المناقشات » . وأخطر من هذا ،

أيضا ، نجد أنور السادات ، يسجل في صراحة .. أن الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار أعدت قرارا يقضى بحل الأحزاب كلها ، وابعاد كل السياسيين القدامى الذين تعاونوا مع القصر والمستعمر ، فاعترض الكثيرون على هذا القرار ، وقالوا أن هذا يعنى « نوعا من الديكتاتورية » . وبالفعل بعد أن تم إلغاء الأحزاب ، وضربت معظم التيارات الثورية في أعقاب ١٩٥٤ ثار الكثيرون ، ووصفوا الثورة بالديكتاتورية .. بل وفي مقال نشره أحد أساتذة الاقتصاد في ذلك الوقت ، قال : « ان إلغاء الأحزاب ، والضرب بقوة على التنظيمات والتيارات السياسية في مصر ، يعنى الحجر على فكر مصر ، ولا يمكن أن نسمى ذلك الانوع ضارى من الديكتاتورية - أو « السباشية » - نسبة الى الضباط الأحرار ، أو الى الاتجاه الذى يسيل الى إلغاء الحريات والديمقراطية .. وكيف يتم اللقاء بالثورة دون حماية الجماهير لها ، ودون أن تمتزج عناصر حركة الضباط الأحرار بالتيارات السياسية ، ويتم تكوين جبهة وطنيه متحدة تمثل مطالب الثورة ومتطلبات المرحلة ؟ دون ذلك ، لن يتم الا القهر والضغط والمظالم ، وهذا يعطى الفرصة سانحة لارجعية أن تظل داخليا وخارجيا » .

وأكثر من كتاب صدر عن مصر في الخمسينات والستينات ، عشرات الكتب ، بل مئات ، لكن الذى كان يحدث لم يكن يدخل الى مصر الا الكتب المتعاطفة أو التى تمتدح (النظام) ، ودون ذلك يعدم ، وعلى ذلك لم نر غير كتب جان وسيمون لا كوتير ، وديزموند ستيوارت وتوم لثيل ، وكرانجيا ، وجون جنتر ، وبيليايف ، وغيرهم .. لكننا لم نر الكتب التى كانت تبرز سلبيات المرحلة ، والكثير منها كان يتحدث عن العيوب ، ولا تقصد بالعيوب الاساءة الى جوهر الثورة ومكاسبها فهذه الكتب مضللة ، وانما تقصد الكتب التى كانت تنزع الى الحياد وتبرز الايجابيات والسلبيات على حد سواء - هذا اللون من الكتب كان يقال عنه « أنه يشير ثائرة الناس .. وأنه يطنطن بالحياة النيابية ، ويطالب

بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، وإباحة الأحزاب السياسية » ، وقد حاولت أن أقرأ بعض هذه الكتب ، بشكل أو بآخر ، بل وقد اتيج لي أن أقرأ بعض الصحف التي تبرز إيجابيات وسلبيات المرحلة التي أدت الي هزيمة ١٩٦٧ . إن أعداء جمال عبد الناصر ومنافسيه السياسيين ، اطلقوا عليه اسم « الديكتاتور » أو « القومى الأعشى » ، واعتبرهم الكثيرون من زعماء البلدان العربية والافريقية من أكثر الموالين لموسكو ، وفي نفس الوقت مدحه آخرون وتحمسوا له ووصل حماسهم الى درجة العبادة والتأليه . وكل من النظرتين ، في تقديرى خاطيء .. فجمال عيد الناصر ، قد أثار العديد من أعماله كثيرا من الجدل ، لكنه كان أول مصري في العصر الحديث أعطى لمصر مكانتها ، وحررها من الاستعمار ، وأعطاهها الفرصة لتسير الى الأمام . ولا أحد منا يستطيع أن ينكر مساهمة جمال عبد الناصر في تطور مصر الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، فقد حقق مع مجموعة بارزة من رجاله « السيادة الوطنية » ، والاستقلال القومى ، وأعاد خريطة مصر الاقتصادية لتكون في خدمة الفئات والطبقات الشعبية ، بعد أن كانت ملكا للملكية والاقطاع والاستعمار . لكن كل هذه السلسلة من المكاسب والانجازات ، كانت تتم بمعزل عن الجماهير ، ورغم الصفات والاسماء التي خلعت على الكثير من فترات الخمسينات والستينات في مصر « كالمرحلة الاشتراكية » ، و « التغيير الاشتراكى » ، و « البناء الاشتراكى » الا أبني أقول أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ما هى الا ثورة بورجوازية ، قد قامت للقضاء على الاقطاع ، وإعادة توزيع الاراضى ، وتحقيق الإستقلال القومى للبلاد ، ومحاولة بناء مجتمع صناعى جديد يحقق الرفاهية لأكثر قدر من الشعب .. لكن الذى حدث ، أن عهد الناصر ، كان يفضل أن يعمل بمعزل عن الجماهير ، بمعنى أنه كان لا يثق كثيرا فى التنظيمات السياسية ولا فى المثقفين التوريين ، وكان يرى أن « شرعية » الأشياء لا بد أن تنبع من خلاله هو ، حتى لو كانت بمعزل عن الناس ، وكان فى نفس الوقت ، يخشى من نظرية الصراع الطبقي ومن قوى المثقفين والعمال . لم تكن المشكلة

أمام عبد الناصر : من الذى يملك وسائل الإنتاج ، بقدر ما كان بعدالة التوزيع .. وكان يرفض قيام أى تيار معارض ، ويرفض الأحزاب ، ولا يجد فى الحرية أو الديمقراطية إلا ما هو تابع عن ومحقق لمصالحها فحسب ، ودون ذلك تخريب ، لذلك ، عمل ، ومنذ على تصفية كل الاتجاهات والتيارات المختلفة للمثقفين والسياسيين مراحل مختلفة فيما بين عامى ١٩٥٤ ، وضربة ١٩٥٨ ، وضربات أخرى فى بداية الستينات حتى تم له الكثير مما اراد : « تدجين القوى الثو وتصفية » المثقفين الثوريين . كان عبد الناصر - على حد تعبير السوفيتيين : بيليا يفيد ، ويفجيني بريماكوف : « كان عبد الناصر الى تعزيز وضعه كزعيم سياسى للبلاد أولا ، ثم بعد ذلك ، كان يفكر للمستقبل ، لمصر » . وعلى هذا ، وكما قلت ، كان عليه أن من كل الخصوم ومن كل المناوئين ، تماما ، كما فعل نابليون بو عندما عاد الى فرنسا ، ووجد القيادات تتصارع على السلطة ، واهم خصوم عليه أن يتخلص منهم هم : ديكو ، وسييس ، وكامباس وهم يمثلون القوة الأساسية فى الصراع (١) ، وعندما تخلص منهم يفكر كيف يصنع من نفسه زعيما سياسيا ، ثم يفكر بعد ذلك فى وعلى هذا ضرب عبد الناصر كل القوى خلال عهده الذى امتد قرا عشرين عاما : ضرب جماعة الاخوان المسلمين ، التى تمثل اليمين المدة قوة ، كما ضرب الشيوعيين ، وكان يرى ان تقدمهم للثورة ومسارها من المطالبة بقيادتها أو احتوائها أو قيادتها الى تناقض الصراع الحدة .. ولأنه ، عمل ، وتحرك ، بمعزل عن الجماهير ، ولم يهتم اهتمام بإنشاء قاعدة شعبية لحماية التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الت

(١) فعندما عاد نابليون من مصر ، فى أكتوبر ١٧٩٩ ، اختير وفلا لدستور ١٧٩٩ القنصلية التى كانت تضم ثلاثة من القناصل هم : كامباسريس ، وديكو ، وسييس منصب القنصل العام نابليون بونابرت ، ويساعده كامباسريس من البعاقبة ، الملكيين . ومثلما تخلص من سييس وديكو ، تخلص من كامباسريس ولبران ، ومن خلال تخلص من كل مناوئيه ، وانفرد بالسلطة تماما ، وخلالها الهجو تماما ...

على أرض البلاد . كما أنه لم يكن يسير وفقا لمنهج علمي أو نظرية كاملة ، كان يتحرك من منطلق تجريبي بحث ، وهذه « التجريبية » لا توصل الى نتائج واضحة ، لأن المذهب التجريبي في السياسة معروف أنه لا يقود الا الى طريق مغلق وغير واضح ، لأنه يخضع للواقع اليومي وظروف المتغيرات يوما بيوم ، ولا يرتب للاشياء قبل وقوعها ، بقدر ما يتصرف وفقا للموقف الذي فرض ، وأحيانا ، يكون هذا (الموقف) دون الحساب ، وقس على هذا ابتداء من أزمة المساكن في مصر الى مشكلة الانارة الى مشكلة الحرب مع اسرائيل ! كان عبد الناصر ، يفتقر الى الاستراتيجية العلمية ، التي تجعله يتحرك و « يتكثك » وفقا لنظرية علمية ثورية ، ونحن نعلم علم اليقين من تاريخ ثورات الشعوب ، أنه ليس هناك ثورة تتقدم بدون نظرية ثورية تحدد الاستراتيجية والتكتيك ، وعلى هذا كانت تنقصه النظرة العلمية التي تجعله يدرك قيمة الربط بين الظواهر ، فكريا وجدليا ، ماديا وتاريخيا ... ورغم أنه كان ينادى بالعلم ، وبالاشتراكية ، إلا أنه كان يتحرك على أرض تجريبية بحثه ، وما كان يسميه بالاشتراكية كانت تحكمه علاقات الانتاج القائمة على الرأسمالية الوطنية . وكانت مشكلته منذ البداية ، أو هدفه ، انشاء جيش قوى للدفاع عن سيادة البلاد ، وأظهرت الأحداث أنه لا سبيل للحصول على المساعدة في هذا الشأن من بريطانيا أو فرنسا ، ولذلك لجأ الى « واشنطن » ، لكنه بعد فبراير ١٩٥٥ أحس بخيبة الأمل في أمريكا ، خاصة بعد انشاء « حلف بغداد » المعادي لمصر ، ولم يكن من بد الا الاتجاه الى موسكو والدول الاشتراكية ، لشراء السلاح ، وعلى هذا تمت العلاقات بين مصر والسوفيت ، بل والمعسكر الاشتراكي منذ ذلك التاريخ . وهذا جعل مصر تقع في منطقة الصدام بين الدولتين العظميين . فقد أحس الغرب ، أن هذا سيساعد على تغلغل النفوذ الشيوعي الى المنطقة ، بينما أحس الاتحاد السوفيتي أن هذا يقربه من مصالحه في الشرق الأوسط وأفريقيا . وخلال العديد من المعارك الوطنية ، والاقتصادية ، والفكرية ، مرت مصر بالعديد من المواقف في عهد عبد الناصر

حصلت خلالها على العديد من المكاسب والتغيرات في كافة المجالات والتي لا يستطيع أن ينكرها أحد : في مجال التصنيع ، في مجال الفكر ، في مجال الزراعة ، في مجال العلم والاعلام ، وفي المجال القومى والخارجى .. لكنها خسرت ، أيضا ، أشياء عظيمة كان من الممكن أن تساعدنا في التقدم أكثر ، خسرت الديمقراطية والحريات في تلك الفترة - التي أودت بالكثير من أعز أبنائنا ، مثلما صفت ثورية رجال كان من الممكن أن يكون لهم دورهم الطليعى في تطور الحركة الثورية على أرض مصر وفي المنطقة على مختلف المستويات (في السياسة ، في العلم ، في الفكر) . كان عبد الناصر يرى أن « القيادة » ، قادرة على استلهم آمال الجماهير وأحلامهم ورغباتهم ، ومطامحهم ، وتعبر عنهم ، لكن هذا يلغى منطق التطور ، ويلغى مفهوم (الثورة) وارتباطها البيولوجى والفكرى بحركة الجماهير . كانت أيديولوجية عبد الناصر ، ومن واقع فلسفته التجريبية ، ومن منطلق تفكيره ومواجهته للواقع ، تمثل الفئات الاجتماعية المتوسطة ، التي تبدأ من « الوطنية » ، وتتقارب بصورة تدريجية من مجتمعات مثل : « يوغوسلافيا » ، و « الهند » .. وكان يسمى هذا الفكر وانقلاباته بـ « الاشتراكية » ، والعلم لم يعرف الا نوع واحد من الاشتراكية هي « الاشتراكية الماركسية - اللينينية » القائمة على المادية الجدلية والمادية التاريخية ، حتى « اشتراكية يوغوسلافية » ، يختلفون عليها في ذلك ويسمونها بـ « التيتوية » ، لأنها تختلف مع المفهوم الأسمى للاشتراكية . وقد تطور عبد الناصر في أعقاب ١٩٦١ تطورا واضحا ، واتجه الى كل المجتمعات الحديثة ، وحاول أن يغير من مصر الى الافضل ، بل ويغير من فكره هو ، أيضا ، لكن كان الوقت قد مضى ، فقد استقطبت معظم العناصر الثورية للمثقفين والمفكرين ، وكانت تناقضات الواقع قد وصلت الى مرحلة بالغة الخطورة ، أدت بها الى ما حدث في عام ١٩٦٧ . فقد كانت الهزيمة ، نتاج طبيعى لفلسفة الفكر التجريبى ، ولانعزال القيادات عن الجماهير ، ولنسوء فئات عليا جديدة ابتدأت تستفيد ، أساسا ، من الثورة وتخلق الفئات

الشعبية والكادحة ، هذا الى جانب غياب الديمقراطية الحقيقية عن الواقع المصرى .. كل هذا الفكر أدى الى هزيمة ١٩٦٧ ، والى ما حدث من حرب الأيام الستة ، وما أعقبها من سنوات المرارة والأحزان والخراب ، والتي ظلت تنوء مصر في ضباياتها حتى حركة التصحيح التي تمت بين يومى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والتي كان (أكتوبر العظيم) نتاجا طبيعيا لها ..

وكل الدراسات والكتب التي نشرت عن حرب ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات المرارة والهزيمة ، تؤكد .. أن مصر لم تكن مستعدة للحرب . فقبل قيام الحرب ببضعة أسابيع خففت ميزانية الحرب ، وتوقف العمل في المنشآت العسكرية (سواء منها ما هو متعلق بالمطارات ، أو بالخطوط الدفاعية في سيناء) . هذا الى جانب أن القيادة العسكرية ، لم تكن مؤهلة التأهيل الكافى (علميا ، وتكتيكيا) لمواجهة حرب شاملة ، لأن الفريق محمد فوزى ، نفسه ، لم يكن قد مارس في حياته عملا عسكريا واحدا ، اللهم عله في رئاسة الكلية الحربية ، وهو عمل ادارى أكثر منه عسكريا ! ولم يكن هناك من كان يتوقع نشوب الحرب (خاصة في صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧) ، لأن غرفة العمليات في القيادة العامة أغلقت قبل ذلك بيوم واحد (فى ٤ يونيو) ، ولأن قيادات الجيش ، كانت كلها فى الطائرة صباح الاثنين ٥ يونيو متجهة مع المشير « عبد الحكيم عامر » الى سيناء لتفقد حالة القوات المرابطة هناك ، هذا الى جانب أن عددا لا بأس به من الضباط والمقاتلين ، كانوا يسهرون فى حفلة ترفيهية عامة ليلة الخامس من يونيو فى قاعدة من قواعد الدلتا .. وحتى جمال عبد الناصر كان يهدد وينذر بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ويسخر تارة من المستر ايدن أو من موسى ديان ، ويلقى بتهديداته المختلفة ، وهو مصمم على أن تتلافى مصر الضربة الاسرائيلية اذا ما حدثت الحرب ، وهذا أمر مستبعد ، لأن روسيا كانت تؤكد ذلك وتعطى الضمانات لذلك ! وتبعاً لذلك ، كانت القوات المسلحة المصرية فى حالة اطمئنان ، ولا تتوقع أى هجوم ،

وحتى وهى تقف على أهبة الاستعداد ، كان يدور الحوار الداخلى بين صفوف الجيش ، أن أمر الهجوم من جانب اسرائيل أمر غير متوقع . وبعد عن الأحداث ، وأن المسألة لا تخرج عن كونها مناورات وتهديدات فحسب !

وعندما عقد جمال عبد الناصر مؤتمر القادة فى الثانى من يونيو ، وحضرته كل القيادات العسكرية وعلى رأسها المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، والفريق محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، والفريق محمد صدقى محمود قائد السلاح الجوى ، والفريق أنور القاضى رئيس هيئة القوات المسلحة ، واللواء محمد صنادق مدير المخابرات الحربية ، والعميد محمود فهمى مدير مكتب المشير للشئون البحرية ، واللواء على عبد الخبير ، والعميد محمود طنطاوى . . . كان تقييم الموقف يتأرجح بين اتجاهين : اتجاه يرى هل تبدأ اسرائيل أم لا ؟ وإذا كانت تنوى بالفعل ، فما هى التدابير التى يجب اتخاذها لتلافى الضربة ؟ والاتجاه الثانى ، كان يرى أنه اذا هاجمت اسرائيل ، هل تكون وحدها ، أم أن أمريكا ستكون الى جوارها مثلما حدث فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ؟ ورد جمال عبد الناصر على كافة الاحتمالات ، وقال ، أن لديه من التأكيد العظيم ، ما يعطى الثقة فى استحالة هجوم اسرائيل ، وأن التحرك العسكرى المصرى قد حقق أهدافه المرجوة ، وحتى ، وعلى فرض ، أن هاجمت اسرائيل ، فإن ردود الفعل السوفيتية ستكون رادعة وعنيفة ، فموسكو لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أية ضربة على مصر بأى حال من الأحوال ، وعلى ضوء هذا ، واستنادا الى التأكيدات التى أعطاها عبد الناصر للقيادات ، حدث « الاطمئنان العظيم » داخل صفوف العسكريين بل أن عبد الناصر قد أعلن ، أيضا ، فى مؤتمر آخر ، عقده فى أواخر مايو ١٩٦٧ فى « أبو صير » ، أن اسرائيل تثرثر كثيرا ، وتهدد كثيرا ، لكنها لا تجرؤ على اعلان حرب شاملة ، لأنها تعرف أن ذلك سيؤدى الى مضاعفات

لا قبل انما على مواجهتها ، وقال ، أيضا ، بالحرف الواحد : « تلاحظون دون رب أننا حشدنا قواتنا في سيناء ، ولم تجرؤ اسرائيل على أن تحارب وكنا قد صعدنا نشاط الفدائيين ولم تحارب كذلك . وهناك قوات عراقية بدأت تتجه الى سوريا والأردن ، ومع ذلك لم تحارب اسرائيل .. وفي اعتقادي ان اغلاق خليج العقبة لن يكون سببا كافيا لكي تحارب » .

ولما حدثت الحرب ، فوجيء بها عبد الناصر .. منلما فوجئت بها القوات المسلحة ، ولم يتحرك الاتحاد السوفيتي لا في اليوم الاول ، ولا الثاني ، ولا الثالث ، ولم يقف اطلاق النار على الجبهتين المصرية أو السورية أو على جبهة الأردن ، الا بعد أن حققت اسرائيل كل ما تريد ، وبعدها حدث أو قارب أن يحدث ذلك ، تحركت الدولتان الكبريان : الاتحاد السوفيتي ، وأمريكا ، وعندما توقف اطلاق النار ، كانت الهزيمة قد تمت تماما لمصر . وخلال تلك الأيام ، كان الشعب المصري ، والشعوب العربية عامة ، تحيا اقصى اللحظات وضراوتها ، فرغم أن الهزيمة كانت واضحة ، فان « الاعلام » كان يكذب ، وكانت « الصحف » تكذب ، و « الاذاعات » تكذب ، و « التلفزيون » يكذب ، ويجعل الجماهير تحيا في شبه « متاهة » ، حتى لما حدثت الهزيمة وأحس الناس بها تماما ، أطلق عليها « نكسة » !!

كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، نتاجا طبيعيا لفكر ما قبل حرب ٦٧ ، فعلى المستوى المادى والاجتماعى والفكرى ، هو الذى أدى الى هذه الهزيمة . عدم وضوح منهج علمى ، عدم وجود استراتيجية جادة ، الخضوع للمنهج التجريبي ، تزيف الاعلام والفكر والثقافة ، الخضوع لقدرات وعنتريات الماضى ، كل هذا عزل مصر عن منطق متغيرات العصر ومستحدثاته ، وكل هذا أيضا ، جعلنا نستخف باسرائيل ، ونحسب أنها ضعيفة ، وأنها هي نفس العدو الذى واجهناه فى حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ ، لكننا فوجئنا بالصدمة الكبرى : اننا نواجه بعدو متقدم ، له استراتيجيته العلمية ،

ومنطقه العسكرية والسياسى العصرى ... وبالتالي ، فوجئنا ، نحن ، أننا خدعنا ، خدعنا بالفكر التجريبي وقدریات الماضى ، وبتأكيدات واهية نابعة من مصالح الدول الكبرى ، ووجهها لوجه وجدنا انفسنا فى اسار الهزيمة .. ١



كتبت صحيفة ال « ديلى ووركر » فى يونيو ١٩٦٧ ، وبعد هزيمة حرب الأيام الستة ، تقول :

« لا أحد ينكر ، لا فى مصر ، ولا فى الشرق الأوسط ، ولا فى العالم كله ، أن هزيمة مصر فى أقل من أسبوع على المستويين السياسى والعسكرى ، كانت لها أسباب جوهرية ونحن عندما ننشر هذه الأسباب لا نمالئ اسرائيل أو نختلف مع مصر ، فنحن نتحرى الحياد الكامل والموضوعية الشديدة فى عرض معلوماتنا ، لأن هذه المعلومات سيُعترف بها التاريخ ، وسيعرفها المصريون أنفسهم ، ربما بعد أشهر ، ربما بعد سنوات ، وفى تقديرنا ، أن هذه الأسباب تكمن فى خمسة عناصر أساسية ، ووفقا للدراسة التى قام بتحقيقها قسم دراسات الشرق الأوسط فى صحيفتنا ، وهى كالتالى :

✳ أولا : الاصرار على الاحتفاظ بوجهة نظر واحدة ، وجسود الفكرة الثابتة ..

بمعنى أن القيادة المصرية ، وعلى رأسها جمال عبد الناصر ، قد اعتمدت على معلومات ووثائق ثابتة عن العدو وعن الوضع بشكل عام ، مما كان له انعكاسه على تحركاتها العسكرية والسياسية . فقد اعتمدت على معلومات مخابراتها العسكرية الناقصة ، والتى كانت تستقيها من مصادر عفوية ، ووفقا للمنهج الكلاسيكى فى المخابرات .. وكان جماع هذه المعلومات مصدرها السفارات المصرية فى اوربا ، وبعض المعلومات الواردة من بيروت وعمان وقهرص .. ولم يكن هناك معلومات مستحدثة عن اسرائيل

التي لم تتطور فقط عسكريا منذ ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ ، بل تطورت أيضا من ١٩٦١ حتى ١٩٦٣ ، ونفس عام ١٩٦٧ كانت اسرائيل ، قد وصلت الى مرحلة عالية من التسليح الحديث الذي يعتمد على اسلحة وآليات متقدمة - هي أحدث تاج وافراز الثورة التكنولوجية المعاصرة . على حين كانت مصر ، تعتمد على السلاح الشرقى ، وفي معظمه سلاح دفاعي ، وحتى هذا السلاح لم تكن مصر قد تدربت عليه تماما ، لأن السوفيت لم يكونوا يسمحون بالاستقلالية للقيادات العسكرية في العمل ، حتى لا يجيء يوم ويستمنون عن خدماتهم (فالسوفيت ، من صالحهم أن تطول الحرب ، ومن صالحهم أيضا ، أن يبقوا في مصر ، قريبا من مصالحهم العسكرية وقريبا من أسواقهم الاقتصادية والفكرية في شمال افريقيا وافريقيا والشرق الأوسط) . وقد بلغ من جمود الفكرة الثابتة في مصر ، ان عبد الناصر ، نفسه ، كان يرفض أى معلومات جديدة ، فهو لديه أفكارا مسبقة ، ولديه تأكيدات من جانب السوفيت : انهم الى جواره يقفون في أى أزمة ، وان قطع الاسطول السوفيتي تتحرك في البحر المتوسط لتعريض مصر وحماية شواطئها اذا ما أقدمت اسرائيل على أية ضربة ، بل وبارك بريجنيف جمال في تصرفاته حيال اغلاق خليج العقبة ، وقال له بالحرف الواحد « هذا يكفي ، الآن ، تكتيكيا ، فاسرائيل من المستبعد أن تنهز ، خاصة وأنها تعلم بموقفنا حيالكم » . وعندما سأل عبد الناصر قوائمه العسكرية عن الوضع ، قالوا له : « كل شيء تمام » .

فقال لهم : « مجرد اطمئنان .. فانا أستبعد أن تقوم اسرائيل بأى عمل »
وفي حديث دار بين عبد الناصر والسفير السوفيتي في القاهرة ، قبل قيام الحرب بأربعة وعشرين ساعة ، سجله « سامي شرف » ، جاء الحوار التالي :

« عبد الناصر : أخشى ان تنهز اسرائيل !

- السفير السوفيتي : لا .. اطمئن تماما . معلوماتنا . تقول أن هذه مجرد مناورات . مناورات فحسب ...

عبد الناصر : نحن غير قادرين على مواجهة أمريكا في الوقت الحالي ، وأنت تدرك ماذا أعني ؟

السفير السوفيتي : بالطبع .. وموسكو على علم واضح بذلك

عبد الناصر : يعني . الوضع مؤمن ؟

السفير السوفيتي : تماما والا لما قلت لك هذا . ان مصالحكم مصالحنا يا سيادة الرئيس . أتذكر مقابلتنا صباح السابع والعشرين من مايو ، في الأسبوع الماضي ، عندما كنتم على أهبة قصف القواعد الجوية الاسرائيلية في ايلات والنقب لجس نبض اسرائيل ومعرفة ما ترمى اليه ... ؟

عبد الناصر : أذكر هذا طبعاً !

- السفير السوفيتي : ماذا قالت موسكو ؟

عبد الناصر : طلبت الغاء هذا الهجوم ، وألغيته على الفور ، وأنت تعلم هذا ...

السفير السوفيتي : لان هذا يعطى مبررا لاسرائيل للاعتداء ، ويخرجنا فنحن لا نريد أن تتدخل بهذه الكيفية ، ولا نريد أن تفرض علينا حرب كونية شاملة . ان رأى موسكو واضح ..

عبد الناصر : أعرفه .. يكفي اغلاق خليج العقبة ، ولا داعي للذهاب الى أبعد من هذا ، ومن المستبعد أن تهاجم اسرائيل ، وحتى اذا حدث وجئت فموقف موسكو معروف ... »

ووفقا لهذا ، وكما نرى ، يتضح جمود الفكرة الثابتة ، التي تعتمد على « أرضيات ستاتيكية » ، لا تقبل متغيرات الظروف ، ولا تضع

الاحتمالات وفقا لمنهجيات علمية .. وهذا - كما يبدو - احدى قسّمات الفكر المصرى فى هذه المرحلة التى أدت به الى مأساة يونيو ٦٧ .

❖ ثانيا : تعدد القيادات واختلاف وجهات النظر داخل القيادة المصرية ... ولا أحد ينكر أن الحرب أو خطورة المرحلة التى مرت بها ، كانت تستوجب مزيدا من الانضباط والتجميع ، وهذا الشئ لم يكن متوافرا لا فى القيادات السياسية ، ولا حتى فى الجيش ، الذى تنازعته عدة أجنحة ، وهذا بدا واضحا أثناء حرب الأيام الستة ، فلم يكن هناك قائد واحد ، هذا الى جانب تعدد الآراء واختلاف الاتجاهات ، مما تسبب فى ضياع الالاف المؤلفة من أبناء مصر ، وكان يمكن حقن دماءهم ، لو كانت هناك حكمة ، أو اتجاه واضح ..

❖ ثالثا : الحرب عمل سياسى فى الدرجة الأولى . فعندما وقف عبد الناصر فى الأسبوع السابق عن حرب الخامس من يونيو ، كان عليه أن يترىث ، وألا يتمادى فى منبرياته وخطبه ونذيره ووعيده ، فمن الحكمة السياسية ألا تكشف أوراقك ، وحتى اذا كان وراء ظهرك أحدث الاسلحة وأشدّها فتكا ! هل تظاهرت اسرائيل ، وهددت ، مثلما هدد عبد الناصر ؟ أبدا ، تظاهرت بالضعف ، وبدأت (كالحمل) الوديع ، وهذا ما أكسبها التعاطف الدولى وهى تحارب وتحقق مكاسبها العسكرية ، وبهذا نرى أن الحرب سياسة فى الدرجة الأولى - المسألة التى تستوعبها القيادة المصرية أبان حرب الأيام الستة وما سبقها من أحداث ..

❖ رابعا : الحرب فن وعلم ، تخضع لمنطق تطورات العصر ، فحرب ١٩٦٧ غير حرب ١٩٤٨ أو ١٩٥٦ ، من حيث فنيات الحرب ، ومستحدثاتها الآلية .. والحرب كما نعلم ليست عددا وكما ، بقدر ما هى استيعابا لمستحدثات آليات الحرب وفن الحرب الحديثة .. ففى زمن تغيرت فيه المدرعات والطائرات والصواريخ ، لم تعد الحرب «حرب مائة مليون عربى» فى مواجهة ٣ مايون اسرايلى . لا .. هذا فهم خاطئ .! كان على القيادة

المصرية أن تدرك تطور المدرعات التي لديها القدرة على الاختراق الخاطف ،
والطائرات المتطورة التي تصل الى سرعة الصوت أو أكثر من سرعة الصوت،
والصواريخ التي ألغت المسافات الغاء كاملا . وكان لابد من الاعتراف ،
وليس هذا استسلاما ، بل منطق السياسى الحكيم ، بقوة اسرائيل وحجم
موقفها العسكرى . كانت اسرائيل متفوقة على مصر فى كافة الأسلحة
تكنولوجيا وفنيا . وكان ذلك التفوق العسكرى أو درجة التكافؤ بين مصر
واسرائيل كانت كالتالى : ١ الى ٩ ، بمعنى اذا كانت مصر تمتلك طائرة
واحدة ، فاسرائيل لديها تسعة ، وقس على هذا ، مع اضافة التطور
التكنولوجى الذى كان فى صالح اسرائيل ، لأنها أدركت أن الحرب عالم
وفن ، بينما فى مصر كانوا يقولون : « اننا مائة مليون عربى ، واسرائيل
قطعة أو شوكة صغيرة داخل هذا الجسد الكبير ، سنبتلعها ، سنغرقها » ،
ونسوا أن شوكة حادة اذا ابتلعها الجسد ، لقضت عليه ، وأما الله ! ليس من
المهم أن تبتلع « الشوكة » بقدر ما هو مهم كيف تتخلص منها ، أو تقضى
عليها ، أو تتلافها اذا لم تكن على استعداد ...!

✽ خامسا : الخطأ فى الحساب ، والتسليم بمنطق القوة والتهديد ،
فى عالم حضارى تحكمه العديد من القيم والأخلاقيات فى الحرب والسلم ..
فمن غير المعقول أن تقف دول أوروبا المتحضرة ، أو حتى آسيا ، أو أفريقيا ،
الى جوار دولة تهدد بالحرب ، وتنذر بالدمار دولة من الأقليات - حتى
لو كانت هذه الأقليات مرفوضة - فماذا يحدث عندما تشاهد عشرة من
الرجال الاقوياء يواجهون شابا أو امرأة ، أو طفلا ؟ ستجتمع أى عدد من
الرجال الأشداء ، لتقف الى جوار (الضعيف) ، وهذا ما حدث فى حرب
الخامس من يونيو . وققت الشعوب المتحضرة الى جانب (الأقلية) التي
تواجه رعبا عظيما يتمثل فى مائة مليون عربى ، وحتى برغم ما أصاب مصر
من خراب وخسائر فى الأرواح ، فان رأى العام العالمى انحاز الى (الأقلية)
لأن نفس منهج الاعلام المصرى ، كان باكاذيبه واخترااته ، يروج لأسطورة

وهمية ، « ان مصر تضرب اسرائيل ، وتحاربها بكل ما تملك ، حتى تقضى عليها ، أو تلقى بها في البحر » .

من خلال التحليل والعرض الذي قدمته صحيفة الـ « ديلي ووركر » فصل الى نوع من الرؤية ، لما كان يدور ، ولما كان يحيط بمنأخ حرب الأيام الستة من ملابسات وظروف فكرية وسياسية وعسكرية .. والذي كان يتابع المعركة عن قرب ، يحس بمرارة ما كان يدور حقا على أرض بلادنا فالأساة الكبرى التي أحسها « المواطن المصري » ، وبالذات « الرجل العسكري » ، انه لم يحارب ، ولم يعط حتى الفرصة ليطلق الرصاص أو يشارك في « حلبة البارود » ، وحكم عليه بالفشل ، تماما كالذي لم يقتل ولم يسفك دما ، وحكم عليه بالاعدام لأنه قتل ! وهذا (المواطن) - أو هذا (المقاتل) ، يذكرني ، حقا ، ببطل كافكا (١) : (جوزيف ك) ، أو بكافكا نفسه ، فهو يشبه بطله الى حد كبير الذي سيق الى المحاكمة ، دون جريمة اقترفها ، أو دون دم لوث به يديه ، وعليه أن يثبت براءته ، فهو مدان سواء أراد أو لم يرد ! كذلك كان « المواطن » - أو « المقاتل » المصري في أعقاب حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ، ممزقا من الداخل ، مهترئا حتى الأعماق ، لأنه لم يمسك بندقية ، وحكم عليه بالهزيمة ، هذا المواطن ، أنا وأنت ، وكل مصر ، بكوا داخلهم ألف مرة وهم يتنفسون أحزان الهزيمة في صمت ، فمن كان يرفع عقيرته ، كان مصيره كمصير بطل كافكا نفسه : الاعتقال ، أو السجن بلا حدود !

وفي تقديرى ، وليس هذا مبالغ فيه ، ان مصر عاشت سجينه منذ حرب يونيو ١٩٦٧ حتى سقط جدار الخوف عن كاهلها ، عاشت سجينها

(١) فرانز كافكا ، هو الكاتب التشيكوسلوفاكي ، الذي ولد في أواخر القرن الماضي وعاش بدايات هذا القرن ، وعاش مأساة وطنه ، وهو يرزح تحت عبء سيطرة الامبراطورية النمساوية - المجرية . وهو من مواليد براغ في عام ١٨٨٤ ، وقد عاصر أحداث الحرب العالمية الأولى وقبيل ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ ، وكتب العديد من الأعمال الأدبية العظيمة ، وكان في مقدمتها (المحاكمة) وكتبها بين عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ .

مرتين : مرة لأنها هزمت ، ومرة أخرى لأنها لم تكن تملك القدرة على مقاومة هذه الهزيمة أو تشارك في اسقاط أغلالها ... !

سبتمبر ١٩٧٠

الأيام الأخيرة من سبتمبر

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ :

الشمس شعاعاتها البنفسجية تتكسر على طرقات ودروب وحوائط البيوت في شوارع القاهرة الواسعة والضيقة ... أوراق الاشجار الصفراء بعد صيف ملتهب تتساقط في كل مكان ... على أرض الطرق ، وفوق العيارات والمركبات ، وعلى رؤوس العشاق الذين ما عادوا يتسمون .. فالكل ينسبون مطرقي الرؤوس ، حزاني ، حيارى ، مهترئى النفوس ، مزقهم أكثر من صيف ملتهب .. ولكن في هذا اليوم ، كانت المدينة صامتة على غير العادة ، وكأنه الصمت الذى يسبق العاصفة ، أو كأنه اللاكلام الذى يسبق الشيع والسكاء والعيول ...

« وقبل أن تأفل الشمس ، وتختفى في ذلك اليوم الريب ، سقطت ورقة .. ومعها سقط رجل عن الوجود ، علت أنفاسه فجأة ، ثم خبا عن الحياة ، بعد أن عاش بيننا أو من عمر الثورة المصرية ثمانية عشر عاما .. وقالت بعض الصحف اللندنية والأمريكية « ان جمال عبد الناصر قد تسلل ائى منطقة الظل ، وانه بعد ١٨ عاما من حكم مصر ، اختفى نجمه ، لكنه سبطل في قلوب العرب بحيا طويلا » ، بينما كتبت مجلة « الصنداي تايمز » : « ان مصر ، والعرب بقددهم لعبد الناصر فقدوا رمزا عظيما ، فقدوا الثورة ، والأمل ، ولا بد أنهم سيعانون بالحزن طويلا على هذه المأساة » ...

« وانطلقت في شوارع القاهرة الصرخات لتعانق السكاء ولتصنع بحرا عظيما من الأحزان العربية الغامضة ، وكان الشعب كله ، أو الأمة بأسرها

كانت تترقب لحظة البكاء فبكت كما لم تبك في حياتها . ما كاد خبر وفاة جمال عبد الناصر يطير الى الشوارع والبيوت ، ويعلنه الراديو والتليفزيون ووكالات الانباء ، حتى خرج الناس في الشوارع والطرق ، ولم تأت الساعة الحادية عشر مساء الا وكانت القاهرة كلها دهعة كبيرة ، تبكى المأساة وتنتحب ، ألما وجرحا ... وكانت الجماهير ، رجالا ، ونساء ، شيوخا وشبابا ، أطفالا وعجائز ، يولولون ، ويصرخون في الطرقات :

مات عبد الناصر !

والكثيرون ، أذهلهم الخبر . بل أصابهم بالصدمة . فلم يصدقوا في البداية ، أن عبد الناصر من الممكن أن يموت كأي انسان . كانوا يعتقدون ، أنه من الممكن أن يسقط نجم من السماء ، ان تخفض الشمس لعام أو أكثر أن يأفل القمر لشهر أو شهرين أو أكثر ، ان يجف نهر النيل .. لكن ، أن يموت جمال عبد الناصر ، فهذا ما لم يخطر ببال أحد أو حسيبانه ، فقد كان عبد الناصر كآله ، أو هكذا استطاع أن ينصب نفسه الها في النفوس ، وخلال فترة هيمنته على الحكم ، ومن الطبيعي أن تأتي للبشر وتقول لهم : الهكم مات ! فيشدهون ، بل يصل بهم الأمر الى أن يعتقدوا أن مسا من الجنون قد أصابك !

كان وقع الخبر على الجميع أليما .. حقا
كان موت عبد الناصر فجعة كبرى .. حقا
الكل بكوه : الكبار والصغار ، الرجال والنساء
الكل بكوه : اليمين ، واليسار ، والوسط .
أشد الناس التصاقا به بكوه ، وألد أعداءه بكوه ، أيضا .
بكى عبد الناصر ، مصر ، والعرب ، وكل الذين تعاطفوا معه في كل مكان من العالم ..
ولم تنم القاهرة ليلة مماته . كانت قطعة كبيرة من الحزن الملتهب ...

لقد شاهدت القاهرة ، وهى تحترق ، ليلة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، لكننى أبدا ، لم أحس بفزع الناس ومخاوفهم واهلهم مثلما أحسست ليلة ٢٨ من سبتمبر الحزين ..

وفى يوم تشييع الجنازة ، تحولت مصر عن بكرة أبيها ، الى دمة كبيرة مرة ، وبحر أحزان هادر بلا حدود ... كل مصر بكته ، وبحرقه ، وكنت واحدا منهم ، بين كل الذين ساروا فى موكب الحزن الغريب ... لماذا .. ؟

سألت نفسى ، كثيرا :

— لماذا ؟ لماذا بكت مصر عبد الناصر بهذه الحرقه ، ولم تبك هزيمتها الأليسة فى حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ؟

سألت نفسى هذا السؤال ألف مرة ، وظل السؤال يلح على طويلا ، ولسنوات ، حتى وأنا أعد هذا الكتاب ، وربما وجدت الفرصة سانحة ، الآن ، لأصل الى بعض الاجابة على هذا « السؤال » الكبير . فهذا السؤال ليس من اليسير الاجابة عليه ، وانت مثلى تدرك معنى هذا .. فالاجابة على هذا السؤال تعنى الاجابة على كثير من الموضوعات التى ترتبط بنفسية وتكوين هذا الشعب العظيم ، الذى عانى الكثير من الويلات والفواجع والظغوط بمختلف صنوفها ... فهذا الشعب العظيم ، عاش المرارة والجرح لأكثر من ستة آلاف سنة ، انه كالسقاء الذى يحمل قربة الماء وينوء بها ظهره المجروح من كثرة الضرب بالسياط وعليه أن يحث الخطى ويمشى حتى لا يضيع « الماء » ، ولا ينسكب .. كان الشعب المصرى المقهور ، المغلوب على أمره ، يحمل هذه (القربة) ويمشى على أرض من الأشواك ، وكان من المفروض ألا يصرخ ، ولا يبكى ، ولا يعترض ، ولا يقول (لا) بل عليه أن يتسهم ويقول دائما (نعم) ... وفى تقديرى ان جمال عبد الناصر قدم مات فى يونيو ١٩٦٧ ، رغم أنه دفن عام ١٩٧٠ .. وفى تقديرى ، أيضا ، ان البكاء الذى كان من المفروض أن يصير انهارا فى ١٩٦٧ ، تأجل الى

موتج جنازة عبد الناصر ... فقد كانت « الجنازة » فرصة عظيمة للانسان المصرى ، والعربى ، فى أن يبكى ، وبمرارة ، وفى حرقة ... ربما لم تبتك مصر هزيمة يونيو ٦٧ ، لانها لم تملك الفرصة للبكاء ، وفوجئت بالأكذوبة الكبيرة ، أكذوبة « الوهم العظيم » و « الفكر الهائل » ، الذى أوصلنا الى ما حدث من مأساة حرب الأيام الستة من يونيو ٦٧ .. ومن فرط المأساة ، ومن قسوة الصدمة ، لم يبك الناس ، فقد كانوا يحتاجون الى الوقت الكافى ليبكوا ، وتسقط دموعهم ... وكانت جنازة عبد الناصر ، فرصة سانحة لهذا البكاء العظيم .. وعبد الناصر ، أول مصرى حكم مصر ، فكل من سبقه من الحكام فى مصر الحديثة ، لم يكونوا من المصريين الخالص ، كانوا من الأرنأؤوط أو الجراكسة أو الأتراك ، وكل العائلة الملكية تنحدر من الأتراك ، ومن قبل العائلة الملكية ، توافد على مصر الكثير من الغزاة الذين كانوا يحاولون طمس الشخصية المصرية ، وعزل الشعب عن الحكم ، لكن عبد الناصر مع زملائه من الضباط الأحرار عندما قاموا بثورة يوليو ٥٢ ، وقضى على الملكية والاقطاع والاحتلال ، وحاول أن يغير من خارطة مصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، عندما فعل ذلك ، ونجح فيه الى شوط بعيد ، فعله أولا من منطلقه هو كفرد ، ك (بطل) ، ثم ثانيا ل (مصر) . فقد كان ينطلق من الفكر البونابرتى ، كسلوك ، وأخلاق ، وتفكير ، وتكتيك .. ف نابليون بونابرت ، عندما عاد من مصر الى فرنسا فى أكتوبر ١٧٩٩ ، أخذ يرقب الأمور عن كثب ، وقال لنفسه « ان الكمثرى أصبحت على وشك النضوج » . فقد أختير فى حكومة القنصلية التى كانت تضم سببب عضو حكومة الادارة فى باريس ، مثلما كانت تضم : كامبا سبببب ، وسبببب ، وديكو ، وكان لكل من هؤلاء القنصالة اختصاصاته ، وكان على نابليون أن يتخلص منهم فى خبث وذكاء حتى ينفرد بالسلطة ،

ويحقق أطماعه ومظامحه (١) .

وهى نفس « اللعبة » ، التى حذا حذوها عبد الناصر ، عندما فام مع زملائه من الضباط الاحرار بالثورة ، تخلص من محمد نجيب ، ثم من كل مناوئيه فى مجلس الثورة ، سواء بالابعاد أو الاقضاء أو بـ (التخلص النهائى) ... وعندما تخلص عبد الناصر من مناوئيه فى السلطة ، ابتداءً يتخلص من مناوئيه داخل البلاد ، أى من المثقفين الثوريين والشعبيين ، على اختلاف مذاهبهم ! ومثلما أعلن بونايرت : « انا أولا ، ثم فرنسا ثانية » ، ونصب امبراطورا فى عام ١٨٠٤ ، وتحرك من منطلق تحقيق حلمه فى تكوين امبراطورية واسعة النطاق على غرار الاسكندر واباطرة الرومان القدماء ، كان عبد الناصر ، يتحرك ، أيضا ، ومن نفس المنطلق ليكون امبراطوريته من المحيط الى الخليج ، بل كان يطمح الى أن تحتوى هذه الامبراطورية بعد ذلك اجزاء كبيرة من دول العالم الثالث ، وبينها قارة افريقيا واجزاء كبيرة من آسيا ! ومثلما قال بونايرت عندما هزم ، فى معارك الروسية الضارية ، وبالدات معركة بوردينو عام ١٨١٢ على يد الجنرال الروسى كوتوزوف ، مسح الدموع من عينيه وهو يجرجر أذيال الخيبة عائدا الى

(١٦) بعد فرار نابليون بونايرت من مصر فى اكتوبر ١٧٩٩ ، ووصوله الى باريس ، اخذ يرقب الأمور من قرب ، وفكر فى احداث انقلاب بالاشتراك مع سيس - عضو حكومة الادارة او حكومة الفناصل ، وفررا فيما بينهما أن يستغلا مجلس الشيوخ ، وكانت الاغلبية منحازة لحزب سيس ، الذى حاول أن يمنع الجميع بنقل السلطة من باريس الى صاحبة سان كلود ، بحجة وجود مؤامرة للقلب نظام الحكم ، واتخذ مجلس الشيوخ قراره هذا فى صبيحة (١٨ برومير) - لذلك سمي ذلك الحدث بالانقلاب برومير (٩ نوفمبر ١٧٩٩) ، وبه ، أو من خلاله ، تكونت حكومة مؤقتة من نابليون وسيس وديكو ، ومن خلالها وضع دستور القنصلية ، ووضعت السلطة فى يد ثلاثة فناصل تساعد القنصل العام ، وهؤلاء الثلاثة هم : كامباسيريس (من اليعاقبة) ، ولبران (من الملكيين) ، وسيس وكان نابليون يخشاه كل الخشية ، ولم يمتضى وقت طويل حتى عرف بونايرت كيف يتخلص منهم واحدا تلو الآخر ، حتى ينفرد بالسلطة ، ومن خلال خطته وتكتيكاته تمكن من تغيير الدستور ، باصدار دستور جديد هو دستور ١٨٠٢ الذى يكفل له الحكم مدى الحياة ويجعل كل السلطات فى قبضته . وفى عام ١٨٠٤ ، توج نفسه امبراطورا على طريفة الرومان ، بحضور البابا ، وبدأ توسعانه كامبراطور يعلم باتساع امبراطوريته !

فرنسا ، قال بونابرت أثناء ذلك : « لقد هزم بونابرت ! » ، ولم يقل : « هزمت فرنسا » ! تماما كان عبد الناصر ، عندما هزمت مصر في يونيو ١٩٦٧ ، لم يقل « هزمت مصر » ، بل قال : « هزم عبد الناصر » ، وتحول الى كتلة من الاعصاب المتوترة ، ولم يستطع أن يكظم غيظه أو يسكت أُنحزائه ، ووصل به الامر الى أن يعلن تنحيته عن السلطة ، هذا في الوقت الذي يعلم فيه علم اليقين أن مصر مهددة بالغزو والاحتلال ، وأنه بين القاهرة واليهود في مواقعهم بالسويس والاسماعيلية ليس أكثر من ساعة ونصف يقطعونها بالسيارات ! لكن حركة ٩ و ١٠ يونيو ٦٧ ، أجبرته على الرضوخ ، وأجبرته على الاستمرار ، على الرغم من أنه كان محزونا على أحلامه ومطامحه التي بدأت تذررها الرياح .. وأمام اصرار الجماهير على « تكلمة المشوار » ، لم يستطع عبد الناصر الا أن يستسلم للرغبة الملحة ، فلم يكن أمامه حل آخر ...

حقيقة ، لا أحد يستطيع أن ينكر أن عبد الناصر ، قد استطاع ، أن يتقدم بمصر على كافة المستويات ، وغير من بنيان مصر الفوقى والتحتى ، وغير من الخريطة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية لمصر ، ونقلها من مجتمع قبلى يعتمد فى علاقاته الانتاجية على الاقطاعية وشبه الاقطاع وقوى الاحتلال والاستعمار الاجنبى الى مجتمع قائم على العلاقات البورجوازية والممثلة للرأسمالية الوطنية وقوى تحالف الشعب التي تعتبر ممثلة بحق لثورة البورجوازية الوطنية ، بل وحقق العديد من المنجزات الوطنية والقومية (داخليا وخارجيا) ، وربما هذا ما جعل الناس ، ييكونه أيضا ، فقد كان مخلصا فى تنفيذ مهامه ... وان كنا نختلف مع منطقه التجريبي ، واغفاله لأهمية الحريات والديمقراطية وفعاليتها فى حماية الثورة الوطنية ، فائنا ، لا يمكن أن نغفل دوره الوطنى المتعظيم ، فقد استطاع السير بالثورة البورجوازية ، خطوات وخطوات ، وتحقيق العديد من منجزاتها الثورية ، لكنه لم يستطع تأكيد الاستقلال القومى وتثبيت دعائم

المكاسب والانجازات التي قام بها، لانزالها عن حركة المد الثورى للجماهير
التي كانت تعاني من القهر في الحريات ولا تمارس شرعيات الديمقراطية
الحقيقية ..

بكى الناس عبد الناصر ، كبطل وطنى ، ورمز ثورى ، صنع الكثير من
المنجزات القومية والوطنية ، وكمصرى وكعربى حكم مصر بعد سلسلة
متوالية من غياب (حكم المصرى) عن السلطة .. وأيضا ، بكى الناس
عبد الناصر ، لتلك (العشرة) الطويلة ، التي قضاها معنا أو التي قضيناها
نحن معه ، ونحن شعب تميز بالوفاء والعشرة ، وليس من السهل أن نودع
حتى (غربا) قد فعل لنا خيرا . فما بالك بعبد الناصر ، الذى فعل الكثير ،
وارتبط بالعديد من الذكريات بالنسبة لمصر منذ طلائع الخمسينات الى
مشارف السبعينات .. وشعبنا ينظر الى العراق ، أو الوداع ، على أساس
انه موات . فما بالك بالموت نفسه ؟ ان الفلاح المصرى فى قرانا ، لا يطيق
فراق ابنه ، عندما يذهب ليتلقى تعليمه فى المدينة أو البندر ، أو ليذهب
ليعمل فى بلد غريب ، وتبكي الأم فراقه وكأنه لن يعود أبدا ، وحتى عندما
يقبل الابن على الزواج ، تبكي الأم وكأنه سينزل عتبات القبر ، تبكيه
فى حرقه بينما الزغاريد تختلط بطلقات الرصاص ، وتهمس الى نفسها
محزونة : (يا حبيبى يا ابنى .. دية آخر العشرة) ١ .. وقد أحس الشعب
المصرى ، بفراق رجل مصرى ، صنع له الكثير ، بل الكثير جدا ، وعاش
فى ضميره وداخله ثمانية عشر عاما ، بخطبه ، بكلماته ، بصوته ، بأفعاله
سجلاته ، بملامحه كلها ، حتى خطواته ، حتى طريقة ابتسامته ، حتى
سخريته فى بعض الأحيان ، ومن الصعب على الشعب أن يحس انه فقد
كل هذا فى لحظة .. فالآباء والأمهات ، بكوا فيه ابنا لهم عمره ثمانية عشر
عاما .. والأبناء ، أحسوا ، بفقده ، أنهم فقدوا آباءهم الذى عاشوا فى كنفه
قاربة العشرين عاما ١ .. ثم أن القدماء المصريين ، لهم فلسفتهم وعقيدتهم
فى الموت والفراق والاعتراب — وهذه الفلسفة ، تمثل مزاجا خاصا داخلنا ،

حتى أن العلامة الألمانية (استندروف) قد قال عنا في ذلك « ان المصريين القدماء ، يحتفلون بالموت ، أكثر من احتفالهم بالدنيا نفسها ، فهم يتزوجون الأرض من خلال المقابر ، بينما لا تمثل الحياة نفسها بالنسبة لهم نصف هذه البهجة التي تجرى في العالم الأسفل - والذي جاءت تعاليمه في كتاب الموتى القديم » .

فنحن نهتم بـ (الموت) ، أكثر من اهتمامنا بـ (الفرحة) ، وقديما ، كانوا سيكون (الفرعون) بدموع غزار ، ولست أدري ، لماذا ذكرتني جنازة عبد الناصر ومصر تشيعه بما قرأته عن مواكب دفن وجنازات الفراعنة الاقدمين ، وبينهم : خوفو ، ومينا ، ورسيس الثاني ؟! بكى المصريون القدماء هؤلاء (الملوك) ، لا لجلالهم أو عظمتهم أو ألبيتهم أو جبروتهم ، بقدر ما كانوا يعبرون في بكائياتهم هذه عن لواعج أحزانهم ومتاعبهم وآلامهم وضغوطهم ... رغم (السخرة) العظيمة ، التي كانت تثقل كاهلهم ، كانوا سيكون (الفرعون) وينتخبون ويدمعون ، ويولولون عليه كثيرا في جنازاته ... كانوا سيكون (الفرعون) والكثير من أجسادهم لا زالت تحمل رائحة السوط أو بعض ادماء المقرعة ، كانوا يكونهم بحرقه ، تماما كما (السيد) عندما يموت في القرية ، يكيه الخدم والحشم والجواري في حرقة ، رغم أن أجسادهم ، بل ونفوسهم ، لم ولن يفارقها ابدا نرب عصيه أو مقارعه أو سياطه ، بل ولم ولن تفارق خدودهم لطبات قبضته ، ولا ضمائرهم ستسنى أفضع الشتائم والسباب التي نالونها منه ! ان الخدم والحشم والجواري ، سيكون (السيد) في حرقة ، أكثر من أهله وذويه ، بل حتى أكثر من زوجته وعياله ، عندما يموت ! ! وفي قرى مصر ، على اختلاف ألوانها وطبائعها ، كان العمال وزراع الارض ، سيكون (السيد) ، الاقطاعي ؛ اذا ما مات ، في حرقة وألم ، أكثر من أهله وعشيرته ، يولولون ويصرخون ، ويضربون الصدور بالاكف بفراقه ، وبذهابه عنهم ، رغم انهم كانوا أكثر من اکتوا بناره وجبروته ! كذلك ، كان احساس الكثير من

شعبنا ، وهو يسير في حزن في جنازة عبد الناصر : البعض يولول ،
 وآخرون يلطمون الخدود ويصرخون ، والبعض اكتفى بالسير مطرقى
 الرؤوس في ألم وكدر وحزن عظيم ، وآخرون انتحروا وتمرغوا في التراب
 والوحل ! لكنهم ، لم يبكوا الهزيمة : هزيمة يونيو ٦٧ ، مثلما بكوا
 (السيد) !

لكنهم ، لم يولوا السقطة : سقطة يونيو ٦٧ ، مثلما ولولوا وصرخوا
 بفقدان عبد الناصر !

ربما لانهم فوجئوا بالهزيمة

ربما لانهم لم يملكوا نفوسهم بعدما كانوا لا يتوقعون حدوثه

ربما لانهم خدعوا بما حدث ، فاصابتهم نوبة من الهستيريا أو
 « العبثية » ..

وربما لأن لحظة « الهزيمة » نفسها ، كانت اكبر من البكاء

وربما لأنهم لم يجدوا (الجنازة) ، الموكب ، ليسكبوا فيه الدموع ،
 ويولون فيه جماعة ، جماعة ...

بل ، الغريب ، أن الاحساس بالهزيمة قد تحول الى نوع من العبثية
 والسلبية ، التي اختلقت بردود فعل غريبة ، تبعث على التساؤل والغموض
 مما جعل الكثيرون ، يتخذون مواقف سلبية ، مما حدث ويحدث ، لأنهم
 أحسوا أنهم لم يشاركوا المشاركة الكاملة فيما حدث ، أو لم يتيح لهم
 (اللعب) ، فلم يحزنون على (الخسارة) ؟ وعلى حد تعبير الكثيرين من
 المثقفين أو حتى عامة الناس « احنا ما كناش في اللعبة . هم حاربوا . وهم
 انهزموا . احنا ما حملناش السلاح . ولا حتى أخذوا رأينا ! » تماما ،
 كما حدث في بداية ثورة ١٩٥٢ ، عندما تحرك الضباط الأحرار ، لم تحس
 الجماهير ، بأنها جزء من هذا التحرك ، وانتظرت كثيرا ، بل وكثيرا جدا ،

حتى تحس بانها (داخل اللعبة) لكنها ، دائما ، كانت تفاجيء بـ (نهاية اللعبة) ! ! بل بلغت المهزلة أقصاها . والسلبية والعيشية ، ذروتها ، عندما كان الكثيرون ينفسون عن أنفسهم بالذهاب الى (ماقشات الكورة) ، أو بالنزعات الهروبية والاغراق في متاهات العاطفة باللجوء الى اغنيات وحفلات أم كلثوم ... والغريب ، ان الاعلام نفسه كان يسجع هذا ، بل ويدفع الجماهير الى اتون هذه السلبيات ، والمهاترات ، بشكل مثير ، واشترك في هذا : التلفزيون والاذاعة والصحافة ودور النشر ، على حد سواء ... الكل ، كانوا يروجون للاكذوبة ، ولزيف ، حتى اقتنعوا ، ذات يوم ، انه حقيقة ! ! فكما يقول الكاتب الفرنسى « اندريه جيد » : « ان ترديد الأكذوبة ، أكثر من مرة ، يقنع مردها نفسه ، بأنها حقيقة ، ويصفق الناس للاكذوبة والوهم ، ويخدعون بها ، لكن ، للأسف ، تظل الاكذوبة أكذوبة ، فالسخافة التى يرددها ثلاثون مليونا من الأنفس ، تظل رغم ذلك سخافة ، ولا شىء يغير من أمرها .. ! » كانت القيادات ، تشجع كل هذا ، وتبرره ، فكريا وسياسيا واعلاميا ، بل ويقولون « ان لندن كانت ترقص ، ولم تهجر المجنون ، وكان الناس يستمعون الى الاغنيات الخفيفة وهم فى الخنادق ، بل كانوا يرقصون ، ويمرحون ، فالحياة لا يمكن ان تتوقف فى ظل الحرب أو فى ظلال لكسة استثنائية » . ونسوا ، أن باريس ، عندما احتلها النازيون ، ماذا فعلت أجهزة الاعلام والمثقفون داخلها ، وماذا كتب اراجوان وايلوار وسارتر عنها فى ذلك الوقت : « نسوا ان باريس لم تكن تأكل القسطل فى الشوارع .. ولم تعد تقوى على الضحك أو الابتسام » ... نسوا كل هذا ، واخذوا يروجون لنوع من « الدعارة الاعلامية » : « مزيد من الكورة ، مزيد من الحفلات ، مزيد من الغناء ، مزيد من الرقص ، ينسى الناس المأساة » ثم ان القيادة ، نفسها ، كانت تحاول أن تضلل الجماهير ، بمحاولة اقناعها ، بأنها لم تهزم ، بل « لكست » .. أى أن ما حدث لم يكن « دما » ، بل « ماء » ، مجرد ان

مصر قد أصيبت بنكسة برد خفيفة ... لكن ، بالله ، عليكم ماذا تسمون أمة قد فقدت خلال سنة ايام من الحرب أكثر من عشرين الف شهيد من الجنود والضباط ؟ نكسة اذن ، ماذا تكون الهزيمة في قاموس الحروب ؟ وعلى هذا ، لم تبك ، مصر ، وأيضا ، لم تبك أبناءها الذين ماتوا بالالاف في سيناء والسويس والاسماعيلية وبور سعيد ، لأن أجهزة الاعلام في الايام الاولى كانت مستمرة في بياناتها الكاذبة الرخيصة « وقعنا ٢٠ طائرة » « وصلوا ٤٥ » ، « اصبحوا ٦٥ » ، « وصلوا الى ٨٥ » ، « أصبح الرقم ١١٢ » ، وهكذا ... كان الكذب ، على مختلف مستوياته ، في السلاح ، في القتال ، في المواقف ، في كل شيء ... ا وبرغم أن الجماهير لم تبك أبناءها في الايام الاولى من حرب يونيو بسبب تضليلات القيادات ، الا أنها عندما تعرفت على الحقيقة ، كل الحقيقة ، بذكائها ، بكتهم في الداخل ، وكان هذا أكثر مرارة ، وأكثر تمزقا ، وأكثر احتراقا ، فما أعظم واكبر ان يبكي الناس في داخلهم ، وما أمر أن تتسلل الدموع الى مكان قريب من القلب وتتكوم في أسى ، وتصيب المرء بنوع من المزق والاهتراء والجرح العظيم ، الذى يصل أحيانا الى حد الصمت ...

لكن هذه الدموع ، ربما وجدت الفرصة ، مواتية ، لتنفجر في (جنازة) عبد الناصر ، فهي (الفرصة السانحة) للبكاء ، وهو (السيد) ، وهو (السبب والعلة) ، ثم ان الناس اصبح في مقدورهم ان يبكوا بلا خوف ، فمن كان يدرى ، ربما كان البكاء في ١٩٦٧ ، وخلال يوليو ، نتائج عظيمة وكبيرة ، ربما قادت البكاء الى السجن أو الاعتقال ، من كان يدرى ؟ هل تذكر هتلر ، هل تذكر هيمنته على الامور ، وديكتاتوريته الفردية القاتلة ، ان أول شيء فعله الناس عندما عرفوا أنه مات ، اشعلوا سجاائرهم واخذوا يدخونها في بحبوحه ، الا يعنى هذا نوعا من الحرية ..

نفس الشيء مارسه شعبنا ، بكى ، بحرية ، أيضا ، دخن أحزانه كما ينبغى وبلا مخاوف فقد مات (السيد) ... ا

بكت مصر عبد الناصر في جنازته ، أو بكت مصر في خريف ١٩٧٠ ، وكان من المفروض أن تبكى عبد الناصر في يونيو ٦٧ .. فكما قلت ، أن بكاء مصر على أبنائها قد تأخر ثلاث سنوات ، مثلما تأخر دفن عبد الناصر ، أيضا ثلاث سنوات ، فقد مات في أعقاب الهزيمة ولم يدفن ، مثلما مات الأبناء وتأخر البكاء والحداد على أرواحهم الطاهرة .. ثلاث سنوات من الجرح العظيم ، عاشتها مصر ، في ضراوة ، بلغ خلالها الحزن قمته ، والهزيمة درونها ، وأحس المصريون أنهم يتساقطون من الداخل مع تساقط أوراق مصر في الخريف بعد صيف قاسى وكان البكاء والويل والحزن والدمع ، تجسيدا وتعبيرا عن مأساة شعب بأكمله عاش القهر ، عاش المعاناة ، عاش الضغوط ، عاش السجون والمعتقلات والارهاب والتنكيل ، وحرَم من حرياته وديمقراطيته ، ولم يجد حتى الحرية ليبنى مأساته من كثرة التخمة بالعذاب والآلم والجراح ، ولأنه لم يجد الفرصة ليتنفس الصعداء من غناء الضرب والتنكيل ، كالتسقاء الذى يحمل القربة ولا يملك أن يريح نفسه من (السيد) ، أو من ضياع الماء ...

في القرية ، يفولون .. لقد سقطت جاموسة أبو سويلم في البئر ، في الدالتون ، ومات طفل أبو سيد في طوخ دلكه ، ومرضت فتحة في مزغونة بالحمى ، وغرقت ست أبوها في ترعة الباجورية أو القاصد .. بل وحرقت أجران القمح في دنشواي .. بل وفقدت شون القمح بكاملها في صندفا الفار بينى مزار ، لكن الناس ، أبدا ، لم يبكوا ، فقط ، أصابتهم الصدمة والدهشة والصمت .. فقط ، بكوا ، عندما لفظ (السيد) أنفاسه ، وغاب عنهم .. والسيد ، فارس من بني مر ، من أقاصى الصعيد ، خيال يجيد اللعب ويحاول أن يكون عادلا ، لكنه أبدا ، لا يريد أحد أن ينازله أو يناقسه ، وإذا أحس بذلك ، (اصطاده) في عتمات عيدان القصب أو الذرة في عتمات أغسطس ، وغيبة عن الوجود ، وحتى لو أدى الأمر الى أن يحرق شونه وأجرانه ، فهو لا يريد أن يناوئه أحد ولا يعنى هذا انه ليس فارسا ، انه

فارس بونا برتى أصيل ، يجيد ركوب الجياد ، لكنه لا يريد منافسا ، ولذلك لا يتردد أن يفعل أى شىء من أجل أن يقضى على مناويله .. حتى لو احترقت الأجران الكبيرة والشون الكبيرة فى مصر .. لا يهتم ! فقط يصاب بالحزن والخزى ويردد : لقد ولى عهد الفروسية ، وهزم الفارس ، ما بال الزمان .. ! ؟ واحترقت مصر فى صيف ملتهب من عام ٦٧ ، وهزمت هزيمة نكراء .. كل شىء هزم ، الفكر ، الثقافة ، الثورة .. المثقفون تم تدجينهم ، الثوريون تم خصيهم ، الأزمات والندامات والولولات باتت من قسّمات مصر فى منتصف الستينات وما أعقبها من سنوات المرارة .. لكن المصريين ، لم يبكوا ، فقط ، بكوا ، عندما مات عبد الناصر فى خريف ٧٠ ، وساعتها ولولوا ، ومزقوا الثياب ، ولطموا الخدود . .

بكت مصر ، كل شىء فى جنازة عبد الناصر : الأمل ، والحلم ، والوهم ، والأكذوبة .. الثورة ، والطموح ، والخديعة ، والجراح .. بكت نجاحاتها التى تحققت ولم تكتمل ، وشتات ومزق هزيمتها التى أوصلتها اليه الأكذوبة والوهم والخديعة ..

بكت الأحلام الوردية والأزهار السامة . بكت الأزهار المتفتحة والحيات التى سعت لتذبل هذه الأزهار بهزيمة ١٩٦٧ .. وبكت مع كل هذا أسرارها الغامضة الحزينة التى لم تكشف عنها .. كانت مصر كايّيس التى بكت فقد أوزريس وتمزق أشلاءه ، فكانت من دموعها نهر النيل — ذلك الحزن ، أو الفرح الغامض ، الممتد ، على ضفتيها منذ آلاف السنين .. قال هيرودت ، ان مصر هبة النيل ، وقال آخرون أن الثورة ، هبة عبد الناصر .. وأنا أقول أن مصر دمة ايّيس الكبرى ، وان الثورة أوصلها عبد الناصر الى دمة كبرى فى يونيو ٦٧ بانعزاله عن الجماهير وبضربه للحريات والديمقراطيات الشعبية .. !

ألم تقل الأسطورة الفرعونية القديمة . ان ماء النيل ، ومصر ، وخصوبتها ، وعطائها ، كان من دموع ايّيس ؟ كذلك ، كانت مصر وهى

تبكى ، وتلول في الشوارع باحثة عن شتاتها ومزقتها وجراحها ، تستجد
تبكت ، تبكى خريف ثورتها ، تنوح أوراق سبتمبر الصفراء ، وقد كان
هذا البكاء ، بمثابة نذير ، واستشراف وبحث عن خلاص من الجرح الذي
منيت به مصر ، وظل ينزف سنوات وسنوات بالمرارة والحنظل والصديد ..
وتردد الحزن ، واكمل في جملة ، ثم في شعار ، ثم في مسيرة ، ثم في
تجمع للصوف : « حانكمل المشوار » .. أى أن المسيرة لن تتوقف ، بفقد
(فارس) ، أو بسقوطه عن الجواد ، بل ان فارسا جديدا ، سيبدو في الأفق
تفرزه طبيعة المرحلة ، لأن قيما عظيمة ونبيلة لا زالت تدب وتردد ، وتنمو ،
ونمتد داخل هذا الشعب ، الذي يقف على أرض حضارية يزيد عمرها عن
سنة آلاف سنة - وهذه « الأرض » ، قادرة ، دائما ، أن تعطي أخلص
وأخصب وأبل ما فيها من قيم وأفكار ومعتقدات .. وهكذا ، بدت الدموع
وليست نهاية ، بقدر ما هي بداية .. بداية للاغتسال والتطهر من جراح
الماضي ، واستشراف لغد مشرق ، يفتح الطريق امام مصر لتتجاوز هزيمتها
ولتمضي الى ما يغوضها عما حدث ، بل يقفز قفزات كبرى الى الامام ،
وعندئذ تعود الروح لتحرك الجسد الهائل ، ليعطي ويعطي قدراته ومكنوناته
التي لا تقف عند حد .

كانت الهزيمة في يونيو ١٩٦٧ ، مفاجأة ، وصدمة ، لكن موت عبد
الناصر وتشيع جنازته بعد هذا بثلاث سنوات ، كان قمة الأزمة وذروة
الجرح . اهتزت مصر كلها ، في دمة عظيمة ، امتدت عبر قرانا وتفورنا
ومدنا ، مثلما امتدت الى كل أرض عربية ..

الخوف ... !

كان الخوف .. هو كل شيء !

النظر الى الكتب ... خوف ! أن تمتد يدك لتقرأ ماركس ، أو هيجل
أو ماوتسى تونج ، أو لينين ، أو جاكسون ، أو ليو شاوشى .. أو حتى
جوركى ، أو شولوخوف ، أو جاك لندن ، أو فوتشيك ..

خوف !

النظر الى الأصدقاء .. خوف !

النظر الى ما يقال حولك والاستماع اليه .. خوف !

النظر الى رئيسك فى العمل ... خوف !

النظر الى القمر .. خوف !

النظر الى الشمس .. خوف !

لا تنظر وراءك ، حتى ولا أمامك ، حتى لا تغضب (النظام) ! العيون
تلاحقك ، أينما حلت وأينما ذهبت .. التليفونات تراقب وتسجل المكالمات
على أشربة .. وسواء كنت طالبا فى الجامعة ، أو موظفا فى مؤسسة ، أو
عاملا فى مصنع أو شركة ، أو حتى وأنت عضوا فى مجلس الأمة أو داخل
التنظيم السياسى ، كانت التقارير تترى وتكتب عنك .. ويكفى أن ترفض
(سلوكا ما) ، أو تقول كلمة (حريات) ، أو تقول كلمة (ديمقراطية) ، أو تطالب
بحرية الصحافة ، أو تطالب برفع الأحكام العرفية أو الظروف الاستثنائية ،
فترتفع كمية التقارير عنك ، ويقال عنك : (يسارى) ، أو (شيوعى) ، أو ..
وهذا الخوف ، قد يصل بك الى أن يطرق بابك (زائر الفجر) ، ويقول لك :
« أفت مطلوب .. يا دوب كلمتين ، وترجع » ، وتفتش شقتك ، بدون اذن ،
أو بدون حرمة لأى شيء ، ثم يصطحبوك الى « شارع خيرت » ومن هناك
« ترحل » ، الى احدى السجون والمعتقلات ... ربما معتقل أبو زعبل ، أو
القلعة ، أو ليمان طرة أو سجن مصر أو القناطر ، وربما الى معتقل المحاريق

بالواحات الخارجة في الصحراء الغربية ... ومن يدري ، هل تعود بعد عام أو ثلاثة أو خمسة أو أكثر ؟ من يدري ؟ .. !

فالكثيرون ، لم يعودوا .. وتوهمتهم مكارثية الخمسينات والستينات في عتبات النسيان أو في قبر من القبور .. وبينهم « شهدى عطية الشافعى » الكاتب والصحفى ومفتش اللغة الانجليزية الذى ناضل وكتب العديد من الدراسات والكتابات الوطنية البارزة ، وبينها كتابه « تطور الحركة الوطنية المصرية : ١٨٨٢ - ١٩٥٦ » ، والذى يعرض لتطور الفكر القومى والحركة الوطنية في فهم واع .. أو « محمد عثمان » ، الذى لقي حتفه من جراء التعذيب .. و .. و ١١١٠ عشرات ، بل ومئات ، كانوا يضربون على أدمغتهم وظهورهم وبطونهم بالعصى والهرات ، أو يعلقون في « العروسة » ليجلدوا بالسياط حتى تنفصد ظهورهم دما !

وقد أخذ هذا « الخوف » ، الكثير ، بل والكثير جدا من أبناء مصر ، ومن عمرها الوطنى .. وذلك إبان « المرحلة المكارثية » ، التى سادت مصر في الخمسينات والستينات ، الى أن سقط جدار الخوف بحركة التصحيح في ١٤ و ١٥ مايو من عام ١٩٧١ .



كانت تجربة « الناصرية » - أو المرحلة السياسية والفكرية والاجتماعية التى سادت مصر في الخمسينات والستينات ، على المستوى الايديولوجى وفي الممارسة العملية ، تجربة متميزة ، تفردت بخصائص وقسمات واضحة ، حتى أنه يبدو من الصعب مقارنتها بتجارب البورجوازيات الوطنية التى عاصرتها .. مثلا ، لا يمكن مقارنتها بتجربة اندونيسيا وحكم سوكارنو ، ففى أندونيسيا كان الاتجاه « متفاهما » مع الغرب الى حد ما ، وكان رأس المال الأجنبى ، يجد مكانا عاليا له في أرجاء البلاد ، كذلك ، لم يضرب الاقطاع بشكل نهائى في الريف .. بينما تميزت البورجوازية الوطنية بالاستقلال وعدم الانحياز ، والوضوح في السياسة الخارجية « لاغربية » ..

ولا شرقية» ، هذا الى جانب قيامها بتحقيق منجزات الثورة الوطنية ، التي استطاعت ان تسير بمصر خطوات متقدمة على كل المستويات ، ولولا غيبة الحريات والديمقراطية ، لكانت هناك امكانيات أوسع لمزيد من التفجرات الثورية ولما عانت الثورة ما أوقعها في تيار الانحسار الذي أوصلها لظروف ١٩٦٧ (من هزيمة في الداخل ، وفي الخارج ، أيضا) ، ولما افتقدت السياج الشعبية التي كان من الممكن ، لو أفسح لها المجال لشاركت بوعيتها الناضج في حماية المكاسب والمنجزات الوطنية الى أبعد شأ . وعندما تعرضت التجريتان : التجربة الأندونيسية ، والتجربة المصرية ، للامتحان القاسي ، أثبتت المواقف قدرة التجربة المصرية على الاستمرار ، رغم ما منيت به من ظروف ضارية أوصلتها الى حرب الأيام الستة وظروف هزيمة ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات مريرة ، بينما التجربة الأندونيسية انحسرت وتقوضت تماما . . .

والناصرية ، كفكر وعمل ، كعقيدة وممارسة ، كانت نطلق من الفكر التجريبي ، الذي لا يعتمد على منهجيات واستقراءات عامية ، رغم ان شعارات الناصرية كانت دائما تنادى بالعلم وهذا ليس بغريب ، فكل الفكر المثالي كان في شعاراته ينادى بالعلمانية ، رغم أن منهجه وفكره يعتمدان أساسا على المنطق الشكلي والاغراق في متاهات تبعد عن النظرة العلمية في تفسير معطيات الوجود وفي علاقة الانسان بالاشياء من حوله . وهذا الفكر التجريبي ، الى جانب الخط الماكارثي الذي أبعد تطبيقات ومنجزات الثورة عن حركة الجماهير والمثقفين الثوريين ، الى جانب سيطرة العديد من العناصر والقيادات الانتهازية على مواقع الفكر والاجهزة الاقتصادية والسياسية والعسكرية .. كل هذا قاد البلاد الى الحالة التي أوصلتها الى يونيو ١٩٦٧ .. الى الفكر الانهزامي والظروف الانهزامية التي عاشتها مصر بعد حرب الأيام الستة من يونيو ، وعاشتها كذلك الأمة العربية ، الى أن قامت حركة التصحيح وقادت البلاد الى الفكر الذي انتصر ، وكانت نتائجها حرب أكتوبر التي غيرت لا مصر أو العرب سياسيا وعسكريا وفكريا ، بل

غيرت الخريطة العربية حضاريا في الداخل والخارج ، وكان هذا التغيير منطلقا للتصحيح على كافة المستويات : عسكريا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، وفكريا واعلاميا ، وفي اطار الانطلاق والتغير الذى تم فى ميزان علاقة مصر بالعالم الخارجى ..

ان الفكر التجريبي والمثالى ، المبني على التقديرات ، والروح الفردية والنظرة المكارثية ، هو الذى قاد مصر والمنطقة العربية الى ظروف الانحدار والهزيمة ، بينما الفكر العلمى الذى تمثل معطيات العصر وأطلق من أرض منهجية موضوعية واستوعب كل متغيرات عصرنا هو الذى قاد الى انتصار أكتوبر وما أعقبه من انتصارات ومنجزات وطنية وديمقراطية وثورية — هذا الفكر الذى انطلق مع ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والذى قاده أنور السادات ، والذى سمي فى البداية « بحركة تصحيح » ، لكنه فى الحقيقة « ثورة » على كل الأوضاع ، فكرا ، وعملا ، يستهدف السير بمصر الى دولة العلم والايمان ، من أجل مساهمة متغيرات العصر حضاريا وفكريا وسياسيا ، لتحقيق الرخاء والرفاهية والعدالة للإنسان المصرى ، لذلك نسميه بـ « ثورة التصحيح » ، ومن منطلق هذه الثورة قامت مصر من « كبوتها » ، وغيرت واقعها على كافة المستويات ، ودخلت معارك أكتوبر الضاربة فى ١٩٧٣ ، وحققَت المهام العسكرية الكبرى والتى من خلالها استعادت مصر روحها ، وعبرت الى نفسها من جديد ، وقامت لتبنى ، وتشييد ، وتعوض ما فات على كافة المستويات (فى الداخل ، وعلى المستوى القومى ، وفى اطار العلاقات الخارجية) .. وتشارك فى كل منجزات العصر كدولة متحضرة ، تنجز مهام ثورتها ، لتحقيق مهام ومنجزات الثورة الوطنية الديمقراطية فى الداخل ، ولتحل تناقضات القضية العربية والتى كانت سببا فى التهايب الشرق الأوسط منذ حرب ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣ ، ولتوسع من رقعة وحجم علاقاتها مع العالم على أساس من التعاون السليم ، ولتشارك فى حضارة عصرنا فكريا وعلميا وسياسيا وتعوض ما فاتها نتيجة الظروف غير الطبيعية التى عاشتها مصر قبل مايو ١٩٧١ ..

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
84

الفصل الرابع

النصحيح : حركة اجتماعية وسياسية .. أم ثورة شاملة ؟

((هناك فرق بين حركة اجتماعية ، او حركة فكرية ..
وبين كلمة : (ثورة) .. والفرق كبير ، فالحركة الاجتماعية
او الراديكالية تتسم بالاصلاح العادى ، او التغيرات الطفيفة
على حين ان الثورة تغير كامل فى البنيان العلوى والتحتى
للدولة ، تغير فى علاقات الانتاج المادية والاقتصادية ، وتغير ،
ايضا فى البناء الفوقى ، فى مجال الفكر والثقافة والعلم ، وهذا
التغيير ، من شأنه ان ينقل الناس من مرحلة متخلفة ، الى
مرحلة متطورة اقتصاديا وفكريا وحضاريا .. من خلال هذا
نسمى ما يحدث : ثورة ..))

الكاتب والمفكر الفرنسى : هنرى لوفافر

أربع أو خمس سنوات بعد هزيمة حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ، عاشت مصر فترة من أكثر فترات عمرها ظلاما ، على كافة المستويات .. فقد كانت « الهزيمة » تسرى وتسلل الى كل نفس . فقد فجعت مصر في كل آمالها ، وما كان يتردد من أحلام تبخر وانحسر ، وسادت فترة من الضبابية وعدم وضوح الرؤية جعلت الناس يتساءلون : الى أين ؟ وجعلت الكثير من المثقفين ، يتساءلون : أين الطريق .. من جديد ؟ وانقسم المثقفون على أنفسهم الى عدة تيارات ، تنوعت واختلفت على حسب جذورها الفكرية والاجتماعية . وكانت التيارات التي تمثل مرحلة ما بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، على النحو التالي :

❖ أولا : تيار رافض ، لكل ما حدث ، لأنه على أساس غير علمي ، فقد كان كل شيء يتحرك وفقا لتجريبية بحتة ، وكان هذا التيار تمثله الاذهان الشريفة ، التي كانت تنادى قبل عام ١٩٧١ ، بأهمية الاستفادة بالتغيرات وبالعصر ، لاقامة مصر من جديد ، والتخلص من سنوات الهزيمة ، وكان لا بد لهذا التيار من القيام بعملية تطهير واسعة للتخلص من كل العقليات التي قادت مصر لهزيمة ١٩٦٧ ، حتى يمكن استعادة مصر عن خلال الفكر الصحيح ، وقد أفرز هذا الفكر ما حدث في ١٥ مايو ١٩٧١ .

❖ ثانيا : تيار يشكك في كل شيء ، ويحاول أن يبرر ما حدث في ١٩٦٧ ، على أساس أنه خطأ ما ، وكان هذا الخطأ يلقي أحيانا على كاهل السوفيت ، وتارة على العصر نفسه ، وكان هذا التيار يحاول أن يروج لأفكار تنطلق من ان مصر بلد متخلف وبينها وبين العالم المتحضر مئات السنين ، فافاق السبعينات يحيها العالم ، بينما مصر متخلفة في كل شيء ، وأن ما حدث من هزيمة علينا أن ندركه ، وتجاوزة . وكان هذا التيار

يصعب المسائل ، ودائما ، يضع مصر في طرف استحالة القيام قبل سنوات عديدة ، ودائما ، بروج لأفكار الغرب في عالم التكنولوجيا وثورة الصناعة المتقدمة ، وكانت شعاراته أو كلماته تنحصر في .. « أننا شعب يحسن بناء الحضارة ، وهذا تكوينه وملكاته .. ولست أعرف لماذا يكون هناك تعارض بين شعب بتقن بناء الحضارة ويحسن الدفاع عنها في نفس الوقت! » ...

« وبيننا الكثير لكى نلحق بفلسفة الصراع بالقوة ، لكى نظل دائما ضعاف .. ودائما ، كانت هناك عراقيل لكى نلحق بالعصر » .. « نحن مائة مليون عربى ، وهم ثلاثة ملايين اسرائيلى ، ولكى يكون الحساب دقيقا ، فان المائة مليون عربى ليسوا كلهم فى الميدان أو وراءه ، كما أن الثلاثة ملايين اسرائيلى ليسوا وحدهم فى الميدان أو وراءه .. جزء كبير من حشدنا بعيد عن المعركة ، ووراءهم حشد هائل من حركة الصهيونية العالمية ، كما أن وراءهم تأييد من قوة الاستعمار العالمى » .. « ان التفوق التكنولوجى الاسرائيلى أمر لا ينكره أحد ويجب أن نسلم به ، ولا يجدى انكاره ... وامام هذا يجب أن تتغير .. اما أن نجارى تفوقه ، وأما أن نتلاشى أثر هذا التفوق » . وكان يمثل هذا التيار بوضوح مجموعة محمد حسنين هيكل ..

ثالثا : الناصريون .. أو ما يطلق عليهم باتباع الفكر التجريبي ، وهؤلاء فى تقديرى يسرون وفقا لمرحلة انتهت واستنفذت متطلباتها ويحاولون بشكل أو بآخر ارتداء « قميص عبد الباصر » ، وفكر عبد الناصر وانتصاراته لا ينكرها أحد ، لأنها تمثل جانبا هاما فى حركة التحرر الوطنى من جهة ، وفى دلالات دعائم تثبيت الاستقلال القومى وتأكيد على المستويات الاقتصادية والسياسية والفكرية . ومن ينكر عبد الناصر ومرحلته ، انما ينكر المكاسب التى حققتها الثورة منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ .. وهناك فرق بين التمسك بمرحلة معينة والوقوف عندها وتجميد حركة التاريخ ، وفرق بين رؤية ايجابية وسلبية المرحلة التى انتهت لتجاوزها ، بتعميق الايجابيات ، والاستفادة من السلبية ، للعبور الى مرحلة أكثر نضجا وأكثر تطورا .

❖ رابعا : اليسار التقليدى .. وهم فلول التنظيمات القديمة ، التى لازالت ترى فى النظرية الماركسية - اللينينية طريقا للانتقال الى الاشتراكية ، وتتخذ من المادية الجدلية والمادية التاريخية جسرا أساسيا لتفسير كل شيء وتحديد استراتيجية عامة للمستقبل .

خامسا : بقايا الاخوان المسلمين ، وهؤلاء يرون أن الطريق الوحيد للخلاص هو الثورة الاسلامية ، ولا يمكن استعادة مصر الا بالعودة الى قيم ومعتقدات الفكر الاسلامى منها وفكرا وواقعا ، وكل ما عدا ذلك انما يعتبر خروجا ومروقا وانصياعا الى كل ما من شأنه أن يهدم الشرق الاسلامى ..

سادسا : اليمين المصرى .. وهؤلاء عدة أجنحة ، منهم الذين ينتمون الى فلول الأحزاب القديمة ، ومنهم من ينتمى الى أفكار ليبرالية ونظريات ترمى الى الاقتصاد الحر وأفكار اطلاق رأس المال وتوسيع قاعدة الرأسمالية الوطنية « دعه يعمل .. دعه يمر » ...

ويضم هذا اليمين - أيضا - مجموعات من الأتلةجنسيا المستنيرة ، التى تتميز بسعة العقل والافق الكبير ، وما يمكن تسميتهم بـ « فئة المثقفين المستنيرين » .

❖ سابعا : اليسار الجديد .. وهم من الشباب ، الذين تأثروا بمظاهرات وموجات الشباب وفوراته ، التى قامت فى أوروبا فى أعقاب ١٩٦٨ ، نتيجة لأفكار هربرت ماركوزا ودوتشيكا فى ألمانيا الديمقراطية . ويطلقون فى أوروبا على هذا اليسار : « اليسار العلمى » أو اليسار الجديد ، وهو يختلف ، تماما عن « اليسار التقليدى » ..

وأى مجتمع بحكم الطبيعة البشرية ، يحتاج الى معيار ثابت ، يشكل ويشارك فى تكوين السلوك اليومى فى الممارسة : أى قالب ، أو شكل ، يتلاءم مع متطلبات العصر والواقع الذى يحياه الانسان فى مجتمع ما . والبشر عموما يحاكون ، فى سلوكهم اليومى هذا « النموذج » ، ويصبح من الصعب ، بل ومن المحال أن يخرجوا عنه ، فهو يرتب لهم سلوكهم ، ويكون لهم

عادات وتقاليدهم تريحهم نفسيا ، فماذا لو استمروا في وضعهم العادى ، دون أى تغيير ؟ انهم يسيرون الى مجتمع نمطى بحت ، لكن طبيعة البشر أن يتغيروا الى الأكل ، ومن خلال تمثل قيم جديدة وأفكار جديدة من خلاصة أفكار العصر ، دون العقائدية أو التزمّت أو عبادة عقائدية ، ويتحول الواقع الى شباب دائم ، وهكذا تقول شعارات ماركوزا ، وهكذا تنادى شعارات شباب العالم اليوم ..

هذه هى الأفكار ، أو التيارات العامة ، التى ميزت الفكر المصرى فى أعقاب ١٩٦٧ ، وكانت كلها تحس بنوع من الضبابية والشتات والتمزق ، نتيجة الحدث الكبير الذى جعل الناس يحسون بالوهم الكبير الذى عاشوه طويلا ، فكل شئ حولهم وهم وزيف .. مجرد شعارات .. مجرد كلمات جوفاء .. والحقيقة أنهم هزموا ، وعليهم أن يقاوموا الخوف والتسلط والقهر ، ليتجاوزوا اللحظات المريرة ، ليسيروا من جديد ..

لكن السير يحتاج الى ملامح الطريق ، حتى يبدأ الانسان أولى خطواته والسير فى طريق الألف ميل ، يبدأ بخطوة ..

لكن هذا يحتاج الى تبديد العتمة ، وإثارة الضباب ، ووضوح الرؤية .. وهذا ما كانت تبحث عنه مصر وسط سنوات المارّة والضياع : سنوات الهزيمة القاسية ..

بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ مباشرة ، بدأت طلائع « التنظيم السرى » ، تتضح داخل المجتمع المصرى . ورغم سريتها الكاملة ، إلا أن تحركاتها كانت واضحة . وكان يشرف على هذا التنظيم : على صبرى ، وشعراوى جمعة ، وسامى شرف ، وعناصر أخرى من مراكز القوى التى أنهى الرئيس أنور السادات وجودها تماما بثورة التصحيح ..

وقبل أن يمر عام على هزيمة ١٩٦٧ ، عقدت المحاكمات الأولى فى القاهرة ، لتحاكم « بعض الرؤوس » الذين كانوا فى نظر القيادة هم الأسباب

الرئيسية في الهزيمة - أو النكسة كما كانت تسمى في ذلك الوقت ١٠٠ وكان ذلك الوقت ، هو فبراير ١٩٦٨ ، وعلى أثر هذه « المحاكمات » مباشرة ، فامت مظاهرات الطلاب في مصر ، وكانت شعارات المظاهرات تردد بطلب الرؤوس الأساسية في هزيمة مصر ، كانت تطالب بالرؤوس الأولى التي كانت سببا في ضياع مصر ، وكانت هذه المظاهرات التي بدأتها كلية الهندسة بجامعة القاهرة تنفي التهم الأساسية عن « محمد صدقي محمود » وعن الغول - أو « عوض الغول » .. ثم تطورت هذه المظاهرات الى ما عرف بمظاهرات مارس - أو « مظاهرات الربيع » ، هدم المظاهرات التي طالبت بإعدام الجناة الحقيقيين ، وقيل يومها ، أو تردد بين صفوف الشعب ، أن الذين أعدوا هذه المظاهرات من التنظيم السري ، وكان عبد الناصر في ذلك الوقت خائفا ، لدرجة أن السفير السوفيتي في القاهرة عرض عليه أن يضع تحت تصرفه طائرة خاصة تنقله الى خارج مصر ، لكن عبد الناصر رفض واستنكر العرض ، رغم مخاوفه من المظاهرات ١

تري ، لماذا قدم السفير السوفيتي هذا العرض لعبد الناصر ؟ هل كان عرضا شخصيا وتصرفا فرديا ؟ لا أعتقد ، فالسفير السوفيتي يتلقى أوامره من موسكو ، ولا يستطيع التصرف بمحض إرادته لأنه عضو في الحزب الشيوعي ، فهو ينفذ تعليمات اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي بالحرف الواحد ١ ألا يدعنا هذا تتساءل ونستفسر عن السبب .. وهل يمكن أن يمر هذا « المطلب » بسرعة على المرء ، وفي ظروف كالتى كانت تمر بهامصر؟ في فبراير ومارس ١٩٦٨ ، وبعد أقل من عام على هزيمة حرب الأيام الستة من يوليو ١٩٦٧ ؟ هل كانت موسكو تريد التخلص من عبد الناصر ، لأنه أصبح على حد تعبير « الناشونال جارديان » (١) : « ورقة محروقة » ، لأنه استنفذ تماما ١ » ، ولأنها كانت تمهد طريق الحكم أمام مراكز القوى التي تحركت في تلك الأيام وعلى نطاق واسع مكشوف من خلال التنظيم السري .. ؟

(١) صحيفة الناشونال جارديان : إحدى الصحف الأمريكية التي تمثل اليسار الأمريكي ، أو ما يطلق عليه ب : الجناح اليساري .

الرجعية .. بلا حدود .

الرجعية .. لا يمكن فهمها إلا من خلال تصور ديناميكي لطبيعة
المعوقات التي مرت على المجتمع المصري ..

قبل ١٩٥٢ .. كانت هناك تنظيمات سياسية عديدة ، لا تعبر عن آمال
الشعب ، بقدر ما تعبر عن مصالح وفئات وطبقات ضيقة ، وكل تنظيم من
هذه التنظيمات ، له شكله الخاص ، وتاريخه الخاص . ولعل تنظيم «الايخوان
المسلمين» مثلاً ، من أغرب هذه التنظيمات ، وفي واقع أمره كان أكثرها
رجعية ، لأنه كان أكثرها عداء لكل تطور حقيقي ، أو أى تقدم يحرز
الشعب . ومن الملاحظ ، أنه بدأ من الأزمات التي مرت بها الأمة كحل
ديماجوجي . فقد بدأت الفكرة مع أزمة العشرينات ، وبدأ التنفيذ الفعلي
مع أزمة الثلاثينات ، وتوسع مع أزمة الأربعينات ..

طبيعة ارتباط التنظيمات بالأزمات ، تذكرنا بالتنظيمات الفاشية في أوروبا
فقد بدأت هذه التنظيمات ، خلال الفترات التي عجزت فيها « الأحزاب
التقليدية » عن الاستمرار ، وك محاولة لـ (سرقة) المبادرة من الأحزاب
الاشتراكية وتبأمل الفاشية - في ألمانيا ، وإيطاليا - أكثر ، يتأكد لنا
فاشية تنظيم كا (الايخوان) ، فهم يعتمدون على الزعيم الملهم ، الذي لا يخطئ
بل اننا اذا تأملنا الصفات التي كانت تغدق على قادة (الجماعة) ، لوجدناها
تصل الى مستوى صفات النبوة ! ثم كان التنظيم ، يفترض في القاعدة ،
إيماناً غيبياً ، لا مناقشة فيه للقيادة تحت ستار الدين ! وكالفاشية ، لم يكن
للأخوان المسلمين ، معياراً أخلاقياً ، فهم في سبيل تحقيق أغراضهم ، على
استعداد للنسف والقتل والتدمير والارهاب ! ولكن مع من كان يقف
(الاخوان) ؟ هل كانوا ظاهرة شاذة بين الرجعيين ؟ أبداً .. لقد وقفوا الى
جانب الاستعمار طوال تاريخ طويل ، انتهى بهم الى أنهم أصبحوا العملاء
الأول للحلف المركزى ! ووقفوا ، أيضاً ، مع (النظام) الرجعى ، ابان عهد
الملكية .. ومن أجراً ما قاموا به في تاريخهم الطويل ، عريضة تقدموا بها الى

الملك السابق « فاروق » عام ١٩٤١ ، طلبوا فيها اجبار رجال الدولة على الصلاة ! من هذا تتبين الطابع (الديماجوجى) فى الدعوة ، طغيان الملك لا يهم ، موت الناس نتيجة الاهمال لا يهم ، التآمر مع قوات الاخلال لا يهم الحياة فى أسوأ مستوى للمعيشة لا تهم .. انما المهم ، هو اجبار رجال الدولة على الصلاة !! وهو أسلوب موضوع ، خصيصا للجماهير ، التى لم تكن تدرك ، نتيجة لغيبة القوى الاشتراكية ، آتئذ - حقيقة الأزمة ، وتتلطف الى حل قريب من مشاعرها ..

ولكن ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، انكشف الاخوان ، كتنظيم ، وكأصحاب دعوة ، فقد كان جل همهم ، هو السيطرة على الحكم ، حتى دون صورة واضحة ، ولا غير واضحة لهذا النظام ، فكل ما كانوا يقولونه فى هذا الموضوع ، كلام عن قطع يد البسارق ، ومصادرة الفنون ، واجبار الدين على الناس !

ان (الإخوان) جزء من الرجعية ، التى كانت موجودة قبل الثورة ، والتى حاولت الاستمرار .. ولكنها كانت الجزء الأكثر ضراوة ، والأكثر تنظيما ، والأكثر ديماجوجية . ولذلك ، لم يكن غريبا ، أن يتعاون « الإخوان » - عن طريق « سعيد رمضان » وغيره - مع الحلف المركزى عن طريق مباشر أو غير مباشر . ولذلك لم يكن غريبا ، أو يحدث التآلف بينهم ، وبين أى رجعيين آخرين ، مثل : « حسين توفيق » وعصابته ، أو قوى الحلف القديم المتساقط ، التى كانت تتمثل فى قوى الاقطاع والرأسمالية : (الأجزاء اليمينية من البورجوازية القومية ، هذا ما أقصده هنا) ، بغض النظر عما اذا كانوا يصومون أو يصلون !! ولذلك ، أيضا ، واتباعا لسياستهم الميكياقيلية (١) ، لم يكن غريبا ، أن « يستعملوا » النساء ، وهم الذين

(١) فمكيافيللى ، ينصح « السياسى » : فى كتابه (الأمير) ، وهو يوجه كلماته الى كل سياسى من خلاله الى الأمير لورنزو دى مدسيس : بأن يتبع كل السبل من أجل الوصول الى هدفه ، أن يضع الاسم فى كاس خصمه أو الخنجر فى العبيادة ، حتى يصل الى ما يريد : فالغاية تبرر الوسيلة ..

يهدفون الى تعطيل طاقات النسياء ! ولم يكن غريبا ، أيضا أن يستعملوا الإرهاب ، باسم الدين ! ولم يكن غريبا ، أيضا ، أن يمزقوا القرآن لكى يضعوا في جوفه مبدساتهم وطبنجاتهم ومدياتهم ! !

ولقد كان الإرهاب ، دائما ، وسيلة أكثر الفئات رجعية ، لتطويق الحركات الوطنية والديمقراطية . فالشباب المتعصب ، دينيا ، الذى قتل المهاتما غاندى ينتمى الى نفس المعسكر الذى ينتمى اليه من اغتال الزعيم الأمريكى ابراهام لنكولن محرر العبيد ، والى نفس المعسكر ، أيضا ، ينتمى من اغتال كينيدي خوفا من « أفكاره المقلقة » على الرجعية الأمريكية والصهيونية في الولايات المتحدة . والى نفس معسكر قاتل جون كينيدي ، وقاتل المهاتما غاندى ، وقاتل ابراهام ، ينتمى حسين توفيق ، وسعيد رمضان .. بل ، أيضا ، صناع الدم والارهاب والقتل ممن سولت لهم أنفسهم إعادة الاقطاع أو الرجعية كما كانت من قبل ، كما ينتمى ، أيضا ، الى نفس المعسكر كل الرجعيين الذين يحاولون أن يقفوا حجر عثرة في وجه متغيرات الواقع ومتغيرات العصر : الذين حاولوا ان يتحدوا قوانين ثورة يوليو بالنسبة للمشكلة الزراعية ، والذين حاولوا التعامل مع فئات أجنبية ، والذين حاولوا الاعتماد على قوى دولية لاشاعة أفكار دخيلة على واقع مصر ، والذين حاولوا ان ينالوا من ثورة التصحيح وما أعقبها من انتصارات أعادت للانسان المصرى كرامته وقدرته على أن يستكمل الطريق ، بلا ضبابية ، وبلا يأس ، وبلا خوف وبلا قهر .. فى قوة ، وفى انطلاق ، وفى استراتيجية ناجحة ، وفى حكمة غير عادية ، والى نفس المعسكر ، أيضا ، تنتمى جبهة الرفض - أو الحق ، وكل الذين يحاولون أن يقللوا من مسارات ثورة التصحيح ، ومن الانتصارات أكتوبر ٧٣ ، ومن التغيرات التى أعقبت أكتوبر من أجل حل القضية العربية فى تناقضاتها .. !

تصور أن الفكر الرجعى من الممكن أن ينتهى ، تماما ، وبشكل حاسم وسريع ، تصور شديد التفاؤل ، ولا يتفق مع النظرة العلمية للأمور . انها

معركة طويلة ، أصعب من المعارك العسكرية والسياسية والاقتصادية ، لأنها معارك داخل العقول والوجدان ، ومحاولة لهز القيم الموروثة . وصعوبة المعركة ، أن الفكر الرجعي (يلبس) أشكالاً مختلفة . انه قادر على التخفى والامتزاج ، حتى أنه ليختلط بأكثر الأفكار تقدمية .. وصعوبة المعركة ، أيضا ، تحديد المكان الذي يتم فيه (تفريخ) هذا الفكر ..

ان اليمين ، يحتضن اتجاهين : الفكر الرجعي ، والفكر اليميني المتنور (أو ما يمكن تسميته بالاتلجنسيا اليمينية المستنيرة) . انه يحتضن الفكر المعادى للمجتمع الجديد ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر دور الفكر اليميني ، الذي يساهم بقاعدته - الرأسمالية الوطنية - في بناء النظام الجديد الذي يسمى الى التقدم والتطور ..

اننا لسنا ضد (اليمين) ، الا عندما يتعجر ، أو يتجمد ، أو يتآمر ، أو يدمر ، أو يفتك ... لكننا ، نفسج المجال أمام (اليمين) ، مادام مخلصا للارض والشعب ، معبرا عن ضرورة ما في المرحلة التاريخية . اننا لا يمكننا أن نتصور خطأ واحدا ، واضحا ، متناسقا . ان هذا ضد الطبيعة ، وضد منطق الأشياء . اننا لا نتصور - لاختلاف المصالح والجذور الطبقة - تناقضات داخل صفوف الشعب ، ولكنها التناقضات الطيبة التي تختلف ولا تتقاتل ، وفي النهاية ندفع بالمجتمع الى الأفضل .. و «اليمين» وقد يكون يمينا ذكيا ، يفهم طبيعة علاقة المرحلة التي يعيشها ، يرى أنه بوقوفه ضد النجاء انما يقف ضد مصالح التاريخ ، وان التاريخ يستطيع أن يقضي عليه ، ولذلك فهو يتحرك في اتجاه التيار ، ويتجاوب مع مطالب الشعب تجاوبا حيا وأصيلا . ولكن «اليمين» - أيضا - قد يكون ، يمينا غبيا ، يتصور أنه من الممكن أن يدير عجلة التاريخ ، وفي محاولة لادارة عجلة التاريخ الى الوراء ، يستعمل كل الأساليب ، حتى أسلوب التآمر ، حتى أسلوب الارهاب ، حتى أسلوب الدم !

* ولكن كيف نستطيع أن ندحر الفكر الرجعي ؟ كيف نستطيع ان نحبط كل الأفكار المعادية لحركة المد الثوري في تقدمها ، وفي استمرارها ،

لبناء المجتمع العصري الذى نشده ؟ وبمعنى آخر . كيف نستطيع أن نجيز على كل الافكار المعوقة للايديولوجية الثورية التى تحضن كل جديد وكل ما هو انساني وكل ما هو يسعى بمصر الى الامام نحو الاكمل والافضل والاسمى ؟

هناك اجابة على هذا السؤال ، قبل أية محاولة للاجابة .. هى القاعدة الرئيسية لانهاء هذا الخطر ، هى انتصار مجتمعنا .. ان هذا هو الوسيلة الفعالة للقضاء على الرجعية ، ويساعد فى هذا الضمانات التى أحاطت بها كل منجزات ثورة التصحيح الرشيدة .. والدور الرئيسى فى بناء تنظيم سياسى قوى يواجه كل ما من شأنه أن يعوق التطور ، وفى توعية الجماهير وقيادتها ، يقع على « الكادر السياسى » الناضج ، والثورى ، ومشكلة « الكادر السياسى » وتربيته وانضاجه مشكلة تبدو ليست بالأمر الهين ، فهى مشكلة مصر ، أو تكاد أن تكون منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فالمشكلة هى أن « تختار » ، و « تربى » عناصر لديها « الثورية » ، و « غير ملوثة » ، وليست لديها أطماع ومآرب تسلفية والتهازية ، بمعنى أن تختار عناصر ثورية خلص ليست لديها الرغبة فى « ركوب » الفرصة لتحقيق أغراضها ، حتى لو كان فى تحقيق هذه الأغراض ما يتعارض مع ثورية المرحلة ومع طبيعة التصحيح الى الانضج والأكمل ..

والكادر السياسى يخلق من خلال جانبين : الأول .. التجربة نفسها . والثانى .. الاعداد والتجهيز والتربية الثورية .. والتجربة تكون بالالتصاق بالجماهير من خلال العمل فى المعارك اليومية ، بالاختلاط بالجماهير ومعرفة مشاكلهم ومتطلباتهم الملحة ، وتفهم مشاكلهم ، ووضع الحلول معهم ، وتقييم كل عمل ناجح ، وكشف كل زيف من شأنه أن يعوق من متطلبات المرحلة الثورية ..

يقول المفكر الانجليزى « بالم دات » ، فى دراسة له عن الرجعية المعاصرة ومنطق ثورات العصر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية : « علينا أن

تكشف كل الأفكار المعادية لمنطق التطور والتقدم .. فهناك سلسلة لا تعرف النهاية من الأفكار والسلوك والتصرفات تقفز ، وتخبو ، خلال لحظات الانتصار الثورى لقوى التقدم وهى تصنع مجد الشعوب . وليس هناك سلام دون كشف السلسلة بأكملها ، حتى آخر حلقة فيها ، وخلال ثورات الشعوب التقدمية ، قد يعترض طريقها بعض المعوقات غير الثورية من العناصر التى تستهدف خدمة مآربها الذاتية ، أو ممن يمكن أن نطلق عليهم عناصر الثورة المضادة ، وهؤلاء لا ينتمون الى معسكر الرجعية ، وينبغى التنبيه اليهم وعدم التساهل معهم ، لأن أى تساهل معهم ، تسليم بمقدرات الثورة الى الحضيض » . هذا ما كان فى ذهن السادات ، وهو يتلقى مهام منصبه كرئيس جمهورية ، فقد كان يحس أنه قد تسليم قيادة السفينة فى ظروف صعبة ، وسط العاصفة والأتواء وركابها فى حالة اعياء شديد ، وعليه ان يمر بالسفينة سالمة ، ويوقظ النفوس ، من حالات صعبة الى ظروف تسمح لها بمعاودة السير على الطريق الثورى ، من أجل تعويض ما فات ..

وفى الحقيقة أن ما حدث فى ١٤ و ١٥ مايو من تصحيح للأوضاع ، وميلاد للمرحلة الجديدة ، كان له العديد من الارهاصات من قبل ، وكانت له ملامساته وظروفه السابقة ..

حقيقة أن الموقف اتخذ ، وتجسد ، فى (مايو) ، وتغيرت كل الأوضاع من خلاله ..

لكن حضر له من قبل ، وأشار الرئيس أنور السادات ، الى الظروف التى تحكم مصر قبل ذلك ، كثيرا ، وكثيرا ، بل وأعلنها صريحة مدوية ، أن المناخ العفن من شأنه أن يعوق التقدم والثورية ، وأن أى تحرك مضاد من شأنه أن يعرقل مسار الجماهير لاستعادة روحها ، هو فكوص بالثورة ، ولا يستهدف بمصر الا اضافة خراب على خرابها ، ومرارة على مرارتها .. وخلال أكثر من مناسبة ، كان يناقش ما فى داخل مصر من ضمير مستيقظ لتصحو ، وتنهض من كبوتها ، وتستعيد نفسها :

« الآن ، فلنمسح دموعنا ولننتقل الى المستقبل ، ولنسرع
خطانا على الطريق ، ولتكن آلامنا طاقة ابداع واندفاع ،
ولنتحول احزاننا الى قوة ايجابية ، تعوض ، بل تصيف الى
تصميمنا وعزمنا على أن نؤكد من جديد مسئولياتنا الجسام
والتزاماتنا المقدسة وطنيا وقوميا ودوليا وانسانيا . ان العالم
باسره ينتظر علينا ، والآن ، انتهت ساعة الانتظار ، وامتنا
العربية وهفت بجوارنا ، حتى نتم عبور جسر الانتقال ، والآن
جاءت ساعة مواصلة السير ، وشعبنا ظل رابط الجأش
تابتا في انتظار ان نتأهب ، والآن ، اذت ساعة البدء في
الزحف » (١)

وقال ، أيضا ، في نفس المعنى ، وفي نفس الظروف :

« ان الأيام الماضية في حياتنا ، كانت أيام حزن عظيم ،
ولكن هذه الامة الخالدة ، استطاعت بصمودها الغد ، ان
تحول مشاعر حزنها العظيم الى طاقة قوية عظيمة ، فخرجت
من كل ما عانت بأسرع مما قد احد ، وقدرت ، وصممت ،
وحسمت ... » (٢)

وفي ذكرى الأربعين لوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، قال
السادات (في ٦ نوفمبر ١٩٧٠) : « بدأت الحركة الايجابية ، بما فيها من
من امكانيات الصواب والخطأ ، وما تحمله من قدرة العقل أو حدة العاطفة
بما يدفعها من رؤى المستقبل أو بما يشدها من رواسب الماضي . ذلك هو
صراع الحياة الذي لا نستطيع — مهما تمنينا — أن ننسى اعتباراته وأحكامه
وضروراته ، مهما كان بعضها ثقيلا علينا ونحن نعيش فيه ونعاني تفاصيله

(١) قال انور السادات هذه الكلمات في نيانه العام في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب ،
بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٧٠ : وبعد وفاة جمال عبد الناصر ب ٢٢ يوما . . . وهو هنسا ، نراه يشبه
ويركز بشكل واضح على عملية العبور ، للانتقال باحلام مصر الى ما تصبو اليه ، عن طريق
(الجسر) الذي سيتجاوز به هزيمتها وكبوتها ، خلال أيام الهزيمة .

(٢) جاءت هذه الكلمات في خطاب الرئيس امام مجلس الامة ، بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٧٠ :
بعد وفاة جمال عبد الناصر بايام قلائل ...

بينما هي تجري أمامنا » . وفي تلك الفترة كان السادات يناشد الجماهير بالتجمع والوحدة من أجل تجميعها حول هدف واحد :

((ان علينا وراء جبهة القتال عملا اقتصاديا واجتماعيا لا يجب ان يتوقف لحظة . ذلك انه فضلا عن المعركة ، فانه يجب ألا يفتقد عنا أن هدف ثورتنا الاصيل هو بناء حياة حرة لسبعينا . ونحن على سبيل المثال لم نبني السد العالي لكي نحارب ، وانما حاربنا لكي نبني السد العالي . ان معركة البناء الاقتصادي والاجتماعي تتصل من هنا اتصالا وثيقا بمعركة ميدان القتال ، معركة القتال شرف الوطن . ومعركة البناء الاقتصادي والاجتماعي في وطننا معركة واحدة (١) . .))

وفي كتاب سعيد عثمان « الفكر الذي انتصر » ، يرى الكاتب .. أن السادات من موقع قيادته في هذه المرحلة الصعبة ، وبكل ما له من ماض وطني وثوري ، قد وصل الى الأسباب الحقيقية في كبوة مصر ، وكيف يمكن استعادة مصر من جديد لتتخلص من هزيمتها : « وجد أنور السادات ان شر ما يهدد مصير الأمة هو غياب الشرعية وافتقار الجدية في العمل وضياح الحقيقة الديمقراطية بفعل عناصر في موقع السلطة لم يكن يعنهما من الأمن كله سوى تثبيت نفوذها وتحقيق مكاسبها الشخصية ، دون أية مراعاة لحق الشعب في حياة آمنة كريمة ، وفي تجاهل تام لحقيقة بسيطة ، وهي أن تحرير الوطن لا يستطيع أن ينهض به الا مواطنون أحرار ، وأن روح الأمة شرط أساسي لقدرتها على مواجهة معاركها ، وأن الجبهة الداخلية هي العامل الحاسم في النصر .. وبهذا المنطق التاريخي ، وبهذا الوعي السليم ، بمعنى الثورة ، بدأ أنور السادات يشر بسيادة القانون ، ويعلن تصميحه على الشرعية منذ أوائل عام ١٩٧١ ، وفي عديد من لقاءاته مع الشعب وفي الجامعات وفي ساحات العدل ، أوضح بكل جلاء اصراره على ازالة كل

(١) قال أنور السادات هذه الكلمات في خطابه في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب ، وذلك في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ . . .

تناقض افتعلته هذه العناصر بين الشرعية وأهداف الشعب » (١) . وقد عبر السادات عن هذه الحقيقة في برنامجه للعمل الوطنى الذى تقدم به للاتحاد الاشتراكى بقوله : « كان من أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية ، والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء . ان مراكز القوى التى لا يمكن أن تظهر أو تعيش — بل لا بد وأن تختنق — فى جو الحرية والديمقراطية وجماعية القيادة ، اتخذت من الاشتراكية ودعوى حمايتها حجة لتكسيم الأفواه ولتسكت كل صاحب فكر ، ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثورى لكى تشق طريقها الى الانفراد بالسلطة والتحكم فى مصير البلاد بما يحقق أطماعها ونزواتها » .

وكانت الجماهير ، فى تلك الفترة ، تستقبل الرئيس بحماس شديد ، وسط الضبابية التى سادت مصر ، لفترة ليست بالقليلة ، وكان الشعب يحس بحكم وعيه ونضوجه بما يدور ، ويرقب ما يحدث عن كثب قبل اعلان حركة التصحيح فى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ . وفى ٢ مايو ١٩٧١ ، أقال السادات « على صبرى » من منصبه ، ونشرت الصحف ووكالات الأنباء الخبر ، وتساءل الكثير عن الأسباب ، وحاول (التنظيم السرى) أن يشكك فى كل ما يحدث ، لكن الفرصة لم تعط لمزيد من التساؤلات ، فقد كان الحسم يدور بسرعة لا تترك المجال لفرصة التساؤل . وفى يوم ٩ مايو من نفس العام ، أشارت إحدى الصحف اللندنية ، الى « ان أنور السادات رئيس جمهورية مصر بدأ يتصدى لكل الأوضاع الكلاسيكية فى مصر ، وأن هذا يمثل خطورة مثيرة على المنطقة ، والغريب أن إحدى المآثم فى صعيد مصر قد تحول الى مظاهرة أو مؤتمر سياسى ظل يتحدث عن مراكز القوى لفترة تزيد عن الثلاث ساعات ، وكان هذا المآثم لواحد من أعضاء مجلس

(١) جادت هذه الكلمات فى كتاب « الفكر الذى انتصر » لسعيد عثمان ، وأنا اعتبر ، ان هذا الكتاب من انفضج الكتب وأسبقها ريادة فى تحليل مرحلة التصحيح التى كانت الطريق الى كل انتصاراتنا فى أعقاب ثورة مايو ١٩٧١ ، وما يميز هذه الدراسة الحياد الموضوعية الشديدة فى عرض القضايا والواقع المصرى فى سنوات خطيرة من عمر مصر الثورى ...

الأمة المصرى قد توفيت والدته .. وقد قيل فى هذا الغراء ، ان السادات يتصدى لكل مراكز القوى وعناصر الثورة المضادة على مختلف القيادات فى الجيش والبوليس وأجهزة الاعلام والفكر - وقد جاء هذا بعد اقضاء على صبرى عن السلطة » وفى ١٢ مايو ١٩٧١ ، التقى السادات بالضباط والمقاتلين على خط النار - وفى جبهة القتال ، وعقد لقاء طويلا معهم ، وتحدث معهم بصراحة عما يجرى فى الجبهة الداخلية ، وعما يدور ، وما من شأنه أن يعوق استبسالهم ومواقفهم الشريفة فى مواجهة العدو ، وقال : ان مصر قادرة على التصدى لأى موقف من أجل استعادة روحها ، وأخذ يفسر ما يدور وما يحدث ، وسأله الضباط ، فجأة : «لقد أقلت على صبرى .. الرأس .. متى تقضى على الجسد والذبول ؟» ، فذهل السادات من النضج والوعى الذى بدا عليه مقاتلونا ، وابتسم فى سخرية ، لأنهم وفروا عليه مهمة الشرح والتحليل ، وقد كان يعلم أنهم على هذا المستوى من النضج والتفكير ، فهو واحد منهم ، وانطلق منهم ، وهو افراز لهم ، وهم يفكرون فى مصر ولاشئ غير مصر ، لأنهم يضعون أرواحهم على أكفهم ، ويعطون بسخاء لمصر وهم يقفون فى ثبات على خطوط النار فى ارتقاب لحظة القرار الحاسم للتحرك..

وفى ١٣ مايو ١٩٧١ ، أصدر السادات قرارا تاريخيا هاما ، يقول : «لا رقابة على الحريات» ، وأمر الرئيس بوقف جميع عمليات الرقابة البوليسية والارهابية على حريات المواطنين ، وأمر بتشكيل لجنة خاصة للتحقيق فى المسائل الماسة بالحريات العامة - وكان هذا القرار ، بصدوره يضع حدا للمكارثية التى سيطرت على مصر طويلا ، وكانت تجثم على صدرها وتمرقل من حريات المواطن على كافة المستويات ..

وفى مساء ذلك اليوم ، أحست «مراكز القوى» بالخطورة ، فأرادت ان تتحرك ، وكان هو يحس بحكم خبرته ، أن هذا سيحدث ، فهو مناضل ثورى ، ويعرف أن اقضاء الرأس من شأنه أن يحرك الجسد

والإذيات ، وكان يرتقب هذا « التحرك » ، ليضرب ضربته ، وفي ذكاء .. وتحركت مراكز القوى في محاولة للاستيلاء على السلطة ، بأن قدمت استقالات جماعية ، وبدأت تتصل من أجل أحداث انقلاب لتغيير الوضع بل وتحرك الاعلام في ذلك الوقت — وكان يرأسه « محمد فائق » وزير الاعلام — بأن أصدر أوامره الى « الأجهزة العامة للاعلام » بإذاعة مارشات عسكرية ، ارتقابا لإذاعة بيان عسكري هام ، وفي محاولة لاعداد الشعب لما يمكن أن يحدث ..

وفي ١٤ مايو ، كان السادات ، قد حصل على كل المعلومات التي تكفل له الضربة لمراكز القوى ، قبل أن يحدث ما يخشى عقابه . وكان من الممكن أن يحدث يوم ١٣ مايو ، لولا البلبلة التي حدثت لمراكز القوى ، ولولا فطنة القيادة الحكيمة ويقظتها الواعية . وقال السادات كلمته ، وأعلن ما كان يدبر من مراكز القوى في الخفاء لأحداث ثورة مضادة ، وقال : « أبدا . ولن يذل هذا الشعب . الجماهير يجب أن تحس بالأمن والطمأنينة دائما . ولن يكون مصير أحد معلقا بتقارير أو كلمات » ، وكشفت « فضيحة ووترجيت » — مراكز القوى المصرية ، وأسدل الستار على ثورتها المضادة التي كانوا نزعمون القيام بها في مايو ١٩٧١ لتتول السلطة الى أيديهم . واعلن السادات عن التنظيم السري الكامل ، والذي كان يستهدف النيل من مصر . وأعلن ان مصر مستيقظة ، لا تنام ، ولا تستسلم ، وانها ابدان تذل ، واعلن أن جدران الخوف لا بد أن تسقط ، وأن المعتقلات السياسية لا بد أن تغلق ولا بد أن تسود الحرية والديمقراطية ، حتى بتوفر الأمان للمواطن ليمارس حريته ، ولا بد أن يسود القانون لتحقيق العدالة الاجتماعية والوطنية .. وألقى القبض على كل الرؤوس المدبرة لمراكز القوى ، والتي كانت تعد لأحداث الـ « ثورة المضادة » ، وصفت المعتقلات من الشباب الذي كان يلقي القبض عليه جزافا . وصدر القرار بالغاء كافة الظروف الاستثنائية التي كانت تحرم المواطن من حرياته الاجتماعية والسياسية ، وتقف كحجر عثرة ضد المواطن من أجل ان يمارس ديمقراطيته الاجتماعية والسياسية ..

وفي نفس السنة ، صدرت الأحكام ضد « ٦١ » متهما ، أدانتهم المحاكمات ، و « ١٤ » قضت المحاكمات ضدهم بالنحبس .. وبريء « ١٤ » متهما .. وصفت المعتقلات والسجون تماما من المعتقلين السياسيين أو من الذين صدرت لهم أو ضدهم أحكام في ظروف غير استثنائية .. وبدأ عصر جديد في مصر .. نستطيع أن نطلق عليه : « عصر مايو » .. وبدأت أيام جديدة من عمر مصر .. عرفت بآيام التصحيح .. وهذه الأيام كانت منطلقا إلى كل المتغيرات التي حدثت في مصر على المستوى الاجتماعي والفكري والسياسي والعسكري ، وهي التي قادت إلى التحركات المصرية على المستوى القومي في أعقاب حرب أكتوبر وإلى التحركات العالمية التي جذبت إلى مصر مزيدا من التعاطف وإلى القضية العربية ، وغيرت تماما موازين القوى ، حضاريا وفكريا وسياسيا في النظر إلى مصر والعرب . فبعد أن كانت مصر والعرب في نظر العالم قوما معتدين ، يهزمون ، يغضبون لمنطق القدرات والعنتريات والفكر التجريبي ، تقلتهم ثورة مايو ١٩٧١ ، إلى نوع من الافتتاح على العالم ، أيديولوجيا ، وسياسيا ، وعسكريا واقتصاديا .. واكتسبت مصر والأمة العربية ، مزيدا من الأصدقاء ، ومزيدا من « الأرض » في اتجاه حل المسألة العربية - التي كانت سببا في التهايب المنطقة منذ حرب ١٩٤٨ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، هذا الاتجاه الذي وصفته صحيفة (الايكونوميست) البريطانية بقولها : ..

« أن ما يحدث في مصر ، أمر نادر ، فبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ - التي كانت نتيجة لتغير الأوضاع الداخلية في مايو ١٩٧١ ، بدأ ميزان القوى يتغير في صالح مصر وفي صالح العرب ، وبدأ ، أنه من الممكن أن تحل القضية في جوهرها في نطاق بعيد عن البارود ، فالدرس الذي يخرج به دارس سياسي لأوضاع المنطقة في السنوات الأخيرة ، أنه لا يمكن حل القضية عن طريق الحرب ، وإنما عن طريق إنهاء النزاع بشكل نهائي ،

حتى يتوافر نوع من الأمان في المنطقة من خلاله يستطيع
الغرب، ومصر، أن يستعيدوا مكانتهم التي إفتقدوها طويلا
من جراء هذه الجروب التي استغلت منهم الكثير اقتصاديا
وماديا وعسكريا» .

وقد أعلن السادات، أن يوم ١٥ مايو ١٩٧١، كان بمثابة مفترق الطرق
بالنسبة للشعب المصري، وفي رسالة بعث بها الى مجلس الشعب وهو
يتحدث عن « ثورة التصحيح » قال : « أن هذا اليوم كان مدخلا طبيعيا
للبناء الوطنى الجديد، واطلاق طاقات الشعب الخلاقة .. لقد أطلقنا حرية
الصحافة، ضمانا لحرية الشعب، وأغلقنا المعتقلات، تأكيداً لحرية الفرد
وألغينا الى الأبد الاجراءات الاستثنائية، تجسيدا لسيادة القانون وأخذنا
مبادأة اتخاذ القرار في أيدينا، فاستطعنا ان نعبز هزيمة ١٩٦٧ .. » .

ان ثورة ١٥ مايو - أو حركة تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١، لم تلغ ثورة
٢٣ يوليو ١٩٥٢، كما اعتقد البعض، بل هي تصحيح للاوضاع التي كانت
تريد أن نودى بالمكاسب الشعبية والقومية التي حققتها ثورة ١٩٥٢،
والغاء لمراكز القوى التي كانت تريد النكوص بهذا الشعب، والعودة به
الى عتبات وضبايات لا حدود لها، وخروجاً بمصر الى آفاق جديدة عبرت
بها الى نفسها، والى آفاق جديدة أكثر تفتحاً وأكثر انطلاقا، من أجل
تحقيق الرفاهية لجماهيرنا، وتحقيق « دولة العلم والايمان »، على أساس
استيعاب كل ما في عصرنا من طاقات علمية وتكنولوجية، من أجل المشاركة
في صياغة الحضارة الحديثة، ومن أجل القضاء على كافة المعوقات التي
تقف وتحول دون مشاركة الانسان المصرى، والعربى، في المشاركة، في
البناء العالمى لهذا الصرح الانسانى العظيم، في سعيه الى مزيد من التقدم
الحضارى .

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١، ليست، فقط، زوالاً لمراكز القوى، وسقوطاً
للخوف وجدرانها الثقيلة عن كاهل الأمة، انها، أيضا، العودة بالانسان
الى انسانيته، ليمارس حقوقه الشرعية في أن يكون انسانا، يمارس حريته
يمارس مدنيته، يمارس اديمقراطيته

انها عودة بالحريات السياسية والديمقراطية ، بعد غيابها عن مصر لسنوات طويلة سادتها ظروف الماكارثية الرهيبة ، وحكم الفرد ، ومراكز القوى الضارية ، التي بذرت الخوف والفزع في كل مكان !

حركة التصحيح هل كانت ثورة ، أم كانت مسارة لتصحيح الأوضاع فحسب ؟ هذا السؤال طرحته ظروف السنوات الأربع الماضية التي أعقبت ما تم في مصر من متغيرات ، منذ مايو ١٩٧١ حتى الآن .. تقول صحيفة « التايم » الامريكية : « ان التصحيح - أو ما تم في مايو ١٩٧١ ، كان مبادرة عظيمة من جانب الرئيس المصري محمد أنور السادات ، لا نحو تعليم الجماهير كيفية ممارسة الحريات والديمقراطية ، بقدر ما كان إعادة الروح الى الثورة التي كانت قد افتقدت نضارتها ، بما حدث من زعزعات وكوص وتراجعات خلال منتصف الستينات - نتيجة لظروف الهزيمة ، ونتيجة لما حدث من هزات في الجبهة الداخلية ، وفي داخل الانسان المصري من تمزقات .. لقد كانت حركة مايو ١٩٧١ ، عودة الى مصر ، الى ما يكفل لها السير ، والتقدم ، من أجل أن تستعيد نفسها ، ولتعوض ما فاتها من نضال وتقدم » . ويوضح (سعيد عثمان) ، هذا التصحيح ، في كلمات واضحة في كتابه : « الفكر الذي انتصر » ، فيقول : « اننا باعادة ترتيب الدولة على أساس علمي ديمقراطي ، نكتسب حصانة ضد الارتجال أو المزايدة غير المسئولة في مثل هذا القرار الخطير . ولقد ثبت من التحقيقات أن بعض المتهمين في قضية المؤامرة والانحراف السياسي كانوا يزجون بالمعركة في مهاراتهم الرخيصة وكانوا في بعض الأحيان على استعداد للمقامرة بها من أجل أغراض لا تمت بصلة الى هدفها الوطني النبيل ... من أجل هذه المعركة - بشرف ومسئولية - كل مساعينا وعملنا الوطني في هذه المرحلة الحاسمة ، وكل ما تأخذ به أنفسنا من جدية وما نوجهه لها من تقد .. ولقد كان من الواجب أن تقنع بشيعة

وقفة محاسب للنفس . فمن هنا تنطلق في عملية التصحيح . حتى تصل بها الى مداها ، ومن هذا المنطلق يجب أن تأتى المشاركة الشعبية الحقيقية في العمل الكبير الذى بدأه القائد .. فالقضية ، قضية الشعب كله ، والمصير مصيره ، الطريق الى الأمل والمستقبل ، مفتوح أمامنا ، وفرصة المشاركة في البناء كاملة ، وإذا لم تقدم على أداء واجبنا الذى هو في الوقت نفسه ممارسة لحقنا ، فلن نعرف ماذا سنقول عن أنفسنا لأجيالنا القادمة ، أو ماذا ستقوله عنا تلك الأجيال ١١ » . وكانت هذه (الكبوة) — أو تلك الهزيمة حديث السادات في كل مناسبة ، وكان لا يفتأ يتحدث عنها في كل وقت :

« علينا مواجهة هذه الغزوة الشرسة ، أن نتسلح بسلاح العصر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن نتخلف ونحن نواجه صهيونية دنيئة فادرة ، واستعماراً شرساً لثيماً . من أجل ذلك ناديت بدولة العلم والإيمان ، فالعلم وحده ، من غير الإيمان ، قد يقينا شر هذه الغزوة مادياً ، ولكنه لن يستطيع على المدى الطويل أن يبنى النفوس التى يجب أن يبنوها مجتمعنا كما نشأنا وكما تنص عليه رسالتنا ، وما اختر في هذه الأرض من مبادئ وتقاليد وقيم . والإيمان وحده ، في مواجهة الغزوة لا يكفي لأن لدى عدونا من مستحذات العصر ما يستطيع به أن يكسب جولة وجولة ، إذا لم نتسلح بالسلاح الذى يتسلحون به ... من أجل ذلك ، فإن العلم والإيمان شرطان أساسيان لنجتاز هذه المحنة التى نعيشها اليوم ... والامة الإسلامية لم تفرق العلم عن الإيمان . كان العالم عالم فلك ورياضة ، الى جانب تفهمه في علوم أخرى . هذا ما نقله الغرب عنا منذ البدء ، والعلم والإيمان متلازمان في رسالتنا وعقيدتنا ، وما أحرانا اليوم أن نعود الى ما كنا عليه » .

كان السادات ، يعلم علم اليقين ، أنه لا استعادة لمصر الا باستيعاب لكل مستحذات العصر ، فكرياً وعسكرياً ومادياً .. وكان ، دائماً ، يردد أنه لا ينبغي ، النظر الى الماضى بقدر أهمية النظر الى اللحظة أو الى

المستقبل ، من أجل استعادة مصر ... فمن ينظر الى الأجزاء ، ويطلب في أبعادها ، فلا يمكنه إلا أن يجنى الدموع .. علينا أن نتخطى اللبشة .. علينا أن نتجاوز الاحزان .. علينا أن نتخطى الماضى ، ولا ننظر اليه طويلا :

« علينا ألا ننظر الى الماضى ، بقدر ما نفيد من تجربته . لقد أراد البعض أن يستفوا مراكزهم ، وأن يفرطوا بسيادة لا يملكونها على هذا الشعب ، علينا أن نضع الضوابط والحدود التى تضع لكل سلطة حدودها وتنظم التعاون بينها ، وأن ابعاد الاحداث التى مرت بنا يجب ألا تصرفنا عن المعركة ، ولكن يجب ألا تنسينا واجبنا في تطهير كامل يصحح أوضاعنا تصحيحا كاملا ، لئى تستمر مسيرتنا اقوى وأقدر دائما وباستمرار . ومن ذلك كانت مطالبتى أن يتضمن دستور جمهورية مصر العربية بابا يطلق عليه باب الاخلاق . ان القرية المصرية التى تعتبر النواة لشعبنا زاخرة بالقيم العظيمة التى يمكن ان تكون هادية لنا » . . .



ونعود للسؤال الذى طرحناه : التصحيح .. حركة اجتماعية وسياسية أم ثورة شاملة ؟ .. يقول منظرو الفكر الثورى .. أن هناك خلافا واضحا بين « حركة » و « ثورة » ، تماما ، كذلك الخلاف الذى نجده بين كلمة « انقلاب » وكلمة « ثورة » ... فالثورة تعنى كل تغيير يطرأ على النظم القائمة والعقائد السائدة ، ماديا وفكريا واجتماعيا ، ولا يهم ما يصاحبها من الحروب وسفك الدماء ، فمن الممكن أن تكون (الثورة حمراء) أو (بيضاء) .. المهم التغيير الذى يطرأ على العلاقات ، وفي اطار الظروف ، والمناخ المادى والاجتماعى والفكرى ... وما حدث فى مصر فى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، بدا فى البداية ، وكأنه حركة اجتماعية أو سياسية تستهدف الإصلاح ، وانما هو فى الحقيقة ثورة على الأوضاع ... فقد كانت « مناطق النفوذ » ، ومراكز القوى ، أشبه بالنظم الانكشافية ... التى قادت مصر الى الخراب والدمار ، فقد كان كل مركز من المراكز يسعى الى أهدافه

ومطامحه ومآربه الانتهازية والتسلفية .. وكانت هذه المراكز من شأنها أنها لا تقضى على (الثورة) فحسب ، بقدر ما كانت تقود مصر الى نوع من الولايات أو المراكز المستقلة ، التى كان من الممكن أن تقود البلاد فى يوم من الأيام الى حرب أهلية ضارية تودى بمصر الى خراب كامل ، ودمار شامل !

وحركة التصحيح - أو ثورة التصحيح ، التى تمت فى مايو ١٩٧١ ، تقابل حركات التصحيح المعروفة فى الثورات الكبرى ، كحركة الإصلاح والتصحيح فى الثورة الفرنسية ، عندما كانت الثورة قد تنكبت الطريق وخرج عن مسارها الثورى الأصيل .. وفى نفس الوقت ، تقابل حركات الإصلاح والتصحيح للفكر المسيحى الذى قام به « مارتين لوتر » عندما قضى على تفنيت السلطة الدينية فى الاقطاعات الدينية التى قامت كمراكز فى ذلك الوقت ، فقد كان رجال الدين فى ذلك الوقت ، ينزعون الى خلق مناطق نفوذ كاملة ، يعطون لأنفسهم من خلالها كل السلطات غير العادية ، وكأنهم مفوضون من قبل السماء ، لدرجة أنهم كانوا يعطون ، أو يبيعون ، مناطق للبشر فى الجنة ، بأوراق وصكوك رسمية ، يطلقون عليها : « صكوك الغفران » ، من خلالها يمنحون أراضى من الجنة للبشر ... وما تم فى مايو ١٩٧١ ، فى مصر ، أيضا ، يقابل ، ما تم من تصحيح فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ ، ضد الجمود العقائدى ، والتزمت ، والرجعية ، التى كادت تودى بالحركة الثورية الى التهلكة والدمار ، وذلك خلال حكم (نوفوتنى) الذى اتسم بالنزعة الستالينية وعبادة الفرد .. وثورة مايو ١٩٧١ ، أيضا ، تقابل تلك الانتفاضات الثورية المتوالية ، التى قامت ضد الفكر الستالينى فى المجتمعات الاشتراكية ، أو داخل الاحزاب الشيوعية نفسها (كما حدث ، مثلا ، فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، عندما نادى المفكر والمنظر الاشتراكى روجيه جارودى بتصحيح مسار الحركة الاشتراكية ، وعندما نادى زميله المفكر والفيلسوف هنرى لوفافر بالحريات

والديمقراطية التي تتعارض مع الفكر الاشتراكي ولا مع الثورة الشاملة ضد الرأسمالية أو الأمبريالية (١).

ان ما تم في ١٥ مايو ١٩٧١ ، هو في الحقيقة « ثورة » ، وليس « حركة » لانه ثورة على مراكز القوى ، وعلى العلاقات الاجتماعية ، والمناخ الذي كان يحكم ويخضع الجماهير .. ثورة في البنيان التحتي (في العلاقات الانتاجية والاقتصادية والمادية) ، وثورة في البنيان الفوقي أو العلوي (في الفكر والثقافة والعلاقات التي تحكم وجدان مصر) . ثورة أعادت لمصر كل الحريات المفتقدة ، وأكدت للمصريين حقوقهم في ممارسة حرياتهم المدنية والديمقراطية ، وسناد القانون وأصبح من خلاله يعرف المواطن حقوقه وواجباته ، ورفعت كافة الظروف الاستثنائية التي كانت تشل الحركة والفكر والواقع .

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ - كانت تعبيرا عن متطلبات المرحلة فكريا وماديا ، وكانت افرازا حقيقيا لمتطلبات الانسان المصري الذي كان يصبو ويطمح اليه حتى يتيسر له أن يعمل « وينير » بعد « كبوة » طويلة ، أقعدته ، من أجل أن يستعيد نفسه ، وروحته ، ليكمل الطريق ، في وضوح .. فالحركة ، تتطلب أساسا وضوح الرؤيا ، والضبابية قد تقود الى هزائم وهزائم أخرى .. « وتصحيح مايو » كان الثورة الذي أشاع الاطمئنان في النفوس ، وأعطى الجماهير الأمان ، لتعمل وتتحرك ، بعد أن كانت العتبات والضبابية هي المناخ الذي ساد لسنوات طويلة ..

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ ، كانت تصحيحا للأوضاع التي كادت تطمس معالم الثورة التي قامت في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فقد كانت مراكز القوى

(١) وهناك فرق كبير بين حركة إصلاحية ترمي الى تغيير ظاهري ، وبين ثورة شاملة ، كما انه هناك فرق بين حركة تصحيح وإعادة الانحسار الى واقع سليم يتسم بالثورية ، وقد عرف تاريخ الثورات الكثير من الاصطلاحات في هذا الصدد ... مثلا عرف معنى : الاحياء ، والاصلاح ، وإعادة البناء ، والتجديد ، أو البعث أو الأحياء ، أو إعادة البناء والاصلاح ، أو التسلح

و « الطبقة الجديدة » ، التي أبرزتها ظروف الانحسار الثوري ، قد استولت على المراكز الأساسية ، واشاعت جوا من القهر والتسيب والانحراف ، بمعنى آخر أن الثورة التي صنعها الشجعان - على حد تعبير قولتير - بدا يجني ثمارها الجبناء ، وكان لابد من الضرب على أيدي هؤلاء « الجبناء » ، وتصحيح الأوضاع بقرارات ثورية ، وبأعمال حاسمة تعيد لمصر طريقها الثوري ، حتى تستطيع أن تقوم من جديد ، وتتجاوز ظروفها الصعبة ، وتعتبر الهزيمة ...

وكان منطلق « ثورة التصحيح » يسير في خطين واضحين ، منذ البداية : خط يهدم كل سلبيات المرحلة التي قادت بمصر الى ظروف ١٩٦٧ وما أعقبها من مرارة ، وخط بناء يستهدف تعميق الايجابيات والسير بها الى آفاق رحية ...

كانت ثورة التصحيح ، متطلبا حتميا ، فكريا وماديا ، لاعادة الطريق الثوري ، الذي كادت القوى المعرقة أن تطمس معالمه ، نتيجة ظروف القهر والاضغوط التي مرت بمصر في منتصف الستينات وما أوصلها الى هزيمة ١٩٦٧ وما أعقبها من مرارة وتسيب وخراب .. ويوضح السادات أبعاد ثورة التصحيح التي قامت في مايو ١٩٧١ ، فيقول : « ان حركة التصحيح التي بدأت في مايو ١٩٧١ ، وان كانت قد عجلت بها مؤامرات مراكز القوى فانها كانت في جوهرها أمرا ضروريا ، حتى نضع شعبنا في الوضع الأكثر ملاءمة لتحمل أعباء المعركة والمساهمة في احراز النصر . فقد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ عن سلبيات كثيرة في حياتنا ، كانت تشوه وجه تجربتنا الناصع . ومنبذ آفاق الشعب من صدمة النكسة ، بدأ يطالب بالتغيير والتصحيح في الكثير من مجالات حياته ، وكانت الرغبة الشعبية العارمة من أجل التصحيح تقاوم من بعض مراكز القوى ، التي كان من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطاتها ، أو تغير أساليبها في العمل ، أو أن تقبل العلاقات الجديدة التي يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم » .

فقد كانت القيادة العسكرية في الجيش ضد التغيير ، وكان الفريق «محمّد فوزي» قائد الجيش و «أحمد كامل» رئيس المخابرات العامة يمثلان أحد مراكز القوى ، وكذلك كان «شعراوى جمعة» وزير الداخلية واللواء «حسن طلعت» رئيس المباحث العامة ، وكذلك كان «علي صبري» نائب رئيس الجمهورية ، وكذلك «سامي شريف» وزير للدولة في رئاسة الجمهورية ، كل هؤلاء كانوا من أقطاب (التنظيم السري) ، ومعهم كان الإعلام برئاسة «محمد فائق» وزير الإعلام ... كل هؤلاء كانوا ضد التغيير ، لأنهم كانوا مراكز القوى الأساسية التي كانت تفرض القهر والضغط ، وتتحرك من خلال «ولايات» أو «إقطاعيات» كنظام الانكشارية ! لكن السادات ، برؤيته السياسية الخلاقة ، وحكمته العظيمة وذكائه الحاد ، تبين أنه لا انتصار ولا تجاوز للهيمنة ، إلا بالتخلص من مراكز القوى ، ومن المناخ الفاسد الذي لا يكفل «الحركة» للجماهير لتسير في اطمئنان ، من أجل أن تتجاوز ظروفها الصعبة ، وأكد على هذه المعاني بقوله :

« برغم أننا كتبنا بعين في ظل ظروف النكسة ، بما تمليه علينا من اعتبارات وما تضعه على حركتنا من قيود ، وبرغم أن شاغلنا الأول كان الاستعداد لمواجهة عسكرية جديدة مع عدو يحتل أرضنا ويترصد بنا ولا يكف عن تهديدنا في قلب بلادنا ، فأننى وجدت أنه لا بد من اتخاذ الموقف الحاسم الذي يلي هذه الرغبة العميقة لدى الشعب ، واتقا من فطرة جماهيرنا السليمة ، ومن التفاف الشعب حول قيادته خلال معركة المصير .. كان لا بد أن يشعر كل مواطن أنه مسئول عن أقدار بلاده ، بقدر مسئولية سواء ... وأن قضاياه الأساسية تناقش أمامه علانية ، وأنه لا توجد وصاية تمارس عليه في الخفاء . كان لا بد أن يزول الخوف ، وأن تختفى بدور الشك ، وأن تتراجع الحزازات والأحقاد ، وأن يحسن كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله .. كان لا بد أن

يعرف كل مواطن أن الحرب المقدم عليها ، لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقيمتا أعلى وأرفع ، كما سوف تحمل له أملا في أن يتطلع بحق الى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة إلا في وطن قوى عزيز متحرر .. لهذا لم تقف حركة التصحيح عند حد تنحية مراكز القوى عن الطريق ، ولكنها انطلقت الى تحقيق جوهرها الأهم بالعمل على ارساء سيادة القانون ، واعزاز كلمة القضاء ، واقامة دولة المؤسسات ، ووضع الضوابط التي يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح ، ويمارسها في طمأنينة .. » .

ويضيف السادات ، مؤكدا على جواب وأبعاد ثورة التصحيح ،

فقول :

« كان جهدى أن تقيم دولة المؤسسات ، وأن يمارس المواطنون نشاطهم في سياق من سيادة القانون .. ولم أتردد في أن يتم التخلص من كافة الاجراءات الاستثنائية بالتدريج ، وأن تغلق كل المعتقلات أبوابها بعد ما يقرب من أربعين سنة من وجودها في ظل مختلف الظروف ، وأنى لوائق من أن الشعب لن يسمح بفتحها من جديد في يوم من الأيام .. وما زال هدفي ألا تكتفى الدولة بتحرير طاقة أبنائها عن طريق إزالة السدود والقود ، بل أن تتقدم ، أيضا ، الى رعايتهم وحمايتهم توفير مظلة من الضمانات الاجتماعية الشاملة ، وتوسيع قاعدتها باستمرار ، حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستظل فيه بظلها كل فرد »

وقد كنت أعرف ، أن كل هذه الاجراءات لابد أن تحمل معها حركة أكبر للكرء والأفكار والاجتهادات ... ولكننى ، كنت أوؤمن ، أيضا أن هذا أمر مطلوب وصحى ، وأنه الطريق الوحيد لتربية جماهيرنا على الفكر والحوار والمشاركة من خلال ما ارتضيناه من مؤسسات .. كما أئنى كنت واقفا ، أن فطرة شعبنا السلمية ، التى هى مصدر وعيه السياسى الحساس سوف تكفل لنا أن نمارس هذه التجربة من النضج الديمقراطى فى سلام .

نحن نعلم أن الديمقراطية ، ليست مجرد نصوص ، ولكنها ممارسة عملية
ويومية .

وكان السادات ، يعلم أن المهمة ليست باليسيرة ، فما مر بمصر ،
وبالانسان المصرى ترك داخله وخارجه تراكمات هائلة ، وتجاوز هذه
« التراكمات » مسألة لا يتم بقرار ، أو بقانون ، فهى مسألة تتعلق بوجودان
ونفسية هذا الشعب الذى تحمل الكثير من الولايات والضغوط ، ولكن من
خلال « التصحيح » يفتح الباب على مصراعيه ، لتمضى الخطوات فى الطريق
السليم للخلاص من كل ما من شأنه أن يعوق حركة الجماهير الثورية نحو
تحقيق منجزات ثورتها الديمقراطية . والمهم ، أن نبدأ فى الطريق الصحيح ،
فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة سليمة فى الطريق الصحيح ، وعلى حد تعبير
« سعد عثمان » فى كتابه (الفكر الذى انتصر) :

« ان المهمة ليست يسييرة ، والطريق بطبيعته طويل وشاق وحافل
بالتحديات . ان الذى تتصدى له ليس مجرد تغيير فى شكل مؤسسات
الحكم أو الادارة أو الانتاج . انه فى المقام الأول تغيير فى مفهوم العمل
وفى الأسلوب الذى نواجه به كل جزئية من جزئيات حياتنا ، فضلاً عن
قضايانا الكبرى ، التى لا تحتل أى عتب أو عدم تقدير للمسئولية ، كالذى
كانت تمثله تصرفات مراكز القوى التى حررنا حياتنا منها كان الانسان
المصرى وقدره ، واطلاق طاقاته للمشاركة فى بناء بلده وفى صنع القرارات
المتعلقة بمصيره . . هى محور عملية التصحيح . . أسلوب العمل فى الأجهزة
المختلفة من أكبر المستويات الى أضغرها هو هدف هذه العملية . دولتنا
الجديدة ، لا يستطيع أن ينفرد بالقرار فيها رأى مراكز القوى أو أبة جماعة
أو فرد ، لن تستطيع أية جهة من هذه الجهات بعد الآن أن تأخذ سلطة الدولة
فى يدها . . كما أعلن أنور السادات . . لن يستطيع انسان بعد اليوم أن يقول
(أنا الدولة) كما كان يقول لويس الرابع عشر فى فرنسا ، فالدولة دولة
مؤسسات دستورية ومجالس متخصصة ، والقرار ، أى قرار على أى مستوى
هو نتاج دراسات هذه الأجهزة وتفاعل الرأى فيها بأسلوب ديمقراطى . . ولكن

هل يمكن أن تشغلنا عملية التصحيح وإعادة البناء هذه عن المعركة أو تصرفنا عن الاستعداد لها؟ الحقيقة أن العكس هو الصحيح .. فالمعركة ذاتها هي أول ما يفرض علينا عملية ترتيب أوضاعنا وتقنية حياتنا من كل ما شابها من عيوب وأخطاء .. بل لعل الجولة الأولى التي هزمنا فيها من المعركة ، هي التي أيقظت فينا الوعي بهذه الأخطاء والتصميم على إزالتها .. وبغير عملية التصحيح لن نستطيع مواجهة الغزوات القادمة من المعركة بل ولن نقدر على اتخاذ القرار السليم بشأن المعركة نفسها .. اننا بإعادة ترتيب الدولة على أساس علمي وديمقراطي نكتسب حصانة ضد الارتجال أو الزيادة غير المسئولة في مثل هذا القرار الخطير ... » ...

وثورة التصحيح التي قامت في ١٥ مايو ١٩٧١ ، كانت منطلقا الى كل النجاحات والانتصارات ، التي حققناها ، وسنحققها ، في المستقبل . فقد أدت الى اعلان الدستور الدائم لمصر ، وعودة القضاء الى نصابه بعودة القضاة الى مقاعدهم محصنين مكرمين ، وعودة كل من فصل أو أبعد أو أقصى عن غير الطريق التأديبي ليمارس حقوقه كمواطن صالح ، والغاء الرقابة على الصحف والمطبوعات وإنشاء المجلس الأعلى للصحافة ، ثم كان (الغبور) الذي من خلاله استعادت مصر ، والعرب ، المكانة التي كانوا قد افتقدوها بين أمم العالم ، ثم التحرك العظيم والانفتاح الخارجى على الدول الصديقة وكسب أكبر حجم من العلاقات الدولية لصالحنا ولصالح القضية العربية ... ولا يزال أمام ثورة التصحيح الكثير من المهام والمنجزات الوطنية والديمقراطية ، سواء فى الداخل ، أو على المستوى القومى ، أو بالنسبة للعالم الخارجى .. فمن خلال التصحيح ، ستغير مصر ، ويتغير الانبعاث المصرى ، فكرا ووجدانا وقيما ، من خلال الدولة العصرية التي تقوم على العلم المصرى والايمان الروحى ، والتي ستلعب دورها على مستوى العصر ومتغيراته ، وتساهم بشكل خلاق ومبدع فى كل انتصارات ومنجزات عالمنا الذي يسير بسرعة ليحقق الكثير فى عالم الفكر والعلم والابداع ...

عندما قامت ثورة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ ، استقبلها الشعب بحماس هائل ، لأن الجماهير في مختلف مواقعها ، أحسبت أنها تعبر عن متطلبات المرحلة ، وتعبر عن آمالها وأحلامها ، فليد كان الكيل قد طفع وبلغ السيل الزبي ، ووصل الوضع إلى حالة من اليأس والتفكك بسبب سياسة مراكز القوى التي كانت قد استبدت وتجبرت وإطاحت بكل شيء من أجل مصالحها ومآربها الشخصية . لكن رغم الحساس الهائل الذي قبولت به ثورة التصحيح ، إلا أن بعض القوى الرجعية حاولت التشكيك فيها ، سواء في الداخل (الرجعية الداخلية) أو في بعض العواصم العربية (الرجعية العربية) ، وحاولت أن تفبر أن التصحيح ثورة ضد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأن حركة ١٥ مايو ٧١ ما هي إلا لضرب الناصرية ... وهذا خطأ فاضح ، بل وزائع ، لأن السادات نفسه ، كان دائما يردد ، وينطلق من مجور ، أن هذه الثورة ، قد قامت من أجل المحافظة على مبادئ ثورة يوليو ٥٢ ، والتي تسببت مراكز القوى والتنظيم السرى في محاولة طمس ملامحها والبعد بها عن مجراها الطبيعي ، بتحقيق مآربهم الشخصية ، وبالقهر الذي ساد ، ويضربهم لمكاسب الجماهير وابعادهم عن ممارسة حقوقهم في حرية وديمقراطية ...

وقد أحس السادات ، بذلك الفذ ، وبفطنته اليقظة ... متى وكيف تطل الأفاعي الرجعية ، لذلك كان يتحرك على كافة المستويات ، ويلتقى بالجماهير ، هو ورجاله الذين كانوا نواة حركة التصحيح انعطية ...

التقى السادات بالمقاتلين على خط النار ، ليلة ثورة التصحيح وقال لهم : « كونوا مطمئنين يا أولادى . بصوا قدامكم : اليهود .. ماتبصوش وراكم أبدا للجهة الداخلية ، لأنه اذا اقتضى الأمر علشان أحفظ سلامتها ، والله سأكون فى منتهى القسوة للى يحاول أن يشق جبهتكم الداخلية من وراكم . فمتفكروش فيها . سببوا جبهتكم الداخلية وكونوا واثقين ان الـ ٣٤ مليون بقلبيهم واحساسهم ، وكل ما يملكو وراءكم ، علشان دى معركتكم ، علشان تكسبوها ، وشرفهم حطينوا فى أيديكم » .

وفي خطابه الذي ألقاه أمام علماء الأزهر الشريف ، في ١٦ مايو ١٩٧١ ،
 أى في صبيحة اليوم التالي لحركة التصحيح ، أعلن تمسكه بضراوة لرسالة
 الثورة .. وقال أنه على استعداد لدخول أى معارك ، ومن أى نوع ،
 وبشراسة ، ومهما كلفه الأمر ، من أجل الحفاظ على أمانة الثورة واعلاء
 الحقيقة . قال السادات :

« نريد أن ننفي عن طريق الايمان ، الخوف في كل طبقات شعبنا الطيب
 الأصيل ، ولا نخاف أحدا الا سبحانه وتعالى ... اننى لن أفرط في الأمانة
 ولو اقتضى أن أدخل في أشرس المعارك سأدخلها ، ولن أفرط في الأمانة
 أبدا لا بد أن تظهر أرضنا من الاحتلال ، ولا بد أن نبني الدولة القائمة
 على العلم والايمان » ...

وكان السادات ، في تحركاته ، في هذه الفترة ، يحاول أن يجمع
 كل القوى الوطنية ، ليقضى على أى وجوه رجعية ، تحاول أن تطل
 لتحث نوعا من « الشرخ » في الجبهة الداخلية ، وكان يؤكد في كل
 لقاءاته بالقوى الوطنية ، أهمية تماسك وحدة الجبهة ، وأهمية تدعيم
 صفوف الشعب من أجل مواجهة الظروف الصعبة التى تواجهها مصر :
 « ان نقطة الانطلاق ، هى القضية الوطنية ، ويجب أن يتجمع حولها ،
 وبالتالي ، كل من يحاول من اليمين أو اليسار الذى ينفصل عن واقع وطنه
 ومعركته ، فانه يكون قد ساعد في حملة التشكيك هذه . ان خط مصر
 واضح : اننا حريصون على نظامنا وتراثنا وقيمنا الروحية ، وان ارادتنا
 الوطنية قد تحررت نهائيا ، وقد تجاوزنا مرحلة الخوف والحساسية من
 التعامل مع الدول الكبرى ، ومن ناحية أخرى ، فانا اتخذنا قرار المعركة ،
 وهو قرار نهائى ، وهى آتية ، ونحن داخلوها ، ولكننا لن نسمح لأى
 انفعال أو مزايدة مهما كان مصدرها أن تؤثر في صميمنا وتحركنا لتحرير
 بلادنا » (١) .

(١) جاء هذا في خطاب الرئيس انور السادات امام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ،
 بتاريخ ١٧ أبريل عام ١٩٧٢ ، أى بعد مرور قرابة عام على ثورة التصحيح .

الكثيرون ، حاولوا التشكيك في « ثورة التصحيح » (١٩٥٢) ،
الكثيرون ، حاولوا أن يعرضوا بكل انتصاراتنا ، خلال السنوات
الأربع الأخيرة : الرجعية الداخلية المتعاونة مع « الجيوب العريضة » أو
« الجيوب الخارجية » ، حاولت أن تشكك في كل شيء ، بل وحاولت
أن تفسر ، أن السادات قد خرج على مبادئ ثورة يوليو ١٩٥٢ ، والمثير ،
أن « بعض السفسطينيين » ، حاولوا أن يبرزوا الأمر على أساس ، أن
ثمة تناقض بين فكر التصحيح ومواقف السادات وبين الناصريين ، وارتدوا
(قبيص عبد الناصر) ، محاولين أن يزجوا بالسذج الى أتون تناقض وهمي ،
لينعطفوا بالتيار الأساسي الى « أزقة مظلمة » ، لتحقيق ما ربهم وأغراضهم ،
وشتان بين أفكارهم وبين ما تحققه ثورة التصحيح ومواقف وتحركات
السادات ، داخليا ، وخارجيا على المستوى المحلي والقومي والعالمي ، كبطل
وقائد ومعلم ومنظروثورى من الطراز الأول ، فهذه السفسطينية شرثربأوهام
سرعان ما تذوب ولا تصدقها الجماهير - التى هى جزء أساسى فى كل
الانتصارات الوطنية والديمقراطية والثورية التى تتحقق بين كل يوم وآخر
على الأرض العربية ...

والكثيرون ، أستمع الى كلماتهم ، وأقوالهم ، بل وآتابع كتاباتهم
فى صحف بيروت ، وغيرها من « الصحف المأجورة » التى تمول من
جيوب الرجعية العربية أو الامبريالية أو الصهيونية العالمية ، أراهم يبالغون
فى بكائياتهم على « الناصرية » ، ويصورون الأمر وكأن السادات ضد
الناصرية ، بل انهم يتخذون من جمال عبد الناصر منطلقا لتحركاتهم
وخطواتهم - على أساس أن « الناصرية » ، كعقيدة وممارسة ، هى
الأسلوب الذى لابد من اتباعه والسير به لانجاز مهام ثورة يوليو ١٩٥٢ ،
وهم يرددون فى مقالاتهم : « ان الناصرية (فكر وعملا) ، قد أكدت على
المستوى المصرى والعربى والعالمى نجاحها ، كعقيدة ثورية ، وأن أي
خروج عنها يعتبر موقفا عن مبادئ الثورة الأساسية التى قامت فى ٢٣

يوليو ١٩٥٢ والتي ارتبطت بها الشعوب العربية والتي هي قوتها الأساسية
 نحو تحقيق القومية العربية من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ،
 وفي كلام آخر جاء ما يلي : « ان ما يحدث في مصر ، يمثل خطرا لا على
 الانسان المصري وحده ، بل على وحدة الصف العربي ، فالتنكر للناصرية
 تنكر للقومية العربية وخروجها عن جوهر الثورة العربية التي تستهدف
 الحرية والاشتراكية والوحدة ، والتي تسعى لاستكمال منجزات ثورتها
 بعد وفاة الملمم الاساسي لها جمال عبد الناصر » ا وهذا يذكرني بحواربي
 ستالين في الاتحاد السوفيتي بعد وفاته ، فقد ظلوا يرددون شعاراته وأفكاره
 معلمي ، ان أى خروج عن « الستالينية » هو خروج عن الشيوعية والثورة
 الأممية ، مغرقين في مسالك عبادة الفرد ، ثم سرعان ما تكشف للعالم أجمع
 في أعقاب ١٩٥٦ ، وبعد قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي
 السوفيتي ، أن هؤلاء « الحواريين الستالينيين » ، كانوا سباحين في غيهم
 مغرقين في أخطائهم حتى آذاهم ، وأنهم أساءوا حتى الى الشيوعية نفسها
 بتصرفاتهم التي خرجت عن نطاق الماركسية - اللينينية ومبادئ الباليكتيكية
 والمادية التاريخية .. ا وليس معنى هذا ، أن « جوزيف ستالين » ، لم يكن
 بطلا وطنيا للروسيا ، لا ، يكفيه أنه سار بالروسيا فوق « قنطرة اللهب » ،
 وعبر بها في أحلك الظروف ، وحقق العديد من المنجزات الثورية في المجالات
 الداخلية والخارجية ، وعلى المستوى الأممي ، ويكفيه فخرا ، أنه كان قائد
 « معركة ستالينجراد » التي أعادت للاتحاد السوفيتي مكانته وهيبته
 وحفظته بين الأمم العظمى ، ويكفيه فخرا أنه استطاع أن يدحر الفكر النازي
 والحرب الفاشية ، لكن هذا لا يغفر له ذلك « الستار الحديدي » الذي
 وضعه الروسيا في اساره ، بل ، ولا يغفر له مواقفه المعادية للديمقراطية
 والحريات ، فكم أعدم وذبح وسجن واعتقل الآلاف باسم (الحزب) ،
 وباسم (الشيوعية) ، وباسم (الروح الأممية) - أو على الأصح باسم
 (الستالينية) ا وقد « سجن » الكثير من الثوريين ، داخل الروسيا ، كما
 فعل عبد الناصر ابان الخمسينات والستينات ، وباسم (الثورة) ، سجن ،

واستقل ، وذبح ، وأمات المئات ، بل الآلاف ، الذين كانوا يعبرون عن آرائهم ، ويعلمون عن رغباتهم ومطالبهم المعادية في الحريات السياسية والديمقراطية ! ونفس ما فعله « حواريو ستالين » ، يفعله ، اليوم ، « حواريو عبد الناصر » ، أو الذين يرتدون قميصه ، سواء في مصر ، أو في بعض العواصم العربية ، وطوال فترة ليست بالقصيرة ، ولا زالت أصدائها ، حاول الكثيرون النيل من « ثورة التصحيح » ، ومن حرب السادس من أكتوبر ، ومن مواقف السادات الثورية ، باسم الحفاظ والدفاع عن الناصرية ، وهؤلاء ، الذين أفضل أن أطلق عليهم : « صغار الناصريين » ، في لحظ شديد ، لأنهم أكثر من يسيئون الى فكر جمال عبد الناصر وأعماله التاريخية بسلوكهم ورعوتهم وتحركاتهم المثيرة الغامضة ، يطنطنون بشعارات جوفاء ، وبعبارات خرقاء ، ويرفعون شعارات الرفض ، وأنا واثق كل الثقة أنهم لم يقرأوا فكر عبد الناصر كما يجب ، بل وحتى لم يحاولوا أن يصلوا الى منهجه الفلسفي ومنطلقه الأيديولوجي ، وحتى لم يحاولوا رصد وتحقيق وتحليل المرحلة الفكرية التي عاشها عبد الناصر فكريا وعمليا .. وأذكر حوارا هاما ، ومثيرا ، دار بيني وبين بعض أقطاب هؤلاء « الناصريين الصغار » - أو صغار الناصرية ، وكان ذلك الحوار منذ عامين في بيروت وهذا « الناصري » صاحب أو مسئول عن إحدى الصحف البيروتية التي تعرف بتشبعها للفكر « الناصري » وتتقاضى أكياس النقود مقابل ذلك من إحدى العواصم العربية ، التي يهمها استمرار مثل هذه « المهاترات » . قلت لهذا (الناصري) :

* هل قرأت كتب عبد الناصر ؟

قال لي .. بحماس شديد :

- وهل مواقف عبد الناصر وثورته وبطولته في حاجة الى أن تقرأ

كتبه ... ؟

وقلت له في دهشة :

* وكيف تفهم ستالين ، أو ماركس ، أو فردريك انجلز ، أو لينين ،
أو ماركوزا ، دون قراءة أفكارهم وتعاليمهم ونظرياتهم ؟
قال لي « الناصري الصغير » :
— انك تتشدد بالألفاظ . انك بهذا تؤكد خيانتك للناصرية ... !
قلت له :

* لن أتوقف ، بل ولن أغضب ، فالجدل أبدا لا يغضب ، لكن ردودك
تدهنني . أفهم أن ناصريا عظيما لا يبدل أن يكون قد درس فكر جمال
عبد الناصر وتعاليمه والمرحلة التي عاشها نظريا وعمليا . فكيف أحدثك
عن اللينينية وأنا لم أقرأ كتب لينين عن (الدولة والثورة) أو (ما العمل ؟)
أو (الاستراتيجية والتكتيك) أو (خطوات في العمل الثوري) ، أو
(تعاليم لرجال الحزب) ؟
هل تعرف ماذا كانت الاجابة ؟

قال لي الصحفي اللبناني (المعروف) ، والمتشيع للناصرية ، وعبد الناصر
بريء منه كل البراءة :

— أنا أحب عبد الناصر لله في الله . كما يحب المصريون السيدة زينب
والحسين والسيد البدوي ، بهذه الطريقة نحن نحب عبد الناصر ، وندافع
عنه ، ونعبر الخروج عن مبادئه خروجا عن الثورة الأساسية التي هي
ملك لكل عربي أصيل من المحيط إلى الخليج :

اضطرت ، أن أتوقف عن المناقشة ، فكما ترى ، أن هذا ليس بجدل
ولا حوار سياسي ، بالدرجة التي يصل بها الكلام إلى لون من السفسطائية
الجاهلة ! وقد أردت أن أعرض لهذا « الحوار » بدقة ، وبدون زخرف
للكلام ، حتى يتبين للقارئ مدى ما يحمله هؤلاء الذين يطلقون على
أنفسهم بـ « الناصريين » ، من حقد وجهل وضعف ، المسألة التي تسمى

الى فكر ومرحلة عبد الناصر التاريخية نفسها فقط ، هؤلاء ، يتخذون من « الناصريه » ، سلما ، للتسلق الى مآربهم وأغراضهم الدنيئة ، و « قنطرة » للعبور الى أهدافهم التي لا تريد الا الحاق الشرخ بوحدة الصف العربى في ظروف غاية في الصعوبة ، تحتاج فيها الى كل تجمع لمواجهة عدو شرس ، ومواجهة الصهيونية العالمية والامبريالية ..

اذا كان جمال عبد الناصر ، كبطل قومى ، قد استنفدت المرحلة مهامه التاريخية ، وأصبح من المفروض ومن متطلبات المرحلة الثورية الجديدة ، فكر يتلاءم ويتواءم مع متغيرات العصر ، فهل هذا يلغى المنجزات التي حققها عبد الناصر ؟ بل ، هل من الصواب ، « الطنطنة » ، بأفكار وتعاليم مرحلة الخمسينات والستينات ، في مرحلة من المفروض أنها تختلف نوعا وكما ومحتوى وشكلا عن ظروف مصر المعاصرة ؟ تصوروا ، أن مجموعة من البشر ، تقوم اليوم في فرنسا ، لتروج للفكر البونابرتى ، وتزعم أن أى خروج عنه خروج عن فرنسا وخيانة لها ؟ أو تصوروا ، حتى في روسيا ، أن يقوم جماعة من البشر ، ليروجوا للستالينية ومبادئها وينعتون كل خارج عنها بالخيانة للروسيا ؟ أو تصوروا حتى في ألمانيا الغربية ، أن تقوم جماعة لتعتنق « الهتلرية » ، وتروج لها ، وتعتبر أن أى خروج عنها خيانة لألمانيا وقضيتها الأساسية ١١٩

لا أحد ، لا أنا ، ولا أنت ، ولا السادات ، ولا التاريخ نفسه ، يستطيع انكار كل الأعمال القيمة والمنجزات الوطنية التي حققها عبد الناصر ، كبطل قومى ، لكن في اطار المرحلة التاريخية التي امتدت منذ ثورة يوليو حتى نهاية الستينات .. والغاء ايجابيات هذه المرحلة ، الغاء لمنطق التطور والعلم . لقد حاول ، هؤلاء « الحواريون الصغار » - وهم داخل ثيابهم ومسوحهم أن يمثلوا (يهودا) المنطقة العربية - حاولوا أن يصورا ، أن أنور السادات ضد فكر عبد الناصر .. وهذا خطأ فظيع ، بل وفظيع للغاية ، لأنه افتراء على التاريخ ، والسادات ، ومنطق التطور والعلم ، وهذا مالا يقبله فكر

متحرر ، أو سياسى ، منفتح لمتغيرات العصر وتطوراتها المحلية . فالسادات ، امتداد لمرحلة عبد الناصر ، واستمرار لثورة يوليو ١٩٥٢ ، لكن مرحلة اليوم غير مرحلة الخمسينات والستينات ، انها مرحلة تستلزم فكرا وعملا أكثر فهما لمتغيرات وأفكار العصر ، مرحلة تحتم مزيدا من الاستيعاب لكل مقدرات وأفكار وقيم العصر الذى نحياه ، ومن يقول غير هذا بضرب بالعلم والمعرفة الانسانية عرض الحائط .. والسادات نفسه ، يؤكد على هذا فى خطبه وحوارياته وكلماته .

انه يقول :

((لقد كانت ثورة ٥٢ منسجمة مع منطق التاريخ . كانت ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ منسجمة مع موقف التاريخ حينما استقر قرارها على أن تحالف قوى الشعب العامل ، هو وحده ، السلطة القادرة على بناء المستقبل الحقيقى ، لانه القوة التى صنعت التاريخ الحقيقى .. والتاريخ دائما ، من صنع اولئك الذين يفكرون ويعملون ، ويعملون بالايمان الراسخ واليقين الاصيل ، هؤلاء هم صناع التاريخ ، فالفكر تقدم بالطبيعة ، والعلم بالضرورة ، والعمل لا يمكن ان يكون مستغلا وانما العمل عطاء وازضافة وبناء خلاق ومتواصل ... ان ثورة ٢٣ يوليو ، ازاحت الاستغلال وحرمته ، ثم فتحت المجال فسيحا لقوى الشعب العامل مصدر الاصلية ومنبعها ، والمالكين لزام الفكر والعلم والعمل .. وكان ذلك انسجاما مع منطق التاريخ ، وكان ذلك ، ايضا ، انسجاما مع منطق المستقبل .. ولقد اخترنا المستقبل ، حينما اخترنا الحرية والاشتراكية والوحدة ، اهدافا عظمى لنصا لنا . ليس هناك من يستطيع ان يحمل امانة هذه الاهداف العظمى ، غير تحالف قوى الشعب العامل ، لانها قوى الاصلية ، ولانها قوى الفكر والعلم والعمل ..))

وهكذا يؤكد السادات على أهمية مرحلة عبد الناصر ، وما حققته من انسجام ومنجزات ، فى اطار المرحلة التاريخية ومتطلباتها الداخلية

والخارجية . وأبدا ، لم يحاول السادات أن يلغى فكر عبد الناصر ، أو مرحلته التاريخية ، كما حاول بعض المغرضين ، أن يصوروا هذا ، وبوقاحة بل ان السادات ، من منطق ثورته ، واصالته الفكرية ، وحكمته الثورية ، كان دائما يشيد بإيجابيات الخمسينات والستينات ، فهو امتداد لهذه المرحلة ، لكنه استطاع أن يستوعب ما فيها وما في العصر من متغيرات مادية وفكرية وحسية ، واستطاع أن يوظفها من أجل خدمة الثورة المصرية ، ومن أجل تكريسها في اطار التصحيح الذي حمل لواءه منذ ١٥ مايو ١٩٧١ .

كل ما تحدثنا عنه في هذا الفصل ، مبرر ومعقول .. معقول ان ينطلق فكر ثورى ، ينبغي السير بالبلاد الى مزيد من التقدم والتطور ، ويواجهه فكر انهزامى ورجعى يحاول أن « يشوش » عليه ، بمعنى أن تظهر مجموعة من المتسلقين والانتهازيين ، ليطنطنوا ويشوشوا على أفكار ثورة التصحيح وما حققته من منجزات فكرية وعسكرية وديمقراطية ووطنية ، ومدعين انهم حملة (راية الناصرية) .. أو (راية الرفض) !.

كل هذا معقول ، ومبرر ، بل ومشفوع له على أساس أن أية شجرة محملة بالشمار لا بد أن تقذف بالحجارة ، فليست هناك شجرة غير مثمرة ينتبه لها أحد ، وليست هناك أوراق جافة تسترعى الانتباه ، دائما للشجرة التى تحمل ثمارا ، تصبح مطمعا للغير ، على عكس أن الشجرة التى لا تحمل ثمارا ولا أوراقا لا تعطى ظلا ، ويهرب الناس منها ولا يولونها التباهم ، وهذا المعنى يؤكد عليه كاتب مثل برتراند رسل ، عندما يقول : « صدقونى ، أما ما من مفكر ثورى معطاء ، الا وتعرض لهجوم شديد من الرجعيين .. والمفكر العادى ، تهر أفكاره ، بلا مبالاة ، بل ، ولا تستلفت أمرا ما ! » كل هذا معقول ، ووارد ، وعادى ، على أساس ، أن أى فكر يسير به قائلة ما أو زعيم ما ، أو منظر ما ، في مرحلة بذاتها ، معرضا لنوعية من البشر يحاولون النيل منه ، وهذه سنة تناقضات الواقع .. حتى فكر هتلر ، نفسه ، مع

اختلاف وجه المقارنة ، قد خلق حواريين له ، ظلوا يلهجون بتعاليمه ، ويطنطنون بأفكاره وآرائه لسنوات ليست بالقليلة ، بل وصل بهم هذا الفكر ، أو هذا « التأليه » الى حد الجنون ، حتى أنهم قالوا : « ان هتلر لم يمت ! » ، وقالوا : « أنه لا زال يحيا ، في نفق تحت الأرض ، وأنه في يوم من الأيام ، سيظهر ليخلص ألمانيا من العذاب ، فهو مسيحها الذى لا يقهر .. »

ونفس الأسطورة ، أو الوهم ، أو الخرافة ، تتكرر ، مع اختلاف (المشهد) ... عاد (يهودا العربى) - أو (الحواريون الصغار) ، يرددون في أوراقهم الصفراء ، وفي مقالاتهم ، التى تمتلئ بها صحف بيروت وغير بيروت بل وفي بعض مجلاتنا المصرية وفي بعض التقارير والمنشورات التى تظهر خلصة بين أروقة الجامعات والمصانع والمؤسسات العامة .. فيقولون بالحرف الواحد : « كذبوا ، فقالوا ، أن جمال عبد الناصر ، قدم مات في ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . لا . هذا لم يحدث . لم يمت ناصر . سيبعث يوما ما ، بل نحن قادرون على بعثه وحيائه ، واستعادته بالتمسك بأفكاره وتعاليمه .

ففكره لا زال حيا ، وشخصيته وروحه لا زالت تحيا داخلنا ، ومن يقول غير هذا فهو رعديد ، جبان ، ولا يحترم التاريخ ، ومن يقول بغير هذا ، ينكر ما حدث في الوطن العربى ولطوال عشرين عاما ، فعبد الناصر لم يكن بطلا ثوريا ، بل ولا مناضلا عظيما ، فقط ، كان الرمز ، كان الأمل . كان كل شيء ، بل استطاع ان يصل بفكره الى درجات الفلاسفة والأنبياء !! بل اننى ، استمعت في اذاعاتهم المغرصة ، ومن خلال أقاويلهم المسافرة التى تهبط بالفكر وبالألسان الى احط درجات التفكير ، بل اننى حرصت ، ولا أخفي عنكم ، اننى سجلت على أشرطة بعض هذه الأكاذيب على « كاسيتات » لاستعين بها ، وأنا أكتب هذه الدراسة ، سجلت من بين ترهاتهم وأكاذيبهم ما يزيد عن العشرين شريطا ، أى ما يقرب من عشر ساعات من (الأكاذيب) ، لاستعيدها وأنا أكتب هذا النقد وهذا الرصد لأقوالهم ، حتى لا أكون

مُبالغاً ، وحتى أكون ملتزماً بالموضوعية الشديدة : ومُعظم هذه « الأشرطة » أو هذه « المظاهرات » ، تسمى الى جمال عبد الناصر ، كبطل وطني ، أكثر مما تدافع عنه ، فهي تتاجر بأفكاره وتدلل به في مراخصات ومزایدات أشبه بسوق الدلائل ...! وعبد الناصر ، كما قلت ، وكما تؤكد دائماً ، ليس في حاجة الى دفاع ، فايجائيات مرحلته تؤكد أنه كان يسعى سعياً واضحاً الى النهوض بمصر وبالمنطقة العربية ، لكن ظروف المرحلة كانت تتسم بالضبابية والمناخ الصعب ، وكثوري ، وكبطل قومي ، في الخمسينات والستينات ، استطاع أن ينجز الكثير من المهام لثورة يوليو ١٩٥٢ ، ابتداء من القضاء على النظام الملكي ، الى جلاء القوات البريطانية عام ١٩٥٤ ، الى ضرب الاقطاع ، الى تغيير علاقات الاتاج والواقع لصالح الثورة ولصالح التقدم ، بل واستطاع على المستوى القومي والعالمي أن يؤكد الشخصية المصرية والعربية من خلال العديد من الأعمال الايجابية ، لكن المرحلة — بقدم السبعينات ، كانت قد استنفذت أغراضها ومهامها ، وكانت في حاجة الى متطلبات ثورية جديدة ، تسير متغيرات العصر وتلائم ظروف مصر وفقاً لما حدث ..

كان لابد من استيعاب الواقع المصري ، في حكمة ، واستيعاب كل امكانيات وقدرات العصر في سرعة لتوظيفها من أجل حل تناقضات « المسألة المصرية » و « القضية العربية » والعبور بمصر والعرب الى آفاق صحية تكفل لها السير الى منجزات وانتصارات ثورية تخرج بها عن اطار (الكبوة) التي لحقت بها بهزيمة ١٩٦٧ .. وهذا كان يتطلب نوعاً من (التطهير) ، أو (الاغتسال) ، أو (التصحيح) لكل الأوضاع ، للخلاص من كل الأدران والأمراض التي لحقت بمصر وبالاتسان المصري نفسه واصابته في الصميم من الداخل حتى بدا كالمزق والاهتراء ! !

والغريب ، والذي يدهشني ، حقا أن مجموعة من « اليساريين » ، تدافع عن بعض هذه الأفكار التي تروج في بعض العواصم العربية ممن يحاولون ارتداء « قميص عبد الناصر » .. وقد قرأت بعض مقالات لهؤلاء ،

تقول « ان عبدالناصر كان يمثل اليسار بالنسبة للثورة المصرية ! وهذا قول غريب ، ومثير ! أحقا ، هذا ١٩ بل وقد قيل « ان عبدالناصر ، كان سببا في تطور اليسار المصرى » وهذا لا يمكن قبوله ، منطقيا . ومشكلة « يسار اليوم » ، وبالذات اليسار التقليدى ، ان أفكاره قد تخطتها المرحلة الثورية وشعاراته التى كان يرددتها فى الخمسينات والستينات ، أصبحت تقليدية ، وعفا عليها الزمن ، وأصبحت فى خبر كان .. كذلك الحال ، بالنسبة لليمين الرجعى ، تكمن مشكلته فى أنه سار وراء عمليات النضال اليومى منذ عام ١٩٤٦ ، ومن خلالها كان يستقى فكره ، بمنهجية مثالية ، وشكلية بحتة ، تبعد عن المنطق العلمى ، وتخضع للمنطق الصورى (الفورماليزم) — أو ما يمكن أن نسميه بالمنطق المعاكس لتطور العلم ومدلولاته الجدلية ومعطياته المتطورة ..

والمشكلة التى قد تصادفك ، فى مجتمعنا ، اليوم ، واثت تتحرك من منطلق الدافع الوطنى الصرف لخدمة كل ما يدور على أرض بلادنا من منجزات ثورية ، أنك ان لم تكن مع الشيوعيين ، واليسار التقليدى ، فأنت خائن ، ويمينى ، ورجعى ، وربما عميل للنظام وللسلطة .. وانك ان لم تكن مع اليمين ، فأنت أحمر ، وقرمزي ، وشيوعى ، منحاز لدولة أجنبية .. واذا خرجت عن تيار واحد منهما ، لآنك فضجت فكريا ، وأصبحت غير متجمد أو غير عقائدى ، لا تهمونك بالعمالة ، ولقالوا عنك « أنك بعت نفسك للسلطة بأبخت ثمن » !

واذا كنت فى فترة من الفترات منقادا لليسار التقليدى ، لآنك رأيت فى أفكاره اعظم ما يخدم المرحلة الثورية ، ثم تغيرت فكريا نتيجة قراءاتك وأفكارك ونتيجة لمتغيرات الواقع والعصر ، وبدأت تؤمن بأفكار مثل كولن ولسن أو هربرت ماركوزا ودوتشيك ، وغيرهم ، أو بدأت ترتبط بفكر وطنى أصيل نابع من أرض مصر نفسها .. لقالوا عنك « أنك مراجع » و « خائن » و « غير مؤتمن » و « مرتد » .. ونفس الكلام قاله الشيوعيون التقليديون فى فرنسا ، عندما نادى هنرى لوفافر بالديمقراطية

وبالخروج عن العقائدية الجامدة ، قالوا « ان لوفافر مرتد ، وخائن ، وعييل » .. وهذه التحليلات الساذجة ، أو « العبيطة » من قبل الذين لا يؤمنون بمنطق التطور ، ويرتبطون بالعقائدية الجامدة ، ولا يقبلون منطق متغيرات العصر ايدولوجيا وحضاريا وثوريا ، لا تصل في النهاية بأصحابها الا الى طريق مغلق مسدود بل ربما أكثر من هذا ، لأنها قد تعمق (مفهوم التناقض) بينها وبين دولة وطنية وديمقراطية ، الى حد قد يصل الى اتهامها بالعمالة والالتقاء بالامبريالية .. ألم يحدث من قبل أن (البعض) في بلادنا ، انهم كتبوا ، علانية ، وعلى صفحات مجلة (الكاتب) منذ عام تقريبا ، أن مصر باعت القضية العربية ، وأنها ألغت التناقض الأساسي بينهما وبين الامبريالية من أجل (الاتفاق) ، وبهذا وصلوا في تحليلاتهم الى أن حكومة مصر الوطنية عميلة ، بل وتلتقي مصالحها مع الامبريالية ١١٩



مثاما حاولت العديد من الاتجاهات والتيارات ركوب موجة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما حدث من سلسلة قرارات اشتراكية عام ١٩٦٢ ، وما حدث من تغييرات في مجتمعنا تجسدت في صورة الميثاق أو بيان ٣٠ مارس .. حاول الكثيرون ركوب موجة ثورة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ . ان المشكلة تبدو ، دائما ، ليس في اعلان المبادئ أو القيم أو الشعارات ، بل المشكلة كيف يتم مسار هذا التصحيح ، ومن يقوم بتنفيذه ، والسهر على انجازاته ان القضية الأساسية ، تعود بنا من حيث نبدأ ، وعندما نقف لنبدأ ، تتذكر بمرارة كلمات فولتير عن الثورة وتطبيقاتها وثمارها : « ان الشجعان يصنعون الثورة ، بينما الجبناء يحنون ثمارها » ا وأي محاولات للثورة أو التصحيح ، دائما معرضة للتيارات الانتهازية والتسلقية التي تحاول ركوب الموجة ، حتى الخصوم أنفسهم قد يحاولون ذلك من أجل احباط كل شيء . وقد كانت الهزيمة التي منيت بها مصر عام ١٩٦٧ ، وما أعقبها من ظروف مريعة ، كانت هذه السنوات منطقة تجميع لكل شيء ، لكي نرى

الواقع بوضوح ، وقد فُجرت هذه الظروف الصعبة أوضاعاً كان من الصعب تفجيرها لأنها لم تكن من السهل أن تطفو على السطح الا في ظروف عصيبة كالتي عاشتها مصر قبل ثورة التصحيح . وكان لا بد من إعادة النظر في كل شيء ، لإعادة الحياة الطبيعية لمصر ، وإعادة الروح الأصيلة التي افتقدتها الأرض لسنوات ليست بالقليلة . لذلك كانت ثورة التصحيح ضرورة حتمية ، ومطلبا ملحا تمليه طبيعة المرحلة . ومنذ أن تولى أنور السادات رئاسة البلاد في أكتوبر ١٩٧٠ ، أخذ يرقب كل شيء ويرصد كل ما مر بمصر من ظروف وملابسات حتى يعود بمصر الى روحها التي افتقدتها لأسباب استثنائية وغير طبيعية .

وبدأ يضع استراتيجيته وبرنامجه وتكتيكاته السياسية والمرحلية وفقا لذلك . كشف عن الانحرافات الكبرى في مصر التي تمثلت في مراكز القوى ، والتي كانت سببا في اهدار شرعية كل شيء وضياح سيادة وهيبة القانون ، وكشف عن التسيب والعبث والسلبيات التي كانت تقود مصر من خراب الى خراب ومن دمار الى دمار .. وقد اختلطت الأمور .. اختلخل الحابل بالنابل .. حتى أنه أصبح من الصعب التعرف على (الثورى) حقيقة ا فالكمل يرفع شعار الثورة ، اليسارى واليميني ، والثورى والرافض بل وخصوم الثورة أنفسهم ، وأكثر الاتجاهات رجعية ، أيضا أصبحت تشددق بشعارات الثورة !

الثورى لم يعد سهلا ، التعرف عليه !

والانتهازى والتسلقى ، أصبح يقول : أنا ثورى !
وبرزت العديد من الاتجاهات والتيارات ، مع تعاظم حركة التصحيح ، وتقدم مسارها الثورى : اليسار التقليدى ، اليسار الجديد ، اليمين الرجعى البسين المستنير ، دغاة الناصرية ، حملة أفكار التصحيح الخالص الذين لا يتقادون الى أى اتجاه ولا ينتمون الا الى مصر وأرض مصر ويتخذون من ثورة التصحيح مثارة لهم ، بقايا فلول الرجعيات ومراكز القوى أو المتعاطفين مع أفكارهم وشللهم ..

وقد تعرض أكثر من مفكر ومنظر وكاتب لأوضاع مصر في أعقاب ثورة التصحيح وفي أعقاب ما تم من نجاحات لمساراتها المختلفة ، محليا وقوميا وعالميا ، وقد تعرضت صفحات جرائدنا ومجلاتنا لجدل وحوار ساخن ، وصل الى حد التراشق واللقاء التهم والخianات بين « اليمين » و « اليسار » ، ورغم ايمانى العميق بتقسيم الصراع فى أى مجتمع الى اتجاهات يمينية ويسارية ، الا أننى أؤمن فى هذه المرحلة الهامة التى تمر بها مصر ان أقول .. أن هناك ثورى ، يؤمن بمصر ، وبضرورة تطورها وانتصارها ، وبأن مبادئها وأفكارها لا بد أن تكون من أرض مصر نفسها .. وهناك غير ثورى ، لا يؤمن بمصر ، ولا بضرورة تطورها ، ويميل الى الاتجاهات « المستوردة » .. و « الثورية » هنا ليست قاصرة على اليسار أو اليمين ، انما ينضوى تحتها اليسارى أو اليميني ، أو الوسط ، حسب ما يحمله من ولاء واجلاص وتفان وقدرة على المبادرة والعمل من أجل مزيد من العطاء لمصر فى اطار التصحيح ، وفى اطار ما يدفع بمصر الى الامام نحو عالم أكثر تقدما وكبالا وتطورا ..

الواذكر أن الكثيرين ، ممن تعرضوا للحوار والجدل فى صحفنا ، كان يجرحهم تيار « العصبية » ، أو « الذاتية » ، فكانوا يميلون فى طرحهم للأمور الى التجريح أو الهجوم ، دونما الالتزام بمنطق الموضوعية التى هى أساس النقاش والجدل من أجل الوصول الى وضوح فى الرؤيا .. وهنا اذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان بعض اليمينيين ، عندما عرضوا وجهات نظرهم تصدى لهم اليسار بالهراوات الفكرية ، وكذلك حدث الأمر بالنسبة لليساريين أنفسهم ، لاقوا نفس العنت من بعض غلاة الفكر اليميني ..

ويحضرنى هنا ، بعض المقالات التى كتبها الدكتور « فؤاد زكريا » عن « تجربة اليسار المصرى .. والناصرية » ، فعندما نشر دراسته فى هذا الصدد انبرى « اليسار التقليدى » بـ (العصى) الفكرية ، على رأسه ، وبضراوة ، وكان الرجل قد ارتكب جرما فادحا لا يعتقر ، وهو ، فى تقديرى ، قد انطلق

من محور الجدل الصحى المفتوح ، والذى هو أساس المناقشة الموضوعية الأصلية لمختلف قضايا واقعا ، بل ووصف الرجل بالعمالة وقصر النظر وعدم القدرة على الرؤية فى وضوح ! كذلك ، كان الأمر ، عندما وقف الأديب والمفكر « يوسف السباعى » ، وهو فى نفس الوقت مسئول عن وزارة الثقافة كوزير ، عند ما وقف يدافع عن خط الدولة فى مجال الثقافة ويعلن أن هناك الكثير من المقالات والأبحاث تنشر فى مجالات وزارة الثقافة وتسمى الى موقف مصر وفكرها ، مثل ما نشر من العديد من المقالات فى مجلة (الكاتب) خلال عام ١٩٧٤ ، أنهم باليمينية والرجعية ، بل وهاجموه بشدة سواء فى بعض الصحف والمجلات المصرية أو فى بعض الصحف والمجلات العربية الأخرى التى تصدر فى عواصم الوطن العربى وتمول برؤوس أموال خاصة لها فكرها ومغزاها فى التشويش على فكر التصحيح وثورة مصر وما يحدث على أرضنا من انتصارات فكرية ومادية منذ ١٥ مايو ١٩٧١ . 1٠٠ والمشكلة التى تواجهك ، حقا ، وأنت تحلل وترصد قضايا الواقع المصرى من خلال المتغيرات والمعطيات المتنوعة ، أنك لست امام تيار فكرى واحد أو فكر متسق بذاته ، فاليسار نفسه متعدد الاتجاهات والروافد والمنابر ويضم اليسار التقليدى ، واليسار الماوى ، واليسار الليبى ، واليسار العراقى ، واليسار السورى ، واليسار الجديد . وكذلك اليمين .

وكقاعدة ، عامة ، صحيحة ، أن « الحوار » ، أو الجدل ، لا بد ان ينطلق من أرض موضوعية فى المناقشة ، ولا يتخذ من فرص المناقشة ثكنة ذاتية أو شخصية أو شللية ، انما لا بد ، أساسا ، من اتخاذ الحياد الكامل والموضوعية الشديدة التى لا تستهدف المآرب الشخصية ولا تحاول ان تكرر مأساة « الانكشارية » القديمة ، فتعود بمصر الى سياسة مراكز قوى يسارية أو يمينية ، وانما يجب أن يكون « الحوار » منطلقا من أرض مصر وغاياته التطور بمصر نفسها ، دون استيراد الأفكار أو تسويق « سلع ايدولوجية » ، فالفكر الأصيل لا يعرف « الملعبات المستوردة » بل ينهض ، أساسا ، أن ينبعث من الأرض ومن فكر مصر الأصيل ، وحضارتنا قادرة

ومعطاءة لأنها الهمم وأبدع وأعطت وافرزت فكرا وعلما لكل العالم لطوال ما يزيد عن ستة آلاف سنة ..

ويعود السادات ، ليؤكد على مغزى وأهداف ثورة التصحيح الكبرى ليبين جوهرها الأصيل ، فيقول :

((ثورة التصحيح في ١٥ مايو لم تكن مجرد تنحية لمراكز القوى . لا . كان جوهر ثورة التصحيح في ١٥ مايو الى جانب ازالة مراكز القوى جوهر آخر ، هو سيادة القانون .. اعلاء كلمة قضاء .. اقامة دولة المؤسسات .. ووضع الضوابط التي يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح)) .

وهو يؤكد ، انه ما لم تكن هناك اصالة لمصر وولاء لارضها ، فكل التحركات والمسارات الى هباء ، فالاصل مصر ، والغاية مصر ولا بد أن يكون كل فكر تابع من ارضها وترانها وحضارتها ، حتى يكون مسار التصحيح على اكمل الوجوه ، سواء في التحرك الداخلي أو على المستوى القومي أو على مستوى العالم :

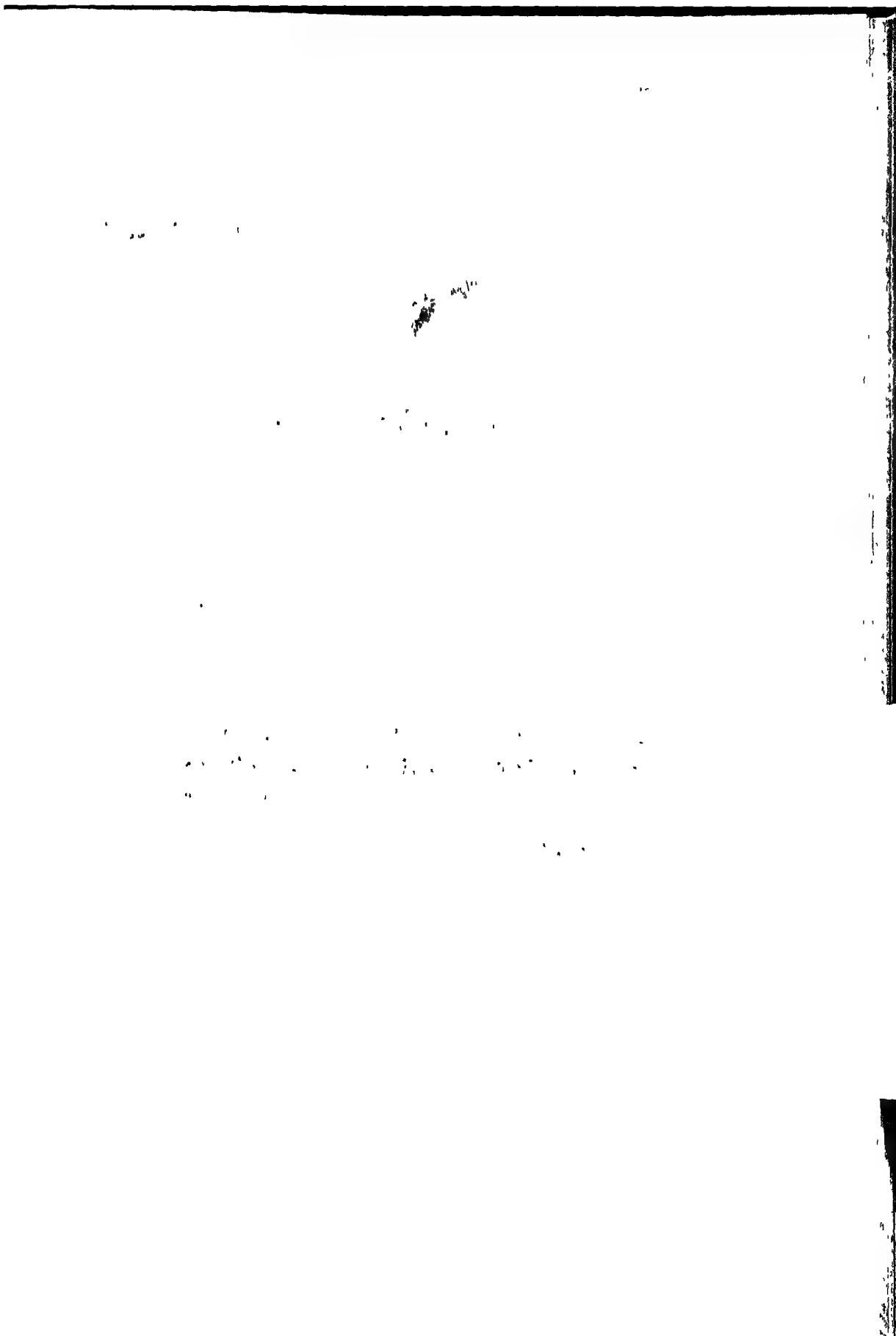
((الاصل عندنا هي الوطنية . لقد كافحنا منذ مئات السنين في سبيل استقلالنا وحريتنا . فاذا كان هناك - في هذا الوطن - من يريد أن يجعل من نفسه عميلا لدولة اجنبية ، فليعلم ان وطننا هذا وطن الاشراف الاطهار ، ولا مكان له بيننا . . اننا نمد يد الصداقة الى كل من يريد صداقتنا . اننا نريد الصداقة الشريفة . صداقة الند للند . نحن لسنا دولة كبرى ، ولا نهدد بالقنابل الصاروخية ، وانما نحن نقف هذا الموقف لاننا نملك ما نؤمن بأنه اقوى من هذا . نحن نملك الايمان بالله سبحانه ونعالي . . ونملك القلوب المؤمنة بهذا الشعب . . وهذه القوة لا يمكن أن تفهر ، لأن قوتها من قوة الله)) . .

الفصل الخامس

أكتوبر.. والخلاص بالعبور

« لقد قاتلنا .. وأمامنا قتال شديد . ولكن سلاحنا
وفتالنا ، ليس سلاح وفتال العدوان ، وإنما هو سلاح الحق
والحرية »

أنور السادات



لا يفتقدون إيمانهم أبداً . الذين يقاتلون دفاعاً عن الحرية ، لا يفقدون إيمانهم أبداً . معركة العنداء تبدأ ولا تنتهي **رأية** إلا بالعدل الشامل . الصعاب ، الشقاء ، المرارة ، عقبات في الطريق ، لكنها ليست نكباتاً أبدياً . العدو ليس سوى مجرد ستار أسود ، لكنه ليس ليلاً دائماً ..

الفارس الغربي ، سيظل حاملاً سلاحه أبداً ، لن ينسلكم ، لن تموتوا (كنبوة) عن القيام ، والنهوض ، والمضي قدماً ، لاستعادة أنفسكم ، ليحارب من جديد .

فهذا (الفارس) يقف على أرض حضارية وعلمية وفكرية عمرها سبعة آلاف سنة . يخدم الفارس ، قد يصاب بجرح في كتفه ، لكنه ، أبداً ، لا يتلقى السلاح على الأرض ، انه جزء من تطور هذا العصر ، في تقدمه إلى الأمام .

الفارس العربي ، لن يغمض له جفن حتى ينال حقوقه كلها ، ويثار للغدر والهزيمة التي لحقت به ، لظروف غير عادية ، ليست هي شأنه أو خصاله .. الجيش في معركة ، يناضل ، أبداً .. الجماهير في معركتها ، لا تهدأ لحظة ..

لم تكن هزيمة ١٩٦٧ ، إلا كنبوة ، ولم تكن جنازة الاحزان وموكب الدموع في ١٩٧٠ ، إلا نقطة شئت ظهور الركع والمقهورين ليهبوا من جراحهم ليحسوا السلاح ، ويتطهروا .. فلا تظهر إلا بالحرب .. ولا اغتسال الا بالبارود ..

لأن ما لحق شعبنا وأرضنا بالعنف لا يشترط إلا بالعنف .. والحرب ، عارك ، وليست معركة واحدة ..

والشعوب العربية ككل الشعوب المناضلة . يجب أن ترفع شعار : قم
وأمضى ، وقاتل ، حتى تستعيد أرضك ..
الفشل ليس معناه الهزيمة والموت انه مجرد جولة .. قاتل ، مرة أخرى ،
حتى تنتصر ، وتستعيد نفسك وأرضك .
لقد فشل الصينيون في حربهم ضد أمريكا في البداية ، في أواخر
الأربعينات ، ولكنهم نجحوا ، عندما استعادوا أنفسهم وقاتلوا ، وحققوا
النصر ..

ولم يكن فشلنا في ١٩٦٧ ، إلا محاولة لرؤية ما نحن فيه وما يدور
حولنا وفي عالمنا من المتغيرات .. فلقد أخطأنا في تقدير الحسابات وأوصلنا
الفكر التجريبي والمتسرع والانهمامي الى ما حدث في يونيو ١٩٦٧ ، بل
وكان درساً صعباً لنذكر حقيقة الأمور ، وكان علينا أن نستعيد الأوضاع ،
ونعد أنفسنا للحرب من جديد . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فقد كان
علينا أن نغير أسلوبنا أو منهجنا ، أو تكتيكنا ، بقدر ما كان علينا أن
نستعرض المرحلة الفكرية والمادية ، ككل ، التي قادت الى يونيو ١٩٦٧ ،
تبيين سلياتها وأخطائها ، ونحاول أن نصحح الواقع ، من أجل أن نمسك
السلاح في حكمة واتزان وقوة ، وعلى أرض ثابتة تتحرك عليها في ثقة
ونحن واثقون ان الجبهة الداخلية تحمي ظهور الجيش ، ولذلك لم يكن
من الممكن أن يحدث أى تحرك دون التصحيح ..

.. فتورة التصحيح ، كانت المنطلق لتصحيح الواقع ، والذي من خلاله
عبرنا على «جسر ثابت» ، خال من مراكز القوى ، خال من التهور والانفعال ،
بلا أكاذيب أو ترهات أو أوهام أو مبالغات عالية ، ومن خلال حسابات
وتطورات قد استوعبت كل ما في العصر من تقدم علمي وتكنولوجي في
فهم استراتيجيات الحرب والسياسة والدبلوماسية

ورغم أن الكثيرين ، كانوا يحاولون التقليل من استعداداتنا وجديتنا
في التحرك والاعداد ، الا أن هذا لم يجعلنا نأمن ، وكان أنور السادات

يلتقى بالجماهير بين وقت وآخر لينبهم ، ويستيقظ همهم ، ويجعلهم
يحيون معه لحظة بلحظة ، في اعداد كل شيء للمعركة .. فالمعركة قادمة ،
ولا ريب فيها .. ولا خلاص الا من خلالها :

« اننا قادرون على خوض المعركة ، قابلون لجميع
تضحياتها وتكاليفها ، واثقون ان التطور التاريخي يتحرك
لصالح كل ما ندافع عنه ، ايماننا منا .. معتقدون اننا لسنا
في المعركة وحنا . ذلك لان ما نواجهه هنا على الارض العربية
هو جزء من مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية
والثقدم ، بينما هي تشعر بحصار التاريخ لمطامعها .. »
وكان السادات لا يفتا ، في كل مناسبة ، يلتقى فيها
بالجماهير ، يتحدث عن حتمية الحرب والعبور ، فهما
الكفيلان باعادة مصر الى وضعها الطبيعي ، وما حالة اليأس
التي اعقبت سنوات ١٩٦٧ ، الا حالة استثنائية ، وليست
حالة عامة ، وليست من شيمت مصر الهزيمة : « لا مناص
من المعركة ، لكي نحرر ارضنا ، ولكي نثبت للعالم اجمع ،
شرقه وغربه ، اننا امة نستطيع ان ندافع عن حقنا ، نسترد
ارضنا ، اننا امة قد تلحق بنا هزيمة يوم من الايام ، نخسر
معركة ، ولكننا ، ولا يمكن ان نخسر مصيرنا ولا نخسر
نفوسنا ، ولا ان نخسر ايماننا ، ابدا .. لن نستطيع قوى
الارض مجتمة ، ان تجعلنا نخسر نفوسنا او نخسر
ايماننا .. »

لكن رغم ذلك كله ، ورغم كل التحركات التي كانت تقوم بها مصر ،
والاتصالات العريضة التي كان يقوم بها السادات على المستويين القومي
والعالمي ، فان الكثيرين ، حاولوا أن يروجوا لدعايات غريبة ، فحواها ان
مصر لن تحارب ، واذا كان في نيتها ذلك لعملة ، بل وقالوا ، أيضا ، أن
القضية تسير في خط التميع ، وأخذوا يطنطون بأسطورة الجيش
الاسرائيلي الذي لا يقهر ، وبأسطورة التفوق العسكري الذي عليه ومن
خلاله تتحرك اسرائيل .. كانت النخمة السائدة ، أن مصر من المستبعد أن

(١) جادت هذه الكلمات في حوار بين الرئيس انور السادات والرئيس اليوسلاف جوفيتش
بروز تيتو ، أثناء تناولهما العشاء معا في ليلة ١٢ فبراير ١٩٧١ ..

تجارب ، وأما العرب لن تقوم لهم قائمة ، فقد تلغل اليأس إلى قلوبهم ،
وإن الانسحاب العربي قد بدأ يتساقط من الداخل بعد ما لإنهاء الاقتتصيات
المصرية .

« لكن السادات ، كان لا يحباً بذلك كله ، وكان يمضى ، فوفاً لنداء ،
حكيماً ، في تحركاته ، في الداخل والخارج .. »

ووسط مختلف التناقضات والتصدعات في الجبهة الداخلية وفي الصفوف
العربية ، أعاد الوحدة في الجبهة الداخلية قسوة متماسكة . وقضى على
التناقضات في وحدة الصف العربي ، وقد بذل في ذلك جهوداً مضنية ، من
أجل أن يجمع وحدة الصف المصري والعربي ، وفي ظروف كانت تسبب فيها
مظاهر البأس والقنوط ، كإفراز طيعين المناخ ما بعد ١٩٦٧ ، وكان دائماً
وسط هذا المناخ القاسي يردد :

« إن هدفنا في هذه المرحلة ، وبعملنا السياسي ، هدف ثلاثي : أولاً ..
تعميق التزام الضمت . ثانياً .. تحييد الخصم : ثالثاً .. عزل العدو » (١) .
وقد كتبت صحيفة « الألبو تومبيث » البريطانية عن تلك المرحلة التي
يسبق حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، تقول :

« المراقب لشئون الشرق الأوسط ، والمنابع للمسألة
العربية ، في تناقضاتها ، بحس ، أن مصر ، والعرب ، عموماً ،
يحاولون تجنب الحرب ، خاصة بعد ثلاثة حروب مريرة وقعت
بين العرب وإسرائيل : حرب ٤٨ ، وحرب ٥٦ ، وحرب ٦٧ ..
وما كل هذه التحركات ، إلا محاولة من أجل التسير في
طريق الوصول إلى تسوية ، وفي تقديرنا أن التعبير بالحتمية
في الحرب ، ما هي إلا نوعاً من المزاورات الذكية ، ولكن هذا
لا يلغي أن هناك إعادة ترميم للعسكرة المصرية ، تستهدف
تغيير أساليب الحرب في القيادات المصرية ، سواء كان ذلك
في تكتيك الحرب ، أو في أدوات الحرب نفسها ، أو في أشكال
الدفاع والهجوم ، لكن هذه التغييرات نحتاج إلى عنصر الزمن

(١) هذه الأهداف أو هذه الكلمات ، قالها السادات في أفساح دورة المجلس الوطني
القمطاني في ٢٨ فبراير ١٩٧١ ... »

ولا أجد يخفى عليها ، اهتمام مصر والعرب في الحصول على
السلاح في أسرع وقت ممكن . لكن المحاولات التي نبذل من
أجل الوصول الى سوية سلمية ، لم يستنفذ بعد ، والسادات
يتسم بالحلم والصبر والحكمة ، فهو لا يريد ان (يورط)
العرب في مازق ، ولا يريد ان يدفع العالم الى حرب كونية ،
وهذا يؤكد حسن تصرف مصر والعرب بشكل عام » .

وكاب السادات ، يفتن الى حقيقه ما يريدونه : اشاعة اليأس بشكل
عام وهو يقول في هذا :

« انكم تريدون ان نضعونا في حالة يأس ، ولكنكم لن
تنجحوا في ذلك . ان فيتنام الشماليه ليست في حالة يأس
رغم الانتقام الرهيب والخسائر التي توقعها بها امريكا . ان
اسرائيل تستدفع الثمن غاليا وتذكروا كلماتي هذه ، فان
هناك مفاجاة كبرى تنتظرهم (١) » .

وقد خلبت سنوات ٧١ و ٧٢ ، بل وبدايات ٧٣ ، بالكثير عن استبعاد
قيام بحروب من جانب مصر ، بل وشارك في اشاعة هذه (التهمة) الكثير من
العرب ، ممن لهم مآرب ومضالحي في عدم التنام وحدة الصف العربي ، والذين
يسينهم فؤاد المزيدي من التفريق داخل وحدة الصف العربي ، ومن سوريا الى
الجزائر ، ومن تونس الى العراق ، ومن الاردن الى السعودية الى الخليج ،
تحوّل « الفارس العربي » المرفب ، محاولا أن يبدد خيمة الغلام الهائلة التي
غشت الأمة العربية منذ ١٩٦٧ .. كما تحرك (الفارس العربي) ، على المستوى
العالمي بشكل واسع ، وناضج وواع ، لأول مرة ، وربما كانت هذه الاتصالات
والتحركات المضربة الذكية تصاغ لأول مرة ، ومن خلال منطق علمي وعلمي
سليم - هذا المنطلق الذي وصفته صحيفة « الجارديان » (٢) بقولها :

« كانت هناك أكثر من جولة في الشرق الأوسط ، خلالها
التقى الرئيس المصري أنور السادات ، بالعرب ، كما التقى

(١) جاء ذلك في حديث لأنور السادات في مجلة (نيوز ويك) الامريكسي في

٢٨ فبراير عام ١٩٧٢ .

(٢) عن صفحته الجارديان - في سبتمبر ١٩٧٣ .

بأقطاب إفريقيا في مؤتمر القمة الأفريقي ، واتخذت فيه قرارات جمعت رأيا عاما واحدا ، والتفافا واضحا حول القضية العربية .. في الوقت ذاته ، حدث التفاف عربي آخر ، وفي جبهة أخرى تحرك السادات ورجاله في الشرق والغرب ، ليكسبوا مزيدا من العطف والافتناع العالمي بعدالة قضيتهم » .

فالحرب مع اسرائيل ، ليست جبهة واحدة ، بل لها أكثر من منعطف ، وهذا ما جعل السادات يقول :

« ان حربنا مع العدو متعددة الجبهات ، كما انها متنوعة الأسلحة ، وكنا ، وما زلنا نرفض أية محاولة لحصر عملنا على جبهة واحدة ولقصر سلاحنا على نوع واحد ونحن نريد اذا أصبح القتال المسلح هو الباب الوحيد المفتوح امامنا ان نكون في أكثر الأوضاع ملائمة من الناحية السياسية للدخول في هذا الباب بأكبر قسط من الكفاءة وأكبر قدر من الأمانة وكنا نعتقد ومازلنا بان الإطار السياسي الذي نجعل فيه السلاح لا يقل أهمية عن السلاح الذي نحمله نفسه وعن ذكائنا في استعماله .. وهكذا ، فان تحرير الأرض كما هو النقطة التي اخترناها للوقف الحاسمة ، ولهذا فقد كان ضروريا ان يصل العدو الى درجة الكشف عن مخططاته في أرضنا ، وان يصل العالم الى درجة اليقين الكامل باننا فيما نواجهه لا خيار لنا غير القتال ، لانه ليس بيننا من يستطيع ان يتنازل عن أرضه .. » (١)

وقال السادات ، أيضا ، أن ((النعمة)) السائدة ، التي تصل الى الأذان محاولة إشاعة وترويج أن مصر والعرب هزموا ، ولن تقوم لهم قائمة .. لا تكشف الا عن (منطق) زائف ، ومضل ، ومآله الى السقوط ، لأنه لا يعبر الا عن منطق الانتهازين والرجعيين ، وهؤلاء كنموذج من ورق سرعان ما تتساقط ، لتكشف عن خرافة مواقفها ، وتعري مآربها الخبيثة التي

(١) قال انور السادات هذه الكلمات في ٢٨ فبراير ١٩٧١ ، في خطابه الذي القاه في جلسة افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني . . .

لا تستهدف الا اشاعة البلبلة والتشويش على كل تحرك غربي واحد يستهدف السير بالقضية الى الامام ، من أجل حل تناقضاتها ، سواء بالنسبة أو بالعنف .. فاذا ما استنفذت الحلول السلمية ، أصبح العرب أمام حل واحد ، الحرب ، ولا شيء غير الحرب .. ولا شيء أبدا من الممكن ان يغير من الحقيقة :

« ان الامر الواقع في لحظة من اللحظات لا يستطيع ان يغير وجه الحقيقة الكبرى ، ذلك اذا استطعنا ادراك هذه الحقيقة واذا ملكنا في لحظة الخطر قوة الأعصاب التي تتحمل الصدمة وتقدير ان تميز وتفرق بين ما هو سطحي عابر ، وما هو طبيعي وحقيقي له قوة البقاء والدوام . لقد خسرنا معركة في الحرب بيننا وبين اسرائيل ، وهذا محتمل ، ولكننا لم نخسر الحرب كلها ، لان ذلك معاد للطبيعة وللتاريخ وللتطور » (١) .

واستعادة النفس ، أمر ليس بالهين ، أو اليسير ، فهو يستلزم دراسة كل الواقع ، ودراسة علمية وموضوعية ، لا دراسة عشوائية تقود الى نكبات أو كبوات أخرى . فما حدث في يونيو ١٩٦٧ ، أمر طارئ ، وليس حقيقة مستمرة ، بل نسوئل ، ان أجلا أو عاجلا . لكن هذا (الزوال) ، لن ينأى إلا بمزيد من دراسة الواقع ، من كل جوانبه ، ومن مختلف أبعاده ، وعلى اختلاف مستوياته :

« اننا نعوس مواقع خطانا دراسة كافية ، ولن يدعنا اى استفزاز ، مهما كان ، الى الخروج عن تخطيطنا السليم والعسكري ، ولنسوف نمسك في ايدينا بزمام المبادرة ، ونراقب التطورات ونتعرف وفق ما يملئ علينا مبادئنا واهدافنا ، واولها : مبدأ التحرير .. وسلامة التراب العربى وحقوق شعب فلسطين » (٢) .

(١) جاء ذلك في خطاب السادات أمام مجلس الشعب ، في ٢ فبراير ١٩٧١ .

(٢) جاء ذلك في خطاب السادات في ٧ مارس ١٩٧١ ، في بيانه للامة .

وهذه الدراسة ، أو هذا الفهم لواقع ومجريات الأمور ، هي جزء من النضال ، وليس مجرد (حرب كلمات) ، فيحرب الكلمات الجوفاء لا تقود في النهاية إلا الى منزلق وهمي ، فالنضال بالكلمات سهل ويسير ، لكن النضال الحقيقي ، والتحرك الواقعي من أجل هدف بذاته من أصعب الأمور :

((ان النضال بالكلمات سهل ، ومهما أدمى في شكله عداء للثورة في جوهرة . وهذا الشعب المصري ، لم يعرف في تاريخه هذا النضال بالكلمات ، ولا ممارسه في يوم من الأيام ، والدليل على ذلك ما قدمه هذا الشعب من عطاء حقيقي للمعركة وما سوف يقدمه من عطاء حقيقي للمعركة . وإريد ان يكون واضحاً لكم ، ولكل ، في امتنا ، اننا لسننا على استعداد ، اليوم ، أو غداً ، لأن نلقى بالآ لاى من يرغب في أن يدلى علينا نتيجة معركة خضناها وكانت نهايتها عكس ما توقعنا . ان المناضلين الشرفاء يحاسبون بتحملهم لمسئولياتهم وبما قدموا من تضحيات لهذه المسئوليات واما غير ذلك فله حسابات أخرى . كذلك لا فائنا نقول ، بوضوح لكم ولكل ان جبهتنا المصرية هي الجبهة الصامدة الواقفة بكل امكانياتها للعدو ، لم تناور سياسياً ، بما تقفل ولم تتخلل من التزامها في الساحة ، ولم تخط العمل القليل بالكلام الطويل أو ضحالة الالتزام بطوفان من النشاط للذين يقاتلون كي تعفى نفسها من عناء القتال)) (١)

عواذاً لهم تستشهد مصر مما حدث في يونيو ١٩٦٧ ، وكذلك الأمة العربية بأثرها ، فلن يصبح الدرس مفيداً . فأى أمة ، أو أى شعب ، يتعلم من ظروفه المزيرة أكثر مما يتعلم من ظروفه المبهجة والمنطفة . والصعبة تصنع الشعوب والأمة :

((ان شعبنا لا يمكن أن يكون قد خاض تجربة الهزيمة والنصر ، دون أن يستمد منها ما يقبر به حياته نحو ما هو

(١) جاءت كلمات النور السيدات هذه في ٨ فبراير ١٩٧١ في فلسطينية في افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى .

أفضلها للغالبية العظمى من أبنائه . ولكن هذا التغيير يجيء
 ألا تكون قفزة في المجهول ، ولا عودة إلى الوراء ، ولا جهودا
 مبشرة في اتجاهات متعارضة ، بل ان علينا ان نعرف على وجه
 البنية أين نحن وإلى أين نسعى علينا ان نحدد أهدافنا ،
 ونبني معالم الطريق إليها ، على أسس صريحة ومجيدة
 وواضحة . ولكي نحدد أين نحن وإلى أين نسعى ، علينا ان
 نقف وقفة شريفة عند سؤال هام : ربما كان سبباً هتأ
 الجيل ، بوجه خاص ، أكثر حاجة إلى إجابة واضحة عنه ،
 هو : كيف ننظر إلى الماضي ، وكيف ننظر إلى المستقبل ؟

●
 كان أول طماع هتلر بالاحتلال
 أوغرام المعاهدة التي كانت بينه وبين الاتحاد السوفيتي ، والتي لم يكن
 خبرها قد جف بعد ، إلا أن الروس فوجئوا بالألمان بتأجيلهم بقتوات
 هائلة . واندلحت خطوط الدفاع الأولى تحت وطأة الهجوم النازي ..
 وسقطت المدن الكبرى ، الواحد بعد الآخر ، وبمسحبات الجيوش
 الروسية ، هادفة لأن تستعيد قواها وتعد للضربة الكبرى . ولما أعلن
 الروس في الحرب تكسب بالبصير والزم ، وكان هذا شعاراً قديماً
 القواد الذين هزموا نابليون بونابرت على أرض روسية عام ١٨١٢ . لكن
 ليس معنى هذا أنهم تركوا لهم الأرض هادئة ، بل تركوها مطلقاً
 بالمضيبي ، فبذل الألمان سكان يعيش في الزواجر ، وكان الروس ، كلهم ، تقريباً من
 الأنصار . وكان الانتصار هنيئاً للمدنيين يلقون الجيش الألماني بالتفصيل
 والتسجل والتفجير والمنشورات . وعلى بعد عشر كيلو مترات من موسكو ،
 وعلى حدود ستالينجراد ، أعلن المارشال « زوكوف » الجنود مسلمة
 الحيوان السوفيتية قد استعادت قواها ، وانه قد انزلة الآن على ردة العدو بأنه
 النازي . وقال لهم : « خطوة إلى الوراء ، وليحارب كل منكم كعشرة
 رجل » . وكان الألمان قد اعتنوا ، أن موسكو ، قلب منقلب فعلاً ، في
 روسيا لن تقوم لها قائم . هزم الروس حقيقة ، في جولة ، لكن هذا لم يكن

الإكوبة ، فقد كان الشعب قادرا على تنظيم نفسه من جديد ، وإعادة تنظيم جيشه .

وهكذا كان الوضع في مصر : لم تهزم القاهرة ، ولم يهزم الشعب ، كانت لديه القدرة على تنظيم نفسه من جديد ، وإعادة تنظيم جيشه ، من خلال فارس الأمل : أنور السادات ، الذى استطاع برباطة جأشه ، وثباته ، وثقوب نظره ، وحكمته ، ودجائه ، أن يعد كل شيء ، فى هدوء ، من أجل أن تعبر مصر ، لتتجاوز هزيمتها ..

الهزيمة أمام الشعب ، ليست هزيمة أبدية . انها ليست الا بداية للنصر ولكن من خلال إعادة النظر فيما حدث والاستفادة منه .. ومن خلال معرفة مواطن الضعف وسبلات الماضي ، ومن خلال استيعاب كامل لكل حادثة العصر ، تكنيكيا ونفسيا وفكريا ..

وخلال الفترة من ١٩٧٠ حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، كان الكثيرون يحسبون بأن تغيرا ما يحدث فى بنية المجتمع المصرى ، ودخله ، لكنهم ، وبالذات من يرد بفصر والعرب الاستمرار فى ظروف ما بعد ٦٧ ، كانوا يحاولون أن يقللوا من شأن ما يحدث ، حتى تسود البلبلة والتشويش ، وعلى المبعدين الاستراتيجى تتحقق ما رآه الصهيونية (النازية الحديثة) ومضالحي الامبريالية ، وهما يلتقيان معا .. ورواها تصب فى النهاية فى نهر واحد ، هدفه محاولة أغراق الآمال العربية ، وعدم اعطاء فرصة للانسان العربى أن يستعيد نفسه من جديد ، وهذا مادعا صحيفة مثل «الناشونال جارديان» الى أن تعترف : « لا احد فى العالم ، يستطيع أن يشكر ، ان مصر ، قد بدأت تستعيد نفسها ، وأن الرئيس المصرى ، قد نجح فى سنوات قليلة . وفى فترة وجيزة ، من جمع شمل العرب ، واكساب القضية العربية عطفًا كبيرًا من جانب العالم كله ، حتى أن الكثيرين فى الغرب ، الآن ، ولا نبأ فى هذا ، يعترفون بشرعية قضية العرب وحتمية عودة الاراضى المقتصبة اليهم وانهاء ما ترتب من آثار عدوان ١٩٦٧ على الاراضى المصرية والسورية والاردنية ..

وعلى دول المواجهة بشكل عام .. وحتى اسرائيل ، تعترف ، اليوم ، بهذا ، ولنمس التصريح به في صحفها ونشراتها الداخلية . لكن البعض يهمهم إخفاء ذلك ، أو التقليل من شأنه ، من أجل مزيد من الاحباط للجماهير العربية في قلب المنطقة التي بدأت تخففها الأزمة على كافة مستوياتها .



كانوا يقولون داخل اسرائيل ، قبل حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ :

✽ ان مصر لن تكون البادئة بالحرب ، فهي غير قادرة على ذلك ، وكانت أسطورة (الحل السلمي) تروج في المنطقة بشكل متسع . وكانت هناك ايماءات أو تلميحات تدور في المنطقة ، عن امكانية أن يقسوم كيسنجر ، وأمريكا ، عامة ، بمبادرة سلمية تسوى القضية ، بلاحروب .. ولقد جاءت هذه الأقوال ، أو هذه التكهّنات ، بعد تعيين دكتور هنري كيسنجر وزيرا للخارجية الأمريكية ، فقد رأى أصحاب هذه التكهّنات ان هذا ، وإن كان لا يعنى تغييراً في الخط السياسى الأمريكى تجاه الشرق الأوسط ، إلا انه يعنى ان كيسنجر يستطيع أن يتصرف بشكل ما فى القضية ، بل لقد وصلت هذه التكهّنات الى حد الاعلان عن مشروع أمريكى واضح من أجل الوصول الى تسوية نشرته صحيفة التايمز اللندنية فى ست نقاط جوهرية . ثم كائى جزء من القضية ، أو جزء من ارتباط (القضية) بحلها سلمياً ، تلك الترقّيات لمناقشة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، من أجل الوصول الى تنفيذ ما جاء من مطالب عامة تحاول (التوفيق) بين وجهات النظر ، بالشكل السلبى حقناً للدماء بين أطراف النزاع .

✽ وكان هناك اعتقاد فى اسرائيل يؤكد ويسود ، الأوساط العسكرية والسياسية ، يقول .. أن أنور السادات لن يجسر على اتخاذ قرار الحرب ، وإن كل ما يقوله فى خطبه ما هو الا مناورات سياسية واستهلاك محلى .. على طريقة عبد الناصر !

« نوّقدت كُتبت صحيفة « عال هينسار » الاسرائيلية يقول : « من المستبعد بل من المستحيل ، أن يقوم المصريون بالحرب ، ومن المستبعد ، بل من المحال ، أن يتخذ أنور السادات قرار الحرب ، فالجبهة الداخلية مشغولة بمظاهرات الطلبة وبحالات الغلاء والتفسيخ الداخلي ، أما الجيش فلم يبق على استعدادة أنفاسه بعد ، وأمامه تدريبات صعبة حتي يصل الى القدرة والكفاءة لمواجهة ثم ان نظرية الأمن الاسرائيلي تضمن لنا التفوق الدائم .. » . وقد نشرت صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، مقالا ، تحت عنوان « مصر : الى أين ؟ » (١) عرضت فيه لمصر ، والبلاد العربية ، من خلال ما حدث خلال عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، وقالت : « ان المنتفع لموقف مصر ، في الفترة الأخيرة ، بللمس ، انها تتحرك في الاطار للدبلوماسية السلمي ، في محاولة لحل القضية سلميّا ، لكن من خلال مصالحها ومنطق العرب ، واضاعة كل مكاسب حربنا في ١٩٦٧ ، لكن مع هذه التحركات الدبلوماسية ، نحسّ بيزيد من الإغداد والبناء والتجهيز للحرب ، ولكن متى تحدث هذه الحرب ؟ هل في خلال التحركات الموازية للدبلوماسية العربية ، أم بعد ما تستنفذ إمكانيات الحل السلمي . هناك من يقولون ، أن مصر قد أعدت نفسها بالفعل ، واعادت بناء نفسها على أساس هجومي ودفاعي ، لا دفاعي فقط ، لكن هل ستبدأ هي الضربة ؟ وهناك من يستبعد أن تكون مصر هي البادئة بالضربة ، وما التصريحات التي يقال الا للاستهلاك المحلي ، ولكن منطق الأمور ، يقول دائما ، أن الشعوب لا تستعيد أنفسها الا بقيام الجيش ونجاحه في معركة من جديدة وهذا أعلنه أكثر من مرة الرئيس المصري أنور السادات ومحاولة الاستغناء عن الخبراء السوفيت في ٨ يوليو الماضي ، ما هي الا لذر التراب في العيون ، فانهاء السادات لمهمة الخبراء السوفيت امر طبيعي ، بل هو استنفاد آخر لاضه ، وقت جاء الكمبيوتر طبيعي ، لتفكيكه مملوكة مصر في بيوتها المستنفدة ..

(١) جاءت هذه المقالة في صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٧٢ وقد دعمت المقالة بارقام توضيح التطور الذي حدث في مصر في الفترة الأخيرة ، من حيث تطور الكفاءة العسكرية والمادبة ...

هذه المرحلة ، لكن مهما اختلفت الآراء ، فنحن امام حقيقة واضحة : ان مصر والعرب ، يستعملون للضربة ، في أى وقت ، ولا به أن نأخذ بحذورها ، وبشدة .

✱ وكان هناك رأيان داخل اسرائيل :

✱ رأى يتزعمه الجنرال «ياهو زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية ، وهو يقول : أن الحشود على الجبهة السورية جزء جوهري من التوتير العام الذى أعقب اشتباك الطيران السوري والإسرائيلي يوم ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ - أى قبل قيام حرب أكتوبر بثلاثة أسابيع . وإن الحشود على الجبهة المصرية قد تكون نوعا من التضامن مع سوريا لبعث الطمأنينة داخلها ، أو ربما كان الأمر متعلقا بشكل عام بمناورات الخريف العسكرية التى دائما تمارسها مصر في مثل هذا الوقت .

✱ وكان هناك رأى آخر ، يقول : إن الحشود على الجبهتين المصرية والسورية ، في وقت واحد ، يشير بالتساؤل : لماذا ؟ . وإن اوضاع القوات المستعدة على الجبهتين المصرية واليمنية ، ليس من سماته : الدفاع ، بقدر ما هو : يتميز بالطابع الهجومي ، وهذا يفرض استغناء مصر عن الخبراء العسكريين السوفيت أو هكذا بدأ الأمر .

وكان رأي الجنرالات ، أو المؤسسة العسكرية ، هو الذى تغلب في النهاية . واستمر هذا الرأى يحكم إسرائيل حتى يوم الخميس ٤ أكتوبر ١٩٧٣ . ولا يخفى ان هذا اليوم ، كان ساعة الصفر بالنسبة لحرب أكتوبر وأجل ، لمزيد من المراوغة والذكاء والدهاء ، لإعطاء مزيد من الأمان والطمأنينة .

وفي مساء الخميس ٤ أكتوبر ، وفي صباح الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت أجهزة الاستطلاع والرصد الاسرائيلية تنفى هذه المعلومات ، وتدفعها وتقول أنه لا أساس لها من الصحة . ويقول الجنرال «آزرييل شارون»

الذى قاد خلال حرب أكتوبر هجوم اسرائيل على الضفة الغربية من السويس ، انه ذهب يوم الجمعة في ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ الى مقر القيادة الجنوبية الاسرائيلية في سيناء ، والنقى بالجنرال (جونين) القائد العام لهذه الجبهة ، ثم دخل معه الى غرفة العمليات والخرائط في قيادته ، ثم دقق في احدى الصور للاستطلاع الجوى فأذهله ما رآه ، وأعلن من فوره .. ان الأمر على غير ما توقعوا ، وقال بالحرف الواحد للقائد : « أليست هذه صور عبور . انهم سيعبرون . ألا ترى ؟ سيعبرون القناة » . فضحك القائد ، وأقنعه ، انه يستبعد هذا ، وأن ما يراه ليس الا ضرباً من الخيال ، يسيطر عليه ! لكن شارون ، استطاع في النهاية اقناع جونين ، وذهب الى مقابلة « موسى ديان » وزير الدفاع الاسرائيلي والجنرال « دافيد اليغاز » رئيس هيئة أركان الحرب الاسرائيلي ، والتقوا جميعاً ، في بيت جولدا مائير في عشاء الجمعة ، الخامس من أكتوبر ، واستدعت جولدا مائير عدداً من وزرائها .. واخذت تتناقش معهم حول الوضع الذى جد ، والذى لم يكن في الحسبان ، وبهذه الطريقة المفاجئة التى حدثت ، وقالت جولدا مائير :

« ما يدهشنى ، حقاً . هو سرعة ما حدث ، والتقصير الذى يعطى بصماته الواضحة في اجهزتنا وارصدتنا وتقاريرنا .. ان ثمة اشياء غريبة تحدث في الداخل ، اشياء لا تنذر بالخير ولا تعطى الأمان ! » .

واتصلت جولدا مائير بأمريكا . وقالت ان الاستطلاعات تؤكد ان مصر تتحرك نحو عبور قناة السويس وبدء الحرب ، وهذا يخالف ما يتوقعونه . وان كل الأجهزة ، تؤكد هذا . وفي نفس الوقت ، بدأ موسى ديان يعد العدة لاحتمالات العبور المؤكدة ، لاجهاض ما يمكن ان يحدث .

وفي فجر السادس من اكتوبر ، اتصلت جولدا مائير بسفير اسرائيل في واشنطن ثلاث مرات « سميحا دينتز » وحاول هو ان يبحث عن دكتور كيسنجر ، أكثر من مرة ، وكان قد عاد الى بيته في تلك الليلة متأخراً ، مما اضطره الى اقلاق وزير الخارجية الامريكية في الساعة الرابعة والنصف

صباحا ، وقال له : « ان مصر ، تنوى عبور قناة السويس بجسور واضحة وهذا تؤكدته المعلومات الاسرائيلية ، وأن جولدا مائير حاولت ان تتصل به دون جدوى منذ العاشرة مساء » . كما اتصل بالدكتور كيسنجر في نفس الوقت « أبا ايان » ، ونقل اليه صورة الموقف بوضوح أكثر . وكان أبا ايان - وزير خارجية اسرائيل ، موجودا في ذلك الوقت في واشنطن ، فاتصل بالرئيس نيكسون قبل مطلع الصباح ، وأعلنه بالأمر ، وبما يدور بوضوح - وكان نيكسون مستغرقا في نومه ، وأزعجه الأمر ، تماما ، وكان يستبعد حدوث هذا ، لكنه اتصل بالدكتور كيسنجر ، وكان قبده استيقظ بدوره ، وأبلغه أن يتصل بالسفير السوفيتي في واشنطن ليبدو الأمر واضحا .. واتصل « اتاتولي دوبرينين » السفير السوفيتي في أمريكا بالكرملين قبل أن تشرف الشمس ، ثم أمر كيسنجر بفتح الخط الساخن بين البيت الأبيض والكرملين مباشرة ، ليدور الحوار حول الأمر بين نيكسون وبريجنيف .

ودار الحوار التالي بين الاثنين من خلال « الخط الساخن » : اذا كان في نية مصر وسوريا ، القيام بأى عمليات ضد اسرائيل ، فعلى الاتحاد السوفيتي أن يتدخل حتى يوقف مأساة من الممكن أن تقع ، وتهدد السلام في الشرق الاوسط ..

وعقب هذا «الحوار الساخن» بين واشنطن وموسكو ، اتصل الدكتور كيسنجر بوزير الخارجية المصري في أمريكا ، ورجاه أن يتصل بالقاهرة ليبلغ الرئيس أنور السادات ، ليرجوه ألا يقدم على محاولة كهذه ، اذا كان هذا صحيحا ، حتى لا تتعرض المنطقة لأخطار جسيمة ، قد تهدد بوقوع حرب لا طاقة للمنطقة أو للعالم بها .. !

بين ليلة السادس من أكتوبر ، وصبيحة الساتين من أكتوبر ، وحتى لحظة الصفر ، وعبور قواتنا ، وتنفيذ القرار بالحرب ، واتخاذ المبادرة ،

عاشت عواصم العالم ظروفًا غريبة... وكانت معظم العواصم، وبالذات: واشنطن، وموسكو، والقاهرة، وتل أبيب... أشبه بالبركان الذي على وشك الانفجار. كانت هذه العواصم على اتصال دائم بالإسليمي والوادي، ومقابلات ساخنة تتم بين كل لحظة وأخرى... فقد أحسبت إسرائيل بالخطر، وهي لم تكن مهيئة له تمامًا، ولم يكن أمامها إلا بضعة ساعات... وماذا يمكن أن يحدث في بضعة ساعات؟

* موسكو... اعتبرت، أن أي حرب في المنطقة، تهدد بالانفجار، وربما تبدأ بسيطة، وتلقائية، لكن من يدري... فربما تحولت إلى حرب كونية. فمن يضمن ألا يمتد الحريق إلى أكثر من جهة؟

* واشنطن... اعتبرت، أن قيام حرب في المنطقة، وفي هذا الوقت بالذات، قد يعرض إسرائيل لبعض الخطر، لكن من الممكن حمايتها حتى لا ترجح كفة العرب الذين يريدون أن يحققوا أي نصر على حساب إسرائيل والغرب..

* تل أبيب... اعتبرت، أن الأمر مفاجأة، وأن سياسة (الوفاق)، لم تكن تسير في هذا المنحى، بل إن هذه المفاجأة قد تعرض الجيش الإسرائيلي للخطر، وهو جيش قوى ومتفوق، ولا أحد يتكبر هذا، لكن عنصرى المباغتة والمفاجأة قد يأتیان بغير ما تشتهي الأنفس، خاصة وأن إسرائيل قد أخذت على غرة، ووقت الهجوم في يوم من أيام العيد: «عيد الغفران».

لم تنم إسرائيل... ليلتها ليلة السادس من أكتوبر (٧٣)، وداخل العاصمة الإسرائيلية، كانت الأمور تغلي وتغور من آثار الصدمة التي فوجئت بها كل القيادات الإسرائيلية.

* ماذا كانت الساعة؟ تل أبيب... في ضليحة السابعة: السادسة من أكتوبر... كانت الساعة تقارب التاسعة صباحًا، عندما علمت جولدات مائير،

ان أمر الضربة الموجهة من جانب مصر قد أصبح حقيقة ، وأن كل المحاولات من جانب موسكو وواشنطن سيكون مآلها الى الفشل . في عصبية شديدة دعت ، جولدا مائير مجلس الوزراء ، ودار حوار ساخن ، بل ملتهب ، في هذا الاجتماع الطارئ ، أسفرت نتائجه على الاستعداد الكامل لمواجهة (الضربة) ، ودعوة كل الاحتياطي في البلاد ، والضغط على أمريكا للدخول بشكل واسع ، فظروف اسرائيل لا تسمح بمواجهة الضربة المفاجئة... وفي ركن قصي من القاعة الزرقاء ، انحنى موسى ديان ، مسندا ذقنه على راحته اليسرى ، وسرح طويلا ولم يفق الا على كلمات الجمع : امامنا خمس ساعات فقط ! وكان يومها ، اجازة ، في تل أبيب :

عيد الغفران.. ومعظم الجنرالات سكارى ، لأنهم ناموا ورائحة « الجبن » أو « الكورفوازيه » أو « الدمبل » في أفواههم ، بل وأزعجتهم التليفونات عندما بدأت تدق في بيوتهم في التاسعة والعاشر صباحا : تأهبوا لمواجهة الضربة .. مصر وسوريا ، ستهجمان .. لم يعد أمامنا الا ساعات قليلة .. ومن (شاهال) قيادة الجيش الاسرائيلي ، تم الاتصال بكل القيادات ، ومن (أم خشيب) ، سيناء ، بدا الانذار الى كل الوحدات في سيناء وفي مواجهة الخط الامامي على القناة .

وقد قال أحد الجنرالات ، في صبيحة ذلك اليوم ، وكان قد أخذ زوجته وبناته الثلاث في رحلة خلوية خارج تل أبيب : « ولماذا لم يخبرونا من قبل ؟ ان تل أبيب تنام في العسل . كيف يتحرك جيش بكامله ، خلال خمس أو ست ساعات لمواجهة استعدادات لم تكن في الحسبان ؟ حقيقة أننا أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، لكن المباغتة تضعف أعنى الجيوش وأكثرها كفاءة ، ولا أحد ينكر هذا ! » .

وبين موسكو وواشنطن ، كانت الاتصالات على أشدها ، حتى يتم إيقاف « مفعول القنبلة » — على حد تعبير صحيفة « الجارديان » ، قبل أن تنفجر !

وفبل أن تشرق شمس السادس من أكتوبر ، دار الحوار التالى بين
الدكتور هنرى كيسنجر والسفير السوفيتى فى واشنطن « اناتولى دوبرينين »
وكان الحوار ساخنا للغاية ، ونقله هنا بالحرف الواحد (١) :

« د. هنرى كيسنجر : لابد من وقف ما يحدث . ان هذا يمثل خطره
الشديد ان الرئيس الأمريكى قد أمر بفتح الخط الساخن حتى لا تحدث
المأساة ...

اناتولى دوبرينين : أعرف أن هناك ريبة فى الأمر ، وهذا مالا يحمد
عقباه !

د. هنرى كيسنجر : هناك نية مييئة بين مصر وسوريا للهجوم على
اسرائيل ، والرئيس الأمريكى طلب منى أن تتدخل موسكو فوراً . فاسرائيل
ليس لديها نية للهجوم فى الوقت الحالى . أنا من جانبى سأصل بالرئيس
السادات . بل سنرسل له رسالة فورية .

اناتولى دوبرينين : نفس الشئ سيحدث من جانبنا . سأصل بموسكو
فوراً . ومرة أخرى . وأنا أعلم ان الرئيس نيكسون قد اتصل بالرئيس
بريجنيف .. »

وكانت الساعة قد وصلت العاشرة صباحاً . فى القاهرة . وكل شئ
يتحرك فى هدوء ، بينما الاتصال بين موسكو وواشنطن على أشده . فى
القاهرة ، كانت الشوارع هادئة ، حقاً ، لكن طريق الهرم ، وطريق السويس
وطرق أخرى ، كانت تشهد حالات غير عادية .. وكان الصمت يغلف كل
شئ — ذلك الصمت الذى يسبق هبوب العاصفة !



(١) عن صحيفة « لونوفال أوبزرفاتور » الفرنسية ، فى مقال كنبه ج. ألبا ، تحت عنوان :
« الفضة كاملة بين الخط الساخن : موسكو وواشنطن ... والمنظفة الملتصقة فى الشرق
الأوسط » .

حتى ظهيرة يوم السبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت أسطورة الحديث عن وهم الجيش الاسرائيلي تروج في كل شبر من المنطقة العربية ، بل وفي العالم أجمع ، وكان الجميع لا ينفكون عن الحديث عن نظرية الأمن الاسرائيلي . فهناك تجمع المحاربين داخل المجتمع الاسرائيلي ، والذي لا يسمح ابدا باختراق الحصار الصعب .. وهناك (الأرض) الاسرائيلية وسط الحصار العربي المتسع .. وهناك الى جانب ذلك رواسب التاريخ اليهودي نفسه كالأسر البابلي ومذابح هتلر .. وهناك نظرية اسرائيل الى العرب ، واعتقاد الجميع أن العرب لن يكونوا أبدا البادئين ... وانطلاقا من نظرية (الامن الاسرائيلي) ، بلورت المؤسسة الاسرائيلية العسكرية نظرية الأمن الخاصة بها في الكثير من المراكز والمواقع التي لا يمكن اختراقها فقد أنشأت اسرائيل القاعدة العظيمة - أو الوطن اليهودي على أساس واضح منذ البداية ، تعتمد على خلق « كميونات » عسكرية ، تمثل أو تتمثل النازية الحديثة فكريا وعسكريا وماديا . وقد نجحت اسرائيل في عام ١٩٦٧ في إلحاق الهزيمة بمصر ، لا لشيء الا للمناخ والظروف التي سادت مصر في تلك الفترة - وهذا لم يكن أمرا طبيعيا ، بل كان حالة استثنائية ، ولم يكن قاعدة ، وقد حسبت اسرائيل لنجاحها في هذا ، ان نظرية الامن الاسرائيلي قد نجحت ، وقد أكد موسى ديان في حديث له في يناير عام ١٩٧٠ على ذلك بقوله : « ان هدفنا أن نجعل المصريين يفقدون توازنهم عن طريق ازالة ضربات ساحقة بهم من كل نوع ، حتى يتعذر عليهم ، من الناحية العسكرية والنفسية ، الاعداد لحرب جديدة ، وانطلاقا من نظرية الأمن الاسرائيلي ، وهي الأساس الذي يضمن لاسرائيل السلامة والامان والسيطرة » . فقد كانت (نظرية الأمن الاسرائيلي) ، تقوم على الفرض بالقوة ، وكانت تركز على جملة عناصر واضحة يمكن اجمالها في : أهمية أن تكون المبادأة في يد اسرائيل دائما ، ولا يمكن أن تكون المفاجأة من طبعها ، والاعتماد أساسا على القتال بتخطيط كامل وبوعى دائم لا يستطيع

العرب أن يصلوا اليه . لكن هذه النظرية ، اهتزت ، تماما ، ببدء حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ..

وكان ' « حاييم بارليف » رئيس الأركان الاسرائيلي ، قد صرح في ١٩ ابريل عام ١٩٦٩ .. ان تفوق اسرائيل العسكرية على المصريين ، كبير للغاية ، لدرجة أنهم لا يستطيعون ، أبدا ، الرد على المذافع الاسرائيلية وهذا يمكن اسرائيل الناحق الهزيمة والخسائر تلو الهزيمة والخسائر بمصر . ونقول « حاييم بارليف » ، ايضا : « ان نظرية الامن الاسرائيلي ، هي الأساس في كل منطلقاتنا ، فقد قمنا بايجاد مرتكزات الأمن ، على أساس الاعتماد على عوامل الأرض والحدود الآمنة والقوة البشرية الى جانب الاعتماد على كفاءة أجهزة المخابرات والقوة العسكرية الرادعة ، فمن الطبيعي أن نتوقف برهة لتقييم مدى صلاحية هذه النظرية من واقع مرتكزاتها سائلة الذكر وعلى ضوء معارك الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة التي بدأت عندما انطلقت الشرارة ظهيرة حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ » . وكان هذا الاحساس ، يسود اسرائيل ، تماما . فقد كان « خط بارليف » ، من الخطوط الدفاعية الكبرى ، التي اقيمت ، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، وعلى حد تغيير صحيفة (دافار) الاسرائيلية :

« ان خط بارليف ، من الخطوط الهامة ، التي اقيمت لتكون قوة رادعة كاملة ، ضد أي محاولة يجرؤ ان يقوم بها العرب . فهو مقام على اساس علمي ، ووفقا لاحداث الخطوط الدفاعية المعاصرة ، ولا نبالغ اذا قلنا انه اعظم خط دفاعي اقيم في تاريخ الحروب قاطبة حتى الآن . فلو كان هذا الخط لهتلر ، ، مثلا ، لما هزم ، ولو كان هذا الخط لابة دولة في الحرب العالمية الثانية ، لجنبها لاي هزيمة . . فهذا الخط الدفاعي لا تؤثر فيه القنابل ولا الصواريخ ، ولا أي محاولات ، وسيظل شاهدا ، على مدى السنين ، ليعلم عن قدرة اسرائيل ، وتفوقها العالي في مجال فنون الحرب العسكرية الحديثة » .

وخط بارليف .. أعظم خط دفاعي ، أقيم في الحروب المعاصرة ، وعرفته الشعوب المحاربة خلال هذا القرن . فخط مثل « ماجينو » الفرنسي ، أو خط مثل « سيغفريد » الألماني ، يتضاءلان أمامه الى حد كبير . فخط بارليف ، يمثل ما نعا صناعا محصنا جيدا ، ويبلغ طوله قرابة ٨٠ كيلو مترا ويمتد من جنوب بور فؤاد شمالا حتى شمال بور توفيق جنوبا على طول الضفة الشرقية لقناة السويس ، ويحتوى على نقاط حصينة تضم ٢٥ نقطة مركزية ، مدعمة بالخرسانه المسلحة السميكة ، وقضبان من الفولاذ ، ونصل قدرة الافراد في كل نقطة الى ٣٠ فردا ، كما يتراوح ارتفاع الساتر والدروة أمام الخط ما بين ١٨ و ٢٠ مترا فوق سطح القناة ، وقد حمى الخط بأكثاف وبنقاط أخرى تمتد على امتداد القناة التي يصل طولها الى ١٧٦ كيلومترا وقد تكلف هذا الخط المنيع ٢٣٨ مليوناً من الدولارات ... وكانت اسرائيل ، بل ، العسكريون ، في العالم أجمع ، يعتبرون أن خط بارليف من المعجزات العسكرية ، وقد وصل الأمر بقيادات اسرائيل الى أن تقول : « ان خط بارليف ، يمثل ليس معجزة هندسية فحسب ، تحمى اسرائيل وتقف حائلا دون أى محاولة مصرية للعبور ، بل انه ، أيضا ، يقضى نهائيا على أى محاولة للتفكير في اختراق هذا الخط العصري الصعب ، فقد وضع وصمم بشكل عصري مائة في المائة ، والنقط القوية به منظمة بطريقة الدفاع الدائري التي تحول دون أى امكانية للهجوم ، والنقاط الحصينة بالخط معززة بالرشاشات والمدافع والصواريخ والهاونات ، ومزودة بأحدث وسائل الاتصال التكنولوجي لاسلكيا ورداريا وبكل أجهزة الأمن المستحدثة » . وقد صرح موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلي في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٩ في حديثه عن هذا الخط ، بقوله : « ان عمليات العبور المصرية ، اذا حدثت ، لن تؤثر على قبضة اسرائيل الحازمة على خط بارليف المنيع ، وسيتلقى المصريون الرد الحاسم ، فالتحصينات على خط بارليف ، أكثر تحصينا وتنظيما ، وكان يمكن أن يحدث أى شيء ، أى معجزة ، ما لم يكن هذا

الخط موجودا ، فهذا الخط لا يمكن اختراقه أو اجتيازه . اننا ، أقوىاء ،
بدرجة تكفى للاحتفاظ الى الأبد بخط بارليف ، فمبالغ طائلة قد أنفقت على
تنظيمه ، وقد أقيم على أحدث ما يجب أن تقوم به أحدث الخطوط الدفاعية
في عالمنا المعاصر . وقد كتبت صحيفة (التنبو) الايطالية ، عن هذا الخط
الدفاعى فى أوائل عام ١٩٧٣ ، تقول :

((أن خط بارليف ، يبدو كالأساطير ، حقسا ، فهو مقام
بشكل لا يسمح بالتنفذ اليه ، فليست هناك أى ثغرة تسمح
بتحطيمه أو اجتيازه ، فهو سد صناعى منيع ، يفوق أى سد
دفاعى اقيم فى قرننا الحالى ، وهو افراز حضارى للحروب
النووية والالكترونية . وليس غريبا ، ان تقيم هذا الخط
دولة كاسرائيل ، وهذا يجعل مصر ، تفكر ، كثيرا ، قبل
ان تتخذ أى خطوة ، ونحن نستبعد ان (تهاجم) مصر ، عن
طريق هذا الخط الدفاعى ، فمن يقبل ان يضرب راسه فى سد
خرسانى هائل ؟ ! ..))

والجنرال حاييم بارليف ، تشدق كثيرا ، بهذا (الخط) ، الذى يحمل
اسمه ، وتحدث عنه فى أكثر من مناسبة ، بل أن أكثر من حديث اذاعى
وتليفزيونى ، قد تحدث من خلاله بارليف عن هذا الخط ، وبين ما قال :

((ليس الأمر بأسطورة ، ولا بمعجزة انه مجرد تفكير
علمانى ، أوصلنا اليه الهدف السليم ، والدراسة العلمية
للمنطقة التى حاربنا فيها لأكثر من ربع قرن ، ففقد كان من
الطبيعى ان يقام هذا الخط منذ سنوات ، حتى تصمت أى
محاولات ، وحتى يتم تأمين اسرائيل تماما)) .

وكان آخر تصريحات الجنرال « حاييم بارليف » يوم ٩ مارس ١٩٧٣ ،
ما قاله فى حديث اذاعى براديو اسرائيل ، حينما أجاب عن سؤال وجه اليه
عن الثمن الذى قبله اسرائيل مقابل التخلي عن خط بارليف ، فأجاب :
« اننا لن نقبل ترك هذا الخط الا مقابل أمرين أساسيين : أولا .. الاعتراف
والاعلان بأن الحرب قد انتهت بيننا وبين مصر ، خاصة ، والعرب عامة .

ثانياً .. الاعتراف بأن إسرائيل لن تعود الى خطوط ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وخط بارليف خط قوى ، ولن يفهر ، وأى محاولة لاجتيازه ، لن تلتقى الا السقوط والموت والانهيار ، وهذا ما يجعلنا نحس بالطمأنينة الكاملة .
ويضاف بالطبع الى هذا الخط الدفاعى ، مانع قناة السويس المائى ، الذى يجعل أى عبور معرضا للكشف وللضرب بسهولة ..



لم يكن أحد يتوقع ، أن تحدث « المعجزة » . ان تضرب مصر . حنى المصريين ، أنفسهم ، كانوا ، لا يستطيعون أن يصدقوا ، أن هذا من الممكن أن يحدث ، فقد تعود الجميع صمت مدافعا ، ولفترة ليست بالقليلة على الجبهة . بل والبعض ، داخل مصر ، نفسها ، كانوا يرددون ، ما تردده بعض « الجيوب العربية » ، أو بعض الاقاويل العربية : ان مصر لن تضرب ، وان ما يقال ، ليس الا للاستهلاك المحلى . فمن غير المعقول أن تحارب مصر ، وهى منهاره داخليا من الناحية الاقتصادية والنفسية ! وهذه الاقاويل ، طبعا ، كانت ترمى الى الحاق المزيد من المزق بداخلنا ، وبصفوفنا وكانت تركز أساسا على محاولة زعزعة الثقة بنفوسنا — فعلى حد تعبير القادة الاسرائيليين ، « ان مصر سقطت وهزمت فى يونيو ١٩٦٧ ، وبقي اسقاط وهزيمة الانسان المصرى نفسه ، من الداخل ، وهذا سيحدث بفعل الانهيار الاقتصادى والازمة النفسية » . لكنهم ، نسوا ، ونسى الكثيرون معهم ، ممن لا يدركون كبد الحقيقة ، ان مصر قد تكبو لحظة ، لكنها لا تموت ، وان الشعب المصرى قد يهزم فى جولة ، لكنه ابدى لا يموت ، فكيف يموت شعب وأمة ، تقف على أرض حضارية عمرها سبعة آلاف سنة ، أعطت الحياة والعلم والخلق للوجود ، فى كثير من العصور ! انهم باغفالهم هذه الحقيقة ، كانوا يلغون منطق التاريخ ، والعلم !



كان ينظر الى المياه الزرقاء ، التي تقبل في اشتياق غامض على الشاطئ
يتأمل الشمس الغاربة ، التي بدأت تغوص في المياه ، نفت بعض الدخان
من غليونه ، ثم عاد يمسح جبهته العريضة ، وتهد طويلا ، ثم أخذ ينظر
الى البحر بعمق من جديد ...

— ما أصعب الظروف ، وما أقسى المحنة . لقد أخذت الجولة الكثير
من الجهود المضنية . ولم يعد غير اتخاذ القرار ...

كان المكان شاطئ (برج العرب) غرب الإسكندرية . وكان « الزمان
سبتمبر ١٩٧٣ » في أعقاب جولة واسعة على المستويين القومي والعالمي ،
وقبل قيام الحرب بأسبوعين فقط ...

تحسس (الفارس) العربي جبينه ، وعاد ينظر الى البحر ، وأخذت
تطارده لحظات النضال التي مارسها في حياته .. من سجن الى سجن .. من
مدينة الى مدينة ... من مرحلة الى مرحلة .. كان الفارس العربي لا يهدأ ...
لكنه ، اليوم ، حيال ظروف غاية في الضراوة .. فهو حيال تاريخ وحضارة
أمة بكاملها ، تمنحن ارادتها وتختبر .. ولا بد أن يكون القرار حكيما ،
ومتزنا ، ولا يتسم بالانفعال أو العاطفية .. فعلى أساسه ، سيتحدد مصير
مصر والعرب لسنوات طويلة ... انه هذا القرار قدر مصر وقدر العرب ..
لكن لا بد من غيره . لقد مهد كل شيء . وصنع كل شيء . ومصر معطاءة ،
عظيمة ، قادرة على خوض المعارك ، وبضراوة ، لان أبناءها يحملون داخلهم
لهبا عظيما من خلاله سيغسلون العار والهزيمة .. فما حدث في ٥ يونيو
١٩٦٧ لن تمحوه الا النار ، ولا خلاص الا بالبارود ... ولا يمكن أن يعود
الأمان والسلام الى المنطقة ، دون عودة الأرض ، ودون استعادة الروح
المغتصبة .

— فلنعب ، ولننتصر ، ولنعيد صرح الأمة من جديد .

طائر بلا عش ...

لا يخشى على نفسه من القيد ...

لا يخشى على نفسه من الحرب ...

فالهدف عظيم ، والغاية رائعة : مصر ، مصر ، مصر ... لا بد أن تعود
الابتسامة الى شفثتها من جديد ، ولا بد أن يعبر أبناءها ، ويفسلون عار
الهزيمة بالدم والنار ، ولا بد أن تعود الأرض الى أصحابها ، فما دام هناك
جزء من الأرض مغتصبا ، فلا أمان ، ولا سلام ، كيف يتنفس الجسد
وجزء من أوصاله مقيد أو مشلول :

— وماذا يخشى ؟ ان قدره على كفه ، كالأبناء الذين يتنفسون أيامهم
وليا ليهم ، على خطوط النار ، وداخلهم إيمان عظيم بمصر ، وبجتمية
انتصارها ..

ان الفارس العربى ، قد قرر ، ومعه قرر أبناء الأمة العربية الخلف ،
الشرفاء ، أن تعود روح الأمة من جديد .. ولا خلاص الا بـ (العبور) .
لقد تم الاتفاق ، وتوحد الصف ، وامنت الجبهة الداخلية ، ولا بد أن
يجرد الفارس العربى سلاحه من غمده ليمسح عن جبين مصر والأمة العربية
تراب ٥ يونيو ٦٧ ، وليضع الغار والأزهار على جبين الأبناء الذين سيعبرون
ويأتون بالنصر ...

وما دامت الارادة قوية ، وما دام الايمان عظيما ، وما دامت الحسابات
قد قيمت بعقل راجح ، فلا شىء يقف أمام تقدم الهدف العظيم ..

كم حاولوا ان يبعثوا اليأس ؟

كم حاولوا أن يلبلوا الأمة ؟

كم حاولوا أن يبرزوا مصر ، على أساس أنها انتهت وتمزقت : فليفتح
العالم أجمع عينيه تماما للحظات القادمة ، وليستمع الى الارادة العظيمة ..
فمصر ستعبر ... والعرب سيصنعون « المفاجأة الكبرى » ..



كانت الساعة قد فارقت الواحدة بعد الظهر ، من يوم السبت السادس من أكتوبر ، عندما وصلت رسالة واشنطن الى القاهرة ، وكان وقتها السادات قد انتقل الى مقر قيادة العمليات ، وقد وقف أمام الخرائط والرسوم البيانية يدخن غليونه في تودة شديدة ، ثاب الجأش ، قويا ، وبين كل لحظة وأخرى تنظر عيناه الى الساعات الدقاقة ، ولحظتها عندما فض الرسالة لم يهتم ، ولم يبال ، فقد اتخذ القرار ، وعزم على الأمر ، وكله ايمان وحكمة .. فماذا تهمة الرسائل ، وفي هذه اللحظات الحاسمة .. لقد اتخذ القرار ، وعزم على الأمر ، والدقائق ، بل الثوان تزحف بسرعة أو ببطء ، ولم يعد على « ساعة الصفر » ، الا القليل من الدقائق .. لقد أغلق رأسه عن كل شيء ، ولم يعد يرى الا الهدف العظيم الذى هو بجياله : العبور ، وتحطيم خط بارليف ، وابطال مفعول اسطورة الجيش الاسرائيلى ، وتحقيق المهمات العظيمة لاستعادة الارض ...

الساعات تدق ، وقلبه ، يدق ، أيضا ... ان وجيف قلبه يعلو عن الرمن فى هذه اللحظات .. وقلب مصر ، يدق ، أيضا ، وبصوت عال ، فى انتظار اللحظة الحاسمة ..

وماذا يهمه من « الخط الأحمر » ، أو الرسائل ، أو الحوار الذى يجرى بين موسكو وواشنطن . لقد استنفذت كل هذه الحلول ، وأصبحت فى خبر كان ، ولم يعد أمامه الا تنفيذ (القرار) ، واعلاء حق مصر والعرب .. ودقت الساعة الواحدة والنصف ، ومعها دق كل قلب مصر ، بل الأمة العربية ، بل العالم أجمع ارتجفت تحت أقدامه الأرض واهتزت ..

الواحدة والنصف ، بعد ظهيرة السادس من أكتوبر ٧٣ : أبناء مصر ، زهرة شبابها ، يعبرون القناة ، يحطمون خط بارليف ، يقضون على أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر فى ساعات قلائل ... شباب مصر ، رجالها ، يعبرون الهزيمة ، ويرفعون العلم المصرى على ضفة القناة ،

وعلى خط بارليف ، وبعد صمت طويل من مدافعنا ، عادت البسمات الى القاهرة ، الى كل مصر ... الى دمشق ، والى كل سوريا ... وفي كل شبر من الأرض العربية دق قلب الارض دقات الانتصار ..

كانت حرب السادس من اكتوبر ٧٣ ، التى انتهت بعبور قواتنا وتحقيق مهامها العسكرية والاستراتيجية ، من أخطر أشكال الحروب المعاصرة لعدة عوامل هامة نجملها فى :

✽ طبيعة المانع المائى لقناة السويس ، فى مواجهة قواتنا ، ويمتد الى ١٧٦ كيلو مترا بعرض يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ مترا - هذا الخط الطبيعى أو المانع الطبيعى ، هو الذى استندت اليه استراتيجية الدفاع الاسرائيلى ✽ طبيعة المانع الصناعى الذى أقامته اسرائيل : خط بارليف ، والذى بدأته فى أعقاب معارك ١٩٦٧ ، ثم دعمته بالمزيد من التحصينات القوية ، يعد من أمتن التحصينات القوية فى عصرنا ، وقد اقيم على مرحلتين ، وقد استغرق انشاؤه ثلاث سنوات كاملة ...

وقد استطاعت قواتنا ، قهر هذا الخط الحصين ، واجتياز المانع المائى ، نتيجة التدريب الشاق العنيف على القتال لسنوات ، وكان المنهج الذى تدربت عليه قواتنا ينطلق من عنصر المفاجأة والمباغطة - التى لم يكن يترقبها أو يتوقعها ، الاسرائيليون . وكان عنصر المباغطة من العناصر الهامة فى المعركة فقد كان لدى الاسرائيليون « فكرة ثابتة » ، ساعد على ترويجها الغرب نفسه ، وهى ان المصريين قوم مسالمون ولا يميلون الى الحرب ، بحكم تكوين نفسياتهم ، وبحكم التضاريس والمناخ الذى يحيونه ، فأراضيهم ليست بالوعرة ، ومباحات بلادهم مسطحة ، ونهرهم يمتد فى انبساط وانسياب تلقائى ، لذلك لا يميلون الى التطاحن ، ونسوا ان مصر قد خاضت العديد من الحروب خلال عمرها الحضارى الطويل ، وابلت خلال مختلف العصور الكفاءة والبسالة والبطولة التى سطرها التاريخ فى اعجاز ، سواء فى العصور السحيقة الموهلة فى القدم ، أو العصور الوسطى ، أو فى العصر الحديث ..

وكان عبور قناة السويس ، يمثل المرحلة الأولى من مراحل حرب التحرير ، ثم بدأت المرحلة الثانية بالتركيز على تدمير قواا العدو ، فكما هو معروف فى استراتيجيات الجروب ، انه من المهم فى الحرب تدمير القوات المعادية وليس الاستيلاء على الأرض ، وربما هذا ما دعا قائد مثل (كوتوزوف) - القائد الروسى الذى خاض المعارك البطولية ضد نابليون بونابرت فى عام ١٨١٢ الى أن يقول بعد أن استولى الجيش الفرنسى على معظم الأراضى الروسية حتى وصل الى مدينة « بورديو » : أنا لا يهمنى أن تسقط المدن ، أو يستولى الفرنسيون على مزيد من الأراضى ، فانا أساعد فى ذلك ، أنا احرق المدن ، كل ما يهمنى ان أدمر قوات نابليون ، وبهذا أجهز عليه تماما ..

كذلك كانت تفعل قواتنا ، تسير فى طريق تدمير العدو ، بعد عبور القناة ، اذ لا قيمة للتقدم والاستيلاء على أراضى لمسافات شاسعة ، بقدر ما هو مهم تخطيط قواته ..

وقد بدأت قواتنا فى تنفيذ المهام القتالية التى تنقل المرحلة من حرب التحرير الى حيز التنفيذ ، وسنت هجمات عديدة ، قاسية ، بالمدركات والمشاة الميكانيكية ، وقد غطى الطيران المصرى عمليات التقدم والهجوم ببسالة نادرة ، وخلال المعارك البرية حققت قواتنا انتصارات متنوعة عديدة ، أبرزها تدمير اللواء الاسرائيلى المدزع (١٩٠) وأسرى قائده عساف ياجورى وتدمير اعداد هائلة من الدبابات والمجنزرات واسقاط ما يزيد عن تسعمائة طائرة اسرائيلية بصواريخ الدفاع المصرية .. ولأول مرة فوجئ العدو الاسرائيلى ، بأنه فى موقف حتمية ان يدافع عن نفسه ، بعد أن كان هو الذى يبدأ فى الهجوم ، دائما ..

ويرى الكاتب السياسى « سافران » فى مقال نشرته مجلة « السياسة الخارجية الأمريكية » ان عنصر المباغتة فى حرب أكتوبر ، وكفاية العرب ، وكفاءتهم ، كانت من العناصر الواضحة التى حققت الكثير من المهام القتالية للحرب ، وهو يرى أن البعد العسكرى لحرب السادس من أكتوبر يزود

الباحثين بمادة غزيرة للدراسة وبرؤية يتوافر فيها الوضوح على كافة المستويات ، من التحركات العسكرية الى الخطط التنظيمية ، ومن الاستراتيجية في مجالاتها المتنوعة الى المستوى الذى تندمج وتتلاحم فيه الحرب بالسياسة ..

وقد اعترف العميد والكاتب الاسرائيلى « حاييم هاتسوك » بتفوق قواتنا ، فى مذكراته التى كتبها عن حرب السادس من أكتوبر ، فقال : « ان صرخات جنودنا فى الحصون منذ الساعات الأولى فى خط بارليف ، كانت تمثل صرخات الاستغاثة أكثر منها صرخات طلب عون .. كالت صرخات البرت فى الساعة الحادية عشر صباح يوم السابع من أكتوبر تطلب العون ، بينما صرخ دان يطلب من البرت الغوث ، فقال له : استمر ، ثم قال له : بعد قليل ، حاول أن تنقذ ما يمكن انقاذه ، فقال له : أريد حلاً ! أين الطيران ؟ فأخبره البرت بأن عليه ان يعتمد على طاقة ما بقى من قواته ، لأن الطيران كان ملتحماً بالطيران المصرى » ، وكان يتساقط كالذباب على صحراء سيناء . وقد اعترف حاييم هاتسوك ، ببسالة المقاتل المصرى ، وبما ابلته قوات المدرعات والمشاة المصرية فى الحرب البرية على الضفة الغربية .. كما اعترف ، أيضاً اللواء « جابى » فى الأيام الأولى من المعركة بتغير الحال ، وارتفاع كفاءة الحرب القتالية للعرب . حتى أنه قال : « اننى فى ذهول ودهشة من أمرى .. هل هؤلاء بالفعل الذين حاربناهم منذ ست سنوات ، فى يونيو ٦٧ ، اننا نواجه عدواً آخر ، بالقطع ، يتميز بالشراسة ، وبالكفاءة العالية ، وبالتدريب المتقدم » .

كان العبور .. معجزة !

كان العبور .. قذر مصر والعرب !

كان ملحمة كبرى .. اشبه تلك الملاحم التى كتبها فيرجيلوس .. هؤلاء الرجال البواسل ، الذين عبروا فى قوارب من المطاط لثمهد لاقامة الجسور على الضفة الشرقية .. وتحت وابل من النيران والبارود ،

تحركوا لصياغة تاريخ مصر والعرب من جديد ، بعد سنوات من الماراة والحنظل واليأس والخوف ...

وفي أقل من ثلاث ساعات ، ابتداء من الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت مصر قد عبرت ، وحطمت جدار الخوف .. واشتبكت في العدبد من المعارك الضارية الشرسة ..

ولقد حرصت قواتنا ، منذ اللحظة الأولى في القتال ، على أن تلزم العدو الاسرائيلي « وضع الدفاع » ، فالقوات المصرية لا تحارب من مواقع ثابتة ، بل تتحرك تشكيلاتها المقاتلة فوق سيناء ، بحيث لا يمكن لأي محاولة اسرائيلية ان تنجح في احتوائها ، أو الالتفاف عليها .. ولقد أجهزت قواتنا على خط الدفاع الأول في ساعات قلائل ، الا وهو خط بارليف .. ثم دخلت في سلسلة معارك المدرعات والدبابات الشرسة وخلال الأسبوع الأول من الحرب ، تم الاجهاز على الاحتياط التكتيكي الذي كان العدو يحتفظ به في مساحة قريبة من قناة السويس ، للتصدى للهجمات المصرية ، حتى تعطلها الى أن تصل المدرعات والتشكيلات الميكانيكية الموجودة في عمق سيناء ... وهذه الوحدات اشتبكت معها قواتنا ودمرت معظمها قبل نهاية الأسبوع الأول من الحرب !

الى وقت طويل ، سيظل هذا (العبور) حدثا مثيرا لا للعسكريين أو الساسة أو المفكرين فحسب ، بل لكل الأجيال القادمة .. فالفيلد مارشال موتتجمري ، احتاج الى خمسة أيام من التمهيد بالمدفعية ومن محاولات الاختراق والتحرك لاجتياز حقل الألغام الكبير في (العلمين) لكي يتغلب على محاولات روميل سنة ١٩٤٢ ، هذا من أجل اجتياز حقل الغام ، فما بالك بمانع مائي مكشوف وبخط عسكري رهيب يمتد بطول قطاع القناة الذي يصل الى ١٧٦ كيلو مترا .. وبمعارك شرسة ضارية ، تدور رحاها في عمق سيناء ، وتشترك فيها دبابات ضخمة متنوعة ، هي نتاج أحدث ما أفرزته تكنولوجيا العصر في الحروب الحديثة ..

وهذه التغيرات التي شهدتها فنون الحرب والعسكرية الحديثة في قناة

السويس ، وفي سيناء ، وفي هضبة الجولان السورية ، ستظل الى وقت طويل ، موضع دراسة الثقافات في السياسة وفي العسكرية — والمتخصصين في شئون الحرب العسكرية .. فخلال معارك الدبابات العظمى في جبهة القتال ، وباللغة الشراسة والعنف ، فقد العدو جزءا كبيرا من خيرة قواته وقد فوجيء ، بوضع جديد لم يتعود مواجهته ، وهو القتال على جبهتين في وقت واحد ، وفي البداية ركز العدو جهده العسكري على الجبهة الشمالية حتى ينتهي تماما من القتال هناك ، ليستدير الى الجبهة الجنوبية ، وهذا ما اعتاده دائما ، أن يقاتل في جبهة واحدة ، يحشد قواته كلها ويركزها في اتجاه واحد ، لكن قواتنا اتبعت تكتيكا آخر ، لتشتت طاقاته وقدراته القتالية في اتجاهين ، ولأول مرة في تاريخ قتاله ، يجد نفسه مشتبكا على جبهتين متباعدتين ، غير أن العدو ركز في الأسبوع الثاني وبعده من القتال على الجبهة الجنوبية ومن خلال سير المعارك ، لاحظنا محاولاته المستميتة في تطبيق تكتيكاته القتالية المعروفة ، فقد ركز كل قواته في محاولة للهجوم على منطقة معينة بالجبهة المصرية ، هي ، القطاع الأوسط مستهدفا في ذلك محاولة اختراق القوات المصرية المتمركزة في سيناء ، والوصول الى قناة السويس ، وكانت قواتنا تضع كل الاحتمالات التي يمكنه اللجوء اليها ، وكان أبرزها هذا الاحتمال ، ومن هنا جرت المعارك العنيفة الضارية التي تحدث عنها كل العالم من خلال المراقبين العسكريين والصحفيين والمراسلين العسكريين الذين شهدوا عن قرب هذه المعارك الضارية .

وطبقا لمنطق العدو العسكري ، أيضا لجأ الى عمليات عسكرية وهمية ، كان الغرض منها دعائي بحث ، فأرسل وحدات من قواته لتتسلل الى البحيرات المرة على الضفة الغربية حتى يمكن لقيادته الوقوف والاعلان ، أن القوات الاسرائيلية تحارب غرب القناة ، وعكس هذا التصرف حق العدو وفقدانه الاتزان ، اذ أن هذه القوات غاصت في بحر من نيران المدفعية المصرية ، والمدركات وهجمات الرجال ، واذا نظرنا الى حجم الدعاية الاسرائيلية حول هذه العمليات وعن القوات الاسرائيلية المتسللة لوجدناه عظيما ، كان العدو

يحاول أن يرفع من معنوياته داخل اسرائيل ، ولكنه نسي أن يطبق نفس عقيدته العسكرية في ظروف مغايرة .

والمنتبع لسير معارك أكتوبر ، يلاحظ أن وقوع المعارك الكبرى في (حرب الدبابات الضارية) ، والتي تميز بها الأسبوع الثاني للقتال في سيناء ، كان يتضمن عناصر ايجابية بالنسبة لنا ، فهذه المعارك لم تكن في عمق سيناء ، بل كانت بالقرب من ضفة القناة ، بعيدا عن قواعد الخلفية ، وطول خطوط امداده وتموينه مما مكن وحدات قواتنا الخاصة من مهاجمتها وارهاق العدو ، كذلك ، كانت هناك المعارك تدور فوق أرض تقع تحت السيطرة الكاملة لشبكة دفاعنا الجوي والتي تسيطر على سماء المعركة وتبطل فاعلية سلاح الجو الاسرائيلي .

وقد برز دور رجال ووحدات الكوماندوز المصريين ، داخل سيناء ، في هذه المعارك ، اذ بدأوا عملياتهم القتالية ضد اسرائيل منذ اليوم الأول للقتال .. وهوجمت خطوط العدو ، وطرق امداداته ، وعرباته ومجنزراته ، بشكل حاد ، وكانت عملياتهم القتالية فوق صحراء سيناء تضيف خبرات جديدة وتجارب غنية الى حروب التحرير ، فلأول مرة تشن وبشكل حاد، وعنيف ، حرب الأغوار ، وبصفة منتظمة وعبر أعمال قتالية مستمرة ، ولمدة طويلة ، في الصحراء العارية ، الخالية من أى نوع من الحماية ، فلا غابات ، ولا أحراش ، أو حقول أرز ، أو أى مناطق طبيعية تحمى عمليات المقاتلين ، كذلك التى يلجأ الفدائيون والمقاتلون اليها في غابات فيتنام والكونغو أو في مناطق أمريكا اللاتينية في مواجهتهم للعدو ..

وقد وصف مراسل عسكري فرنسى هذه الحروب بقوله : « ان تحركات وعمليات الكوماندوز المصرية ، هى لون متقدم من العمل الفدائي ، الذى سيصبح معينا للدراسة بالنسبة لحروب التحرير ، فقد برز دور هؤلاء الرجال بشكل واضح بأعمالهم الخارقة ، جنبا الى جنب تفوق المصريين في حرب الدبابات وفي السلاح الجوي ، وفي ابطالهم لاسطورة التفوق العسكري لتل

أييب» وكان الأمر أشبه بـ (المعجزة) ، على حد ما جاء في صحيفة (الناشونال جارديان) :

« ان ما حدث بين العرب واسرائيل ، منذ السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كان أشبه بالحلم ، أو الاسطورة ، فقد كان الجميع يستبعدون ان (العربى) سيهاجم ، بل كل ما كان سائدا ، ان مصر تستعد لتدافع ، فقط ، لا لتتولى الهجوم ، وكما يبدو ان المbaughة اليونانية : (هاجم عدوك ، قبل ان يتوقع قدومك ، أو حتى وهو يضع خطته ، يكسبك الكثير) ، وهذا المنطق ، أو هذه النظرة ، كانت هى العنصر المسيطر على تحركات وعمليات الحرب التى أبرزت قدرات المصريين والسوريين القتالية ، فى الدفاع والهجوم ، على حد سواء ، والتى كشفت عن قدراتهم فى استيعاب فنون الحرب الحديثة ، وبسرعة التدريب على أحدث الأدوات الحربية ... فالهجوم المستمر ، والزام الجانب الاسرائيلى ، دائما موفف الدفاع ، وفرض مكان المعركة وتوقيتها ، واستمرار المعركة على أكثر من جبهة ، وحرب الاغوار التى قام بها رجال الكوماندوز المصريين ، ومعارك الدبابات الشرسة ، والقدرة على اطالة المعارك ... كل هذا كان أشبه بالمعجزة ، حقا ، فلم يكن احد يتوقع ان يحدث هذا ، وبهذه السرعة أبدا ... ! »

لكن بطل العبور : أنور السادات ، لم يشأ أن يسمى ما حدث بـ (المعجزة) وقال :

« من الخطأ الجسيم ، ان نقول ، عن العبور الظافر ، انه معجزة ، لان المعجزة ، بطبيعتها ، امر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وانما يجب ان ننظر اليه على انه ذروة للعمل الوطنى ، علينا ان نتمثل دروسه لكى نتخذه نمطا ترتفع الى مستواه كل جوانب العمل الوطنى . ان اعظم تقدير لأيام القتال المجيد ، ليس التغنى بها ، وانما استلهاهم معانيها ، لكى نحرز فى مختلف مجالات العمل الوطنى ما أحرزه من نجاح فى العمل العسكرى . ليكن شعارنا ، دائما ، انه مادمتا قد استطعنا ، فى ساحة القتال ، فانه يجب ان نستطيع بنفس المستوى فى كل مجال . ان المقاتلين هم الصفوة من أبناء هذا الشعب . وما صنعوه فى

مواجهه العدو الشرس ، الفادر المدجج بالسلاح ، يستطيع
 ابناء هذا الشعب أن يصنعوه في مواقع الانتاج والخدمات ،
 لنقهر التخلف ، ونتخلص من السلبيات الموروثة ، ونؤكد
 بالانجاز أن مصر - أكتوبر هي مصر المستقبل . ان النصر في
 أكتوبر ، لم يكن مصادفة ، ولم يحدث في غفلة من الزمان
 كما يريد العدو ان يوحي ، وانما هو ثمرة عوامل كثيرة
 واصيلة تجعله امرا واردا وطبيعيا ، وليس حدثا فريدا » .

ويضيف ، السادات ، موضحا ، ما حدث ، وما أعاد الى مصر روحها
 المفقدة ، وما جعل العرب يعبرون الهزيمة التي منيت بها الأمة لطوال ست
 سنوات منذ حرب الخامس من يونيو ٦٧ فيقول : . ان جوهر القوات
 المسلحة كان الأساس ، وعظمة هذا الشعب ، كانت المنطلق الأساسي ، فجوهر
 مصر عظيم وقادر دائما على العطاء ، وتجاوز أحلك الظروف ، وتخطى كل
 ما من شأنه أن يعوق أو يعرقل الأمة ، وكان لابد من تخطى هذه الظروف
 الاستثنائية التي فرضها مناخ فاسد وظروف معتمة :

((لقد كنت اعرف جوهر قوائنا المسلحة ، ولم يكن
 حديثي عنها رجما بالقيب ولا تكهنا ، لقد خرجت من صفوف
 هذه القوات المسلحة وعشت بنفسى تقاليدها ، وتشرفت
 بالخدمة في صفوفها وتحت ألويتها ، ان سجل هذه القوات
 كان باهرا ، ولكن اعدائنا : الاستعمار القديم والجديد
 والصهيونية العالمية ، ركزت ضد هذا السجل تركيزا مخيفا
 لأنها ارادت ان تشكك الأمة في درعها ، وفي سيفها ، ولم يكن
 يخاف مني شك في ان هذه القوات المسلحة كانت من ضحايا
 نكسة سنة ٦٧ ، ولم تكن أبدا من اسبابها)) (١) .

فلقد أعد السادات ، منذ اليوم الأول ، الذي تسلم فيه مقاليد الحكم ،
 العدة من أجل أن يقضى على ذلك (الكابوس) ، الذي ظل جاثما على صدر
 مصر ، والأرض العربية ، لسنوات ليسب بالقليلة . فقد كان يعرف ، أنه

(١) جاء هذا الكلام بعد قيام حرب أكتوبر بعشرة أيام ، في خطاب انور السادات في افتتاح
 الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

طالما هناك مناخ معتم ، فلا يمكن التحرك أو الانطلاق الى آفاق رحبة ..
لذلك راقب كل شيء ، ورصد كل شيء ، وحاول أن يفعل كل ما من شأنه
أن يجهز قواتنا لضرب العدو ضربة واحدة ، وكان لابد أن يخلق المناخ
الصحي لذلك .. أولا ضرب مراكز القوى في الداخل ، ثم قام بالاشراف على
تدريبات القوات المسلحة بنفسه ، وعلى اسنياب كل متغيرات العصر في
العسكرية الحديثة ، هذا الى جانب تمهيد الدبلوماسية ، والقوى ، والعالمى
كسدمات مامة صاغها قبل ضربة اكتوبر ٧٣ :

« لقد كان كل شيء منوطا بإرادة هذه الأمة ، حجم هذه
الإرادة ، وعمق هذا الإرادة ، وما كنا لنستطيع شيئا ،
وما كان احد ليستطيع شيئا لو لم يكن هذا الشعب ، ولو لم
يكن هذه الأمة . لقد كان الليل طويلا ، ونقيلا ، ولكن الأمة
لم تفقد ايمانها أبدا بطاوع الفجر .. واني لأقول بغير ادعاء ،
ان التاريخ سوف يسجل لهذه الأمة ان نكستها لم تكن
سقوطا ، وانها كانت كبوة عارضة ، وان حركتها لم تكن
هورانا ، وانها كانت ارتفاعا شاهقا . لقد اعطى شعبنا
جهدا غير محدود ، وفهم شعبنا تضحيات غير محدودة ،
وأظهر شعبنا وعيا غير محدود ، وأهم من هذا كله ، أهم
من الجهد والتضحيات والوعى ، فان الشعب احتفظ بإيمانه
غير محدود ، وكان ذلك هو الخط الفاصل بين النكسة وبين
الهيمنة . ولقد كنت أحس بذلك من أول يوم تحمات فيه
مسؤوليتى ، وقبالت راضيا بما شاء الله ان يضعه على كاهلى ،
كنت اعرف ان ايمان هذا الشعب هو القاعدة ، واذا كانت
القاعدة سليمة ، فان كل ما ضاع يمكن تعويضه ، وكل
ما تراجعنا عنه ، نستطيع الانطلاق اليه مرة أخرى .. » (١)

ويقول السادات ، أيضا ، فى حديثه عن حرب التحرير ، التى كانت
أكتوبر بداية عظيمة لها ، ان أى مواطن يتمسك بأرضه كل التمسك ،

(١) قال أنور السادات هذه الكلمات فى خطابه الناريخى الذى ألقاه فى افتتاح الدورة
الاستثنائية لمجلس الشعب ، بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ - أى بعد عبور أبطالنا القناة السويس
وبخطهم خط بارليف ، وتحطيم أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يهر بعشرة ايام ..

وليس هناك وطنى لا يتمسك أو يتشبث بأرضه إلا اذا كان شاذا ، وهذه الأرض التى يحيا عليها المواطن عرضة ، فى أى وقت للضباع ، أو الغزو أو الاغتصاب ، واذا لم يكن (المواطن) على استعداد لحماية هذا الحق ، فإنه لا يكون كفتا لها :

((بالنسبة لاي مواطن ، فإن أرضه هى عرضة للضياع ، واذا تساهل فيها سهل الهوان . . لماذا ؟ لأن المعركة هى أولى الأولويات فى مهام الرحلة ، وفى سبيلها كل شيء . من أجلها العمل فى الداخل ، ومن أجلها العمل فى الخارج ، على أساسها صداقتنا مع الأصدقاء ، وعلى أساسها عداوتنا مع الأعداء . مطالبها من الأسس سبق ، وضرورتها قبل أى ضرورات ، وليعرف الكل على أرضنا وعلى أرض امتنا ، وفى العالم كله أننا فى هذا لا نساوم ، ولا نتاجر ، ولا نزايد . نحن طلاب سلام قائم على العدل ، وفى نفس الوقت نحن ، أيضا ، حماة سلام قائم على العدل . نحن نعطي الحياة كلها لبناء السلام القائم على العدل . ونحن على استعداد لأن نأخذ الموت دفاعا عن السلام القائم على العدل)) .

ولم تكن حرب أكتوبر ، حرب من أجل الحرب ، وانما كانت تسعى لتحقيق مهام بذاتها ، مهام قتالية ، الغرض منها : اسقاط أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى عن طريق عبور المانع المائى لقناة السويس ، وتحطيم خط بارليف والحاق الحطام والتدمير بالعدو الذى دائما أصر على صلاته حتى يتم تحرير الأرض العربية ، ورحلة تحرير الأرض ككل ، لا بد أن تبدأ بخطوة ، والخطوة بدأت فى ٦ أكتوبر ٧٣ ، وأعقبها خطوات ، وخطوات فنحن لم نحارب لأننا (دعاء حرب) ، بل حاربنا من أجل تأكيد عدالة قضيتنا وشرعيتها ، وكما يقول بطل العبور « السادات » :

((لقد قاتلنا ، وامامنا قتال شديد . . ولكن سلاحنا وقاتلنا ، ليس سلاح ، وقتال العدوان ، وانما هو سلاح الحق والحرية)) .

يرى الكاتب « أوزوالد جونستون » .. أن النظرية التي تروج في واشنطن ، وتلقى قبولا لدى بعض الدوائر ، والقائلة بأن الرئيس أنور السادات دخل الحرب بهدف محدود ، وهو الاستيلاء على قطاع رمزي من سيناء لكي يرغب الدول الكبرى والأمم المتحدة على ممارسة الضغط على إسرائيل لتعيد الأراضي التي استولت عليها في حرب عام ١٩٦٧ ، يرى جونستون ، أن هذا الرأي غير صحيح ولا يصل الى كبد الحقيقة ، ويدلل على ذلك بقوله : « من الصعب علينا أن نغفل المخاوف القديمة التي كان مبعثها ان العرب لن يقبلوا الا القضاء على اسرائيل ، وكان الهجوم العربي العنيف البالغ التنسيق سببا في أن يعيد الحياة الى تلك المخاوف من جديد والمعتقد في اسرائيل ، أن الدافع الرئيسى وراء الهجوم العربى ، هو المذهب الذى صاغته الظروف التى أعقبت ١٩٦٧ ..

ويضيف جونستون ، موضعا وجهة نظره :

« ولعل الحرب التى قامت فى أكتوبر ١٩٧٣ ، كان هدفها تحقيق المرحلة الأولى من مراحل البرنامج الذى وضعه الرئيس أنور السادات فى السنوات الأخيرة ، وهى ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ والمرحلة الثانية وهى استعادة حقوق شعب فلسطين وهى عبارة لا يقصدونها فى اسرائيل الا على انها تعنى تفكيك اسرائيل كدولة يهودية . ولقد كان عمل السادات الأساسى خلال عام ١٩٧٢ ، عملا دبلوماسيا يهدف الى عزل اسرائيل والدولة الوحيدة التى تساندها : أمريكا .. وكان السادات يعتقد ان استخدام دبلوماسية البترول المتشددة ، سيكون أمرا تحسب حسابه أمريكا فيما يتعلق بتزويد اسرائيل بالمزيد من السلاح اذا سارت مجريات أى حرب جديدة فى صالح العرب . ويشير المنظرون الاسرائيليون الى التكتيك الذى اتبعه السادات ، والذى يعتبر مخالفا تماما لتكتيك عبد الناصر ، وقد اعتمد السادات على ان العرب يجب الا يضربوا اسرائيل الا اذا توفرت ثلاثة شروط أساسية : ان القوات المسلحة يجب أن تكون مدربة تدريباً ممتازا ومستعدة ومزودة بالسلاح اللازم .. وان العالم العربى بأجمعه لابد أن يكون موحدا .. وان يكون

المناخ الدولي مواتيا .. وبعد أن وثق الرئيس السادات ، بأن الأسلحة السوفيتية وفرت الشرط الأول ، بدأ في أوائل عام ١٩٧٣ في انحار الشرطين الآخرين .. وخلال الربيع والصيف من عام ٧٣ ، نجح السادات في تجسيع القوى العربية وجعلها قوة متعاونة ، وذلك عندما أقنع الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وزعماء الدول العربية الأخرى المنتجة للبتترول في مساندته اذا ما قامت المعركة ليستخدم البترول كسلاح له فعاليتها في المعركة ليضغط به على الدول الصناعية الكبرى التى تعتمد فى انتاجها على البترول .. وفى نفس الوقت ، وقبل أن تقوم حرب اكتوبر بأشهر قلائل ، أرغمت الدول العربية وتزعمها مصر على أن تستخدم أمريكا حق الفيتو فى مجلس الأمن ، لعرقلة قرار جديد يلوم اسرائيل لرفضها التخلي عن الأراضى العربية التى استولت عليها عام ١٩٦٧ ، وقبل قيام الحرب بشهر واحد ، فى ١٣ سبتمبر ٧٣ ، كانت شروط الخطة قد اكتملت عندما عبأ السادات الجبهة الشرقية ضد اسرائيل بتسوية الخلافات بين الأردن وسوريا »

وقد نشرت « كريستيان ساينز مونيتور » معالا عن حرب أكتوبر بين العرب واسرائيل ، جاء فيه :

« ان محاولة مصر وسوريا استعادة الأراضى التى خسرتها ليست عملا عدوانيا بالمعنى الصحيح ، وموقف موسكو ، سيظل داخل حدود المسؤولية اذا كانت مساعداتها لمصر وسوريا محدودة باعطائهما الوسائل التى تسكنهما من الدفاع عن نفسيهما ، وهى محاولة استرداد أراضيهما الضائعة ، ولكنها تخرج عن نطاق المسؤولية اذا أدى ذلك الى غزو اسرائيل نفسها ، فليس المقصود ضرب اسرائيل والاجهاز على وجودها ككبان وكدولة ، والا لندا العرب دعاة حرب وغلاة دمار ، وبالنسبة للولايات المتحدة ، فانها تبقى فى نطاق المسؤولية اذا كانت مساعدتها لاسرائيل ، تؤدى الى تعزيز دفاعها عن نفسها ، ولكنها تتجاوز هذا النطاق اذا مكنت المساعدة الأمريكية اسرائيل من تحطيم الجيوش العربية » .

وهذا الحديث ، أو هذا المقال الذى نشرته الصحيفة الأمريكية ، جدير حقاً ، بالتقدير ، فيما يتعلق بنفى صفة العدوان عن مصر وسوريا . لكن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بأعمال غير مسئولة ، إذ أنها قدمت مساعدات لاسرائيل مكنتها من تحطيم الجيوش العربية سنة ١٩٦٧ ومن احتلال اراضى خاصة بثلاث دول عربية : مصر ، سوريا ، الأردن ، فضلاً ، عن ابتلاع معظم اراضى فلسطين ، وكان الاتحاد السوفيتى فيما قدمه من مساعدات للعرب ، وقد قدرت المصادر الامريكية شحنات الأسلحة المقدمة للجانب العربى فى الحرب خلال عام ١٩٧٣ بـ (٥٠٠٠٠) طن من المعدات العسكرية خلال اسبوع واحد ، لكن فى ١٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ ، صرح وكالة الأنباء الفرنسية ان ستمائة طائرة أمريكية غادرت قواعدها ، ومنها قاعدة جزر الآزور البرتغالية حاملة لأسلحة اسرائيلية حديثة هى آخر نتاج مصانع احتكارات السلاح الامريكى ، وكان بين هذه الطائرات احدث الطائرات المعروفة بطراز (جلاكس) وحمولته ١٢٠ طناً ، ونذكر من خلال ذلك مدى الدعم الذى قدمته أمريكا لاسرائيل ، لكن ، كل هذا مقبول ، ووارد ، لكن أن تشترك أمريكا نفسها فى الحرب ، فهذا هو الأمر الغريب

وفى نفس الوقت ، قالت صحف (فالبتا) فى مالدلة ، ان ست وحدات تابعة للاسطول الأمريكى السادس ، قد دخلت المياه الاقليمية لاسرائيل مساء ليلة ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ ، قادمة من قبرص .. وقد أكد المتحدث الرسمى باسم وزارة الدفاع الأمريكية ، ان حاملة الطائرات (فرانكلين روزفلت) قد غادرت برشلونة مساء العاشر من أكتوبر فى طريقها الى شرق البحر الابيض المتوسط ... ومن أجل تغطية (الجسر الجوى) ، لنقل السلاح

(١) وكان هذا المعال بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد قيام حرب السادس من أكتوبر بتسعة أيام فقط ، وكان هذا المقال بمثابة الرد على أمريكا التى كانت لها نظرتها الخاصة بالنسبة لما يدور فى الشرق الأوسط ...

لاسرائيل ، وهذا من أجل الحفاظ على ميزان القوى في الشرق الأوسط ... ولتبرير عمليات (الجسر الجوي) الذي قامت به أمريكا في سيناء .. قال النائب الأمريكي الديمقراطي « اوجدين ريد » - وهو سفير سابق للولايات المتحدة في اسرائيل ، قال : « ان أمريكا ، قد اتخذت عملية الجسر الجوي ، كضرورة حتمية لشد أزر اسرائيل ، فقد بدا رجحان الكفة المصرية ، وبدأت اسرائيل (تصرخ ، وتولول) ، خاصة وان مصر وسوريا ، تحارب بضراوة ، وبكتيكات مستحدثة مائة في المائة ، بل ومن خلال أسلحة عصرية للغاية ، فهي تستخدم صواريخ (سام - ٦) ومعدات الكترونية وقطع غيارات للطائرات غاية في الحداثة ، وقد تسببت صواريخ سام ٦ في الحاق خسائر فادحة في الطائرات الاسرائيلية ، واسرائيل لم تستطع التصدي لمواجهة هذه الهجمات الفادحة .. لذلك ليس غريبا ، ان ترسل مجموعات من الطائرات البوينج ، والفانتوم ، والجامبو ، الى سيناء ، لتعيد الطمأنينة الى قلب اسرائيل الذي قارب الخطر » .

وقد ظلت أمريكا ترقب الوضع ، بحذر شديد ، فرغم الدعم العسكري في السلاح والعتاد الذي ترسله لاسرائيل ، فان مصر تلحق الخسائر تلو الخسائر باسرائيل ، وكذلك الحال في الجبهة السورية .. رعى الحرب تدور لصالح السوريين امام ذلك كله ، لم يتردد الامريكيون على التدخل المباشر ، فان ما حدث ويحدث في الشرق الاوسط ، وعلى حد تعبير « هوارد كولاداي » وزير الخارجية الامريكية : « علامة بارزة في تاريخ الحروب ، سوف تغبر الاستراتيجية الحديثة .. ونقطة البداية أن تتحرك أمريكا ، لا بتقديم السلاح فحسب ، بل ، وأيضا ، بالمجهود المباشر » .

واتخذت كل التدابير للتدخل العسكري المباشر من جانب أمريكا ، واجتمع « جيمس شليسنجر » وزير الدفاع الأمريكي والادميرال « توماس مور » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة باللجنة العليا القيادية في مجلس الأمن القومي الأمريكي ، لتقييم الموقف ، والاستعداد للتدخل المباشر ، ودعا

« توماس مور » ، في نفس الوقت الى اجتماع طارئ لرؤساء الاركان ، وألغيت أجازات الضباط والجنود في الاسطول السادس وفي سلاح الطيران الأمريكي ... وبعد أسبوع من بدء المعارك اكد متحدث وزارة الدفاع ، أن حاملة الطائرات « فراكلين روزفلت » غادرت برشلونة واتجهت الى شرق البحر الأبيض المتوسط ...

وبدأت عمليات « الجسر الجوي » ، الذي مارسته امريكا فوق صحراء سيناء ، والقناة ، ويعتبر من أضخم الجسور الجوية منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد وصفت السرعة التي تنقل بها الامدادات بأنها « سباق مع الزمن » ، وقد شمل هذا (الدعم المباشر) جميع الاسلحة العصرية ، ففى المقدمة ، ارسلت طائرات الفاتوم التي نقلت رأسا من مصانع الاحتكار الامريكى للسلاح والتي قدر عددها بـ ٤٨ طائرة ، قادها أكفأ الطيارين الامريكيين ، كذلك كانت ٨٥ طائرة سكاي هوك يقودها طيارون أمريكيون في طريقها الى اسرائيل عبر البحر المتوسط .. كما بدأ شحن كميات هائلة من الصواريخ المختلفة الأمريكية مثل « صواريخ شرايك » لابطال مفعول الصواريخ السوفيتية (أرض جو) ، وصواريخ (جو - جو) مثل : (سيدنيدر) و (سبارو) ، وصواريخ (وول آى) - أى الموجهة بالتليفزيون ضد الاهداف البرية ، هذا الى جانب كميات هائلة من الدبابات طراز (م / ٦٠) ، والذخيرة للمواقع الثقيلة ، والمدفعية المضادة للطائرات ... وقد صرح نيكسون ، بنفسه ، بهذا الدعم ، في كلمته التي القاها يوم ١٥ أكتوبر ٧٣ : « ان الولايات المتحدة تضمن عدم تعرض استقلال اسرائيل وأمنها للخطر ، بسبب الحرب في الشرق الاوسط ، ولن تقف مكتوفة الأيدي أمام الحاق أى أذى باسرائيل ... وهذا لا يعنى أننا ماضون لاشعال مزيد من الحريق ، فمن هو الذى ينبغي زيادة رقعة الحرب ! » ...

كانت امريكا ، تتحرك من موقع المساندة الكاملة لاسرائيل ، حتى عندما يقف اطلاق النار ، لا تكون اسرائيل في موقف (الضعيف) ، فيملي العرب شروطهم ، بل كانت على الأقل تريد نوعا من التعادل ، وعلى ذلك تحركت للدعم الكامل والمؤازرة ، بل ومد «الجسر الجوي» ، وكان احداث «الثغرة» في الدفرسوار ، جزءا من هذه «العملية» لاحتياط موقف العرب ، والحق اليأس في نفوسهم ، خاصة بعد أن اذاعت وكالات الأنباء والصحف العالمية ، أنباء انتصاراتهم وتفوقهم العسكري على اسرائيل من خلال العبور والحرب بضراوة على مختلف الجبهات ..

كانت عملية «الجسر الجوي» من الاساليب التي لجأت اليها امريكا ، للضغط على مصر ، وعلى العرب ، حتى لا ترجح كفة العرب في الانتصار على اسرائيل . وقد لاقى هذا (الجسر) من قبل الامبريالية العالمية استحسانا كبيرا ، على اعتبار ان هذا الجسر صوره من صور التمع والتحكم في المنطقة ... وقد شجع على ذلك الضغوط الصهيونية داخل امريكا والعرب بصفة عامة ، وقد استلغت الصهيونية ميل الاستعمار الى استخدام قوة ثابتة يستخدمها للوثوب على المنطقة ، كما استغلت رغبة الاحتكار من اليهود الذين يطمعون في أن تكون لهم سيطرتهم السياسية المباشرة في تحريك مصالحهم ... والحركة الصهيونية ، تدرك ادراكا كاملا التقاء مصالحها مع الامبريالية ، ولذلك ، فهي ، دائما ، تنقل ولاءها الى القوى الامبريالية التي تحتاج الى وجودها واستمرارها في الشرق الاوسط ، وقد برزت اسرائيل كأداة امبريالية فعالة ، لها أهميتها بالنسبة للدول الاستعمارية ، بعد ١٩٦٧ ، وبعد رواج «نظرية الفتنمة» ، وعندما أحست اسرائيل بالخطر يحاصرها منذ بداية حرب السادس من أكتوبر ، صرخت ، وولولت ، لبغيثها الغرب ، وكانت ، أساسا ، توجه صرخاتها الى امريكا ، لانها لم تعد تعتمد على دول أوروبا كثيرا ، خاصة بعد انتقال ولائها بشكل متعاطف الى الولايات المتحدة مع مرحلة نمو المصالح الأمريكية على مصالح بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الاوربية في أعقاب ١٩٦٧ ..

وكانت « عملية الجسر الجوي » ، ادمغا كاملا لدور امريكا في حرب الشرق الاوسط ، فاقد كان الوجه الامريكى يلبس الأقنعة الاسرائيلية ، ويتحرك من وراء الستار ، لكنه بدا وجه امريكا سافرا ، وتدرج السفور من الدعم العسكرى والمادى والسياسى ... وبلسان حال طيار امريكى ، انتابه التمزق ، وهو يطير فوق أرض سيناء ، جاء هذا الوصف ، الذى يدمغ دور امريكا فى عملية « الجسر الجوي » (١) :

« ليست هذه هى المرة الاولى التى احاق فيها فوق سيناء ، ولن يكون هذا اول هبوط لى فى مطار العريش .
لقد قمت بهذه الرحلة عدة مرات منذ منتصف اكتوبر ٧٣ .

حتى الآن .. اننى جزء من الجسر . نعم هناك جسر طائر ، جسر فوق السحاب ، قوامه عدة مئات من طائرات (جالاسى) الجبارة ... طائرة النقل الاستراتيجية ، وهو جسر (متعدد الأطراف) يبدأ متشعبا من عدد من المطارات والقواعد العسكرية فى الولايات المتحدة وفى اوروبا الغربية ، ثم تتقارب خطوطه فى شرقى البحر المتوسط ، وتظل هذه الخطوط تتقارب كلما اتجه شرقا ، حتى تصبح خدمة متلاصقة تهبط منها الطائرات فى مطار اللد وعدد من القواعد العسكرية فى اسرائيل .. وفى مطار العريش ... كان من نصيبى - او نصيب نوع الحمولة التى احمّلها ... اننى اهبط دائما فى العريش ... ان خط هبوطى يمر فوق صحراء سيناء ... ان تتوقف عجلات الطائرات على ارض المطار ، حتى يكون عمال التفريغ قد انزلوا من بطنها دبابة من طراز (باتون ١ م ٧٠) ، والدبابة ليست فقط جديدة لم تعمل من قبل ، ولكنها ، ايضا ، من آخر طراز ، نوع لم يستخدم فى أية معارك من قبل ... ان (طاقم) كل دبابة يكون ، دائما ، فى انتظارنا ، انهم يستقلونها فور ملامستها

(١) جاء هذا الوصف فى مقال نشره « سعبد عثمان » بمجلة الاداعة والليفلون فى اوائل نوفمبر ١٩٧٣ ، تحت عنوان : طيار امريكى فوق سيناء ، بسمع المؤبر الصحفى للرئيس نيكسون ثم ضمنه لكتابته (الفكر الذى انتصر) ، والذى صدر بعد ذلك بعام ...

الأرض ، ويقومون بتموينها والاتجاه بها غربا ... يالها من حرب ... اننى ارى بعيدا على الأفق نارا وسحابات كثيفة من الدخان تتصاعد ، وأسمع انفجارات بعضها من الشدة بحيث نهتز له هذه الطائرة الثقيلة ... ارسد تحتى فى مياه البحر عددا كبيرا من السفن الحربية وبعض سفن النقل ... ليست السفن كلها أمريكية ، والطائرات التى اصادفها ليست كلها أمريكية أيضا . اننى اشعر اننى فى حرب ، بل انا فى حرب فعلا . اننى احمل عتادا حربيا هاما ، وانقله الى منطقة القناة ، وهو يدخل فى القتال على الفور ... هنا الجانب الاسرائيلى ، ولكننى لا افهم لماذا انا فى هذه الحرب . لقد قرأت وسمعت عن هذه الحرب من قبل ان يصدر لى الأمر بالاشتراك فى هذا الجسر الجوى ، ومنذ ان اخذت مكانى فيه وأنا اسمع من راديو طائرتى الكثير من الأخبار عن هذه الحرب ... » .

ويقول الطيار ، أيضا ، فى عرضه للأمر وهو فوق البحر فى طريقه الى

سيناء :

« خلاصة الأخبار ، ان المصريين يقاتلون الاسرائيليين ، لانهم يريدون تحرير ارض لهم يحتلها الاسرائيليون ، والقتال كله دائر فوق هذه الأرض ، اننى لم اسمع ان المصريين دخلوا اسرائيل او هددوا أمنها ، وبياناتهم تقول ان هدفهم محدد ، وهو تحرير ارضهم التى احتلت فى حرب سابقة ، هذا الذى يقوم به المصريون سيدخل كتب التاريخ بوصفه بطولة ... حرب تحرير وطنية ... كم اشعر بالفخر عندما اقرا فى التاريخ ان اجدادى خاضوا حرب تحرير وطنية ضد بريطانيا واخرجوها من الولايات المتحدة ... ولكن يبدو الآن ، اننى اقف على الجانب الآخر ، اننى مع الطرف الذى يحارب المدافعين عن حرية ارضهم ، ياله من موقف ! لا اريد ان افكر فى هذا الأمر . انه ثقيل على كل من ذهنى وضميرى . لماذا لا التمس شيئا من راحة البال ؟ ان التفكير فى هذه المسألة يضغط على اعصابى ويكاد يصيبنى بالغشيان ، خاصة عندما افكر فى عودتى الى البيت ومقابلتى لزوجتى واولادى .

ابنى سيسالنى عن مهمتى ويلاحقنى بطلب التفاصيل . لا اريد
 أن اكذب عليه ، فلم اعوده على الكذب ولا اريده أن يكتشف
 اننى كذبت عليه يوما . ساقول له الحقيقة . ساقول اننى
 انقل دبابات على وجه السرعة لاسرائيل ، لكى تستخدمها
 على الفور فى القتال ضد العرب ، سيسالنى لماذا يحارب
 العرب اسرائيل ؟ وساضطر لأن أقول له ، لأنهم يريدون
 اخراجهم من اراضيهم التى يحتلونها ، وسيقول لى .. ولكن
 لماذا نحارب نحن ضد العرب ؟ وهنا لن أستطيع أن ارد
 عليه ... لأننى ، فعلا ، لا أعرف ... عظيم ... هذه
 موسيqa ، تريح أعصابى ، ونخرجنى من افكارى المتعبة ...
 الموسيقى تتوقف ، يعلن المذيع ان الاذاعة ستنتقل بعد قليل
 المؤتمر الصحفى للرئيس الأمريكى ... لابد أنه سيقول لى
 ولآلاف غيرى ممن يشاركون فى الجسر ، شيئا عن حكاية
 الجسر هذه ... قبل أن اغادر قاعدتى صباح اليوم ، سمعت
 أنه قد اصدر امرا للقوات المسلحة الأمريكية فى جميع أنحاء
 العالم بأن تكون فى (حالة تاهب) .. معنى ذلك ، أن الامور
 تنطور بسرعة ربما يتصاعد الامر الى مواجهة عالمية ، ويتحول،
 بالضرورة ، الى مواجهة ذرية يا الهى .. ولكن لماذا ؟ لأن
 المصريون تحركوا فى منطقة محتلة من ارضهم لاجراج قوات
 الاحتلال منها ؟ ! لا يبدو ذلك سببا مقنعا للوصول بالعالم
 الى حافة الهاوية ، وهل بعد المواجهة الذرية من هاوية ؟!
 ... المذيع يعلن عن وصول الرئيس الأمريكى الى الجناح
 الشرقى فى بيته الأبيض ... لم يصفق أحد للرئيس عند
 دخوله ، يبدو ان الموقف متوتر بشكل او بآخر ... وتحدث
 الرئيس واستمعت اليه ، كنت اظن أن استماعى
 الى هذا المؤتمر الصحفى سيساعدنى على الفهم ... ان
 افهم لماذا انا هنا اشارك فى حرب لم يعلنها أحد على الولايات
 المتحدة ، والتى اقسمت أن ادافع عن أمنها واستقلالها
 ودستورها ، وان أسمع من الرئيس الأعلى للسلطة التنفيذية
 بالولايات المتحدة ، الذى اقسمت على الولاء له ، مايطمئننى
 على ان القانون لم تزل له الكلمة فى بلادى ، وانه اذا كان

قد حدث من بعض رجال هذه السلطة تجاوزات فان رئيسهم
سيصحح الأوضاع ويعيد الحق الى نصابه والعسل الى
مجره ... » .

ويختتم الطيار الأمريكى ، حوارہ وتداعى معا يه التى تدور داخله ،
بهذه الكلمات :

« .. واستمع الى وقائع المؤتمر الصحفى للرئيس ،
انصت الى الأسئلة والاجابات الحادة ... المؤتمر ، كله ،
يدور حول مسالتين .. هذه النار المشتعلة تحتى فى سيناء ،
والنار التى يستعر أوارها فى بلادى ، حيث تدور رحى
معرفة اخرى حول سيادة القانون ... المسالتان لهما عندى
نفس الدرجة من الأهمية .. فاننا هنا - شئت ام لم اشأ -
اشترك فى حرب اقف فيها ضد الجانب الذى اعلم انه صاحب
الحق ، وانه لم يفعل شيئا سوى النضال من أجل استرداد
حرية ارضه ... وما يحدث فى بلادى هو حياثى ، ومستقبل
اولادى ، وحقيرى ، أنا ، وغيرى ، من اهل بلادى ان نعيش
دائما فى ظل القانون ونحافظ على دستورنا الذى يعتبر من
أكبر منجزاتنا ... استمع وأتابع وابحث وسط هذا الكلام
الكثير عن اجابات ، عن ردود الأسئلة الكبيرة فى ذهنى ،
وللأسئلة التى سيلقانى بها ابنى عندما أعود الى البيت ،
فلا أجد أى اجابة » .

ويمضى الطيار الأمريكى فى عرض وجهة نظره ، وغيره عشرات
الطيارين الأمريكيين ، لا يعرفون لماذا قذفت بهم الولايات المتحدة الى
أتون هذا الحرب . فالمشكلة على وجه التحديد بين بلدين ، طرفين : مصر ،
واسرائيل ... اسرائيل اسنولت على أراضى بالقوة من العرب خلال ١٩٦٧
ومصر حاولت ان تسترد هذه الأراضى بالسلم ، وبالوسائل السلمية ، ومن خلال
مختلف المحاولات الدبلوماسية ، لكن الحلول كلها باءت بالفشل ، فسعت
الى استردادها عن طريق الحرب ، وهو حقها وشرعيتها ، فلماذا تتدخل
امريكا .. ولماذا ترسل بطيارها ، يشاركون فى « الجسر الحوى » ،

ويدعمون جهود اسرائيل ، ويشتركون بالحرب بشكل مباشر ... وهذه الاسئلة طرحها عشرات الطيارين الأمريكيين ، بل وطرحها أيضا ، عشرات المراقبين والكتاب السياسيين والعسكريين ، وجدد السؤال معلق صحيفة (الناشونال جارديان) بقوله :

« لماذا ؟ لماذا هذا (الجسر الجوي الأمريكي) ، هل لاضافة نيران جديدة الى المنطقة ، ام ل اظهار العرب في موقف حرج .. ؟ انهم لم يدخلوا الحرب من اجل الحرب ، ولا من اجل مواجهة امريكا ، بل من اجل استعادة اراضيهم السليبة » .

فكجزء من عملية « الجسر الجوي » ، اعترف صحفي واشنطن ولندن وباريس في النصف الثاني من أكتوبر ٧٣ ، بأن مزيدا من الطائرات يتم شحنها الى سيناء من قواعد حلف الاطلنطي ، ومما جاء في هذه الصحف من تصريحات ما نشرته صحيفة الجارديان « بأن مجموعة من الطائرات الامريكية من طراز بوينج ٧٠٧ قد تم شحنها خلال يومي ١١ و ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، محملة بالصواريخ والقنابل من قاعدة وسيانا الجوية في فرجينيا ، وان العمال كانوا يضعون النجمة المسدسة على الطائرة قبل قيامها ، حتى لا يقال اذا ما أصابها مكروه انها من طائرات الاطلنطي ، وقد تقلت في ساعة ونصف ٤٨ طائرة فانتوم من امريكا رأسا الى مطار اللد الاسرائيلي ، لتشارك في هذه العمليات ، وقد اعترف (الجنرال هيرتزوج) ، بذلك وقال ، ان على الاسرائيليين ان يحسوا بالطمأنينة لان الولايات المتحدة ملتزمة بسياستها الخاصة بالحفاظ على ميزان القوى » . كما اعلن في واشنطن ، في نفس الوقت ، وعلى وجه التحديد في أكتوبر ١٩٧٣ ، أن مجلس الشيوخ والنواب قد وافقا على الغاء استقطاعات خاصة وكبيرة من ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية ليمكننا من تزويد اسرائيل بالذبابات الجديدة ، وقد أكد السيناتور الأمريكي « هنري جاكسون » ذلك ، واعترف به في مؤتمر صحفي في ١١ أكتوبر ١٩٧٣ في واشنطن ، قال « ان ١٠٠

مليون دولار ، تم اعتمادها لاسرائيل ، لشراء ٣٦٠ دبابة من طراز (م / ٦٠)
للحفاظ على ميزان القوى في الشرق الأوسط ، وحتى لا تعجز اسرائيل
في صد الهجمات المصرية القوية والتي بدت عنيفة في الفترة الأخيرة ..

ويدين العالم الحر ، بل وعشرات الكتاب والمفكرين التقدميين « عملية
الجسر الجوي » ، التي شاركت بها امريكا ، لاحباط العرب ، نفسها
وعسكريا .

يقول كاتب مثل (سافران) في مجلة (السياسة الخارجية الأمريكية) .

« أن هذا العمل - الا وهو دعم اسرائيل ، عن طريق
(الجسر الجوي) ، يسيء الى امريكا ، والى العالم الحر
بشكل سافر ، وكان على امريكا منذ البداية أن تشارك في
ايجاد التسوية الموضوعية ، دون اللجوء الى هذا الأسلوب
الذي أصبح من سمات مخالفة لمنطق حضارة عصرنا ! » .

ويعترف المؤرخ والكاتب الانجليزى أرونولد توينبى (١) ، بهذا
(الجسر الجوي) ، وبهذا التدخل من جانب امريكا ، فيقول : « ان حلف
الأطلنطي يقوم ، أساسا ، من أجل هدف واحد محدود ، هو الدفاع المشترك
من الولايات المتحدة وكندا والدول الاوربية الأعضاء في حالة تعرض احدها
لهجوم من جانب الاتحاد السوفيتي ، ومن أجل هذا الهدف وحده ،
استضافت الدول الاوربية الأعضاء قوات مسلحة أمريكية في أراضيها
ومياها الاقليمية .. لكن في أكتوبر ١٩٧٣ ، استخدمت الولايات المتحدة
بعض قواعدها في أوروبا في عملية لا صلة لها بالهدف الذي وضعت من
أجله القواعد الاوربية تحت تصرفها . لقد استغلت الولايات المتحدة هذه

(١) أرونولد توينبى ، المؤرخ والكاتب الانجليزى الشهير ، الذي عرف بتعاطفه مع مصر
والعرب في حربهم العادلة من أجل استعادة أراضيهم المفقودة ، وقد كتب مقالته هذه في
نوفمبر عام ١٩٧٣ ، وكانت تحت عنوان : (مغامرة غير مقبولة من امريكا تعرض أوروبا
لحرب نووية) !

القواعد لبذل ضغط على الاتحاد السوفيتي في نزاع المصالح الروسية - الأمريكية في الشرق الأوسط ... والدول الأوروبية الأعضاء في حلف الأطلسي ، لا صلة لها بهذا النزاع غير الاوربي ، ومع ذلك فإنها ستعاني أكثر مما تعاني الولايات المتحدة من خطر البترول ، الذي كان رد العرب على مساعدة أمريكا لإسرائيل . أما بما لا يمكن السماح به أو تحمله فهو أن تتعرض هذه الدول ب سياسة أمريكا في الشرق الأوسط ليست هي سياستها - للتورط في حرب نووية ، وهو الخطر الذي تمثل لها في اعلان التآهب الأمريكي .

ويضيف أرنولد توينبي ، موضحا وجهة نظره ، في تدخل أمريكا ، وفي استخدام قواعد الأطلسي لتدعيم الجسر الجوي ، وتوريط أوروبا في ذلك ، فيقول:

« لقد أعلنت أمريكا حالة التآهب ، دون مشاورات مسبقة مع حكومات حلف الأطلسي ، وبدلا من الاعتذار عن ذلك ، فقد انتقد ممثلو الحكومة الأمريكية - بقسوة عانية - الأعضاء الأوربيين في الحلف لاسيما ألمانيا الغربية ، لعدم موافقتهم على سياسة أمريكا في نزاعها الخاص بها مع موسكو في الشرق الأوسط . والحكومة الأمريكية تتوقع من حلفائها أن يسلكوا سلوك الخدم المتواضعين الطائعين - مثلما حدث عندما ذهبت أمريكا الى الحرب في فيتنام ، وأجبرت استراليا ونيوزلندا . على ارسال وحدات من القوات للمشاركة في الحرب التي لم تبدها هاتان الدولتان ، والتي لم يكن لها مذاق بالنسبة لشعبيهما . أما ألمانيا الغربية ، التي كان لها ما يبرر شكواها من اساءة استخدام الأمريكيين لقواعدهم فيها من أجل ارسال شحنات الأسلحة لإسرائيل ، فإنها في الصف الأمامي . ان لهذه الدولة سياسة خاصة تقوم على الوفاق والمصالحة مع الاتحاد السوفيتي وبولندا ، وهي مثل سائر أوروبا ، لا مصلحة لها في معاداة العرب أو في مساعدة إسرائيل على محاولة الاحتفاظ بالأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ .. صدقوني ، اذا كانت

السماء ملبدة بالغيوم ، وأعطاني أحد جيراني مظلة ، فان رد الفعل الأول لدى سيكون الشكر والعرفان بالجميل . لكن اذا كان صمام الصواعق مشيتا في كفى .. سيكون من الحكمة ، اذن أن أسقط المظلة دون أن انتظر برقي السماء ورعودها ... ماذا سيفعل الاوريون ، اذن ، بالمظلة الذرية الأمريكية التي توصل ساقها الصواعق ؟ قد تنتهي من هذا كله الى أن اسقاط هذه المظلة الأمريكية سيكون أقل مخاطرة من امساكها والتشبث بها ! » .

كانت حرب أكتوبر ٧٣ ، بداية ، وليست نهاية ..

فهي بداية الرحلة ، التي من خلالها رفعنا الرءوس ، وأكدنا أن العرب قادرون على الحرب ، وعلى استعادة أراضيهم ، وعلى فرض شروطهم ... ومن يحاول أن يصور غير ذلك ، فانه يتنكر للتاريخ وللعلم ومنطق العصر .. وهذه الحرب ، كما قال السادات ، ستظل معينا لكل الباحثين والدارسين فهي قد قلبت موازين الحروب الحديثة ، استراتيجيا وتكتيكيا ، محتوى وشكلا ...

ودراسة مسارات هذه الحرب يحتاج الى وقت طويل ، لأنها ليست مجرد مواجهة ، أو حربا دفاعية وأ هجومية ، بقدر ما هي مواجهة لحضارتين ، لفكرين ، لمنهجين ، لأسلوبين .. ومنطق مصر ، والعرب ، الذي اعتمد على العلمانية والفكر العملي العقلاني ، تاركا وراء ظهره التجريبية التي استغرقت طويلا ، قد أتى ثماره ناضجة في أكتوبر ، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن حقق المصريون ، والعرب ، المهام القتالية والأهداف الأساسية للمعركة .

كان العرب في موقف (المتفوق) ، (القوي) ، عندما توقف اطلاق النار ، ولم تكن في موقف (الضعيف) ، لذلك ، قلنا : (لا) ، وسنقولها ، في كل جولة ، لأن منهجنا قد تغير ، وفكرنا قد تغير ، ونظرتنا للامور تغيرت .. وعندما حدث ذلك ، تغيرت نظرة العالم لنا : ابتداء من واشنطن الى موسكو وابتداء من اوسلوا وكوبنهاجن الى هيرت في جنوب استراليا ، حتى

اسرائيل نفسها ، غيرت وجهات نظرها عنا وعن العرب ، وأصبحت تنظر الى الأتشياء بمنطق يختلف عما كانت تنظر به ..

لقد أكدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، كما قال معلق صحيفة « الجارديان » ، تفوق مصر العسكرية على اسرائيل ، وكذلك أكدت بلاء القتال السوري ... فقد سقطت أسطورة الجيش الاسرائيلي المتفوق ، وانهارت تماما .. واستطاعت (السلحفاة) العربية أن تسبق (الأرنب) الصهيوني ، اذ برهن الجيش المصري والسوري أنهما أفضل تدريبا ، وأحسن تشكيلا واسعدادا وأشد جلداء وأفضل عتادا ، وسقطت ثقة اسرائيل في تفوقها التكنولوجي على العرب ، تماما ، مثلما تهاوت طائراتها بفعل شبكة الصواريخ المصرية .. وقد كتبت مجلة « النيوزويك » الأمريكية ، تعلق على هذا (التفوق) ، فقالت :

« لقد حاولت القيادة الاسرائيلية تدارك الموقف بعد أن بلغ الخطر مداه واستلهمت عملها بتدعيم جهاز التخطيط بعيد المدى لرفع كفاءته في أربعة مجالات أساسية ، لمقاومة التفوق العربي .. وكانت هذه المجالات هي : التنبؤ السياسي والاستراتيجي ، من حيث التحرك في مجال نشاط الدول العظمى والوضع العام في الشرق الأوسط ، والصراع العربي الاسرائيلي ، لوضع مخطط استراتيجي تستخلص منه المخططات الحربية .. التنبؤ التكنولوجي ، وتطوير أجهزة الأمن ومتابعة الغرب في هذا المجال ... التنبؤ الديموجرافي ، ويتعلق بهذا المجال ماله علاقة بمخزون القوى البشرية الممكن توافرها للجيش ، ومتابعة قدرات العرب في هذا المجال من حيث القدرات المتطورة ... التنبؤ الاقتصادي ، وهذا المجال يتعلق بالبنية التحتية للاقتصاد الاسرائيلي وقضايا توزيع السكان ، والمرافق الحيوية ، والوقود ، والمياه ، والمواصلات ، ومتابعة موقف دول المواجهة العربية في هذه الشئون ... ومن أجل ذلك ، أنشأت اسرائيل شعبة جديدة في قيادتها العسكرية عرفت بـ (شعبة التخطيط) وأوكلت رئاستها الى الجنرال ابراهيم نمير ، لتعمل على التنسيق مع أجهزة الدولة المختلفة ، وتبنى عليها

بالدرجة الأولى على الدراسات التي ستشترك في اجرائها مراكز البحوث المتخصصة ... فقد أكدت حرب أكتوبر ٧٣ تفوق العرب تكنولوجيا وفنيا في مجال الحرب المعاصرة » .

ويستدل الكثير من المحللين السياسيين والعسكريين ، على ارتفاع كفاية مصر والعرب القتالية ، وارتقاء وتقدم اساليبهم الاستراتيجية في فهم واستيعاب العسكرية المعاصرة . وينبئ هذا عن تضيق « الفجوة التكنولوجية » ، أو « اختلال الكيف » بين العرب واسرائيل ، وهو ما كانت تعتمد عليه في صراعها ضد مصر والعرب . وقد أكد المراسلون الأجانب ، من خلال رؤيتهم لسير المعارك في القناة ، وفي سيناء ، أن مصر والعرب ، قد استطاعوا ان يسابقوا الزمن ، وفي فترة وجيزة ، ليعبروا (الهزيمة) ، وليتخطوا كافة الظروف الصعبة التي سادت مصر ، والوطن العربي ، عموما ، في أعقاب هزيمة يوليو ١٩٦٧ ...

فقد أصبحوا ينظرون الى الحرب كعلم وفن ، لا على أساس « فهلوة » أو « عتريات عديدة » !

الحرب ... علم وفن

علم ، لأن كبار القادة العسكريين والسياسيين ، الذين عاشوها ، قواعد ونظريات عامة ، يجب أن يدرسها من لحقهم ليستفيدوا من خبراتهم والحرب فن ، لأن النظريات والقواعد التي وضعت في عصر ، لا تتلاءم مع عصر آخر ..

فنظريات نابليون بونابرت لا تتلاءم مع ظروف الحرب العالمية الأولى مثلما لم تتلاءم نظريات هتلر وموسوليني وستالين في الحرب مع ظروف أكثر تقدما كالتي عاشتها البشرية في حروب كوريا وفيتنام أو الجزائر ، أو كالتي عاشتها مصر في حروبها مع اسرائيل في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والتي عبرت فيها مانعا مائيا صعبا كقناة السويس ، وحطمت خط بارليف ، ودخلت مرحلة حاسمة وضارية ضد اسرائيل في اشتباكات صعبة في حرب الصحراء ...

والدارسون احرب اكتوبر ١٩٧٣ ، سيقفون طويلا ، أمام النظريات العسكرية ، التي استخدمت سواء في مجال تحركات الجيوش البرية ، أو في مجال الحرب الميكانيكية ، أو في مجال الدفاع الجوي القائم على أحدث نظريات التكنولوجيا العصرية ..

ان فكر السادات ، عسكريا قد أضاف الكثير الى الحرب المعاصرة ، من خلال « العمليات الصعبة » ، و « الضارية » ، التي شهدتها مصر والمطقة العربية لطوال أسبوعين ، وكان من الممكن أن تستمر هذه المعارك ، كما قال البعض ، لكن السادات ، أعلن في أكثر من مناسبة ، ان بلادنا ، والعرب ، ليسوا دعاة حرب ، فقط. انطلقنا للحرب من أجل استعادة حقوقنا ، ومن أجل تحطيم أسطورة التفوق العسكري الاسرائيلي ، ومن أجل التحرك في سرعة ، وعدل وشرعية نحو حل القضية العربية في تناقضاتها ، بشكل عملي ...

وكما أضافت نظريات بونايرت ، وكذلك نظريات مونتهجرى وروميل وديشنكو في العلوم العسكرية وفي تطوير نظريات الحروب ، كذلك ستضيف نظريات السادات العسكرية الجديد في فهم العسكرية المعاصرة ، فالعرب ليست مواجهة عدو بعدو بقدر ما هي علم وفن ، استغاب لكل افراز حضارة العصر وعلوم في الحرب ، واسلوب واع وناضج في تطبيق هذه النظريات وممارستها ..

وهذا ما فعلناه في حرب السادس من اكتوبر ، استوعبنا كل فكر العصر وعلومه وتقدمه في التكنولوجيا العسكرية ، وحاولنا أن نطبقه بشكل علمي ، وناضج ، من خلال كل تحركاتنا في اكتوبر ١٩٧٣ ..



لقد سجل التاريخ عظمة وقدرة قادة ، أخذوا عن غيرهم فنون الحرب وأساليبها ... فشارك الثاني تعلم عن الاسكندر الأكبر فنون الحرب ، مثلما تعلم نابليون بونايرت عن فردريك الأكبر ، ومثلما تعلم فوش عن نابليون ،

وتعلم دوفشبنكو عن كوثوزوف .. وكل واحد من هؤلاء ، آمن بأن فن الحرب فن متطور ، غير ثابت ، يكتسب ، دائما الخبرات عبر العصور ، ولو أن هؤلاء طبقوا ما تعلموه دونما أية إضافة لما كانوا من مشاهير القادة العسكريين ..

يقول اميل وانتي (١) : « ان هدف القائد العسكري ، يجب ألا يقتصر على كسب الحرب ، وإنما يجب أن يمتد دوره الى الوقوف ضد الحرب والقائد الذكي ، لا بد أن يكون هدفه تحويل الحرب الى نصر سياسى وفكرى ، والا كانت الحرب من أجل الحرب ، وضاعت من ورائها ملايين الأرواح ، وتحطمت آلاف المعدات العسكرية .. وفي تقديري ، يجب أن يسأل القائد نفسه : لماذا أحارب ، والى أى مدى ؟ وماذا وراء الحرب ، وأيضا ، ينبغى أن يصل الى اجابة تلخص الموقف العسكري وتترجمه الى معان سياسية وأيديولوجية ، والا كانت الحرب بلا جدوى ... وربما هذا ما دعا تشرشل الى أن يقول : ان السلام هو آخر جائزة أسعى للفوز بها .. ولا يوجد أحد في العالم كله يعرف قيمة هذه الجائزة مثلما يعرفها الجندي في ساحة القتال ، وهذا ما جعل ستالين ، يقول ، أيضا وهو يخوض معركة ستالينجراد : لكي يسود السلام ، لا بد أن أسكت كل قوى الشر ، التي تندفع الى أرضنا . فلا سلام في ظل وجود وحشية ، ولا سلام في ظل وجود فاشية ، ولا سلام في ظل وجود عدوانية .. ولا أمان في ظل قهر ،

(١) اميل وانتي ، هو الجنرال وانتي الذي اشترك في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) كفائد فصيلة ، ثم قائد سرية وأنهى بعد ذلك دراسته في كلية الحرب العليا في باريس ، ثم عين في عام ١٩٣٤ مدرسا في كلية الحرب في بروكسل ، وهو من مواليد بروكسل عام ١٨٩٥ ، ووقع في أسر الألمان عام ١٩٤٠ ، وبقي أسيرا في معسكرات التنازية حتى عام ١٩٤٥ ، وتكبد الجيش عام ١٩٥٠ ، وهو يحمل رتبة جنرال احتياطي ، وقد اهتم الجنرال وانتي بالإضافة الى نشاطاته العسكرية والنظمية بدراسة التاريخ والانثروبولوجيا ، ونشر العديد من الكتب والدراسات في الحرب والتاريخ ، وكتابه (فن الحرب .. من الحروب العالمية الى الاستراتيجية النووية) ، والذي يقع في جزئين ، من الكتب الهامة التي افادتني في هذا الفصل عن الحرب بين العرب واسرائيل

L'art de La Guerre — de la Guerre Mondiale a la strategie
nudéaire, Par Emile Wanty

لأنه لا يمكن أن يطمئن الناس على أحوالهم ونفوسهم وأرواحهم ، الا
باسكات آخر كلمة من كلمات الدمار .. » (٢)

وهذا ، أيضا ، ما جعل ماوتسى تونج ، يقول في تصريحاته وأقواله
عن الحرب : « ان كافة القوانين والنظريات العسكرية ، هي تجارب وحروب
ماضية ، وقد جمعتها في سالف الأيام أو في عصرنا هذا ، وينبغي علينا أن
ندرس ، بجدية تامة ، هذه النظريات والقوانين التي دُفعت الى الانسان الى
والتي كان ثمنها دمه وروحه والتي هي مبررات حروب سابقة متعددة » .
وقد أشار السادات ، الى المعاناة التي عشناها ونحن نستوعب كل
التقدم في العالم ، والذي تتحقق في كافة المجالات العلمية ، وبالذات في
مجال العسكرية المعاصرة ، وأشار الى أن المسألة ، فقط ليست استيعابا
لفنون الحرب العصرية أو معرفة النجاح الأساليب في تطبيقها .. أيضا ،
الارادة ، لها دورها الفعال ، وكذلك ، الاحساس والابمان بالرسالة
العظيمة التي تقوم عليها أمة من الأمم .. والحرب في النهاية ، (منطقة
تجميع) لافراز عصر ، وحضارة ، وامتحان لارادة شعب وأمة بكاملها :

« يشهد الله ، اننا بدلنا ما هو فوق طاقة البشر ،
وتحملنا عبئا تنوء بحمله الجبال ، ولكن احدا في هذه الدنيا
لايستطيع مهما بلغت قوته ومهما وصل جبروته وطفيفانه ،
والذي اقصده هنا ، هو الولايات المتحدة الامريكية ، وليست
اسرائيل ... اقول ، أن احدا ، مهما بلغت قوته وجبروته
وطفيفانه .. ان الولايات المتحدة الامريكية مهما بلغت قوتها
وجبروتها وطفيفانها لن تستطيع ان تفرض على شعبنا خروفاة
سلام الامر الواقع . ان سلام الامر الواقع في حقيقته
استسلام . ولن تستطيع الولايات المتحدة ، ايضا ، بكل
جبروتها وسلاحها ، ان تحاصر شعبنا وامتنا باليأس ، لاننا
ندرك ان اليأس في مثل هذا الصراع الذي نخوضه اليوم ،

The Year of stalingrad, an historical

(١) عام الحرب في ستالينجراد

Record and a study of russian Mentality, Methods and

Polices, By Alexander Werth (Hamish Mamilton, London : (stalin
says ...)...

هو الفناء سواء بسواء . ذلك لن يحدث ، ولن نرغمنا عليه
أية قوة على هذه الأرض ، حتى وإن ملكت آلاف الصواريخ
المحملة بالرؤوس النووية ، وحتى إذا استطاعت أن نهمس
فوق تراب القمر

إن القوة لا تستطيع أن تفهر المبادئ مهما طال الزمن ،
ثم إن العلم لا يمكن أن يتحول في يد المتقدمين إلى سلاح
أرهابي ، لأن ذلك ضد القيمة الإنسانية ، وعلى سبيل المثال ،
إن القوة الأمريكية أمامنا في الدنيا كلها ، عاجزة ، تستطيع
أن تفعل ما شاءت لها غرائزها ، وتستطيع أن تشعل الأرض
حريقاً ودماراً ، ولكنها لا تستطيع أن تصل من ذلك كله إلى
نتيجة إيجابية واحدة . إن القتال سهل ، والجريق والدمار
متاح ، ولكن ما هي النتيجة الإيجابية التي وصلت إليها أمريكا
هل استسلم شعب فيتنام ؟ أبداً . . . ما هي النتيجة
الإيجابية التي وصلنا إليها في الشرق الأوسط ؟ هل قبلت
شعوب الأمة العربية بالأمر الواقع ؟ أبداً ، ولن تقبل به ،
وسوف تظل ترفضه ، وسوف يجيء يوم ليس ببعيد نعرف
الولايات المتحدة ، أنها دخلت في تناقض عدائي ، مع أمة
عظمت في سبيل حماقة استطورية "أفرزتها دعاوى العنصرية
المريضة" .



الكثير من المراقبين العسكريين والسياسيين ، في العالم ، لم يخفوا
شعورهم بالمفاجأة ، عندما قامت حرب السادس من أكتوبر ٧٣ ، وقام
مقاتلونا بعبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف ، واسقاط اسطورة
الوهم الأكبر عن تفوق الجيش الاسرائيلي ، فقد تعود الكثيرون صمت
مدافعنا ، ولفترة طويلة ، حتى أن صحيفة (الديلي اكسبريس) ، قد قالت :
« لقد صمتت المدافع والبطاريات والطلقات المصرية لسنوات طويلة ، حتى
أثنا لنعتقد أنه من المستبعد أن تتحرك هذه المدافع ، أو أن تخرج عن نطاق
الصمت إلا بمعجزة ، وهذا أمر مستبعد فحالة الجبهة الداخلية لا تسمح ،
وكذلك الظروف لم تسمح بعد للجيش المصري ، والجيش السوري ، أو
أي جيوش أخرى في المنطقة العربية » . ولذلك عندما انطلقت (مدافعنا) ،

كانت (المفاجأة) ، بل (الصدمة) الكبرى للعالم اجمع . فمنذ ان توقف القتال — قبل اكتوبر ١٩٧٣ — بثلاث سنوات ، في أعقاب مبادرة (روجرز) وقد « هدأت » الحال ، نسبيًا ، في المنطقة ، وكانت المسألة لا تخرج عن نطاق « التراشق » السريع بالأسلحة ، والتي لا تدوم أكثر من ساعة أو أقل . وكانت « النخبة » السائدة ، ان مصر تسير في حل القضية عن طريق (تسوية سلمية) ، واذا كانت بالفعل تنوى (الحرب) ، فان هذا لن يحدث قبل عام ١٩٧٨ — كما ذكرت صحيفة (دافار) الاسرائيلية في احدى اعدادها في ديسمبر ١٩٧٢ .. ولكن عندما حدثت (المفاجأة) ، قلبت الموازين ، على اختلاف مستوياتها ، وكانت النتيجة ، كما قالت « الصنداي داي تايمز » : « ان انقلاب ظهر المعلن نحر اسرائيل ، وبعدها كانت مصر تحيا ظروف ١٩٦٧ في أعقاب ٥ يونيو ، انتقلت الحالة بأكملها ، بل أمر ، الى ه يرنبو آخر ، في أعقاب اكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن في هذه المرة الى داخل اسرائيل ؛ الأمر الذي جعل الكثيرين داخل اسرائيل لا يطيئون الوضع ، ويحاولون الهجرة الى نيوزلندا ، أو كندا أو استراليا ، وبعد أن كانت اسرائيل تستقبل المزيد من المهاجرين اليها من شرقي وغربي أوروبا ، بات الكثيرون ، لا يحسون بالامان بعد اكتوبر ١٩٧٣ .. ١ » .

✽ وعضت اسرائيل « أصعب الندم » !

فقد زرعت الحصرم في ١٩٦٧ ، لكنها جنته في أكتوبر ١٩٧٣ ، فضربت بنتائج « فعلتها » ، « وغدرها » ، و « صلفها » ، « واستمرارها » في غيها وفي ظل استمرار الوهم للاسطورة التي لا تسقط ، والجيش الذي لا يقهر ، والمؤسسة العسكرية التي لا تقف ولا تضعف !

كان العالم ، كله ، قد قبل بتعريف أبو الاستراتيجية الحديثة « كلاوزفيتز » « بأن الحرب ، هي استمرار للسياسة بوسيلة أو أخرى » ، لكن ، الذي حدث ، ان اسرائيل قد قلبت الآية ، وعكست مفهوم كلاوزفيتز ، فحاولت أن تثنع نفسها : « بأن السياسة ، هي ، استمرار للحرب بوسيلة أو أخرى » ، فالحرب ، تقوم ، أساسا ، عندما تستنفذ كافة الحلول ، وهي ليست غابة »

بل وسيلة ، لكن اسرائيل ، والمؤسسة العسكرية ، وكل الجنرالات
الاسرائيليين ، يؤمنون ، بأن « الحرب يجب أن تستمر من أجل الاتساع
والتأمين » ، وهذا ما جر عليها الوبال ، وأوصلها الى نتائج حرب أكتوبر
.. ١٩٧٣

منذ قرابة مائتي سنة ، كتب المؤرخ الفرنسى بوفون (١٧٠٧ — ١٧٨٨)
يقول : « ان الاسلوب ، هو الانسان » . ومن المؤكد ، الآن ، وأكثر من
أى وقت مضى ، ان الانسان يعبر عن نفسه بلا شعور عندما يكتب مذكراته
.. وليس علينا اذا شئنا التأكد من ذلك ، سوى قراءة فقرات هامة من
مذكرات تشرشل أو ديجول أو موتجمرى ..
اننا نجد في مذكرات تشرشل وثائق هامة وقدرة رائعة على استغلالها ،
ديناميكية ، وروح ساخرة ...

بينما نجد في مذكرات ديجول أنه مفرطة ، وروعة ، وكبرياء تحلق فوق
الأحداث وبرودا كالصعيق ... بينما مذكرات موتجمرى تمس بالروح
الواقعية ، والثقة ، والرغبة في اعطاء دروس للآخرين ...
وتظهر الاختلافات ، أيضا ، لدى المارشالات والجنرالات الذين كتبوا
عن معاشتهم للحروب ، وبينهم : برادلى ، وتيدر ، ورومل ، ودفيتشسنيكو ،
وغيرهم .

والذين عاصروا حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، سيكتبون عنها
الكثير ، بل والكثير جدا ، فستظل هذه الحرب معينا عظيما للكتابة والدراسة
اذ أنها لم تكشف ، فحسب عن قدرات وكفاءة الانسان المصرى ، والعربى ،
عقلا وفكرا ، وذكاء ، وتحضرا ، بل وأيضا ، تكشف عن استخدام احدث
الأدوات القتالية ، التى ربما كانت تستخدم لأول مرة فى العصر الحديث ..
وقد استطاع العرب ، خلال هذه الحرب ، أن يحرروا اسرائيل من مميزات
القتالية التى يملها عليها ضيق مساحتها وضعف مواردها المادية وقلة سكانها
الا وهى (الحرب الخاطفة) بما تعنيه من توجيه ضربة قاصمة للعدو ، ترغمه

على التسليم قبلما يستجمع قواه ، وهذا ما اتبعته ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، وفشلت في تحقيقه بفضل عنف المقاومة السوفيتية مما اضطر القيادة الألمانية لخوض غمار حرب طويلة الأمد لم تكن بلادهم — بحكم مساحتها ومواردها — على استعداد لها . وكان العرب ، قد طبقوا ، نظرية (ليدل هارت) — الخبير الاستراتيجي العالمي ، القالة ، بأن إيجاد الظروف الاستراتيجية الملائمة ، أعظم أهمية وأشد فعالية في الصحراء الغربية وأثبتتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ فقد تمكن العرب أن يجمدوا قدرة إسرائيل القتالية ويحصرُوا مناوراتها في أضيق نطاق ، وقد دأبت إسرائيل على مباغته العرب بضربة قاصمة تنهى بها الصراع ، لكن أصبحت في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، تخوض حرباً لا تبدو لها نهاية ، مما ألقى العبء الكبير على الاقتصاد الإسرائيلي ، وجعله يتعرض لهزات واضحة ، ولو كانت الحرب قد استمرت أياماً أخرى ، كما قال الكاتب الأمريكي (جوزيفزون) ، لانهارت إسرائيل ، وبخاصة لوزين لها الغرور التشبث بـ (الجيب) — أو (الثغرة) التي اقتنصتها في غرب القناة ، لو كان الوضع قد استمر أسبوعاً آخر ، أى حتى نهاية أكتوبر ، لدمرت إسرائيل تماماً ، فإن احتفاظها بـ (الثغرة) يكلفها من الرجال والعنـاد ما لا طاقة لها به ، اذ تطورت (الثغرة) لمسيـدة للإسرائيليين .. !

وقد قال أرنولد توينبي :

« ان المؤرخين سوف يتجادلون طويلاً حول ما اذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصاراً عسكرياً في حرب أكتوبر .. ولكنهم — على الأرجح — لن يختلفوا حول الرأي القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربي قدراً من الثقة بالنفس ، كانوا في أمس الحاجة اليه ، وكان غائباً عنهم منذ الهزيمة المهنية في عام ١٩٦٧ ، ولن يتجادل المؤرخون — فوق ذلك — حول ما اذا كانت الحرب قد جعلت من أنور السادات ، الذي كان يوصف بأنه شخصية مترددة من الدرجة الثانية خلفت عبد الناصر العظيم — أبرز الزعماء مكانة في العالم العربي .. والسادات يسعى الى اقرار السلام ،

ولا يهدف الى تدمير اسرائيل ، بقدر ما يهدف الى اعطاء حرية اكبر لمصر وشعبها لتكربس طاقاتهم لبناء مصر الحديثة .. وما الانفتاح ، الا باب نحو ذلك » .

وثمة اجماع ، كامل ، بين الباحثين والدارسين في الشؤون الدولية والعسكرية ، على أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، قد غيرت الى جانب (الميزان) العسكري والسياسي ، أيضا ، الاحساس السيكلوجي للمصريين والسوريين والعرب ، وأحدثت انقلابا كبيرا ، في المشاعر العربية عامة . اذ لا يخفى ، أن النفسية العربية قد كابدت المذلة والهوان ، وعانت صنوفا مختلفة من الانكسار والهزيمة ، ورزئت بالاحتلال المباشر وغير المباشر لسنوات ليست بالقليلة .. واقتنعت اسرائيل من خلال « حرب أكتوبر » ، اقتناعا كاملا ، باستحالة مباغته مصر ، أو العرب ، بحرب خاطفة ، فلديهم النفس الطويل على الاستمرار ، بشريا وماديا وعسكريا ، وتفاقت عزلة اسرائيل وأهست انها تسير الى ضياع وخراب منذ الأيام الأولى للحرب ، لذلك ضغطت على أمريكا ، أن تأمر بوقف اطلاق النار ، وتحركت أمريكا في هذا الاتجاه ، رغم دعمها الكامل لها ، وبسفور ، واستمرت في ذلك ، حتى اجتمع مجلس الأمن ، واتخذ القرار بوقف اطلاق النار . واستجابت مصر للقرار ، لا ضغطا ولا ارتقابا له ، فقد كانت الأمة العربية داخليا وخارجيا ، كتلة واحدة ، من الارادة الصلبة ، تعطى بسخاء ، وتبذل بقوة ، بكل ما استطاعت ومكنت في معركة من أعظم معارك الوطن العربي ، بل استجابت للقرار لانها حققت مهمات الحرب القتالية ، وتم لها ما هدفت اليه عسكريا ، وسياسيا ، واستراتيجيا . لذلك صدر الأمر بوقف اطلاق النار .

صدر الأمر للقوات المسلحة المصرية ، بإيقاف اطلاق النار ، اعتبارا من الساعة ١٨ر٥٢ يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد التزم العدو في نفس الوقت باتفاق اطلاق النار في هذا الموقد . وقد اذاعت القيادة العامة بيانا هاما ، جاء فيه ان القتال قد توقف تماما في موعده بعد ١٧ يوما وأربع ساعات و ٥٢ دقيقة من بدايته في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السادس من

من اكتوبر .. وقد اكدت مصر ، في ٢٢ اكتوبر ، ان وقف اطلاق النار قد حدث واصبح مؤكدا وفقا لقرار رقم ٢٤٢ الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ ، والذي ينص على : الانسحاب الاسرائيلي الكامل من جميع الاراضي المحتلة ، التمسك بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . وقد درس السادات ، بعناية بالغة ، تفاصيل المناقشات التي تمت في مجلس الأمن ، والمناخ الذي تدور فيه القضية بوضوح ، وكانت هذه الملاحظات حصينة رؤيته للأمور :

*** أولا : ان مشروع القرار الذي عرض على مجلس الأمن وتقدمت الدولتان العظيمةتان به : الاتحاد السوفيتي ، وأمريكا ، بعد اتصالات مكثفة على أعلى المستويات بينها وبمسئولية خاصة بهما في الأوضاع اراهنه ، يعتبر مشروعا جوهريا للأخذ به .

*** ثانيا : أن مجلس الأمن وافق على مشروع القرار ، وبدون أى اعتراض من جانب أى عضو من أعضائه .

*** ثالثا : أن المناقشات التي دارت في المجلس كانت لها أهمية كبيرة وألفت أصدقاء ضرورية على معناها .. وفي هذا الصدد ، كانت ملاحظات فرنسا والهند ، ملاحظات لها أهميتها الحقيقية ..

*** رابعا : ان التفسير المصرى لقرار مجلس الأمن واضح كل الوضوح ، سواء فيما يتعلق بالانسحاب من الاراضي المحتلة أو فيما يتعلق بالاراضي المحتلة أو فيما يتعلق بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين . ولقد كانت هناك اعتبارات هامة في أثناء دراسة ذلك كله بينها مشروع السلام الذي طرحه الرئيس أنور السادات على الأمة وعلى العالم في خطابه أمام مجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، والذي جعل من الانسحاب الكامل أساسا لا شك فيه لأي عمل سياسى ..

المحادثات التي جرت بين السادات والرئيس السوفيتي البكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي .. التأكيدات التي تلقاها السادات من بريجنيف ، والتي قدمها له السفير السوفيتي في القاهرة في رسالة خاصة

يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ .. الاتصالات التي جرت مع عدد من العواصم العربية المهمة مباشرة بالمعركة ..

وبقبول وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، دخل الشرق الأوسط ومصر ، مرحلة جديدة ، لا تقل خطورة وحسما وتعاظما عن المرحلة التي سبقت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .. مرحلة الاستثمار الأقصى والأمثل للإنجازات الكبرى التي تحققت في جبهة القتال (على المستوى الداخلى) ، « .. فالיום ، وبعد انتصار أكتوبر ، وتأكيد وحدة الصف الوطنى ، وارتفاع المواطنين الى مستوى المسؤولية ، لا بد ان يؤكد معنى الحرية السياسية جنبا الى جنب مع الحرية الاجتماعية ، وبهذا اتخذت قرارى برفع الرقابة عن الصحف ، ونحن لا نخشى الخلاف فى رأى ولا التعبير عن المصالح المختلفة لقوى الشعب العامل ، ما دام كل ذلك يدور فى الاطارات المشروعة التى نرتضيها ، ولا يستهدف غير مصلحة مصر وخير شعبها . اننا تقدم فى جراحة على تصفية القيود على الحرية من واقع الثقة بالجماهير وبوعيا الوطنى الممتاز ، ونريد ان نخلص المجتمع من كل المظاهر التى تعبر عن الريبة .. »

فلقد وضع قرار بدء معركة التحرير نهاية والى غير رجعة لحالة « الاسلام واللاحرب » ، التى حاولت اسرائيل أن تمضى فى ظلها ، منفذة أهدافها التوسعية ، تدريجيا ، بخلق أمر واقع جديد ، بينما عاشتها مصر ، والامة العربية استنزافا ماديا وسيكولوجيا وروحيا .. وكانت الانطلاقة الديمقراطية داخل مصر ، وفى كل المنطقة ، أحد النتائج البارزة التى أحدثتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد أعادت هذه الحرب الثقة (للمواطن) ، وخلقت مناخا صحيا عظيما للتنفس ، وفى ظله حصل (المواطن) على المزيد من المكاسب الثورية فى اطار الحريات الاجتماعية والديمقراطية ، كنوع من استسار (التصحيح) ، وتعميقه على مختلف المستويات ، مما جعل السادات يؤكد :

« ليكن واضحا ، اننا نبني ولا نهدم ، نصحيح ولا نهطم ، نطور ونندعم كل ما هو ايجابى ، بقدر ما نصفى ما هو سلبى ، نكشف الأخطاء فى غير مغالاة ، ونرفض كل محاولة لتركيز

الأضواء كلها على الجوانب السلبية ، حتى تختفى من الصورة كل الجوانب المشرقة » .

وقد أكد السادات ، مرارا ، على ان القاعدة الوليدة التي غيرت طبيعة وظروف أزمة الشرق الأوسط ، كلها ، قد برزت ، وتدعمت بالعمل العظيم والمجيد ، الذي قامت به وتقوم به القوات المسلحة العربية ، وأثبتت به نفسها في ميدان القتال شجاعة ، ومقدرة ، وفداء .. ذلك لأن العمل العظيم والمجيد ، هو وحده ، الذي (كسر) جمود الأزمة ، وبديل الأمر الواقع ، وغير الخريطة السياسية للشرق الأوسط كلها ، وانهى الى الأبد صلافة وحمافة القوة التي مارسها العدو الاسرائيلي خمسا وعشرين سنة في الواقع العربي ...

وفي نفس الوقت ، كانت صلاية الأمة العربية كلها ، هي السياج الحقيقي التي كفلت النجاح ، وغيرت الواقع ، بوعيا العميق ولايمان شعوبها العظيم بالمعركة .



في ٢٤ يوليو عام ١٩٧٤ ، قال السادات ، معلقا على قرار أكتوبر التاريخي :

« لقد صدر القرار عن ارادة وطنية وقومية خالصة ، وهو معنى احرص دائما على تاييده وتكراره اهم ما يجب ان نحرص عليه دائما في الحاضر والمستقبل ، ولان تاييد الارادة الوطنية كان المنطلق الاساسي لحركتنا منذ بداية الاعداد لثورة ٢٣ يوليو ، ولان معظم ماتعرضنا له طوال ٢٢ سنة من تحديات كان مرجعه حرصنا على حرية هذه الارادة الوطنية لانها اذا رسخت في ضمير قيادتنا وقواعدنا اليوم وغدا فهي الضمان الوحيد للمستقبل » .

فلم يكن (قرار أكتوبر) بالمسألة اليسيرة ، فهي مسألة لا تتعلق بالحسابات والتقديرات والاحتمالات ، فقط ، بل انها مسألة تتعلق بحياة الملايين والملايين :

« مئات الألوف ، بل الملايين ، سيأخذون الكلمة منى ، وفوق ذلك هناك كرامة وحياء أمة في الميزان .. فالقرار ، هنا ، تعبير عن الإرادة الوطنية والقومية ... القرار ، هو الإرادة ، بمعنى ، أن قرار الحرب والتحرك ، معناه امتحان أمة بكاملها .. معناه أن نضع شعبنا ، بفكره ، بقيمه ، بتقاليده ، بحضارته التي تصل الى سبعة آلاف سنة في الميزان » .

وعلى الرغم من أن التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية في لندن ، قد اعترف بتفوق العرب عسكريا ومعنويا وماديا على اسرائيل ، في حرب السادس من أكتوبر ٧٣ ، وكذلك اعترف العالم أجمع ، إلا أن (البعض) من ذوى المآرب الخبيثة والنزعات الانهزامية ، قد حاولوا أن يسيئوا الى (القضية) عن طريق ترويجهم لاشاعة ان مصر قد طلبت وقف إطلاق النار قبل الآوان ..

وقد ذكر التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن عن حرب أكتوبر ، فقال :

« ان حرب أكتوبر ، بسلاحها العسكرى والبترولى ، قد جعلت من العرب قوة عظيمة ، قوة سادسة في العالم ، بعد أمريكا ، والاتحاد السوفيتى والصين ، واليابان ، وكتلة أوربا الغربية .. وقد جعلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، بقاء اسرائيل في أى أرض عربية ترفا باهظا ، غالى الثمن ، لن تقدر عليه بعد اليوم ، أبدا .. » .

ويفسر السادات بنفسه مآرب هذه الطغمة الانهزامية ، أو (الجيوب) العربية ، بقوله :-

« البعض في البلاد العربية ، يحاول أن يصور أن مصر خرجت من المعركة ، وهى التى طلبت وقف إطلاق النار قبل الآوان . لا أنا أنا عايز أصلح هذا المفهوم . فى اغسطس ٧٣ ، قبل المعركة بشهر واحد ، مررت على السعودية ، وقابلت الملك فيصل ، وكان لنا مناقشة طويلة . . كان الرجل رحمه الله مشفقا علينا من نتائج المعركة ، فلما أكدت له سلامة

موقفنا ، وانه ليس أمامنا من سبيل آخر ، الا أن نفتحهم هذا الحاجز ، وقال : أنا لى عندك طلب بسيط وهو ألا تطلب وقف اطلاق النار بعد ساعة أو بعد يوم أو بعد يومين من أجل أن نستطيع ان نكون موقف عربى .. لازم المعركة تأخذ وقت طويل وتكون مخططة على مدى طويل علشان تقدر نكون موقف عربى .. وقلت له : انا موافق تماما على هذا ، وأطمئنك أننا مخططون تخطيطا لمعركة طويلة .. وبعدها سافرت الى قطر ، ثم الى سوريا ، واتخذنا القرار قرار ٦ اكتوبر ، وبدأت المعركة ، ومنلما سمعتم وعرفتم ، جاءنى السفير السوفيتى بعد مضى الست ساعات الاولى من المعركة وطلب منى وقف اطلاق النار وكما قلت ، أن هذا كان بناء على طلب سوريا ، وأرسلت للرئيس حافظ الأسد .. ورد على وقال ، ان هذا لم يحدث .. وتانى يوم ، تكرر نفس الطلب وكان وصلنى رد الرئيس حافظ الأسد ، وقلت : لا .. واحنا مستمرين فى المعركة .. وفى يوم ١٣ ، كما سمعتم ، أيقظنى السفير البريطانى برسالة من كيسنجر ورئيس الوزارة البريطانية هيث ، وسألانى : هل أنت ، فعلا ، قبلت وقف اطلاق النار ؟ لانه قيل لأمريكا أننى قبلت وقف اطلاق النار .. بعد ذلك ، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى جاء وزارنا ، هنا فى مصر ، أربعة أيام ، وكان الهدف الأساسى ، هو أيضا ، طلب وقف اطلاق النار ، وفى كل هذه المراحل من بعد الست ساعات الاولى لثانى يوم لثالث يوم لليوم الذى أيقظنى فيه السفير البريطانى بعد ست أو سبع أيام لمجىء رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ، رفضنا ، رفضت وقف اطلاق النار من أجل أن نكون موقف عربى واحد ، ومن أجل أن تؤكد للعالم كله أننا أكفاء ، فى مواجهة اسرائيل ، وكان لابد أن تبلغ المعركة أهدافها المخططة اها فى الخطة .. ولكن يوم ١٩ أكتوبر ، طلب منى الله يرحمه المشير اسماعيل ، أن أتوجه لغرفة العمليات لأنه هناك قرار أساسى وحاسم لابد أن يؤخذ .. وذهبت فى الساعة الواحدة بعد نص الليل .. وكان اليهود قد ابتدوا الشغرة ، ولم تكن تمثل أية خطورة مثلما حاولت بعض المصادر أن تصور ، ومثلما حاول للاسف بعض اخواننا العرب .. واسترعى انتباهى ، فى يوم ١٩ أكتوبر ، اننى لم أعد

أواجه إسرائيل فقط ، انما أواجه قوة الولايات المتحدة ، بدلا من أن أواجه إسرائيل . »

ويضيف السادات الى (الموقف) توضيحاته ، التي نلتقى مزيدا من الضوء على ما حدث ، فيقول مفسرا ما حدث في أكتوبر ، وفي الأيام الاخيرة من الحرب عندما اتخذ قراره بوقف اطلاق النار :

« كان في تخطيطي للمعركة .. ان الاتحاد السوفيتي يواجه أمريكا .. القواتان الكبيرتان يوازيان بعضهما ، ويتركونا منا لإسرائيل .. لكنني وجدت يوم ١٩ أكتوبر ، وباستعراض كامل للأحداث ، عشر أيام كاملة وأنا أواجه الولايات المتحدة ، ونحن لا نستطيع أن نحارب الولايات المتحدة ، ومثلما قلت في البرقية التي أرسلتها للرئيس حافظ الأسد يوم ١٩ أكتوبر ، أنني لا أستطيع أن أتحمّل المسؤولية التاريخية لتدمير شعبي أو القضاء على قواتي المسلحة أبدا .. وأنا مستعد أن أتحمّل النتائج أمام شعبي وأمام الأمة العربية كلها . كل هذا ، كتبته يوم ١٩ أكتوبر ، ووافقت على وقف اطلاق النار وافقت لأنه مثلما قلت أنا غير مستعد بأنني أدمر مصر وأدمر قواتها المسلحة ، لأن أمريكا تستطيع أن تفعل ذلك ، وكانت في المواجهة ولم تكن إسرائيل هي التي تواجهنا في العشر أيام التي سبقت يوم ١٩ أكتوبر .. وفي العالم العربي ، قيل ، ان مصر طلبت وقف اطلاق النار قبل الأوان ، ونحن نعلن صفحتنا بوضوح ، ونعرض للوقائع كما هي .. لسنا مزايدين ، ولسنا من محترفي السياسة ، نحن ثوار وطنيين ، نؤمن بالقومية العربية ، ونؤمن ببلدنا وبأهداف أمتنا العربية . وحصل وقف اطلاق النار ، وبعد ساعتين نقضوه اليهود ، أملا منهم في أن يغربوا مصر المعركة ، وتصوروا ، أنهم يقدروا على أن يأخذوا السويس والاسماعيلية ، وييجوا ورا جيوشنا ، وبذلك تبقى خسرنا المعركة بالكامل ، ومثلما ، تعرفون ، كفاح السويس البطولي ، لم يستطيعوا أن يدخلوا السويس ، ولا يمشكوا فيها أبدا ، والى يومنا هذا موتاهم مدفونين في السويس .. أما الاسماعيلية فلم يستطيعوا حتى أن يصلوا الى مشارفها .. وجاء الدكتور كيسنجر - في الدفاعهم نحو

السويس ، وكان الوضع غريب ، فرقتان من الجيش الثالث في الشرق وجمهم وراءهم في الغرب ، وباقي الجيش الثالث قدام الاسرائيليين ، فبقت قواتنا وقوات اسرائيل وقواتنا .. عملية اتلخبطت مع بعضها .. ذا الجيب اللي كانوا يقولوا عليه أنه قضى علينا ، وانه هزيمة لنا .. كانت قوات اسرائيل بين قواتنا اللي في الشرق واللى في الغرب ، صحيح جات ورا القوات اللي في الشرق ، لكن قواتنا في الشرق - بتوع الجيش الثالث فضلوا الآخر يوم لغاية ما انسحب اليهود لآخر يوم يقاتلون ويكسبون الأرض .. وصنعوا من البطولات ما تعتز به مصر وأمتكم العربية ، ونعتر كلنا بابتائنا فيه .. جاء كيسنجر ، واستقر الرأي على النقاط الستة ، وكان أول اتصال لنا بأمر بكا ... وبعد ثلاث ساعات من مقابلة كيسنجر ، كنا متفقين على النقاط الستة وانا في هذا طلبت خط ٢٢ أكتوبر ٧٣ ، ولم أطلب أن يرسل اليهود من الغرب .. من عندي .. قلت أنا عايز خط ٢٢ أكتوبر .. فتساءل كيسنجر : لماذا ؟ قلت أن الجهد الذي بذل في خط ٢٢ أكتوبر ، يبذل في انهم ينسحبوا الى الشرق ، لأن موقفهم في الغرب سيء .. (الجيب) الذي اعتقد الكثيرون ، والأسف ، بعض اخواننا العرب ، حاولوا أن يتخذوا منه مادة ، من أجل أن يشوهوا المعركة بأكملها ، المعركة التي جعلت من الأمة العربية القوة السادسة في عالم اليوم .. المعركة التي غيرت وجه التاريخ العربي .. المعركة التي كسرت جدار الخوف .. جدار الانهزامية .. جدار التمزق وصدرناه كله المجتمع الاسرائيلي اليوم .. » .

رغم ان ما حدث في أكتوبر ٧٣ ، كان يقارب ، ، قوته ، وعظمته حد الأساطير ، ورغم ان العالم أجمع قد اعترف به ، حتى العدو نفسه : اسرائيل .. الا انه ، وكما أكد السادات ، ان هناك من يهتمهم (الاساءة) ، والنيل من أكتوبر ، عن طريق افتراءاتهم ، وترويجهم لدعايات كاذبة .. فيقولون اننا أوقفنا اطلاق النار قبل الأوان ، ويدعون اننا (تنفق) مع أمريكا ، ويدعون باننا ، وبهذا ، وكما نرى أن هذه (الجيوب) ، تشمل

خطرا على وحدة الصف العربى ، وعلى الجبهة الداخلية ، لا يقل فى جوهره عن الخطر الاسرائيلى نفسه ، ففى طريق موقفهم الانهزامى ، هذا ، بطعنون كل عمل شريف تقوم به الجماهير العربية فى سعيها لحل القضية العربية ، وعن طريق خلقهم لألوان من التناقضات الثانوية فى المنطقة ، من شأنها بلبلة الأفكار وتشويش المناخ ، تلتقى فى مآربها بشكل أو بآخر ، بوعى أو بغبر وعى ، مع القوى الاستعمارية التى تبغى الحاق الهزيمة بالثورة العربية أو على الأقل أحداث (شرح) داخلها .. وهذا الخطر ، بالنسبة لهذه (الجيوب) ، وأذيالها فى كل مكان ، وحتى داخل القاهرة ، لا بد ان نحذر وننبه لخطره ، فهم ينفثون سموهم وسط المناخ الصحى ، الذى صنعه أكتوبر ، والذى كان افرازا طبيعيا لثورة التصحيح التى قادها البطل والمناضل والثائر : محمد أنور السادات ..

نقد سقط جدار الخوف ، على المستوى القومى والعالمى ..

انهار حاجز الخوف الذى كان يحول بيننا وبين اسرائيل ..

فبعد ما سقط جدار الخوف ، بسقوط مراكز القوى الانكشارية فى ١٥ مايو ٧١ ، وباعلان ثورة التصحيح .. سقط جدار الخوف بيننا وبين العدو بعد سلسلة حروب دامت ربع قرن من الزمان - هذا الجدار الذى كان يمثل ماديا وعسكريا فى اجتياز المانع المائى (قناة السويس) ، وفى اقتحام (خط بارليف) القوى التحصين .. واذا كان خط ماجينو ، وخط سيغفريد قد شدا عشرات الشعراء والفنانين ، ليكتبوا عنهما ، وعن نضال القوى الشريفة فى مواجهة الفاشية والنازية التى كانت ترصد حركات تقدم الشعوب وتفرض عليها الحرب قدرا وخرابا ودمارا ، فان (خط بارليف) سيكون أكثر الهاما للكتابة والتعبير بالنسبة للأجيال القادمة ، مثلما كتب اراجون وايلوار وسارتر عن خط ماجينو ، ومثلما كتب فاجنر الحانه عن خط سيغفريد وكتب توماس مان وايريك ماريا ريمارك عن هذا الخط ،

سيكتب الشعراء والأدباء العرب العديد من أعمالهم عن الملحمة التي صاغها
بسطور من الدم والعرق والنضال مقاتلونا وعلى رأسهم بطل أكتوبر :
السادات ..

وقد أتيج لى ، ككاتب ، وأديب ، أن أعبر القناة ، وأمشى على أرض
سيناء فى أعقاب وقف إطلاق النار ، وكنت قد زرت الجبهة أكثر من مرة قبل
حرب أكتوبر ، وأحسست بشاعر غريية ، غامضة ، فياضة ، وأنا أشم
رائحة المكان الذى لا زال يحمل آثار الملحمة الكبرى لمقاتلينا البواسل ..
لقد أحسست بالفخر ، حقا ..

لقد أحسست بمصريتى حقا ..

لقد أحسست اننى أنفوس مصر حقا ، وقدمائى تسيران على رمال سيناء ،
وأنا راكب (اللانش) فى القناة ، وأنا أعبر على نفس الكوبرى الذى صنعه
مقاتلونا .. ولحظتها ، لم أستطع أن أكنم دموع الفرح من أن تسقط ..
ان ما حدث هنا أشبه بالأسطورة ..

ان فارس الأمل ، قد قاد مقاتلينا ، ليذروا بذور الأمل ها .. فعبروا ،
وحطموا العدو ، وأدوا الأمانة ، ورفعوا علم مصر على قاب أرضنا ، فعادت
البسمات ريقة حلوة ، ندية ، لتمسح دموع الاحزان واليأس التى خلفها
يونيو ٦٧ .

أن أبناء الغد ، عندما ، سيمرون ، من هنا ، بعد سنوات ، سيقولون :
لقد مر فارس الأمل من هنا .. السادات .. ومعه رفاهه .. أبطال أكتوبر ..
لقد بذروا « قمح مايو » فى ١٩٧١ ، وحصدوا ثماره الناضجة فى أكتوبر
١٩٧٣ ، ومنذ هذه اللحظات ، والارض مبهدة ، تعطى ، لأن روحها عادت
من جديد لتتنفس داخلها بالأمل والحب والخير . .

ان الحسب ، ليست مدافع تطلق ، أو طائرات تسقط أو شهداء
يسقطون ، بقدر ما هى نفوس ترتفع وهامات تشمخ ، وجماهير تتحرك فى
أعصار نحو الآمال العظيمة .. وهذا ما حدث لمصر ، وسوريا ولكل المنطقة

العربية في أكتوبر ٧٣.. وكانت حرب رمضان العظيمة ، انطلاقا آخر ، نحو مزيد من المكاسب والتحركات ، محليا ، وقوميا ، وعالميا ، نحو استكمال منجزات الثورة العربية في تقدمها ، في تطورها ، في سعيها الى الأكمل والأسمى والأرحب ..



مثلما أتيت لي ، أن أعايش معارك أكتوبر ٧٣ ، عن قرب ، سواء بزيارة الجبهة وخط النار ، أو بالمساهمة بالقلم والعمل في تحركات الجباهير في الجبهة الداخلية ..

أتيت ، لي ، أيضا ، أن أحيا معارك سوريا ، عن قرب ، وقبل وقف إطلاق النار ، وكان ذلك خلال زيارة قمت بها الى سوريا في مارس ١٩٧٤ ..

وقد حاولت أن أكتب في تلك الفترة عن معارك جبل الشيخ وما يدور من معارك ضارية في المرتفعات السورية ، لكنني مهما كتبت ، كنت أحس ، انني لم أستطع أن أعبر عما كان يدور بالفعل ، فقد كان ما يحدث في سوريا ، شيء كالحلم ، ا شبه بالأسطورة ، أقوى من أن يكتب عنه ، بعاش فحسب ، فلحظات البطولة تعاش أكثر مما تروى ، لأن ترجستها من أصعب الأمور ..

وهذا ما دعا صحيفة (الثورة) السورية الى أن تقول : « ان المقاتلين السوريين في جبهة الجولان وجبل الشيخ ، يقفون في اصرار وحرب لا تلبين وفي تقدم دائم ، من أجل الحاق الدمار والخراب بالعدو الاسرائيلي ، وهم لا يقاتلون من أجل الموت والاستشهاد ، وانما يقاتلون حتى تحقيق المهام القتالية العظيمة من أجل النصر ، وداخلهم ارادة لا تقهر تحمل كل اصرار الشعب العربي العظيم » ..

وقد عشت أحداث المارك السورية طوال أسبوع بين دمشق ، ودرعا ، والرمثا ، ودربل ، بل وشاهدت عن قرب معركة ضارية تدور رحاها ، في قرية متاخمة للقطاع الأوسط ، كنت خلالها سأفقد حياتي

وانا في طريقى من دمشق الى عمان ، فقد اضطررنا الى أن نتوقف تسع ساعات ، عندها بين زئير المدافع ومطارادات الفاتوم والتمعات القذائف والصواريخ ، وعند منعطف القرية الصغيرة ، أمرنا ضابط قصير القامة بأن نهبط من العربة ، وكنا سبعة ركاب ، خمس رجال وامرأتين في مقتبل العمر ، وكنت بينهم المصرى الوحيد ، وكانوا هم من الأردن ولبنان .. مرت فوق رؤوسنا بسرعة مذهلة « عاصفة » طائرات من الفاتوم ، دارت دورتين ثم بدأت تهبط قليلا ، فهرولنا الى منخفض قريب ، والبعض جرى الى اطلال بيت فديم مجاور ، وآخرون انبطحوا أرضا ، فقد كان وراءنا رتلا من السيارات المسافرة ، والتي تتحرك بين دمشق وعمان .. وسمعنا الانفجارات الضخمة ، فأمرنى عجوز سورى مجاور بأن أفتح شدى عن آخريهما حتى لا أصاب بالصسم .

وأذكر ، ان الدقائق مرت ، ومرت ..

وبعد فترة ليست بالقصيرة ، خلتها دهرا ، جلست خلالها وحيدا الى جوار صخرة رمادية صغيرة ، أفكر وأسرح الطرف ، حتى جاءنى واحد من الجنود بكأس من الشاى وتعرف على ، ودار الحديث بيننا ، وهو يتمتم « لابد من الشاى ، وان طالت الغارة ! » .

وحسوت الشاى ، على صوت الانفجارات ورائحة البارود .

كنت قلقا ، ولا أخفى عنك ، اننى كنت مفزوعا ، لكن رغم ذلك كله ، فقد كان طعم الشاى فى شفتى أعظم شاى شربته ..

ان الأشياء تعظم قيمتها ، وتكتسب روعتها من خلال اللحظة .. وفى خلال لحظات الحرب تتوهج وتتبع الأشياء قيمة ، لأنك تحس بها أكثر وقعا ، فخلال اللحظات العادية لا تحس بوقع الأشياء كما ينبغى .. تماما ، كالحب ، تحياه ، تعيشه ، تحس بتدفعه ، لكنك ابدا لا تحس بروعته وعظمته الا وأنت تتنفس الحبيبة ..

صدقوني ، أن كل ما كنت أفكر فيه ، وأنا خلف الأكمة رأيتشف
لذلك أحسست بالظماً ، وعاد شريط أكتوبر وما احتواه من انتصارات
على أرض القناة وفي سيناء ، يتداعى ويلتحم في مخيلتي .. النضال
واحد .. الهدف واحد .. الموت واحد .. والحياة واحدة .. وما أعظم
أن يسوت الانسان من أجل هدف عظيم : ان الجبان ، يسوت ألف مرة ،
بينما التسجاع ، يموت مرة واحدة . . .

وتلفت حولي ..

كانت الغارة ، قد انتهت ، ووضعت قدمي في العربة وأنا أسند
على يد المقاتل السوري ، وانظر الى الدخان المتصاعد من بعيد ، وقد
اختلط بالثلوج في قسم الجبال العالية والتي لم تذب ندفها بعد ، بينما
النيران تأكل بعض العيدان الخضراء اللينة من المزارع المتاخمة ..

وانطلقت العربة ، أصبحتنا خمسة : ثلاثة رجال ، وامرأتين ، فقدنا اثنين
في الغارة ! اصابتنا الصدمة ، والبعض بكى ، وآخر لم تسعفه الدموع ،
وآخر احتواه الصمت واعتصرته اللوعة والأسى !

لحظات من النضال ، عشتها في سوريا ، عاقت ، في مخيلتي ، وضميري
وقلبي لحظات أخرى من النضال المصري في القناة وفي سيناء في أكتوبر
١٩٧٣ .



منلنا أحدثت حرب أكتوبر ٧٣ ، تغييرا لموازين القوى في المجتمع
المصري ، والوطن العربي ، بشكل عام ، وأعادت الثقة الى النفوس العربية
وفتحت الطريق واسعا لمزيد من المكاسب العسكرية والسياسية والفكرية
والمادية ، بعد « اسقاط » خرافة الجيوش الاسرائيلي الذي لا يقهر ، وانجاز
مهمات أكتوبر العظيم .. أحدثت آثارها ، أيضا ، في جانب العدو ، فقد
تغيرت (الأرض) ، من تحت أقدام اسرائيل ، واهتز المجتمع الاسرائيلي

من الداخل والخارج ، بقوة عنيفة ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا وفكريا ..
فقد انتصر العرب ، وتفوقوا عليهم في كل شيء ، ولم يعودوا « كما
توهموا » - تلك الشذمة (الهمج) ، كما كانوا يصفونهم في روايات :
(الخروج) ، و (حفنه من الرجال) ، و (حرب ١٠٠ لم تنم) .. انهم ، بعد
أكتوبر ١٩٧٣ ، امام عدو متحضر ، استوعب تكنولوجيا العصر (عسكريا)
واستطاع ان ينتزع النصر ، ويحطم أسطورة الأمن الاسرائيلي ونظريته
التقليدية ، وامام اعلام متميز يعرف كيف يكسب الفضيه عظما واسعا
بهذوئه وعدم رعوته وأساليبه المبالغ فيها ، وامام موقف عربي واحد ليس
داخله (ثغرة) للاختراق ، وهم ، امام عدو يتمتع بالنفس الطويل في الحرب
واللاحرب ، مستعد لأن يحارب شهرا وسنة وخمسة أو أكثر من أجل أرضه
وقضيته ، وهذا ما جعل (الصورة) تتغير ، داخل اسرائيل ، وأصيب
(المواطن الاسرائيلي) ، نفسه من الداخل بالاهتراء والمزق والانكسار ،
نتيجة للتدخل الذي أحدثه أكتوبر في بنية المجتمع الاسرائيلي ، وفي قياداته
وجيشه وساسته .. وعندما يأتي الى الأذهان ذكر حرب أكتوبر ، فانه يعني
بالنسبة للاسرائيلي : (هزيمة حرب الغفران) - أو حرب التقصير ، من قبل
القيادات الاسرائيلية التي قادت الى الحاق الهزيمة بالجيش الذي ظل سنوات
يتمتع بـ (نجمة الجيش الذي لا يقهر ولا يفلى) .

وقد اعترف الكتاب الاسرائيليون ، بذلك ، وبجلاء في الدراسات
والمقالات والكتب التي صدرت منذ نوفمبر ١٩٧٣ حتى الآن ، والتي نشر
بعضها داخل قل أيب ، وبعضها الآخر في أمريكا وغرب أوروبا ..

وقد تناولت لجنة (اجرائات) ، التي عينت للتحقيق في أسباب (حرب
التقصير) من الناحية العسكرية ، ونشرت تقريرها الأول ، الذي نشرته
وعلقت عليه بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٧٤ صحيفة (هآرتس) اليهودية ،
بقولها : « ماذا كان أصل التقصير ؟ أى غياب الاستعدادات ،
والاحباطات العسكرية الأولى ، والتطورات السياسية غير

المتوقعة .. وهل وقعت هنا مفاجأة وخطأ في المعلومات .. انه في الأساس نظرية سياسية استراتيجية - تكتيكية كاملة ، لم تعتمد في الامتحان .. كيف نفسر كلام رئيسة الحكومة جولدا مائير ، يومها ان اسرائيل لم تؤخذ على عرة .. وكذلك كلام موشى ديان ، عن احتمالات قيام الحرب في الخريف .. في أكتوبر .. وكيف تفسر اجلاء العائلات عن أبو رديس قبل الحرب بيومين مقابل اهبال جنود التحصينات المأسوى ؟ .. وكيف رست لجنة (اجرائات) حطا عريضا الى ذلك الحد ، وفصلت بسسكل لا يقبل التأويل بين ديان والعارز ؟ ولماذا نحى الجنرال جونين ، وأعفى الجنرال العازر بقرار لارجعة فيه ؟ في حين ظل موضوع ديان مفتوحا ، ومعرضا للتفسيرات المختلفة ! « وفي محاولة للإجابة ، على سلسلة هذه الأسئلة المثيرة ، كتب (أهرونسون) في مقاله بصحيفة (هآرتس) الاسرائيلية ، يقول : « ان كلاما من الحكومات العربية وديان ، قد تأهب للحرب ، لاحتراز مزايا عسكرية ، تمهيدا للمفاوضات السياسية التي كانت متوقعة بعد الانتخابات .. وربما كان قرار الحكومة بالامتناع عن شن حرب وقائية ، آتخذ أساسا على خلفية الادعاءات الاسرائيلية تجاه أمريكا ، بشأن الحدود الآمنة ، بما في ذلك استمرار اسرائيل على طول قناة السويس اذ كانت تقول ان هذه الحدود تعطينا من ضرورة اللجوء الى حرب وقائية ، ومن أجل ذلك ، ومن أجل تبديد أى ظل للشك في مسألة من الذى بدأ ، ومن المذنب ، آخر وزير الدفاع ، قدر استطاعته ، تجنيد الاحتياطى ، وساد الاعتقاد ، بأن التحصينات ستصمد ، وبأن السلاح الجوى ، وباقي القوات النظامية ، ستكون الى حين تجنيد قوات الاحتياط » .

في نفس الوقت ، تناول (مارك ديفن) ، الكاتب الاسرائيلي المعروف ، في صحيفة (عال همشمار) ، ما حدث في أكتوبر من مهارات وتقصير ، من خلال وقف ديان ، نفسه ، فقال : « من الواضح ان الحرب التى أدت الى انهيار فلسفة ديان ، أدت في لحظات معينة الى انهياره هو شخصيا ، وصحيح ان لموتى ديان قدره ، ولا بأس بهذا القدر ، على التكيف مع كل

الأوصاع ، ولكن ديان اليوم ، ليس ما قبل حرب يوم الغفران ، وخلال الحرب ، ساهدنا ، وسمعنا كيف ننحطم خرافة ديان ، القادر على كل شيء .. وأذكر ذلك اللقاء ، الذى جمعنا فيه موسى ديان ، ابا ومعظم رؤساء تحرير الصحف داخل اسرائيل ، وكان ذلك بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد ثلاثة أيام على قيام حرب الغفران ، قال : اتنا فوجئنا . سنضطر الى الانسحاب من سبنا الى خطوط جديدة ، اذ ليس فى مقدورنا صد المصريين وارجاعهم الى ضفة القناة الغربية ، فقد عبروا ، وحطموا حصون الخط الدفاعى الكبير .. ربما ، كان ، باستطاعتنا محاولة ذلك ، والمقاومة عن طريق الانسحاب ، ولكننا سندفع ثمن هذه المحاولة غاليا ، فى ميزان القوى الحالى ، لأن قوة الجيش الاسرائيلى الأساسية يجب ان تدافع عن دولة اسرائيل ، وليس عن الصحراء ..

وفى الوقت ذاته ، نرى صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، تعلن بصراحة : « ان الموقف جد ، خطير ، فمنذ بدايه الحرب وحتى الآن ، أى طوال الأسبوع الماضى ، والحال يزداد سوءا ، عبر المصريون القناة ، رفعوا العلم على خط بارليف ، والسوريون ، يملون بلاء حسنا فى الجبهة الأخرى ، ونحن نحارب فى أكثر من جبهة ، وهذا يشنت جهودنا . ترى ، هل نسحب كل الاحتياطى ، وكل القوات لنجر الى حرب فى الصحراء ، عارية ، قادر عليها المصريون باعدادهم الهائلة ، ثم انهم أصبحوا على دراية باستخدام أحدث أدوات الحرب العصرية التى تفوق مالدينا ، ان هذا ما يريده السادات ، ان يجربنا الى حرب فى الصحراء ، ليصل الى تل أبيب .. واجبنا الأساسى ، ينحصر فى شيء واحد ، ان نضغط على أمريكا ، التى أعلنت بوضوح انها تضمن أمننا وسلامتنا ، ونظهر جانبنا السلمى ، بالسعى الى وقف اطلاق النار ، من أجل الوصول الى تسوية ، ثم لا بد من العمل ، ومن خلال أى لعبة ، كما قال وزير الدفاع الأمريكى ، ونيكسون ، شخصيا ، باحداث (ثغرة) ما ، أو بايجاد أى جرح فى (النصر) الكبير الذى أحرزته مصر ، حتى لا تبدو كالمشلولين ، ولا بد أن تبدو أقوياء ، كمهدنا ، حتى

لا يفرح المصريون والسوريون ، والعرب ، كثيرا ، فلنأجل أحلامنا ومطامحنا التوسعية ، ولنؤجل أمننا الكبير بضمان حدودنا الآن ، وهو تكتيكنا في هذه اللحظة الراهنة ، وليس أكثر من هذا » .

وقد كتب (زئيف شيف) المراسل العسكري لصحيفه هآرتس الاسرائيلية أكثر من مقالة عن ٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، وهو اليوم الثالث للحرب وذكر ان هذا اليوم ، من أكثر الأيام ضراوة بين مصر واسرائيل ، فهو أشبه بحملى المعركة بين السوفيت والنازي في ستالينجراد عام ١٩٤٣ . كتب يقول : « في ذلك اليوم المشهود ، قام الجيش الاسرائيلي ، بمساعدة قوات الاحتياط ، التي استطاعت التجمع في الجبهة ، بأول هجوم مضاد على الجبهة المصرية ، وقد صد هذا الهجوم الاسرائيلي ، وتكبدا خسائر جسيمة وبقي الكثير من رجالنا ، سواء المصابون أو الاصحاء في الميدان ، دون امكان انقاذهم ، ووقع قائد الكتيبة للمدرعات في الاسر . وكانت القيادة العليا للجيش الاسرائيلي مقتنعة بأننا سنعبر القناة في اليوم نفسه ، وأرسل تقرير الى الحكومة يفيد أن العبور قد بدأ ، وظهر ان التفارب الواردة من الميدان غير صحيحة ، وحدث هذا الفشل هزة عنيفة ، وكانت هذه الهزة الثانية من الحرب بعد المفاجأة التي داهمتنا ظهر يوم الغفران ، وفي الحقيقة هدد القتال ، في ذلك اليوم ، مصير معظم التحصينات في القناة ، التي لم تكن قد سقطت بعد ، ففي مساء ذلك اليوم ، شعرنا لأول مرة ، وبصورة ملموسة ، بأننا وقعنا في خطأ بالنسبة لتقدير ميزان القوى ، وتأثير أنواع معينة من الأسلحة في ميدان القتال ، وان حساباتنا لم تكن مضبوطة ، وأدركنا اننا أخطأنا بناء قواتنا » .

وأضاف شيف يقول :

« ان تلك (الهزة) جعلت القيادة الاسرائيلية تتردد بالنسبة الى المراحل التالية ، حيث تقرر تأجيل العبور الاسرائيلي الى غرب قناة السويس مدة أسبوع ، وتقرر ، أيضا ، نقل مركز الثقل الى الجبهة الشمالية ، السورية ،

بينما أخذ الجيش المصرى ، فى تلك الأثناء ، يدعم ويحصن نفسه فى سيناء .
الجيش المصرى ، فى تلك الأثناء ، يدعم ويحصن نفسه فى سيناء ...
وكان مفهوم الجيش الاسرائيلى هو نقل الحرب الى الجانب الثانى الى أراضى العدو ... وكان من الواضح ، دائما وأبدا ، أنه فى حال عبور مصرى للقناة سيشن الجيش الاسرائيلى هجمات مضادة فورية ، وبعد ذلك ، يبدأ هجوما مضادا موازيا ، واسع النطاق ، ويعبر القناة ، وكان العبور من خلال استغلال الهجوم المضاد ، ولهذا الغرض اعدت فى القيادة خلال سنوات ، خطط مفصلة للعبور ، فى عهد شارون عندما كان قائد المنطقة حتى أنه أجرى تمرينا كبيرا للعبور فى سيناء .. والمدهش ، بل والمثير ، ان المعلومات التى كانت تقال ، كانت غير دقيقة ، فقد قيل أن الجيش الاسرائيلى يصد المصريين ، وهذا الصمد استمر حتى الساعة الخامسة صباحا ، لكن فى الساعة ١٩ ر٥ ، قال اللواء جوين ، ارجال ، القيادة ، أن الوضع فى الجبهة الجنوبية استقر ، لذلك فهو يزمع على نقل قوة دان سومرون الى الشمال ، وبعد ذلك بدقة واحدة ، انقلب كل شيء ، ووصلت الاخبار التى يقودها اللواء البرت مندار ، انه ليس هناك غير مائة دبابة سليمة ، واتضح فجأة ، أنه لم يبق اتصال ، فى الجبهة الوسطى ، الا بجزء صغير من الدبابات ، واتضح ، أيضا ، أنه خلال بضع ساعات ، فى الظلام الذى خيم بين منتصف الليل وبين الخامسة صباحا ، فقد الجيش الاسرائيلى عشرات الدبابات ، وعندما وصل التقرير حول وضع الدبابات ، بدأ الهجوم المصرى ، ولم يستظم سلاح الجو العمل فى الفجر ، بسبب التتار الضباب ، وقال رئيس الاركان لجوين : اصمد دون سلاح ، فالطيران عليه مهمات اخرى ! «
وهكذا كان يوم ٨ أكتوبر ٧٣ ، من الأيام العصيبة ، فى حرب الغفران -
أو حرب رمضان ...

وكشفت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية فى ٢٥ أكتوبر ٧٤ ، أى بعد عام من الحرب ، « أن ٢٥٠٠ قتيلًا وثلاثة آلاف جريح كانوا الثمن الباهظ ، الذى دفعته قوات اريئيل شارون ، خلال ١٦ يوما ، من القتال المستمر -

الذى أوصل الجيئى الاسرائيلى الى غرب قناة السويس ، وقالت الصحيفة أيضا : « انه فى ظروف ذلك اليوم فى الصحراء ، وبعد ٩ أيام من القتال ، أى فى يوم ١٥ ، بدأت المهمة الصعبة التى أقيمت على لواء المظليين بقيادة (داني ماط) ، وكانت مهمة اتحارية حقا .. وكان ضحيتها الرجال من القتلى والجرحى » .

وعن يوم ١٧ اكتوبر ، كتبت صحيفة « معاريف » ، تقول : « تميز المصريون بالاقدام ، ومجموعاتهم الاستطلاعية المزودة كما يجب ، اختبأت بالقرب من قواتنا وتجولت هناك ، وكان ضباط الاستطلاع المصريون الاماميون يوجهون المدفعية بالنظارات المكبرة ، وأجهزة اللاسلكى من مسافة لا تبعد عن ٥٠٠ متر عنا وكانوا يوجهون مدفعيتهم الى المظليين عند تحركهم ، وكانوا يفعلون ذلك فى الليل بمساعدة القنابل المضيئة ، وكانت القذائف المصرية قاتلة ، تصيب كل شىء ، وتتفجر فى ارجو ، وكانت الشظايا رهيبه ، ودفنت مع جنود وضباط فى حفرهم العديد من معداتنا ، وتكبد المظليون نحو ٥٠٠ قتيل واكثر من ٩٠٠ جريح فى هذه المعارك ... » .

وخلال العديد من المقالات ، التى كتبها الاسرائيليون ، حاولوا أن يفسروا (التقصير) الذى حدث ، ويرزوا حقيقة ما حدث ، فلم يكن من المتوقع أن ينقلب (ظهر المجن) ضدهم بهذا الشكل ، وهم الجيش المتفوق ، والدولة التى لا تقهر .

ومن المقالات الهامة التى نشرت فى هذا المجال ، ما جاء فى صحيفة « ידיعوت أحرونوت » الاسرائيلية ، بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٧٤ :
اننا نفضل الاجابة على السؤال الاساسى بمصطلحات الاهداف التى انجزت ، والتى لم تنجز فى الحرب الاولى ، وكان هدفهم الاول الاثبات للعالم ، ولأنفسهم ، ان العرب أنجزوا أهدافهم ، وكان هدفهم النوصل بقوة السلاح الى تسويات والى سلام ، او الى استعادة الأرض ، أما نحن فلن نؤمن بقدرتهم ، على انجاز ذلك ، بقوة السلاح ، وكان هدفهم الثانى

الانبات لأنفسهم ، أنهم قادرون على التبارى معنا بالحرب ، وهدفهم الثالث ، احتلال مناطق جديدة ، وهدفهم الرابع ، احراز انجازات سياسية عن طريق عمل عسكري ، والهدف الخامس ، زعزعة الثقة الذاتية ، لدى اسرائيل ..

كانت حرب السادس من أكتوبر ، منطلقا الى « انفتاحة جديدة » في الدبلوماسية المصرية ، والعربية ، والى مزيد من التحرك السياسى والفكرى فى الشرق الاوسط ، وعلى مستوى العالم أجمع ... قاده السادات ، بذكاء ، وبوعى خلاق متفتح ..

فالنصر العسكرى اذا لم يؤد الى مكاسب سياسية وفكرية ، فلا أهمية له ... فنحن لا نحارب من أجل الحرب .. الحرب بالنسبة لنا وسيلة لغاية بذاتها ، قنطرة الى (العبور) الى أهداف معينة ، من خلالها يمكن الوصول بالقضية العربية الى آفاق رحبة ، تتيح لمصر والعرب ، التقدم الى أنبل الغايات ..

فمثلما قادت ثورة التصحيح (١٥ مايو ١٩٧١) الى سيادة الفكر الناضج والصحيح ، وضربت مراكز القوى وكل القوى المخربة التى كانت تقف عقبة كؤود أمام امكانيات الحركة الاجتماعية والديمقراطية والوطنية ، قاد « تصحيح أكتوبر ٧٣ » الى تصحيح أعمق هو تصحيح العلاقة بيننا وبين العدو من جهة ، وبين علاقاتنا بالعرب وبالعالم الخارجى خرجنا منه ، بابطال (مفعول) أسطورة الجيش الذى لا يقهر ، وبصف عربى واحد ، وبتضامن افريقى متسق ، وبعلاقات وثيقة مع كل الدول المحبة للسلام ، التى تناضل من أجل الديمقراطية والسلام ، بل (جيدنا) خصوما ، واكتسبنا الى جبهتنا شعوبا كانت لا تعترف بعدالة قضيتنا ... وبهذا تحول انتصار أكتوبر ، الى (قنطرة) لتجاوز الهزيمة ، والى قنطرة للانفتاح على العالم ، والى السبر بالقضية العربية نحو حل متعلقاتها

ومتناقضاتها على المستوى القومى والعالمى .. فقد استعدنا (الارض) ،
 مثلما استعدنا (أنفسنا) ، وبدأنا نتحرك فى استكمال بقايا منجزاتنا الثورية
 والديمقراطية (فى الداخل : السير فى بناء دولة العلم والايمان ، التى
 تواكب احدث المجتمعات العصرية ، لتحقيق مجتمع الرفاهية والرخاء
 لمواطنينا ، والقضاء على كافة الظروف المادية والفكرية الصعبة التى صاحبت
 اثار العدوان) ، وفى المنطقة العربية ، وعلى المستوى العالمى ، نسير بالقضية
 العربية الى استكمال منجزات ومتطلبات ثورتها الوطنية والديمقراطية ،
 فقد كان (أكتوبر) ، منطلقا ، لكل التحركات التى قام بها السادات ورجاله
 على المستوى العربى ، والعالمى ، من أجل الاعداد لحل تناقضات (المسألة
 العربية) فى جوهرها ، سواء ما بقى من متعلقات الارض السلبية بالنسبة
 لدول المواجهة ، أو بالنسبة لحل قضية فلسطين وضمان مصيرها القومى
 والوطنى ، وبشكل أو بآخر ، الاعداد لمؤتمر جنيف ، حتى نذهب اليه ،
 برأى واحد متسق ، ينبعث من موقف عربى واحد ، يسير الى غاية واضحة
 جليلة : اقرار السلام فى المنطقة التى شهدت الالتهاب لأكثر من ربع قرن
 عن طريق عودة الاراضى المغتصبة لدول المواجهة ، وعن طريق تأمين الكيان
 الفلسطينى واقامة فلسطين حرة مستقلة آمنة تتمتع بالسلام مع جيرانها ..
 وفى اطار هذا المناخ السلمى ، يمكن للوطن العربى ، صنع المعجزات ،
 والمشاركة فى حضارة العصر ، علمنا وفكرا ، وابداعا ... بشكل أو بآخر
 عن طريق المساهمات الخلاقة فى اقامة المجتمعات العصرية المعتمدة على
 تكنولوجيا العصر ، ولكن فى اطار دولة العلم والايمان ، التى لا تجد هوة
 سحيقة بين متطلباتها المادية والفكرية وبين انزائها الروحى والمعنوى ...

الفصل السادس

خطر اليسار التقليدي والييمين الرجعي.. على ثورة التصحيح

« ان استخدام الماركسية اللينينية ، بحذافيرها ، أو مفهومات اليسار التقليدي ، في عصر لم تعد البروليتاريا تصنع فيه الصناعات التحويلية بأيديها ، وانما باتت تصنع الطائرات التي تسابق في سرعتها سرعة الصوت .. أشبه بطهى الطعام عام ١٩٧٥ على بعض الأخشاب أو الاحطاب .. الا يصيب هذا أعيننا بالدموع والرماد من فرط الدخان القديم ؟ !

الفيلسوف الأمريكى : هربرت ماركوزا

87

[REDACTED]

[REDACTED]

ثورات شباب ١٩٦٨ فى العالم ، أصبح هناك تيار قوى ، يدعو الى ثورة جذرية فى بناء المجتمعات المعاصرة ، دون

مع

الرجوع الى النماذج الكلاسيكية التى يقدمها اليسار التقليدى ، نتيجة لكتابات وأفكار ونظريات « هربرت ماركوزا » فى أمريكا وافكار وراء رائد الاشتراكية الديمقراطية فى المانيا الديمقراطية « رودى دوتشكا » . نتيجة للأفكار الجديدة التى حمل لواءها السباب فى أواخر الستينات ، وصل الفكر اليسارى الاوروبى والأمريكى الى أن المجتمع الشيوعى التقليدى ومثله : الاعلى الاتحاد السوفيتى ، والمجتمع الرأسمالى الاستهلاكى والاحتكارى ونموذجه : الولايات المتحدة الأمريكية ، هذان النموذجان يتساويان ، من حيث تركيز السلطة فى جهاز يبروقراطى يقوم على القمع وطمس المعالم الفردية للانسان ، نتيجة لضرورة تجميع كل الطاقات فى عمليات السباق على الانتاج لتلبية احتياجات المصانع العليا والصناعة المتطورة ، ووقوع الاثنان : الاتحاد السوفيتى ، وأمريكا .. فى محورين متصارعين ، من أجل السيطرة على العالم نتيجة لذلك ، نجد أن كلا من المجتمعين : السوفيتى ، والأمريكى ، يتماثل فى : أولا .. تركيز جميع القرارات فى الدولة ، واستخدام جميع أجهزة الاتصال الجماهيرى فى الضغط على رأى العام وتشكيله حسب رأى المطلوب ، وهو رأى العام (للنظام) - أو الدولة ، واشاعة عادة قبول رأى كما هو ، وذلك بتوالى عمليات النشر وبتجريد الفرد من القدرة على النقد . ثانيا .. اعطاء سلطات واسعة لفئة جديدة من البورجوازية المقنعة هم فئة التكنوقراطيين واساتذة الجامعات والمعاهد العليا الذين يقدمون النظريات سواء فى علم النفس أو العلوم الانسانية بشكل عام لصالح المجتمع الصناعى الكبير . ثالثا .. الاعتماد على الجيش وعلى المخابرات وعلى الأجهزة العامة للرقابة

الداخلية كبديل للنظام الليبرالى الغربى التقليدى القائم على الاعتماد على البرلمان ..

حدث هذا فى الخارج : فى اوربا وامريكا ...

وكان لابد من ثورة كبرى على الشكل الرسمى ...

فتولدت أفكار جديدة ، تدعو الى ربط الحرية الفردية بقضية التحول الاشتراكى وبقضية التطور الاجتماعى والمادى ، حتى لا تتكرر الظروف التى أدت الى الستالينية أو قيام الفاشية من جديد ..

وفى مصر ..

انكس هذا الوضع ، فى مجموعة نادت بعضها بفكرة الدولة العصرية ، وهذه المجموعة ، حاولت أن تحلل أو تعلق هزيمة يونيو ١٩٧٦ ، بأننا كنا متخلفين عن فهم روح العصر ، وتصورنا أن الحروب تقوم على الاعداد الكبيرة من الجنود والمقاتلين ، بينما هى حروب تكنولوجية فى المحل الأول . والبعض الآخر ، نادى بضرورة اعادة النظر فى مفهوم اليسار ، ومفهوم اليمين ، وأعطى أولوية التأقلم بالمتغيرات الدولية ..

حدث هذا ، والجهاز الرسمى مازال يعتمد فى الداخل ، ثم فى العلاقات الخارجية ، على قوى تمثل اليسار المصرى التقليدى أو اليمين المصرى الكلاسيكى ..

واليسار المصرى التقليدى .. هم الجماعة التى تكونت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت كل أهدافها تنحصر فى تكوين جبهة داخلية ضد الاستعمار ، وإشاعة العدالة الاجتماعية ، وحل مشكلة الأرض بتفتيت الملكية وإعادة توزيعها على الفلاحين . وتشلت هذه الجماعة فى مجموعة من التنظيمات المتعددة برز منها : الحزب الشيوعى المصرى القديم (وعرف باسم تنظيم الراية) ، وحزب العمال والفلاحين ، وتنظيم د.ش ، وتنظيم حدتو ، واسكرا (أو الشرارة) ، وطلبة العمال والفلاحين ، والحزب الشيوعى المصرى الموحد ، ثم تجمعت هذه التنظيمات فى وحدة عامة عام

١٩٥٦ ، تحت اسم « الحزب الشيوعي المصري » ، ثم عادت وتفرقت في أعقاب ١٩٥٨ الى أكثر من تيار واتجاه ، والذي حدث ، أن أهداف هذه الجماعة ، أو معظمها أو أكثر منها قد حققتة ثورة ١٩٥٢ بعزل عنهم ، فأصبحت آراؤهم متخلفة حتى بالنسبة لمسار الثورة في نفس الظروف التي أدت الى الهزيمة !

وكانت هناك قوى تعتمد على اليمين التقليدي ، وهؤلاء ينادون بحرية التجارة وبحل الحراسات وبالعودة الى (المشروع الحر) .. وفي ظروف عالمية متقدمة ، يصبح من العسير ، بل من المستحيل ايجاد قوى دولية قابلة لمساندة هذا التيار ، اذ لا يمكن على سبيل المثال لأى مؤسسة صناعية كبرى في احدى البلاد الرأسمالية أن تقبل شركاء لها من الرأسماليين المصريين - ان جاز وجودهم - بأن يتحالفوا معهم وفق مبدأ الشركات المتعددة القومية ، داخل بلد محاط بحصار اقتصادي ، وواقع في احدى مناطق التوتر الدولية الخطيرة ، ألا وهى منطقة الشرق الاوسط ، فضلا عن أن نظام هذا البلد الداخلى يتعارض تماما مع هذا المبدأ ...

في وسط هذه الظروف الصعبة ، كان لابد من عملية تحويل في مسار الثورة باخراجها من الوضع الذى تجملت فيه ، بدراسة أسباب هذا التجسد ، وبخلق ظروف صحية جديدة ، تدفع بالثورة الى الأمام :

❖ أولا : لاستعادة القوى الوطنية المكونة للتحالف الداخلى ، في مواجهة القوى الامبريالية .

❖ ثانيا : تحديد وضع البلاد ، بشكل واضح ، تجاه القوتين الدوليتين المتصارعتين .

❖ ثالثا : رسم منظورات اللغد ، مستمدة من واقع المتغيرات الدولية .

وهنا يبرز دور السادات ، وقيادته لثورة التصحيح ، التى أعادت الروح الى مصر ، ومهدت الطريق للسير قدما بالثورة الى الأمام بعد ما تجملت ..

ولتتبع فشل « اليسار التقليدى » المصرى فى الظروف الراهنة ،
واندحار الفكر اليمىنى التقليدى المصرى فى مسار الثورة الجديدة ، وفى
ظل المتغيرات الراهنة ، لابد من تتبع فشل اليسار التقليدى واليمىنى
التقليدى فى العالم ، كنظرية ، وممارسة فى التطبيق العالمى .. ولا أحد ينكر
من المنظرين أو المفكرين ، أن كلا من الأيديولوجيتين قد أكد فشله وهيمته
على المستوى الدولى ... فمن منا ينكر أن « الماركسية - اللينينية » فى
أزمة ، ومن منا لا يعترف بادانة الفكر اليمىنى الكلاسيكى فى غرب أوروبا
وفى أمريكا ... ١٩

حقيقة أن الفكر البشرى مدين للماركسية بالعديد من القيم والمثل ،
كالمناهج الجدلى الماركسى ، وتفسير الحرية ، والنظر الى الانسان فى الوجود ،
وقد سلم أعداء الماركسية أنفسهم بعظمة هذه المثل وقوة استقطابها ،
فالماركسية تعتبر نفسها من الوجهة الفلسفية أكمل نظرية فكرية واجتماعية
ومادية للنظر الى الفرد والتاريخ ، فهم أكثر عمقا من المعرفة التى حققها
الفلاسفة الفرنسيون والألمان والانجليز فى القرنين الثامن عشر والتاسع
عشر (نظريات كانت ، وهيغل ، وفورييه ، وسان سيمون ، وغيرهم ..) .
ولكن ليس معنى هذا أن الماركسية ، أو اليسار التقليدى يصلح كفكر
وأسلوب فى السبعينات من قرننا هذا .. ومن العيوب الخطيرة فى الماركسية
اللينينية تأكيدها على ضرورة العمل الثورى بصراع الطبقات الذى تقوده
البروليتاريا لاسقاط الرأسمالية والبورجوازية ، والتوصل الى ابراز حقيقة
التاريخ الموضوعية . وقد تمتعت الماركسية الى سنوات خلت بسمعة طيبة ،
غير أن نظريتها فى الحرية قد تحولت الى نظرية رسمية ، انحدرت معها
الماركسية من الثورة الى الذهنيات والتأملات الصوفية ، الى تبرير التعسف
والتحكم باسم « مصلحة الدولة » ، ويكفى هنا مثال واحد نسوقه ، وهو
مثال (راجك) الشهير فى المجر ، لاطهار مدى الخطورة التى بلغتها تلك
التبريرات المصطنعة .

وقد لا أكون مبالغاً ، اذا قلت مع المفكر الفرنسى هنرى لوفافر (١) ، ان تاريخ أو مأساة النصف الأول من القرن العشرين تلخص بقضيتين أو باسمين : « دريفبوس » ، و « راجك » ، فقد أدانت الأولى نهائياً الشعور الوطنى التقليدى عند البورجوازية الفرنسية ، أى تيار القوميات الرأسمالية المنغلقة ، وأدانت الثانية ، ولو الى حين ، الحركة الثورية العالمية ودور الماركسية كقوى تحررية والرسالة العمالية الشاملة ، أى باختصار : المثال الشيوعى الأعلى (أى الاشتراكية الماركسية والشيوعية ، باعتبارها هدف التاريخ واتجاه سبره) . فقد أصبح هذا (المثال الأعلى) لعين كثير من الناس خديعة كبرى ، وقد استطاع أن يحمل فى ملياته تقيض ما يدعى ويظهر ، شأنه فى ذلك شأن الذهنيات والتأملات الصوفية التى فضحها ، فقد كذب باسمه مرات عديدة ، مع العلم أن الكذب باسمه ولو مرة واحدة كاف لافقار الثقة به . وقد ارتضت الماركسية - اللينينية ، كسياسة انحرافات نابها ونكرها كفلسفة ، فالعقيدة التى كانت تعلن الحقيقة بصراحة وضراوة ، ما كان لها أن تبلى بالأكاذيب ، وما كان للعقيدة التى تعلن نهاية الظلم أن تستخدم الظلم نفسه لتبرير بعض تصرفاتها وما كان للعقيدة التى تدين الطغيان أن تبرر أى طغيان باسم « مصالح الدولة » . فقد مات بعض من الذين تطوعوا لخدمة الثورة واستعملوا بها بدون أى نفع للثورة ، كراجك فى المجر ، مثلاً ، والموت من وجهة نظر ثورية بلا نفع فى سبيل الفكرة الماركسية أكثر خطورة وألماً من الظلم نفسه ! وليس هذا هو التناقض الوحيد فى الفكر الماركسى التقليدى ، فهناك المظاهر العديدة التى تبرز أزمة اليسار التقليدى وفشله على المستوى العالمى ...

والشباب ، أنفسهم ، يقعون فريسة لهذه التناقضات ، ويتوهون ، بل يتخذرون بالفكر الماركسى التقليدى ، فهم بطمحون فى آن واحد الى

(١) هنرى لوفافر .. المفكر الفرنسى الشهير ، الذى اعنبره الحزب الشيوعى الفرنسى مرتداً ، ومن كتبه الذى بين فيها أزمة الفكر الماركس - اللينينى وانحداره وسقوطه كتابه : « أزمة الماركسة الراهنة »

الحرية المطلقة ، والى قواعد ومقاييس نهائية ، لتقسيم الحياة والوجود ، كذلك ، يتوقعون فى أقل احتمال وجود « نمط » للحياة من الناحية الأخلاقية ، كما يتوقعون نظرية فنية « استتيكا » ، لكن آمالهم تخيب ، ويحبطون تماما ، عندما يبهت فى نظرهم مبدأ « الحرية المجسدة الحية » أى المبدأ الشيوعى ! وهذه النظرية ، تفسر الى حد كبير الداء الذى يجتاح بعض الشباب الفرنسى اليوم . فهذا يخلق ويضخم قلقا غير مجهول (وخاصة فى المنابا فى فترة ما بعد الحرب) . فهؤلاء الشباب ، وان كانوا مخطئين من حيث اطلاق أهدافهم بالمطالبة بأخلاقيات ونظريات فنية ، وبأنماط بذاتها ، فانهم يجدون فى النهاية الطريق مظلم وقاتم ، عندما يفعون فى وهدة اليأس فتتعلق عليهم النظرية ، ويتبنون تزماتها وتبريراتها الواضحة !

ومن العيوب الأساسية فى الماركسية - اللينينية ، أو اليسار التقليدى بشكل عام ، « الطابع السكولستيكى » الذى يميز النظرية ، أى طابع التزم والعقيدية .. والارتباط بالقالب والاطار ، وينضوى تحت هذا الاطار قوالب وأنماط مثل الاطار الستالينى (١) ، أو الشكل أو التيار الماوى (٢) .

ونجد الملاحظة ان بعض أشكال « العقيدة » المبثثة ، قد تخطاها الفكر نهائيا : كالحتمية الاقتصادية ، مثلا ، التى ترجع الماركسية والحياة الانسانية عامة الى تأثير التركيب الاقتصادى ، بل الى تأثير العامل الاقتصادى كما يقولون بابتدال ، واضعين العامل الاقتصادى ، وجها لوجه والعوامل « المسيرة » الأخرى من جغرافية وبيولوجية ونفسية . وانتشرت هذه « العقيدة » المبسطة فى صفوف بعض اليساريين وساهمت الى حد كبير فى نشر الفكر الماركسى ، ولكنها سهلت فى الوقت نفسه عملية تقضها .. فالواقع الاقتصادى والمعطيات الاقتصادية تشكل الأسس والمعطيات العملية والحدود

(١) نسبة الى ستمالين ، وتفسيره التزمته للماركسية ، الذى انتهى بعبادة الفرد .

(٢) نسبة الى ماوتسى تونج ، وتفسيره للماركسية الذى انتهى بهجمات الدم والثورة الثعافية فى الصين .

الواقعية لكل عمل انساني فرديا كان أم جماعيا . والقول بأن المعطيات الاقتصادية تشكل الأساس يعنى فى نفس الوقت ، أن الحياة الانسانية لا نرد الى حتمية اقتصادية ، انما تفعل فيها ، متعددة اياها فى كل حين . وقد يخطر للبعض هنا سؤال : ترى هل هذه هى فكرة كارل ماركس الحقيقية ؟ وللإجابة على هذا السؤال يكفى التذكير بالعنوان التالى لكتاب رأس المال ، وهو : « نقد الاقتصاد السياسى » . فقد كان الاقتصاد السياسى ، يبحث فى المعطيات والتأثيرات الاقتصادية على أساس أنها علاقات بين الأشياء ليس الا كبحث فى الانتاج والسام وكميات النقد وسواها .. فجاء كارل ماركس ونقصد ذلك ، مظهرا ، أن العلاقات الحقيقية الكامنة وراء العلاقات بين الأشياء انما هى علاقات فعالة حية بين البشر أنفسهم : فالاقتصاد نزاع بين البشر ، وما الأشياء فيه الا غطاء فحسب وفى اطار بحث العقيدية ، أو التمرت النظرى ، يحضرنا الفكر الستالينى ..

والفكر الماركسى ، لم يعرف فى تاريخه رجلا عقيديا مترمنا ، مستبدا ، مثل ستالين ، والكثير من الماركسيين - اللينين ، اليوم ، أو دعاة اليسار التقليدى ، يستشهدون بأراء وأفكار ستالين ، وبين كل عبارة وأخرى ، يقولون لك ، مثلما قال ستالين ، وستالين : قال فى هذا كذا ، وكذا ، وهلم جرا ! (١)

وكان تيار الماوية - أو الفكر الصينى ، قصة أخرى للجمود والعقيدية الماركسية ، وبرهان اخر لتفسخ اليسار التقليدى على المستوى العالمى . فقد غدا « الفكر الماوى » هو الأساس ، وصدرت التعليمات فى الصين فى

(١) فقد أنهى جوزيف ستالين حديثه عن اللغات ، قائلا ، بقوله : « الماركسية عدوه لكل لكل لغة » ، كما انفذ مرارا بعض نتائج مواقفه الشخصية وما تراجع يوما عن التفحجية ببعض الستالينيين المغفلين أو الذين حامت حولهم الشبهات . وكثيرا ما سخر من الذين يستشهدون بما بهى كل سطر كتبه ، بينما كان فرضا وواجبا على كل من كتب أن يستشهد بأقواله . فيقول ستالين : « وستالين : عاد ! وقد بلغ فى ظاهر الفكر الماركسى قمة الانغلاق وفرديته ، وحرفت الماركسية اللينيه ، حتى تحولت الى ما شبه عبادة الفرد ، أو ما عرف بالستالينية ، وما كشف عنه المؤنر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى . فمن حيث الرسومية كانت الستالينية أعدى أعداء العقيدية وما من مفكر متحرر متقدم ينكر ذلك اليوم فى العالم اجمع ..

أواخر الستينات بادانة كل فكر لا ينبع من ماوتسى تونج . وقد حرم
قراءة المؤلفات الماركسية - اللينينية ، وأمر بحرق المؤلفات اللينينية ،
ووصفت الماركسية - اللينينية بأنها مراجعة وتحريف (٢) ، وتعرضت الكتير
من الأرواح ، بالآلاف ، الى القمع والقتل والتعذيب ، تحت اسم «مصلح
الدولة» ، ووصفت هذه العناصر التى تعرضت للتعذيب والقتل ، بأنها
عناصر مناهضة للفكر الماوى . والحزب الشيوعية ، وبين العناصر التى
تعرضت لهذه الأعمال كانت أسماء كبرى بينها : تشنغ يون ، وتشين يون ،
وتينج هسياوبنج ، وينج تيه - هواى ، وهولنج ، وتشين بى ، وتان تشين
لين ، وليو باو - تشينج ، ولى تشينج - تشاوى ! وأصبح المهيمن على
البلاد فريق شئون الثورة الثقافية ، ممثلى الحرس الأحمر - أو ما يعرف
بـ (الشاوفان) . وكجزء من هذه السياسة الماوية ، أو القالب الصينى ،
توترت العلاقات بين الصين والاتحاد السوفيتى ، وتحول الخلاف العقائدى
بينهما الى حرب شعواء !

من خلال هذه النماذج ، يتضح افلاس اليسار التقليدى ، لا من
خلال نظريته فحسب وعقيدته ، بل من خلال مختلف الأنماط والقوالب
والأشكال التى كان يمارس خلالها فكره فى التطبيق .. وقد انعكس هذا
الفشل ، أو هذا (السقوط) ، نظريا وعمليا ، على اليسار التقليدى فى المنطقة
العربية ، وبالذات فى مصر .. وربما كان استمرار هذا اليسار فى سياسته ،
بمثل خطره الواضح ، والجلى ، على المرحلة الراهنة ، التى تواجه متطلبات
بذاتها ، وفى اطار مسار الثورة الجديدة - ثورة التصحيح ، وفى اطار
الظروف والمتغيرات الدولية الجديدة ..

وأمام هذا كله يبرز دور أنور السادات ..

وانحن ، نعرف ، أنه كقائد ، وكفكر ، ومنظر ، كان يرى فى بداية

(٢) وقد جاء ذلك فى مقال نشرته الصحيفة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، كتبه
(وانج مينج) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، ونشر المقال فى صحيفة
« كنديين تريبون » فى ١٨ مارس ١٩٦٩ .

الثورة ، أن الحل لن يأتي الا في ظل مناخ تنفتح فيه ارادة الفرد ، لأنه في ظل الحرية يمكن للانسان أن يقدم طاقاته ، وقدراته بدفعات مختلفة ، من الداخل ، وعن ايمان عميق ، فتكون له فعالية حقيقية ... بينما لو قام الفرد بمصالحة مع أى سلطة كانت ، فان طاقته تكون مجرد طاقة اسمية وهذا ما يؤدي الى خضوع الارادة الفردية للقوى التي يستمد منها الفرد وجوده أيا كانت . لكن اذا ما اقترنت هذه الارادة الحرة بهدف نبيل مستمد من مصالحها ، ومن خلال استقراء حقيقى للتاريخ ، فهنا يمكنها أن تتحول الى قوى كبيرة ، قادرة على الحركة والعمل ، واستعادة طاقتها على الدوام في كل موقف . وكانت عملية تقسيم القوى الداخلية الى عدة مناطق نفوذ ، تحول هذه الطاقات من هدفها الأول ، وتضعها في خدمة المصلحة الشخصية المباشرة ، بدلا من التحالف في سبيل الوصول الى الهدف العام ، ألا وهو الحرية الاجتماعية والاقتصادية ، والخروج من الهزيمة واستعادة الدور القيادي في المنطقة . بمعنى ، أن دوران حركة الفرد داخل احدى مناطق النفوذ ، كان يجمد حركة التاريخ ، ويؤدي الى نوع من التضخم في هذه المنطقة أو تلك ، وينعكس ذلك في أشكال متنوعة قد تكون جديدة علينا ، لكنها مماثلة للأشكال الاجتماعية والاشكال التي تتعلق بالادارة والحكم والتي عانت منها المجتمعات الأخرى كالبيروقراطية والصراع بين عدد من البيروقراطيين على السلطة ، وكظهور ما يعرف بسلطة الرجل الواحد في كل منطقة نفوذ . فلو أن انسانا مفكرا أو مخترعا أو عالما ، وضع في أحد الأجهزة ، وأستولت احدى مناطق النفوذ على هذا « الجهاز » ، وأطاحت بالادارة التي عينت هذا المخترع أو ذلك المفكر ، فان « المشروع » الذي يمارسه هذا المفكر أو هذا العالم ، يتوقف قبل أن يصل الى حالة النضج ، وتجيء منطقة النفوذ الجديدة بأشخاص آخرين ليبدأوا « المشروع » من البداية ! ولو تكررت هذه العملية ، فتكون النتيجة ، أن الدولة لا تنتج شيئا ! فالأجهزة تقوم على بدايات مشروعات ! وينعكس ذلك على القوى المفكرة ، والقوى المخترعة ،

والقوى العاملة . فكل واحد ينطوى على نفسه ، ويفقد الحوار الطبيعي بينه وبين العناصر المشكلة لجهازه ، ويصل الأمر الى الذروة ، ويصبح من العسير ، بل ومن المستحيل ، أن يحل المرء مشاكله بمعزل عن الطريق الطبيعي الذى يجب أن يسلكه . وهنا ، اما أن يتوقع هذا الانسان ، المفكر أو العالم ، أو يتحول الى قوى تستفيد شخصيا من الجهاز المصلحي .. !

وكان لابد من تبرير لهذا الوضع الذى تفاقم ، ووصل الى قمة تفسخه وللأسف كان دعاة هذا التفسخ ، يجدون تبريراتهم ، وباسم أى عسل « ينشد التغيير » ، كانت ترتكب أبشع الجرائم . وكنا نرى فى فترات كثيرة احدى مناطق النفوذ هذه ، تبرر تصرفاتها ، بأنها خاضعة لفترة مرحلية ، وأنها تقوم بعملية تكتيك يوائم المرحلة التى تمر بها ، وخلف ذلك كله ، كانت هناك العناصر المحركة وعناصر التبرير الفكرى ، وبين هؤلاء نجد الأيديولوجيين الذين يحاولون الاستفادة من تاريخهم كمناضلين سابقين ، وكانوا يعرفون أن منطقة النفوذ — هذه أو تلك ، فى حاجة الى وجودهم ، لكى يبرروا ما يفعلونه ، وكانوا على دعى كامل بهذا الدور ، فهم هنا أشبه بالمفكر أو المخترع أو العالم الذى عرف أنه لا يمارس عملية تاريخية الى الآخر ، وانما يستفيد استفادة شخصية من أجزاء مرحلة تنتهى بنهاية منطقة النفوذ التى تسانده ..

على هذا النحو ، رأينا مع كل منطقة نفوذ مجموعة يسارية ، تعلن أنها هى التى ستوصلنا الى الحلول السليمة الناجعة . بينما نعرف جيدا ، أن المنطقة التى سبقتها كانت تنادى بنفس الرأى ، فتكون النتيجة هى ظهور حلقات يسارية ، كل منها تحاول أن تستقطب الأخرى وتستولى على مكانها ونفوذها ، لكى تكون لها السلطة . فمثلا : المجالات اليسارية ، وما صاحبها من تكوين كتلات يسارية فى كل مجلة ، وجدنا أن كل يسار يزعم أنه اليسار الحقيقى الأصل ، وكل ما عداه فهو زائف ! وما من مجلة كانت تبث عن قوى يسارية حقة ، وانما كانت هناك مجاميع أو حلقات من

المثقفين ينفون حول احدى مناطق النفوذ ، وباسم اليسار ، وباسم الديمقراطية ، وباسم الحريات ، كانوا يسرون العديد من الرغبات والتزعات والتصرفات التسلفية والانتهازية ! فعندما تتحالف مصالح جماعتين ، كما حدث لمجلتي « الكاتب » و « الطليعة » (في سبتمبر ١٩٧٤) ، عندئذ يتحولون الى فريق واحد ، يتحرك من نفس السلطة ، أو من نفس المنطلق الذي كانوا يزعمون أنهم الناطق الرسمي باسمه .. !

وقد وضع أنور السادات ، منهجا للعمل ، واضح كل الوضوح ، في « ورقة أكتوبر » و « ورقة المتغيرات » ، ومراجعة سير الثورة ، أى وضع السادات طريقا واضح المعالم لكل التغييرات التي حدثت بـ « ثورة التصحيح » وكل هذه المعالم الواضحة تعكس نفسها في مجموعة جلية من القيم والأفكار والعقائد ، وتتجلى واضحة في ممارستها في الطريق العملى والتحركات اليومية سواء على الصعيد المحلى أو القومى أو العالمى .. وهذه المبادئ والقيم التي وضعها السادات تدمج كل سلوك وتحرك يستهدف إقامة مراكز القوى التي من شأنها أن تحول المسار الثورى الى منعطفات مغلقة ضيقة معادية لحركة الجماهير في تطورها الثورى ..

هذا في الوقت الذي لم يقدم « اليسار المصرى » أى حلول ، ولكنه ظل مساندا لأى نظام يقوم سالى مناطق النفوذ ، بل ويعمل مع النظام الحالى على إعادة مناطق تكوين النفوذ ، بدليل أن مجلة « الكاتب » وجدت لدى الدكتور « محمد عبد القادر حاتم » ملاذا وحماية لوجودها ، فلم ترفع صوتها بأى نقد للاعلام أو للثقافة فى عهده ، بل اعتبرت احتضانه لها بدون أى نقد منه تعاطفا معها ومواقفة على ما تنادى به وتنشره من أفكار وآراء ، بل واعتبرته الممثل لأفكارها . ولما جاء « يوسف السباعى » ، وهو من نفس اتجاه الثورة ، ولا نعتقد أنه يعتبر يمينا بالقياس الى الدكتور عبد القادر حاتم الذي كان يسكت عن مجلة « الكاتب » ، فليس معنى سكوته أنه من مجلة تصدر عن وزارته ، وانها تحمل طابعا أيديولوجيا معيناً معارضا لخط الدولة ، أراد مجرد الاستفسار عن هذه المجلة ومدى علاقته بها ، لأنه

المستول سياسيا عما يكتب فيها طالما تصدر عن احدى المؤسسات التابعة لوزارة الثقافة وهي هيئة التأليف والنشر ، عندما حاول بوسلف السباعي أن يستفسر عن هذا الوضع الغريب ، قدم أعضاء مجلس التحرير استقالاتهم ، احتجاجا على أن الوزير أعطى لنفسه سلطة ممارسة مسؤولياته كناشر لمجلة سياسية !

نخرج من هذا « النموذج » الذي نطرحه هنا ، الى أن حركة اليسار المصرى قد تحولت الى عدة مناطق نفوذ منفصلة ، وانها تقوم بحركة « تملك تسد » ، وترفع نفس الشعارات ، وتستخدم نفس المصطلحات ، وكما كان يحدث في الماضي تسخر الجماهير من أجل أغراضها هذه .. وقد تكونت نزعة استثمار جديدة ، هي استثمار التاريخ الثورى لليسار من أجل التكوين الاجتماعى والبيولوجى لأعضاء كل فريق أو منظمة يسارية . وكان هذا يهدد بقيام أو عودة مناطق النفوذ من خلال تكوينات أخرى غير التى حدثت في صفوف الجيش ، وكان هناك تحالف بين هذه المجموعات وبين بقايا مناطق نفوذ لا يتصور أحد أنها يسارية ، لكنها تستخدم اليسار مرة أخرى كى يكون لديها قوى تستند عليها في تعزيز نفوذها ، وفي الوقوف ضد حركة التصحيح الجديدة ، التى لو عممت مبادئها وأفكارها وقيمتها ، لأصبح الولاء للمبدأ ، لا للفرد أو لمنطقة النفوذ ، وكنماذج عامة ، نطرحها هنا ، على سبيل المثال دون الخوض في مساراتها أو تحركاتها : تكتل الأهرام (هيكمل) ، وتجمع مجلة (الطليعة) التى التفت حوله ... وهذه التجمعات ، أو هذه التكتلات ، تصر على الاحتفاظ أو إعادة مناطق النفوذ ، وفي تقديرى أنه لو استلهمت مبادئ وثورة التصحيح ، وهذا أمر ليس بالعسير عليها ، فانه يصبح الولاء لمبادئ ١٥ مايو ١٩٧١ دون الولاء لفرد بذته أو مجموعة بذاتها ، ومصر أكثر من أن تخضع لمنطقة نفوذ واحدة ، أو تدبى بالولاء لتكتل ما !

كان لابد للمناضل والقائد والمعلم محمد أنور السادات ، أن يقف ، بضراوة ، وبصلابة ، أمام أى استفحال لهذا الخطر - ألا وهو « اليسار المصرى التقليدى » ، خاصة وأن تشبته بأراء وأفكار أصبحت متخلفة بعد ثورة الفكر الاشتراكى فى أوروبا وأمريكا فى أعقاب ١٩٦٨ ، أصبحت هذه الآراء والأفكار للييسار المصرى التقليدى عاملا مساعدا وفعالا فى سبيل وقوع مصر بين مناطق النفوذ الأوسع ، ونعنى بهذا الصراع بين الكتلتين : أمريكا ، والاتحاد السوفيتى ..

فالييسار التقليدى ، يرى ، أن دوره ، هو ، التأكيد المطلق لكل ما يصدر عن الكتلة الشرقية من قرارات ومواقف وتعاليم وأفكار ، ويضع استراتيجيته على غرار استراتيجية الكتلة الشرقية ..

وبالتالى ، فلو ، حولت الكتلتان منطقة الشرق الأوسط الى منطقة صراع ، فإن ما يعمل به اليسار المصرى التقليدى فى الداخل ، هو العمل على استمرار هذا الوضع وتأكيد . ونحن نعلم علم اليقين ، أن أى بلد موال لنفس السياسة التى تؤدى الى استمرار التوتر ، يسير فى نفس الاتجاه . فالأزمة الاقتصادية الدولية ، مصدرها أساسا ، هو انعاش حركات التحرر الوطنى والاستقلال القومى للشعوب المستقلة حديثا ، وعدم تبعيتها لهذه الكتلة أو تلك - وهذا بدوره ، يؤدى الى نهضة صناعية فى كل بلد مستقل حديثا ، ثم يؤدى بدوره الى تكوين سوق جديد يقوم على التبادل والمساعدات ، أو على التكامل الاقتصادى بين مجموعة هذه البلاد المتحررة حديثا ، ووجود هذه « السوق » ، يؤدى الى انكماش السوق الرأسمالى العالمى ، ولكى تخرج الرأسمالية العالمية من خطر انكماش سوقها تضع سياسة « مناطق النفوذ » و « مناطق التوتر » فى وضع بذاته ، يسير الى تحقيق هدف مزدوج ، فمن ناحية تعرقل نمو اقتصاد وصناعة هذه الدول المتحررة حديثا ، فلا يتسع سوقها ، والهدف الثانى ، هو ايجاد عدو مستمر ، ودائم ، فى مواجهة هذه الأسواق ، ومن هنا كان قيام دولة اسرائيل من أجل اعاقه وعرقلة حركة التحرر الوطنى فى

المنطقة ، ويمكن التعاون مع هذه البلاد ، بمدّها بالسلاح والعنادر ، لتواجه عدوها في ضراوة ، فتتحول هذه البلاد الرأسمالية الى مراحل مختلفة ومتغيرة ، من الاقتصاد الحديث فتتحول الصناعات الحديثة داخل هذه البلاد الى صناعات حرب ، فترتفع نسبة فائض القيمة بالنسبة لهذه الصناعات ، فتحل الأزمة بشكل خارق للعادة ، وقد فطنت دول الكتلة الشرقية الى امكانية خلق « سوق » لها بهذه الطريقة ، ومن خلال احتضان حركات التحرر الوطني ومدّها بالسلاح والعنادر ، وبذلك تكون قد أوجدت سوقا موازيا للسوق الرأسمالي . ويقول المنظر والمفكر الهندي «جوش» (١) في ذلك :

« ان الدول المستقلة حديثا في اعقاب الحرب ، وبالذات ، في الستينات والسبعينات ، تسعى الى تحقيق تدعيم استقلالها القومي ، في مواجهة الامبريالية وضغوط مناطق الحرب والتوتر ، ولكن قوى الدول الكبرى تجعلها ، تحيا ، دائما ، في حالة من التوتر المستمر ، حتى لا تنمو سوقها القومي ، وحتى تظل دولة تابعة ومسيطر عليها من قبل الكتلتين ، من اجل ان تسير في ركب التوتر الذي تخلقه صراعات المنطقة في مواجهة الدولتين الكبيرتين ، وعلى سبيل المثال نذكر مصر هنا ، فهي تسعى منذ عام ١٩٥٢ الى تأكيد استقلالها القومي والوطني ، ولكن قوى الامبريالية وصدام مصالح الكتلتين ينعكس عليها ، وبالتالي ، ينعكس داخلها صراع القوى الداخلية بنفس الدرجة كيمسار ويمين ، كل يسعى الى زيادة حدة التوتر ، والى خدمة مآربه ومصالحه الطبقية ، وهذا كان من شأنه ان يعطل بناء صرح الاستقلال القومي في المنطقة ، التي دائما تزداد توترا ، مع كل ارتفاع ونمو وتعاضد في حركة التحرر الوطني » .

(١) «جوش» . هو المنظر والمفكر اليساري الهندي ، الذي كتب العديد من الدراسات والكتب عن حركة التحرر الوطني في العالم الثالث ، كما كان من أبرز دراساته تلك الدراسات التي وضعها عن نفوذ وعناظم اليسار داخل آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ومن دراساته الهامة في هذا الصدد : « مزيد من الفهم الواعي لحركة التحرر الوطني في مواجهة القوى الامبريالية في عالم اليوم » .

ولعل وجود هذه « السوق » الموازية ، في المنطقة ، أصبح جزءاً من استراتيجية الكتلة الشرقية ، فهي تسعى الى استمرار مناطق التوتر واتساعها . فاذا كان في داخل أى بلد من البلاد المتحررة حديثاً ، يسار موال للكتلة الشرقية ، فهو ، بالتالى ، مؤيد ومروج للأفكار النابعة من استراتيجيته .

ونخرج من هذا كله بحقيقتين جوهريتين : على المستوى الداخلى ، تؤدى سياسة اليسار التقليدى المصرى الى معاداة الليبرالية ، لأن الليبرالية لا تسمح بتكوين مناطق نفوذ على المستوى العالمى ، هذا الى جانب أن اليسار التقليدى ، بشكل أو بآخر ، يربطنا باستراتيجية مناطق التوتر ، أو يضعنا داخل استراتيجية مناطق التوتر ..

ولذلك فسياسة السادات ، تسير في اتجاه تفتيت هذه التكتلات التى تمثل خطرها على مسار « ثورة التصحيح » ، لكن هذا لا ينفى أن هذه المرحلة قادرة على خلق « يسار جديد » يساير حركة تحرير الفرد وتطوير المجتمع في ظل حركة اليسار العالمى ..

يقول المفكر والفيلسوف الفرنسى « هنرى لوفافر » في سلسلة مقالاته وحواراته التى كتبها حول أزمة الماركسية الراهنة وانحسار اليسار التقليدى في العالم كعقيدة وفكر :

((لا أحد ينكر من الساسة ، أو حتى الماركسيين ، أنفسهم ، أن الماركسية - اللينينية باتت في أزمة في السنوات الأخيرة . فلم تعد هي طوق النجاة للشباب النائر في اعقاب الستينات ، وحتى داخل الدول الشيوعية نفسها ، أصبحت تجد تناقضات غير قليلة ، وينبغى على الماركسيين ، أو الثوريين ، بشكل عام ، وبالذات الشباب ، في عالمنا ، اليوم ، اعادة النظر في الكثير من قضاياها . ففي المجال السياسى ، يصبح من الهام بمكان توطيد تاريخ الدولة الاشتراكية في فعاليتها الداخلية والخارجية (العسكرية ، والدبلوماسية) ، هذا التاريخ الذى لا يجعل موضوع بحثه صفة الاشتراكية ،

وانما الميزة الثانوية لجهاز الدولة وايدولوجيتها وتدخلها ومبررات الدولة ... ويرافق هذا التحليل ، كذلك ، دراسة نقدية لمساريع الدولة وانجازاتها في الميدان الاقتصادي (التخطيط) ، وفي الحياة الاجتماعية والثقافية (تحويل الثقافة الى شكل من اشكال الوعي السياسي والى ايدولوجية دولة) ، وفي التاريخ (فذلكة وفلسفة التاريخ) ... اما في الفطاع الفلسفى ، فيبدو لنا ان الفكر الماركسى ينبغي له وهو قادر على ذلك ان يجدد ذاته اذا ما لجأ الى علاج تاريخى يعتبر بموجبه ان لكل حكم محتوى واقعى مجسدا . ويبدوا اليسار التقليدى اليوم ، في ازمة ، بسبب ازمة الماركسية على المستوى الفلسفى والمادى فقد غدت نظرية رسمية ، وهذه الازمة لها مظاهرها المختلفة ، التى جعلت التناقضات تظهر واضحة بين الفكر الماركسى كنظرية وفي الممارسة العملية والتطبيق » .

ويستمر لوفافر في عرضه لازمة الفكر اليسارى التقليدى في العالم ، من خلال أزمة الماركسية الراهنة ..

وفي الحقيقة أن مظاهر هذه الأزمة ، تهمنا الى حد كبير ، ما دمنا نتحدث في هذا الفصل عن « أزمة اليسار التقليدى في مصر » ، وخطره على مسار « ثورة التصحيح » في بلادنا .. فاليسار التقليدى المصرى ، جزء لا يتجزأ من اليسار التقليدى العالمى — هذا اليسار ، الذى يستمد فكره ونظريته وبرنامجه واستراتيجيته وتكتيكاته من الماركسية — اللينينية ، وحتى نكون منصفين ، وموضوعيين ، فائنا سنعرض هنا أزمة الفكر الماركسى منذ البداية وكيف وصلت الى ما وصلت اليه من أزمة راهنة ، وحتى يبدو هذا التحليل واضحا ، نرى أنه لا بد أن نبدأ منذ الخطوة الأولى . فحتى نقف على انحسار اليسار التقليدى وأزمته عالميا ومحليا ، ينبغي أن نعرض مصادر فكره وأساسه العقائدية والفكرية ، ونظراته للوجود وللانسان ، وحركته في الطبيعة وتفسيره للتاريخ ومفهوم الثورة والديمقراطية ..

يعتمد اليسار التقليدى العالمى (والمحلى بالتبعية) على عقيدة المادية

الديالكتيكية (الجدلية) (١) والمادية التاريخية ، وهى أيديولوجية قد نمت وامتد تيارها مع الانقلاب الصناعى فى بريطانيا والحركة الثورية فى ألمانيا ، أى مع افكار فردريك انجلز وكارل ماركس ، وامتدت واحتوت اضافات افكار فلاديمير لينين ، وأصبحت تعرف كأيديولوجية بالماركسية - اللينينية ، حتى بعد أن أضيفت اليها أفكار ستالين ، وماوتسى تونج ، وكل المفكرين والمنظرين الشيوعيين . فعلى أثر فلسفة القرن الثامن عشر ، اخذت تنمو الفلسفة الألمانية الحديثة ، وعلى رأسها (هيغل) ، الذى كان وراء احياء الديالكتيك . وقد ولد الفلاسفة الاعريق ، جميعا ، من معطف ديالكتيكي ، وكان أرسطو أوسعهم اطلاعا واهتماما بالجدل فقد حلل القواعد الأساسية للفكر الديالكتيكي .

وفى القرن السابع عشر والثامن عشر ، لم تعد الديالكتيكية تطرح نفسها بشكل علمى من مشاهير الفلسفة من أمثال : ديكارت ، وسبنوزا .. بل كان خلاصة الفلسفة الألمانية الحديثة ، ورأئدها هيغل ، اسنعرض العالم بأكمله ، ولأول مرة وكأنه ظاهرة ما بطبيعته وبتاريخه وبأفكاره ، وبذلك ، رأى العالم كله خاضعا للتحول والتطور الدائم الا أن نظرة (هيغل) ، كانت لها أخطاؤها ، فقد كان مثالى النزعة الى حد كبير

(١) الديالكتيك أو الجدل « يعنى حرفيا فى المعجم الفلسفى والنفسى : مقارنة الحجج بالحجة للوصول الى مقوله فلسفية ، أى التجادل من أجل الوصول الى رؤية ما ، واستخدام الكلمة قديم قدم الفلسفة نفسها ، ففى عند اليونانيين معنى المعايضة أو مقارنة الحجج بالحجة أو تبادل الكلام . ويرى ديوجين اللائرسى ، أن أرسطو كان بغزو اخنراع (الجدل) الى زينون الايلى - تلميذ برمينيس ، فقد كان نموذجاً رائداً فى مجال الجدل . وقد مارس الايونيون والابلون (وسمينهم بهذا تعود الى الجزر الى تعمل نفس الاسم فى الأرخبيل الاغريقى) معرفتهم ومعتقداتهم من خلال مقارنة الحجج بالحجة ، وهذه الحركة الفلسفة ، تعود الى بدء القرن السادس قبل الميلاد ، وإلى نفس العصر ينتهى فيثاغورس عالم الرياضيات ، وكذلك : انكسيمانس ، وطاليس ، وغيرهما . وكذلك الفيلسوف الأيونى (هيراقليطس) الذى قال : « انك لا تنزل النهر الواحد مرتين » ووضع بذلك أول قانون فى الجدلية ، الا وهو عدم الثبات ، نتيجة التغيرات التى تطرأ على المادة . ثم اتخذ الجدل مساراته المختلفة لدى سقراط وافلاطون وأرسطو ، حتى وصل الى الجدل الهيكلى ثم الجدل الماركسى الذى يتركز على الفوائى الأساسية التى تحكم المادية الجدلية - أو الديالكتيكية ، والتى على أساسها تتحدد المفهوم الماركسى للتاريخ وهو ما يعرف بالمادية التاريخية ...

لذلك ليس غريبا أن يردد كارل ماركس : « لقد جئت لأقلب مفهوم هيجل عن الديالكتيك ، فبدلاً من أن أجعله يقف على رأسه ، أقمته على قدميه » ! ونظرته الجديدة هذه مع زميله فردريك انجلز ، عرفت في تاريخ الاقتصاد السياسي بـ (الاشتراكية العلمية) ، لتتميز على ألوان الاشتراكية التي سبقتها ، والتي انضوت تحت مفهوم (الاشتراكية الخيالية) - أو الطوباوية (١) ..

وقد مثلت الماركسية ، منذ البداية حدثاً تاريخياً وقوة اجتماعية . فالاتحاد السوفيتي ، ويوغسلافيا ، يدعيان الانتماء رسمياً الى الماركسية ، وبينهما تباين واضح في الآراء ، أدى الى منازعات والتدهور في العلاقات بين البلدين ؛ وقد دخلت في هذه الدائرة من الصراع منذ سنوات ليست بالبعيدة الصين . ومن منا لم يسمع بالستالينية - أو بالمفهوم الستاليني في الماركسية ، فقد كان جبهة مختلفة في التفسير الماركسي مثله مثل الصين اليوم . فليست الماركسية ، كما ترى ، مجرد فلسفة كلاسيكية ، بل ، هي ، عقيدة فعالة ذات آثار كبيرة ، مزجت بأحداث العالم ، واستأثرت بجزء كبير من حياته اليومية . وقضاياها الراهنة ، قرية المنال ، بحيث تستطيع الانطلاق منها ، فلنرجع الى مؤلفات كارل ماركس وفردريك انجلز وفلاديمير لينين وجوزيف ستالين وماوتسي تونج ، لنعرف الى أي حد سارت الماركسية ، واليسار التقليدي بشكل عام ، وكيف قطعت شوطها كنظرية وكعقيدة ، حتى لا نكون غير منصفين ونحن نعرض أزماتها الراهنة ، وبالتالي نعرض لازمة اليسار التقليدي في بلادنا .. وربما كان أبرز خط يميز اليسار التقليدي ، كنظرية ، وفكر ، واستراتيجية ، هو الطابع السكولستيكي (١) .

(١) والني كان من روادها سان سيجون ، وفوربييه ، وبوماس مور ، وكامبانيللا ، في تصوراتهم لعوالم خيالية نعيها الاشتراكية ، ، وسلاوي بين الناس ، وتحطم الفوارق الطبقة ، وكانت هذه الأفكار التي ظهرت فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع ، لونا من النحصر أو الارهاصات لأفكار الاشتراكية العلمية التي كان وراء إقامتها كارل ماركس وزميله فردريك انجلز (٢) ويقصد به (الاصططمة) ، أو الدورما ، أو القالبسة .. فتاريخ الماركسية لشديد التشابك بالتاريخ الحديث ، بحيث ساعد أشكاله وتناقضه ، وبات بعشره وناقضه وطفوليته يحتاج الى مؤلفات ضخمة !

والفكر اليسارى التقليدى العالمى ، من خلال مجتمعات أوروبا الشرقية ومن خلال العديد من الأحزاب الشيوعية فى الغرب ، يبين أن تناقضاته ، إن تـؤدى الى التمزق داخلى فحسب ، بل يثبت أنه يزداد تماسكا وتتضاعف قواه الاقتصادية والعسكرية ، بحيث يفرض على العالم أوضاعا جديدة كتلك التى يفرضها عتاة الغرب . والحركة الثورية داخل دائرة اليسار التقليدى ، منذ منتصف الخمسينات ، تعاني نوعا من الحيرة والجسود ، وتحاول أن تبحث عن مخرج لها من مأزقها . وتتساءل الجماهير فى حيرة شديدة : أين الطريق ؟ وباتت تساؤلاتهم تقتضى دراسة انتقادية كاملة للمرحلة التاريخية الراهنة . وتلتقى فى تفسير هذا القلق نظريتان : الأولى ترى أن الأزمة الراهنة هى أزمة نمو ، بينما ترى النظرية الأخرى ، أنها أزمة زوال واحتضار ، ولكن لا بد لدعاة النظرية الثانية ، كى يكونوا محققي فى زعمهم أن يؤكدوا أن الماركسية تتغافل عن قضاياها وتناقضاتها الداخلية ، والا فلا دلالة لادعائهم أن الماركسية تعاني تبديلا وتحولا ، أما النظرية الأولى التى تقول بأزمة النمو ، فلا تثبت بمجرد الادعاء ، بل تقتضى تبيان التحدد الذى تعبر اليه الأزمة فى تفاقمها ..

يقول هنرى لوفافر (١) .. ان الفكر البشرى ، عموما مدير للماركسية بمثال جديد (مثال الحرية) المجددة الواقعية ، وقد سلم أعداء الماركسية أنفسهم بعظمة هذا (المثال) ، فهو أكثر عمقا من التحرر الذى حققته الفلاسفة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر وأكثر جذرية من التحرر الذى حققته الفلسفة الألمانية الحديثة (كانت ، هيجل) ، ولكن للماركسية عيوبها التى برزت أكثر وأكثر تناقضاتها مع تطور التاريخ الحضارى للبشر . ويبرز هذه التناقضات . جاكسون (٢) بقوله :

(١) الفيلسوف والمفكر الفرنسى هنرى لوفافر ، فى مناقشته ، فى أزمة الماركسية وأزمة الفلسفة المادية ، فى كتابه : (أزمة الماركسية الراهنة) ، الفصل الأول مطبوعات باريس
(٢) النظر والفكر الانجليزى ت ١٠ . جاكسون فى كتابه : تناقضات الماركسية اللينينية

» من عيوب اليسار التقليدي الذي لا زال يتمسك في عناد بالماركسية اللينينية مجموعة عناصر أساسية تتجلى في :

• أولاً : مفهوم الصراع الطبقي ، لم يعد يتلاءم مع العصر ، والماركسيون يؤكدون ، عموماً ، على ضرورة العمل الثوري المرفق بالفرض والثورة ، أى بصراع الطبقات الذي تقوده العناصر المقهورة والمستغلة (عناصر البروليتاريا والكادحين) ضد عناصر المستغلين (مجتمع البورجوازيين والرأسماليين) والتوصل الى ابراز حقيقة التاريخ الموضوعية ، حقيقة صراع الطبقات هو حل ما يقصده ماركس ولينين ..

لكن هذا الفهم للأسف تغير ، فالعديد من الثورات الديمقراطية والاشتراكية ، قامت بدون التقيد بهذا التفسير ، لمجرد السيطرة على السلطة ، وكثير من البلدان في الدول المستقلة حديثاً ، وحتى الاشتراكية ، تحققت فيها الثورة دون نضج الطبقة العاملة أو دون مشاركتها الأساسية في الثورة وتغير المرحلة . اذن فصراع الطبقات الذي تقدمه الماركسية ، ويتمسك به اليسار التقليدي ، أصبح في حاجة الى اعادة نظر ، وفقاً للتغيرات العصر ..

• ثانياً : تزعم الماركسية أو اليسار التقليدي ، أن الثورة تقوم للقضاء على الطبقات من خلال تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا ، بينما تحول هذه المجموعة التي يمثلها الحزب الشيوعي الى طبقة جديدة ومركز قوى ضخم يتمتع بامتيازات خطيرة ، وتبدو كاستقراطية داخل المجتمع الجديد ، وما حدث داخل الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا ، يقدم العديد من الشواهد والاثباتات على ذلك ..

• ثالثاً : تحولت الماركسية - اللينينية الى نظرية (ميرى) رسمية ، بمعنى أنها أفرطت في استخدام التعسف ، ولم تعط ما كان ينتظر منها عطاؤه . فلم تحتفظ فيها شيء من القسمة خلال النصف قرن الماضي ، باستثناء حالات شاذة (مثل : قصيدة ماركسكو التروبة مثلاً) . أما في المحالات النظرية الفنية ، فهناك فيما يتعلق بالنظرية الاخلاقية العديد من النواقص

فأغلبية اليسار التقليدى ، يتأرجح بين أخلاقيتين : اخلاقية اجتماعية تدعو بفضائل الاخلاص والصدق والتضحية (مقصرة اياها على البروليتاريا — الطبقة العاملة) ، ولا أخلاقية ، سياسية ، تشكل مقتضيات العمل والنضال الأخرى ، كل قيمة بالنسبة لها . وغير معقول أن تقصر القيم على طبقة بذاتها فالفرد هنا ، له قيمة التي تتمثل في تربيته ، وبيئته ، وتكوينه النفسى الخاص ، والا صبغنا اخلاقيات وقيم الناس باسطمبات وقوالب دون النظر الى أصولهم البيولوجية والنفسية والبيئية . !

وفي مجال النظرية الفنية ، ومجال الأخلاقية ، كان بالامكان الاستعانة عن النظرية بالمؤلفات ذات معنى شامل ، تغنى الانسانية الحية غنى أكيدا ، والواقع أن اليسار التقليدى لا يملك أيا منهما ! ونخص بالذكر ، هنا ما لقيته هذه الأفكار في المجال الأدبى عن نظرية (البطل الايجابى) ، وهذا التمجيد من شأنه أن يتعارض ويتناقض مع نظرة الدولة ككل ، فالفرد ليس الا ترس في عجلة الدولة ، ولا عجب في ذلك اذا قدم البطل والمثال الايجابيين خالبيين من تناقض بحيث بدا خالبيين من كل انسانية ، لا تربطهما بحياتنا اليومية أية صلة . وهنا نبلغ ذروة التناقض : فهل الوجود الانسانى الحق في أن يخلو من كل تناقض في نظر اليسار التقليدى ، أم ان هنالك في الواقع تخلق عن الماركسية تحت ستار شبه ماركسى مسوؤه ؟ وأيا كان فلاكيد انها بمقدار ما انتصرت وجسدت في نظم ونظريات رسمية قد أقحلت الماركسية فصارت تجف وتنضب ، فعجزت عن اثارة الأعمال والمؤلفات التي كان في امكانها وحدها احياء رسميتها ..

✽ رابعا : في مجال الخلق والابداع وابرار دور الفرد ، فان اليسار التقليدى ، أو الماركسية — اللينينية ، عموما ، تنكر دوره ، سواء كان عالما أو فنانا ، لأنها تؤمن بجماعية العمل والقيادة ، وهذا انكار لعبقرية الفرد . فاذا لم يكن الفرد يتفاوت في تفكيره ، وخلق وابداعه ، فلماذا لم يظهر لنا التاريخ غير نابليون واحد في فرنسا ، وبيتهوفن واحد في المانيا ، وشكسبير واحد في بريطانيا ، وبيكاسو واحد في فرنسا ، وحتى في الدول الاشتراكية

نفسها ، بمجرد دخولها ضمن الثورة الاشتراكية ، تجد ، وبشكل عام ،
ينحسر تيار الابداع والخلق فيها .

واذا أخذنا الاتحاد السوفيتي ، كنموذج واضح على ذلك ، فهل هناك
من ينكر أننا لم نجد بعد ثورة ١٩٧١ كاتبا روائيا في مستوى دستويفسكي
أو شاعرا مثل بوشكين ، أو موسيقيا مثل تشايكوفسكي وموسورسكي ؟
وهل نعتبر بوليفوى ، أو جونشار ، أو فيرا بانوفا ، في مستوى تشيكوف
وتورجنيف وتولستوى ودستويفسكي ؟ !

✳ خامسا أ هناك التفسيرات المادية في الاطار الفلسفى التى تقول في
نظرية المعرفة ، أن كل شىء مبعته المادة ، وبذلك يتحول الفرد ، أو المجتمع
الى عملية ميكانيكية ، وبذلك ننكر معنويات الفرد والمجتمع .

واذا سلمنا بهذا الفهم ، وعكسناه على حركة الفرد في الطبيعة ، يصبح
الحب مجرد عملية بيولوجية بين جسدين من أجل الانجاب والحفاظ على
النوع ، ويختفى مثال الحب كقيمة وروح ومعنويات وحس .. وكذلك
الحال ، بالنسبة للحلم ، والتصورات الخيالية التى يلغىها اليسار التقليدى
وايديولوجيته الماركسية ..

وهنا نثير سؤالاً هاماً : هل كان من الممكن الوصول الى العلم دون
الحلم ؟

اذا لم يكن ماجلان أو كريستوفر كولمبس أو أمربجو دوفسبتي
قد حلموا بأراضى جديدة ، هل كان في امكانهم اكتشاف قارات جديدة ؟
واذا لم يكن جول فيرن ، و ه . ج . ويلز قد حلموا بالصعود الى القمر ،
والوصول الى الكواكب الأخرى ، هل كان من الممكن أن يتشئ الانسان
على ظهر القمر ؟ !

✳ سادسا : افتقاد الطابع الحسى أو العاطفى أو النفسى ، والغاء كل
العلوم والنظريات القائمة على غير الاقتصاد السياسى والمادى . فكل شىء
في الماركسية يقوم على التفسير المادى ، وبذلك يلغون أفكار علم الاجتماع

ونظريات أوجست كونت ودوركايم ، وكذلك يرفضون التفسير
السيكولوجي للظواهر ولا يؤمنون بنظريات فرويد وأدلر عن التحليل
النفسى ويرفضون كل مدارس علم النفس في تفسير العواطف والمشاعر
والخوافز ، وفي تقدير الماركسيين ، أن الواقع المادى والظروف الاقتصادية
هى الأساس ، ولا يؤمنون أن الظروف النفسية قد تكون وراء تفسير
ظاهرة بذاتها ، ولذلك لا يؤمنون تماما بأفكار كافكا أو سارتر أو كامى ،
أو « المدرسة الجائشملطية » فى تفسير الظواهر والسلوك سيكولوجيا ... !
* سابعاً : النظرة العقائدية ، أو الجمود ، ما يفسر وبميز النظرة
اليسارية التقليدية ، لذلك يقولون فى الأحزاب الشيوعية : « نفذ قرار
الحزب ، ثم ناقش » ، حتى لو كان فى هذا القرار أن تحرق البلد على
طريقة نبرون أو تغرق نصف المواطنين فى بركة من الدماء . وهكذا ، كان
قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، عندما صدر الى كل المناطق
والأقسام والخلايا التابعة للحزب بتنفيذ توجيهات ما عرف بـ (الثورة
الثقافية) ، وما تلاها من تحقيق شتى ألوان الإبادة والقهر والقتل . والاعدام
والحرق ! وهذه النظرة تمثل نوعاً من الجمود ، والعتة ، لا تتفق مع منطق التطور
الحضارى للبشرية ! وهذه النظرة ، تسحب من الفرد حريته الشخصية ،
وبالتالى تسحب منه وجوده وحقه الديمقراطى فى أن يناقش ، أو يعترض ،
وما فائدة أن تعترض بعد ما تتم المأساة ، ما فائدة أن تقول رأيك بعد أن
تتحرق مدينة بكاملها ؟

وفى الحقيقة ان كل أو معظم أشكال العقيدة قد تخطاها الفكر المتحضر ،
كالحتمية الاقتصادية مثلاً التى ترجع الحياة الانسانية والوجود البشرى الى
تأثير التركيب المادى أو الاقتصادى للمجتمع ، وقد انتشرت هذه العقيدة أو
هذه النظرة المتزمتة فى صفوف اليساريين ، وساهمت الى حد كبير فى نشر
الماركسية .

فالواقع الاقتصادى والمعطيات المادية ، تشكلان الأساس والمعطيات
العملية والحدود الواقعية لكل عمل انسانى فردياً كان أم جماعياً . والقول

بهذا في الحقيقة ، أصبح لا يتمشى مع منطق التطور الذى حدث في العلوم الاجتماعية والانسانية ، انه فهم قاصر يقف بفكرنا الحضارى عند عقيدة قد انتشرت منذ أكثر من قرن من الزمان . وربما كان ستالين ، ثم ماوتسى تونج قصة هذه العقيدة في تاريخ اليسار التقليدى الحديث !

✽ ثامنا : نظرة اليسار التقليدى الى المادية التاريخية ، أو الى الأزمان الدورية في تاريخ المجتمعات .. فالماركسية تنبأت علميا نظرا للمعطيات الاقتصادية في أيامها عن أزمة اقتصادية تنجم عن الفيض أو تراكم رأس المال في الانتاج الرأسمالى والامساك الجبرى عن الاستهلاك عند الطبقات الكادحة ، وتتكرر هذه الأزمة مرة كل عشر سنوات (وكانت أزمة ١٩٢٩ أزمة واضحة لذلك) واتخذ الماركسيون ، من تلك (الأزمة) نبوءة لهم عن دورات النظام الامبريالى ، أو الرأسمالية في أعلى مراحلها الاحتكارية .

وعلى أساس هذا الفهم يحددون ، أن بداية تاريخ البشرية منشأه « المشاع البدائى » ثم مرحلة « المجتمع العبودى » ، ثم « الاقطاعية » ، ثم « الرأسمالية » ، التى خلالها لا بد أن تقوى البروليتاريا لتقلب النظام الرأسمالى ، وتحقق ديكتاتورية البروليتاريا النظام لصالح الشيوعية . مثل هذا النظام المتسق الجامد ، قد أصبح لا يتفق مع مفهوم الدولة والثورة ، ولم يعد هذا (النظام) ، أيضا متمشيا مع منطق التطور الحضارى للتكنولوجيا المعاصرة والذى لم يره منظرو الفكر اليسارى الأوائل من أمثال انجلز وماركس ولينين ! » .

ويلتقى مع جاكسون ، العديد من فكرى « اليسار الجديد » أو « الليبراليون » ، أو الذين ينظرون بحيدة كاملة لأزمة الانسان المعاصر ، وفى ظل المتغيرات الجديدة . يقول هيربرت ماركوزا :

« لم يعد المجتمع عبدا لنظرية كلاسيكية ، او عقيدة جامدة ، تشله ، وتربطه بمنطق عفى عليه الدهر ، او تخضعه لنظرية ابستمولوجيا - او معرفة مهترئة . ان الانسانية تفتنى ، فكرا ، وحضارة ، وعلماء ، فى كل لحظة ، وعليها ان نحتصن ونحتوى كل هذه الثمار ، اذا ما اردنا ان نتقدم .

فالنخسوع الى (تمانيل قديمة) من النظريات والافكار ،
اشبه بالوثنية ، لا بعيد ، بل يدمر ، والغريب ان الكثيرين
من الشباب ، مازالوا مشدودين الى نظريات جامدة نابعة
عن اليسار التقليدى الذى عاش ظروفًا مغايرة ومنساخا
مخالفا لحضارتنا ، وفكرنا ، وملابسنا عصرنا ! » .

ف (لينين) ، مثلا لم ير أى انفجار ذرى ، وكذلك لم ير التلفزيون
ولم ير مستحدثات العصر فى العلم والتكنولوجيا ، والا لغير رأيه .
فبروليتاريا اليوم ، فى أمريكا وأوربا ، غير تلك البروليتاريا التى تحدث عنها
مكسيم جوركى فى (أسرة آرتاموف) ، أو (الأم) فى سنوات ما قبل
ثورة ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا ، وبروليتاريا اليوم ، أيضا ، غير
بروليتاريا ١٩٢٩ و ١٩٣٧ التى تحدث عنها جون شتاينيك فى رواياته :
(عنائيد الغضب) ، و (فى معركة غاضبة) ، و (تورتيلا فلات) . ان
بروليتاريا اليوم فى فرنسا ، متقدمة الى أبعد الحدود فكرا وتكنيكا ، بل
وفى أجورها أيضا ، لدرجة ان أساتذة الجامعات فى باريس يرفعون عقيدتهم
ويطالبون بمساواتهم بالأجور التى يتقاضاها العمال الفرنسيين !

لا بد أن يتغير فكر اليسار التقليدى ، مع دخول العالم (الثورة
الصناعية الثالثة) (١) ، عصر التكنولوجيا ، وعصر الصعود الى الكواكب
الأخرى ، وعصر الالكترونيات . وفى الحقيقة ، ولا أبالغ فى هذا ، أن كارل
ماركس لو عاد من جديد وكتب رسائله الاقتصادية ، ورأس المال ، لغير من
أفكاره عن مفهوم الثورة واستراتيجية وتكتيكات البروليتاريا ، وكذلك
الحال لو عاد لينين ، لغير مفهومه عن الدولة والثورة وعن طبيعة البروليتاريا
وبذلك يصبح كل من ماركس ولينين من (الخوارج) ، على اعتبار انهما
ارتدا على الأفكار التى صيغت من خلالها النظرية الكلاسيكية ، ومن يعلم
ربما لو عادا وغيرا من أفكارهما ومعتقداتهما وأضافا الى الماركسية —

(١) كانت الثورة الصناعية الأولى فى عالم البشرية هى (ثورة السفار) فى القرن الثامن
عشر ، وكانت الثورة الثانية هى (ثورة الكهرباء) فى أواخر القرن التاسع عشر ، أما الثورة
الثالثة ، فهى ثورة التكنولوجيا فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ونعتمد على
الالكترونيات والكمبيوتر ...

اللينينية الجديد ، لاعتبرا من المرتدين ، ولحكم عليهما بالسجن ، ومن يدرى
ربما تعرضا لرصاص ماوتسى تونج أو الاعداد فى احدى الدول الشرقية
التي تطبق العقيدة الماركسية من خلال مفهوم كلاسيكى لا يقبل النقاش أو
الجدل . أو تدرى ربما قالوا عنهما : ان كارل ماركس هذا مدعى ، وغير
أصيل ، أما لينين فمرتد ، و (يراجع) فى النظرية ، ولم هذا كله ، ألا يعلمان
ان للعقيدة الماركسية احترامها ، حتى لو تغير العصر ، وتغيرت الظروف
المادية والاجتماعية ! !

ان هذا المنطق جامد كل الجمود ، ويصل بالمعرفة الى قمة الشلل ، لأنه
يقف بالمقولات الفلسفية وبالمعطيات الأيديولوجية عند مرحلة معينة ،
ويدخلها فى اطار دائرة الزمن غير القابلة للتغير وفقا لتغيرات العصر
وملابساته !

ان أفكارنا ، ان لم تتغير ، وتعتنى ، وتزداد ثراء ، وفقا لمتطلبات العصر
لأصبحت قديمة عاتية ، ولشاخت وأصبحت غير قابلة للتطبيق ..

وهذا ما نود أن نقوله ليسار التقليدى ، اليوم ، فى بلادنا . ان ما يقوله
(روجيه جارودى) ، و (هنرى لوفافر) ، و (هربرت ماركوزا) و (رودى
دوتشيك) ، ليسار التقليدى فى العالم ، بعد انحسار الماركسية التقليدية ،
نقوله نحن هنا ليسار التقليدى فى مصر ، ونقوله ، ونؤكدده ، لا للهجوم أو
للعداء ، بل نقوله « باخلاص من منطلق الحرص على « ثورة التصحيح »
وأفكارها ومبادئها وقيمها ، ومن منطلق الحرص على كوادرو رجال من
الممكن أن يشاركوا بدورهم الفعال ان هم غيروا أساليبهم وأفكارهم
ومناهجهم وفقا لمتطلبات العصر ومنطلق المتغيرات العصرية ، بما يتماشى مع
السبعينات ، وأفكار وانطلاقات العصر الى الأكمال والأرجح فكرا وعملا
ونضالا ..

وتحضرني هنا كلمات « رودى دوتشيك » رائد الاشتراكية
الديمقراطية فى ألمانيا الديمقراطية الذى يقول :

« ان الاصرار على التماهى فى اليسارية المدرسية أو الكلاسيكية ، ليس ضرباً من الهوس العقائدى فحسب ، بقدرما هو منطق متخلف حضارى ، يعود بالانسان الى أجيال مضت ومضت ، فهو ينكر كل التقدم الذى حققته البشرية فى السنوات الأخيرة فى عالم الاختراعات والعلم والفن والفلسفات الانسانية والاجتماعية » .

وهذا المنطق من جانب اليسار التقليدى ، ينكر ما حدث من تغيرات حضارية وتكنولوجية فى اطار الثورة الصناعية الثالثة - هذه الثورة التى تقوم على (الكمبيوتر) ، واستخدام الطاقة الالكترونية ، فالمصنع الالكترونى الحديث ينتج فى الدقيقة الواحدة ما كان ينتجه المصنع الذى يدار بالكهرباء أو بالوسائل الميكانيكية فى يوم أو يومين أو ثلاثه أيام ، فلو تصورنا أحد الكتاب أو المفكرين أو المنظرين المحدثين من معتقى أفكار اليسار التقليدى سيستشهدون بأفكار وأقوال لينين فى مشكلة ناتجة عن « الثورة الصناعية الثالثة » ، هذا المفكر أو الفيلسوف ، الذى لم يرق حياته كوميونترز أو مصنعا يدار بالالكترون ، ولم يشهد حتى التلفزيون لغدت المشكلة مضحكة ، وربما لو عرض عليه أحد رجال حزبه عصر الذرة أو الالكترون ، لاعتبره معاديا للماركسية ومريدا ، ولأمر ستالين اذا سمعه يردد ذلك بنفيه فى جزيرة سخالين أو سيبيريا !

وفى نهاية هذا الفصل عن « اليسار التقليدى » عالميا ، ومحليا ، أقول أن اليسار التقليدى المصرى ، يخضع لنفس الظروف والأحوال التى عرضناها لا بد أن يغير من وجهات نظره ، ولا بد أن يستعيد نفسه ليشارك فى « ثورة التصحيح » بشكل فعال ، ودونما اللجوء الى سياسة « مراكز القوى » ، أو « الاحتواء » أو « ركوب الموجة » ، التى هى من سمات استراتيجية وتكتيك اليسار التقليدى فى هذه المرحلة . ولعل ما يدفعنى الى هذا ، هو الاحساس بأننا قد تغيرنا بعد ١٥ مايو ١٩٧١ ، وبعد عبور أكتوبر ١٩٧٣ وبعد ما حدث من انتصارات داخل الجبهة الداخلية والتحرك على المستوى

القومى والعالمى .. فأفكار اليسار التقليدى ونظرياته وبرامه
استقطبها ثورة يوليو ١٩٥٢ ، مثلما تجاوزتها « ثورة التصحيح
وآفاق أكثر شأوا فى مجال المكاسب القومية والوطنية والشعبية
لا بد أن يغير اليسار التقليدى من استراتيجيته وتكتيكه لا ليحت
القوى ، بقدر ما تحويه موجات « ثورة التصحيح الجديدة » ،
الولاء للفرد هو المطلوب أو « لمنطقة النفوذ » هو المطلوب ، بقدر
مطلوب الولاء لقيم ومبادئ وأفكار « ثورة التصحيح » نفسها ،
تتسع لزراع ألف زهرة ، مثما تتسع لغرس الجديد من النبت ، ليعم
من الحصاد الذى نحتاجه بعد سنوات طويلة من المرارة عاشتها أه
منها كل شريف ومناضل . ما دام الهدف واحد ، وما دام الطريق و
ننزلق يمينا أو يسارا ؟ لماذا لا تتحرك فى صف واحد ، ولنغى
وصغائرنا ونبدأ من جديد ، لنشارك فى بناء صرح هذا الوطن
الكثير ، وكان ذلك سببا فى شقائنا وحسرتنا وجراحنا وآلامنا . أد
الذى أكلناه ، والحصرم الذى ضررنا ، لا ينبغي أن يتذوقه أبناء
أن نجنبهم هذا ، حتى يجدوا الفرصة سانحة لمصر ، فبينوا ما لم يت
فى الماضى وقيموا كل ما كان غير ممكن فى المستقبل ، ولتكن مباد
هداية ومناورا ونورا على طريق التقدم والرخاء ، لكل الاتجاهات مهم
ولتكن شعلة تجمع كل أبناء الوطن المخلصين فى صف واحد : د
الشعب القادرة على الغاء تناقضاتها ، من أجل ما فيه كل الخير لأمتنا
التي أعطت لنا الكثير ، والتي لا بد أن نعوضها عما فاتها من فرص
بالركب وبالعصر ، ولتشارك فى بناء الدولة الجديدة : دولة العلم و
التي لا تنزلق يسارا ، ولا تنحرف يمينا ، انما يكون هديها مباد
١٩٧١ العظيمة ، النابعة من أرض مصر الأصيلة ..

الفصل السابع

السادات: مفكرًا، وقائدًا، ومعلمًا ثوريًا

((لماذا الحقد والفرقة والتشتت ؟ لن نستطيع ان نبني
بالحقد ، أبدا ... دعونا نضرب كل هذا ، ونعود لجوهر
عقيدتنا : للحب ، والصفاء ، والاخوة ، والقوة التي تتولد
بالايمان وبالشباب وباليقين ... دعونا ، نعود الى جوهر
رسالتنا ... الايمان هو ما وقر في القلب ، الايمان اخوة
محبة ، يقين ، غيرة على قيمنا ، وعلى حياتنا ، وارضنا ،
ابضا ...))

انور السادات

كان من الصعب ، أن يبنى مجتمع يحطم اطار التخلف ، لكي يدخل في مرحلة النماء ، مصنعا .. فانه من الصعب ألف مرة بناء الانسان . فالتكوين البشرى عملية معقدة للغاية ، تتدخل فيها عوامل عديدة ، وعناصر مختلفة متنوعة .. وهذا

إذا

التكوين يتطلب وقتا طويلا لتغييره . لكن ، في نفس الوقت ، اذا كان بناء مصنع أمرا هاما في مجتمع يحطم أطره التقليدية ، ياحثا عن الصورة التي يرضاها طموحه ، فان بناء الانسان - داخل هذا المجتمع - أكثر أهميته ألف مرة ..

ومن هنا ، كانت المشقة التي تقايلها (ثورة التصحيح) ، ومن هما كانت المرحلة التي أعقبت انتصارات أكتوبر ٧٣ : كيف يمكن بناء الانسان المصري وصياغة قيمه من جديد ، بعد تعرضه لمختلف التصدعات ، ولسنوات ، وكيف يمكن مداولته فكريا وعاطفيا وحسيا ومعنويا ، حتى يقوم من جديد ليشارك في كل مستحدثات تمر ببلاده ، وكيف يمكن اشراك هذا الانسان في كل ايجابيات ومتطلبات المرحلة الراهنة ، لبناء المجتمع العصري الحديث القائم على العلم والايمان .

والنظرة الأولى ، تقول : انه كان من أهدافنا الثورية ، بناء الانسان مع بناء المصنع ، بناء الانسان مع تأكيد ضرورات المعركة .. فقد أدركت القيادة الثورية ، وعلى رأسها البطل : أنور السادات .. ان الانسان هو القوى الصانعة ، وانه القوى المستفيدة ، وأنه القوى المحركة .. واذا كان أحد المفكرين ، قال عن الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، انه قد صنعها المفكرون ، ونفذها الشجعان ، وكسب ثمارها الجبناء ، كما قلت ، من قبل ، وكما قال فولتير ، فانه كان من الضروري الانتباه ، جيدا ، حتى لا يكسب ثمار « ثورة التصحيح » الا الجماهير العريضة من أبناء شعبنا العظيم ..

كان من الهام بناء الفكر الثورى ، كله ، على قيم روحية وانسانية ، تستند ، أساسا ، على ما يؤمن به شعبنا من قيم وأفكار انسانية واقعية ، تغلفها الأفكار الانسانية عامة ، بغض النظر عن الرافد الفكرى الذى جاء بها أو منها . ومع كل هذه الدفعات الثورية ، كانت تولد ، داخلنا ، أشياء ، جديدة وجدت مع الزمن الأرض التى تقف عليها ..

الانسان العربى ، أخذ يحس بالعزة والكرامة نتيجة النجاح ، لا نتيجة التحدى . الفردى ، نتيجة لما حدث فى أعقاب ثورة التصحيح . وحرب أكتوبر العظيم .. وبدأت هذه القيم تتحقق من خلال معارك التحدى الجماعية .. ولحسن الحظ ، اننا قد وفرنا الكثير فى ثورتنا الفكرية والمادية . فقد التقينا بالنجاح أسرع وأحسم مما كان يتوقع ، حتى أتمد المراقبين تفاؤلا . أكدوا هذا ، وكتب أحد المراقبين السياسيين اللندنيين فى أوائل أكتوبر ١٩٧٠ - أى بعد وفاة جمال عبد الناصر بأسبوع واحد يقول :

« ان مشكلة مصر ، هى النموذج ، المثال ، فقد سقط ، هذا المثال ، ولن تقوم قائمة لمصر ، أو للعرب ، الا بعد سنوات طويلة .. فلقد كانت شخصيه جمال عبد الناصر ، كقائد ، وزعيم للامة العربية ، شخصية قوية ، وقد مات فى ظروف صعبة ، ومن الممكن بفقدانه أن تصاب الأمة بانكسار أكبر ، وتصدع أعظم » ..

ومثل هذا الكلام ، أو قريب منه ، تردد فى العواصم العربية ، بل وأيضا ، فى القاهرة ..

وامام كل ذلك التزم أنور السادات (الصمت) ، ولم يزججه أو يثيره نتيجة الاستفتاء فالبعض قال : (نعم) ، والبعض قال : (لا) ، وهذا جعله يحس ببرد الراحة فإذا كان ٩٠ أو ٩٤ فى المائة قد قالوا (نعم) ، ومجموعة قالت : (لا) ، فهذا يعنى ان الناس يحسون بالأمان ، ويتطلعون الى مناخ صحى أعق ، يضمن لهم الاستقرار والتحرك والعمل من أجل مصر .. ومثلما يتسلم القائد فى الحرب السلاح من زميله ، تسلمه السادات ، فى حزن وأمل ، معا ، فى حزن لأنه فقد زميلا رافق عمره سنوات وسنوات ، ولديه الأمل ،

كل الأمل في أن يستعيد هذا الشعب نفسه وقوته في أقل وقت ، فداخله كنوز عظيمة ، عليه أن يفش عنها ، حتى يسابق الزمن . ان هذا الشعب ، يقف على مضاربه عمرها سبعة آلاف سنة ، فلا يمكن لشعب أن يمتلك مقدرات هذه الكنوز والذرة ، ويأس ، أو تستمر (كبوته) طويلا .. بل انه قادر على الخروج من (الأزمة) ، وقادر على ان يعبر (الهزيمة) ، لينبى ، ويبنى ، ويشارك مع كل الأمم في حضارة العصر . ومنذ اللحظة الأولى ، ألحس السادات بمنعوليته ، لا كمناضل سياسى فحسب ، ولا كقائد محنك ، بل كأب ورب لهذا (البيت) الكبير ، عليه أن يعمل كل ما في وسعه ليلتئم (الجرح) ، ويسير بهذا الوطن ، وبالمنطقة العربية كلها الى ما فيه خير الأمانى والآمال .. ولم يتعجل ، ولم يتصرف في انفعال ، بل أخذ يرقب الأمور ، ويرصد الواقع بمختلف أبعاده ، بعين الفكر والقائد ، وبتجربة المناضل الثورى العميقة ، نابذا كل ما من شأنه ، أن يقود الى متاهات وضبايات ، فهو ليس انسانا تجريبيا ، انه يؤمن بالعقلانية وبالفلسفة العملية ، بحكم قراءاته ودراساته ، وبحكم احتكاكه المباشر بالجمهير كثرى ومناضل ، وبحكم انتمائه للقرية التى يحملها داخله أينما ذهب وأينما حل ..

في خطابه بعد وفاة عبد الناصر ، بأقل من عشرة ايام ، قال للجمهير في ٧ أكتوبر ١٩٧٠ :

« ان الأيام الماضية في حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن هذه الأمة الخالدة ، استطاعت بصمودها الفذ أن تحول مشاعر حزنها العظيم الى ملأمة قوة عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت ، بأسرع مما قدر أحد ، وقررت ، وصممت ، وحسمت » .

وفي ٦ نوفمبر ١٩٧٠ ، تحدث الى الجماهير ، في ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر ، فقال :

« بدأت الحركة الايجابية ، بما فيها من امكانية الصواب والخطأ ، بما تحمله من قدرة العقل ، أو حدة العاطفة ، بما يدفعها من رؤى المستقبل أو

بما يشدها من رواهب الماضي . ذلك هو صراع الحياة الذى لا نستطيع
 - مهما تمنينا أن ننسى اعتباراه وأحكامه وضروراته مهما كان بعضها ثقيلًا
 علينا ونحن نعيش فيه ونعانى تفاصيله بينما هى تجرى أمامنا .. »
 ومن خلال تكوينه البيئى ، والفكرى والنضالى .. ومن خلال ثقافته ،
 وفكره ، وفلسفته للواقع .. كانت سياسته العملية ..
 كانت استراتيجيته ، وتكتيكاته السياسية ..
 وكانت تحركاته فى الممارسة العملية .. فى ذهنه نظريات واضحة ، من
 خلالها ينبعث منهجه العلمى الواضح ، وعلى ضوءه يضع الاستقرارات
 والاحتمالات ويحسب حساباته ، بدقة ، وفى حكمة ثم يتحرك على أرض
 الواقع ..

ومن هذا المنطلق تحرك السادات ، وسار بمصر ، والعرب ، من نصر
 الى نصر ، ومن مكاسب الى مكاسب ، طوال السنوات الخمس الأخيرة .
 وانطلق من موقع الانسان المصرى البسيط ، الذى يريد الخير لوطنه ، ومن
 احساسه بالفعل ورد الفعل ، ومن دراسته لبنية المجتمع المصرى وواقعه ،
 عرف كافة المعوقات التى تفف فى وجهه وتشله عن التقدم ، وآمن انه لا تقدم
 الا من خلال وضوح كامل للطريق ، ولا يكون الطريق آمنا ، وخلال من
 يتربص بالسائرين ، لذلك « صحيح » الأوضاع . ضرب مراكز القوى فى ١٥
 مايو ١٩٧١ ، من خلال ثورة التصحيح واعاد لمصر حرياتنا وديمقراطيتها
 المفتقدة ، وأعاد بناء الجبهة الداخلية ، على أساس سليم ، لأنه آمن دائما
 « انه ما دامت القاعدة الجماهيرية سليمة فكل شئ ممكن ، ولا مجال أمام
 الجماهير فى سعيها الى الحركة » . وبذل جهدا عظيما ، فى إعادة المناخ الصحى
 الى الجبهة الداخلية ، ونفس الجهد بذله ، وهو يسعى الى توحيد الصف
 العربى ، ويجمع العرب كلهم حول أهداف المعركة ، ثم قاد مصر والعرب ،
 بعد أن آمن كل شئ الى معركة التحرير فى حرب السادس من أكتوبر ٧٣ ،
 وكان له ما أراد ، تحققت المهام القتالية ، وتحطمت أسطورة التفوق
 الاسرائيلى ، وانسحب الاسرائيليون بعد فك الاشتباك ، وفتحت « قناة

البسويس « بعد اغلاقها لمدة ثمان سنوات ، وقاد التحرك العربي من جديد ،
ليبعد كل العدة ، قبل أن يذهب العرب الى مؤتمر جنيف ، لاستكمال حلول
القضية العربية وحل تناقضاتها في جوهرها .

ومن يتابع السادات ، طوال الخمس سنوات الماضية ، من خلال أفكاره
ونظرياته ، فكريا وعمليا ، على المستوى السياسى والعقائدى والايديولوجى
أو على المستوى العسكرى والمادى ، يحس انه أمام شخصية فذة ، فل
ما يوجد بها الزمان

فمن المحال ، بل من الصعب ، أن تحدث كل هذه الانتصارات وكل
هذه التغييرات ، في مصر وفي المنطقة العربية ، ومن خلال هذه السنوات
الوجيزة .

ودراسة السادات ، من خلال هذه المرحلة للاقتراب من جوهر فكره ،
يشبني أن تكون دراسة دقيقة ، موضوعية ، فهو ليس مجرد بطل قومى ،
بل مؤتمتصل ثورى ، أو مفكر ثورى ، أو زعيم سياسى ..

انه الى جانب كل هذه الصفات ، يبرز كبطل للمرحلة ، أنجبه أنبل
وأعظم ما فى شعبنا وأمتنا من خصال وصفات وقسمات ..

ابتداء من عام ١٩٧٠ ، أخذ العالم ، يتابع ، فى دهشة ، ما يحدث فى
مصر ، وفى المنطقة العربية ، وبدأ مع تتابع السنوات ، يتكشف ان شيئاً
ما جديداً ظهر على الأرض العربية ، خاصة بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، هذا الشيء
الجديد ، هو :

البطل .. محمد أنور السادات ، الذى تلتف حوله الجماهير ، وتحقق
أيمانها ومطامحها وأحلامها ..

ولطالما بحثت الجماهير عن هذا (البطل) - أو فارس الأمل ..

فمنذ ١٩٦٧ ، والجماهير ، قد أصيبت بخيبة أمل فى احلامها ، وتخشرت
مطامحها ، بعد هزيمة حرب الأيام الستة فى (٥ يونيو) .. وعندما ظهر
(البطل) - أو فارس الأمل ، لم تره الجماهير ، من فرط الضبابية والدخان

الذى كان يلف المنطقة ، امتدادا لظروف ١٩٦٧ ولم تحس به تماما ، الا مع استمرار المسيرة ، عندما احتكت به ، واحتك بها ، عندما التحمت اماله بامالها ، فقد كان بوعيه الخلاق يعرف ويحس بمتطلبات المرحلة وضرورتها ، لأنه تعبير وتجسيد حتى لكل أحلام ومطامح المرحلة وهى تعانى الماراة التى خلفتها السنوات التى أعقبت ٥ يونيو ٦٧ ..

وعندما نقول « بطل المرحلة » ، فلا تقصد البطولة المجردة ، أو البطولة الجوفاء ، بل نعنى هذه البطولة التى اقترنت فى الممارسة بين الفكر والعمل ، بين ارادة الجماهير ومتطلبات الظروف وايدولوجية الثورة الديمقراطية فى تطورها وفى سعيها الى آفاق رحبة .. وهذا يجعلنا نعود ، لتحدث عن سمات وقسمات السادات ، ومميزاته .. كمفكر صاحب نظرية ومنهج فى التطبيق ، وكمناضل ثورى لديه كل الاصرار والارادة ، لإنجاز ما يهدف اليه ، وكبطل للمرحلة عبر بمصر والعرب الهزيمة الى آفاق جديدة — كانت الانفتاحة الكبرى على العالم ، فكريا ، وماديا ، وكمعلم له أفكاره فى الحرية والديمقراطية ، وكانسان له مواقفه المتسقة مع جوهر فكره وسلوكه اليومي .

✽ منذ البداية تساءل أنور السادات :

— ما هى السياسة ؟ ما معنى أن يرتبط الإنسان بعالم السياسة ؟

وهذا السؤال راوده ، أكثر من مرة ، وألح عليه ، واهتدى الى الاجابة :

« السياسة ... هل هى علم يدرس مثل الميكانيكا ، أو مثل الطب والكهرباء ، فينبغ فيها الأذكىاء ، ويتبحر فيها ذوو المواهب ، ويمارسها أصحاب الكفاءات ويعرف أسرارها خريجو المعاهد التى تدرس فيها السياسة كما يدرس الطب والكهرباء ؟ ولكى نناقش المسألة ، ببساطة أكثر ، أقول : هل السياسة مهنة أو حرفة يمارسها المرء ، مثما يمارس أى عمل آخر تخصص فيه وفهم قواعده ؟ اذا قال لك أحدهم ، أن فلانا بهذا سياسيا ذاهية ، والمعنى لايشق له غبار ،

فلا تستمع على الإطلاق لهذا الكلام ، لأن السياسة ليست
حرفة انسان ويصبح عالما بخباياها ، بينما يفشل آخر !
صحيح ، انه توجد في كل بلاد الدنيا معاهد تدرس فيها
السياسة وعلوم السياسة ، ولكن تلك المعاهد لا يتخرج منها
ساسة على الإطلاق . بل يتخرج منها موظفون يحدد لهم
العمل الذي يقومون به ، ويظل عملهم ثابتا لا يتغير ، بينما
العالم من حولهم يدبر شئونه ويغير من نظمه ، فمن هم
الساسة الحقيقيون ؟ انهم الشعب ! فالسياسة هي الحاجة ،
والشعور بالحاجة ، هو الذي يدفع المرء الى الكفاح من اجل
حاجاته .. هنا تصبح المسألة سياسية » .

فالسياسي ، ليس هو الذي يتقن نظريات أرسطو وهوبز وديكارت
ولوك وماركس وانجلز ولينين وتشرشل وكليمنصو وديجول وماوتسى تونج
ونهر ، في السياسة ، انما هو « الرجل الذي يسعى لتلبية متطلبات الواقع
متطلبات المرحلة » .. حينئذ لا يكون مفهوم السياسة حرفة ، أو وسيلة
لـ « كرسى السلطة » ، ولا تكون هي « قنطرة ميكافيللى » ، الذى يحمل
أميره « لورنزو دى مدسيس » وصاياه الكبرى ليكون سياسيا عظيما ،
فالحاياة لديه تبرر الوسيلة مهما كانت حتى ولو كانت السم الزعافى فى كأس
نبيذ أو الخنجر فى عباءة مطهرة فى مسجد أو كنيسة ، المهم (الغرض) .
ان السادات ، يرفض ، أن تتحول السياسة الى حرفة ، أو (مزائدة) أو
(مغالاة) ، لأن هذا يقربها من (سوق الدلائل) أو (النخاسة) ، ويسقط
عنها أهدافها النبيلة السامية .. والسياسة ، ليست متاجرة ، وليست كهانة
فكم من رجال فى العواصم العربية ، يتاجرون اليوم باسم (السياسة) ، وكم
من كتّاب (يدللون) و (يبيعون) ، باسم السياسة : السياسة ، تفرضها
ضروقات الواقع ، وما لم ترتبط بهدف نبيل ، وبحركة الجماهير فى تقدمها
وفى محاولة الوصول بها الى آفاق عظيمة ، تنقلها من مرحلة الى مرحلة
أكثر كمالا .. لما أصبحت السياسة سياسة ..

المنطق التجريبي ، الذى يعتمد على مجريات الأحداث اليومية ،
ولا يضع إستراتيجية مرحلية للواقع ، ولا يخضع لمعطيات علمية وعملية ،

لا يوصل الى نتائج سليمة . وهذا ينطبق على النظرة الى الاقتصاد والتنمية
مثلا ينطبق على مشكلات الحرب والسلام ، مثلاً ينطبق على أبسط علاقات
الأفراد في حياتهم اليومية في محيط الأسرة والعمل والحياة .. فأسرة
لا تخطط علمياً لمستقبلها ، لا تؤمن حياتها .. وأمة لا تضع خطة علمية لها ،
لا تستطيع النهوض أو التقدم ومسايرة ركب الأمم المتقدمة .. وربما كان
من سليات الماضي خضوع مصر للمنطق التجزيى ، الذى أوصلها الى
منزلق صعب ، بل أوصلها الى ظروف ١٩٦٧ .. والثورة نفسها ، ان لم يكن
لها استراتيجية واضحة ، ومخطط علمى جلى ، ينطلق من نظرية أو عقيدة
ثورية لها أسسها وركائزها الموضوعية ، لما أتت ثمارها ولما سارت الى
منجزاتها المنشودة ، ويتجلى هذا المنطق فى الكثير من تصريحات وكلمات
القائد والمعلم أنور السادات :

« من المحتمل ان تكون هناك استراتيجيات متعددة في
مواجهتنا للعدو ، ولكننا نرى ان من الضروري والحتمى ان
تكون هذه الاستراتيجيات المتعددة كلها صادرة ونابعة من
استراتيجية واحدة عظمى ، تكفل تحقيق الارادة العربية ،
ويتحتم على العقل العربى الثورى ، ان يحدد المراحل اللازمة ،
للتحقيق المستمر والترابط بين الاستراتيجيات المتعددة ،
وبين الاستراتيجية العربية الواحدة العظمى ، وهذا التجدى
الذى نواجهه الآن .. »

والسادات يؤكد فى أكثر من مناسبة .. ان الصمود الفكرى ، الذى
يعتمد على المنهج العلمى ، من أهم الأسلحة الفكرية التى لا بد أن تتخذ
للوصول الى كل غايات مصر والأمة العربية :

« فهذا السلاح ، يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس ، وهذا التسليح
لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار » .

وهو يدين الجمود ، والعقيدة ، والتزمتم الفكرى :

« ان الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتخبر ، وهو الذى
يصاحبه الخروج عن منطق العصر ، ومن يخنق نفسه ، أن يقتل قاعدته »

جامدا والعالم ، يهول الى الامام ، هو في الواقع ، يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها وخدمة شعبه وأمتة من خلالها ، ولكننى أقول ، مع ذلك ، انا ونحن في عصر حافل بالتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية ، فأنا رغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا ، الا أنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند اليه الصمود الفكرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت في هذا الجسد أطرافه وأينما سارت به قدماه ..

والنظرة العقلانية - أو النظرة العلمية ، هى أساس فكر السادات ، فهو ضد الانفعالية ، وضد العاطفية ، ولا يقبل بالمثاليات والقدريات والمغامرات أو المهارات التى لا تقود الا الى الهاوية ، وأى صراع فى تقديره لا ينجح إلا اذا كان متفهما لطبيعة التناقضات من أجل حله لصالح المسار الثورى ..

✽ والنظرة العلمية ، أو الفكر العلمى ، يمثل الركيزة الأساسية فى فكر السادات ، فهو ليس منقادا الى عقيدة شرقية أو غربية ..

فهو يرفض أن يختوى الفكر المصرى الأصيل أى نظرية مستوردة ، أو (معلبة) .. فحضارة السبعينات ، وحضارة الغد ، امتداد أصيل للحضارة المصرية نفسها ، ولا بد أن يمتد الفكر المصرى الأصيل النابع من أرض مصر وتراثها ، فالشعب الذى يتحرك على أرض حضارية عمرها سبعة آلاف سنة ، لا يمكن أن يستورد نظرياته من موسكو أو واشنطن ، وانما هذا لا يعنى ان مصر ترفض أى فكر خلاق ، انها تحيا كل تجارب العصر ، وتأخذ وتمتص وتحتوى كل ما تراه ملائما ومفيدا لتعميق الفكر المصرى فى التطورة نحو ما يسير بالمجتمع خطوات وخطوات فى دولة (العلم والايمان) ..

والسادات يؤكد : « أنه عن طريق استيعاب كل ما قدم وعن طريق تفهمه ، فاننا نستطيع أن نقول ، انه سوف يكون بإمكاننا ان نقيم على

هذه الأرض دولة عصريه ، لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن بنحول فيها العلم والتكنولوجيا الى أسلوب عمل والى تحقيق عملى لأهداف مجتسع أمامه مسئوليات عظمى وتسلاهُ آمال أعمق .

ويؤكد السادات ايمانه بالعلم والتخطيط ، فبقول ، ان دونهما لا يمكن تحقيق أى (مشروع) :

« ان المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الايمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبذل فى سبيله ، الى التفكير المنظم ، وتحتاج الى التخطيط الدقيق والقوى .. والقوة أى قوة مهما بلغ حجمها ، تصح قوة عمياء ، اذا لم يكن المنظم لها تخطيطا دقيقا .. والعمل أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل أبدا الى هدفه اذا لم يكن موجها والمدير له موجها منظما ودقيقا .. الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق ، هو الاطار .. »

وهو فى هذا الصدد ، يوجه الدعوة قوية الى كل الأجهزة الثقافية والفكرية والعلمية ، نحو مزيد من تعميق الفكر المصرى ، ونحو مزيد من استيعاب منجزات العصر من أجل التقدم ، فيقول :

« المثقفون المصريون ، اليوم ، مطالبون ، بمزيد من الجهد ، من أجل بحث علمى أصيل ، يجعلنا نسهم فى تراث البشرية ببعض ما نأخذ منه ، وتكنولوجيا مصرية تفنى عن اعتمادنا على الخارج ، وتستجيب لظروف بلادنا الخاصة» .

✳ والسادات بنزع الى فكر مصرى أصيل ، نابع من الأرض المصرية فهو ضد كل التيارات الوائدة ، أو المفاهيم المستوردة من الشرق أو الغرب ، انه ضد الشيوعية والرأسمالية الاحتكارية ، انه ضد كل ما من شأنه أن يستغل الفرد ، أو يغله ، أو يستعبده ، أو يحوله الى مجرد ترس فى عجلة الدولة ويلغى ذاتيته وعبقريته الفردية .. وهو يرى أن (ضياع) الكثير من

الشباب مصدره الأساسى عدم الوصول الى جوهر فكر مصر ، وتمثله في اطار العصر ، وهو يرى ان الثقافة وسيلة ، بينما الحضارة غاية .. فالثقافة تصنع الحضارات .. والحرية ، تغنى الحياة وتبهجها .. ويؤكد في كثير من تعاليمه وأفكاره :

ان حضارة الغرب ، اليوم ، ليست حضارة ، بمعناها العلمى أو النظرى ، وانما هى مدنية « (١) ..

وفرق كبير بين الحضارة والمدنية ، فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية :

« لذلك نرى أن طابعها ، لا يكتفى بالمظهر ، وانما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر .. والمدنية لا نعرف المقومات المعنوية في حياة الفرد والمجتمع التى لا تعدو أن تكون مظهرا ، كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلا بالازرار والآلات ، وهى لذلك لا تفهم وزنا ، بل لا تعرف الجوهر في حياة الانسان ، من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعنى أول ما تعنى بالقيم الانسانية العليا ، أما المدنية ، فانها تعتبر القيم الانسانية من مقومات البشرية ، وعلى هذا القياس ، ومما نراه ، اليوم ، نستطيع أن نعرف ما يسمونه حضارة الغرب بمدنية الغرب .. وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتى الشرق والغرب ، فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية ، ان هى الاحضارة هو الولى عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب فى الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية فى أشكال يحدد مفهومها .. فالغرب يدخل ، مثلا ، نظامه الديمقراطى فى شعب من شعوب الشرق ، فانه لا يدخل ما يطبقه هو فى بلاده ، وانما يفرض على هذه الشعوب الذى يريد لكى يحقق له السيطرة والتحكم ، ثم يلصق بهذا النظام اسم الديمقراطية ، وينسبه الى الحضارة الغربية الجديدة « (٢)

(١) دراسات ومقالات نشرها أنور السادات على صحيفة الجمهورية بين يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ١٩٥٦ ، ضمن دراساته عن الثقافة والحضارة بين الشرق والغرب ، والعرق بين حضارة مصر ومدنية الغرب ..
(٢) نفس المصدر السابق ..

ويخلص السادات من دراساته لحضارتنا ومدنية الغرب الى شكل من أشكال « الفرض الثقافي » ، أو « السيطرة الفكرية » ، التي يحاول الغرب أن يصدرها تحب اسم الحضارة الغربية ، وهي في النهاية شكل من أشكال الاستعمار ، بل أحدثه قاطبة .. ولكن هذا لا يعنى ان مصر ضد أى فكر ، اننا نتطلع الى كل الثقافات والى كل الأفكار ، لكننا لا نقبل ان يفرض علينا فكر بذاته ، أو ثقافة بذاتها ، انما نأخذ كل ما من شأنه أن يطورنا وبلهنا خطوات الى الامام ، ولكن بما يتفق مع ايدولوجيتنا ومنطق حضارتنا ..

❖ ويؤكد السادات ، في أكثر من دراسة ، وفي أكثر من مقالة ، وفي أكثر من خطاب على عمق حضارتنا ، وكيف ان المصريين ، والعرب ، كانوا من أوائل الشعوب التي حصلت مشعل الحضارة ، فيقول :

« كان العرب وراء نهضة أوروبا ، عندما انبعث فيها تراث الانسانية الثقافية بفضل العرب .. واستبدت الأنانية بحكامها ، وطبقاتها العالية ، وأيضا ، بمثقفينا وعلمائها وفنانيها ، فلم يحملوا المشاعل مثل العرب الأمجاد ليضربوا الطريق أمام الشرق الذي سيطرت عليه ، أخيرا : الكهانة ، ملما كانت تسيطر على الغرب في القرون الوسطى ، فلم يساهم الغرب في بعث نهضة الشرق على الاطلاق تماما مثلما فعل الرومان أيام امبراطوريتهم المزدهرة ! فلقد تعرضت حضارة الاغريق المجيدة لحقد أباطرة روما وقوادها العسكريين ، ونبلائها الاشرار فعملوا على طمسها ودفنها في التراب ، لأن امبراطوريتهم كانت قائمة على السخرة ، والاثم والقوة والقهر .. ولم يقدر لتراث آئينا الثقافي والعلمي أن ينبعث أبدا ، الا عندما حمل العرب مشاعلهم ، وقدموا للبشرية ، في نبل وكرم عظيمين ، وبلا تعصب ، وبلا ادعاء ، أو من .. ! وأقول ، ان الغرب بعد نهضته وازدهار المدنية فيه ، اتجه الى هدف شذير أثيم ، فقرر استعمار الشرق ، لا النهوض به ، ونادى كبلنج (١) ، الفيلسوف الاستعماري

(١) رديارد كبلنج ، الفيلسوف والشاعر الانجليزى الاستعماري ، الذي نادى بسيطرة بريطانيا على الشرق .

الانجليزى الرجعى ، بهذا ، وأهاب بقومه ، أن يسرعوا فى التهام الفريسة المسلمة ، قبل أن تفيق من سباتها العميق ، فأطلق كلمته المشهورة : الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا ! ونسى ذلك الرجعى ، ان الشرق سبق له أن التقى بالغرب فى قديم الزمان ، عندما بعث العرب نهضة ذلك الغرب وأشاعوا فيه النور .. »

وقد أكد بريفو « ان العلم الغربى .. يدين بوجوده للحضارة العربية » . ويرى العلامة الانجليزى الكبير جون برنال .. ان العلم باعتباره وجها من أوجه النشاط الانسانى ليس قائما بذاته ، بل هو جزء من الثقافة الانسانية ، ولعل هذا الاعتبار لم يتحقق فى الماضى قط بأكثر مما كان فى الدول العربية : « فنحن فى الغرب مدينون للعرب ، بكل علمنا ، وفكرنا ، وهم لم ينقلوا الينا تراث الاغريق ، بل أنصفوا على هذا التراث أحكاما أدق وروحا علمية لم تكن ظاهرة فى عمل الاغريق ، وقد أضاف العرب فى الرياضيات والكيمياء اضافات لا تنكر فى تاريخ العلم .. ولم يكن العلم عند العرب يعتبر منفردا قط ، فعرف رجاله الفطاحل ، مثل : جابر بن حيان ، والخوارزمى ، وابن سينا ، وابن رشد ، بالثقافة العامة واتساع الأفق الفكرى وبوما ما ، ولنا أمل ، عندما تقوم الامة العربية ، مرة أخرى بأداء نصيبها كاملا فى التقدم العلمى ، أن يكون ذلك بنفس الروح التى كانت تميز العلم العربى ابان ازدهاره .. » .

ويرى الكاتب الفرنسى روجيه جارودى .. ان الفتوح الاسلامية ، كانت ثورة مسلحة زلزلت الاقطاع الزراعى ، كما يرى ، فى الاسلام ، نظريات تقدمية ، دفعت بالعالم دفعات قوية الى الامام ، ويقول : « ان أحد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التى يتبعها المستعمرون ، هى انكارهم الدور الذى لعبته الحضارة العربية فى تكوين العالم الحديث ، فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة ، انما تهدف الى تجاهل هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الشعوب العربية قد ساهمت ، فى ظروفه

تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة (الرينزائس) ، مساهمة غنية في التقدم الانساني في كل ميادين الفكر والعلم ... وقد أصبح الباحث الأوربي ، حين ندفعه الرغبة الى دراسة الفتح العربي ، يشعر وهو يقرأ ما وضع بين يديه من كتب صغيرة موجزة ، انه امام سر أو معجزة ، ولا يجد من يفسر له أسباب أو نتائج هذه العاصفة البشرية التي امتدت خلال سنوات طويلة ، من بحر الصين حتى المحيط الأطلسي .. ولكن اذا نحن طرحنا جانباً ذلك التحيز الاستعماري والعنصري بدت لنا هذه الحقيقة الأولية ، وهي ان الاسلام ، حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة .. قد خلق بفتوحاته ، الواسعة ، الظروف الضرورية ، لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم .. قد أوجد الفتح العربي ، الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها الطفيلية » ..

فلقد كان الفتح العربي ، في اسبانيا ، مثلاً ، ثورة فكرية واجتماعية بارزة اذ أنه ساعد في ازالة المساويء التي كانت تعاني منها اسبانيا تحت عبء القهر والاضغوط .

فالفاتحون العرب ، بتخطيطهم الحواجز التي أقامها الاقطاع في ميدان الاقتصاد ، وبخلقهم جوا جرى فيه تبادل البضائع والأفكار على نطاق واسع من الجبج الذي أتاحته الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبانشائهم امبراطورية موحدة مركزة خاضعة لقانون مكتوب ولادارة قضائية منظمة ، قد وضعوا الأسس الصالحة لتطور الأشياء والناس والأفكار تطوراً تمتاز به المراحل الخلافة للبشرية ...

ويستشهد روجيه جارودي بثلاثة نصوص تاريخية هامة في هذا الصدد ، فيقول : « النص الأول : لأحد رجال الكنيسة في سوريا ، واسمه ميخائيل ، وهو يؤرخ لحالة الكنيسة في سوريا خلال القرن السابع ، وبعد أن ذكر الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون من الرومان ، يقول : ان اله الانتقام وقدر شرور الرومان ، الذين كانوا ينهبون كنائسنا

وأديرتنا ويقضون علينا في كل مكان تحكموا فيه ، أرسل من الجنوب آباء اسماعيل كى ينقذنا على أيديهم . ولم يكن بالفضل اليسير انقاذنا من قسوة الرومانين ، ومن شرهم وغضبهم ، ومن حسدهم الفظ ، والأخذ بيدنا الى ظلال الأمن والراحة .. والنص الثانى لأنا تول فرانس فى كتابه الحياة الزاهرة : سأل السيد دى بوا السيدة العجوز نوريير ، ما هو أكثر أيام التاريخ شؤما ؟ فلم تستطع السيدة نوريير الاجابة ، فقال دى بوا ان أكثر أيام التاريخ شؤما هو اليوم الذى جرت فيه معركة بواتيه عام ٧٣٣ حين تراجع العلم والفن والحضارة العربية امام البربرية الفرنسية .. والنص الثالث للكاتب الاسبانى بلاسكو أيبانيز ، ويقول فيه : ان تجديد شباب أسبانيا لم يصل اليها عن طريق الشمال مع القبائل البربرية ، وانسا من الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان الفتح العربى بعثة حضارية أكثر مما كان فتحا ، عن هذا الطريق وليس عن طريق آخر .. دخلت الى بلادنا هذه الثقافات الغنية القوية النشطة ، اليقظة ، التى تبعت على الدهشة لتقدمها السريع ، والتى ما كادت تولد حتى انتصرت .

ان هذه الحضارة التى خلقتها حماسة النبو الدينية ، قد تمثلت أحسن ما فى اليهودية والعلم البيزنطى ، وحملت معها فوق ذلك التقاليد الهندية ، وتراث الفرس ، وكثيرا مما اقتبسته عن الصين الحافلة بالأسرار .. لقد استولى العرب فى غصون سنتين على مناطق اقتضت سبعة قرون لاستعادتها منهم ، لأنهم لم يكونوا يقومون فى الواقع بحملة نفرض نفسها بالسلاح ، بل كانوا يؤلفون مجتمعا جديدا يدفع أصوله القوية الى شتى الأنحاء .. وكان مبدأ حرية الضمير ، وهو حجر الزاوية الذى تنوم عليه عطية الأمم الحقيقية ، مبدأ مقدسا لديهم ، فكانت تقوم فى المدن التى حكسوها ، كنيسة المسيحى ومعبد اليهودى على السواء .. وقد نشأت فى أسبانيا وتطورت منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر ، أروع وأعنى حضارة قامت فى أوربا طوال القرون الوسطى ، فبينما كانت شعوب الشمال تنذبح

في غمرة الحروب الدينية ، وتسلك سلوك القائل الممجية ، كان عدد سكان اسبانيا يرتفع الى ثلاثين مليوناً ، وكانت كل الأجناس والعقائد ، تتماثل وتمتزج بتنوع لا حد له ، فتصدر عنه أقوى النبضات الاجتماعية ، وفي قلب هذا المزيج الحصب من الشعوب والأجناس المختلفة كانت تزدهر جنباً الى جنب ، جميع الأفكار والتقاليد والمكتشفات التي خلقها الانسان حتى ذلك العهد ، ومن احتكاك هذه العناصر المختلطة ، انبعثت اكتشافات وقوى مبدعة جديدة . وقد حمل أولئك الغرباء ، معهم ، التعداد البشري والجبر وفن تحويل المعادن والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى ، وكان فلاسفة الاغريق يوشكون أن يتلاشوا ، فاقتداهم العرب ، فانتقلوا مع الفتح العربي الى كل مكان واستعاد أرسطو مكاتبه الرفيعة في جامعة قرطبة الشهيرة .. « ... فبينما كانت أوروبا بين عامي ٨١٣ و ٨٣٣ ميلادية تعمة في دياجير الظلمة ، كان المأمون يؤسس في بغداد « بيت الحكمة » ، الذي استمل على مكتبه وجامعة ومكتب ترجمة ، والذي أصبح الفكر اليوناني عن طريقه في متناول جميع الذين يتلون القرآن ، وبعد زمن قليل ، كانت قرطبة تسلك ستمائة ألف مجلد ، بينما لم يستطع ملك فرنسا « شارل الحكيم » أن يجمع ، بعد ذلك بأربعمئة سنة أكثر من تسعمائة مجلد ، وقد ظل نتاج الكندي ، الذي ترجمه الى اللاتينية « جيرار دي كريمون » يثقف العرب خلال قرون طويلة .. ولم تعرف أوروبا الاكتشافات العلمية الحديثة الا عن طريق العرب .. ففي علم الجبر وفق الخوارزمي الى اعادة وضع المنهج العلمي الذي كان يعرفه اليونان لحل المعادلات ذات المجهولين ، واستطاع انتساع والفلكي والرياضي عبر الخيام حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة المنهج الذي استخدمه ديكارت بعد ذلك بخمسة قرون ، فوضع أسس الهندسة التحليلية ، وفي حساب المثلثات اكتشف أبو الوفا وليس كوبرينكس الخط القاطع في الرياضيات ، واكتشف الفارابي اللوغاريتمات كما توصل الفارابي الى الفكر اليوتوبي أو الاشتراكية الخيالية عن طريق جمهوريته الشهيرة قبل أن يتصورها فلسفياً توماس مور كامبانيا وسان

سيمون ، ودرس ابن سينا الكليات غير المنهاية ، وفي الطب توصل الرازي الى العديد من النظريات العلمية الهامة ، كما وضع تصنيفا علميا منهجيا لأمراض وقد أعيد طبع موسوعته الطبية عشرات المرات وترجمها الى اللاتينية « فراجوت » ، وفي عصر النهضة (الرينازانس) ، أعيد طبعها ، في فينا عام ١٥٢٠ ، وفي فرانكفورت عام ١٥٨٨ ، كما وضع ابن رشد العديد من النظريات في الفقه والعلم الطبيعي والفيزياء ، وقد اشترك ابن سينا وابن رشد في وضع الفكر النقدي الحديث - او ما عرف بالعقلانية الحديثة وقد أدرك الشاعر الايطالي دانتي الليجيري هذه الحقيقة ، وأشار اليها ، كما أدرك ذلك ، أيضا ، المفكر الفيلسوف « روجر بيكون » . وعندما يقرأ أى مفكر عصرى « مقدمه ابن خلدون » ، يلمس الى أى حد ، كان سابقا لعصره ، بل ووضع أسس علم التاريخ الحديث ، وكذلك علم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وقد سبق ميكافيللى وديكارى ومونتسكيو بثلاثة قرون ، وقد سبق أيضا أوجست كونت ودوركيه وفردريك انجلز وكارل ماركس ، في كل الافكار والنظريات التى قال بها في السياسة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع ..

وعلى مر التاريخ ، كانت مصر ، والعرب ، المصدر الأساسى ، للمدنية الغربية ، بل والانطلاقات العلمية التى حدثت في أوروبا ، سواء في عصر النهضة ، أو في العصور الحديثة ، ويؤكد السادات ، في كل مناسبة ، هذه الحقيقة ، ويقول .. انه لا يمكن اقامة دولة العلم والايان ، واعادة النهضة العلمية الحديثة للارض العربية ، دون الكشف عن هذه الكنوز العظيمة التى تخزنها (الارض العربية) ، ويقول :

« على مر التاريخ ، كانت مصر ، دائما ، مركزا للاشعاع الحضارى والروحي . كانت الاسكندرية حلقة صراع فكرى بين روح الشرق البناء المسالمة التى تمثلها حضاراته وبين روح الغرب التى تهبط القوة والعدوان وتقيم بناء حضارتها على الجهاجهم والاشلاء . كانت حضارة الشرق تقوم في

الصين ، وفي مصر ، وفي الهند ، وفي ايران ، على نهضة فكرية وصراع عقلى وهندسة بناء ... وكان اهم ما تعنى به هذه الحضارات ، جميعا ، هو علاقة الانسان بخالقه ، وبالارض وببقية المخلوقات ، وكيف يمكن ان يسيطر على غرائزه بالبحث فى مكنونات النفس البشرية ، وماذا تكون عليه علاقة الأسرة بعضها البعض وعلاقة الحاكم بالمحكوم . كل هذا فى سبيل بناء سلام بشرى يقوم على فهم صحيح لوجود الانسان على هذه الارض . وكانت حضارات الغرب التى انتهت الى الحضارة الرومانية ، تعنى اول ما تعنى بتمجيد القوة المادية والايمان بالفرد ، على انه يستطيع ان يخضع هذا الكون لرغباته اذا ما توافرت لديه القوة المادية لذلك ، رايانا ، ان حضارات الشرق نهامت على العلوم والبناء والروحانيات ، وفى الوقت الذى قامت فيه حضارات الغرب على الغزو والفتح والقتل وفرض السيطرة بالقوة عن طريق سفك الدماء ... ولقد غلبت الحضارات الشرقية على امرها حينما من الزمان لانها لم تواجه حضارات الغرب بحديد و نار ... وهى أدوات حضارة الغرب الوحيدة ... ولكن عجلة التطور تسير وتطحن فى طريقها كل من يقف فى طريقها ، كل من يقف فى سبيلها ، مهما كانت لديه من قوى او حديد او نار ... » .

وفى انطلاق حضارتنا الى الاكمل ، والاسمى ، من أجل اللحاق بأعظم ما فى عصرنا من تقدم وتطور ، بقول السادات :

((ان هدفنا الاسمى من هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة ، فى هذه المرحلة التى تنطلق فيها روح رمضان (أكتوبر) ، العظيم ، الى مهمة التقدم والبناء ، هى ان نقيم فى بلادنا الدولة العصرية والمجتمع الحديث ، حتى يستطيع شعبنا ان يحقق من خلالهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلافة ... ولا يجوز لنا ان نتهيب لحظة واحدة ، هذه المرحلة التى لامفر منها الى المستقبل العريض ... وكما ان الانسنان المصرى ، هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو البداية وسيلة هذا التقدم ، فان هذا الانسان المصرى نفسه ، هو الضمان لأن ننطلق الى هذه المرحلة آخذين بأحدث معطيات

العصر في شتى المجالات ، دون ماخشية من ان نفقد خلال هذه الرحلة هويتنا ، او ننقطع عن اصلتنا ، او ننسى الفضائل التي كان هذا الشعب ، دائما ، يعتز بها ويمجدها .. فهذا الشعب ، كما اقول دائما ، يحمل في اعماقه ، فيم حضارات عمرها سبعة آلاف سنة .. فكانت هذه الحضارات تنهض به ، وتكبو ، تنطلق ، وتنقطع ، تتغير ، وتتجدد ، ولكن الشعب ، كان يعرف في النهاية ، دائما ، كيف ، يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظا بخصائصه الاصلية ، وفطرته الصافية السليمة » .

ويطالب السادات ، بأن ينظر ، كل انسان الى تاريخه ، وحضارته ، الى تراثه ، وفكره ، الى سلفه ، والى مكونات أرضه الفكرية ، حتى يعرف (الأرضية) التي يقف عليها ، ومن خلال ذلك يمكنه أن يحدد أهدافه وغاياته وآماله ومطامحه ، ويمكنه ، بالتالي ، أن يسير ، في أمان وثقة وإيمان : « لا بد من دراسة التاريخ ، تاريخنا ، وتاريخهم ، لمعرفة واقع الشرق ، وواقع الغرب ، لدراسة قصة (المأساة) هنا وقصة (الحضارة) هناك ، حينئذ ، يمكن ، أن يبدأ البحث الجديد ، لا على أساس الكهانة والدجل ، وتفسيرات وهمية للدين ، بل على أسس علمية وتاريخية ، تجعل من حضارتنا شيئا محتوما » . ويقول ، أيضا : « عندنا تقاليد مبنية عبر آلاف السنين ، عندنا قبل كل شيء وفوق كل شيء رسالة الايمان ، تعلمنا أن لو أراد البشر كلهم أن يصيخوا أى شيء بشيء لا يريد له الله ما أصابوه أبدا . تعلمنا ، بتعلمنا رسالة الايمان ، أن أرضنا طيبة وطاهرة وتستحق منا أن نحباها ، وتقديسها ، وندافع عنها ، ونثقاني فيها .. تعلمنا ، أيضا ، أن العالم تجتاحه اليوم موجات تحت اسم العلم جرفت شعوب الى المادية الرهيبة التي أضاعت القيم وأضاعت الأخلاق ... لا نستطيع أن نبش بدون قيم ولا أخلاق ، لأن الايمان في ديننا » .

❖❖ وعندما ينادى السادات بالعلم ، فهو ، دائما ، يربطه بالايمان . فعلم ، بلا ايمان ، يفقد الانسان « الاتزان المعنوي » . والعلم الذي يتحدث

عنه ، ليس هو العلم الذى يستمد منهجه من العلم الماركسى ، أو العلم الذى يؤدي منهجه الى لون من الاحتكارات الرأسمالية . بل هو العلم الحياذى النابع من الأرض المصرية ، العلم الذى يستوعب كل مستحدثات العصر ، غربية كانت أم شرقية ، ثم يصب فى النهاية فى نهر فكرى وعلمى يتسم بالمصرية ويتميز بثقاليدنا وأفكارنا وقيمنا ، التى هى امتداد لحضارة عميقة عمرها سبعة آلاف سنة ...

وما ذكره كارل ماركس عن النظام الاقتصادى الذى يعقب الرأسمالية قليل جدا ، بل ويشير الدهشة ، وغير منطقى ، فلقد ركز ماركس كل الاهتمام على تأكيد ، أن مرحلة الرأسمالية فى التطور البشرى والحضارى ، هى مرحلة استغلالية من طبقة لأخرى ، وأن النتيجة الحتمية لهذا الاستغلال اندثار الرأسمالية بعد أن أدت دورها التاريخى فى تراكم رؤوس الأموال وتطوير الفن الإنتاجى وأساليبه ، ومن ثمة تصل الى وضع من الجسود تعقبها ثورة اجتماعية تتوابعها بالضرورة الاشتراكية فالشيوعية ، ويصر ماركس ، على أن التغير وايضاح طبيعة النظام الجديد الذى سيخلف الرأسمالية ، لا تحدده طبيعة ومنطق التطور الحتمى للتاريخ ، ونحن لا نقبل من دور ماركس ، العظيم فى نظراته للوجود وفى تحليله لعلاقة الفرد بالواقع ، وصياغته للمادية الجدلية والتاريخية والقائه الضوء على العديد من الظواهر الاقتصادية التى أغفلها الاقتصاديون الكلاسيكيون والمدرسيون . ان النظرية الاقتصادية التى توضح مرحلة الاستغلال فى الفكر الماركسى هى « نظرية القيمة » ، وفائض القيمة » ، والتى تستند بدورها الى نظرية ريكاردو (١) ، وقد أدرك ريكاردو وجود ثلاثة عوامل للإنتاج هى : العمل ، الأرض ، رأس المال ..

(١) دافيد ريكاردو ، كان له اعق فى الفكر كارل ماركس ، فلقد اعتبر ريكاردو فى كتابه « اصول علم الاقتصاد السياسى والضرائب » ، ان المشكلة الأساسية فى علم الاقتصاد السياسى ، هى تحديد نسب ناتج الأرض وتوزيعها على الطبقات المختلفة فى شكل ربح واجر ، وكان ماركس حواريا مخلصا لتعاليم ريكاردو فى نظرية (فائض القيمة) ، والتى كان محاسبا اليها ، لاثبات وجود الاستغلال فى جوهر النظام الرأسمالى ، لطبع القرصنة التى تقوم عليها الرأسمالية ويدفعها .

ولكنه يعزو القيمة الى العمل وحده ، واستبعد كافة العناصر الأخرى ، بناء على افتراض خاطئ ، يقوم على أساس أن رأس المال انما يستخدم دائما بنفس النسب ، وعلى اعتبار أن أثمان السلع انما تتحدد على أساس الأرض الحدية ، والأرض الحدية لا ربيع لها .. ونفس الخطأ ، وقع فيه ماركس ، ولكن أعتمد ، عن عمد ، فقد قبل (نظرية ريكاردو) ، وذهب أبعد منها أيضا ، فبينما يرى ريكاردو أن السلع تتبادل وفقا للعمل المبذول في انتاجها ، اعتبر ماركس العمل ، وحده ، له القدرة على خلق القيمة .. بينما الظروف التي تسود الانتاج هي الظروف الطبيعية ، وأن العمل تساعده الآلات الحديثة .. وفي النظام الرأسمالي ، ينظر الى الفرد على أساس أنه (ماكينة) لكنه ماكينة تختلف عن الآلة الحديثة ، لذلك تهتم الرأسمالية الاحتكارية بالميكنة الالكترونية لأنها توفر فائض قيمة بشكل غير عادى ، وعلى هذا تغير الثورة الصناعية الثالثة ، مفهومات ماركس عن العمل والقيمة وفائض القيمة ، بل وكذلك نظرة لينين ، فالرأسمالية الاحتكارية ، اليوم ، لا تريد أن تستغل العمال بقدر ما تريد تصدير رؤوس الأموال والوصول بالانتاج الى مراحل التراكم الكبرى ، فالمصنع الالكترونى لا يستوعب الا القليل من العمال ، والعدد الهائل من البروليتاريا ، أصبح لا لزوم له ، والمطالب التي كانت تطالب بها المركسية تجاوزتها ثورة الالكترون والكمبيوتر ، فلو أن ماركس شاهد مصنعا الكترونيا واحد لغير الكثير من آرائه وأفكاره ، وكذلك ، لفعل لينين .. لكننا لا نأخذ بالفكر الماركسى ، ولا بالفكر الاحتكارى للرأسمالية انما نستمد فلسفة عملنا ونظرتنا للاقتصاد من الفكر المصرى الحيادى ، الذى يسعى للاخذ بالالكترونات واستيعاب كل اقرايات عصر الكمبيوتر من أجل توظيفها وتسخيرها فى خدمة الانسان المصرى والعربى ، بعيدا عن الاستغلال والاحتكار ، وبعيدا عن الغاء الملكية الفردية ، ومن خلال دولة المؤسسات ، تتحقق الرقاهية الاقتصادية للمجتمع فى سعيه لتثبيت دعائم دولة العلم والايمان ، التي تمنح الفرد الرخاء المادى والاجتماعى لكنها تحتفظ بتوازنه الروحى والنفسى ، فلا يصبح الفرد ترسا فى عجلة

الدولة الكبرى كما هو الحال في المجتمعات الشيوعية ، ولا يتحول الانسان الى مستغل مقهور كما هو الحال في الاحتكارات الرأسمالية .. ومشكلة المجتمع الغربي ، وجوهر أزمته الحقيقي ، تكمن في تلك الهوة السحيقة بين ما يتحقق من تطورات مادية واجتماعية تكفل الرخاء والرفاهية وفقدان الايمان الروحي والنفسي والحسي والعاطفي نتيجة سيطرة « حضارة الاوتوميشان » !

ويقول السادات : « ان كل ما يبناه معرض للدمار ، ان لم تقف ونبني دولتنا الجديدة البناء الصحيح : والبناء الصحيح ، كما قلت لكم ، لا يكون الا على العلم والايمان ، بالعلم لن نتخلف أبدا عن كل ما في العصر من مستحدثات ، ولن نعيش أبدا متخلفين ، بل علينا أن نعود الى حضارتنا ، والى ما يبناه عبر تاريخنا ، وأخذ منه غيرنا ، وبنى عليه ، أما بالايمان ، فسنكون ، دائما ، قوة صلبة ، منيعة ، لا يستطيع أن يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد ، الايمان بالله سبحانه وتعالى ، والايمان بأرضنا وتراثنا ، بكل شيء في بلدنا ، الايمان بتاريخنا ، الايمان بماضيها وحاضرها ومستقبلنا ، الايمان الذي لا يتزعزع في أننا بعون الله وبإرادة الله ، سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة .. » ...

❖❖ ويؤكد السادات ، دائما ، على النظرة الدينية والايمان الروحي وايمانه بالفكر الاسلامي كزاد وتراث له اهميته الكبرى في تطوير الأمة العربية ، ودائما ، يستشهد بتعاليم المفكرين الاسلاميين ، وهو معجب كل الإعجاب بعدالة عمر بن الخطاب ، ودائما يردد مواقفه الانسانية ، ويشي على فكره وعبقريته وسلوكه وارتباطه بالناس ومشاكلهم ، فهو نعم الزعيم والقائد العادل ، ويقول السادات عن عمر بن الخطاب : « انه بلا شك من أعظم الساسة المفكرين الاسلاميين ، وقد عرفته وأنا أقرأ في ظروف كانت نفيس فيها منهوكة خائفة ، فما راعيتي الا قوة هذا الرجل الرائعة ، في مختلف الاتجاهات .. كانت نفسه قوية وكانت روحه قوية ، وكان خليفه قوة ،

ولكن لم تكن كل هذه القوى من ذلك النوع الذي يضارب فينتج الخير مره والسر مره خرى ، وانما كانت قوى منسجه موافقه ، جعلت من حياه هذا الرجل وتصرفاته أسطوره خالده فيها العدل وفيها الصبر وفيها الايمان القوى المطلق نحو فيلنه في الجاهليه ، ثم تحول هذا الايمان بعد الجاهليه الى الله والى الدين . والى كل ما هو كريم وشريف على ظهر هذه الارض . لقد كان هذا الرجل يسيطر على نفسه دائما ويبدأ بها .. ففى المجاعه ، جاع ، وهو أمير الناس بأشق منا جاعوا ، وفى أهله أقام الحد على ابنه بنفسه حينما أخطأ كفى ما تقام الحدود ، ثم بكاه بعد أن مات من فسوة هذا الحد بكاء أب كريم حبيب ، يعرف حلاوة الأبوة ، ويعرف ، أيضا ، واجبه أمام الله ، وأمام الناس الدين ولاء الله أمرهم ، ليسلك بهم أسلم الطرق ، ما حاد ، أبدا عن الطريق المستقيم .

ومن منطلق تسكه بالدين ودراسته لمختلف العقائد الدينية ، كانت فكرته المبكرة حول « الجامعة الاسلاميه » ، و « المؤتمر الاسلامى » . . ومنذ منتصف الخمسينات ، أخذ يكتب ، ويدعو الى الجامعة الاسلاميه ، وتغل لفترة طويلة رئاسة « المؤتمر الاسلامى » ، وتحرك بين مختلف الدول الاسلاميه فى أفريقيا وآسيا ، داعيا الى تعميق الفكر الاسلامى ، والارتباط بالجامعة الاسلاميه ، عن طريق المؤتمر الاسلامى ، الذى تحدت أهدافه ومطالبه كمنطلق طبيعى للثورة العربيه فى تطورها ، وفى نضالها من أجل مزيد من الوحدة بين القوميات الساعية الى تأكيد استقلالها الوطنى وتقديم مجتمعاتها نحو الأكل والأفضل .. وهذا ما جعله يدرس الاسلام وأفكاره دراسة مستفيضة ، كما درس العقائد والأديان ، ليعرف الشعوب عن قرب .. قرأ عن الهندوسيه ، والبوذيه ، والجاتيه ، والكونفوشيه ، والشتو ، والداويه ، والزرداشتيه ، واليهوديه ، والمسيحيه ، والاسلام .. فالدين ، كما يؤكد السادات ، هو الركيزه التى تجعلنا نؤمن بأهداف العظيمة : « الدين يدعونا لكى نعرف حق أوطاننا التى وهبنا الله ، إياها ، فمن يفرط فى حق وطنه بالدعوة الى التفرقة أو بالدعوة الى الخصومة أو

بأثارة الأحقاد أو بالتخلف عن ركب الوطن ، لشهوة الدنيا والمناصب ، كافر بالوطن ، وكافر بالدين » ، ويقول ، أيضا : « اننا في حاجة لان نرتفع بآفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود ، هي من صنعنا ، وهي مصدر بلائنا وشقوتنا .. وسنظل نجهل هذا الموكب ونخشاه الى اليوم الذى نرفع فيه بادراكنا الغطاء عن أبصارنا ، لنرى الله فى الحق ، ولنرى الله فى القوة ، ولنرى الله فى الصبر ، ولنرى الله فى كل ما نعمل ، وما نقول ، وما نسر ، وما نعلن » .

ولا يعنى تمسك السادات بالدين ، واستشهاد به فى كل مناسبة ، أنه ينزع الى الاغراق فى اللاهوت ، أو الوقوف عند أمجاد الاسلام كنقطة نهاية ، أو الإخذ بالغيبيات ، فهو يقول : « أنا لا أعتقد فى القال ، ولا قراءة الكف ، ولا تحضير الأرواح ، فانى بحكم قراءتى فى الكتاب عن سورة يوسف وما ورد فيها عن الأحلام وتفسيرها ، فأنا أؤمن بها ، وخاصة عندما كنت شابا وفى أثناء تعليمى الثانوى وأيام الامتحان » ... وهو يرى ، أنه لابد من تمثل كل مقومات عقائدنا وتاريخنا ونضالنا وكفاحنا ونحن تتجه الى بناء (دولة العلم والايمان) :

« فبالعلم نواجه السلاح والسلام ، وبالايمان نقول بيقين لعدونا : نحن لا نخاف شيئا ، أبدا ، الآن ... كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى ، ونحن نؤمن أننا فى دفاعنا عن عقيدتنا وأرضنا ومستقبلنا ومستقبل أجيالنا ، أن نتصر أو نستشهد ، وفى كلا الحالتين منتصرون بعون الله .. يقتضينا هذا أن تكون نظرتنا الى العالم من خلال عقيدتنا نظرة جديدة . لا بد أن تربي الطفل والشباب الراشد على مبادئ وقيم أخشى أن تكون قد أهملت فى الفترة الماضية . لابد أن نعمل ، جميعا ، كل منا فى مكانه ، لبنى المجتمع الاسلامى الجديد القائم على العلم والايمان .. لا نهمل العلم ، أبدا ، وعلينا فى نفس الوقت أن نرسخ من الايمان » ...

والسيادات .. يرى ، أن ما فى داخلنا من تراث وماضى ، كفيلى ، بأن ،

يجعلنا نتجرك في ثقة ، وفي يقين ، لان ما من أمة ملكت وسيطرت على مثل هذا الماضي أو هذا التراث مثلنا .

انه يقول : « اذا كنا في مصر ، من الشعوب التي تعتن بتاريخها الطويل الفذ ، وبتميزه بعناصر الاستمرار التي صمدت عبر القرون والتقلبات ، واستوعبت كل الصدمات ، محتفظة بجوهرها الأصيل ، وصفاتها الحضارية الراسخة ، فنحن أولى أن تكون نظرتنا الى تاريخنا هي نظرة تقييم الايجابيات والسلبيات ، نظرة البناء لا الهدم ، والبدا من أرضية المكاسب السابقة التي حققها النضال الوطني للانطلاق الى أفق جديدة » .

ويقول ، أيضا في هذا الصدد :

« لقد كان الوادي من حولكم وقربكم ساحة للتاريخ . كان الانسان المصرى ، منذ أقدم العصور بناء للحضارة ، بفكره وبيده ، وليست الآثار البارزة الباقية على أرض صعيد مصر مجرد أحجار صماء ، ولكنها شواهد فكر خارق ، وشواهد عمل متقدم ، وشواهد علم دقيق ، كل ذلك يتوجه ايمان عميق بالدين وبالخلود ... ولنا أن نقول ، اليوم ، أن خلود الحضارة المصرية ، وخلود التاريخ المصرى كان ايمانا راسخا أثار الفكر واسنيقظ العلم ، وقدس العلم وليس أى شىء آخر .. ولقد كان الفكر المصرى غذاء أساسيا للحضارة الاغريقية ، ويتبقى معالم الحضارة بفكره وبيده ، وليست سبق غيره بكثير الى مجالات متعددة في الهندسة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم .. ولم تكن الخضرة التي تكبس وادي النيل بالمخصب ، لم تكن هذه الخضرة مجرد قطرات ماء جاء بها نهرها فجسب ، ولكلها ، قبل ذلك وبعده ، كانت قطرات عرق فاض به عمل الانسان » .

والسادات .. يرى ، أن التجدى الحقيقى المطروح أمام الشعوب العربية التي تواجه مشكلة التقديم الحضارى ، هو ، بالدقة ، كيف تجدد حضارتها ، فلا تلفظ الماضى ، ولا ترفض الحديث ، باسم الماضى ، وانما تأخذ بأسباب التجديد ، دون أن تفقد الأصالة : « ان الدولة الحديثة ، والمجتمع المصرى

ليسا في مظاهرها، فحسب ، ولا يتحقق بناؤهما بمجرد اقتناء أحدث السلع والمنتجات . ان العصرية ، هي أن نعرف أولا الترتيب السليم لأوليائنا في ما يلزمنا من هذه الأدوات قبل غيره .. ثم هي في أن نوجد المؤسسات ، والنظم ، والعلاقات ، التي تحول هذه الأدوات في الأيدي العربية من أدوات صماء مستهلكة الى أدوات خلاقة منتجة ، ثم هي بعد ذلك ، أن نخلق البيئة المناسبة ، ودرجة التطور اللازمة التي تجعلنا قادرين على الابتكار والابداع ، وبالتالي ، على المساهمة الحقة في الحضارة الانسانية .

*** ومعظم من التقوا بالسادات ، من مفكرين وكتاب ، يرون .. أنه يختلف عن أى زعيم وقائد في قرننا الحالى ، فهو متواضع ، ميال للهدوء ، يتسم بالحكمة ، لا يميل للعاطفة أو الانفعال في آرائه ، ودائما ينزع الى ما يرتبط بمستقبل بلاده . ومفهوم (الزعامة) لدى السادات ، له فهم ، الخاص ، فهو يقول : « الزعامة .. ؟ ترى على أى أساس تقوم ، وكيف تقوم أصلا ؟ عدلى وصدقى وعبد الهادى والنقراشى وعباس حليم ، أيضا ، الذين كانوا ذات يوم يتزعمون العمال ، وقد يعترض أحدهم ، فيقول ان هؤلاء ليسوا زعماء ، بل كانوا رجالا من الطارئ على السياسة المصرية ، ما لبثوا أن جرفهم طوفان الشعب ، أى ثورته ، وأنا لا أوافق على هذا الرأى فيهم - هؤلاء السادة - قد لعبوا دورا خطيرا في تاريخ ثورة الشعب المصرى ، ولا يعنينا هنا قيمة تلك الأدوات وأثرها على مستقبل الشعب ... فنرون ، مثلا ، لعب دورا في تاريخ الشعب الرومانى ، وكانت همجيته سببا في يقظة رائعة عصفت بالامبراطورية الرومانية التي قامت على البطش ، والقياس هنا مع الفارق طبعاً .. وأعود الى موضوعنا ، فأقول ، ان الزعامة السياسية ، هي باختصار مصالح طبيعية معينة ، تبلورت وتجمعت .. فألفت - تلك الطبيعة - مسئولية حماية تلك المصالح أو تحقيقها ، ان لم تكن موجودة على كاهل شخص ينتمى الى هذه الطبقة ، ويشترط في هذا الشخص أن يكون كفاحه في سبيل معتقدات طبيعية ، طبقية ، أهدافها تسير الى غاية هذه الطبقة المذكورة ، وينادونه زعيما

ليقودهم في الطريق .. هذا هو التعريف العلمى للسياسة ، وللزعامة ، في العصر الحديث « .. ويشترط السادات ، في الزعيم ، أو يرى من صفاته البساطة والاقتراب من الجماهير وأهدافهم ومصالحهم ، وقد أشار الى مفهوم (الزعيم) ، في اكثر من مقال كتبه ، وفي اكثر من حوار ... وفي الحقيقة أن السادات ، كزعيم ، أو كقائد .. يختلف ، عن كل الزعماء الذين شهدهم قرننا الحالى ، فهو يتحلى بالبساطة ، والاتزان ، والحكمة ، وعدم الانفعال أو الاستجابة المبنية على العاطفة ، بل ينطلق في كل سلوكه من موقع الانسان المصرى في أنبل قيمه وصفاته وسماته .

في كتابه « صف طويل من الشموع » يقول الكاتب الشهير س . سالزبرجر :

« ان مفهوم الزعامة ، لا بد أن يرتبط بهدف أمة أو جماعة ، تشد الوصول الى أهداف ، بذاتها ، وهذا الرجل ، لا بد وأن يلتف حوله الجماهير ، لانهم يحسون أنه يعبر عن آمالهم التى ينشدونها ... » . وهو يقول ، رغم تفديس الماركسية والاتجاهات العامة لحركة الواقع ، فإن الافراد ، الزعماء ، الذين هم نتاج المجتمع في تطوره ، بما أوتوا من عبقریات فردية ، يلعبون دورهم القيادى والجهوى في تغيير دفة سير التاريخ ، ويشاركون في صناعة التاريخ بارادتهم : « والزعيم العساق ، هو الذى يصنع التاريخ ، ويغير دفته الى ما يريد ، أو ما تريد المرحلة .. لكن الزعيم المقهور ، أو الذى يصاب بعقدة الفردية كبونا برت أو هتلر ، يقهره التاريخ ، ويعصف به ، ويصيب أمته بالخزى والعار » . وقد قدر لسالزبرجر ، الذى اشتغل فترة طويلة في صحيفة النيويورك تايمز ، أن يلتقى بالعديد من الزعماء ويتحدث اليهم ، كما التقى بالسادات واعجب به ، وكان كتابه « صف طويل من الشموع » ، جماعاً لكل من التقى بهم من الزعماء في الشرق والغرب .. ولكن زعيم من الزعماء مميزاته .. ولكل قائده سماته الخاصة ... ولا يمكن على حد تعبير سالزبرجر أن تكون هناك قسّمات نخاضة لد (زعيم) ..

فيونابرت ، مشلا الذي بدأ كزعيم وطني مخلص لبلده في بدايات الثورة الفرنسية ، انقلب الى فردى من الطراز الاول ، وكان جل همه أن يحقق ذاته البونابرتية التي أصبحت في عرف علماء النفس والاجتماع تعرف بـ « عقده البونابرتية » ، اذ نصب نفسه امبراطورا على أوروبا ، وأخذ يدفع بلاده الى أتون حرب لا طائل لها ، للاستحواذ على أكبر أراضي في العالم ، لتلمع امبراطوريته ، فكان أن قهره التاريخ .

وكذلك هتلر ، الذي نادى بالقومية الوطنية الالمانية ، لكنه تحول الى ديكتاتور نازي من الطراز الاول ، وباسم القومية ، وباسم الوطنية ، أساء كثيرا الى ألمانيا ، وجر عليها ، بل وعلى العالم كل الولايات التي لازالت أذيالها حتى الان !

ويذكر سالزبرجر ، لقاء له مع الزعيم التركي (كمال أتاتورك) ، عندما التقى به في صيف عام ١٩٣٩ : « كان الزعيم التركي على فراش الموت ، وكنت أتحدث مع زملائي ومع الأطباء في ركن قصي من الغرفة ، بينما سأل أتاتورك الطبيب : هل انت خائف من مواجهةي بالحقيقة ؟ فقال الطبيب : ابدا . لكن أتاتورك ، عاد يقول : تعتقد أنني أتناول الخمر كثيرا ... حسنا لن ألس نقطة من الخمر بعد الآن . . . والى الأبد . . . وكان من الصنع علينا ، بل وعلى الاطباء ان تقول له : انت تشرب زجاجتين من الكحول ، هل من الممكن أن تخفف وتشرب زجاجة واحدة في اليوم ! ان الشيء الوحيد الذي أدى الى نجاح أتاتورك كزعيم ، هو ، الارادة ، كانت ارادته قوية ، ولا يقبل أنصاف الحلول ، فاما أن يتناول الخمر أو لا يتناولها ، فالتردد لا يؤدي ، ابدا الى موقف . . . بينما زعيم ، اخر ، مثل ، ونستون تشرشل ، كما يقول سالزبرجر ، « كان يميزه كزعيم عاداته التي التزم بها التزاما غير عادي . كان يتمسك بكل عاداته ، بكلامه ، باقواله ، بشيخاراة في فمه ، بحمامه ، بتناوله الويسكي بعد العشاء ، وعندما قابلته ، كنت احسن بقوته ، كان حتى في شيخوخته كالأسد ، واعتقد ان الاسد البريطاني ، فعلا ، هو

ذلك الرجل ، كان يتحدث عن التسليح الاوربي بقوة ، وقال ان رأيه لم يتغير ، وان كل دولة اوروبية لابد أن تسليح نفسها ، ثم بعد ذلك تشترك في (جيش أوربي) ، وان على بريطانيا ، وألمانيا ، وأمريكا ، ان تبتترك في هذا الجيش الذي يصبح تحت قيادة ايزنهاور . وأكد لي تشرشل ان حزب العمال يقوم بـ (سبوتاج) ضد الوحدة الاوربية ، وقال : طبعاً انك تعلم كم هو شعورى حول الحاجة الى وجود وحدة اوروبية ؟ ثم قال : طبعاً الجيش الأوربي ضرورة ماسة ، اذ أن الولايات المتحدة ستسحب قواتها في يوم من الأيام من أوروبا ، وذلك عندما تكون أوروبا من القوة بحيث تستطيع الوقوف على قدميها ، أما ما يميز زعيمًا مثل (ديجول) ، فهو الصدق مع نفسه ، ومن خلال هذا الصدق ، كان صادقاً مع دولته ومع العالم . أما تيتو ، فكان قويا ، جريئاً ، لا يهتز بسرعة ، وكانت الديمقراطية سلاحه . ويقول سالزبرجر « عندما سألت تيتو عن السبب في عدم انضمام يوغوسلافيا الى الحلف الاطلنطي ، فأجاب ببساطة : « أنا ألبى رغبة بلادي ، كل أفكار فود في الشارع أترجمها ، وأنا أتحرك داخل وخارج يوغوسلافيا ، وبلادي لا تريد الانضمام الى الاطلنطي .. » ثم قال ، « ان على الامم المتحدة ان تقبل الصين الشعبية عضوا فيها ، وسيأتي ذلك اليوم ربما بعد خمس سنوات ، ربما بعد عشرة ، ولكنه سيحدث .. » . وتحديث تيتو ، أيضا ، عن خصمه فلادو دجيلاس ، الذي كان يناوئه السلطة ، فقال انه لا يزال يمارس حقوقه في البرلمان .. والمسحاب دجيلاس من الحزب ومبادئه لسياستنا معناه الغاء الديمقراطية في يوغوسلافيا .. ولو أن دجيلاس كان في بلد آخر لاختفى خلال ٢٤ ساعة » . ونفس الكلام تقريباً ، أو مشابهاً له ، أحسه أنور السادات ، عند زيارته للبانديت نهرو في منتصف الخمسينات ، احس : « أنه يعامل خصومه معاملة اللد للبد ، بل يحاورهم ، ويتحدث اليهم في ود شديد ، ودهش السادات ، حتى أنه لم يستطع أن يصمت ، واحس نهرو بذلك ، فقال للسادات : أو تعرف ... ان هذا يبدو قوة للهند ، ما اسهل ان تضرب الخصوم ، لابد ان يستمروا ، والشعب قادر

على قبول ما يريد ورفض ما يريد ... ومن خلال هذا الحدث ، احس السادات بالديمقراطية التي تميز بها نهرو ، حتى مع خصومه ، وألحس أن هذه الديمقراطية « هي خبز الأمة والقائد ، وبدونها ، تفنار الأحلام والآمال ...

وقد رأت مجلة « النيوزويك » ، أن الصفات الإنسانية والقسيمات الجوهرية التي تميز السادات كزعيم ، وكبطل مصر وللعرب ، وكشخصية سياسية أصبحت تفرض ارادتها على الوضع الدولي ، أن هذه الصفات تتجلى ، أساسا ، في : البساطة ، القوة والارادة ، الحكمة والاتزان ، الايمان الشديد بالهدف ، في تفهم عملي للظروف المحلية والدولية ... وقد أكد السادات ما يريد ، في حديث له مع مراسل النيوزويك في ٢٨ فبراير ١٩٧٢ ، أى قبل قيام حرب أكتوبر بحوالى عام ، فقال بالحرف الواحد : « انكم تريدون ان تضغونا في حالة يأس ولكنكم لن تنجحوا في ذلك .. ان فيتنام الشمالية ، ليست في حالة يأس رغم ذلك الانتقام الرهيب والخسائر التي توقعها بها أمريكا . أن إسرائيل ستدفع الثمن غاليا ، وتذكروا كلمائى هذه ، فان هناك مفاجأة كبرى تنتظرهم ! » ..

ويرى السادات .. أن القائد ، أو الزعيم الحق ، هو الرجل الذي لا يغير رأيه أو مبادئه ، ولكن هذا الثبات ليس معناه الجمود ..

وفي تقديرتى أن هناك سمات أساسية تميز السادات كزعيم وقائد :

* أولا : البساطة والاصالة والتلقائية . فهو لأزال يحمل (القرية) داخله ، باصالتها وبساطتها ، وقيمها ، مهما كبر وكبر ، لأنه يحس أن هذه القرية هي أساس كبره ، فكريا ، وبطوليا ، وكزعيم تلتف حوله الجماهير ، ويسير بها الى الأكمل والأفضل والأسمى ..

* ثانيا : الارادة ، ووضوح الهدف ، واتساق الفكر وعدم تناقضه . فليس هناك ثمة تناقض بين داخله وفكازه الفعيلة وبين السلوك العلاني

في الممارسة . وهو لا يقهر ، وارادته ، مثل ارادة مصر والعرب ، وفكره يتميز بالموضوعية والعلمية ، لذلك يبدو متسفا غير متناقض ، وانما يتسم بخط متميز متفرد ..

* ثالثا : الروح الثورية التي يتحلى بها ، والايمان العميق ، بالمبدأ وبكل تحرك .. والروح الثورية اكتسبها نتيجة تكوينه البيئي ، الى جانب خبراته كمناضل وثوري لسنوات طويلة الى جانب ثقافته واتساع فكره كمنظر ثوري ومناضل من الطراز الاول .. وهذه الثورية يعمقها الايمان .

* رابعا : الاستراتيجية الواضحة ، اساس لكل تحرك .. فهو يسير وفقا لعقيدة واضحة ، تفرز تكتيكاتها وبرامجها المختلفة على المستويات المحلية والقومية والعالمية .

* خامسا : الحكمة ، والاتزان ، والجدية ، والديمقراطية في كل تصرف ومسلك ، وهذا جاء نتيجة خبرته كسياسي لديه رسالة نبيلة ، لا كمزايدة باسم السياسة ، كما نرى بالنسبة لكثير من « القيادات » ... وهو زاهد ، لا يطمع في شيء الا مصلحة وطنه ، ودائما يتحرك من منطلق الأولوية ثم الأقل أولوية ، ومصلحة الأرض والوطن فوق كل شيء ، وقد ترجم هذا الاحساس نفسه على مختلف المواقف التي برزت ابان حركة التصحيح ، ثم في فترات الاستنزاف والاعداد للعبور ، ثم اثناء العبور نفسه ، عندما كان القاديين ابناءه المقاتلين ، ابا ، وأخا كبيرا ، ومواطننا عظيما ، وهذا جعله يقترب من قلوب الملايين أكثر .. ثم سعيه الى معرفة كل شيء عن قرب ، وبنفسه ، لحل مشكلات الجماهير على اختلاف مستوياتها ، ومحاولاته الاصيلية في اعطاء المناخ الملائم للمواطن ، ليتحرك فيه في امان واستقرار ، لتبدو لديه القدرات اكبر على العطاء والبذل ...

** والسادات .. يرى ان الديمقراطية ، شرط اساسي ، لتوفير المناخ الملائم للمواطن ، ليكفل للمواطن الاستقرار والامان ، فليست هناك

ديمقراطية اجتماعية بدون ديمقراطية سياسية ، 'والعكس صحيح' ...
والسلطة السياسية ، كما يرى السادات ، في مجموعها ، يتعين أن تؤم ،
أى تكون للامة بأسرها ولا ينبغي ان تؤول الى يد طبقة معينة ، فديمقراطية
الطبقة ، لا توفر الحرية السياسية الا لطبقة بذاتها .. مثلا ديكتاتورية
البروليتاريا ، التى تمثل مصالح البروليتاريا ، لا توفر الامان الا لمصلحة
الطبقة والحزب الشيوعى والذى باسمه تمارس الديكتاتورية ، كذلك
النظام الفاشى لا يوفر الديمقراطية الا لطبقة بذاتها وللحزب الحاكم ، وكذلك
الحال فى المجتمعات الرأسمالية الاحتكارية ، الحرية السياسية غير موجودة
ولا يحس بالامان الا أصحاب « التروستات » و « الاحتكارات »
و « الكارتيلات » العالمية ، أما بقية الجماهير فمقهورة يطحنها الاستغلال
والمعاونة ، والسادات يؤكد « أن الحرية السياسية ، بلا حرية اجتماعية ،
وهم أجوف ، ولا تتحقق » ، لذلك جعل سيادة القانون أساس التعامل فى
المجتمع ، وجعل دولة المؤسسات هى الأساس الجوهرى فى طابع النظام ،
وعدل من وضع الاتحاد الاشتراكى بما يوفر الحريات السياسية
والديمقراطية ويكفل المناخ الملائم فى حركة المجتمع الى الأفضل ، وأعطى
للصحافة حريتها ، وأطلق الحريات السياسية ، وأغلق المعتقلات السياسية ،
وضرب على أيدي كل مراكز القوى ، وكل ما من شأنه أن يعوق حرية
المواطن فى التعبير عن ارادته بحرية كاملة ، ومن خلال مختلف الوسائل
التعبيرية المشروعة ... وهو يستشهد ، بكل ما حدث ، ويصرح به فى فخر
للمصحفين الأجانب ، وللعالم أجمع ، فيقول : « ان معسكرات الاعتقال ،
فى مصر ، أصبحت خالية ، ولم يعد المصريون ، يخشون من الاعتقالات
التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للأفراد » .. ولأول مرة ،
بدأ الناس « يتحدثون » ، و « يتكلمون » ، و « يكتبون » فى حرية وبلا
مخاوف .. فبعد أن كان (المواطن) ، لا يطمئن على غده فى الخمسينات
والستينات ، أصبحت تشتري (الصحيفة) فى الصباح ، فتجد الخلافات
على أشدها بين اليمين واليسار ، وتجد من ينقد وزيرا فى تصرفاته ، ومن

يهاجم مؤسسة من المؤسسات ، بل ويطالب بالغاء قانون كذا ، ويصر على تعديل في المادة رقم كذا ، بل ويطالب بمحاكمة المسؤولين عن حادث ما .. وبدأ الناس يقولون : (لا) ، و : (نعم) ، بعد أن كانوا يقولون : (نعم) في اضطرار ، حتى لا تجس أيامهم ، ويشرد عمرهم وراء الشمس ، كما كان يحدث !

*** والسادات لا يؤمن بسياسة (الحزب الواحد) ، كما لا يؤمن بوجود الأحزاب ، وتعددها ، على الأقل في هذه المرحلة ، التي تتطلب مزيدا من التجميع لكل الجهود ، والعمل من خلال المؤسسات الدستورية ، ومن خلال قوى تحالف الشعب ، الذي يمثل ارادة الأمة في سعيها لتحقيق أهداف المرحلة الراهنة في الحرية ، والديمقراطية ، والانتقال الى خطوات أوسع نحو مجتمع الوفرة ، من خلال تثبيت دعائم دولة العلم والايمان ، وهو يرى :

« ان نظام الحزب الواحد يجعل من الشعب آلة صماء .. ونحن لا نريد لشعبنا ان يكون آلة صماء .. نحن نريد لشعبنا ان يشترك في تدبير أمر نفسه ، ان يتحمل مسئولية حكم نفسه ، ان يشترك مع حكاه في تسيير كل شيء يخصه ، ويخص ابنائه ويخص أحفاده ويخص الأجيال المقبلة » .

وعن تعدد الأحزاب ، في هذه المرحلة ، أو الأخذ بها ، يقول السادات :

« أنا لا أعتقد في نظام تعدد الأحزاب ، أو في نظام الحزب الواحد ، في هذه المرحلة من بناء بلادنا ، فقد عرفنا نظام تعدد الأحزاب من قبل ، وأثبت فشله الذريع . وعندما نفرغ من وضع أسس مجتمعنا الجديد ، قد نكون أكثر قدرة حينئذ على ان نتحمل نظام تعدد الأحزاب ، ولكنني لا أعتقد في ملائمة هذا النظام لنا في الوقت الحالي » (١) .

(١) جاء هذا الكلام في حديث السادات الذي صرح به لمجلة (التايم) الأمريكية ، ونشر بتاريخ ١٣ مايو ١٩٧٤ .

والسادات ، يؤكد ، أن (الديمقراطية) ليست شعارات جوفاء ،
أو استهلاك محلى ، وإنما هى فى المحك الأساسى لحركة الواقع ، ومن خلال
الممارسة العملية لحركة الجماهير :

« نحن نعلم ، أن الديمقراطية ، ليست مجرد نصوص ،
ولكنها ممارسة عملية ، ويومية ، والديمقراطية لا تمارس فى
فراغ ، بل لابد من اطرار تحدد من خلالها الاتجاهات التى
تخص أمور الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..
ولقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب الصام
اطارا لحبائه السياسية ، وأنا فى معركة البناء والتقدم
لاحوج ما تكون لهذا المجتمع » .

والممارسة الديمقراطية فى رأى السادات ، لا تعنى ، الفوضى ، أو
الخروج عن الخط الأساسى للدولة ، فلا يمكن أن يسير (اليسار) بأفكاره ،
فالديمقراطية تنبع أساسا من متطلبات الجماهير الملحة ومن خلال حركتها
الى ما يصيغ حياتها الى الأفضل من خلال قوى التحالف الوطنى ومن خلال
دولة المؤسسات ، ومن خلال سيادة القانون ومن خلال المبادئ الأساسية
لثورة ١٥ مايو ١٩٧١ : « تختلف فى مجتمع الديمقراطية ، قد تختلف داخل
الهيكل الأساسى ، لكن ليس معنى ذلك ، أن يكون هذا الخلاف تمريضا
بالمبادئ الأساسية والخط الجوهرى للدولة » ، فهذا الخلاف ، ليس
صراعا على الأفكار ، بقدر ما هو معول للهدم ، والخروج عن فكر مصر
الوطنى الأصيل .. والسادات يرى ، أن الديمقراطية ، لابد أن تتحقق من
داخل الهيكل الأساسى للواقع ، أى من خلال المؤسسات وقوى التحالف
الوطنى ، والخلاف فى رأى أو العقيدة ، لا يعنى خروجا عن مبادئ ثورة
التصحيح ، فهذا الخروج عودة الى أوضاع تقضى على الديمقراطية ، وعودة
الى اللأمان والى اللا استقرار ، والى مراكز القوى التى تقضى على الحريات
السياسية والديمقراطية ..

ويقول السادات : « الديمقراطية لكم ، هي تحقيق مصالحكم لا مصالح الأقلية . الديمقراطية ، هي انتزاع الحقوق المسلوبة ، واسترداد الأرض من غاصبها ! الديمقراطية ، هي التخلص من القيود ، تلك التي كانت في رقابنا ، وحول أذرعنا ، وعقولنا ، أيضا ! الديمقراطية ، هي استقلال الوطن ، وسيادة الأمة ، والمساواة ، والعدل ، هي تقرير المصير .. » وهو يقول ، مؤكدا ، على معاني الديمقراطية الحقة : لا ديكتاتورية ، ولا حكم فرد ، ولا سيطرة لطبقة على طبقات ، ولا مصلحة إلا مصلحة الشعب ان الخطوات التي تمت خلال أعوام الانتقال ، لم تكن لتشهد على الإطلاق الا لشيء واحد ، هو الدستور الذي يجعل الديمقراطية مصونة من كل سوء ! والا فما معنى أن تتم هذه الخطوات الجبارة نحو التقدم والتحرر ؟! ..

*** وبرغم أن « ثورة التصحيح » ، كان لابد أن تقتزن بما يحدث ومع كل خطوة ، لازالة السدود والقيود في الواقع المصري ، ونحن لا نزال ومع كل خطوة ، لازالة السدود والقيود في الواقع المصري ، كما يقول السادات .. ومن خلال تيارات ومناقشات وحواريات ، ونحن لا نزال في ظروف صعبة الا أن هذا لم يعرض البلاد لأي خطر ، ويؤكد : « كنت واثقا من ايجابيات هذا الوضع ، أكثر من محاذيره ، وأن الوحدة العميقة لهذا الشعب ، خصوصا في ساعات الخطر ، سوف نصمد ، بل سوف تزيد هذه التجربة مناعة وقوة » . ويضيف : « تعلمت ، أننا ، حين نحمل العبء ، نحمله معا ، وحين نحمل العبء معا ، فإن الصعب يهون ، ذلك لأن المشاركة الشعبية في كل القضايا لا توفر الضمانات والمسئولية فحسب ، وإنما تضيء الطريق ، فيعرف كل منا الى أين يسير » .. ولربما كان من أخطر الأوضاع التي واجهتنا تلك الظروف التي استمرت منذ مايو ١٩٧١ حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، وهي ظروف جد ، صعبة ، ومريرة : « ذلك لأنه ، خلال تلك السنوات ، كانت المعركة على أشدها ، وكان التناقض بين الاشتراكية والحرية ، والذي افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء واضحا

أيضا . ان مراكز القوة التي لا يمكن لها أن تظهر أو تعيش ، بل لا بد وأن تختنق في جو الحرية والديمقراطية وجماعية القيادة ، انخذت من الاشتراكية دعوى حمايتها ، لتكسيم الأفواه ، ولتسكت كل صاحب فكر ، ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثوري ، لكي تشق طريقها الى الانفراد والتحكم في مصير البلاد بما يحقق أطماعها ونزواتها . . وخلال ، الأزمة ، وخلال المحن ، أسى المحن ، كان السادات يناشد كل مواطن أن يتمسك بالايمان ، وبعمق هذا الشعب العظيم حضاريا وفكريا ، وأن يحاول أن ينظر الى داخله ، ليبدأ بنفسه في هذه الظروف الصعبة : « ان شعبنا ، سوف يخرج من هذه الازمة ، سوف يخرج منتصرا ، وعزيزا ، سوف يخرج بعون الله ، قويا ، مرفوع الرأس ، واثقا من نفسه ، بمبادئه ، وراسخ الايمان اكثر واكثر ، يقيم نضاله وبأسلوب الكفاح العربي ، من أجل هذه القيم (١) » .. وفي مناشدته لكل فرد في هذه الأمة ، أن يبدأ بنفسه ، نجده يقول ، في صدق ، وعمق : « اننى أتمنى لو استطاع كل فرد منا أن يخلو الى نفسه ، ليتحدث اليها ، حتى يكتشفها (٢) ، وليخرج بنفسه الى الفراغ الغير محدود حتى يستطيع أن يحس رسالة الانسان ، في هذه الأرض ، وهو الذى سخر له الله ما فى البر والبحر من الدواب ليتذكر الله بقلبه وعمله وفكره ولسانه » .

❖ وهو يرى ، أن النضال الوطنى لأى شعب من الشعوب ، يريد أن يواكب حركة التاريخ ، وتقوم مسيرته هو طريق بلا نهاية ، عليه أهداف كبرى ، ولكن هذه الأهداف ، دائما متجددة ، متطورة ، باقية ما بقيت الحياة : « وشجعتنى على هذا التفاؤل بخطط مسيرتنا ايمانى المطلق ، بأن

(١) جاء هذا في خطاب السادات التاريخى لمجلس الشعب في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ ، وهو بصيف الى كلامه هذه ، قوله السديد : « لقد سارت خطانا على جسر الانتحال ، خطوة بعد خطوة ، حتى جاء مؤتمرهم بغير ما تصرفنا في مواجهة هذه الظروف » .
(٢) وكأنه في ذلك تردد كلمات سقراط : « اعراف نفسك بنفسك » ، التى لا تزال منسوخة على معبد دلفى باليونان حتى الآن ..

الوسائل جزء من الغايات ، وأتينا لا نستطيع أن نتوصل الى أشرف الأهداف الا بأشرف الوسائل » ... حياتنا على هذه الأرض ، كما يؤكد : « محدودة بأجل معين ، والعجيب ، أننا نمضي دهرنا طويلا من هذا الأجل في التحسر على ما فات ، أو الخوف مما هو آت ، أننا نستطيع أن نجعل من كل أيامنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى .. ان في نعمة الصحة سعادة .. وفي عاطفة الابوة والبنوة سعادة ، وفي حب الأهل والاصدقاء سعادة وفي الحياة الزوجية سعادة .. وفي التأمل في خلق السماوات والأرض في خضرة الشجر ، كذلك ... وفي الأمل الذي لا يقهر سعادة .. وفي جمال الزهور وفي انسياب المياه ، وفي وقفة الجبل ، وفي طلوع الشمس ، وفي سحر القمر ، وفي صفاء الروح ، وفي استقامة الخلق ، سنعرف الله ... فنسعد الى الابد » .

والسادات يرى ... أنه اذا كان في الامكان صياغة مفهوم متطور لادارة الدولة واتخاذها من وهدة الضياع والمتاهات البيروقراطية والتكنوقراطية ، والاستغالية ، والتسلقية .. اذا استطعنا الوصول الى ذلك : « فلا يخالفنا شك ، في أننا سنكون قادرين على مواجهة تحدى العصر ، خصوصا وان هناك ، مسئولية ذات طابع خاص ، وصارم ، سوف تواجهنا ، خاصة بعد انتهاء الحرب ، وهى مسئولية ما تركته الحرب من آثار ، خصوصا ، في منطقة القناة » .

❖❖ والانفتاح الاقتصادى والسياسى والفكرى ، جزء من مميزات فكر وفلسفة السادات ، فهو يرى « ان الانفتاح الاقتصادى يريد من أهمية التخطيط ، لأن خير وسيلة لاجتذاب المستثمر ، هى أن نعرض عليه مشروعات ، مدروسة ، مرتبطة بعضها ببعض ، لأن نجاح أى (مشروع) ، على حدة يتوقف الى حد كبير على تقدم الاقتصاد فى مجموعة واطراد التنمية .. وكذلك ، لأن وفود رأس المال الى البلاد ، دون تخطيط لاستقباله يمكن أن يخل بتوازن الاقتصاد القومى ، ويحدث آثارا جانبية لا يستهان

بها ، مثل (التضخم) ، أو انتشار الاختناقات هنا وهناك . على أن هذا كله ، يحتاج الى تغيير وتطوير في فلسفة التخطيط ، وفي أجهزته ، وفي مسؤولياته يجعلها أكثر دقة ، وأكثر مرونة ، وأوسع مخيلة ... فهناك التخطيط للقطاع العام ، الذى هو (رأس الحربة) ، في معركة التقدم والبناء ، لتحديد أهدافه وإعادة رسم أولوياته . . وهناك التخطيط الذى يخدم القطاع الخاص ، وهذا يكون ، عادة ، بوسائل أخرى ، تقوم على ايجاد الحوافز وتوفير الظروف التى تكفل انجابه بارادته الى المجالات التى تكون التنمية العامة أكثر حاجة اليها ، وهناك ، كما قلت ، التخطيط الذى يخدم الاستثمارات الوافدة ، باعداد الدراسات المسبقة ، وتوفير حاجاته في اطار الاقتصاد القومى في مجمله » ...

✻ والسادات .. يؤكد على ضرورة (التخطيط العلمى) ، لخدمة كل قطاعات الاقتصاد في المجتمع ، ولتغيير هيكل البنيان التحتى الى الافضل ، وبما يسمح للجماهير ، امكانية التنفس ، بل امكانية التحرك الى ما يخدم (مجتمع الوفرة) . فالتخطيط العلمى ، يخدمها ، باعداد الدراسات وتحليل البيانات ، وتوفير المعلومات ، وبوضع خطط توفير المهارات الفنية المطلوبة ، وبالتنبؤ بالظروف المرحلية القادمة للاستثمارات المختلفة وآثارها بوجه عام ، وربما كانت تجربة (المجالس القومية) المتخصصة مرحلة ما في هذا الصدد . لكن (التخطيط) الذى يرمى اليه السادات ليس هو التخطيط المبني على التجريبية المنهجية ، بل التخطيط العلمى الذى يساير ثورة العالم الثالثة ، في مجال الصناعة ، أى ثورة التكنولوجيا والالكترون والكمبيوتر - هذه الثورة التى تمثل « مجتمع الأوتوميثان » فى أعلى مراحل تطوره ، مضمونا وتكنيكا ، لكنه يربط هذا بالايان الروحى حتى لا بضيع الاتزان بين التقدم الآلى والايان العقيدى بالقيم والأفكار التى تعطى لمصر خصائصها وقسماتها الأساسية ..

✻ والسادات .. نظرتة الخاصة للثورة . سواء الثورة في مجال المجتمع الداخلى . أو الثورة المتعلقة بالتغيير الاجتماعى والفكرى ، أو الثورة كجزء

من ثورات الدول القومية التي استقلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، واخذت تناضل من أجل حرياتها ونظمها المستقلة والتي تتسم بالحيادية .. وهو بادىء ذى بدء يسلم ، بأن (الثورة) كل تغير يجرى في المجتمع على الأفكار والعقائد والعلاقات الانتاجية ، بمعنى أن الثورة تحدث التغير في البنيان الاقتصادي والاجتماعي عن طريق تغير العلاقات الانتاجية ، وفي نفس الوقت تحدث صداها في البنيان الفكري لصالح صناع الثورة .. فثورة التصحيح ، تغير في بنية المجتمع المصري ، بما يضمن الاستقرار المادى والاجتماعي للمواطن ، ليحصل على متطلباته الاستهلاكية والمادية ، ويتخطى (الأزمة) التي هي نتيجة مناخ فرضته الحرب المريرة في مواجهة اسرائيل والامبريالية العالمة ، ثم يسعى الى بناء دولة (العلم والايمان) ، التي تحقق له مجتمع الوفرة والرفاهية .. وعلى الصعيد الفكري ، تحقق ثورة التصحيح ، كافة منجزات الثورة الثقافية والفكرية ، بما يواكب التغيرات التي تحدث في بنية المجتمع المصري من خلال متغيرات ثورة التصحيح ومن خلال متغيرات العصر الذي نحياه ونعيشه ..

❖❖ والسادات .. يرى ، أن أهمية المسألة القومية تقوم ، على أساس ان تلك المسألة تترجم الضرورة التاريخية الملحة لارضاء مصالح وأمانى الجماهير - تلك المصالح والأمانى التي تظهر بشكل ضرورى ، وملح ، يمكن التكهن به من خلال مجرى التقدم الذى يحدث في الدول المستقلة حديثا ، من الاقطاعية الى الرأسمالية ، أو فى السير الى الاشتراكية ..

وفى الوقت الذى تتعدل ، أو تتغير الظروف التاريخية والقوى الاجتماعية التى تشترك فى الحركات القومية ، فإن مضمون ومميزات تلك الحركات ، الوطنية ، وبالتالي ، مضمون ومميزات (المسألة القومية) نفسها تتعدل كذلك .. وعلى هذا الأساس ، يقوم مبدأ (الفحص) الدقيق ، والتاريخى للمسألة القومية ، وللحركات القومية ، وللظروف والأشكال التى تكون بواسطتها الأمم وتتطور ، وكما يقول البروفيسور (جوليان

هوخلد (١) ، وبمقتضى ذلك ، فالمسألة القومية لكل بلد من البلاد ولكل زمن من الأزمان يجب أن تكون موضع الفحص بما يتفق مع السمات الخاصة للبلاد والأزمنة المعنية . وفي الوقت ، ذاته ، فإن المسألة القومية ، تنتمى الى عهود تكون الرأسمالية وظهور ظروف التحول الاشتراكى ، وأخيرا نمو وتعاضل الاشتراكية ، أى انها تنتمى الى عهود الترابط المستمر بين العلاقات الاقتصادية والسياسية فى العالم أجمع ، فإن فحص المسألة القومية على ضوء ظروفها المحلية الخاصة ، لا يعنى انفصالها عن المهام الأساسية للفترة التاريخية فى المستوى العالمى ، ونحن نلاحظ ، كما نعلم ، أن الحركات القومية ترتبط بالثورات البورجوازية ، وتكون فيها الحلول المحددة للمسألة القومية جزءا لا يتجزأ من التطورات البورجوازية .. كما نلاحظ ، ان الحركات القومية مرتبطة بالأمانى الديمقراطية ، وبثورات عهد الامبريالية (الاستعمارى) ، وبفضالات الجماهير ضد الاقطاعية وضد الاستعمار ، وهذه ظروف لا يمكن من خلالها حل المسألة القومية ، أما الملاحظة التى نضيفها الى هذه الملاحظات ، فهى ان البلاد التى دخلت بشكل أو بآخر فى طريق التطورات الاشتراكية ، وحيث تكون السلطة فى أيدي الجماهير الشعبية ، بقيادة الأحزاب الثورية من الشعب ، فى هذه الظروف تكون المسألة القومية جزءا لا يتجزأ ولا ينفصل بأى حال من الأحوال عن قضية التحول الاشتراكى للمجتمع .

بينما يرى المنظر والفيلسوف الانجليزى المعاصر « موريس كورنفورث » (٢) ، ان المجتمعات الحديثة ، التى استقلت فى أعقاب الحرب

(١) البروفيسور جوليان هوخلد ، هو استاذ الفلسفة والاقتصاد السياسى باكاديمية العلوم فى بولندا ، والذى نشر العديد فى الدراسات والكتب حول (المسألة القومية) ، وبالذات من الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبينها : مصر ، والجزائر ، وسوريا والهند ، واندونيسيا ، وكوبا ...

(٢) موريس كورنفورث .. استاذ الفلسفة والاقتصاد السياسى بجامعة لندن ، وأحد أقطاب الفكر الديمقراطى المعاصر ، وقد كتب العديد من الكتب والدراسات الفلسفية والاقتصادية ، بينها : « فى نقد الفكر التجريبى .. وتطور النظرة الجدلية المعاصرة » ، « أزمة الفلسفة المعاصرة » ، « الأرض التى تقف عليها بريطانيا » ..

لا بد لها أن تتجنب حدة الصراعات بين موسكو وواشنطن حتى تتمكن من حل المسألة القومية ، وحل تناقضاتها ..

ومن منطلق عدم الوقوع في منطقة الصراع الدائر بين الغرب والشرق ، وعدم الانجراف الى الوقوع في منطقة توتر فكرى أو عقائدى بين الشرق والغرب ، يعلن السادات ، أن ثورة مصر تسعى الى الحيدية الكاملة ، وتستلهم مبادئها الأساسية من الأرض المصرية وحتى لا تقع في منطقة الصدام تعمق مفاهيم الاصاله والفكر المصرى الحقيقى البعيد عن جوهر الفكر الماركسى اللينينى ، وبمعنى آخر لا تنجر الى اليمين التقليدى أو اليسار التقليدى حتى لا يقع عليها عبء الصراع بين موسكو وواشنطن .. فنحن نسعى الى الخلاص من ربة الصهيونية ، محاولين استكمال حرب التحرير القومية ، حتى نستعيد كل أرضنا ، ونبنى دولة العلم والايمان ، معتمدين فكرنا المصرى العربى ، المستمد من فكرنا الأصيل وتراثنا ، ونحن نفعل هذا ، لتمثل كل متغيرات العصر الأيديولوجية والتكنيكية التى حققها العالم في اطار الصناعة والفكر ، حتى نصل الى مجتمع أكثر كمالا يتيح (للمواطن) الحياة في وفرة وامان ، وحرية ، وديمقراطية ، وسلام ..

*** السادات .. المفكر ، والقائد ، والبطل .. حقق على المستوى المحلى ، والقومى والعالمى ، ومن خلال أفكاره ونظرياته ، ومن خلال ايديولوجيته الواضحة التى تعطى انعكاساتها في الممارسة والتطبيق ، وخلال الحياة اليومية المتعلقة بظروف مجتمعنا الداخلى ، ومن خلال استكمال منجزات ثورة التحرير ، ومن خلال التحرك العربى والعالمى الذى يربطنا أكثر وجدانيا وماديا بمتغيرات العصر وثورته التكنولوجية والعصرية .. حقق عشرات المكاسب الوطنية والديمقراطية (داخليا ، وقوميا ، وعالميا) .. وكما نحس ، ونلاحظ ان السادات ، عندما بدأ يمارس مهامه كرئيس جمهورية في عام ١٩٧٠ ، كان الاحساس تجاهه صعبا .. فقد ردد الكثيرون العديد من الأقوال التى لا تجعل الثقة من علامات المستقبل ، ورغم ذلك لم

يأس السادات ، كبطل وكمناضل ، أراد أن يحقق ما يرمى اليه من مخططات اسرانية في صمت ، ودون ما صراخ ..

وفي البداية ضرب الفكر الذي قاد الى هزيمة ٦٧ ..

ثم نبذ الفكر التجريبي الذي كان من سمات كهانة الخمسينات والستينات ، ووضع خريطة اسراتيجية للعمل ، مبنية على العلم والفكر العملي ، وعلى أساسها (جهاز) عملية العبور ، ثم نجح بأن عبر بمصر الهزيمة فأحس به الشعب ، بل والأمة العربية ، كبطل قومي يعبر بمصر والعرب الى الانتصار ، بعد التصحيح كمنظر ومفكر ثوري ومناضل من الطراز الأول .. ومع التفاف حركة الجماهير حوله ، بدأ يتحرك أكثر ، على النطاق القومي والعالمي ، وبدأ كزعيم سياسي يشارك لا في فكر مصر أو في فكر العرب ، بل ويشارك أيضا ، في تحريك دفعة السياسة الدولية ، فبعد ما كانت السياسة في المنطقة تسير الى عدم الاستقرار ، ومعاداة واسعة على المستوى القومي والعالمي ، فلب الميزان : حرر مصر ، وأعاد الروح المبتعدة للعرب بالعبور ، وفتح قناة السويس ، وقضى على حالة الالتهاب والتوتر ، وفتح الطريق على مصراعيه لامكانية الوصول الى حلول سلمية ، بعد أن خاض معركة مريرة ، أكد فيها للعالم قدرة العرب على الصمود والحرب ، وامكانياتهم لاسقاط اسطورة التفوق العسكري الاسرائيلي ، وبعد ذلك كله ، بدأ يتحرك لاستكمال قضية تحرير الارض ، بالنسبة لدول المواجهة ، وكذلك السير في اتجاه حل مشكلة فلسطين باقامة دولة فلسطين ، وعودة حقوق شعب فلسطين السليبة اليهم ، وذلك كله في اطار تحريك وتوظيف كل القدرات ، وتجميع الرأي العالمي كله في صف العرب قبل أن يتم عقد مؤتمر جنيف .

❖❖ ويرى السادات .. ان (التحرير) ، لا يتحقق بمجرد الفوران العاطفي ، أو بمجرد الرغبة فيه ، وإنما يتحقق التحرير باحتواء منطق العدو وتطويق سياسته :

« ففي هذا الجو ، فان التحرير ينجز مهمته .. ولنا من الذين يقبلون

أن يحاسبوا الناس بأقوالهم ، ولكننا من الذين يريدون أن تكون الأفعال أساس الحساب .. لا نقبل بعير ذلك من رفاق نضالنا ، ونقبل به من هؤلاء الرفاق في النضال اذا وجهوه اليينا » .

وتحرير الارادة العربية ، يعنى ، في الدرجة الأولى ، أن هذه الارادة ستوجه مواردها في بناء قوائها الذاتية ، وتنمية أوضاعها المادية والاقتصادية ، من أجل مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، وبالتالي ، فإن (حرب التحرير) ، تنشأ ، أساسا بين القوى الوطنية والاستعمارية ، وأيا كانت طبيعته النظام القائم فالعداء الذى بين الدول الوطنية التى تقيم الاستقلال القومى في مجتمعاتها وهى تصارع القوى الامبريالية ، مسألة جوهرية ، ويرتبط النضال في مواجهة اسرائيل وضد الصهيونية بالنضال ضد الامبريالية العالمية ، والشعوب العربية بادراكها الواعى ، وفهمها لطريقة التناقضات قد وعنت هذه الحقيقة الجوهرية ..

واستراتيجية الثورة العربية ، تسعى الآن ، وتتحرك من أجل استعادة كل الاراضى السليبة التى لا زالت تحتفظ بها اسرائيل ، وما تحرك السادات على المستويين القومى والعالمى ورحلته الى سالزبورج في النمسا ، ولقاءاته المتنوعة بعد ذلك مع « د. هنرى كيسنجر » ، وتبادل وجهات النظر والحوار مع الرئيس الامريكى « جيرارد فورد » الا خطوات في هذا السبيل ...

وكذلك ضمان وتأكيد حقوق شعب فلسطين لأن تحرير فلسطين مطلب أساسى وحتمى للثورة التحريرية ، وجزء جوهرى من متطلباتها الملحة ..

ويؤكد السادات على حتمية منجزات ثورة التحرير ، فلن تعوقها أى صعاب ولن تقف أى سدود في وجه حركة الجماهير الثورية العريضة من أجل تحقيق آمالها وآمالها الكبرى .. فالتضامن الأممى والوحدوى بين الشعوب العربية والمناضلة للتحرر والتقدم لا تمليه اعتبارات استراتيجية فحسب ، بل وفكرية وحضارية أيضا .. فالسبيل الوحيد لقوى التحرر الوطنى في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، لدعم قواها والتحامها بالجماهير العريضة ، وتحقيق أهدافها في خلق مجتمعات متقدمة ، ليس ان تظل قوى

تحرر وطني فحسب ، وانما ان تكون ذات آفاق عصرية تتجه باقتصادها وفكرها الى الأكمل والأفضل والذي يواكب متغيرات العصر ، وما نموذج « دولة العلم والايمان » ، الذي يؤكد عليه السادات ، الا مثال واضح على ذلك ..

فهذا (النموذج) يتمثل منجزات ومهام الثورة التحريرية ، مثلما يتمثل صورة المجتمع المتقدم الذي يحقق الرفاهية والرخاء لمواطنيه ، في ظل قيم وأهداف نبيلة تكفل الحرية والديمقراطية والسلام للمواطن : « نحن ، اليوم ، نستهدف أن تكون حريتنا السياسية أساسا لتحررنا الاقتصادي والاجتماعي ، وأن تكون سيطرتنا على مواردنا ، أساسا ، لبعثنا وتقدمنا الحضارى . لقد بدا رواد عدم الانحياز في عالم تتقاسمه الكتل العسكرية الكبرى وتتخاطف شعوبه ، صراعا فيما بينها على مناطق السيطرة والنفوذ واستئنارا بالمتحالفين . اننا لا نريد أن تكون شعوبنا وقودا للحرب ، ولا بلادنا ساحات للمعارك ، ولا نريد أن تكون أراضينا قواعد عسكرية .. طالبنا بالسلام ، وسعينا له .. وثأكد هذا السعى في أول مؤتمر لدول عدم الانحياز ، بانئداب بعض رؤساء منا للمطالبة بإيقاف تفاقم الصراع ، عاملين في ظروف دولية بالغة الخطورة ، والعمل على منع تفجر القنابل التي لا تميز بين ضحاياها ولا نختار أشلاءها من المتحاربين فقط . . لأننا كنا نريد أن نكرس جهودنا ومواردنا بالعمل والسعى للتقدم والتطور للشعوب جميعا ، للقلة المتحكمة في العالم والمسيطرة على موارده ومصائره .. كنا نريد السلام اطارا لحياة عادلة غايتها الخير للجميع ، واذا كان الحديث يدور الآن حول الوفاق بين الكتل الكبرى ، وحول ابتعاد أخطار الحرب العالمية النووية ، فواضح أن هذا (الوفاق) ، لا يتحقق ، اذن ، ضد ارادة الدول غير المنحازة أو على رغم منها ، بل انه يتحقق في الواقع ، تجاوبا مع ارادتها وسعيها » ..

✻✻ وكانت محاولات التجزئة ، ومحاولات احتلال الأرض العربية ، كما يقول السادات ، بل ومؤامرات احتلال الأرض ، ومؤامرات احتلال النفوس ، كانت كل هذه المحاولات تستهدف اعاقا الثورة الوطنية

الديمقراطية ، كما كانت تحاول أن تضع العقبات تلو العقبات في طريق النورة العربية وأهدافها التحررية ، ويقول السادات :

« .. وقد لعبت الصهيونية العالمية دورها المعروف لخدمة هذا التحالف العدواني ، وهي جزء منه ، وطلبة له ، وكان ما كان من عدوان عسكري متكرر باركه وشارك فيه الاستعمار العالمي ، ووقف العالم العربي كله يواجه الامتحان الرهيب لارادته ولصلابته ولقدرته على خوض معاركه بسلاح النصر .. »

❖❖ ويرى السادات .. أنه من الخطأ الجسيم ، أن نقول عن (العبور الظافر) ، انه معجزة ، لأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وانما يجب أن ننظر اليه على أنه ذروة للعمل الوطني :

علينا أن تتمثل درسه ، لكي نتخذه نمطا ترتفع الى مستواه كل جوانب العمل الوطني .. ان أعظم تقدير لأيام القتال المجيدة ليس التغنى بها ، وانما استلهاهم معانيها لكي نحرز في مختلف مجالات العمل الوطني ، ما أحرزناه في العمل العسكري . ليكن شعارنا ، دائما أنه ما دمنا قد استطعنا في ساحة القتال ، فانه يجب أن نستطيع بنفس المستوى في كل مجال . ان المقاتلين هم صفوة من أبناء هذا الشعب ، وما صنعوه في مواجهة العدو الشرس الغادر المدجج بالسلاح ، يستطيع أبناء هذا الشعب أن يصنعوه في مواقع الانتاج والخدمات ، لنقهر التخلف ، وتخلص من السليبيات الموروثة ونؤكد بالانجاز ، ان مصر - أكتوبر ، هي مصر المستقبل . ان نصر أكتوبر لم يكن مصادفة ، ولم يحدث في غفلة من الزمان ، كما يريد العدو أن يصور وانما هو ثمرة عوامل كثيرة للشعبور الوطني الجامح الذي سرى في وادي النيل .

❖❖ وكجزء من استراتيجية الثورة ، يركز السادات على القوى الفلاحية ، كسواد أعظم من الشعب المصري ، وكجزء أساسي لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية :

« لابد من الاتجاه الى الريف .. ان أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا ، الذين يكونون غالبية الشعب ، لم يلحقه تغيير صحيح ، لا في وسائل الانتاج ، ولا في السكن والغذاء والصحة ، ولا في تحصيل العلم والثقافة .. والتنمية الزراعية ، كما نعرف ، بالنسبة لمجتمعنا ، تبرز كضرورة حتمية ، وكجانب رئيسى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .. » .

لابد من الاهتمام بالريف ، لأن الثورة الوطنية ، ان لم تصل الى الريف ، فلا فائدة منها ، ولا ضمان لها ، ولتحولت الى ثورة (أفندية) أو ثورة (بورجوازية صغيرة) .

لابد من الاهتمام بالريف ، فمثلما رفع ماوتسى تونج « شعار من القرية الى المدينة .. ومن المدينة الى القرية » ، لابد أن نحمل الشعار ، ولكن من خلال حسنا المصرى ، ومن خلال جوهر فكرنا الأصيل ..

والفلاحون ، هم الضمان الجوهري لاستمرار الثورة ، فمتى وصل اليهم الوعي والادراك ، وسلحوا فكريا ، بمعنى انهم انتقلوا الى (الثورة) ، أو انتقلت الثورة اليهم ، فلا يمكن اختراق سياج ثورة مصر الوطنية الديمقراطية ..

*** ويؤكد السادات ، فى تعاليه ، كمنظر ، ومفكر ، وقائد وطنى ، على ضرورة تأكيد وتعميق (الشخصية المصرية) ، وهى جزء من الشخصية العربية العامة ..

بمعنى أن خصائص مصر وسماتها الفكرية والنفسية والسلفية لابد أن تبعث وتحيا من جديد ، باستلهاام الكنوز التى تحتجزها حضارتنا التى يصل عسرها الى سبعة آلاف سنة ، ولا بد أن تغتنى « الشخصية المصرية » ، فى تطورها بكل ثقافات ومنغيران العصر ، حتى لا تبدو معزولة عن كل مستحدثات ما يجرى فى العالم من تقدم وتطور ..

كما لابد أن تغتنى هذه الشخصية بالفكر العربى ، تشريه وتغتنى به ، تعطيه ويعطيها ، من أجل مزيد من تعميق الوجدان العربى ، ودعم وحدة الصف العربى الذى يسعى الى مزيد من التآلف والوحدة فى كافة المجالات على اختلاف ألوانها ..

*** ثم لا بد من التمسك بأهداف وقيم ومبادئ مصر الأصيلة ، التى نجدها فى القرية المصرية ، فى نخوة وشجاعة و ارادة الفلاح المصرى ...
فالسادات يدعو مصر كلها الى أن تلغى خلافاتها ومشاحناتها ، من منطلق أن مصر فى النهاية ليست الا قرية صغيرة ، يجمعها رباط الأسرة ووحدة العلاقات الاجتماعية الواحدة ..

والزعيم الحقيقى « أو القائد الحق ، هو من يقوم بدور (رب البيت) من أجل الحفاظ على تماسكه وقوته وسلامته ، فليس دور القائد ، فقط ، هو انجاز المهام الفكرية والسياسية والعسكرية ، فانه من العسير انجاز هذه المهام دون احاطتها بقيم ومثل وأخلاقيات .. » .

السادات .. كمفكر ، وقائد ، ومعلم ثورى ، وبطل قومى .. يختلف عن أى زعيم فى عصرنا ..

فهو يتميز بالبساطة الشديدة ، هذه البساطة التى هى نتاج التجربة والاحتكاك الأصيل بالجمهير ، فى غبار المعترك الثورى بين الثلاثينات والستينات ، وخلال تجربته منذ أن تولى الرئاسة فى ١٩٧٠ حتى الآن ... هذه البساطة ، هى المطلق الى العمق ، والحكمة ، والاتزان فهو لا يميل الى الانفعال ، ولا يأخذ الأمور مأخذ النظرة السريعة ، ولا ينظر لأى قضية من بعد واحد ، ابتداء من مشاكل وقضايا أسرته الى مشاكل الحرب والسلام والديمقراطية والتحرير .. وهو يؤمن بأن الانسان لا بد أن يبدأ بنفسه كـ (مثال) ، ان أراد ، أن يعمم قيما ما أو أخلاقيات بذاتها ، ويتمثل قول سقراط الذى لا زال مكتوبا على معبد دلفى باليونان « اعرف نفسك بنفسك » ..

ومن هذه النظرة الى (الداخل) ، يصل الى ما يسميه بـ (النجاح الداخلى) ، ويقول فى هذا :

« أؤمن بالنجاح الداخلى . أؤمن به لأنه لون من النجاح لا يحسه الناس فى أغلب الأحيان ، وانما يحس به خيالى ، ويحدثنى عنه وجدانى ... ومن طبيعة هذا اللون من النجاح ، أنه يملأ الانسان ثقة فى نفسه ، ورضاء عنها

وإذا ما رضى الإنسان عن نفسه في هذه الدنيا ، فقد فاز بأكبر درجة من درجات السعادة .. والإنسان سعى الى النجاح الداخلى واحس به ، وكان مالكا لأعظم متعة روحية تحطم أمامها الكثير من متاعب هذه الحياة وآلامها . فقد اعتدنا في حياتنا على أن النجاح الخارجى الذى يراه الناس فينا هو النجاح الوحيد الجدير بأن نسعى اليه ، ونشقى في سبيله واعتدنا ، أيضا ، أن لا تنقيد بالوسائل في سبيل بغوغ هذا النجاح لكنى نطلع به على الناس .. وقليل منهم ، من يسأل كيف كان هذا النجاح ، وانتصارات الإنسان في نجاحه الخارجى لابد أن يلمسها الناس في مال أو جاه ومنصب ، سيسعد به صاحبها ، ولكن سعادته سنظل مفيدة ومعلقة بما يراه الناس ، لأنه أسس نجاحه على رأيهم .. أما انتصارات الإنسان ، في نجاحه الداخلى ، فلن يعرفها أو يحس بها إلا صاحبها ، لأنها انتصار لمبدأ قويم ، أو لمعنى سامى ، أو لفضيلة معينة ، سسعد بها صاحبها ، أيضا ، ولكن الى الأبد .. سيسعد أن يكون مركزا لاشعاع المثل الطيب ، والمبدأ العويم والايمان بكل ما هو كريم وشريف في هذه الحياة .. وسيسعد لأن بريق هذه الانتصارات لن يذهب ، أبدا ، بل سيظل يضىء كلما تقدمت السنوات والأيام ، وسيظل صداها يحفر لانتصارات أخرى ، لن تكون الا كريمة وشريفة .. سأظل أؤمن بالنجاح الداخلى ، حتى لو لم ينعكس على الناس لأنه لن يوزن في يوم بسوازين النجاح الخارجى .

والساعات .. لا يجب الركون الى الهدوء ، ولو في لحظات قصيرة ، يبدو ، دائما هوسا بمشاكل وطنه ، تلج عليه في كل لحظة ، حتى وهو يتناول طعامه ، حتى وهو يتناول القهوة ، حتى وهو بين أهله وعشيرته .. ولا يجد لحظات من الهدوء الا في القناطر الخيرية ، حيث يحيا لحظات من الهدوء ، لساعات قليلة ، مع أسرته وعشيرته ، يعود بعدها ، ليغرن في مشاكل مصر والعرب ، ومختلف القضايا : فهو يحمل المسؤولية كلها على عنقه ... وببساطة وعمق القائد الثورى ، يصل الى حلول لكل المشاكل على اختلاف مستوياتها ، سواء كانت فكرية أم اجتماعية أم اقتصادية .. ولا يجب

حياة الروتين ، وغير مال للمكاتب ، حتى أنه عندما يقرأ في لحظات خاسية يفضل الا يجلس الى المكتب ، بل يختار أحد الكراسي ، ويبدأ القراءة ، وهو يدخل نحيونه لدى عادة ما يرافقه الشاي أو القهوة .. وفي غرفة مكتبه ، بقصر عابدين ، لا يشعر ، غالبا ، ببرد الراحة ، اذ يذكره جوها الرسمى المتزمت ، كما يروى السادات لمن يزورونه ، بالسجن الحربى الذى اعتقل فيه لفترة ليست بانقيلة في أيام الحرب العالمية اناذة ، بتهمة التآمر على طرد الحكم البريطانى من مصر ، لكنه يصبح على سجيته تماما عندما يذهب الى القناطر ، فيحس بالراحة ، ربما لأن الخضرة تذكره بحياة القرية التى تربى ونما على ارضها ، فهو ميال للخضرة ، ولا يستديع أن يحيا بعيدا عنها فهى تشارك في اعطائه برد الراحة ..

والسادات ، يحيا في بيته كأي انسان عادى ، يأكل الاكلات الشعبية ، ويمارس حياته كأي انسان بسيط في عفوية شديدة .. مع رفيقة عمره ونضاله سيده مصر الاولى : « جيهان السادات » ، ومع أبنائه ..

وجيهان السادات عطاء حى ومتطور لأنبل ما في مصر من قيم ونبل المرأة المصرية ، في كرمها ، في وعيها ، في نشاطها ، في اقبالها على كل عمل يخدم مصر والعرب ، وكان لدورها الطليعى في الحركة النسائية ، وفي زياراتها للعجبة ولأسر الشهداء بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، الأثر الكبير في رفع المعنويات واثروح الوطنية ، وفي بذل كل الطاقات من أجل مصر في مسيرتها الصعبة .. وهى تذكرنا بزوجة « صان - يات صن » ، الزعيم الصبنى العظيم ، فقد كانت تقف وراءه ، في قوة ، وثبات ، تلممه الصبر ، وتساعده على وجود المناخ الملائم حتى يفكر ، ويعمل ، في ظروف صحية للغاية كما تذكرنا بأندرا غاندى في نضالها وفي نشاطها لتنظيم الحركة النسائية وفي كفاحها من أجل الوطن .. كما تذكرنا بنادي زهادا ، التى الهمت لينين القوة والصبر والشجاعة حتى انه قال « لقد كانت المرأة التى فرست طريقي للشمس لأسير الى كل أهداف وأهداف الوطن ، في طمأنينة وثقة وشجاعة » . ونفس الكلام ، أو شبيها منه ، يحسه السادات ، من خلال الحياة

الناضجة الواعية ، والمناخ العاطفي والحسى والأسرى الذى يحسه فى داره بين أهله وعشيرته ... وتعترف سيدة مصر الأولى « جيهان السادات » بأنها قد ارتبطت بالسادات ، كزوج ، لماضيته الثورى المضى ، ولأنه سجن وشرد وعانى من أجل مصر ، ومن يفعل هذا كله ، لا بد أن تكون لديه أنبل القيم وأخلص المبادئ ، ويعرف كيف يعامل (المرأة) ، لأنه يعامل مصر ويخلص لها ، بل يتفانى من أجلها ، وتحمل السجن ، والهروب من البوليس السياسى ، بل وتعرض للاغتيال لأكثر من مرة ، ومن الأخوان المسلمين ، منذ قرابة عشرين عاما ، وكل ذلك من أجل مصر .

وجيهان السادات ، تقف الى جوار زوجها فى كل اللحظات السياسية والفكرية ، مثلما تقف الى جواره كزوجة مثالية .. عندما واجهت مصر هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وكان السادات وقتها رئيسا لمجلس الأمة ، وقفت الى جواره فى محنته ، فلم تجده محزونا مثلما رأته فى تلك الأيام .. وانطلقت جيهان السادات مع زميلاتهن النساء وتبرعن بدمائهن فى الهلال الأحمر ، من أجل أبناء مصر الجرحى وخلال أكتوبر ٧٣ ، وقفت المواقف البطولية النادرة ، وكان السادات ، لا يحس بنفسه من فرط الاشتغال ، حتى عندما استشهد أخاه (عاطف) ، فى أول طلعة طيران مع ثلاثة من زملائه الطيارين ، أخفت عنه الأمر تماما ، واختارت اللحظة المناسبة لتقول له ، لأنه كان يحب عاطف جدا جدا ، وفقده فى المعركة ، مثلما افتقد ماوتسى تونج إيه فى معارك الأربعينات ضد كائى شيك وأمريكا واليابان ، ولحظتها قال : « ابن الصين .. وأبى شهيد من الصين ابنى ، والمعركة لا تترك لنا حتى الفرصة لندمع » .

ونفس الكليات ، أو شبيهة لها ، قالها السادات ، عندما علم بأمر استشهاد (عاطف) .

وكانت لرحلات جيهان السادات الى ألمانيا ، وفرنسا ثم المكسيك ، أثرها السياسى الخلاق ، فى تأكيد دور المرأة المصرية والعربية على المستوى السياسى والدبلوماسى ..

قال المفكر والفيلسوف الانجليزى المعاصر « موريس كورنفوت » :
« ان بطل العصر ، هو الذى يستطيع ان يدرك ظروف قومه وعصره ، فى
وعى ثورى ناخج ، ينبثق أساسا من مصلحة قومه ، ويترجم فى أشكال
سلوكية وممارسة ذاتية عملية للرجل ، فى تلاحم ، لا تكاد من فرط الدماجه مع
الجماهير ، تحسه ، لانه يصبح كالموجة العالية الهادرة بين ملايين القطرات
فى خضم البحر الكبير » ...

هكذا يبدو (البطل القومى) ، لبلاده ، فكرا ، وقيادة ، وسلوكا ..
وهكذا يبدو السادات ، الذى يمثل أنبل ما فى مصر من قيم ، ونبل ،
وفكر ..

فهو ليس الا عطاء لهذه المرحلة ومتطلباتها الاستراتيجيه والأيدىولوجية
والسياسية ، فحسب ، انه عطاء لحضارة مصر التى تصل فى عمرها الى سبعة
آلاف سنة ، انه عطاء لأخلص ما فى العرب من قيم وأخلاقيات ، ومن خلال
التحامه بالجماهير العربية ، فى معارك الحريات والديمقراطية والحرب ، ومن
خلال قيادته لثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، ومن خلال تجميعه للعرب
وتبديده لكل التناقضات الثانويه بينهم ، ومن خلال عبوره بمصر فى أكتوبر
وتخطيه الهزيمة وصياغته للنصر ، وما أعقب ذلك من انفتاح عربى وديمقراطى
ومن سلسلة المكاسب التى مارسها على المستوى المحلى والقومى والعالمى ،
اكتسب السادات ، من خلال كل هذا صفاته العظيمة المعطاءة ، المميزة ..
كبطل قومى ، وقائد ثورى ، ومعلم ومنظر من الطراز الأول .. صنع الكثير
من المكاسب والمنجزات لهذه الأمة ، ويتحرك ، لاضافة الجديد من المكاسب ،
من أجل مزيد من الحرية والديمقراطية والرفاهية والسلام ، لجماهيرنا
وللجماهير العربية ، التى تسعى لاستكمال مهام الثورة التحريرية على الأرض
العربية .. والسادات بطلها ، وهاديا ، وفارسها ..

وتعاليمه ، وأفكاره ، ونظرياته ، هى خير منارة للسير الى آفاق أرحب
والى مستقبل آمن ، يكفل مزيدا من العدالة والحب والسلام ، لكل الذين
يحيون على هذه الأرض التى عاشت الكثير من الويلات ، وذقت شتى
صنوف ألوان الضغط والقهر والمعاناة ..

الفصل الثامن

السادات في مرآة العالم

« ان السادات ، حريص كل الحرص على السلام ، وان لم يتحقق هذا السلام بكرامة ، فان الوضع يتغير ، لان السادات ، لا يرضى ، أبدا ، بانصاف الحلول ، ثم انه يتميز بالجرأة ، والشجاعة ، والاقدام ، ودائما ، يسير في طريق الحل السلمي والدبلوماسي ، فاذا اعياه الامر ، يلجأ الى السلاح ، بعدما يقنع العالم كله ، بان صبره قد استنفد ، وعليه ان يحقق امانى ومطالب شعبه والمنطقة ... »

السناتور الأمريكى : شارلز بيرس

مجلسه ششم
در روز شنبه ۱۳۰۲/۱۰/۱۵
در محل اجتماعات
در ساعت ۱۰ صبح
حاضرین: آقایان: ...
غایبین: ...
موضوع: ...
قرارداد: ...
تصمیمات: ...
مجلس ششم

تعبّر دائماً ، عن مصلحة . هذه حقيقة من المستحيل تغييرها ...
ومواقف الكتاب الأجانب من الفضيه العربية ، كانت دائماً
تعبيراً عن مصالحهم . ولكن أنور السادات ، لم يكن شخصية
عادية ، لقد استطاع أن يلفت أنظار الكتاب الأجانب ، ليس

الكلمة

فقط بأعماله ، كثورة التصحيح ، أو العبور ، أو ما أحدثه من تغييرات جذريه
في بنية المجتمع المصري وفي كل المنطقة العربية ، بل بصراحته ، وبساطته ،
وحكمته ، واتزانه غير العادي ، وجراته الشديدة ..

وما كتب عن السادات ، كشخص ، كإنسان ، يفوق ما كتب عنه أي
زعيم معاصر . لقد هاجمه الكثيرون من الكتاب ، خاصة في الغرب ، في
السنوات التي سبقت حرب أكتوبر ، وحاولوا أن يقللوا من الجهود التي
يبدلها ، بل حاولوا ، أن يصيبوا المنطقة باليأس . . . ولم يكن الغرب وحده
هو الذي يهاجم ، بل أن الكثير من الصحف والدراسات التي صدرت في
أكثر من عاصمة عربية ، أخذت تقلل من الأدوار البطولية للسادات ، ولمصر ،
والعرب ، محاولة النيل من الثورة العربية ، وكان السادات ، دائماً ، يرد
على هذه الافتراءات ، وفي حديث له مع « سليم اللوزي » الكاتب اللبناني
قال في ابريل ١٩٧٤ : « نحن نشغل بالسياسة ، الآن .. لا نستهدف عنثريات
... للحرب لغة تختلف تماماً عن لغة السياسة .. وعلينا ان نفرق بين اللغتين »
وبكلام آخر : « كانت المعركة تسير .. وكل معركة يبقى فيها الجانب
العسكري والجانب السياسي . فقبل أن نبدأ معركتنا ، كان التركيز على
الجانب السياسي ، في الوقت الذي كان الاعداد للمعركة العسكرية بعد
وقف اطلاق النار . التركيز الذي كان أكثر على الجانب السياسي . ولكن في

نفس الوقت كان الاعداد العسكرى مستمرا فى مراحل انجاز معركتنا ، بشقيها العسكرى والسياسى . لكن الهجوم ، ليس الصورة الأساسية ، (بقعة) صغيرة يحاول (البعض) الصاقها بالصورة العظيمة ، التى تبدو حقيقتها كالشمس .. وأشبه (هؤلاء) الذين يحاولون أن يقللوا من جهود السادات ، أو مصر ، أو العرب ، بالذين يحاولون اطفاء الشمس بأنفسهم الضعيفة ، هل يسكنهم ذلك ؟ !

وليس من كاتب جاد - فى الشرق أو فى الغرب - الا ، وأكد ، أن السادات ، شخصية فذة ، لا نظير لها ، ولم يسبق للعرب أن قادهم زعيم مثله ، يتحلى بكل هذه الصفات والقسمات ، التى أوصلت مصر والعرب ، الى هذه النجاحات التى هى عليها اليوم .. وعلى مدار خمس سنوات ، كان الاهتمام بين الكتاب العالميين ، يزداد لتفهم شخصية وسياسة وفكر السادات ، وربما يبادر الى اذهان بعضهم فى البداية ، وبالذات ، خايل عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ ، ان ما يقوم به مجرد محاولة للاستمرار بالأوضاع كما هى حتى تحدث (معجزة) ، لكنهم تأكدوا ، بعد قليل ، أنهم أمام شخصية فريدة فى التاريخ ، وأن سياسته ليست مشابهة لأى سياسة سابقة .. وبعض هؤلاء الكتاب راقبوا السادات وسياسته عن بعد ، وبعضهم قابله وأجرى حوارا معه مثل كتاب مجلات وصحف : « النيوزويك » ، و « التايم » ، و « النيويورك تايمز » ، والكثير من الصحف الألمانية والسوفيتية والأمريكية والهندية ، بل ووكالات الأنباء والتليفزيونات الفرنسية والأمريكية والألمانية والنمساوية والرومانية ، بل عشرات أجهزة الاعلام فى مختلف القارات .

*** فى مايو ١٩٧٤ ، كتبت مجلة (التايم) الأمريكية ، تصف السادات فقالت :

« انه ابرز القادة الذين حكموا مصر ، فهو رجل قوى ، يتميز بالحكمة ، وبعد النظر » (١) .

(١) مجلة (التايم) الأمريكية ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٣ مايو ١٩٧٤ .

ونشرت المجلة الامريكية حوارا طويلا مع الرئيس ، أجراه : ويلتون وين
وكارستن براجر .. وقد قالت مجلة (التايم) :

« ان السادات يعنج الباب ، ويسعى لبناء مصر الحديثة،
وانه بدا الانفتاح في جميع المجالات ، مستهدفا بذلك اجراء
اصلاح شامل بعيد المدى في كافة المجالات السياسية
والاقتصادية للمجتمع المصرى » .

وقالت مجلة (التايم) ، أيضا ، أن المستثمرين الأجانب ، يحملون انطبعا
قويا بجدية مصر ، ففى خلال أكثر من عام بقليل ، تم التوقيع على ١٣ اتفاقية
دولية بترولية ، كما أخذت البنوك الغربية تستعد لفتح فروع لها في
مصر ..

*** وفى يونيو ١٩٧١ ، أى فى أعقاب حركة التصحيح ، كتبت صحيفه
« الدبلى ووركر » الانجليزية ، تقول : « ان الحركة الاصلاحية التى قام
بها الرئيس المصرى أنور السادات ، تستهدف ازالة مراكز القوى ، التى
كانت تقابل المماليك والجراكسة فى مصر فى القرون الماضية ، فكانت هذه
القوى تعرض بالثورة الى مواطن الخطر ، لكن هناك الكثير من المخاوف
على الرئيس المصرى ، خاصة وأنه ضرب ضربة لا يستهان بها من عتاة
الناصرين » .

ويكشف كاتب انجليزى آخر ، التقى بالسادات ، عن شخصيته ، فيقول
ان السادات ، كائنسان ، يبدو ، حقا ، غريبا ، أبدا لا تحس حياله بألك امام
رئيس جمهورية ، انه يتميز بالبساطة ، والوضوح ، والارادة الصميمة
الواضحة ...

وأكثر من صحفى ممن التقوا ، بالسادات ، أحسوا ببساطة الرجل القوي ،
الذى يتحدث اليهم فى بساطة ودون ما كلفة ، فى مكتبه بعابدين ، أو فى قصر
القبه ، أو فى حفل كوكتيل أو فى استراحة المعمرة ، أو فى استقبال خاص
أو مؤتمر صحفى ، ذهلوا من هذه البساطة التى يتحلى بها الرئيس المصرى

وقد أخذت هذه الصورة (ويلتون وين) ، الذى تعرف على السادات منذ فترة ليست بالقصيرة ، فقال .. ان السادات يكره الفخفخة وحب الظهور ، والبساطة والوضوح أقوى ما لديه من أسلحة ، وزيارة واحدة لمنزله ، أو لمكتبه ، تظهر كيف أن الرجل احتفظ بعاداته البسيطة التى نشأ عليها فى قرينته الصغيرة » . ويصف « كارستن بارجر » ، الى زميله ، قائلاً : « انه يبدو كالدينامو البشرى . قلنا يجد متسعاً للراحة ، أو الوقت لبنام ، ولا شيء يشغله أو يبالاً عليه وقته الا قضية مصر والعرب ، فهو مهووم ، جد ، مهووم بها الى حد بالغ » .

*** وقد كتبت صحيفة رومانية ، تقول : بأن شخصية السادات ، تعبير عن الكرامة العربية الأصيلة ، فى بذلها وسخائها ، وهذا يتجلى واضحاً فى كل تصرفات وسلوك الرئيس المصرى .

*** وقد كتبت مجلة « نايم » الأمريكية ، تعلق على الحريات السياسية والديمقراطية والمناخ الآمن ، الذى بدا يحسه الإنسان المصرى ، فى ظل القوانين الدستورية والتعاليم الثورية ، التى سادت فى عهد السادات فقالت : « ان معسكرات الاعتقل التى كانت تمتلئ بالسياسيين المصريين ، وبالتقنين الثوريين على اختلاف ألوانهم واتجاهاتهم ، قد فضت ، وأصبحت خالية ، ولم يعد المصريون ، يخشون من الاعتقالات التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للأفراد ، ولا الرقابة الصارمة على الصحافة .. لقد بدا يسود مناخ الطمأنينة والأمان ، ويحس به كل مواطن فى مصر » .

*** وفى لقاء السادات « مع ولتون وين » صرح الصحفى الأمريكى الذى تخصص قرابة ثلاثين عاماً فى شئون الشرق الأوسط ، انه مأخوذ بشخصية الرئيس التى تتسم بالبساطة والسماحة ، والقدرة على ان يعبر عما يجيش فى نفسه بصدق بالغ . وقد كتب (وين) عن السادات ، يقول :

« ان الرئيس أنور السادات ، معروف في العالم أجمع بأنه رجل السلام والاستقرار ، والعالم ، كله ، ينظر للسادات باعتباره الزعيم القوى المحبوب من شعبه ، والذي نجح في توحيد كلمة العرب ، والذي يعمل جادا لبناء مصر الحديثة ، ومن أجل السلام والاستقرار ... فقد استطاع السادات ، أن يؤكد بسياسته الحكيمة اصراره على السلام ، ومن خلال هذا المنطلق اكتسب حب العالم كله له ، بل انه اكتسب صداقة جميع الشعوب ... وقد حدث تحول كبير في الراى العام الأمريكى اليوم ، تجاه مصر ، وتجاه الشرق الأوسط ، وبدأ ينظر بتقدير كبير للرئيس السادات ، ويتطلع الى التعاون المصرى الأمريكى ، وصولا الى الاستقلال والرخاء والسلام في الشرق الأوسط والراى العام الأمريكى ، يؤمن ويشيد بسياسة السادات ، وبؤمن بأن العلاقات بين البلدين تركز على الواقعية والصراحة والحقائق ، بعيدا عن الاثارة والعواطف ، وانى اعتقد أن جميع الاتفاقيات التى تم توقيعها أو انفق عليها ستنفذ دون تغيير » .

❖❖ وقد وصفت صحيفة « التايمز » الرئيس السادات ، بقولها :

« ان الهدف الذى يود الرئيس السادات تحقيقه ، هو توفير العمل الشريف لكل مصرى ، والسادات يحشد كل القوى من أجل السلام ، بنفس القوى التى حشد بها الطاقات للحرب ، واسهم الرئيس السادات في القمة ، فالمصريون يحبونه كالأب ، والعرب يعتبرونه الزعيم الروحى والفكرى لكل المنطقة ، وهو الأب الشرعى للمنطقة بحق » .

❖❖ وعلى حد تعبير الكاتبة الأمريكية دورثى طومسون : « انه رجل رزين ، حكيم عرف بنضاله السياسى القديم ، وولائه لمصر ، والوفاء من أبرز سماته كمصرى وعربى ، وهو يحب أكثر مما يكره ، ومن الصعب ان أن تجد رجلا تجتمع فيه هذه المزايا ، خاصة وان كان قائدا وزعيما » .

❖❖ وكتبت صحيفة « نيان زان » الفيتنامية تقول ، منذ عامين ، وبالتحديد في أواخر عام ١٩٧٣ : « يجب أن يفهم الاستعماريون ، والصهاينة

أن المصريين الذين ناضلوا ببسالة قرابة قرن ونصف من الزمان في سبيل حريتهم واستقلالهم الوطني ، لن تحيفهم العاتق أو أعتى أسلحة نووية ، لن يحيفهم فعفعه السلاح ودوى المدافع الضخمة ، لأن أرادهم أقوى من هذا بدير ، وقد استطاعوا أن يسعدوا أنفسهم في أقل من ست سنوات يديروا الصاع صاعين لإسرائيل ، وكان على رأس هذا التغيير كله الرئيس أنور السادات ، وبفضل حلمه ودلته السياسي وخبرته الطويلة ، استطاع أن يوفى مسمى يصرب .. وليف لأبل ومتى يف اطلاق النار ، ليحول النصر العسري إلى نجاح واقتصار سياسي من الدرجة الأولى ، على أساسه سحب (السجادة) من تحت اقدام الصهاينة والاستعمار لا في الشرق الأوسط ، فقط ، بل وفي أوروبا والغرب أيضا .

*** وكتب سيروس سلزبرجر ، رئيس تحرير صحيفة « النيويورك نايمز » الأمريكية ، وصاحب الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل ، ألا وهو « صف طويل من الشموع » ، والذي تحدث فيه عن الزعماء الذين التقى بهم من أمثال : أتاتورك ، وتيتو ، وديجول ، وتشرشل ، وهتلر ، وايزنهاور وهوشي منه ، ونهرو ، وغيرهم .. كتب سلزبرجر عن السادات يقول :

« أن واقعية الرئيس السادات ، وإدراكه للواقع ، يتضمنان ، أيضا ، قراره بادانة الارهاب ، وحتى ولو كان ذلك لا يروق للمنظمات الفلسطينية وقد أدان من زعموا أنهم فداليون ، وقاموا بقتل راكب ألماني في طائرة مخطوفة إلى تونس ، وكذلك الهجوم على مطار أورلي » .

ويقول سلزبرجر ، أيضا :

« أن الرئيس السادات ، من الشخصيات القليلة النادرة التي من الممكن أن يتاح للوطن العربي من خلال حكمته وحسن رؤيته وذكائه النادر ، الوصول إلى حلول تؤدي إلى انتهاء كافة الظروف الاستثنائية التي جعلت المنطقة مصدرا للالتهاب طوال سنوات طويلة ، فمثلما استطاع السادات أن ينهي كافة الظروف الاستثنائية داخل وطنه ، ومثلما

استطاع أن يتجاوز بمصر والعرب الظروف الصعبة ويحقق نوعاً من الانتصار الواضح لكل العالم في أكتوبر ١٩٧٣ ، ومثلما استطاع أن يكسب الرأي العام الأوربي ، بل والرأي العام الأمريكي ، فاقول أن على يديه سيتم الوصول إلى حلول تكفل السلام في المنطقة ، فهو يسعى جدياً ، وبصدق ، إلى إقرار السلام ، ولكن من خلال جوهر الحقوق العربية ، لا من خلال المهاترات أو المراوغة ، فهو صادق ، لا يعرف التلاعب بالألفاظ ، لأن السياسة من وجهة نظره هي الصدق أساساً ، مع أبناء الوطن ، ومع الأسرة الدولية ومع كل القيادات العالمية ، ولا سبيل في رأيه للوصول إلى أي حلول إلا من خلال التزام هذا الصديق » .

✻✻ وكتب « هنري جرونوالد » ، الكاتب والناشر الأمريكي ، والذي يصدر عدة صحف ومجلات أمريكية ، بينها مجلة (التايم) ، كتب يقول :

« الرئيس المصري أنور السادات ، شخصية فديرة ، حقاً . يعني ما يقول ، ويتبع منهجاً مباشراً ، في سياسته ، ويريد أن يحقق لشعبه أقصى حد من المكاسب ، كما يريد أن يحقق للعرب كل ما يتفقون في أناة وحكمة وذكاء وشجاعة نادرة » .

✻✻ ومن البرامج التليفزيونية الهامة ، التي قدمت الرئيس أنور السادات ، ذلك البرنامج الشهير : « واجه الأمة » ، وهو من أهم البرامج التليفزيونية في أمريكا وتقدمه إذاعة وتليفزيون (سي . بي . اسى) . في مايو ١٩٧٤ ، قدم هذا البرنامج حلقة خاصة عن الرئيس السادات ، وكانت هذه المقابلة ، أو هذا الحوار ، حديث الدبلوماسيين في الأمم المتحدة وفي أمريكا لفترة طويلة .. وخلال هذا البرنامج تكلم السادات عن أزمة الشرق الأوسط . وعن نتائج حرب أكتوبر ، وعن التحركات التي تتم من أجل الوصول إلى حلول تكفل السلام في الشرق الأوسط ، كما تحدث عن العلاقات الجديدة مع الولايات المتحدة ، وقال أنها تسير على أسس متينة ، تعتمد على واقعية سياسية ، وأوضحها الرئيس السادات بقوله : « خلال

تعاملى مع الدكتور هنرى كيسنجر ، خلال زيارته الأولى لى فى نوفمبر الماضى ، بدأ الموقف الأمريكى ينزحزح عن مكانه . ولا أقول أبدا أن أمريكا تنحاز لنا ، وكذلك لا أستطيع أن أقول ان امريكا من الممكن أن تقف فى وجه اسرائيل . لكن ، تنحزح الموقف الأمريكى ، بحيث يسمح بالفاهم ، فمثلا .. لمسا كنا بصدد اتفاقيه فض الاشتباك فى أسوان ، ورفضت أنا كل الشروط والمطالب التى جاءت لى من اسرائيل ، ورفضت اسرائيل ، أيضا كل الذى طلبت تنفيذه ، تدخلت أمريكا فى النصف ، وقالت كلمتها ، قالت: أنا أدخل من خلال مشروع او اقتراح أمريكى محدد ، من الممكن أن يوصل الطرف المصرى والاسرائيلى الى نقطة اتفاق ، وحدث ، أن شاركت أمريكا بفعالية واضحة فى الوصول بالقضية الى مناخ طيب ، ونأمل أن تلعب دورا أكبر فى المستقبل ، من أجل حل القضية فى جوهرها .. »

*** وقد وصفت صحيفة « الناشونال جارديان » ، الرئيس أنور السادات ، أنه ألمع شخصية ، عرفها العرب والمنطقة ، فى تاريخها حتى الآن .

وقالت الصحيفة :

« كانت الظروف التى تحياها مصر ، قد وصلت الى حالة من التفسخ السياسى والنفسى والفكرى ، الذى كان من الممكن أن يودى بالثورة الى الحضيض ، وكان اليأس من سمات سنوات ما بعد ١٩٦٧ فى مصر ، وفى كل المنطقة العربية ، لكن الرئيس المصرى أنور السادات ، خلال فترة وجيزة ، وفى أقل من أربع سنوات ، استطاع أن يستعيد كل مقدرات وقدرات مصر والعرب الى اكمل نصيح سياسى وفكرى ومعنوى ، فقد وضع استراتيجية واضحة ، وتحرك من خلال برنامج عملى واضح ، كقائد ، يعرف ما يريد ، ووجد كل العرب تحت لوائه ، وفى كل التناقضات والخلافات من أجل تكثيل كل الجهود لمواجهة اسرائيل ، ومن الخليج الى بغداد الى السعودية الى القاهرة ، ومن

السودان الى تونس والمغرب والجزائر ، صنع (حزاما)
 فريما ، حول اسرائيل ، وفي نفس الوقت ، ومع تحركه هذا
 على المستوى العربي ، حاول ان يستعيد (الارض) التي
 خسرها العرب عالميا وسياسيا في الغرب وأوروبا من خلال
 اخطاء عبد الناصر وتصرفاته فكسب الراى العام العالمى ،
 صنع جبهة عريضة من الاصطفاء ، وحيد آخرين .
 وكسب تعاطفا مع آخرين ومن خلال هذه الجبهة العريضة
 انطلق ، وفي نفس الوقت كان يسهر على الجبهة الداخلية ،
 ليؤمن سلامتها اقتصاديا وسياسيا ونفسيا ، فبعد ان ضرب
 اذيل الناصرية التي كانت تسعى الى الاطاحة بكل شيء ،
 من اجل تحقيق مآربها ، ضرب ضربته ، وكان قد استوعب
 كل مستحدثات الحرب والسلاح الجديد ، بحصوله على
 احديث ادوات القتال ، ودرب قواته افضل تدريب ، وكان
 يقوم بنفسه لرؤية ما يدور من تدريبات ، فلم يكن مثل
 عبد الناصر ، يعتمد في استقراره لاهوقف على ما يكتب له
 من تقارير ، كان يذهب السادات بنفسه ، ليرى ، فهو
 سياسى قديم ، ومناضل له تاريخه الطويل في المفامرات
 والنضال في مختلف التنظيمات السياسية ، وكان ، ايضا ،
 قد درس اخطاء ١٩٦٧ ، وحاول ان يتعرف على سلاح عدوه
 واستراتيجية اسرائيل وتكتيكاتها ، واخضع اعلامه الداخلى
 والخارجى لمنطق الاتزان ، واحيانا الزمه الصمت ، حتى
 يعمل في هدوء ، فهو لا يحب الحديث بصوت عال ، انما
 يتصرف ، دائما ، من خلال سلوكه وحركته التي تتسم
 بالفلسفة العملية الصرفة ، المبنية على استقراءات واضحة
 للأرض التي يقف عليها والأرض التي سينقض عليها ، وهو
 لم يحارب من اجل هزيمة اسرائيل او الدخول الى تل ابيب ،
 كما كان يحاول ان يعلن عبد الناصر ورجاله ، كان لقتاله
 مهمات محددة ، توصله الى ان يقف موقف الند للند ، بل
 كالمنتصر ، وهو يحاور عدوه ، حتى يحترم حوارهم ،
 ويستجيب لمطالبه ، والا فليديه القدرة ، ولدى الأمة العربية
 القوى العددية والامكانية لتهديد اكبر ، وهو لا يحاول ان
 يلجأ الى هذا كله ، فهو يريد ان يصل الى تسوية للقضية
 برمتها تضمن مصالح العرب ، وصالحهم ، وتعيد أراضيهم

اليهم ، ولا يرغب في القضاء على الكيان الاسرائيلي بضربه
لاسرائيل ... فقط يريد ارضه ، ويريد ما سلب ، وكجزء
من القضية مطالب فلسطين ، باعتبارهم جزء اساسي في
المسألة العربية وازمتها . ومن هذا كله ، نحس بمدى حكمة
السادات والذكاء الذي يتمتع به ، فهو داهية سياسية حقاً ،
محنك ، حكيم ، متزن ، يعرف ماذا يقول ، وكيف ، ومتى
... مثلما يعرف ، متى يمتنع عن الكلام ، ويكتفى ، فقط ،
بالاستماع ، ولا نخفى انه ابرع سياسى شرقى عرفه العرب
حتى الآن في تاريخهم الطويل » (١) .

❖ وفي تصريح شهير في الامم المتحدة ، قال سفير أوربى في الولايات
المتحدة لصديق له ، من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى : « ان الرئيس
السادات يتميز بالدهاء البالغ ، والحكمة الواضحة .. لدرجة اننا لا ندرى
من الذى سيحتوى الآخر : د . هنرى كيسنجر أم أنور السادات . . لا ان هذا
الرجل قادر على احتواء أى شخصية ، فيكفى انه حول العالم كله لصالحه
حتى أمريكا نفسها .. فرجل الشارع الأمريكى ، الآن في واشنطن ، يتعاطف
مع قضايا العرب ، ويعرف ان الرئيس السادات ، يريد اقرار السلام في
الشرق الأوسط ولا يبغي استمرار المنطقة في حالة التهاب دائم » . ويؤكد
السناتور الأمريكى « شارلز بيرس » ، رغبة السادات المحقة في السلام ،
بقوله :

« ان السادات حريص كل الحرص على السلام ، وان
لم يتحقق هذا السلام بكرامته ، فان الوضع يتغير ، لان
السادات لا يرضى ، أبداً ، بانصاف الحلول ، ثم انه يتميز
بالجراة ، والشجاعة والافدام ، ودائماً يسير في طريق الحل
السلمى والدبلوماسية ، فاذا اعياه الامر ، يلجأ الى السلاح ،
بعد ما يفزع العالم كله ، بان صبره قد استنفد ، وعليه ان
يحقق امانى ومطالب شعبه والمنطقة » .

(١) نشر هذا المقال في صحيفة الناشونال جاردنيان في ديسمبر ١٩٧٢ ، تحت
عنوان : « الى اين يسير زعيم العرب السادات ؟ الى اى مدى يتحرك على ارضه » ...

❖❖ وقد كتب المعلق والكاتب السياسى الأمريكى (نيقولا سبروفيه)
عن سياسة السادات ، فى العام الماضى ، فقال :

« لقد وفق السادات ، حقيقة ، توفيقا يكاد أن يكون مذهلا ، فالى جانب الاستحواذ على انتباه العالم ، أثبت من خلال تحركاته ومن خلال المواقف الجديدة فى حرب أكتوبر وما أعقبها من تحركات ، أن ما حدث فى عام ١٩٦٧ كان زيفا مضحكا ، ولم يكن من سمات مصر أو العرب ، كان خطأ وزيفا نتيجة مناخ فاسد بذاته .. وهكذا أعاد الشرف الى المنطقة بعد افتقاده له لفترة ... فى نفس الوقت ، أيضا ، حقق للعرب أهدافا كانوا يفتقرون اليها ، وتتحدد هذه الأهداف فى : الوحدة المتكاملة ، والموقف الموحد ، والقيادة الكفء المبنية على أساس مدروس ... ولم يقدر لشعوب المنطقة العربية المتباينة ، أن تضم صفوفها وتوحد جهودها مثلما حدث فى ظل سياسة السادات ، وقد أضفى لكل شعبية ، لم تعرف لى زعيم عربى من قبل على كل ما حدث وجرى أثناء الحرب وفى أعقاب الحرب . وهذه المكانة ، توفر للزعيم العربى ، مجالا ملائما للعمل خلال هذه الأيام الحاسمة ، وفى تقديرنا ، أنه سيذهب الى مؤتمر جنيف عندما تكون (الطبخة) قد جهزت ، حتى لا يحدث خطأ ما ، وحتى يحل كل أطراف النزاع ، فى حكمة ، فهو لا يريد أن يذهب الى جنيف ، وهناك (جيب) أو (ثغرة) داخل الصفوف ، يريد أن (يرتق) كل شىء ، حتى يصل الى حل تناقضات المسألة العربية فى جوهرها » .

❖❖ ويصف الكاتب الفرنسى (جاك كوبار) ، ما حدث فى حرب أكتوبر من منجزات ، وما أعقب ذلك من تحركات ذكية للسادات ، بقول :

« ان حرب أكتوبر قد جسدت شخصية السادات ، كبطل قومى ، وكمناضل محنك ، وكسياسى طليعى . فهو رمز مصر ، وللعرب .. واسرائيل نفسها لا تنكر ما حدث من تفوق خلال أكتوبر ١٩٧٣ ... وقد استغل الرئيس السادات ما حدث فى هذه الحرب لصالح قضية العرب ، فحصل

استجابته لوقف إطلاق النار ، وفك الاشتباك ، الى هدنة مؤقتة ، حتى تتدخل أمريكا ، والروسيا ، لفض النزاع ، والوصول الى تسوية عادلة ، تنهى حالة الالتهاب في الشرق الأوسط ، وهو عندما يتحرك ، يتحرك في ذكاء نادر ، فهو لا يريد ان يكون فريسة لأحد ، ولا يريد لامته ان تنحاز لأحد ، انه يريد ان يبنى علاقات من الود والتعاون والوفاق مع الجميع ، يفيد ويستفيد ، في اطار مالا يضر بمصالح شعبه او بالمنطقة التي تبغى السلام ، حتى يتيسر لها اللحاق بالركب الحضارى الأوربي والغربي » .

ويضيف جاك كوبر ، أيضا ، في رؤيته للسادات ، وما يحدث في الشرق الأوسط ، فيقول :

« منذ بداية القرن التاسع عشر ، والامه العربية كانت تبحث عن رجل الاقدار، وتصور نابليون من فرط رومانسيته انه الرجل المراد ، بل وكذلك تصور محمد علي ، وكان احمد عرابي ، أول بذرة وضعت في احلام هذا الرجل ، لكن الظروف لم تكن ناضجة ، واعقب عرابي العديد من الشخصيات ... سعد زغلول ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، محمد نجيب ، جمال عبد الناصر ، لكن لم يدرك أحد من هؤلاء ما أدركه أنور السادات ، فهو رجل الاقدار عن جدارة ، لانه عبر بمصر والعرب الى امانهم ، ومهد الأرض لانجازات أكبر ، طالما ارتق بها التاريخ ، وانتظرتها الأمة العربية كثيرا » .

✱ وعلى حين ، كتب العديد من كتاب الغرب عشرات المقالات والدراسات عن السادات ، ورأوا .. ان السادات قد غير ليس فقط من خريطة مصر والعرب عسكريا ، وسياسيا ، ونفسيا ، وعمق من رقعة الصداقة بين العرب والعالم أجمع .. نجد الكتاب السوفيت ، وكتاب الدول الشرقية عموما ، يلتقون في رؤيتهم حول تفسير شخصية السادات ، وحول حرب أكتوبر ، وحول التحركات التي أعقبت حرب أكتوبر والتي تبذل الآن ، قبل أن يذهب العرب الى جنيف :

وكالة نوفستى السوفيتية ، كتبت تقول :

((انور السادات ، بطل قومى ، بلا شك ، امتداد للزعيم جمال عبد الناصر ، وقد سار بالثورة الى كل الآمال التى تحقق مكاسب الجماهير ، ومن هنا تبدو اصالته وصدقته ، ووفاءه للثورة)) .

كما قالت ، أيضا :

((السلام ، كما ينبغي ، هو الدرس الذى تتعلمه اسرائيل ، من خلال حرب أكتوبر ، التى كانت مرحلة من مراحل التحرير)) .

وفى مقال لصحيفة « السلم والاشتراكية » السوفيتية ، جاءت هذه الرؤية :

((ان موسكو ، تعتبر ان الحرب التى تدور رحاها فى الشرق الأوسط ، جزءا من حركة التحرير الوطنى العالميه ضد الامبريالية ، وهى فى نفس الوقت جزء من كفاح الشعوب العربية ، لاستعادة اراضيهم المحتلة منذ ١٩٦٧ ، والسادات الذى يقود المعركة ، تعبير واضح عن ارادة الأمم العربية ، فى سعيها لتحقيق منجزات حرب التحرير ، الذى يعتبر أكتوبر ، انطلاقة صريحة وحاسمة لها)) .

وقد نشرت صحيفة برافدا السوفيتية ، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد قيام حرب أكتوبر بعشرة أيام هذا التصريح : « ان موسكو ، تقسوم بتزويد الدول العربية بالسلاح لمساعدتها فى تحرير أراضيها التى تحتلها اسرائيل » . كما أعلنت وكالة « تاس » السوفيتية فى نفس الأسبوع ، أن الاتحاد السوفيتى يؤمن بسياسة السادات ، ويؤمن بأن اقامة سلام دائم فى الشرق الأوسط لا يمكن أن يتحقق ، بدون التحرير الكامل اكل الأراضي العربية المحتلة ، وضمان حقوق شعب فلسطين .. وانطلاقا من هذا الموقف المبدئى ، فإن الاتحاد السوفيتى ، يعمل ، دائما ، كصديق للشعوب العرمة

وأن جماهير النعوب العربية تربط بشكل مباشر بين زيادة المقدرة القتالية للجيش المصرى والسورى وبين المعونة العسكرية التى قدمها ، ولا يزال يقدمها ، الاتحاد السوفيتى » .

وفى مقال لصحيفة (البرافدا) السوفينية ، بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، جاء هذا المقال :

((ان الاتحاد السوفيتى ، يتخذ موقفاً ثابتاً ، كصديق ، جدير بالثقة للشعوب العربية ، وهو يدين سياسة اسرائيل فى ضم الاراضى العربية ، ويؤيد بحزم المطالب المشروعة للدول العربية لتحرير اراضيها التى استولت عليها فى حرب ١٩٦٧ .))

فى نفس الوقت ، نشرت صحيفة (الكومسمول) السوفيتية (١) ، دراسة مطولة عن جرائم اسرائيل على الارض العربية ، منذ ان تم انشاء اسرائيل حتى الآن ، وقد ربطت الدراسة بين نمو المجتمع الاسرائيلى واهداف الصهيونية العالمية والامبريالية العالمية ، وقالت : « ان اقامة السلام فى الشرق الاوسط ، أمر غير معقول ، بدون التحرير الكامل لكافة الاراضى العربية ، وهو الضمان الوحيد لعدم حدوث جرائم قد لا تهدد أمن المنطقة فقط ، بل تعرض العالم لويلات حرب عالمية ثالثة » . وفى مقال آخر ، بنفس الصحيفة ، جاء هذا التحليل : « لقد اكتسبت وحدة العرب نوعية جديدة ، من خلال حرب أكتوبر ، وقد نجح السادات ، فى ذلك ، الى أبعد الحدود ، وكان حتمياً أن يجتمع العرب وهم يواجهون حرباً ضروساً تمثل الخطر على آمالهم وأمنهم القومى ، ومن الممكن رفع هذا التضامن الوجدوى مع القضية العربية الى مرحلة جديدة » .

(١) وهى إحدى الصحف البارزة للحزب الشيوعى السوفيتى فى موسكو ، وقد نشر المقال الذى ننوه له هنا بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٧٣ ، ونحب عنوان : (من تاريخ الجرائم التى ارتكبتها الصهيونية ضد الشعوب العربية) .

وقد كتب المعلق والكاتب السياسى السوفيتى (سبارتاك يجلوف) ،
يقول :

« ان اسرائيل ظلت من البداية تقوم بدور المعتدى ،
وتفتصب الأراضى العربية ، وتمارس الارهاب ، ولكنها
تلقت من العقاب الكثير ... فالصقور الاسرائيلية بعد ان
بنروا الرياح .. رياح الاحتلال والارهاب ، واغتصبوا حقوق
الشعب العربى الفلسطينى ، يحصدون اليوم عواصف
العقاب .. فقد تحول التحدى المسلح ضد العرب فى سيناء
والجولان فى اكتوبر ١٩٧٣ ، الى زحف منتصر ، جمل
المعتدى ، يشعر بكل قوة الردع الحاسم » .

وكتب (يورى ايفانوف) يقول :

« اذكر ان ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودى
العالمى والرئيس السابق للمنظمة الصهيونية قال عن العرب :
لماذا لا يجلسون معنا ، حول مائدة مستديرة ، لتتفاهم ..
الم نهزمهم فى حرب الايام الستة ، يريدون ان يكرروا المأساة ؟
لا بد ان يأخذ السادات درسا من الماضى .. كان ذلك قبل
ان تقوم حرب اكتوبر بعامين ، فقط ، وفى الحقيقة ان اسرائيل
كان لا بد ان تأخذ درسا فاسيا ، كالمذى اخذته فى اكتوبر
١٩٧٣ ، حتى تفيق ، وحتى يذيب العرب الجليد الذى تراكم
لسنوات على المنطقة العربية ، ولم يكن يدخل فى حسابان
اسرائيل ، ان العرب سيستعيدون مكانتهم ، وان الرئيس
المصرى السادات ، سيستعيد الوضع الى افضل حالاته فى
اسرع وقت ، وكما حدث » .

✻ ✻ صورة العرب ... تغيرت فى (مرآة الغرب) ، ومن خلال كافة
الكتابات والدراسات التى كتبت حول حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وما أعقب
ذلك من تغيرات فى المنطقة ، وقد أكدت مجلة (التايم) الأمريكية ، بعد
رحلة الرئيس السادات لسانزبورج ، ومقابلته للرئيس الأمريكى « جيرارد
فورد » . ان السادات أبرز وألمع شخصية ظهرت فى السياسة العربية حتى
الآن ، وكتبت تقول « ان الرئيس السادات ، لسان حال العرب ، يتحدث

باسمهم ، ويعبر عن آمالهم وأحلامهم ، كما أنه يعرف كيف يعرض هذه الآمال ، ولا يسعى للحرب بقدر ما يسعى لاقرار السلم ، ومباحثاته مع أمريكا ، وتحركاته في كل العالم ، يمكن أن تضع حدا للصراع الحاد الذي حول المنطقة الى كتلة من اللهب منذ حرب ١٩٤٨ حتى الآن » ..

ويبين أبعاد الصورة التي تبدو في مرآة الغرب عن مصر والعرب ، من خلال السادات ، تبدو القاهرة في صعود ، وان العرب قد بدأوا يغزون بتغير سياستهم الى الأفضل قلوب أوروبا والغرب .. وهو موقف تاريخي مشرف .. فقد استطاع العرب - كما تقول صحيفة (الاكسبريس) الصمود ، ثم تجاوز الهزيمة ، والخروج الى العالم بمنطق جديد ، بدأ يكسبهم صداقة العالم والرأى العام العالمى في كل مكان ، وكان وراء ذلك كله شخصية الرئيس أنور السادات ، الذى استطاع ببعده نظره ، ودراساته للأوضاع دراسة موضوعية ، أن يتحرك في الاطار السليم الذى لا يعيد الامور الى نصابها فحسب ، بل يضمن ، أيضا ، سير الأمور الى الأفضل في السنوات القادمة ..

*** بل أن الصورة ، داخل اسرائيل ، نفسها ، عن العرب ، لم يستطيعوا اخفاء أبعادها الحقيقية ، وفى صحفهم ، اعترفوا بذلك . حقيقة كان هذا (الاعتراف) يحمل العداء والروح الانتقامية ، ولكنه ، أبدا ، لم يكن ليستطيع نكران ما حدث في المنطقة العربية ..

وحتى أشد الخصوم والاعداء داخل اسرائيل ، لم يستطيعوا اخفاء رأيهم في السادات ، كفائد استطاع أن يغير الأوضاع ضدهم ، ويقلب ظهر المجن في وجوههم ..

كتبت صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، تقول :

((انه من الخطأ أننا استهنا بقدرات العرب ، بل وأسكرتنا انتصارات ٥ يونيو ١٩٦٧ ، بل وقللنا من شأن الرجل الجديد الذى ورث تركة العرب ، وفلنا لحظتها : ان مصر مثقلة بالجراح والديون والانهييار الاقتصادى والنفسى .. وماذا يستطيع أى رجل ان يفعله امام وضع كهذا غير (ترقييع)

او (رتق) الاهترادات ، وای نتیجه من الممكن ان يوصلها
 وضع كهذا ؟ انفسا لا ننكر ان العرب في يوم من الايام ،
 سيستعيدون قوتهم .. لكن ، ليس الآن .. واذا حدث ،
 فسنكون ، نحن ، قد تفوقنا ، ولا يمكن ابدا ان نصل الى
 هذا (التفوق) ... لكن في الحقيقة ، ان تقديرنا لم تكن
 تسير بسرعة ما يحدث ، فلقد كانت الشخصية التي امامنا
 تختلف تماما عما تعودناه : شخصية الرئيس المصري
 انور السادات ، كما ننظر اليه على اساس انه رجل (طيب)
 و (متواكل) ولا يختلف عن عبد الناصر الا في انه اقل
 شراسة في تهديداته وتوعداته ، ثم انه كان مشغولا بالجهنة
 الداخلية ، لكننا لم نكن نتوقع ، ابدا ، انه سيهجم ، وبهذه
 السرعة ، بل ويحارب بهذا السلاح المتقدم العصري ، ولا نخفي
 اننا لم نباغت فقط ، بل ولم نخدع فقط ، بل اصابنا الامر
 بالدهشة ، فنحن امام عدو يختلف تماما عن العدو الذي
 حاربناه طوال السنوات الماضية ، وبالتالي ، نعترف الى
 جانب (التقصير) ، باننا امام شخصية مثيرة - السادات ،
 استطاع لا ان يحقق انتصارات عسكرية فقط للعرب ، وانما
 احتوى العديد من المواقف الدولية لصالحهم ، بل وفرض
 علينا ان نقبل ما لم يكن نقبل مناقشته والتفريط فيه .
 قبل ! » .

✻✻ وتقول الدكتورة « ليديا موجوريان » ، عضو هيئة رئاسة
 اتحاد الحقوقيين الديمقراطيين العالمى ، واستاذة السياسة والقانون
 السوفيتية : « ان اسرائيل اضطرت ان تعترف ، اخيرا ، بهزيمتها عسكريا
 وسياسيا ، وهذا واضح من كثير من الكتب والدراسات التى وصلت الى
 يدى مثل : (حرب التقصير) ، أو (كيف بوغمت اسرائيل) . أو (الضربة ،
 والدفاع ، واستعادة المواقف » ..

وكان وراء هذا التغير ، كما يؤكد الاسرائيليون أنفسهم ، ثلاثة عناصر
 أساسية : أولا شخصية السادات نفسها بما أوتى من بعد نظر وخبرة وقدرة
 على الحنكة ، تجمع العرب في صف واحد ، الاستعانة بأحدث أدوات الحرب
 التى كان وراءها السوفيت أنفسهم ..

وموشى ديان .. نفسه يعترف ، بهذا ، فيذكر لمراسل وكالة الانباء الفرنسية ، في أواخر ١٩٧٣ :

إننا لا ننكر ان العرب قد غيروا الموقف ، وان الميزان الذى كان لصالحنا ، حاول أن يقلبه الرئيس المصرى السادات ، ومهما اختلفنا في أمر العسكريات سواء اعترفوا بالثغرة أو لم يعترفوا ، ومحاولتنا دخول السويس ، فلا أحد ينكر أن السادات استطاع أن يؤكد نجاحا ، وإذا أنكرنا هذا فنحن ننكر منطق ما حدث ، ورغم العداء بيننا وبين العرب ، لا بد أن نعترف بهذا .

*** وكثير من الشخصيات المعروفة ، والقيادية ، في عالمنا .. سحرتهم شخصية السادات .. بقوتها ، باتزانها ، بحكمتها ، بارادتها ...

فالسادات على حد تعبير « أندبرا غاندى » : قد استطاع الرئيس المصرى السادات ، أن يعيد الأمور في كل ما حدث ، وعلى ضوء ذلك ، وضع منهجا عمليا سليما للاحاق الضربة بإسرائيل ، واعادة الحياة الى مجتمعه في الداخل على أفضل ما ينبغي ، هذا انى جانب قدرته الخارقة على اعادة وحدة الصف العربى ، وتجدد علاقات العرب بالعالم ، وكسب أكبر عدد ممكن من الدول التى أصبحت صديقة لمصر والعرب ، انه رجل حرب شجاع ، ورجل سليم حكيم .

*** بينما يرى الرئيس الفرنسى « فاليرى جيسكار ديستان » ، في السادات ، شخصية قيادية ووطنية نادرة ، وفد أبدى اعجابه الشديد بالرئيس المصرى ، عندما زار باريس في آخر يناير ١٩٧٥ ، واستضافه في « قصر المارنييه » .. وكان موضوع الزيارة محاولة الوصول الى نقاط واحدة حول أزمة الشرق الأوسط وحقوق شعب فلسطين ، ومحاولة كسب فرنسا بشكل كامل الى جانب العرب ، باطلاعها على دقائق الموقف ، وعن قرب . قال الرئيس الفرنسى ديستان ، بعد هذه الزيارة ، عن الرئيس السادات :

« انه يعرف كيف يعرض القضية ، وبموضوعية كاملة ، وهو مخلص كل الاخلاص لبلاده ، ومستعد للذهاب الى أبعد مدى لحل تناقضات القضية العربية في جوهرها ، ثم أنه يتميز بمصيرته الشديدة .. البساطة .. الحب .. الرغبة في السلام وكسب الاصدقاء » .

أما الامبراطور « محمد رضا بهلوى » ، شاه ايران ، الذى استطاع السادات ان يعقد معه صداقة حميمة ، اعاد من خلالها العلاقات الودية على مختلف المجالات مع ايران ، على أسس متينة من الحب والوفاء .. فقد تحدث عن الرئيس السادات في حب وتقدير عظيمين وقال في تصريح له لمجلة (دير شبيجل) الألمانية :

« ان السادات سياسى عظيم ، ومسئول ، وقادر على اقرار السلام ، وايضا ، على استثمار الحرب في المنطقة » .
كما قال امبراطور ايران ، أيضا ، في تصريح له لصحيفة (الاهرام) المصرية ، بتاريخ ٢٦ ابريل ١٩٧٤ :

« اننى انظر باعجاب وتقدير الى سياسة الرئيس انور السادات . واننى لاعتقد ان شخصية السادات قادرة على ان تسير الامور دائما الى الافضل ، واننى ارى ان الاطراف المعنية في مؤتمر جنيف تقوم بدورها ، كما هو مطلوب ، ومع ذلك فاننى على يقين ان العرب سينجحون في وقت ليس بالبعيد في استرجاع ارضهم وتحريرها ، ولابد من تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، باعتباره القرار الامثل الكفيل ، باقامة سلام عادل في الشرق الاوسط ... واننا ولا شك ، نضع كل نقلنا مع تحرير الارض العربية ، وعلى استعادة الاراضى المقدسة الاسلامية في القدس ، واعتقد ان الفاتيكان يؤيد الدول الاسلامية في هذا الموقف » .

*** بينما وصف الدكتور (برونو كرايسكى) مستشار النمسا السادات ، بقوله :

« انه شخصية عظيمة ، حقا .. لانه بدرك مسئوليته امام الشعب ، ويعرف تماما قيمة سلاح الحرب وفعاليتها » .

كما يدرك في نفس الوقت معنى السلم وحسناته ومميزاته ،
وهو يتمسك كل التمسك ، وبايمان قوى ، بالقضية العربية »

*** وفي تصريح للرئيس الروماني « نيقولاى شاوشيسكو » ،
عند زيارة السادات لرومانيا في أواخر يونيو عام ١٩٧٤ ، قال لصحيفة
بوخارست :

« ان شخصية السادات من الشخصيات النادرة ، حقا ، في التاريخ ،
فهو قوى في الحرب وفي السلم ، استطاع أن يعيد للعرب مكانتهم بل
وقوتهم ، بعد أن حاولت اسرائيل ، والدول التي خدعت بتزييف الرأى
العام ، وهكذا بدأ العرب ، يغيرون من طبيعة الأمور في الشرق الأوسط ،
الأمر الذى يسير سيرا حسنا بحركة التحرر الوطنى ، والتي يلعب على
رأسها السادات دورا بارزا يتسم بالشجاعة والاقدام .. »

وفي حفل العشاء ، الذى اقامه الرئيس الروماني للسادات في بوخارست
في يونيو ١٩٧٤ ، دار الحوار بين الرئيسين .. فقال السادات :

— ان الوقوف ضد الأمانى المشروعة للشعب الفلسطينى ، معاد
للتاريخ ومضاد للحركة الثورية ، وان أى تهاون للقوى المحبة للسلم في
تأييد هذا المطلب للشعوب العربية والشعب الفلسطينى ، اضعاف بالغ لحركة
التحرير في العالم

كما أضاف .. ان العالم المحب للسلم ، كله ، لابد أن يتحرك ويدعم
كل ما من شأنه أن يدعم قضايا العرب ، في استعادة حقوقهم الشرعية ،
ومؤتمر جنيف ، فرصة سانحة ، لتحقيق ذلك ، ومن الممكن ومن خلاله ،
اقرار سلم عادل في المنطقة العربية ، وانهاء حالة التوترات والالتهابات
الدائمة في الشرق الاوسط ...

كما قال الرئيس (شاوشيسكو) ..

« ان قوى السلم في أعقاب عبور أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت مرهونة بحكمة
الرئيس السادات ، فبمدى الجهد الذى بذله ، كانت الظروف تتأرجح » .

✻ وفي أكثر من مناسبة ، أبدى الدكتور « هنرى كيسنجر » وزير الخارجية الأمريكية اعجابه الشديد بحكمة السادات ، وبعد نظره ، وتكوينه السياسى والنضالى كزعيم عربى ... وربما كان ذلك واحدا من الاسباب الرئيسية التى أتاحت جوا من الاقتراب والود فى المحادثات المصرية - الأمريكية ، ومنذ الوهلة الأولى .. وكذلك كان نيكسون ، لا يخفى اعجابه الشديد بشخصية السادات ، وفورد ، نفسه ، وبعد أن التقى بالرئيس المصرى ، قال فى أكثر من مناسبة ، أنه معجب بشخصيته التى تتميز بالوفاء للعرب ، والاخلاص ، والصدق فى كل ما يهدف اليه .. ومن فرط اهتمام د. كيسنجر ، بالقضية العربية ، واحتفاله الكبير بأهمية حل تناقضاتها فى جوهرها ، أنه قال : « أنا مهتم بالقضية العربية ، تماما فهى قضيتى ... مصر قضيتى .. وقضية العرب قضيتى .. ولا يهمنى الا حل القضية .. وبالنسبة لاسرائيل فما أفعله اليوم ، من محاولات لسيادة السلام يبدو بالنسبة لاسرائيل أكثر فعالية مما فعله موسى وداود وسليمان لليهود ... فانا أبذل كل ما فى طاقتى على استتباب السلام فى الشرق الاوسط ، بما يضمن عودة الأراضى السليبية الى العرب ، وتحقيق أمانى الشعب الفلسطينى وضمان حدود اسرائيل وكيانها كدولة تريد أن تبنى مجتمعها فى ظروف آمنة ... ولا بد أن أضع قبضتى على فوهات المدافع ، مهما كان الثمن ، حتى تصمت نهائيا ، واعتقد ان الرئيس السادات جاد كل الجدية فى رغبته فى اقرار السلام ، بما يضمن حقوق العرب العادلة وشرعية قضيتهم » .

✻✻ وقد اعترفت كل وكالات الأنباء فى العالم ، فى تعليقاتها الخاصة وتحليلاتها عن حرب اكتوبر ، والنتائج السياسية التى وصل بها السادات الى آفاق جديدة بالنسبة لمسار الثورة العربية ، اعترفوا بنجاح السادات ، وعبقريته الفذة التى غيرت لا تاريخ منطقة الشرق الاوسط فقط بل غيرت دفة العالم أجمع من خلال محور المنطقة العربية ...

قالت وكالة الإنباء الفرنسية ، في تحليل لها في يناير ١٩٧٤ :

« ان السادات ، الرئيس المصري ، استطاع ان يشب
بالعرب من (الحفرة) الى القمة ، وان يحول النصر العسكري
الى نتائج سياسية هامة ، ومن هنا تبدو قدرته ، وعبقريته
كفائد عسكري ومفكر سياسي » .

بينما قالت اليونيتيد برس ، في تعليق لها ، أثناء فك الاشتباك بين
مصر واسرائيل :

« ان العرب نجحوا في ابطال مفعول (اسطورة التفوق
العسكري الاسرائيلي) ، كما انهم سينجحون في الوصول الى
خطوات عملية ، تحول من طبيعة مسار الامور في الشرق
الاوسط ، بما يضمن عدم استمرار حالات التوتر الدائمة التي
عاشتها المنطقة لكثر من ربع قرن من الزمان » .

وقالت وكالة ناس السوفيتية :

« ان حرب اكتوبر ، وما انجزه العرب من خلال الانتصارات
العسكرية والسياسية ، ليمثل جانبا هاما ، ومنعطفاساسيا
في حرب التحرير العربية ، التي يلعب الرئيس المصري انورا
السادات دورا قياديا بارزا فيها » .

« وفي المانيا الغربية ، أبدى « هانز يورجن » وزير الخارجية
اعجابه بسياسة السادات .. وقال أنه أبرز قائد عربي ، شهدته المنطقة حتى
الآن ، وأنه معجب به ايما اعجاب ، وصرح في حديث له نشرته صحيفة
« دويتشه روندشاو » الالمانية ، فقال :

« ان الرئيس انور السادات ، سياسي موهوب ، وعلى
دانية تامة بمشاكل بلاده ، وبالمشاكل الانسانية ، وهو قادر ،
تماما ، على حل المشاكل التي تعترض بلاده وتقف حائلا دون
اقرار واستتباب السلام في الشرق الاوسط » .

*** وفي امريكا اللاتينية ، كتبت أكثر من صحيفة عن سياسة السادات ، ابتداء من صحيفة (الثورة) ، الى صحيفة (القارات الثلاث) ، الى صحيفة (الفكر والثورة) ، ومما جاء في مقال نشرته صحيفة (القارات الثلاث) ، هذه السطور ، والتي من خلالها يرى السادات في المرأة اللاتينية :

« ان العرب ، قد تغير الحال بالنسبة لهم ، فبعد ان كانوا يعانون مرارة الهزيمة ، بانحسار تيار الثورة التحررية ، وبما الحقته حرب الايام الستة بالمنطقة ، وبالنفوس ، وبالحركة الثورية ، استطاع الرئيس المصري انور السادات ، ان يعيد الى المنطقة مكانتها .. بل وأكثر تقدما وعلوا مما كانت عليه . تجاوز الهزيمة ، وبدا يعيد بناء مجتمعه المصري ، على اساس سليم ، يستهدف تحقيق الوطنية والديمقراطية ، وفي نفس الوقت يسعى جاهدا الى حل المشاكل المتعلقة بدول المواجهة : القاهرة ، دمشق ، عمان ... من حيث اعادة الاراضي السليبية ، ومن حيث تنفيذ فرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ومن حيث محاولة الوصول الى تسوية سلمية تضمن سير الامور سيرا طبييا في المنطقة ، وهذه النجاحات ، ان اكدت ، فهي تؤكد قدرة ونضال الشعوب العربية في مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، كما يبرز في هذا المجال دور الرئيس السادات في قيادته للشعوب العربية نحو تحقيق متطلبات الثورة العربية » .

*** وفي افريقيا ، كانت العبد من التصريحات والدراسات ، ومن ابرز ما قيل حول السادات وحرب أكتوبر والتحركات العربية التي تسير بالقضية العربية الى حل تناقضاتها ، هذه الكلمات :

قال ليبولد سييدار سنجور — رئيس جمهورية السنغال :

« انور السادات ، رجل دولة عظيم ، يقود شعبه بحكمة ، وهو من القادة الذين لا يميلون للدعاية والظهور ، بقدر ما يميل الى العمل ، وفي مثابرة غريبة ، ويتركز عمله الخالد ، في خدمة شعبه ، والعرب ، والانسانية كلها في عالمنا اليوم ، تحدث عنه وعن حكمه وعبقريته » .

وفي أوغندا ، قال عيدي أمين :

« انور السادات .. السياسي المحنك ، الذي أرجع التعاون الصادق مع افريقيا ، على أساس من القوة والقيادة الحكيمة . لقد صنع نوعا من التضامن الافريقي لم يحدث من قبل ، بحكمته ، وبعد نظره العظيم » .

وفي الجزائر ، قال بومدين :

« عندما قامت الحرب في يونيو ٦٧ ، كنا مفتبطين ، وعندما توقفت ، اصابنا الحزن ، لكن لابد من الاشارة هنا الى ان ما يحدث من حرب ، الآن ، في أكتوبر ، يمثل اهميته الكبرى والمتعظمة في حركة التحرر الوطني ، وبالنسبة لثورة التحرير العربية ... »

الا أن الجزائر ، كانت تريد أن تستمر حرب أكتوبر ، أياما أخرى بل ربما سنوات ، وهذا عكس نفسه في أكثر من تصريح رسمي ، وفي صحفهم ، فمنذ اللحظات الاولى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أعلنت الجزائر ، أنها طرف رئيسي ، مباشر في الصراع ، وقد أعلن بومدين ، أنه وضع كل شيء تحت تصرف مصر ومن أجل حرب طويلة الأمد ، وكان ذلك يعني أن الجزائر في سبيل ذلك قد خططت على أساس ان تعارب ولو أدى الأمر الى عام ١٩٨٠ لأنها كانت ترى أن هذا يحقق أهداف الثورة العربية وبشكل عاجل .. بنسبنا كان الغرض الأساسي للسادات ، في حربه ، وكما أوضح ، ليس استمرار الحرب سنوات وسنوات ، لأنه كما قال : « كان في تخطيطي للمعركة ، ان الاتحاد السوفيتي يواجه أمريكا .. القوتان الكبريان يوازنان

بعضهما ، ويتركنا الأمر لنا لنواجه اسرائيل ، وهذا ما حدث في أكتوبر ٧٣ ، وكانت المعركة تستهدف انجاز مهام بعينها ، أما ان تنتقل الحرب الى مواجهة مع أمريكا ، فهذا ما لم يكن في استطاعتي ، ولم يكن في حسابي على وجه التحديد .

أي أن حرب أكتوبر ٧٣ ، كانت تستهدف مهام قتالية بذاتها ، وعندما تحققت ، أوقف اطلاق النار ، وبعض من كان يهمهم (الاسنمرار) لم يقنعوا بذلك ، برغم الانتصارات العسكرية التي حدثت منذ حرب السادس من أكتوبر ٧٣ حتى ٢٢ أكتوبر ٧٣ - وهو يوم وقف اطلاق النار ، قد أدى النتائج السياسية المرجوة ، والتي تسير سيرا حسنا ، اليوم ، في اتجاه حل « المسألة العربية » في تناقضاتها الأساسية ...



عشرات المقالات ، والدراسات ، والأبحاث ، صدرت عن السادات من خلال الانتصارات التي حققها ويحققها للعرب ، طوال الخمس سنوات الماضية ، ومهما فلنا ، أو حللنا ، فلن ينسج المجال لذكر كل شيء في هذا الصدد ... كل ما أريد أن أخص من خلاله الموقف في هذا الفصل ، الذي يعرض للسادات ، كما يبدو في (مرآة العالم) ، وكيف نظروا اليه ، والى مصر ، والى العرب ، خلال السنوات الخمس الأخيرة ، أخصه في هذه النقاط الأساسية :

✽ أولا : قد تغير الموقف بالنسبة للعرب في مرآة الغرب والشرق ودول العالم كله ، فأصبحوا ينظرون إلينا من خلال مرآة نظيفة ، لا يشوبها الضباب ، ولا يعتريها الخدوش ، ولا تبدو حتى مرآة مزيفة كالمرآا التي كانت تبدو في الماضي ، وتحاول أن تذر التراب في العيون على أساس من الارتكاز على أوهام كاذبة ...

✽ ثانيا : الجميع ، سحرهم السادات ، بشخصيته الفذة العبقريّة ،

كفائد سياسى ، كفائد عسكرى ، كمفكر ومنظم أيديولوجى ، كبطل قومى للعرب ، كإنسان يتميز بالبساطة وعدم الغطرسة وعدم الميل للظهور .. فهو لا يميل الى المغامرة ، ولا يحكم من خلال العواطف ، وينطلق دائما من نقطة علمية وعملية ليصل الى نتائج واضحة غير متشكك فى أنه سيصيبيها ..

- * ثالثا : حتى الخصوم ، والأعداء ، حتى اسرائيل نفسها ، بهرتها شخصية السادات ، وغيرت أمورها ، ومنهجها بناء على ما أحدثه الرئيس المصرى فى المنطقة وفى العالم أجمع . فقد استطاع أن يكسب الرأى العام فى أوروبا وأمريكا ، هذا الرأى العام الذى كان فى غالبيته يساند اسرائيل خلال ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات تفوقها العسكرى والسياسى والاعلامى ... لكن بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، لم تعد الدولارات تجدى ، ولم يعد الاعلام الصهيونى الموجه يجدى ، فقط ، « رجل الشارع » ، فى امريكا ، وفى أى بلد اوروبى ، لا يقتنع الا بصدق القضية ، ومن خلال صدق قضيتنا ، ومن خلال عدالة مطلبنا ، ارتبط رجل الشارع فى الغرب بالمطالب العربية ، وبدأ ينظر الى الشرق الأوسط من خلال أن العرب على حق فى المطالبة بنيل اراضيهم المغتصبة ، وإن السادات رجل جاد ، محب لوطنه ، مخلص لارضه ، راغب فى صداقة العالم والتعاون مع كل الدول باحترام كامل ، راغب فى السلام الى حد بعيد ..

* رابعا : ان تحركات الرئيس السادات ، على المستوى القومى ، والعالمى ، والرحلات التى يقوم بها فى مختلف عواصم العالم ، يكسب العرب عطفًا أعظم وفعالية اكبر للقضية نحو حل تناقضاتها فى جوهرها ، ومع الأيام ، تتعمق الصورة أكبر ، لمصر والعرب ، فى مرآة كل العالم ... فلقد استطاع (الفارس العربى) المعاصر ، أن يغزو قلوب العالم ، بمنطقه السليم ، وبموضوعيته الأصيلة ، وبحكسته المتزنة ، وبمواقفه الشجاعة ، وبكسبه لمزيد من (الارض) عن طريق عبقريته ، وبتحركة فى الطريق السليم لحل القضية .. بعدما كان « منطق العنتريات » هو الاساس ،

و « الفكر التجريبي » هو المنطلق ، وبعدها كانت العنجهية والغرسة
هى الاساس ، وبعدها كانت نظرة العزلة والتقارير والمخاوف هى
الاسلوب ...

من منطلق (مرآة مصر) الداخلية ، ووضوح صورة (البطل) فى
وجدان مصر والعرب ، واقتناعهم الكامل بفارسهم الذى عبر بهم الهزيمة ،
وبدأ يسير بالقضية معهم الى آفاق أرحب ، والى مجتمعات متقدمة ترمى
الى تغيير بنية المجتمعات العربية بما يتماشى مع متغيرات العصر ... من هذا
المنطلق ، امتدت الصورة الى الخارج ، فرآها الناس ، فى وضوح ،
واخلاص ، وآمنوا بها ، بل سحروا بنقائها وحكمتها وعبقريتها الواضحة ..



- 1

الفصل التاسع

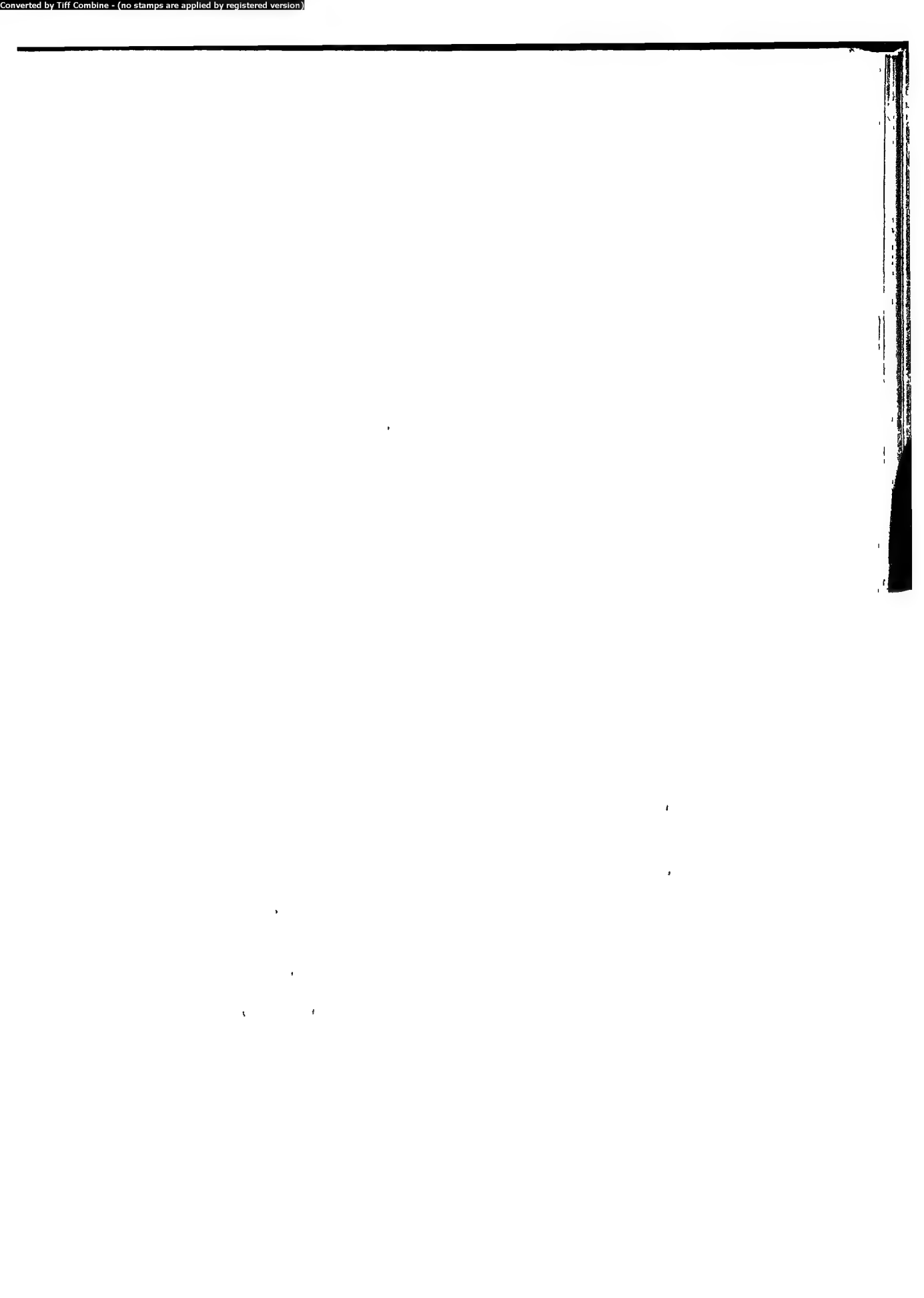
السادات والدولة العصرية

« لابد من مواصلة الكفاح ، لبناء الدولة الحديثة .
نستمر في تدعيم البناء العسكري بأحدث وآخر ما يتوصل
اليه العصر من الفن العسكري ، ونستمر في البناء الصناعي
الى آخر ما في العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضي
من ناحية تدعيم البناء العسكري ، ونمضي في نفس الوقت في
استمرار الخط السياسي النشط ، وكذلك لابد لنا ان نسير
في خط ثالث مواز ، هو بناء الدولة العصرية » .

انور السادات

٤١٧

م - ٢٧ « السادات ولورة التصحيح »



كان الانسان ، يعتقد ، أنه مركز الكون . عندما اكتشف أن الأرض ليست هي المحور الذى تدور حوله الأفلاك ، أصابه تشنج جعله يصرخ فى وجه العلم . لم يكن هناك سبب ، سوى اكتشافه ، أن « أرضه » العظيمة تدور حول الشمس

دائما

وليست الشمس هي التي تضيء له ... ولأن الانسان ، يحس ، احساسا هائلا بذاته ، ربما كان هذا وراء احساسنا الحاد بالآفاق الجديدة التي نحن مقبلون عليها .. فقد تجاوزنا عام ١٩٧٥ .. وبدأنا ندخل الربع الأخير من قرننا الحالي ، أى بدأنا نستشرف آفاق القرن الحادى والعشرين ... وهذا يعنى دخولنا مرحلة جديدة من الفكر والعلم .. والعالم أصبح يجرى بعد أن كان يسير ، وعشرة أعوام من عمر البشرية اليوم ، تعنى أكثر من ستة أو سبعة قرون فى الماضى .. كان الجبرتي يعلق على أحداث الشهر ، قائلا .. أنه لم يحدث فيه شئ بذكر .. أما اليوم ، فالمؤرخ رأسه تدور مع أحداث يوم واحد !..

وفى عصر ، كهذا ، ينتابنا احساس أهل الطفل الوليد ، ويصعد الى السطح سؤال : ما هي صورة المستقبل ؟

وهو سؤال تصعب الاجابة عليه ، لأن الأحداث لم تعد تجرى فى نهر الحياة ... بل أصبحت تندفع مع شلالاتها ، والرصد أصعب هنا ألف مرة .. واذا كان تسجيل الجزء صعب ، فإن الخروج بصورة عامة أكثر صعوبة ، لكننا مع ذلك نحاول أن نستشرف صورة الغد ...

وصورة الغد ، بالنسبة لنا ، هي صورة : « دولة العلم والايمان » ، التي تحقق للمواطن نوعا من الامان والرفاهية ، تكفل له أن يحيا فى سلام محققا أحلامه ومطامحه التي يصبو اليها . لكن هذه الدولة ، الوصول اليها ،

ليس باليسير ، وليس بالكلام وحده يمكن اقامتها ، لانها صورة المجتمع التى تتمثل متغيرات العصر فى نفس الوقت الذى تتخذ الإيمان الهاما لها ومناخا عاما كى لا يفقد الفرد توازنه النفسى داخلها ، كما يحدث فى المجتمعات العصرية، عندما يحس الفرد بالهوة تتسع بين عالم (الاوتميشان) وداخله الحسى والعاطفى والروحى ..

وإذا نظرنا الى المعركة التى نخوضها الشعوب العربية لازالة آثار العدوان الاستعماري الاسرائيلي ، وما حدث من انتصارات عسكرية وسياسية على كافة المستويات فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وما أعقب ذلك من فك الاشتباكات على الجبهتين المصرية والسورية ، ثم ما حدث من تحركات عربية ودولية على رأسها رحلة السادات الى البلاد العربية ، ثم رحلته الى سالزبورج فى النمسا والتقاءه بالرئيس الامريكى فورد ، ثم ما أعقب ذلك من مكاسب ديمقراطية وسياسية واجتماعية فى مصر ، ثم افتتاح قناة السويس فى ٥ يونيو ١٩٧٥ وإبداء كافة الاستعدادات من قبل مصر والعرب لاقرار السلام والذهاب الى مؤتمر جنيف للوصول الى حلول عادلة تصل بالقضية العربية الى حل تناقضاتها جوهريا بعودة الاراضى السليبية الى أصحابها وضمان الحقوق الشرعية لشعب فلسطين .. اذا نظرنا الى كل ذلك ، نجد أن هدف اقامة (الدولة العصرية) ، على أرضنا ، من الأهداف الاستراتيجية الحتمية لثورتنا ، والتى بقودها البطل والمعلم والقائد محمد أنور السادات ، فهو يقول :

«لابد من مواصلة الكفاح ، لبناء الدولة الحديثة . نستمهر فى تدعيم البناء العسكرى ، باحدث ما توصل اليه العصر من الفن العسكرى ، ونستمهر فى البناء الصناعى الى اخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضى من ناحية فى تدعيم البناء العسكرى ، ونمضى فى نفس الوقت فى استثمار الخط السياسى النشط ، وكذلك لابد لنا أن نسير فى خط ثالث مواز ، هو بناء الدولة العصرية »

ولكن كيف يمكن التوصل الى بناء الدولة العصرية ؟

لا سبيل الى ذلك الا بتمثل العلم ، ومتغيرات العصر ، فاننا في حاجة الى تطوير كل شئ ونقله الى أشكال وأساليب العالم العصري ، وكما يقول السادات : « لا بد أن ندخل عصر التكنولوجيا ، وليس بوسعنا أن نبقى متخلفين ، والا انقرضنا كما انقرض الهنود الحمر في الولايات المتحدة » ويقول ، أيضا :

« من أبرز آثار الثورة التكنولوجية في عالم اليوم ، ذلك التقدم الهائل في وسائل نقل الأفكار والمعلومات والسيارات وأنماط السلوك المختلفة ، عبر الحدود القومية لكل المجتمعات الإنسانية على السواء ، وبالتالي ، سقطت الحواجز القديمة العازلة بين بيئة وبيئة وبين مجتمع ومجتمع ، وفي وجه هذا التحول الثوري المتزايد ، لا يمكن أن تكون حصانتنا ازاء هذا الانفتاح والاتصال ، الا من داخلنا .. ولا يكون الحفاظ على هويتنا بالانكماش والجهود والضعف ، وانما يستمد حيويتهم من قدرتنا على التجديد ، وتبانه من تمسكنا بالأصالة، وبهذا المعنى، فان عملنا من أجل أن نبني في بلادنا مجتمعا عصريا ودولة حديثة، لا يعنى النقل والتقليد . اننا قادرون ، على أن نصنع بانفسنا، ولانفسنا ، حضارة عصرية ذات طابع مصرى وعربى اصيل . نحن نرفض ، أن تكون الأصالة ، نظرة الى الوراء تقديس الماضى ، لانه الماضى ، وترفض التجديد ، فليس كل ما كان في الماضى مشرقا ، ولكنه فيه بعض عناصر التخلف .. ونحن نرفض من جهة أخرى ، أن نمسخ شخصيتنا القومية باسم محاكاة المادية او السلوكية لمجتمعات أخرى » .

وربما كان قول المفكر والفيلسوف الانجليزى المعاصر (موريس كورنفورث) ، على حق عندما قال : « انتهى عصر الجيوش العديدة ، كما انتهى عصر الاجتهادات فى العمل والحياة .. ان الثلث الاخير من قرننا الحالى ، أن البضع سنوات الاخيرة التى بقت على قدوم عام ٢٠٠٠ ، تحتم علينا ، ان نفكر من خلال العلم ، وربما كانت هذه مشكلة الدول النامية

والدول المستقلة حديثا ، والتي تسعى لاقامة مجتمعات جديدة ، لابد أن تقوم هذه المجتمعات على قاعدة متينة من العلم ، حتى يكون المجتمع قويا وسليما ، وحتى تسمر الثورة في هذه البلدان الى ما فيه خير المواطنين . ويستشهد كورنفورث على ذلك ويدلل ، فيقول : « ان جحافل جيوش نابليون بونابرت ، لم تعد كافية لتواجه معركة واحدة ، فيتنام ، كذلك جيوش برونزويك الالماني الذي تصدى لبونابرت ، لن يكون في مقدورها الثبات اكثر من بضع دقائق في معركة واحدة من معارك السبعينات في قرنا الحالى لقد تغير كل شيء .. الحرب تغيرت ، الصناعة تغيرت ، علاقات الانتاج تغيرت .. وبالتالي ، تغير مفهوم الثقافة ، والفن ، والحب والصدقة كل هذا أصبح ينظر اليه بعين مستحدثات العصر الذي نحياه ويتطور في سرعة غريبة » .

ويقول السادات :

« ان المنهج العلمى ، الموضوعى ، هو الطريق الوحيد الذى يؤدى الى التقدم الحضارى » .

ويضيف :

« ان علينا أن ننتفتح على آفاق التقدم ، ذلك أن الحواجز ، فى عالمنا الجديد لن تكون حواجز بين الألوان ، أو الأجناس ، وانما سوف تكون الحواجز بين التقدم والخلف ، والعلم يجرى بسرعة خارقة . ونحن لا نستطيع الاكتفاء بالحديث عن العلم دون أن نخوض عوالمه ، والا كنا نكتفى بتشخيص المشكلة ، ونستغنى فى ذلك عن علاجها . نحن أكثر من غيرنا لا أمل لنا الا فى العلم ، ونحن أكثر من غيرنا مدعوون الى الأخذ بأسبابه وتلك ضرورة تصنعها حتمية أن تتفق آمالنا العريضة مع منجزاتنا الحقيقية ، وأول خطوة على هذا الطريق هى التعليم ، الذى يجب أن ننقل به بأسرع ما يمكن ، من بقايا القرن التاسع عشر الى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء » .

والغريب ، أن مناهج التعليم ، لدينا ، وحتى الآن ، لا زالت خاضعة لاساليب وقوالب العصور الماضية ، وتسبب وفقاً لمنهجية غير علمية ، حتى كتب الجامعة ، اذا ما قلبت في الكثير منها ، لوجدت العديد من الاخطاء والنظريات التي عفا عليها الزمن ولم يعد يؤخذ بها ، سواء كان ذلك في العلوم الوضعية أو في العلوم الاجتماعية والنفسية أو في العلوم الطبيعية ، والسادات ، يرى ان التعليم في بلادنا ، يمثل « ركيزة أساسية » ، فعلى أساسه سنخرج أجيال تتخذ من العلم والتكنولوجيا سلاحاً لها في كافة المجالات ، لكن ما فائدة ان نادى بالعلم ، ومتغيرات العصر ، وأبناء هذا الجيل « يتعاطون » افكاراً ونظريات خاطئة في الاقتصاد وعلم النفس والفلك والتربية والبيولوجى والفيزياء ، بل أن الكثير من العلوم المحدثه ، التي هى وليدة عصر التكنولوجيا ، لم تعرف الطريق بعد الى مدرجات جامعاتنا ؟

ويقول السادات :

« ان أهم ، طراً على منطق التعليم والبحث في العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل ، وبالتالي ، لم يعد التعليم مسألة مقررات دراسية جامدة ، تنفخ مهمة التعليم عند اسباب الطالب لها ... ولكن أصبح التعليم مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بحركة المجتمع ومتطلباته . ومعنى ذلك ، أن التعليم ، والشقيب العام ، صار لهذا هدفان متلازمان .. الأول ، هو ايجاد الفرد المتعلم المستنير ، بحيث يكون أكثر فهماً واتساقاً مع مجتمعه وعصره ، وأكثر قدرة على استيعاب ثمار المعرفة الانسانية والاستمتاع بها ، وأكثر فهماً للقضايا العامة في بلاده ، وفي محيطه وبيئته التي يعيش فيها .. والثانى ، هو تزويده بخبرة متقدمة محددة ، تسكنه من القيام بالدور الذى يناسب مع هذه الخبرة فى شتى مواقع العمل والانتاج فى بلاده . »

وعندما كتب جول فيرن ، و هـ.ج . ويلز ، وغيرهما ، القصص العلمية ، بين اواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن ، وعرضوا في مؤلفاتهم احلام الانسان في الصعود الى القمر ، وصفت هذه الكتابات بالخيالية ... وعندما كتب سان سيمون وفورييه وكامبانيلا والفيلسوف العربى الفارابى ، مؤلفاتهم التى كانت تحلم باقامة مجتمعات عصرية ، أطلق عليها العلماء « عالم اليوتوبيا » أو « الدول الخيالية » ، ووصفت افكارهم بالخيالية ، أيضا .

لكننا ، نقول ، ان (الحلم) بداية الطريق للحقيقة ..

بل هو أساس العلم . فلو لم يكن هؤلاء الكتاب قد ارهصوا ، وغيرهم ارهصوا لما كانت هناك اختراعات واكتشافات ، تشارك في تقدم البشرية .. وعلى مدى آلاف السنين ، حاول الناس ، أن (يتخيلوا) ، نظاما اجتماعيا ، يتمتع الجميع في ظله بالحرية والعدالة والسلام ، وفي البداية كانت مثل هذه الأفكار مجرد أحلام ..

كذلك الحال في مجال العلم . لقد صور (هسيود) الشاعر اليونانى القديم ، (العصر الذهبى) للبشرية الذى كان يهيم فيه الانسان على وجهه حالما ، متوحشا ، شريدا ، وصف هسيود ، هذا العالم ، بأنه كان عالما لا يعرف القلق أو التوتر ، وكانت الأرض تغل ثمراتها من تلقاء نفسها ، وكانت الحرية والصدقة والمساعدة المتبادلة هى القانون الاخلاقى في ذلك الوقت ، وكان الشاعر اليونانى القديم يحلم بهذا العصر : « عصر المشاعية البدائية » - أو العصر الذهبى كما سماه .. لكن كيف يمكن اعادة هذا العصر ؟ ان جميع المحاولت لتحطيم نير الظلم ، كانت ، دائما ، تنتهى بهزيمة المغلوب على أمره ، ولم يكن المستقبل أبدا ، يبشر بالخير ، وبدأ الأمر كما لو أن الناس لا يستطيعون احياء (العصر الذهبى) حقا ، لم تكن بملكة العدالة والمساواة . كان حلم الناس يتمثل في (المسيحية) القائلة بملكة العدالة والمساواة على الأرض ، وكان زعماء هذه الحركات الذين لعنتهم الكنيسة ،

ووصفتهم بالهرطقة ، كانوا يدافعون عن الحقوق الاجتماعية ويطالبون بالمساواة وسيادة القانون ، وفي بداية القرن السادس عشر ، أعلن (توماس منذر) - زعيم حزب الفلاحين في ألمانيا - عدم عدالة الملكية الخاصة ، ووضع خطة لاقامة نظام اجتماعي تنعدم في ظله الفوارق ونذوب . حقا ، لم تكن مسئلة العدالة والمساواة .. حلم الناس في ذلك الوقت ، تشبه الاشتراكية الا بشكل غامض ، لأن الاقتصاد الضعيف ، لم يكن يستطيع أن يكفل الرفاهية للجميع .. فما الذي حدث لحلم الناس ؟ في البداية كان (العصر الذهبي) ، الذي كان ينتمى بكامله الى الماضي ، الجنة الأرضية التي تنتمى بكاملها الى مستقبل غير محدود وكان الناس يدركون تمام الادراك ، أن مملكة العدالة ، أو الدولة التي يحلمون بها ، لن تقوم على الأرض من تلقاء نفسها ..

كان على الانسان أن يفكر ، ويفكر ، لينتقل الحلم من قنطرة « الخيال » الى الحقيقة ..

في عام ١٦٠٢ ، كتب توماس كامبانيلا ، الفيلسوف الايطالي ، مؤلفا كبيرا ، عرض فيه (الدولة) ، أو الحلم الذي ينشد أن يحيي الناس في ظلاله ، واطلق على هذا العالم الجديد : « سيفتياس سوليس » - أو مدينة الشمس ، ونشرت الرواية في عام ١٩٢٣ ، وكان الراوي فيها رحالة ، زار مدينة عجيبة أثناء تجواله حول العالم ، وكانت تقع هذه المدينة في جزيرة (تابرو بانو) الخيالية في المحيط الهندي .. ووصف الرحالة هذا العالم بأن المجتمع فيه ، مواطن مدينة الشمس ، لا يعرف الملكية الخاصة ، ولا يخدم الناس الأشياء ، بل توضع الأشياء في خدمة الناس .. والعمل شرف في هذه المدينة ، على الجميع أن يسعى اليه .. وكلما ازداد العمل مشقة كلما عظم الشرف .. وفي نفس الوقت ، فإن استخدام المخترعات التكنيكية المختلفة يجعل العمل سهلا ، ويذكر كامبانيلا في روايته هذه ، عربات تتحرك من تلقاء نفسها ، ويقول ان الناس قادرون حتى على التحليق والطيران ليقطعوا

المسافات في سرعة ، ويمتد العمل في هذه المدينة لأربع ساعات فقط ، لأن الانسان ائمن رأسمال في الوجود ... كما تعمل النساء جنبا الى جنب الرجل ، وهن متساويات مع الرجال في الحقوق ويتمتعن بالاحترام العام .. ووفرة الانتاج في هذا المجتمع تكفى لجميع الاحتياجات ، بينما يوجد نظام خاص للتربية يكفل تنمية الفرد تنمية متوافقة ، وتقوم العلاقات على أساس الحب المتبادل والصداقة ...

وعلى غرار (يوتويا) كامبانيا ، كتب تشارلز فورييه ، وهنرى سانت سيمون ، وروبرت أووين ، أعمالهم ، ليصوروا أحلامهم عن (الدولة) التي يسعون اليها وفي بداية القرن التاسع عشر ، كانت الاشتراكية - الخيالية ، أو الطوباوية ، قد بلغت من العمر ٣٠٠ عاما ، وطوال ذلك الوقت عمل الاشتراكيون في معرض تقديمهم للعلاقات القائمة على تهذيبها على اساس الأخلاق ، وكانوا يرسمون المشروعات لمجتمع مثالي ، وأعلنوا أن القديم مضاد للأخلاق ، وأن الجديد ينبع منها ، وفي بعض الاحيان كانوا يعززون الادانة الاخلاقية بالادانة الجمالية ، ويؤيدون الحاجة الى مجتمع مثالي من مراكز جمالية ، وكان (اليوتوييون) ، و الاشتراكيون الخياليون في القرن التاسع عشر ، يأملون باقامة دولة حديثة ، تخفى فيها كل الشرور ، وبسود فيها القانون وتنعدم فيها الفوارق الواسعة بين الانسان وأخيه الانسان ... وكانوا على ثقة من أن هذه الأفكار منطقية وتتفق مع منطق البشر وكانوا يحسون أن الناس لا يمكن الا أن يتجاوبوا معها ..

وفي عام ١٨٤٠ ، نشر (اينين كاييت) في باريس روايته الفلسفية : (رحلة الى ايكاريا) .. وتصور ان ايكاروس الاسطوري ، طار من محارة كريت على الاجنحة التي صنعها له والده دايدالوس ، وساعد كاييت على خلق صورة المجتمع الذي ينشده ، وكان على كاييت أن يراعى ان (ايكاروس) مات ، وأن الحدا ، لا يستطيع أن يكون حرا عندما تكون للاستعباد اليد العليا ، وكان عليه أن يأخذ بتجربة (نيو هارموني) التي

سمع بقصتها من روبرت أووين ، نفسه ، لكن ربما كان أووين هو الذى أحيا الأمل فى نفس كايت عندما ذهب الاخير الى لندن خصيصا للاجتماع به .. وعلى أية حال ، فقد أصدر كايت فى مايو ١٨٧٤ نداء للناس : « هيا الى ايكاريا » ... وهى دعوة للاقامة فى (جنة جديدة) ، حيث الملكية مشتركة ، وحيث التوزيع تحكمه العدالة ، وحيث يسود الفانون ، وحيث يسود الحب والوفاء) .

وفى ٣ فبراير ١٨٤٨ ، ابهرت السفينة (روم) ، من ميناء هانوفر الى أمريكا وهى تحمل (الطليعة الأولى) ، وقوامها ٦٩ ايكاريا ، وعلى حد تعبير المجلة التى كان يصدرها كايت (بوبولير) : « بدأت ، بذلك ، أعظم مغامرة فى التاريخ الانسانى » ، وكان كايت ، يؤمن ، بأن « جماعة من النحل الجديد ستطير من ايكاريا الى جميع أنحاء العالم لكى يزداد العالم الجديد ثراء » . ثم تطور الأمر ، واجر كايت نفسه ، مع ٢٠٠ شخصا ، لكن هل وجدوا الجنة التى كانوا ينشدونها من حين لآخر ؟ كانت تظهر (مجتمعات ايكارية) ، تتمثل ، أنموذج الدولة الحديثة ، التى تنشد خلاص الانسان من ربة القهر والاستغلال والقمع ، وتطور الأمر من الطوباوية ، الى الايكارية ، الى الاشتراكية العلمية التى حاولت ان تمتص كل ما سبقها من افكار لتصيغه على قوانين علمية ، وهذه الاشتراكية العلمية صاغها كارل ماركس مع زميله فردريك انجلز ، وهى التى تطورت الى الماركسية - اللينينية ، عندما أضاف لينين فكره النظرى والعملى لها ، ومن خلالها قامت أول ثورة اشتراكية فى العالم على يده فى اكتوبر ١٩١٧ فى روسيا ...

اذن ، فلا شيء يوصل الى نتيجة حقيقية غير العلم ... ولا يمكن تحقيق (حلم الانسان) ، سواء كان فكرا أو اختراعا ، أو اكتسافا ، الا من خلال القاعدة العلمية والقوانين العلمية ...

لماذا ؟ ببساطة لأن جميع الاشياء والظواهر في الطبيعة لها خصائص بها ميكانيكية ، فيزيقية ، كيميائية ، بيولوجية ، ولها علاقاتها وقوانينها ، والنظرة الديالكتيكية التي تعتمد على الجدل ، تربط بين هذه الظواهر والانسان ، وتصل الى تفسير علمي لكل ظاهرة ... وهذه الظواهر ، توجد مستقلة عن الارادة والضمير ، سواء اراد الناس أم أبوا . وهناك حكاية شهيرة معروفة لدى اليونانيين ، يحكيها العلماء والفلاسفة للدلالة على العلم وارتباطه بتطور الوجود :

ذات مرة غضب (أبوللو) على (آخيل) بطل حرب طروادة العظيم ، فوجه سهم بارييس ، بحيث أصاب كعب آخيل ، المكان الوحيد القابل للاصابة في جسده ، ومات آخيل ... وكان اليونانيون يؤمنون بالقدر والمصير ، ومع ذلك ففي الكثير من أساطيرهم وحكاياتهم كانت تبرز فكرة أن الآلهة ، وليس البشر وحدهم ، يضطرون ، أحيانا الى مراعاة عوامل خارجية ، وعند نقل العلاقات والخصائص الموضوعية الى ميدان الخيال ، كثيرا ما كانت تتخذ صورة (كعب آخيل) ، ويضرب بها المثل (١) ومن المفيد ، ان تبين القوانين ، حتى نستطيع أن نتحكم فيها ونضعها في خدمة الانسان ... وهذا ما يتناوله العلم ، ويتطور من خلاله ، وفقا لمتغيرات العصر .. والأفكار ، والآراء العلمية ، والنظريات ، لا تبقى في العلم ، الا اذا اتفقت مع قوانين الطبيعة . فكتاب كوبيير نيكوس ، مثلا ، الذي تحدث عن مركزية الشمس بالنسبة للعالم منذ أربعة قرون ، حرمة الكنيسة ، وكان على أساتذة الفلك ، أن يتعهدوا ، بأنهم لن يكشفوا عن هرطقة كوبرنيكوس

(١) قصة البطل آخيل ، رواها الشاعر الاغريقي القديم هوميروس في (الالبادة) ، والالبادة ، تعني : اليوس - قصة اليوم ، أي طروادة ، المدينة الاغريقية القديمة .. وآخيل بطل من أبطال الاغريق في الحرب ، ومن خلال (آخيل) وغصبه وفورله ، يحكي هوميروس الالبادة واحداث القتال في طرواده . وقد اجمع المؤرخون ان احداث (الالبادة) ، وقعت حوالي منتصف القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح ..

لنلامذتهم ، وحرمت قراءة الكتاب بل انه أحرق ؛ لكن رغم ذلك ، فلا أحد يشكك في نظريات كوبرنيكوس اليوم ..

وقد اثبتت النظريات ، وأكد التاريخ ، أن كل فكرة علمية ، ونظرية ، لا تظهر ولا تشق طريقها الا عندما يكون المجتمع في حاجة ماسة الى مثل هذه النظرية ، والاشتراكية العلمية ، أو الماركسية - اللينينية ، نجحت ثورتها في شرق أوروبا ، ولم تنجح في غرب أوروبا أو في مناطق أخرى ، لأن طبيعة هذه المجتمعات كانت في حاجة الى هذه العقيدة ، وكان مناخها وظروفها التاريخية والحضارية ملائما تماما لذلك ، ولكن ليس معنى كلامنا هذا اننا لا نؤمن بالاشتراكية العلمية ، بل اننا نقول انها تلائم مجتمعات بذاتها ، وقد تتطور وتضاف اليها رؤيا جديدة لتلائم متغيرات العصر ، وقد تغير الرأسمالية أيضا أسلوبها أو قلبها ، لتحاول أن توازن بين متطلباتها ومتطلبات العصر ، وعلى هذا نبتت الانظمة المعروفة في الغرب تحت أسماء مختلفة مثل : الرأسمالية الشعبية ، الرأسمالية الديمقراطية ، رأسمالية الوفرة (١) . وعلى حين تواجه العديد من الدول الرأسمالية ، وبالذات الرأسماليات الاحتكارية ، الكثير من الازمات التي تنعكس في الداخل على (المواطن) ، فلا يحس بالاستقرار والأمان الاجتماعي والنمسي والعاطفي ، ورغم ان مجتمع الوفرة يوفر له كل الاحتياجات المادية ... تواجه أيضا الدول الشيوعية ازمات من نوع آخر ، مثل ، سيطرة الحزب الشيوعي ، وظهور طبقة البروليتاريا بامتيازاتها الواضحة ، والتي تعرف بامتيازات « طبقة الحزب الحاكم » ، ورغم أن النظام في هذه البلدان يوفر الامان الاجتماعي والمادى للفرد ، الا أنه لا يتيح له الحرية الفردية ، ولا

(١) وفي نطاق الرأسمالية الشعبية ، التي بدأت تروج في اوائل الستينيات من فرنسا هذا ، سمح لطاعات معينة من الكادحين من حملة اسهم الشركات المختلفة ، ومن ثم شارك في ادباج الشركات ، ويقول دعاة الرأسمالية الشعبية ، انه من خلال هذه الاشكال تلوب الفوارق الطبقيية بين العمال واصحاب العمل ، فلهم رؤساء وعمال في المؤسسة ، لأن كلا منهم يحصل على الربح ، وهذه الاشكال ، تقوم اساسا على تطوير الإنتاج ، بحث بفق كلفة مع مصالح المستهلك ..

يحس بذاته ، ابدأ ، بل انه ، دائماً ، ينتابه الاحساس ، بأنه ترس في الدولة وعجلة انتاجها الجماعى وليس أكثر ، وربما هذا ما دعا الكثير من هذه الدول الى أنه تغير في طبيعة علاقاتها الداخلية والخارجية ، فبعد أن كانت ترفض أساليب الرأسمالية ، أخذت منها بعض القوالب ، بالفعل ، وبدأت تستخدمها في مجالات خلق نوعيات من الملكية ، والاخذ بنظام الاعلان والدعاية ، واعطاء نوع من الحريات الفردية بما يسمح للفرد بالتنفس ، لكن بعض هذه الدول لا زالت واقعة في عقيدية جامدة ، وتفرض على مواطنيها ستارا رهيبا من (النظام) الذى لا يكفل للفرد الحرية أو الديمقراطية ..

لذلك ، ونحن نفكر ، في دولتنا العصرية ، أو الدولة الحديثة ، نرفض الأشكال المستوردة ، ونستلهم جوهرها وشكلها من طبيعة أرضنا ، لكننا تتمثل في إقامتها كل متغيرات العصر وثورة التكنولوجيا التى تميز طابع الحضارة المعاصرة .. وكما يقول السادات : « ان امم العصر التى شقت الفضاء ووصلت الى أعماقه ، وسيطرت على آفاقه لم يتنها لها ذلك الا حين انزلت العلم من حياتها منزلة الروح من الجسد ، وبلادنا التى غلبت الاحداث ، وسار تاريخها بين نار ونور ، بلادنا التى حطمت القيود بعد القيود ، وشقت في الصخور التاريخ طريقها للخلود ، تضع أمام أعينها ، دائماً ، تكريم العلم ، لأنها كعبته من قديم » .

والدولة الحديثة ، أو الدولة العصرية ، التى يتحدث عنها السادات ، هى نموذج المجتمع الذى يتمثل مبادئ (ثورة التصحيح) ، ومتغيرات العصر في كافة المجالات ، وثورة التكنولوجيا العصرية .. والدولة العصرية ، تستلهم قيمها وأفكارها من صميم مبادئنا وأخلاقيتنا ، وتعتمد بشكل أساسى على المنهج العلمى فى كل شئ ، وتنبذ التجريبية أو النفعية أو القدرية فى اقامة المشروعات أو بناء مجالاتها المختلفة ، وتعتمد اعتمادا كلياً على التخطيط العلمى الدقيق ، والذى يعتمد على الالكترونيات والكمبيوترز - فالثورة

التكنولوجيا ، جزء جوهري ، من قاعدة الدولة العصرية : دولة العلم
والإيمان ..

وفي حديث السادات لمؤتمر اتحاد الجامعات العربية ، الذي عقد منذ عامين
توضيح لبعض ملامح الدولة الحديثة ، فهو يقول في خطابه لهم : « ان
الأمم العربية ، ايها الاخوة ، تمتحن هذه الأيام ، امتحانا رهيبا في معركتين
ضاريتين : معركة مع التخلف ، في عصر تغيرت فيه من حولنا الدنيا ،
وقفزت اكثر الشعوب بالعلم والخبرة وبالتنظيم قفزات نقلتها من عصر
الى عصر آخر جديد تماما ، ورغم الجهود المضنية التي تبذل في كل بلد
عربي ، فلا تزال أكثر شعوبنا واقفة على أعتاب العصر ، ولا تزال رغم
ضخامة الانجازات في بعضها - قاصرة على ملافاة مستوى الطموح العربي ..
أما المعركة الثانية ، فهي معركة عدوان مكر تلتقي فيه أكثر من مصلحة ،
ويعاون فيه علينا أكثر من حليف ، يعرفون ، جميعا ، ما تنطوي عليه الأرض
العربية من كنوز ومصادر للخير والنماء ، وما يزدهر به العمل العربي من
قدرة وخبرة ، وما تمتلئ به النفوس العربية من اصرار على اللحاق والسبق
ويعرفون ان التقاء هذه العناصر كلها ، من شأنه أن يفجر في هذه المنطقة
من العالم طاقة لا حدود لها ، وان هذا التفجير حين يتم فسوف يكون لنا
ولهم شأن غير الشأن الذي يحبون ، لذلك كان التأمر ، وكان العدوان ،
وكانت محاولات التجزئة » . وعلينا ان نواجه كل ذلك بالعلم ويقول
السادات ، ايضا : « لن نصل الى اهدافنا الا عن طريق استخدام كل وسائل
العلم الحديث ، في جمع المعلومات وتخزينها وتوزيعها ، والاهتمام بمراكز
البحث التكنولوجي المتقدمة » .

فكما يقول السادات : « ان الالكترونيات ، أصبحت شيئا خطيرا في
عالم ، اليوم ، والالكترونيات ، تستخدم ، اليوم في جميع فروع الحرب ،
كما هي مستخدمة في السلم في احتياجات الفرد العادية ، ولا بد
أن نساير كل تطور في العالم . . . » . وهذا التطور ، يخضع ، الى

منطق التخطيط ، فالتخطيط ضرورة من ضرورات الدولة العصرية ، ويؤكد السادات على ذلك بقوله : « ان الوقت الآن ، هو للتفكير وللتخطيط المنظم ، ان مشاعرنا وعواطفنا لا تحتاج الى من يستشيرها أو يحركها . ان المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الايمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبدل في سبيله ، تحتاج الى التفكير السليم المنظم ، وتحتاج الى التخطيط الدقيق والقوى . والقوة ، أية قوة مهما بلغ حجمها ، تصبح قوة عمياء ، اذا لم يكن المنظم لها تخطيطا دقيقا .. والعمل أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل ، أبدا الى هدفه اذا لم يكن موجهه والمدير له موجها ، منظما دقيقا . . الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق هو الاطار » ..

ومصر لديها القدرة ، كل القدرة ، على تربية جيل علمي ، يغير ويغير ، ويشترك في بناء الدولة العصرية : دولة العلم والايمان ، يثرى من حضارته ، ويستلهم الفكر المصرى الأصيل ، ويتخذ العلم والتخطيط منهجا أساسيا له ، ويتمثل متغيرات العصر في التكنولوجيا المعاصرة ، ويستوعب كل جسديته وحديث : « عن طريق استيعاب كل ما قدمت ، وعن طريق تفهمه ، فائنا نستطيع ان نقول انه سوف يكون بإمكاننا أن نقيم على هذه الارض دولة عصرية ، لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن يتحول فيها العلم والتكنولوجيا الى أسلوب عمل ، والى تحقيق عملي لأهداف مجتمع أمامه مسئوليات عظمى تملؤه آمال أعمق » .

ويرى السادات .. أن تجربة حرب أكتوبر ، قد أكدت ان التخطيط العلمى ، والاخذ بمتغيرات العصر ، ومحاولة استيعاب كل فنون العسكرية المعاصرة المبنية على تكنولوجيا العصر ، كانت من الأسباب الأساسية في الانتصار العسكرى على اسرائيل ، وتحطيم أسطورة التفوق العسكرى للجيش الاسرائيلى ، ويؤكد على ذلك بقوله ، محاولا أن يربط بين مفهوم

الدولة العصرية (في المجال العسكري) ، وفي (مجال التنمية) ، فيقول :
 « ان تجربة حرب أكتوبر ، قد أثبتت ، ان التخطيط العلمى ، هو أساس
 كل عمل ناجح ، وان التخطيط الاقتصادى الذى أخذنا به منذ قد ساعدنا
 على احراز مكاسب محققة ولعب دورا أساسيا فى ضمان الصمود .. وتجربة
 الشعوب النامية كلها ، تؤكد أن التنمية لا تتم بشكل تلقائى ، بل لابد لها
 من تخطيط .. بل ان التخطيط ، كأسلوب علمى لتوجيه الاقتصاد القومى ،
 قد تأكدت فاعليته ، فتهنته الدول الرأسمالية . ولا شك ، أننا اذا أردنا ،
 أن تكون استراتيجيتنا الحضارية الشاملة للمستقبل قائمة على
 أسس مدروسة ، تربط بين تلك الأهداف التى أشرت الى بعضها ، وتجعل
 خطونا نحو التقدم متوازنا ، فان حاجتنا سوف تكون أشد الى الالتزام
 بمبدأ التخطيط .. فالتنمية ، ليست عملا عفويا ، يتم كيفما اتفق ، فى
 تلقائية كاملة ، انما التنمية عمل علمى يقوم على التنبؤ بالمتغيرات المحلية
 والاقليمية والعالمية ، وبعد التصور الفنى لموجهتها فى آجال زمنية
 معينة .. » . وقد جبل الناس ، على أن يفكروا ، وطوال العصور ، وهم
 يفكرون ، من أجل تغيير مجتمعاتهم للأفضل ، والشعوب المتحررة ، حديثا
 وفى مقدمتها مصر ، التى تسعى لتأكيد استقلالها القومى ، وتنمية مجتمعها ،
 تواجه بالخطمية ، وهى تبنى اقتصادها الوطنى مسألة أى الطريق تختار ..
 طريق التنمية الرأسمالية ، أم طريق التنمية غير الرأسمالية - والاخير
 ينضوى تحت اطاره الدول الاشتراكية والدول غير المنحازة والتى تبنى
 استقلالها من خلال النظمة مستنفاة من واقعها ليلائم ويواكب ظروفها الفكرية
 والحضارية والاقتصادية ..

وما الذى تستطيع الدول المتحررة حديثا ان تتوقعه من اتباع الطريق
 الرأسمالى للتنمية ؟ الثروة للقلة ، والفقر المدقع ، واستغلال الجماهير ،
 والقمع لصالح النظام الحاكم ، والبورجوازيات القومية ، التى تتبع طريق
 النمو الرأسمالى وتدور فى فلك الراسماليات الاحتكارية ، تضطهد الكادحين

بدرجة لا تقل عن اضطهاد الرأسمالية الأجنبية لهم ، وهى فى سعيها لتأمين مصالحها اللصوصية تذهب الى حد ارتكاب الخيانة الوطنية ، وللتطورات التى حدثت فى الكونغو فى أواخر الستينات (الكونغو ليوبلديفيل) نموذج واضح فى هذا المجال ، فالطريق الرأسمالى للتنمية ، يعزز العبودية الاجتماعية ويعيد الاستعمار من جديد مرة أخرى ، وبشكل آخر .. وتتطور البلدان المتحررة حديثا ، فى ظروف تختلف اختلافا جوهريا عن هذه التى كانت قائمة عندما الرأسمالية تنمو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وذلك يجعلها فريسة سهلة للاستعمار الجديد ، فهى تعجز عن الصمود امام الاحتكارات الرأسمالية ، ولا تستطيع أن تنمى الرأسمالية باستعباد شعوب أخرى ... بينما الشعوب التى تختار الطريق للتنمية الى الشيوعية ، فندور فى فلك الأممية الشيوعية ، وتخضع لسياسة الحزب الواحد الحاكم : الحزب الشيوعى ، الذى يحكم باسم ديكتاتورية البروليتارية ، ولا يتاح فيه للأفراد عمليات التنافس الاقتصادى والفكرى ، ويخضع كل شئ لمتطلبات وقرارات اللجنة المركزية والمكتب السياسى للحزب الشيوعى ، ولا يصبح هناك ديمقراطية أو حرية ، الا من خلال ما يخدم مصالح ديكتاتورية البروليتاريا - وهذه نفسها تتحول الى طبقة ، تنمو امتيازاتها وتتسع ، وهذا المناخ لا يسمح بالحرريات السياسية ولا للابداع أو الخلق ، ويصبح الفرد فى ظل هذا (النظام) أسيرا لترس الدولة ، واحدا فى (خلية) الدولة ، والدليل على اختفاء الابداع أو الخلق فى ظل هذه المجتمعات اختفاء الأدب الجيد ، والفن الجيد ، لأن فنا معارضا لقرارات اللجنة المركزية لا يسمح له بالظهور ويحارب أشد المعارضة ، فمثل هذا النظام لا يسمح بالحوار المعارض ، أو النقد ، والدليل على ذلك ما عناه كاتب مثل (بوريس ياسترناك) فى منتصف الخمسينات ، منذ عشرين عاما تقريبا ، عندما أصدر روايته الشهيرة «دكتور زيفاجو» ، التى كانت تتعرض بالنقد للمجتمع - وهذا النقد ، كان يستهدف الاصلاح ، لا الهدم ، تعرض الكاتب عندما نشر عمله الأدبى فى إيطاليا الى قهر عظيم ، ولم يعف عنه ، ولم يسلمه من السجن والعقاب الا بعد ما كانت

قضيته ستتحول الى فضيحة دولية تعرى المجتمع السوفيتى .. شىء آخر ،
أود أن أؤكد هنا ، لاثبت ان طبيعة المناخ فى هذه المجتمعات ، تقتل الطموح
والابداع ، وهو اختفاء الأدب الجيد ، فلم يظهر بعد مكسيم جوركى
والكسى تولستوى ، كاتب مرموق ، على غرار الكتاب الروس الذين اعطوا
وأعلوا قبل ثورة ١٩١٧ فى روسيا ، وبينهم : جوجول ، وتورجنيف ،
وتولستوى ، ودستوفسكى ، وجارشين ، وبوشكين ، ولير منتوف ،
وتشيكوف ، وجوركى .. وباستثناء كاتب مثل ميخائيل شولوخوف -
الذى يعتبر حتى من جيل الكتاب الكلاسيك (ولد عام ١٩٠٥) ، لم تعرف
الروسيا واحدا من الكتاب ، يوازي ما تكلمنا عنهم ! لماذا ؟ لأن المناخ
لا يسمح بظهور العبقریات الفردية المبدعة ، وكذلك كان الحال فى الفن
التشيكى والمسرح والموسيقا .. فالكتابة تبدو فى مجتمعات كهذه ، أشبه
بالدعاية والبقاير .. وقد يقول قائل : لا ، هناك تقدم فى العلوم والفكر ،
والا فكيف صعدوا الى القمر ، ووصلوا الى كل هذا التقدم فى التكنولوجيا
عسكريا وصناعيا وماديا ؟ فأقول ، ان هذه الأشكال من الاختراعات
والابداعات ، تخضع لنظام جماعى ، ولا تخضع كثيرا للعبقریات الفردية ،
لأنها مسائل تقوم على الحسابات الالكترونية وعلوم عصرية كالكومبيوتر
أو الكيمياء الصناعية أو الرياضيات البحتة أو البيولوجيا .. كذلك ، مشاكل
الحب والعواطف ، تختفى تماما ، فى هذه المجتمعات ، لأن نظرة الحب تخضع
لنظرة بيولوجية واقتصادية بحتة ، لأن الفرد يحس انه ترس فى الدولة ،
ويخضع تماما لطبيعة النظام الذى لا يسمح للعواطف بالتفجر ، ومن هنا كان
رفض الماركسية لفرويد ونظريات علم النفس ، التى تدرس العواطف وتحلل
داخل الانسان ، لأن مثل هذه النظريات لا وجود لها فى ظل المجتمعات
الشيوعية ، أو المجتمعات التى تدور فى فلك التنمية الشبوعى من أجل حل
مشكلاتها عن طريق الارتباط بالماركسية اللينينية ، ونموذجها الأم : الاتحاد
السوفيتى ..

لذلك ، اختار السادات ، نموذج الدول العصرية ، على أساس دولة العلم والايمان .. اتخذ فيه من منهجية العلم ، والتخطيط العلمى والتنمية على أساس غير منحاز ، واستيعاب متغيرات العصر فى ثورة التكنولوجيا العالمية لا فرق بين شرقية أو غربية بل أخذ نتاج العلم وافرازه فحسب ... اتخذ من كل هذا ركائز للدولة العصرية ، الى جانب التمسك بالايمان الروحى والنفسى ، الذى يستند الى تراثنا الحضارى والاسلامى والعربى والذى يضرب بجذور عميقة يصل عمرها الى سبعة آلاف سنة ..

ويؤكد السادات ، انه لا تقدم ، ولا ضمان للمستقبل ، الا من خلال تحقيق الدولة العصرية .. دولة العلم والايمان : « فالعالم كله ، بشتى نظمته السياسية ، والاجتماعية ، يهتم بعالم جديد ، هو عالم المستقبل ، ويحاول ان يستشف اتجاهات التطور فى حدود ربع القرن المقبل ، أى سنة ٢٠٠٠ ، وترسم كل دولة منها تطورها فى خطط طويلة الأمد .. وهانحن أولاء نرى دول اليوم .. من ندرة خطيرة فى الخدمات الأساسية للصناعات ، الى خطر متزايد العالم كلها ، تسرع الى اعادة مستقبلها على ضوء المتغيرات التى تتدافع كل من انخفاض المواد الغذائية المتاحة ، الى مظاهر التضخم التى تعتاج العالم ، الى الحركة لجديدة لرءوس الأموال من أماكنها التقليدية الى أماكن أخرى وكلها أمور ، تدفع العالم الى اعادة النظر فى كثير من الأفكار والتوقعات السابقة .. ولا يمكن أن نعيش فى هذا العالم ، ونحن نفكر من سنة الى أخرى ، بل لا بد ، كما قلت ، من تصور جرىء لاستراتيجية شاملة ، ولا بد لهذا كله من التخطيط العلمى السليم .. ولأن تحررنا المقبل ، سيكون أكثر اتساعا فى شتى مجالات التقدم والبناء ، ولأننا نريد ، كما قلت ، سابقا ، أن نستخدم كل المحركات والروافد المالية والاقتصادية الممكنة ، فان هذا يجعلنا أكثر حاجة الى الأخذ بمبدأ التخطيط فى حياتنا . فالمستقبل يهم كل واحد بصفة شخصية وجماعية ، بشكل مباشر .

حقا ، أن كل شئ فى حكم المستقبل لا يثير نفس الاهتمام ، فمستقبل

الفنون وصناعة الطاقة ، هـامان بغير شك بالنسبة للبشرية ، لكنهما ليسا بالشئ الذى يعنى كل الناس . أما مسألة هل ستكون هناك حرب نووية عالمية ، فهى تهم وجود الجنس البشرى ، وهى مسألة حيوية بالنسبة لكل شخص يعيش اليوم ، مسألة حياة أو موت .. وبالمثل فان مصير عشرات الملايين من الناس يعتمد على نتيجة النضال ضد العنصرية وضد الظلم العنصرى .. وبالنسبة للكثيرين ، فان الابقاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، يشكل خطرا يهددهم بفقد وظائفهم وبالجوع وبالفقر .. وبالنسبة للكثيرين ، فى المجتمعات النامية ، يهمهم الى حد كبير ، الاطمئنان على مستقبلهم غدهم المادى والاقتصادى ، حتى يؤمنوا غدهم وغد الأجيال الجديدة ..

والكثيرون من المفكرين ، وهم يصفون مستقبل البشرية ، يثيرون الخيال بـصور العلم والتكنولوجيا ، وبالاتصال العلمى بالحضارات غير الأرضية .. لكن هناك عدد من المتنبيين بالمستقبل ، يتصورون ، أن نهضة العلم الحديث ستحمل الأرض المحترقة والحضارة المحطمة ، والناس وقد توحشوا وفقدوا مقومات الانسانية ، وهو اتجاه متشائم حقا (ونحس بهذا الاتجاه يعكس نفسه بوضوح فى كتب متعددة ، بينها كتاب الدوس هكسلى : العالم ١٩٨٤ .. وكتاب جورج أورويل : عالم جريء شجاع .. وكتاب برتراند رسل : هل للانسان مستقبل ؟ .. وفى أفلام مثل : دمار لأنطونيونى وعندما تطفو السمكة على الماء ، أو الرقص على الهيدروجين لكاكويانس ... وكوكب القروء لهيستون .. وأوديسا الفضاء لكوبريك) .. وعلى المستقبل الاجتماعى للبشرية ، وعلى طريقة تنظيم الحياة الاجتماعية ، يعتمد اتجاه ونتيجة الثورة العلمية والتكنولوجية فى عصرنا هذا .. هل ستؤدى الى ازدهار الانسانية وتفتحها أم الحطاطها ؟ وتفرض قضايا المستقبل الاجتماعى للبشرية ، نفسها ، على حياة كل فرد ، سواء أراد ذلك أم أبى ... كيف سيكون المستقبل ؟ عام ١٩٨٠ .. أو عام ٢٠٠٠ ؟

في القرن التاسع عشر ، عبر جول فيرن ، عن أفكاره العلمية والتكنيكية ، بل وتنبأ بتحقيفها ، وقال ان الانسان سيصعد الى القمر والمريخ والكواكب الأخرى ، وأن أهل المريخ سيزورون كوكب الأرض .. وقرننا العشرون ، شهد الانسان وهو يصعد الى القمر ويمشى على ترابه . لقد استطاع جول فيرن ، أن يرى نصف قرن من المستقبل وأكثر ، لأنه أقام نبوءاته على أساس الاتجاهات العلمية السليمة ، والتي كانت في ذلك الوقت تشار في علوم الرياضيات والفلك والفيزياء ..

والمستقبل ، دائما ، تحويل امكانيات يومنا الراهن الى واقع . وهكذا فمن الممكن العثور على جواب سليم من الوجهة العلمية للأسئلة المتعلقة بالمستقبل الاجتماعي للبشرية ، والتي تشغل اليوم عقول عدد هائل من الناس ، ويجب عى المرء أن يدرس تاريخ البشرية ، وأن يحلل موضوعيا ظواهر الحياة الاجتماعية خلال النصف قرن الماضي ، والذي عجزت المعتقالات والسجون والاعدام والمجاعات والحروب عن وقف انتصارها ، وينبغي علينا ، نحن أيضا ، في بلادنا ، في مصر ، أن نحقق ذلك ، حتى نلقف على الكثير من الأشياء .



الانسان يسير في تقدمه الى الأكل دائما .

رحلة الانسان على الأرض في حقيقتها هي رحلة صراع من أجل أن يفرض سيادته أكثر على مقدرات الوجود والطبيعة ..

الانسان يسير في طريق تقدمه الى عوالم جديدة ، تسعى أكثر الى الرفاهية .

المصنع الالكتروني اليوم ، ينتج بفضل ثورة التكنولوجيا العصرية ، في الدقيقة الواحدة ما كان ينتجه المصنع العادي في شهر أو شهرين ، أو ربما

أكثر . المصانع يزداد عددها في الدول النامية . دول أخرى غير الدول الكبرى تغزو المجال الذرى ، وتحقق انتصاراتها الكبرى في عوامل الطبيعة والبيولوجية والفضاء والفنون العسكرية . الانسان يشبث أقدامه على القمر . الانسان يسعى الى تصميم طائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت . الانسان يسعى ليضع أقدامه على المريخ والمشتري ونبتون وبلوتو .. الانسان يمارس تجاربه ليصل الى سر الحياة ولغز ما بعد الموت ..

مصر ، بعد انتصاراتها في حرب أكتوبر ، تتقدم تقدما واضحا ..

قال معهد الاستراتيجية العسكرية في لندن اننا نحتل مرتبة الدولة السادسة من حيث التفوق العسكرى ، بعد أمريكا والاتحاد السوفيتى والصين واليابان ودول مجموعة غرب أوروبا ..

عصرنا ، عصر العمليات المعقدة والمتناقضة ..

فهناك ثورة علمية وتكنيكية ضخمة ، تجتاح العالم ، ومحطات الطاقة الذرية والمصانع التى تعمل بالالكترونات تعمم وتزداد اتساعا ، والألياف الصناعية ، والتليفزيون الملون ، والطائرات التى تفوق سرعة الصوت ، والماكينات القادرة على حل أعقد المسائل الرياضية خلال ثوان .. كل هذه الأشياء ، أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياة الناس الذين لم تعد المعجزات التكنيكية تدهشهم على الإطلاق .. واليوم ، فإن فدانا من الأرض يغل أكثر مما كانت تغله عشرة أفدنة في بداية القرن والماكينات الأتوماتيكية المعاصرة تستطيع القيام بعمل مائة أو أكثر من الأشخاص ، وهى تسهل العمل وتجعله مبعث سرور ، والمبعثون الفضائيون من الأرض الذين وصلوا بالفعل الى القمر يحطمون جميع الشكوك التى تدور حول مقدرة الانسان على استكشاف عوالم الكواكب الأخرى وحل أسرارها ، ويوما ما سيصبح القمر وعطارد ونبتون وبلوتو والمشتري ، وبقية الكواكب الأخرى ، تماما كتلك القارات التى اكتشفها الرحالة والمكتشفون الجغرافيون من أمثال :

كريستوفر كولمبس ، وفاسكودى جاما ، وماجلان ، وأمريجو دى فونز
بيتش ..

يوما ما ستصبح كواكب الفضاء كفارات استراليا ، وأمريكا الجنوبية،
وقارة اطلانتিকা ..

ولكن الى جانب هذا التقدم العلمى الخطير ، فلا تزال هناك مجاعات
على الأرض ، ولا زال هناك أطفال لا يجدون الحليب ، وأناس يقومون
بعمل يقسم ظهورهم لكسب قوت يومهم والملايين منهم فى القارات المختلفة ،
وبالذات فى افريقيا وآسيا .. ولا تزال هناك أماكن ، المحراث الخشبي
والفأس والطنبور لا تزال هى الأدوات الأساسية فى الزراعة ، ولا زال هناك
ملايين من الفلاحين لا يجدون الا الشحيح من الطعام ، ويعيشون على
الكفاف ، وامثال هؤلاء ، الملايين ينتشرون فى قرى افريقيا وآسيا .. وربما
هذا ما دعا السادات الى أن يقول : « لا يمكن ان تتكلم عن بناء الدولة
الجديدة ، طالما ، ظلت حياة الفلاح ، منتج الغذاء للملايين ، والخامات
للملايين ، على ما هى عليه ! » .

والبشرية تعيش فى عصر توجد فيه وسائل مدمرة للحرب ، قادرة على
اكتساح أمم بكاملها ، فوق سطح الأرض .. وهناك قاذفات قنابل وغواصات
على استعداد فى أية لحظة لالقاء القنابل ، واطلاق الصواريخ التى ظهرت
امكانياتها المريعة فى العشر سنوات الأخيرة .

والامبرياليون ، اذ يشعلون الحروب العدوانية ، ويتدخلون فى الشئون
الداخلية للشعوب ، والصهيونية المحدثه — التى تشل النازية الجديدة ،
وغيرهما من نظم فاشية واحتكارية ، تعمل جاهدة على وقف سير التاريخ ،
لكن التاريخ لا يمكن ارجاعه الى الوراء أبدا ..

وهناك تحولات اجتماعية وتاريخية عظيمة تنفذ وتنجز على ظهر المعمورة.
بينما النظام الامبريالى يتراجع ، ولم يعد على خرائط افريقيا وغيرها من

القارات ، الا النذر اليسير من البلدان التي لم تنل استقلالها ولا زالت تحمل أراضيها بعض الاعلام البريطانية والبرتغالية والاسبانية ١ في عام ١٩١٩ كانت الأراضي المستعمرة وشبه المستعمرة تشكل ٧٥ في المائة من الكرة الأرضية ، أما اليوم ، في عام ١٩٧٥ ، فهذه الأراضي لا تتجاوز واحدا على ٢٠ ، وهذه النسبة ، حتما ، ستتقرب قبل أن يأتي عام ١٩٨٠ ، وبين هذه المجموعة التي لم تنل استقلالها شعوب تصل الى ٥٠ مليون نسمة : جنوب افريقيا ، موزمبيق ، افريقيا الاسبانية ..

لكن توجد أربع عشرة دولة ، حوالي ٣٥ في المائة من البشرية ، تمارس النظام الاشتراكي ، وكانت معظمها قبل نصف قرن من الزمان متخلفة تماما .. كما نبت الى العالم في الربع قرن الأخير مجموعة الدول غير المنحازة التي تمثل العالم الثالث ، بينها مصر .. وهي تمارس ، بنوعيات مختلفة أشكال التنمية ، لتطور مجتمعاتها الى الأفضل ، لتلحق بالتطور الذي يحياه العالم .

وعن طريق الاحتفاظ بـمعدل مرتفع للتنمية الاقتصادية ، وبوضع الدخل الوطني في خدمة الشعب ، تضمن النظم الاشتراكية والدول التي تمارس نظاما اقتصاديا غير منحاز ، تضمن ارتفاعا مطردا في مستوى المعيشة واشباعا أكثر كمالا للاحتياجات المادية والمعنوية لجميع العاملين .. ومصر من الدول التي تضرب مثلا واضحا في هذا الصدد ، فهي تناضل عدوا قويا ، وترتبط بحكم وجودها العربي وتاريخها بثورة التحرير ، ورغم انها تحارب وتحيا ظروف صعبة ، الا انها استطاعت رغم كل هذه المعاناة أن تقطع شوطا هائلا في التنمية ..

ومن خلال مفهوم الدولة العصرية ، سيتم انجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية التي أعاد الرئيس السادات تصحيح مسارها ، بأن كفل لها قواعد الديمقراطية ، وصيانة الحريات العامة ، وكفل لها سيادة القانون ، وجعل تطورها يمارس من خلال دولة المؤسسات ، فلا تنشأ بعد ذلك مراكز

القوى لتعوق عمليات التقدم الاجتماعى والفكرى والمادى التى تسعى لها
ثورتنا ، والذي تضمن حمايته التحولات التى تجرى فى مصر الآن ، من أجل
الوصول بمصر الى مزيد من التطور ، ومزيد من التقدم ، لتحقيق مفهوم
الدولة العصرية : دولة العلم والايمان .. التى تتمثل كل افرازات ومنجزات
ثورة التكنولوجيا العالمية ، وتتحرك وفقا للتخطيط العلمى ، وتسير الى
غايات واضحة محددة ، مستلهمة الفكر المصرى الأصيل الذى يستند الى
حضارتنا العتيقة ، ويتخذ الايمان ركيزة أساسية له ، ليتحقق التوازن الذى
يتم بين سد متطلبات الفرد المادية والاجتماعية ، وتمثل اخلاقيات بذاتها ،
تكون حافزا ، بعد ان وقفت امامنا الظروف كثيرا واعاقتنا عن تحقيق
مطامحنا واحلامنا ..

لقد حان الآن الوقت ، ان ننتقل ، لنسابق الزمن ، ولنحقق الكثير ،
ونعوض مصر عما فاتتها من منجزات علمية وحضارية .. فجنبنا الى جنب
تحرركنا من أجل حل مشكلات مصر والعرب مع إسرائيل ، وجنبنا الى جنب
حل القضية العربية فى جوهرها من خلال التحركات القومية والعالمية التى
تجرى وتتوالى قبل أن نذهب الى جنيف ، ونفرض حقوقنا العادلة ..

جنبنا الى جنب هذا ..

لا بد أن نواصل مسيرتنا فى البناء الصناعى المتقدم ، وفى محاولة خلق
ثقافة وفكر متفتح ، وتمثل آخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ،
ونمضى فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك ..

نتحرك خطوات أعمق وأسرع من أجل بناء الدولة العصرية :

دولة العلم والايمان ..

الفصل العاشر

السادات إلى أين؟

((أن مصر مصممة على القيام بواجبها ، المقدس ، نحو
أرضها ، والأراضي العربية الطاهرة ، التي لا يزال العدو
يحتلها في الجولان ، وسيناء ، وفلسطين ، ونحو الأرض العربية
الفتيبة ..))

أنور السادات



.

,

,

,

رحلة

الانسان على الأرض في جوهرها ، هي رحلة من أجل الحقيقة
 يقول المثل الاغريقي القديم ، ان الانسان ولد ليبحث عن
 الحقيقة . ويقول الحكيم بتاح حنن منذ ثلاثة آلاف سنة
 قبل الميلاد : لا تنتفخ زهوا بعلمك ، انك لم تعرف بعد
 كل الحقيقة ، ولا تمتلئ عجباً لأنك حكيم من الحكماء ، تحدث مع الجاهل
 مثلما تتحدث مع العالم ، ليس ثمة انسان يدرك الحقيقة كاملة ، وليس في
 الامكان وضع حدود للابداع ، والعبارة الطيبة أنذر من الزمرد ، ومع ذلك
 فقد تجدها عند الفقيرة التي تدير طاحونة ويقول المثل الروسي : الحقيقة
 أقوى من القوة . ويقول محمد صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء
 بدم الشهداء يوم القيامة » ..
 الحقيقة غاية الانسان ..

والوضوح أقرب الى الواقع ..

ورغم ذلك ، فالانسان لم يصل الى الوضوح التام ، وأرهق نفسه في
 الوصول الى جزئيات الوضوح .. وأصبح من المسلم به بالنسبة لكثير من
 المفكرين ، أن الوضوح لا يتم مع الجهد العقلي والذكاء الحاد الا بحالات
 تصوف أو بانورايا .. وأكد عدم تبين الرؤية واضحة ، أن العلم الذي كان
 يجرم حتى القرن التاسع عشر ، صار في القرن العشرين يضع الاحتمال مع
 كل قاعدة ، ولكن رغم كل شيء يظل (البحث) ، أقوى من كل غريزة ، بل
 هو جوهر الوجود الانساني ذاته ، وجوهر كل العقائد والنظريات والأنظمة
 السياسية والاجتماعية ..

الحقيقة قالها أكثر من مرة ، ولطالما بحث ، وأعياء البحث ، من أجل
 الامساك بها في صغره وصباه في « ميت أبو الكوم » ، كان يتطلع اليها :

محمد أنور السادات .. في شوارع القاهرة المرسية وطرقاتها الضيقة والواسعة
وتحت مآذنها السامقة ، وكنائسها المهيبة ، كان يبحث عنها .. وعندما ضربه
رجل البوليس لأول مرة بهراوة على رأسه وهو يتظاهر في مظاهرات ١٩٣٥ ،
تساءل : الحقيقة ؟ وعندما كان في منقباد مع رفاقه من الضباط الجدد ، أتاح
له الليل الطويل ، والنظر الى الجبل الأشم فرصة التأمل ، وتساءل كثيرا نفس
السؤال .. وعندما قبض عليه في الأربعينات ، بتهمة مقتل وزير المالية أمين
عثمان تساءل وهو وراء القضبان : الحقيقة ؟ .. ونفس السؤال ، ألح على
وجدانه ، عشرات ، بل مئات المرات ، وهو مطارد من البوليس ، وهو يحيا
حياة الخفاء بعيدا عن أعين البوليس في حي الأزهر أو السيدة زينب أو حتى
في بنى سويف .. وتساءل أيضا ، عندما كان يعمل في طليعة الفدائيين ابان
حركة الكفاح المسلح ضد الانجليز عام ١٩٥١ : الحقيقة ؟ وتكرر السؤال ،
مرة ومرة ، وسمات ، وهو يفلسف حياته ، وهو يصل الى معطيات فكرية
وايديولوجية تحدد موقفه من الثورة واستراتيجيتها ، وحركة الجماهير
وتقدمها وانحسارها ، وقضايا الحريات والديمقراطية ، وقضايا الحرب
والسلم .. وكان في كل تحركاته ، وفي كل (بحثه) ، يتطلع الى الحقيقة ،
متخذًا من الايمان ركيزة أساسية ، ومن الخبرة والنضال قاعدة عملية ، ومن
فكره وثقافته سلاحا يزوده بالعلم والمعرفة ..

وطوال الخمس سنوات الماضية ، نجح أنور السادات ، كقائد ومعلم
ومنظر ومفكر وبطل قومي ، في أن يؤكد ما تطلع اليه ، استعاد روح مصر
بعد أن كانت قد تاهت في ضبابية غامضة وبعد أن كانت تحيا بدموعها خلف
شباك أزرق باهت ، وعبر الهزيمة مع مقاتلينا ، ومع المقاتلين رفاق السلاح
والفكر في سوريا ، وعبر مع كل العرب تلك (الكبوة) التي عاشتها المنطقة
منذ حرب ١٩٦٧ والهزيمة التي منيت بها في حرب الأيام الستة ..

وبعد أن انتهت الحرب ، أو توقف اطلاق النار في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ،
واتفق على فك الاشتباك على الجبهة المصرية ، ثم على فك الاشتباك على
الجبهة السورية ، وتم فتح قناة السويس ، وصارت القضية في قنوات الحل

الدبلوماسية الى حلول ناجحة بالنسبة للقضية .. لم يفارق السادات ،
السؤال الملح والذي ظل يتردد في وجدانه ، مرات ومرات :
ـ الحقيقة ؟ ..

طائر بلا عش

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ، ولا القتل ، ولا الحرب ..
تورقه قضية مصر والعرب حتى الشمالة .. تشغله عن كل شيء حتى عن أهله
وأبنائه وعشيرته ، وحتى حيانا ، عن نفسه . فمصر والعرب ، قضيتهم فوق
كل شيء .. وليس معنى وقف إطلاق النار ، والتحركات العربية والعالمية
على المستويين الدبلوماسي والسياسي .. ليس معنى هذا ان الحرب انتهت
أبدا .. احتمال الحرب لا زال قائما .. وليس معنى ضربنا لمراكز القوى في
١٥ مايو ١٩٧١ ، أن الرجعية انتهت ، وأن الأرض أصبحت سهلة ممهدة
بلا تنوءات .. لا فهناك لا زالت أذيال الرجعية تطل وجيوبها لا زالت تمنلىء
بالليرات والدولارات لتعمل أى شيء يعوق تقدمنا ويقف في مواجهة
مسارات ثورة التصحيح ، ونفس الشيء يحدث في أكثر من عاصمة عربية ،
وأكثر من محاولة من الأذئاب يحاولون الحاق الاشاعات بنا ويحاولون
اظهارنا وكأننا نبيع (الثورة العربية) في سوق الدلائل ! وهم أكثر بجاجة
وعربا من الدلائل أنفسهم !

لا زال الطريق طويلا .. أمامنا .. في الداخل ، وعلى المستوى القومي ،
وفي العالم أجمع ، لنستكمل المسيرة ، ولنحقق مهام ثورة الديمقراطية
الوطنية ، وننجز مهام التصحيح في كل مجال ، من أجل بناء الدولة العصرية
دولة العلم والايمان ، ونحل القضية العربية بشكل عادل وجوهري في
تناقضاتها ..

والسادات ، لا يرى ان الأمور قد انتهت بمجرد فتح قناة السويس ،
وان عجلة الانتصار من الممكن أن تقف عند حدود سيناء أو الجولان ..
انه مصمم على استكمال (المسيرة) بشكل يضمن الأمن والأمل والاستمرار

للأجيال القادمة ، التي ستردد يوما ما ، وبعد عشرات السنين .. ان السادات
مر من هنا ، وان السادات عبر من هنا ، وان السادات شيد هذا ، واقام هذا
الصرح ، وحل هذا التناقض ، وقضى على امكانية ان تقوم حرب بهيمية في
المنطقة بمنطقه العلمى والعملى وعبقريته وحكمته التى ليست لها حدود ..

❖❖ وقبل أن يفتح قناة السويس فى الخامس من يونيو ١٩٧٥ ،
كانت رحلته الى البلاد العربية ، والى سالزبورج فى النمسا ، ومن خلالها ،
وصل الى الكثير من النقاط الواضحة ، مع الأطراف العربية ، ومع أمريكا ،
كما كانت هناك محاولات للالتقاء بالسوفيت والتنسيق معهم بقدر ما يمكن
وكانت هذه التحركات جزءا من الاعداد لمؤتمر جنيف ، الذى يتطلع
اليه العرب والعالم ، لحل المشكلة العربية ككل من خلال منطق عادل يضمن
الأمن فى المنطقة ويضمن عودة الأراضى السليبة الى العرب ، ويضمن حقوق
شعب فلسطين ..

وبشرح السادات بكلماته الحكيمة ، الواضحة هذه التحركات ، وهذه
السلسلة المتوالية من الرحلات واللقاءات ، فيقول : « كنت أتصور أن أمام
الدكتور كيسنجر أملا فى حدود تسعين أو ثمانين فى المائة ، للوصول الى
اتفاق واضح ، والسبب أن هذه الخطوة كان يمهدها من الصيف الماضى ،
صيف ١٩٧٤ ، أى منذ زيارة نيكسون للمنطقة ، ولعلكم تذكرون الكلمة
التي ألقاها فى تل أبيب ، وقال فيها للاسرائيليين عليكم أن تتخذوا قرارات
صعبة ، وكان هذا الكلام متجاوبا مع تصورى الذى عرضته على نيكسون
وكيسنجر ، من أن هناك حاجة الى انسحابات اسرائيلية ، سواء على الجبهات
الثلاث وتتم معا ، أو بالتوالى ، من أجل تحقيق هدفين .. الأول هو نزع
الفتيل من الموقف المشتعل فى المنطقة ، والثانى تهيئة جو مناسب ، لاستئناف
مؤتمر جنيف ، لكى نستطيع ان نضع أبعادا وأشكال الحل النهائى للقضية» ..
كان من المفروض ، وكما أوضح السادات ، أكثر من مرة ، أن تتم
الخطوة الأولى من حل القضية فى سبتمبر ١٩٧٤ ، أو أكتوبر من نفس العام
ولكن حدث أن استقال نيكسون لأسباب (قضية ووترجيت) ، وجاء

جيرالد فورد ، وأرسل فورد الى السادات تأكيدات الواضحة ، أن أمريكا مستمرة في كل ما التزمت به نحو مصر والعرب لحل القضية في الشرق الأوسط ، وان أمريكا جادة في هذا ، ولكن هذا يحتاج الى فسحة من الوقت ! وفي أواخر عام ١٩٧٤ ، زار (آلون) واتنطن ، واستدعى د . كيسنجر سفيره في مصر ، وقابله في بروكسل ، ووضعه في جو المحادثات مع آلون ، ولم يكن في هذه المقابلة بجديد ، الا أن د . كيسنجر ، أكد من جديد أنه سيزور المنطقة في أوائل عام ١٩٧٥ ، لبدأ رحلته نحو الاعداد لجنيف والوصول الى نقاط واضحة بالنسبة لحل القضية .. وتحدد فبراير ومارس لرحلة د . كيسنجر .

وهنا يقول السادات ، توضيحا للموقف ، والقاء الضوء على أبعاده المتنوعة : « حاولت أن اقنع الرئيس الأمريكي جيرالد فورد ، أن يقصر كيسنجر الوقت في رحلة واحدة ، ولكن الرئيس الأمريكي رجاني اعطاء كيسنجر الوقت الكافي ، لأن الأمر متعلق بالوضع الداخلي في اسرائيل .. وكان واضحا منذ البداية ، أن طبيعة مهمة كيسنجر هي طبيعة عسكرية بحثية ليس فيها كلام في السياسة ، لأن الحل السياسي مكانه في جنيف ، وفي حضور كل الأطراف .. ولكن الاسرائيليين كانوا قد اتخذوا قرارا في مجلس الوزراء ، بأن يفاوضوا على ضوء نظرية تقول : قطعة من الأرض ، مقابل قطعة من السلام .. وهذه النظرية هي التي ظهرت في البيان الذي أصدرته منظمة التحرير الفلسطينية ا .. وقد كان لي كلام قلته مع ياسر عرفات ، بحضور الرئيس بومدين عندما التقينا في السعودية ، وكلام لا داعي للعودة اليه .. المهم أن الدكتور كيسنجر كان يعلم منذ البداية منطلقاتنا ، ويعلم الحدود التي نسير ضمنها ، ولا شك أن الاسرائيليين هم الذين ورطوا كيسنجر .. قالوا له ، انهم جاهزون ، وعندما جاء في رحلته الثانية ، وجدهم مختلفين .. كانت الحكومة الاسرائيلية ، جميعا في حالة تمزق ، تشبه الحالة التي كانت تعانيها الأمة العربية قبل أكتوبر ١٩٧٣ .. كانوا ، كما يقول المثل

العربي : عين في الجنة وعين في النار ا عين على نظرية الأمن والتفوق وفرض الصلح بالقوة وفق نظرية الأمن القديمة لبن جوريون ، وعينهم الثانية على السلام ، وبين الخيارين عجز د . كيسنجر عن الوصول الى قرار لحكومته ضعيفة ، وقيادة تكاد تكون هزيلة .. فقد تنازلوا ، فعلا ، عن طلب انتهاء عن طلب انتهاء حالة الحرب ، والدكتور كيسنجر أفهمهم منذ صيف ١٩٧٤ ، أن مسألة انتهاء الحرب قضية يعتبرها المصريون خارج المناقشة » . ويضيف السادات ، موضحا ، صورة الموقف ، وصورة الأخذ والرد مع اسرائيل التي كان الدكتور كيسنجر طرفا أساسيا فيها - أو على حد تعبير صحيفته (الناشونال جارديان) : « قنطرة الحرب والسلام بين مصر واسرائيل في الشرق الأوسط » . يقول السادات : « طالبت اسرائيل بصيغة تبرر لهم أمام شعبهم القبول بالانسحاب الجزئي ، ورحنا نبحت في الصيغ التي تضمن عدم القيام بعمليات عسكرية أو اللجوء الى استخدام القوة ، طالما أن عملية السلام تسير وتتقدم ، وكان لنا شرطان أساسيان ، هما أن يكون عدم اللجوء الى استخدام القوة مرهونا بتقدم عملية السلام ، والا تتعرض سوريا لأي عدوان عليها ، فهذا التعهد يصبح لاغيا بمجرد وقوع الاعتداء على الجبهة السورية .. وفعلا توصلنا الى صيغة أصبحت مقبولة من الطرفين .. وهذا سر أذيعه لأول مرة .. وانتقلنا بعد ذلك الى الخريطة ، ووفقا لنظريتهم حصّة أرض بحصّة سلام ، قدموا خطا متعرجا للانسحاب وكله انبعاجات وجزر .. كانوا يريدون الاحتفاظ بالمضايق في مركز مقابل كل مركز ينسحبون منه لنا .. وأنا كنت واضحا مع أمريكا ، بأننا نريد الخط واضحا ومستقيما ، وأن عليهم أن يخرجوا من المضائق تماما ، فاذالم نتفق الآن على هذا الخط ، فكيف سنتفق على خط بعد ذلك ، وقلت لكيسنجر ، ما قلته قبل ذلك مرارا ، بأن المشكلة ستكون في الخريطة ، وكان واضحا ، تماما أنهم بساومون ، لتكون عملية الانسحاب صورية .. وهنا أحب أن أقول شيئا ، يؤسفني ، أن (عقدة النقص) التي لا تزال نشكو منها في العالم العربي وعدم ثقتنا في أنفسنا لا تزال من أمضى الأسلحة التي تستخدمها

اسرائيل ضدنا ، فعندما كان الدكتور كيسنجر يروح ويجيء بين اسرائيل وآسوان ، نشرت بعض الصحف ما أطلقت عليه البنود السرية التى تم الاتفاق عليها بين السادات وكيسنجر ، وجاء من يبلغ السوريين والفلسطينيين بأن هذه البنود السرية هى فعلا ما تم الاتفاق عليه ا .

واعطى السادات الفرصة ، سانحة ، لاسرائيل ، لترفض ما وعدت به الولايات المتحدة .. فالضرر الذى سينتج عن ذلك الرفض سوف يقع كاهله على الدكتور كيسنجر نفسه ، وعلى أمريكا بالتالى .. أما بالنسبة للعرب فلن يصيبهم أى ضرر ، ولن تلحق بهم أى خسائر ، بل على العكس ، اذا رفضت اسرائيل ما وعدت به أمريكا ، فمعناه انها ليست راغبة فى السلام وانها (تراوغ) ، ولا تحترم التزاماتها الدولية ، وهذا يعطى لمصر وللعرب فرصة أن يضيقوا الخناق على اسرائيل ..

*** ورغم أن الولايات المتحدة ، كانت قد أبلغت اسرائيل عن الاتصالات التى كانت تدور بين واشنطن والقاهرة ، الا أن نبأ عقد الاجتماعات على مستوى القمة فى سالزبورج بالنمسا ، كان مفاجأة ، بالفعل لكل من « اسحاق رابين » رئيس الوزراء الاسرائيلى ، و « بيريز » وزير الدفاع الاسرائيلى - وهما فى تقدير أغلبية الحكومة الاسرائيلية ، السبب الرئيسى فى تدهور العلاقات مع أمريكا ، بسبب الموقف الذى يتسم بالصلافة فى مفاوضات الدكتور كيسنجر .. والمفاجأة ، ان اسرائيل كانت تتوقع أن يعقد هذا المؤتمر فى واشنطن ، أثناء زبارة السادات الرسمية للولايات المتحدة ، وكانت اسرائيل لم تجر مباحثاتها بشكل كامل مع أمريكا وبالتالي لم تأخذ اسرائيل فرصتها لتضغط على أمريكا ، وقد تم مناقشة خمس نقاط أساسية فى سالزبورج : الوضع بالنسبة للشرق الأوسط ، بعد قيام اسرائيل بسد الطريق أمام الجهود التى قام بها الدكتور كيسنجر ... تمثيل الفلسطينيين فى أى مباحثات أو أى مؤتمر يعقد ويتصل بالسلام فى منطقة الشرق الأوسط .. العلاقات الثنائية بين أمريكا ومصر ، ومع التركيز

على تحسين وتطوير جوهر هذه العلاقات بشكل دائم .. الاعداد لمؤتمر جنيف ، والاتفاق على شكله النهائي ، من أجل حل القضية العربية في جوهرها ، من حيث عوده الأراضى السليبية الى دول المواجهة مصر ، سوريا ، الاردن ، و تنفيذ القرار رقم (٢٤٣) الذى أصدره مجلس الامن ، وضمان حقوق شعب فلسطين وحل قضيتهم بما يضمن اقرار سلام عادل في المنطقة .. بحث العلاقات الدولية وسياسة الوفاق ، وتأثير هذه السياسة على الأوضاع العالمية ..

وقد علق راديو لندن على لقاء سالزبورج ، بقوله :
« ان هذا اللقاء بين القاهرة وواشنطن ، يعتبر أهم حدث سياسى فى العامين الأخيرين ، لأنه يمثل أهمية خاصة بالنسبة للاعداد لمؤتمر جنيف والذى على أساسه تتحدد امكانيات الحرب والسلم فى المنطقة ، فعادة الحرب الى المنطقة من يضمن انها لا تسوق العالم الى حرب عالمية ثالثة لا نائل للعالم بها ، ولكن ، كما يبدو ، من المناخ العام ان امكانيات اللقاء نحو السلام وانهاء المشاكل المتعلقة بالشرق الأوسط تعطى نوعا من التفاؤل » .

بينما علق راديو لندن ، على رحلة السادات فى المنطقة العربية ، والتى سبقتها وأقصد سبقت رحلة سالزبورج ، بقوله :
« ان هذه الرحلة تعبر عن انتهاء مرحلة الانفصال بين القاهرة وكل البلاد العربية ، هذا الانفصال الذى أذكته حساسيات الماضى ، وهى رحلة لها أهميتها المتعظمة لأنها تزيد من تدعيم وحدة الصف العربى الذى يعطى الثقة فى المواجهة الآن ، سواء فى حالات السلم أو الحرب ، وقبل انعقاد مؤتمر جنيف أو فى مرحلة الاعداد له .. »

وقد كتبت صحيفة « الناشونال جاردبان » ، تقول : « ان تحرك السادات فى المنطقة العربية ، أكد نقطة العرب ، وحرصهم الشديد على التجمع تحت راية السادات من أجل مواجهة ظروف واحدة ، يريدون منها الخلاص الى حل قضيتهم فى جوهرها .. كما ان العالم كله ، كراى عام ، بدأ

بفتنح تماما ، بعدالة قضية العرب وشرعيتها ، وقد اتفق ويلسون وفورد في أوائل مايو ١٩٧٥ ، على أن القرار ٢٤٢ ، ينبغي أن يكون الأساس لمبادرات السلام ، كما أنفق على ضرورة انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة واستعادة الأراضي الفلسطينية .. كما أعلنت معظم الدول ، بل العالم أجمع ، مباركته لهذه القرارات التي اتخذت من أجل حل قضية العرب في جوهرها لانتهاء حالة التوتر والحرب في الشرق الأوسط .

*** قبل افتتاح « قناة السويس » ، بأسابيع قلائل ، التقى الرئيس أنور السادات بوفد الصحفيين الألمان الذين زاروا القاهرة ، وأجاب على أسئلتهم ، وكان في مقدمتها الأسئلة الخاصة بإعادة فتح القناة .
قال السادات :

« ان سياستنا المصرية في المرحلة الراهنة ، تسير نحو
ثلاث نقاط أساسية :

اولا : العمل من أجل تحقيق سلاح عادل ودائم في المنطقة ،
بما تمثله من أهمية استراتيجية واقتصادية للعالم
أجمع ...

ثانيا : فتح مزيد من قنوات الاتصال والتعاون ، مع مختلف
دول العالم ، بما يحقق المصلحة المشتركة ، وعلى
أساس استقلال الإرادة المصرية ...

ثالثا : تكريس قدر متزايد من طاقاتنا ، وقدراتنا للبناء
والتعمير ...

ومن هذا المنطلق نعيد فتح قناة السويس ... »

ربما قبل أرسطو ، والمفكرون ، يحاولون أن يعرفوا معنى « السياسة »
ومهما تعددت التعريفات ، فإنها تكاد أن تصب في نهر واحد : تعميق العلاقة
مع الصديق ، تحييد الخصم ، محاصرة العدو .. كما أعلن القائد والمعلم
والبطل محمد أنور السادات ..

ولا شك أن المبادرة المصرية ، في إعادة فتح قناة السويس في الخامس من يونيو ١٩٧٥ ، كانت عملا سياسيا من الدرجة الأولى ، اذا ما تأملناه جيدا ، لأدركنا الى أى حد تنطبق عليه أسس السياسة الذكية ..

ففتح القناة ، يلتقى مع الرغبات المختلفة لكل الشعوب ، فهو من هذه الزاوية ، تعميق للعلاقة مع الصديق ، وتحجيد للخصم ، فضلا عن أنه تعبير عن المرونة العربية ، التي تجعل العدو غير قادر على دعاياته المناهضة .. وربما هذا ما دعا السادات الى أن يعلق على قراره بفتح القناة بقوله : « لقد جاء هذا القرار مخيبا لآمال الاسرائيليين الذين كانوا يتوقعون أن تتخذ قرارات انفعالية » .

في السياسة .. أن تطلب شيئا ، تبدو في موقف الضعيف ، ولكن المبادرة العربية ، قالت للعالم أجمع ، ان إعادة الملاحة في القناة وإعادة الحياة في شريان السويس ، لا تضع العرب في موقف الضعف ، بقدر ما تضعهم على قمة هم القوة ..

والمبادرة المصرية ، باعلانها الحرص على حسن سير الملاحة وضمان سلامتها في القناة بعد اغلاقها لمدة ثماني سنوات منذ حرب يونيو ٦٧ ، غيرت الموقف السياسى العالمى تماما ازاء قضية الشرق الأوسط .

الخميس ٥ يونيو ١٩٧٥ : يوم خالد في تاريخ مصر ، والأمة العربية .. فقد أعيد فتح قناة السويس ، كنتويج لانتصارات مصر والعرب التي تحققت في حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من انتصارات سياسية على المستويين : القومى ، والدولى .. لقد وقف بطل العبور أنور السادات ، على المدمرة أكتوبر ، في افتتاح القناة ، بقول : « ان هناك أمة عربية ، أخذت مكانها تحت الشمس كقوة سادسة في عالم البوم ، وأن قضايانا مقدسة وأرضنا مقدسة » ..

بروح أكتوبر العظيمة ، فتح القائد والبطل ، قناة السويس ..

بعد مرور ثماني سنوات على حرب ٦٧ .

كان يقف ، عملاقا ، عظيما ، شامخا ، في ملابسه البيضاء كقائد أعلى للقوات البحرية ، وفي اخفاد رسمي مهيب ، وقع البطل وثيقة قدمها الى وزير الحرية الفريق أول « عبد الغنى الجمسى » ، تضمن نقل الاشراف على القناة من السلطات العسكرية الى السلطات المدنية ، وبعد ذلك ركب المدمرة المصرية « ٦ أكتوبر » ، وأبحر فوق مياه القناة الزرقاء عبر ستين كيلو مترا من بور سعيد الى الاسماعيلية ، وكان الى جواره على المدمرة « حسنى مبارك » نائب رئيس الجمهورية ، و « ممدوح سالم » رئيس الحكومة ، وولى عهد ايران الذى يبلغ من العمر الخامسة عشر ، وعدد من رؤساء تحرير الصحف والكتاب .. وسبقت المدمرة ثلاثة سفن كبيرة ، أقلت كبار الرسميين والزوار والمدعوين فى افتتاح القناة .. ومرت ١٥ سفينة كانت قد حجزت منذ حرب ١٩٦٧ ، قبل تطهير القناة واخراج ٤٠ ألف لغم ، وضمت أول قافلة تجارية ، عبرت القناة ، سفنا كويتية وسوفيتية ويونانية وصينية ويوغوسلافية .. ووضع السادات حجر الأساس الأول لبناء نفق السويس ، وهو واحد من الاتفاق الثلاثة التى ستبنى تحت قناة السويس لتوصيل ضفتها الشرقية بصفقتها الغربية فى سيناء ..

لم تكن هذه المرة الأولى التى يعاد فيها فتح قناة السويس منذ انشائها فى عهد الخديوى اسماعيل منذ أكثر من مائة عام ، والذى أراد أن يقرب بين مصر وأوروبا ، واشترك فى عمليات حفرها ٣٠٠ ألف عامل مصرى ، كانت القناة قد سدت عام ١٨٨٢ فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ، وأعيد فتحها عام ١٨٨٩ .. وخلال الحرب العالمية الثانية سدت القناة ، بفعل القنابل الألمانية ، وأعيد فتحها بعد انتهاء الحرب .. وفى أواخر ١٩٥٦ ، سدها المصريون ، فور العدوان الثلاثى على مصر ، ثم أعيد افتتاحها ... كما سدت فور حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، وظلت مغلقة ثماني سنوات ، حتى أعيد فتحها فى الخامس من يونيو ١٩٧٥ ، ليمسح تاريخ الهزيمة الذى

حدث ، والذي كان حالة غير طبيعية لمصر ، وليصبح الخامس من يونيو عيد القناة وافتتاحها .. وقد بلغت خسارة العالم من جراء اغلاق القناة خلال الثماني سنوات (١٩٦٧ - ١٩٧٥) ما يصل قيمته الى ١٨ بليون دولار ففي الستينات عبر القناة ١٥ في المائة من اجمالي تجارة العالم المنقولة بحرا وبلغت نسبة البترول التي عبرت القناة ٨١.٩٪ من اجمالي بترول العالم ، القناة قد سدت عام ١٨٨٢ في أعقاب الاحتلال البريطاني لمصر ، وأعيد فتحها أما تكاليف اعادة التشغيل فبلغت ١٠ مليونا من الجنيهات ، منها ٧٠ مليونا من الجنيهات بالعملة الصعبة ..

واعادة فتح القناة .. يعتبر (ضربة معلم) ، بالتعبير المصري ، وضرب من العبقرية والذكاء السياسي بلغة المعلقين والمراقبين السياسيين ، ومرحلة تاريخية جديدة تغير من موازين القوى بالنسبة للمؤرخين وكتاب السياسة والاقتصاد .. ففتح القناة كان ضربا من الثقة بالنفس أقدم عليها السادات ، فألغى حالة اللاحرب واللاسلم في المنطقة ، ووضع الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، أمام مسئولياتها الجسام ، ووضع اسرائيل في موضع رد الفعل ، وعندما تقدم فلا تخشى شيئا .. ويؤكد السادات مع افتتاحه للقناة أهداف العرب الكبرى :

« ان مصر مصممة على القيام بواجبها المقدس نحو ارضها

والاراضى العربية الطاهرة ، التي لا يزال العدو يحتلها في

الجولان وسيناء وفلسطين ونحو الارض العربية المفتصة » .

هذا الى جانب ، أن القناة ، من الناحية الاقتصادية ، ستعود على مصر بدخل كبير يصل الى نصف حجم المساعدات العربية التي تلقتها في عام ١٩٧٤ ، اذ يصل عائد القناة الى ٤٥٠ مليون دولار سنويا ، بالإضافة الى دخل تموين السفن وثققات البحارة والركاب العابرين للقناة .. هذا الى انه سينشط حركة التجارة العالمية بعد أن كانت السفن تضطر الى أن تلف حول رأس الرجاء الصالح في الجنوب ..

فأوروبا ، تعتمد ، بشكل رئيسى على البترول ، خاصة أوروبا الغربية ، وهذا البترول يأتيها عن طريق قناة السويس من الكويت والسعودية والخليج وإيران ، ولناخذ احصاء واحدا من عام ١٩٦٦ ، فنجد أوروبا الغربية استهلكت ٩٢ فى المائة من جملة ما يمر من قناة السويس من البترول .. هذا الى جانب ان شركات البترول تملك ٣٠٩٠ ناقلة ، معظمها كان يمر من قناة السويس ، واضطرت أن تدور حول افريقيا ، مما ترتب عليه زيادة فى تكاليف البترول اضطرت الى تحميله الدول المستهلكة ، زاده عبثا استخدام العرب للبترول كسلاح فعال أثناء المعركة . . ومن الناحية العسكرية .. سنوفر قناة السويس حلقة اتصال الجيش المصرى بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ..

وإذا عددنا العوامل التى تحكم فى تاريخ الانسان خلال القرن العشرين فسنجد « قناة السويس » ، فى مقدمة هذه العوامل ، قد تختلف على ترتيبها ، لكنها تظل ، دائما فى البداية ، ولا نكاد نختلف انها كانت سببا فى تحويل تيار الأحداث أو دفعه الى الامام ، وربما هذا ما جعل تشرشل ، يقول ، فى نهاية الأربعينات :

« ضع يدك على القناة .. تعرف نبض العالم ! » ..

وهذا ما جعل الكاتب الانجليزى المعاصر بالم دات ، يقول :

« ان الصراع بين الامبريالية العالمية والبورجوازيات العالمية من جانب ، وبين الاشتراكية والقوى الديمقراطية من جانب آخر ، كان يدور فلكه ، دائما ، فى القرن الماضى من خلال المستعمرات فى أفريقيا وآسيا ، ولكنه اتضح وتبين عمقه خلال هذا القرن ، بارتباطه ، أساسا ، بالشرق الأوسط ، وكانت قناة السويس ، هى المحور الأساسى والفكرى والمادى فى هذا الصراع الدائر » والأسباب ، التى وضعت ، قناة السويس على رأس الأحداث انها : واحدة من أخطر الممرات المائية ، وإذا ما قارناها ببوغاز البوسفور ، وجدناها تهم دولا أكثر ، وإذا ما قارناها بمضيق جبل طارق ، رأيناها تسيطر على ثروات أكثر ، وإذا ما قارناها بقناة بنما ، أحسنا بطابعها العالمى على حين تبدو قناة

بما محلية المصالح .. هذا الى جانب ان قناة السويس ، تتوسط العالم القديم والجديد ، وقد وافق وقت انشائها ازدهار حركة الاستعمار الأوربي ومن هنا ، تثلث أهميتها بالنسبة للمستعمرين على اختلاف جنسياتهم ، وقد تصارعوا عليها صراعا رهيبا ، وقد بدأت فرنسا في محاولة السيطرة ، ونجحت في ذلك فعلا ، لكن بريطانيا تقدمت عليها بشراء الأسهم ، واحتلال مصر ، لكن هذا لم يمه الصراع ، اذ ظلت فرنسا وقتنا طويلا تؤكد وجودها في الشام لكي تظل قوة مهيمنة .. بالإضافة ، الى هذا كله ، تبدو قناة السويس هي « عنق الزجاجة » لثروات الشرق الضخمة ، التي أضحت أهم ما فيها البترول بالتاجه ومخزونه الضخم في الخليج والسعودية والعراق وايران ، بالإضافة الى بترول افريقيا الجديد ، وقد بدا سلاح البترول من أخطر الأسلحة في أبدى العرب خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، عندما استنعدوا عن تصديره ، فانتشرت (العتمة) في الغرب ، وعانى منها كل دول العالم ، كأملوب للضغط العربي على مختلف الدول ، فبدأ البترول سلاحا خطرا لا يقل استغلاله عن سلاح الفاتوم أو الصواريخ العصرية ..

ومن هنا ، كانت القناة ، على مدى عشرات السنين ، مركز الدائرة من الأحداث ، ولهذه الأسباب — كما حدد الكاتب جون جنتر — كانت تدور حولها كافة المشاكل والقضايا . ولأرنولد توينبي كلمة مثيرة عن قناة السويس ، اذ يقول :

« بقدر ما كانت قناة السويس هبة لمصر ، فانها ، أيضا كانت لعنة عليها » . وهذا الى حد كبير ، صحيح ، ذلك لأن حجم قناة السويس بالنسبة للعالم ، ظل الى سنوات طويلة دون القدرة المصرية على الاحتفاظ بها .. ومن هنا كانت القناة ، مبررا للسيطرة الفرنسية ، ثم السيطرة البريطانية ، ثم محاولات اسرائيل في وضع يدها عليها .

ومن هنا تبدو أهمية إعادة فتح قناة السويس ، في الخامس من يوليو عام ١٩٧٥ ..

✱✱ ورعم ضخامه حدث فتح « قناة السويس » العظيم ، الا أن (البعض) ، حاول أن يسيء الى ما يحدث على أرض مصر من انتصارات متعاطمة ، وكان وراء ذلك بالطبع (الزبانية المأجورين) ، الذين يروجون لدعائياتهم ، ويحاولون إلحاق الأكاذيب بكل عمل ثورى ، وقومى ، تقوم به ، وينشرون هذه الأكاذيب فى صحفهم وابواقهم ، بل ويروجون لها فى الاذاعات المغرصة ، معلنين أنهم رافضون .. ! ويلقى السادات الضوء ، بكلماته التى نفسر ما يحدث فى هذا الصدد ، فيقول : « قام الزبانية فى العالم العربى ، ليقولوا أن الانفاقية التى وقعناها لفك الاشتباك ووقف إطلاق النار ، هى ، اعتراف بانسحاب الجيش المصرى من المعركة ، وقالوا ، أيضا ، لم يعد فى منطقة القناة جيش بعد أن انسحب الى الداخل .. وقمت فى ٥ يونيو ١٩٧٤ ، واستعرضت الجيش الثالث والثانى ، بحضور الاخوان العرب ، وكان الفلسطينيون فى القاهرة وقتها يجتمعون ولم يتح لهم حضور استعراض الجيش الثالث ، ولكنهم جاءوا فى اليوم التالى ، وكان على رأسهم ياسر عرفات ، وحضروا استعراض الجيش الثانى ، وشاهدوا ، بأنفسهم القوات جاهزة بكل معداتها ودباباتها وصواريخها .. اذن ، كيف نكون قد سحبنا الجيش الى الداخل ؟ »

وهذا يعود بنا الى ذات الحكاية ، العقدة القديمة ، عدم الثقة بالنفس والميل الى الشكيك ولوى الأمور عمدا .. فقرار فتح قناة السويس قد تم بالقوة .. كان الاسرائيليون متمركزين على الضفة الشرقية يقولون : المية بالنص ، والقناة بالنص ! والآن ، انا فتحت القناة بالقوة ، وقادر على حمايتها وقد أعدت ستمائة ألف مهاجر الى المدن الثلاث ، وأعلنت أن أى عدوان يقع على أى مدينة هناك ، هو عدوان على عمق الجمهورية ، لأن مدن القناة أصبحت فى العمق . فى الماضى كانت اسرائيل موجودة على الضفة الشرقية ، فكائنات المنطقة تعتبر ميدانا للقتال .. الآن أصبحت المنطقة فى عمق مصر ، شأنها شأن القاهرة والاسكندرية وأسوان ، اذا وقع عدوان

على أى بلد هناك ، فسأتعامل مع عمق اسرائيل ، العين بالعين ، والسن بالسن ، وهذه هى شريعة موسى عليه السلام .

✽ ✽ يقول السادات :

« اذا كانت مصر قوية ، فان العرب يكونون اقوياء . ونحن فخورون ببلادنا ، مما قد يحمل بعض الناقدين على أن يروا في ذلك تقديم مصر ومصلحتها . ولكننى لا استطيع أن أكون مفهوما بالنسبة للآخرين في عالم اليوم ، ما لم استخدم نفس الاساليب التى يفهمها الناس في بقية اجزاء العالم . اننا نحن العرب ، سريعو الانفعال ، نفور بسرعة ، ثم نهذا ... ولكننا ، هنا ، في مصر ، الآن ، نستخدم لغة يمكن فهمها في جميع انحاء العالم ... والانسان ، اليوم ، يجب أن يكون انسان عالمه المحيط به . اننى اقول ما اعنى ، لا استنادا الى عاطفة فوارة ، بل على أساس من التقدير العاقل للأمور ، وليس صوابا ما يقال من اننا ننتهج اساليب تختلف عن تلك التى ينتهجها العالم العربى ، ولكننا نحاول أن نقنع اخواننا العرب ، بانتهاج الاساليب التى يمكن للعالم اجمع أن يفهمها ... »

ومن هذا المنطلق ، كان السادات ، دائما ، يتحرك ، في وضوح ، وفي ثقة وايمان ، وهو يضع في اعتباره دائما اطراف التى يجرى معها الحوار ، فهو يناقش الدول العظمى : أمريكا والاتحاد السوفيتى ... ويناقش دول غرب اوربا : بريطانيا ، وفرنسا ، والمالاي الغريبة .. بل ويناقش العالم المتمدين كله ، وحينما يجرى حوار السياسى معهم ، يتحرك على أرض علمية سليمة تنتهج الموضوعية الكاملة وتستند الى ما يجرى في العالم من مستحدثات ومتغيرات للعصر ، ولا يضع في اعتباره ابدا ما يقال من أوهام أو ترهات ، ويسقط عن مسار (القضية) كل السهام الكاذبة ، التى تحاول ان (تعطل) من سير الامور سيرها الطبيعى نحو حل (الازمة) في تناقضاتها الجوهرية ، وعلى أساس سياسى علمى يضع في اعتباره دائما شرعية وعدالة قضيتنا وقضايا دول المواجهة الأساسية : (القاهرة ، دمشق ، عمان) ، وكذلك بضع نصب عينيه حقوق شعب فلسطين وحنمية المحافظة على هذه

الحقوق بحكم كونها جزءا أساسيا في حركة التحرير العربية في تطورها ..
ويؤكد السادات على شرح وجهات نظره ، فيقول :

« ان فلسطين لن تضيع ثم ان الحقوق السياسية للشعب الفلسطيني لن تكون موضع مساومة . ان الحق التاريخي لشعب فلسطين ، يكمن في شرعية أن يكون لهذا الشعب حق تقرير مصيره ، والحقوق السياسية الراهنة ، تكمن في ضرورة ازالة العدوان من الأراضي التي احتلها العدو بعد سنة ١٩٦٧ في الضفة الغربية والقدس وغزة » .

ويقول ، أيضا ، موضحا مسار أبعاد القضية العربية : « لقد اتفقنا في الرياض على تنسيق جهودنا . . . واتفقنا في المرحلة المقبلة ، ككل ، وهي مرحلة انعقاد مؤتمر جنيف .. لم تناقش أى نظرية فشلت ونظرية من هي التي ستنجح ، ولو فرأتم وقائع المؤتمر الصحفي الذي عقده اسحاق رابين ، بعد فشل مهمة كيسنجر ، لتأكدتم أن مصر ، لم تكن تسعى لا الى حل جزئى ولا الى حل منفرد . هذه تعابير صدرت الى المنطقة وكان لى كلام حولها مع اندريه جروميكو ، كما ان لى مع الرئيس حافظ الأسد كلاما .. أنا أنهم أن يكون هناك حل جزئى أو حل منفرد اذا دخلنا في صميم المشكلة السياسية ونعرضنا للهدفين الأساسيين ، لا تترى في أى شهر من الأراضي العربية المحتلة ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين ... فاذا لم تتعرض لهذه القضايا السياسية ، فإين يكون الحل المنفرد ، وأن يكون الحل الجزئى ... هذا عيب ، ولا يجوز أن تتهم به مصر التي كانت من أغنى البلدان العربية وأصبحت من أفقرها لأن لها التزاما قوميا تمسكت به رغم كل الظروف .. عيب أن تتهم ظلما وعدوانا للافتراءات والأكاذيب (١) »

وبالنسبة لموقف مصر من الاتحاد السوفيتى ، فيرى السادات ، أنه لا بد أن تقدر موسكو موقف مصر تمام التقدير : « أرجو من أصدقائنا السوفيت أن يقدروا الموقف ، الذى نحن بصددده ، لأننا لا نستطيع أن نوقف عجلة البناء ، ولا تقدر على أن موقف عجلة البناء الاجتماعى ، ولا

(١) جاء هذا في تصريح للرئيس انور السادات في ١٥ مايو ١٩٧٥ .

بناء القوات المسلحة .. إسرائيل استعوضت من أمريكا كل سلاح خسرت ، ثم خلال ١٤ شهرا ، أخذت أسلحة جديدة اضافية فوق ما أخذته من قبل . نحن لم نعوض . انداء من يناير ، كما قلت من قبل ، ان العقود القديمة المستحقة للدفع سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ، كانت تيجي ، وانا ممتن وشاكر للاتحاد السوفيتي . وان يتم جميله ، ومسألة الدين وفترة السماح ، عرف مأخوذ به في العالم أجمع ، لاننا كلنا نواجه المصاعب ، وكلنا نعرف الظروف التي نواجهها ، ونحن لا نتخلى عن التزاماتنا ، ولا أنكر ما علينا من ديون ، أقول اننا أخذنا وعلينا دين ، ولدينا النية لتسديده ، لكن على الطرف الآخر أن يقدر ظروفنا (١) « ويضيف السادات في كلام آخر ، موضحا طبيعة هذه الديون ، وموقفه من موسكو : « نحن السلاح .. الحقيقة أن اتفاقيات المصانع مريحة ، اننا نسد من انتاج هذه المصانع . أما الاسلحة فهي من ١٩٦٧ وما قبل ١٩٦٧ ... وفي الظروف المشابهة ، يمكن التساهل ، فالاتحاد السوفيتي ، مثلا ، لم يدفع للولايات المتحدة سوى قسط واحد من ثمن السلاح الذي أخذه في الحرب العالمية الثانية ، بموجب قانون الامارة والتأجير .. دفع قسطا رمزيا بعد مرور ثلاثين سنة .. ونحن على اتصال مع اخواننا العرب ، لا ليسددوا عنا ديون الاتحاد السوفيتي ، بل من أجل عملية سريعة لتقوية اقتصادنا ، بحيث نستطيع الوفاء بالتزاماتنا للسوفيت وغير السوفيت ، ولا يقتصر اتصالنا باخواننا العرب ، بل ننصل بأمريكا أيضا ، وهذا جزء من مقابلتى مع الرئيس فورد في سالزبورج (٢) .. » وفي تقدير السادات ، أن هذه (الديون) ، لا ينبغي ، أن تكون مثار خلاف بين موسكو والقاهرة ، وكما يبدو ، ان مسألة (الديون) هذه مجرد افتعال ! لماذا .. ؟ واضح ، بالطبع ، أنه كلما احس السوفيت بتفد أمريكا خطوة في المنطقة ، يزعجهم الأمر ، وعلى سبيل المثال ، نذكر هنا الموقف

(١) جاء هذا في خطاب السادات في عيد العمال في اول مايو ١٩٧٥ .

(٢) جاء هذا في خطاب الرئيس ، في احتفالات عيد اول مايو عام ١٩٧٥ ، في الخطاب الذي القاه في اسبوط ..

المفعل الذى حدث عند وقف اطلاق النار وما أعقبه من تحركات في المنطقة وبالذات ، عندما بدأت أمريكا تمارس « سياسة الخطوة خطوة » .. فقد كان من رأى السادات ، ولا زال : « أن أية خطوة تستطيع أن تحققها أمريكا هي لصالحنا ولصالح قضيتنا ، وبعد فشل مهمة كيسنجر ، لم نخلف مع السوفيت في الذهاب الى جنيف ، ولا على الحل السياسى والنهائى لن يكون الا في جنيف . . لقد أفتعل الخلاف معنا افتعالا لما إذا لآتنا قلنا لأمريكا وكيسنجر : ورونا شطارتكم ، حليتو حليتو .. وان ما حليتوش رايبدين جنيف ، رايبدين جنيف .. علما ان أمريكا ، أعلنت أكثر من مرة محاولاتنا (الخطوة خطوة) ، أن أى انسحاب سيتم لن يكون بدلا لجنيف ، وانما هو تمهيد له .. (١) » .

✽ من خلال تصريحات ومواقف السادات من موسكو وواشنطن ... نستطيع أن نحس بمدى حيديته ، ورغبته الأصيلة في حل (القضية) بعيدا عن أى شروط ، ودون الانصياع الى مذكر على حساب حل القضية . فسياسة مصر ، والعرب ، دائما ، ستظل نابعة من قلب أرضها ، ومن فكرها الاصيل ، رغم أن الكتيرين ، يحاولون ان يضعونا في منطقة الصدام الفكرى ، بين الكتلتين : فاليسار التقليدى يضعنا في (منطقة التوتر) هذه عندما يطالبنا باليسارية ، ويفرض علينا أن نحل المشكلة الوطنية في خط وتطور الطريق اليسارى التقليدى (أى الطريق الى الشيوعية) ، بينما اليمين الرجعى ، يحاول أن يجرفنا الى الطرف الآخر ، ويردنا حلاله من تحليلات وافتراسات ، ويقول اننا سنلغى القطاع العام ، ونعيد الى الرأسماليين والاقطاعيين حقوقهم من جديد ، واننا سنحل المشكلة الوطنية في اطار التطور الرأسمالى ، وبذلك يضعنا ، ايضا في (منطقة لتوتر) — أى منطقة الصدام بين الكتلتين .. ونحن ، نسير في خط واضح ، لا تشويش أو غموض فيه ، هو طريق التطور غير المنحاز ، الذى يستلهم فكرنا المصرى

(٢) جاء هذا في تصريح للسادات في ١٥ مايو ١٩٧٥ .

الأصيل : من أرضنا ، ومن حضارتنا ، ولمن تراثنا ، والذي يتمثل كل
متغيرات العصر وثورة التكنولوجيا العالمية .. من خلال هذا نحن نسير ...

ومن خلال هذا يسير السادات : داخليا ، وخارجيا . . وينعكس هذا
الخط الحيادي الواضح على كل فكره (نظريا وايدولوجيا) وفي الممارسة
اليومية (في التطبيق) . ولذلك يؤكد : « اننا لا قبل أي شروط
والالتزام الأول لكل أمة هو التزامها تجاه حريتها ، في إطار مبادئ القانون
الدولي ، ولا يستطيع أحد أن يطلب اليها أو يفرض عليها التزاما مع الالتزام
المقدس ، وعلى أساسه ، فإن عليها أن تحتفظ لنفسها بحرية وحق التصرف
فيما تواجهه » . ويقول ، أيضا : « اننا نرفض دعاوى الجمود ، باسم
التمسك بالمبادئ . فنحن الذين صنعنا مبادئنا ، ونحن القادرون على
تطبيقها التطبيق المناسب للظروف الجديدة ، ولكننا نرفض بنفس القوة
الدعوة الى التخلي عن المبادئ التي ارتضاها شعبنا بحجة تغير الظروف ،
فالمبادئ الأساسية لا تتغير بتغير الظروف ، والا لما كانت ترقى لمستوى
المبادئ ، وانما الذي يجب أن يتغير هو التطبيق » .

خارجيا ، في السياسة ، السادات ، يمارس سياسة (الحياد الكامل) ،
كجزء من السياسة الداخلية الميينة على مبادئ ثورة التصحيح وورقة
اكتوبر للمتغيرات وفكرنا المصري الاصيل الذي يسير ، علميا وعمليا ،
لتحقيق مهام الدولة العصرية وبنائها كما نطمح ونهدف : دولة العلم
والايمان ...

وعلى أساس هذا الفهم ، أو هذه الايدولوجية الواضحة ، والتي
يمكننا أن نسميها « الفكر الساداتي » - أو الايدولوجية الساداتية ، لأن
الفكر الثوري لهذه المرحلة ، والذي بدأ منذ ثورة التصحيح في ١٥ مايو
١٩٧١ الى الآن ، هذا الفكر المصري الاصيل اصطبغ بفكر السادات ومنهجه
وتعاليمه ، واكتسب مذاقا خاصا ولونا واضحا ، يستطيع أن يحسه ويدركه

كل دارس وكل متتبع لأفكار السادات كمفكر ، ومنظر ، وفائد ، ومعلم ، وبطل قومي ...

✳ ومن خلال المرحلة الراهنة ، يدعو السادات كل الأجهزة وكل المؤسسات ، لتشارك في التغيير الى الأفضل ، بالغاء كل ما من شأنه أن يعوق التطور المرحلي لفكرنا وأهدافنا .. ومسار السادات في هذه المرحلة داخليا ، يتضح من خلال تعاليمه وأقواله وكلماته ، فهو يقول :

« كان على شعبنا ان يختار بين حكم مراكز القوى ، وبين حكم دولة المؤسسات ، وهي تمارس صلاحيتها في اطار الشرعية وسيادة القانون ، واختار شعبنا ، بأصواته الخضرية ، طريق الحرية ، والديمقراطية ، وسيادة القانون ودولة المؤسسات ... والمعنى الاصيل لسيادة القانون ، يتمثل في النزول على حكم القانون ، والالتزام بالشرعية منهجا وسلوكا ، فهو يحكم سلوك الفرد ازاء المجتمع الذي يعيش فيه ويحكم سلوك كل من يستند اليه قدر من السلطة ان يمارسه في اطاره الصحيح والسليم ، قانونا ، وتحت الرقابة الشعبية ، لا يتحرفه عن مساره ولا يخيبه عن حق لمواطن كفله له القانون ، ومن هنا كان النص في الدستور على ان سيادة القانون اساس الحكم في الدولة ، وعلى وجوب ان تخضع الدولة للقانون ... »

وبين تعاليمه ، أيضا في اطار دولة المؤسسات ، يحدد المسار لهذه المرحلة فيقول :

« تعنى دولة المؤسسات ، ان الحكم لا يمارسه فرد او جماعة من الناس ، وانما يمارسه الشعب بمجموعه من خلال مؤسساته الدستورية ، تمارس صلاحياتها شعبيا ، وسياسيا و تنفيذيا ، فالاتحاد الاشتراكي هو التنظيم السياسي الذي يمثل بتنظيماته الفائزة على اساس مبدأ الديمقراطية تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو أداة هذا التحالف في تعميق قيم الديمقراطية والاشتراكية ويتولى مجلس الشعب سلطة التشريع ، ويقر السياسة العامة للدولة ، والخطة العامة للتنمية الاقتصادية ، والموازنة العامة للدولة .. كما يمارس

الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية ، وذلك على الوجه المبين
في الدستور .. اما الحكومة ، فهي الهيئة التنفيذية والادارية
العليا » .

ويقول ، أيضا ، في رسالته الى مجلس الشعب في ذكرى مرور أربع
سنوات على (ثورة التصحيح) - أى في ١٥ مايو ١٩٧٥ :

((اذا كان شعبنا قد انطلق بعد ان تحررت ارادته الى
معركة التحرير بهذه القوة ، تدعمه امكانيات امتنا العربية .
فليست به حاجة الى ان انبه ان معركة البناء والتعمير ،
تقتضي جهود شاقة ومضنية يشارك فيها الشعب بمجموعة
افراد ، ومؤسساته ، وهى فى حاجة ، ايضا ، الى دعم
ومساندة امتنا العربية ، حتى نستطيع ان نعوض ما فاتنا من
سنوات ، وجهنا فيها الاموال لخدمة المجهود الحربى ، وصولا
الى معركة التحرير التى خضناها يوم السادس من أكتوبر
المجيد . اننا فى حاجة الى تنمية شاملة وسبيلنا الانفتاح على
مختلف دول العالم ، لكى نحصل على الخبرة والتكنولوجيا
من حيث نستطيع الحصول عليها .. والانفتاح على العالم
العربى ، فالرخاء العربى لا يمكن ان يتجزأ ، والامن العربى
لا يمكن ان يتجزأ ، وسبيلنا من قبل ، ومن بعد ، جهود
شعبنا وخبرة ابنائنا ...))

❦ وفى هذه المرحلة الراهنة ، والسادات ، يواصل مسيرته ، نحو
حل مشكلات المواطن المصرى (ماديا ، وفكريا ، واجتماعيا) .. وحل
تناقضات العربية فى جوهرها (كجزء من حركة التحرير القومى) ... لابد
أن يتوفر المناخ الصحى الكامل ، ليكون للحريات معناها ، ولتكون
للديمقراطية أصالتها ، ولتتجنب الكثير من السلبيات التى لا زالت اجزاء
منها تحيا داخل اجهزتنا ومؤسساتنا ، فمن السهل ان تقوم (ثورة ما) ،
ولكن من الصعب جدا ، تنفيذ أهداف ومبادئ هذه الثورة ، لأن من
ينفذها بشر ، والبشر ، نوعيات مختلفة ، منهم الثورى حقا ، ومنهم النصف
ثورى ، ومنهم من يدعى الثورية ، ومنهم المتسلق والانتهازى والانهازى
والرجعى والرافض والمضاد للثورية .. وحتى تؤمن مسار الفكر الثورى ،

لا بد أن نعتد على ركائز أساسية في هذه المرحلة ، لننجز مهام الثورة الديمقراطية الوطنية (في الداخل) ، ولننجز مهام حركتنا التحررية بجل تناقضات القضية العربية في جوهرها والوصول الى حلول ناجعة عادلة تنهى حالة التوتر في المنطقة ، ويمكن حصر هذه الركائز في ثمانية عناصر أساسية :

✽ أولا : الالتزام بالخط الثوري ، والفكرى ، لمبادئ ثورة التصحيح ، وعدم الخروج عنها ، وعدم الانصياع لأى أفكار دخيلة ، قد تعوق من المسار الثوري . ولتحقيق ذلك لابد من التخلص من الخوف والتسلط ، فلا زال التسلط على بعض الناس موجودا من قبل البعض على البعض ، امتدادا لـ (عقدة الماضى) . لا ينبغي أن نصمت أمام أى خطأ . ينبغي أن نفصح ونكشف أى تخريب داخل أى مؤسسة أو جهاز ، لأن السكوت عنه ، معناه المشاركة في الجريمة . حقيقة ، أن موظفا صغيرا ، قد يخشى الطرد أو عدم الرضى اذا ما هو تكلم ، لكن لابد من الكلام ، وبجرأه ، حتى نقضى على السلييات ، والا سنتعرض في المستقبل لهزات لا نريدها ، ولا نستطيع السكوت حتى تستفحل وتزداد ، وكما يقول السادات : « لابد أن يزول الخوف ، وان تختفى بذور الشك ، وان تتراجع الحزازات والأحقاد ، وان يحس كل فرد انه آمن على يومه وغده وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله ، فان الحق لا يبنى شيئا ، وسوف لا يجد مكانا في صفوف شعبنا الطيب » ..

✽ ثانيا : لابد من الاستعانة بالعناصر الثورية ، في القيادات ، ولابد من خلق كوادر أساسية ، تحمل الرسالة وتسير بفكر التصحيح ، وتتسلح بمبادئه فكريا وعمليا ، فنحن ، كثيرا ما تركنا في القيادات ، أو في غير القيادات ، ما هو غير أمين على تنفيذ منجزات التصحيح .. وكيف ينفذ التصحيح من هو غير أهل له . ١٩٠٠ لماذا نستعين مثلا ببعض العناصر الملوثة ، أو التي لها رصيد كبير من الفتن والمؤامرات السياسية ؟ لماذا لا نلفظ ، هؤلاء ، ونستعين

بعناصر نوربة لها قدرتها على انجاز مهام ثورة التصحيح بشكل يضمن السير بالبلاد الى ما فيه الخير ..

❖ ثالثا : لابد من الاستفادة بالمتقنين الثوريين ، في هذه المرحلة الراهنة ، وهناك فرق كبير بين (المثقف) الثورى الحقيقى المنزه وبين المثقف الذى يستغل فكره ، أو قشور ثقافته ، ليتسلق ، أو (يركب الموجه) ، أو يحقق أفكاره الانهازية ، وفى تقديرى أن المثقف الثورى ، لابد أن يدين بالولاء الكامل لمصر ، ومبادئ ثورة التصحيح ، وأن يكون على استعداد للعطاء والبذل ، من أجل مصر ، حتى تتقدم أكثر وأكثر .

❖ رابعا : لابد من تغيير الكثير من القوانين الاجتماعية والشخصية ، التى لم تعد تتلاءم مع مبادئ ثورة التصحيح أو مع متغيرات مصر وثورة التكنولوجيا والمجتمع الامثل الذى نسير نحوه ، الا وهو : الدولة العصرية .. دولة العلم والايسان ... فكيف نخلق هذه الدولة ، ونوسع من امكانياتها ، وهناك قوانين صدرت فى عهود بائدة أو فى ظروف الملكية أو الاحتلال البريطانى ولا زال يؤخذ بها حتى الآن (على سبيل المثال : قانون الأحوال الشخصية - مثلا) .

❖ خامسا : لابد من اعطاء الفرصة سانحة للقيادات ، وللدواطين ، فى التصرف ، فى التطبيق والممارسة للعمل اليومى ، دونما وضع عراقيل بيروقراطية أو تكنوقراطية ، حتى يمكن للمواطن القيام بعمله على أوفر وجه ، فى حدود القانون ...

❖ سادسا : لابد من اصفاء نوع من الثورية أكثر على اشكال الاتحاد الاشتراكى ، فلا زالت صورته فى ذهن المواطن المصرى هى (صورة التنظيم الميرى) ، لابد أن يترجم شكل التحالف الى اشكال وقولب أكثر ثورية ، ليتيم من خلاله ممارسته الديمقراطية الحقيقية التى تلتقى ومبادئ ثورة التصحيح فى تطويرها نحو الأكمّل .

❖ سابعا : لابد من أن تواكب الثقافة والفكر والاعلام ، مايدور فى بلادنا من صعود وتطور نحو دولة العلم والايسان . بمعنى ، أنه لابد

أن تعكس أجهزة الثقافة والفكر والاعلام ، ليس فقط ما يتم انجازه على المستويات المادية والاجتماعية ، والقومية ، من انتصارات لمصر .. بل لا بد أن ترهص لبناء الدولة الجديدة : الدولة العصرية ، بكل مفدرات التفافة والاعلام ... فحتى الآن ، لا زالت هناك هوة كبيرة بين ما يحدث في بلادنا ، وبين ما نراه على شاشة التلفزيون ، أو نسمعه في الإذاعة ، أو نقرأه في كتب ، أو نراه على الشاشة في السينما ... وليس مطلوباً من أجهزة الثقافة والاعلام والفكر ، عندما نقول هذا ، أن تنبرى لتحول برامجها ومشروعاتها الى برامج دعائية وخطابية جوفاء . لا .. بل نستهدف من وراء ذلك ، أن تتمثل هذه الأجهزة صورة المستقبل . وبالتالي . يصبح على أجهزة الثقافة ، والفكر ، والاعلام ، في بلادنا ، واجبات جسيمة ، فهي التي تملك أخطر الأسلحة تأكيد الفكر الثوري والارهاص لدولة العلم والايمان ... بصبح أمام هذه الأجهزة : مهمة أن تعكس في صدق صورة المرحلة الراهنة ، ومهمة فقد سلبيات الماضي والحاضر ، ومهمة أن ترهص لصورة المستقبل التي نشدها والتي تعطى ملامح الدولة العصرية ... نريد أن نرى على شاشة التلفزيون أو السينما أو في الأدب علاقات الحب والصدقة والعمل والآمال ، وهي تدور بمنطق الثلث الأخير من قرننا الحالي ، ولا بمنطق الأربعينات أو الخمسينات ... بل نريد ، أيضاً ، أن نرى صورة هذه العلاقات ، كما ينبغي ان تكون في صورتها الأكمل عام ٢٠٠٠ .

✽ ثامننا : لا بد أن يكون هناك نوع من الردع والعقاب للذين يسيئون الى الشعب ، فكثيراً ما نسمع أن (فلانا) اختلس ، أو أن (فلانا) قصر في كذا ، وأن (فلانا) أخفى مواد تموينية أو يتاجر في السلع الاستهلاكية مستغلاً سلطاته ... ولا ينال العقاب الرادع ! لماذا ؟ يجب ألا تتساهل مع أي (مجرم) في حق الشعب .. ويجب أن نحاسبه ، وبضراوة ، حتى لا يكون هناك نوعاً من التسبب الأخلاقي ... وهذا التسبب الأخلاقي في الأساس .. سيقول قائل ربما نعطيهم الفرصة ليصلحوا

ما بأنفسهم ، لكن من الخطر وضعهم في مراكز هامة (اقتصادية ، كانت ، أم اعلامية أو فكرية) . وفي هذا المجال ، نقول أنه ينبغي أن نأخذ بيد كل ما نحس فيه بالعطاء الثورى ، والاخلاص لمصر ، والايمان بفكر التصحيح ، فهذا هو الذى يوفر الأمان للمستقبل ويصون المكاسب السياسية والديمقراطية والحريات التى حصل عليها شعبنا من خلال منجزات السنوات الخمس الأخيرة ...

وقد فطن السادات ، الى الاستعانة بالقيادات الشابة ، والنورية ، لذلك رآه قد وضع فى القيادة العديد من العناصر الثورية ، الشابة ، مثل « حسنى مبارك » ، أحد أبطال حرب أكتوبر البارزين ، والذى كان قائدا للطيران الذى قام بدور بطولى خارق فى معارك أكتوبر ١٩٧٣ ، كان اختيار السادات لهذه البطولة ، اختيارا عظيما ، عند ما نصبه كنائب لرئيس الجمهورية .. كذلك ، اختيار السادات لشخصية مثل « مسدوح سالم » ، الذى لعب دورا هاما فى ثورة التصحيح منذ قيامها ، ووضع جل جهوده فى خدمة الشرعية وسيادة القانون طوال السنوات الخمس الأخيرة .. كان اختيارا موفقا ، عندما اختاره رئيسا للحكومة .. كذلك اختياره لبوسف السباعى وزيرا للثقافة والاعلام وهو الرجل الذى ارتبط بالحركة العسكرية وتطورها منذ بداية الخمسينات كذلك هناك ، أكثر من مثل واضح ، على ذلك ، من القيادات الشابة والمخلصة ، التى اختارها لتكون فى موقع السطة ...



رحلة طويلة ، عظيمة ، قادها البطل والمعلم : محمد أنور السادات .
طائر بلا عنس ...

لا يخشى على نفسه من المستقبل ..
لا يخشى على نفسه من الأعداء ..
لا يخشى على نفسه من أى شيء ..

لأن الايمان داخله ، والهدف واضح أمامه ، والطريق تجلله الآمال
الكبار ...

فلتمضى مسيرة القائد ، والمعلم ، والبطل .. الى أنبل الغايات ..
وليحمل الشعب « المسيرة » بسياج من الحب والمبادئ القوية التي
لستمند نفسها من مبادئ « ثورة التصحيح » العظيمة ..

وليسفنى الفارس المغوار : فارس الأمل ، الى مزيد من الانتصارات ،
ومزيد من الآمال ، ومزيد من التقدم لتحرير كل شبر من الأرض العربية ،
ولبناء الدولة العصرية : دولة العلم والايمان ، التى تحقق مزيدا من
الرفاهية ، ومزيدا من العدالة ، ومزيدا من الحريات والديمقراطية لمصر ..

ليمضى الفارس والبطل ، القائد ، والمعلم . محمد أنور السادات
الى أنبل الغايات ، وأسمى الأهداف ، وأعظم الأحلام .. فهو خير عطاء
للمرحلة ، وخير عطاء لمصر ..

واذا كانت مصر هبة النيل ، فالسادات هبة مصر ، بكل ما فيها من
عطاء ، وسماحة ، وذكاء ، وعبقرية ... فلتحمل الأيام القادمة أجمل الآمال ،
وأعظم الأماني ، لمصر ، والعرب ، وبطلها يمضى بـ « المسيرة » ، الى
الأمم ، دائما ، والى النصر على طول الطريق ...

مصادر البحث

المصادر العربية

- أنور السادات ، ، رائدا للتواصل
الفكرى ...
- خطب الرئيس أنور السادات منذ
١٩٧٠ حتى أواخر مايو ١٩٧٥
- القاعدة الشعبية ...
- فن الحرب : من الحرب العالمية الثانية
الى الاستراتيجية النووية ..
- العرب والحضارة الاوربية ..
- مذكرات السادات عن سجنه في
الاربينات ...
- الرأسمالية الشعبية ..
- الفكر الذى انتصر ...
- صفحات مجهولة من كتاب الثورة ..
- تطور الحركة الوطنية في مصر : ١٨٨٢
١٩٥٦ ...
- لمحات من تاريخ العالم ...
- عاصفة على السكر ...
- رسائل الحرية ...
- مأساة دنشواى ...
- أزمة بريطانيا الاستعمارية ...
- حرب الايام الستة ...
- وثائق حرب أكتوبر
- تأليف : نبيل ياغب
- تأليف : أنور السادات
- تأليف : الجنرال أميل وانتي ترجمة :
- أكرم ديري ، والمقدم الهيثم الأيوبي
- تأليف : محمد مفيد الشوباشي
- تأليف : أنور السادات (مذكرات)
- تأليف : ت . جوزيفسون (مترجم)
- تأليف : سعيد عثمان
- تأليف : أنور السادات
- تأليف : شهيدى عطية الشبانجي
- تأليف : جواهر لال نهرو (مترجم)
- تأليف : جان بول سابر (مترجم)
- تأليف : فوليتز (مترجم)
- تأليف : برناردشو (مترجم)
- تأليف : بالم ذات (مترجم)
- تأليف : عبد الستار الطويلة
- تأليف : موسى صبرى

- دراسات حول معارك أكتوبر وآراء
العدو الاسرائيلي ...
- الثقافة في عصر النهضة ...
- بدلا من الحروف (الانستراكية
والديمقراطية ...
- الفاروق .. ملكا ...
- الجبرني وكفاح الشعب ...
- العصر النذري ..
- الحب والثورة ...
- دفاع عن الثقافة العربية ...
- فلسفتي كيف تطورت : برتراند رسل
- الى اين نسبح في الحرب في الشرق
الاطلس ؟
- قصة فتاة السويس ...
- اطلاق الحمامة : ٥ يونيو .. الملقب
السري للعدوان الاسرائيلي على مصر .
- تأملات في المستقبل الاجتماعي للبشرية
- فتاة السويس ...
- باندونج بداية الطريق ..
- الدولة والثورة ..
- في اصول المسألة المصرية ..
- اسرار الثورة العربية ..
- واقعية بلا ضفاف ..
- ابراهيم لنكون .. قائدا ، وزعيما
لامريكا
- أزمة مصر الاقتصادية ..
- الاسرار الحقيقية وراء الاسرة المالكة في
مصر
- حرب التقصير في اسرائيل
- بقلم : انيس منصور
- تأليف : جاكوب بورخاردن (مترجم)
- تأليف : انورين بيفان ، ترجمة كامل
زهيري
- تأليف : جمبل بهجت
- تأليف : محمود الشراوى
- ترجمة : مجدى نصيف
- تأليف : هريوت ماركوزا (مترجم)
- تأليف : فتحى خليل
- تأليف : برنارد رسل . ترجمة
عبد الرشيد الصادق
- (مترجم - موسكو ١٩٦٩)
- تأليف : د. مصطفى الحفناوى
- تأليف : ا. بيلياف ، ت. كوليسنيشنكو
ي. بريماكوف (مترجم)
- تأليف : ش. جيرمان (مترجم)
- تأليف : جالينانكتينا . ترجمة :
ابراهيم عامر
- تأليف : عادل ثابت
- تأليف : فلاديمير البتس لينين ،
ترجمة محمد العيثاني
- تأليف : صبحى وحيدة
- تأليف : امين سعيد
- تأليف : روجيه جارودى (مترجم)
(مترجم)
- تأليف : د. عبد الرازق حسن
- (مترجم - بيروت)
- (مترجم)

- دراسات في حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ في الشرق الأوسط بين العرب (مجموعة مقالات لاجال لون)
- الحرب في سيناء ..
- التنمية الاقتصادية في مصر ...
- ما العمل .. ؟ ..
- تطور الحركة القومية في مصر ...
- مجموعة كتب جمال عبد الناصر التي ألفها منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٦٩
- القومية والوحدة في الحركة القومية العربية الحديثة ..
- { مقالات عن إسرائيل ونظور اقتصادها وفنونها العسكرية ...
- الاقتصاد السياسي ..
- جريدة العروة الوثقى ..
- مجموعة جريدة الأهرام (لسنوات : ١٩٤٦ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥)
- مجموعة جريدة الجمهورية (لسنوات : ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠)
- هوامش على دفتر النكسة
- الاقتصاد الرأسمالي
- مجموعة أعداد مجلة الطليعة والكاتب في الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤ ...
- الأسلحة النووية ومستقبل الإنسان ..
- سلامة موسى . أزمة الضمير العربي .
- حركة التحرر الوطني والاشتراكية ..
- ندوة أرنولد توينبي حول حركة التحرر الوطني والحضارة العربية ، التي أقيمت أثناء زيارته للقاهرة وتم تسجيلها .
- النظرية السياسية عند هيوم
- تأليف : محمد فتحى الشنيطى
- تأليف : موسى ديان (مترجم)
- تأليف : فحى محمد ابراهيم
- تأليف : فلاديمير الشش لينين (مترجم - طبعه موسكو)
- تأليف : عبد الرحمن الرافعى
- للدكتور جمال حمدان
- تأليف : ليونتييف (مترجم)
- مجموعة مقالات جمال الدين الافغانى
- تأليف : نزار قباني (١٩٦٧ - بيروت)
- تأليف : س . بيجودسكى (مترجم)
- تأليف : لينوس باولنح (مترجم)
- تأليف : غالى شكرى
- تأليف : فلاديمير . بولاراسكى (مترجم)

- الصناعات الثقيلة ، دعامة الاقتصاد الوطني في المستقبل ..
- تأليف : بريس رايلين
- صوت المعركة .. مجموعة حواريات برنامج صوت المعركة ، الذي يقدم من القاهرة : حمدي الكنيسي
- حول أزمة المثقفين
- تأليف : محمد حسنين
- مذكرات محمد نجيب ...
- تأليف : محمد نجيب
- المثل الأعلى للحضارة العربية ...
- تأليف : د. محمد يس
- نظرية العمل لاسترداد فلسطين ...
- تأليف : صبحي ياسين (مترجم بيروت)
- النازية الحديثة ، واليهودية المعاصرة
- ذكريات واحاديث ... من خلال زيارات لقرية السادات (ميت أبو الكوم وطوخ دلقة) ...
- الكفاح السري ضد الانجليز
- تأليف : د. جلال يحيى
- بعض أشرطة مسجلة عن الناصرية ، أذيعت في بعض الإذاعات العربية ...
- الثورة العربية ...
- تأليف : د. جلال يحيى
- بعض مقالات عن الثورة العربية ، وحركة التحرر الوطني التي نشرها كتاب مصريون في بغداد
- مجموعة أعمال ((الصبياد)) ، ((الحوادث)) ، ((الدستور)) ، منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ (بيروت) ...
- تناقضات مصرنا الراهنة
- تأليف : مارك روزنتال

المصادر الأجنبية ..

- Modern world — After the second world war, Methods and policies (Recontre), paris.. By vayticekeotnis. .
- Afro — Asian Movement (Goushe)...
- Problèmes actuels du Marxisme (copyright : Presses universitaires de france, Par : Henri Lefebvre.
- What could Be Done, By: Aldous Huxsly.
- The year of stalingrad, Russian mentalitry, Methods and Policies, Mamish Mamilton, London its critics — an Essay in Exploration, By : T.A. Jakson, London.
- Along Row of Candles, Memoirs and Diaries, By : S.L. Clsulzberger ...
- La structure sociale et L'expression artistique, Par : Zaloscer.
- A Bdave new world, By Aldous Huxsly.
- Oeuvres Complètes De Kr Marx, oeuvres Philosophiques.
- Davar Gazzete (Isreal Postepress).
- Report from The Gallows, Julius fucik, Translated from the czech, By stephen Jolly.
- Sartre et sesprises de position politiques.
- Man Makes Himself, By : Gordon child.
- Three Essays in the Marxism and Seninisme (Moscow, 1969).
- Daily Mail, 30 July 1956, London.
- Daily Worker, January, 1952.

The Economist (1954, 1955, 1959, 1971, 1974 1975).

Time (1954, 1959, 1970, 1974, 1975).

The Daily News (1967, 1970).

Daily Express (June 1967, July 1970).

Jews Week (28 Feb. 1972).

Hall Hamshmar (1973).

Hall Hamshmar (1973).

Power, anew social analysis, Bertrand Russel (London — Great Allen & Unwin Ltd).

Go Where, And When. ?, By H. Murkouza, five Essays about the Revolution and duty in the Modern Society.

The Great Fruit, By : E. Allon (Paris -- 1974).

The sources of Marxisme -- Leninisme and its Pratiques.

The sources of Marxisme — Leninisme and its Pratiques, in the modern World, By Mouris Corniforth (London).

Who is the Great Boss ?, Sex articulated & views about America & Europe after the second World war (Newyork, Press etc, 1971).

فهرس

سجة

٤	أهداء
٥	مقدمة : السادات - فارس الامل
٤١	الفصل الأول : من القرية الى الرئاسة
٧١	الفصل الثاني : محاكمة السادات .. ومصر على الصليب
١٠٣	الفصل الثالث : الفكر الذى قاد الى الهزيمة والفكر الذى انصر
١٧٥	الفصل الرابع : التصحيح حركة اجتماعيه وسباسبية أم ثوره شامله
٢٢٣	الفصل الخامس : أكتوبر والخلاص بالعبور
٣٠٥	التصحيح
	الفصل السادس : خطر البسار التفليدى والبمين الرجعى على ثورة
٣٣٥	الفصل السابع : السادات مفكرا وقائدا ومعلما ثوريا
٣٨٧	الفصل الثامن : السادات فى مرآة العالم
٤١٧	الفصل التاسع : السادات والدولة العصرية
٤٤٣	الفصل العاشر : السادات .. الى أين ؟
٤٧٣	مصادر البحث (العربية)
٤٧٧	مصادر البحث (الأجنبية)

١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /

١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /
١٩٧٥ /

دار
الشعب
٩٤ شارع قصر العيني بالتاهرة
٣١٨٢٠



Publication of the Alexan. Int. Lib. (1975)
Alexandria, Egypt

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٤٩٥٧

هكذا الكتاب



هذا الكتاب، محاولة للاقترب من قلب وفكر السادات : القائد ، والمعلم ، والمفكر والانسان .. عطاء لا ينبل وأسمى ما في شعبنا من ثورية ونضال ونفهم .. فارس الامل الذي عبر بمصر الى نفسها ، وخرج بها من العتمة الى النور ، لتبنى وتشيد دولة العلم والايمان .. رحلة شاقة ومضنية وعظيمة ، بدأت مسيرتها في قرية « ميت أبو الكوم » عام ١٩١٨ ، وحملت كل ما في القرية من نقاء وحب الى المدينة ، وعاشت انتفاضات وفورات وثورات مصر الوطنية ، ابتداء من ١٩١٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٥ ، الى ١٩٤٦ و ١٩٥١ ، الى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى ثورة الناصح في ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ التي قادت مصر الى النور والانفتاح والانطلاق ..

ومن القرية الى الرئاسة ، ومن حياة الرئيس في صباه وشبابه الى الاشتغال بالسياسة والنضال ضد السراى والرجعية والاحتلال ، الى محاكماته في الاربعينات لنضاله من اجل مصر ، الى اشتراكه في معارك الكفاح المسلح في القناة عام ١٩٥١ ، الى اشتراكه القيادي في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى مشاركته في مختلف مجالات البناء والتغيير الثورى كمناضل وثورى وصحفى وكاتب في الخمسينات والستينات ، الى انتخابه رئيسا للجمهورية في اكتوبر ١٩٧٠ ، الى تجميعه لمختلف القوى الوطنية وتوحيد صفوف الشعب وتكتيل كافة الجهود العربية والعالمية لكسب الثقة والتأييد والتعاطف بالنسبة للقضية العربية لحل متناقضاتها ، الى الخلاص بالعبور في اكتوبر ١٩٧٣ واسقاط أسطورة الوهم العسكرى الاسرائيلى عن خرافة الجيش الذى لا يقهر الى تأكيد كافة الظروف التى تضمن للمواطن العمل في حرية وامان وممارسة الشعب للديمقراطية السليمة ، الى كافة الجهود التى تبذل محليا وقوميا وعالميا من اجل الوصول الى حلول بالقضية العربية تكفل انتهاء حالات التوتر والالتهاب في الشرق الأوسط وتضمن تحرير الشعب العربى من الصهيونية والامبريالية ..

عبد المنعم صبحي